

المجلد رقم (٤٢) ـ ٢٠٠٤م ـ ٢٠٠٥م

الناشــر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع الطيران : الحى السابع – مدينة نصر

تليفون : ٢٨٧٨٥٥٣ – ص. ب : ٢٠٢٢ – القاهرة

المدير المسئول : محمـد رشاد

التصميم والغلاف : محمـد حجى

التصحيح والمراجعة : محمد فتحى

التوزيع فى مصر

الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الخالق ثروت – القاهرة

تليفون : ٣٩١٠٢٥٠

برقيًا : دار شادو – ص – ب : ٢٠٢٢ – القاهرة

e-mail INFO@ALMASRIAH.COM

www.almasriah.com

المراسلات والتوزيع الخارجى

أوراق شرقية

بيروت – النويرى – شارع العريسى

ص. ب: ١١/٣٠٣١ – هاتف : ٦٣٠٧٩٤ – ٦٤٤٤٢٢ – برقيًا : Distlevan

المدير المسئول : محمود عطوى

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب – ٩٩/٩٤٤٠

الترقيم الدولى : 977-5366-11-9



تُصْدرُها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

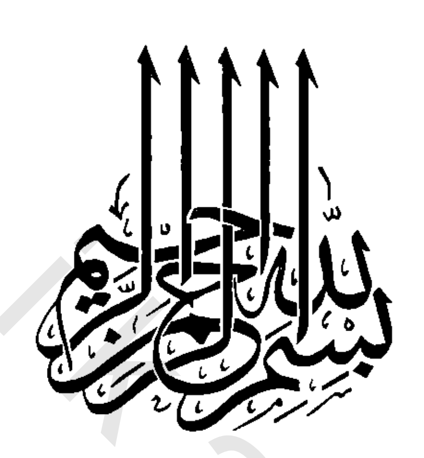
المراسلات ـ الأستاذ الدكتور / رءوف عباس حامد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلوك ٧ – المنطقة التاسعة – مدينة نصر – القاهرة

تليفون : ٦٧٠٧٢٩٤ – ٦٧٠٧٢٩٦ – فاكس : ٦٧٠٧٢٩٨

Email: Egyhisstu@masrawy.com


بسم الله الرحمن الرحيم


obeikan.com

تقـــديم

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن يقدم للمهتمين بالدراســات التاريخــية على مختلف تخصصاتهم المجلد رقم (٤٢) من « المجلة التاريخية المصرية » .

وهــذا المجلــد ، يتضــمن اثــنى عشرة دراسة متنوعة تتناول عددًا من الموضــوعات فى مختلف فروع تخصصات التاريخ ، والذى قام بكتابتها: نخبة من أساتذة التاريخ فى مصر والعالم العربى .

وتــأمل الجمعية أن يحوز هذا المجلد مثل سابقيه رضاء الباحثين والقراء ، كما تأمل أن يساهم الباحثون والمتخصصون ببحوثهم فى أعداد المجلة القادمة، وأن تــتلقى الاقــتراحات والآراء حول ما يضيف إلى المجلة الجديد فى حقل البحث التاريخى والدراسات التاريخية الجادة .

والله والوطن العزيز من وراء القصد

أسرة التحرير

وفاءٌ ورثـاء

بيــنما كان هذا العَدَد من « المجلة التاريخة المصرية » ماثلاً للطَّبْع ، فُجعَ المشتغلون بالدِّراســات التاريخــية برحــيل عالِم جَليلٍ ومؤرِّخٍ فَذّ ، هو شَيْخ المُؤرِّخين وعميد الدِّراســات اليونانية والرُّومانية، ورئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لأكثر من عشرين عامًا **المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم نُصْحى قاسم** (١٩٠٧ - ٢٠٠٤م) .

وُلِــدَ الدكتور إبراهيم نُصْحى فى الثانى عشر من مايو سنة ١٩٠٧ ، وأتَمّ دراسته العُلــيا فى الجامعــة المصــرية ، ثم فى جامعة ليفربول وجامعة لندن بالمملكة المتحدة ، حيــث حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه سنة ١٩٣٤ وكان عنوان رسالته The Arts in Ptolemaic Egypt .

وبعــد عَوْدتــه إلى القاهرة تَدَرَّجَ فى مناصِب هيئة التَّدريس بالجامعة المصرية حتى حَصَــل على كرسى أستاذ التاريخ اليونانى والرومانى فى أكتوبر سنة ١٩٤٦م . وعند إنشــاء جامعة إبراهيم (عين شمس الآن) عُيِّن الدكتور إبراهيم نُصْحى فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ كأوَّل عميد لكلية الآداب بالجامعة، وظَلَّ فى منصبه حتى سبتمبر سنة ١٩٥٤م، واستمرَّ بعد ذلك أستاذًا للتاريخ اليونانى والرومانى، ورئيسًا لقسم التاريخ بكلية الآداب جامعــة عين شمس حتى سبتمبر سنة ١٩٦٦ ، وأصبح أستاذًا متفرغًا بنفس الكلية منذ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى وفاته فى ١٨ مايو سنة ٢٠٠٤م .

وعمــل الدكــتور إبراهيم نُصْحى أستاذًا زائرًا ومُحاضِرًا فى العديد من الجامعات العربية والأجنبية مثل جامعات ييل Yale وبرنستون Princeton وميتشجن Michigane بالولايات المتحدة الأمريكية وجامعة لندن ، وجامعة صنعاء باليمن .

وأعير الدكتور إبراهيم نُصْحى أستاذًا للتاريخ اليونانى والرومانى بالجامعة الليبية ببنى غازى بين سنتى ١٩٦٦ - ١٩٧٣م .

والدكـــتور إبراهـــيم نُصْحى من الأعضاء المؤسسين للجمعية المصرية للدراسات التاريخـــية وكان عضوا فى أوَّل مجلس إدارة للجمعية شُكِّلَ فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٦ ، كما كان عضوًا مُراسلاً لجمعية الآثار اليونانية بآثينا منذ عام ١٩٣٨ ، ولجمعية الوثائق الهــندية منذ سنة ١٩٥١ . واختير عضوًا بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة) منذ عام ١٩٥٦ ، وأصبح مقرِّرًا لهذه اللجنة مـــنذ سنة ١٩٨٠ وحتى سنة ١٩٩٠ ، واختير كذلك عضوًا بشعبة التراث الحضارى والـــثقافى بـــالمجلس القومى للثقافة منذ أوَّل اجتماع لها سنة ١٩٨٣ حيث اختير مقرِّرًا للجنة الأبحاث التاريخية المُنبثقة من هذه الشعبة .

وانتُخـــــب الدكـــتور إبراهيم نصحى عُضوًا فى المَجْمَع العلمى المصرى فى سنة ١٩٩٠. وحَصَـــل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٩٤، كما حَصَل على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة ١٩٦٨ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٩٥ .

وأثْـــرى الدكـــتور إبراهيم نصحى المكتبة التاريخية بالعديد من المؤلَّفات والأبحاث الأصـــيلة فى الـــتاريخ اليونانى والرومانى باللغتين العربية والإنجليزية ، يأتى فى مقدمتها رســـالته للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة لندن عن : « الفن فى مصر فى عصر البطالمة » والـــتى أصدرتها مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩٣٧ ، وكتابه المرجع : « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » الذى صَدَر فى خمس طبعات بين سنتى ١٩٤٦ و ١٩٨١ ، وكتاب: « تاريخ الرُّومان » الذى صَدَر لأوَّل مرة فى جزأين عن الجامعة الليبية ببنى غازى سنة ١٩٧١ - ١٩٧٣ .

كان الدكتور إبراهيم نصحى آخر جيل الرُّواد الذين تَخَرَّج على أيْديهم أجيالٌ من المؤرِّخـــين لا فى مصـــر وحدها بل وفى العالم العربى على امتداده ، وكان يتمتع بسعة الأفق وسماحة الخُلُق وتواضع العلماء .

إنَّ زملاء وتلاميذ الفقيد الراحل من أساتذة الجامعات ومن أعضاء الجمعية المصرية للدراســـات التاريخية ورُوّادها ، يُقَدِّرون فجيعتنا بل وفجيعة العالم العربى كلّه لوفاته ، ويَضْرَعون إلى الله جلت قدرته أن يتغمده برحمته وغفرانه ، ويتقدمون بخالص التعازى إلى أسرته ومحبيه وعارفِى فَضْله .

حركة المختار الثقفى
وملامح الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعة والموالى

إعداد الدكتور
صلاح العاوور
مدير منطقة خان يونس التعليمية
بجامعة القدس المفتوحة


obeikan.com

حركة المختار الثقفى
وملامح الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعة والموالى

ملخص البحث

تعتبر ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفى فى الكوفة (٦٤هـ - ٦٧هـ / ٦٨٤م – ٦٨٦م) من أكثر أحداث القرن الأول الهجرى أهمية ، فقد ساهمت بدرجة كبيرة فى تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية ، كما أن لها تأثيرًا مهمًّا فى التاريخ الاجتماعى والسياسى للفترة الأموية خاصة ، والتاريخ الإسلامى عامة .

كانت ثورة المختار عربية فى كيانها ضمت الموالى إليها وارتبطت بواقع الكوفة القبلى ، وقامت باسم العلويين ودعت لمحمد بن الحنفية ، وجاءت بعد فشل حركة التوابين ، وتمكنت من قتل كل من قتل وساهم فى قتل الحسين بن على والانتقام منهم ، وانتهت هذه الثورة على يد ابن الزبير .

لم يكن أهل العراق على وفاق مع بنى أمية ، وذلك لسببين : إقدام الأمويين على قتل الحسين بن على ، ونزوع غالبية أهل العراق إلى عداء الأمويين ، كونهم من المضرية الذين هاجروا إلى العراق من الحجاز ، فى حين أن أنصار الأمويين من اليمنية فى العراق كانوا أقلية . فبعد موت يزيد أخرج أهل البصرة ابن زياد ، واضطروه للرحيل إلى الشام على الرغم من تمسكه بالحكم فيها [1]، كما حصب أهل الكوفة أنصار الأمويين.

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٣٢٠.

انتخب أهل الكوفة عامر بن مسعود واليًا عليهم ، وكتبوا باختيارهم إلى ابن الزبير فأقرهم على ذلك [١] وبهذا خرجت الكوفة والعراق من يد الأمويين ، وقد استمرت ولاية عامر على الكوفة مدة ثلاثة أشهر ، ثم ما لبث ابن الزبير أن وجه إليها واليًا جديدًا من قبله ، هو عبد الله بن يزيد الأنصارى [٢] .

إن تأييد العراقيين للحركة الزبيرية كان تعبيرًا عن سخطهم على البيت الأموى ، وليس إقرارًا بالولاء القاطع لابن الزبير . لذا ، كانت الشخصية العراقية الصرفة تحاول تحقيق وجودها بعيدًا عن الأمويين والزبيريين معًا ، ويبدو أنها قد وجدت فرصتها فى حركة التوابين . فقد شكلت فاجعة مقتل الحسين نقطة البدء فى نشأة هذه الحركة ، إذ رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين ، أنه لن يغسل عنهم عار فعلتهم إلا الثأر والانتقام من قتلته أو الموت دون ذلك [٣]. فتجمع بعضهم عند قبر الحسين طالبين التوبة والغفران من الله تعالى ، وتسموا بـ (التوابين) ، نسبة إلى قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٤] ، وقد تزعم حركة التوابين سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شكل سليمان بن صرد الخزاعى منافسًا كبيرًا للمختار الثقفى ، فقد كان له السبق فى الدعوة إلى المطالبة بدم الحسين ، نظرًا لكبر سنه وتاريخه الحافل ، وبذلك ، فقد استعصى على المختار القيام بجمع الشيعة حوله ، إلا أنه لم يُسلّم بالأمر الواقع ، بل دأب فى العمل وفقًا لخططه الخاصة . إذ بدأ يفرق الشيعة عن سليمان بن صرد من خلال تأكيده لهم بأنه أُرسل إليهم من قِبل ابن الحنفية ، وأن سليمان رجل كبير السن، وليس له خبرة بالحرب ، وأنه يريد أن يخرجهم ، فيقتل نفسه ويقتلهم [٥] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص ٥٢٤ .
(٢) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٥٢٩ .
(٣) مروج الذهب : المسعودى ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .
(٤) سورة البقرة : آية ٥٤ .
(٥) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٦٨ – ٦٩ .

إن الجهود التي بذلها المختار في هذا الاتجاه قد أحرزت نتائج ملموسة ، فقد انسحب من معسكر سليمان بن صرد عدد كبير ممن سبق وعقدوا له البيعة ؛ إذ تشير الروايات بأنه قد تجمع في معسكره قبل خروجه لقتال عبد الله بن زياد أربعة آلاف فقط من مجموع ستة عشر ألفًا كانوا قد بايعوه [(١)] . ومع أن كلاً من المختار الثقفي وسليمان بن صرد كانا يدعوان للمطالبة بدم الحسين بن علي (رضي الله عنه) ، إلا أنهما كانا يعملان في اتجاهين مختلفين . فبسبب العلاقات القبلية بين أتباع سليمان ابن صرد وبين أشراف الكوفة ، فقد رفض سليمان احتلال الكوفة ، والقضاء على أولئك الذين شاركوا في مقتل الحسين بن علي [(٢)] ، وادعى أن ابن زياد وأهل الشام هم المسئولون عن مقتله . أما المختار الثقفي فقد كان يستعد للسيطرة على الكوفة ، الأمر الذي ساعده على كسب ولاء عدد من أتباع سليمان بن صرد .

وجد عبد الله بن الزبير في حركة التوابين فرصة عظيمة لتقوية نفوذه بشكل عام ، لأن إخماد هذه الحركة سيشغل الأمويين عنه ، كما أن جهودهم في هذا الاتجاه ستستنفد قدرًا كبيرًا من طاقتهم القتالية التي قد يوجهونها ضده . لذا ، وبتوجيه منه ، قام عامله على الكوفة عبد الله بن يزيد – حين علم بتحركات التوابين – [(٣)] في الناس خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لي : زعموا أنهم يطالبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُللت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل : ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ! فوالله ما أنا قتلت حسينًا ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ! فإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ، هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه

---

(١) أنساب الأشراف : البلاذري ، ج٥ ، ص ٢١٨ .

(٢) المصدر نفسه : ج٥، ص ٢٠٩ .

(٣) خلافة بني أمية : نبيه عاقل ، ص ١٤٠ .

إليكم ، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فقتاله والاستعداد لـه ، أولى وأشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضًا ، ويسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم ذلك العدو غدًا وقد رققتم ، وتلك والله أمنية عدوكم ، وأنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، ومن قبله أتيتم ، والذى قتل من تثأرون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم ، إنى لم آلكم نصحًا ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا ! "[١] .

وهكذا ، نجح عبد الله بن يزيد بخطابه هذا فى تجنب لقاء ابن زياد الذى كان يقود حملة أنفذها مروان بن الحكم لاستعادة العراق ، ووضع هذا العبء على كاهل التوابين دون أن يتكلف هو عناء ذلك . هذا فضلاً عن أنه استطاع بذلك أن يخلص السلطة الزبيرية فى العراق من فئة خارجة ، لا تقر لابن الزبير بالخلافة ، وتراها من حق آل البيت .

وقد بلغت عبيد الله بن زياد أخبار وفاة مروان بن الحكم وهو فى طريقه إلى العراق ، فثبته خليفته عبد الملك بن مروان فى المهمة التى سبق وأن أوكلت إليه ، وأمره أن يسير إلى لقاء أعدائه فى العراق . وبعد أن خرج سليمان بن صرد وأتباعه لقتال ابن زياد وأهل الشام ، أثارت نشاطات المختار شكوك أشراف أهل الكوفة الذين اشترك كثير منهم فى مقتل الحسين . فقد حذروا الوالى عبد الله بن يزيد من المختار وحركته ، قائلين : " إن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد ، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم ويذللهم لكم ، وقد خرج عن بلادكم ، وأن المختار إنما يريد أن يثبت عليكم فى مصركم " [٢] . ونتيجة لذلك قُبض على المختار ، وأودع السجن لينظر فى أمره بعد رجوع أتباع سليمان بن صرد من معركة (عين الوردة) التى قُتل فيها سليمان ومعظم أتباعه .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص٥٦١ — ٥٦٢ .

(٢) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢١٨ .

وفى أثــناء سجنه كانت هناك جمعية من خمسة أعضاء [*] – كلهم من عرب اليمن يعملــون لصـــالح المختار ويأخذون البيعة لــه . كما أن المختار نفسه كان يعمل من ســجنه بنشاط ، مدعيًا بأسلوب نثرى مسجوع ، أن هدفه هو قتل كل جبار من أجل إقامة عمود الدين ، ولمّ شعث المسلمين بمساعدة أتباعه الذين سماهم: (الأنصار)[١] .

الــتقى الــتوابون بقيادة سليمان بن صرد بجيش الأمويين بقيادة الحصين بن نمير فى (عــين الــوردة) فى سنة ٦٥هـــ من أرض الجزيرة [٢] ، فاستبسل التوابون فى القتال ، وكـــان شعارهم : " الجنة الجنة " ، فقُتل منهم عدد كبير من بينهم سليمان بن صرد ، وهـــرب الباقون [٣] . وقد سر عبد الملك الذى تولى الخلافة فى الشام بعد مروان بهذا النصر ، فأبقى ابن زياد فى منصبه ، وولاه الكوفة على أمل أن يفتح له العراق[٤] .

المخــتار رجــل من ثقيف ، وهو ابن أبى عبيد الثقفى شهيد معركة الجسر ، كان عمره حين قتل أبوه ثلاث عشرة سنة [٥] .

وقــد ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى فى ميدان السياسة سنة ٦٦هـــ . وكان ذا أطماع كبيرة ، كما أنه تقلب كثيرًا فى الأحزاب [٦] .

لقد أورد المؤرخون روايات متباينة ترسم للمختار صورة الزعيم الميكافيلى المتطفل الذى يزعم أنه يوالى بنى هاشم ، مع أنه كان يعمل لحسابه الخاص [٧] ، فذكروا أنه فى شبابه قد حرّض عمه: عامل المدائن على خداع الحسن وتسليمه إلى معاوية[٨] .

(*) وهــم : السائب بن مالك الأشعرى ويزيد بن أنس الأسدى وأحمد بن شميط الأحمس ورفاعة بن شداد الفتيانى وعبد الله بن شداد الجمحى .

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٦٩ .

(٢) معجم البلدان : ياقوت الحموى ، ج٦ ، ص ٢٥٨ .

(٣) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٣٤٣ .

(٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج٢ ، ص ٣١٩ .

(٥) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٦) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم حسن ، ج١ ، ٣٢٨ .

(٧) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٢٩٢ .

(٨) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٢٠٣ .

وحين بعث الحسين بن على ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، بايع المختار مسلمًا سرًا ، وأنزله فى داره ، وكان جزاؤه على ذلك أن زج به عبيد الله بن زياد فى السجن ، وبقى فى سجنه حتى مقتل الحسين . وقد سعى له الخليفة يزيد بن معاوية من أجل إطلاق سراحه ، فكتب الخليفة إلى عبيد الله بن زياد بتخلية سبيل المختار ، على أن يمهله للبقاء فى الكوفة مدة ثلاثة أيام ، وبالفعل فقد أُطلق سراحه وغادر الكوفة قاصدًا الحجاز، وفى نفسه حقد كبير على عبيد الله بن زياد (١) . وبعد موت الخليفة يزيد كتب المختار إلى على بن الحسين ليبايع له ، فأبى ابن الحسين وتبرأ منه فى مسجد المدينة (٢) .

وأخيرًا، اتصل المختار بابن الزبير وحاول أن يبايعه ويدخل فى خدمته ، وأن يوزر له، فلم يجد تجاوبًا لدى ابن الزبير ، لأن الأخير كان قليل الثقة بالمختار ، فأعاد الكرة بعد سنة ، فتم له ما أراد ، وغدا من رجاله (٣) ، ولكنه لم يحقق مآربه بأن يكون وزيره ومحل ثقته .

ومكث المختار مع ابن الزبير حتى كان حصار الحصين بن نمير لمكة ، فقاتل إلى جانب ابن الزبير وأبلى بلاءً حسنًا ، وظل معه حتى انصرف الحصين وأهل الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية .

ولما لم يجد المختار من ابن الزبير ما كان يصبو إليه ، رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة ، وهناك استغل ثورة التوابين لتحقيق أهدافه الرامية للنيل من ابن الزبير والأمويين ، واستتر لأجل ذلك وراء ابن الحنفية ، وادعى أنه أميره ووزيره ، وبذلك ، يكون قد وقف فى وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وفى المقابل ، اجتمعت الشيعة تحت لوائه ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول فى الدعوة التى تصدرها ابن الزبير فى مكة (٤) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص ٥٧٣ .
(٢) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٧٢ .
(٣) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٢١٧ .
(٤) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ، ص ٣٢٨ .

ومن المرجح أن المختار بعد مقتل الحسين قد وضع نصب عينيه الثأر ممن سفكوا دم الحسين ، فكان شعار دعوته : " يا لثأرات الحسين " . ويبدو أن المختار قد تمسك بهذا الهدف ، حيث خصص أبو مخنف لذلك كتابًا سماه : (رسالة أخذ الثأر، وانتصار المختار على الطغاة الفجار) . ويظهر أن ابن الحنفية – بعد هزيمة التوابين – قد اصطنعه لنفسه ، ليأخذ له بثأر أخيه ، ليقينه بمدى حماسه لذلك ، فأمره بالمطالبة بدم الحسين ، والأخذ بثأره والانتقام من قتلته ، وملاحقتهم حيث كانوا ، وسماه (كيسان) ؛ لكياسته وإخلاصه لمذهبه ، كما أنه أمر شيعة الكوفة بنصرته . وقد كان المختار يشعر بثقل عبء تلك المهمة ، فيقول : " أنا ملاح السفينة " . يضاف إلى ذلك أنه كان يصل آل البيت بالمال ، وأن أغلبهم كانوا يثنون عليه [١] .

كتب المختار – وهو فى السجن – إلى من بقى من أتباع سليمان بن صرد وبعد عودتهم إلى الكوفة ، كتابًا ثمن فيه جهودهم ، ووعدهم فيه بالثواب قائلاً : " أما بعد ، فمرحبًا بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا . أما ورب البنية التى بنى ما خطا خاط منكم خطوة ، ولا رتا رتوة ، إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا " . إن سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذى به تُنصرون ، إنى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار ، فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء ، وجهاد المحلّين والسلام " [٢] .

وقد أطلق سراح المختار بوساطة سعى فيها صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وبكفالة عشرة من وجهاء الكوفة وأشرافها ، وبعد أن أقسم بالله قال : " ... لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ، ومماليكه كلهم ذكرهم وأنثاهم أحرارًا "[٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٧١ – ٧٥ .

(٢) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص ٦٠٦ .

(٣) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢١٩ .

بدأ المختار يستعد للسيطرة على الكوفة فى محرم ٦٦هـ / آب ٦٨٥م ، فأرسل إلى أتباعه بهدف جمعهم فى الدور حوله ، وبينما هو منشغل فى الاستعداد للثورة ، انتاب جماعة من الشيعة من بين أتباعه شك فيما ادعاه بأن ابن الحنفية قد أرسل إليهم، ولذلك، قرروا المسير إلى مكة لسؤال ابن الحنفية عن حقيقة ما ادعاه المختار . وقد كان جواب ابن الحنفية لهم : " ... فوالله، إن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ... " (١) . ويبدو أن الوفد قد اعتبر تصريح ابن الحنفية هذا بمثابة موافقة منه لوقوفهم إلى جانب المختار وتأييده ، على أساس أنه لو كرههم فى هذا الأمر ، لمنعهم من الانضمام إلى المختار وتأييده .

وقد كانت هذه المشورة قد حدثت دون علم المختار . ولما علم بها ، انتابه قلق شديد خشية أن يكون جواب ابن الحنفية قد جاء بما يتعارض مع خططه ، لذلك، حاول أن يعلن ثورته قبل رجوع الوفد ، فلم يستطع ذلك .

وبعد شهر عاد الوفد وأخبر المختار بأن ابن الحنفية أمرهم بتأييده ونصرته . عند ذلك تنفس المختار الصعداء ، فجمع الشيعة وأذاع لهم تأييد ابن الحنفية له . وقد أكد ذلك رئيس الوفد وأتباعه الذين خطبوا بهذه المناسبة .

مما لا شك فيه بأن جواب التأييد الذى جاء به الوفد قد ساهم فى رفع مكانة المختار ، وزاد من عدد أتباعه . لأنه شجع أولئك الذين شكوا فى ادعاءات المختار حول حقيقة عمله لصالح ابن الحنفية على الانضمام إليه ، أو على الأقل تعاطفهم معه ومشاركتهم له فى مشاعرهم (٢) .

وحتى يتمكن المختار من مواجهة الوالى وأشراف الكوفة ، كان ينبغى عليه أن يحصل على تأييد ومؤازرة إبراهيم بن مالك بن الأشتر . وكان إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر – أحد أشراف قبيلة النخع من مذحج – ، من مؤيدى على بن أبى طالب . وكان إبراهيم كوالده ذا نفوذ كبير فى قبيلته . وقد رافق والده فى موقعة (صفين) إلى جانب الإمام على ، وبقى مخلصًا له ولأفراد بيته . ويمكن تفسير عدم

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ج٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٧٢ .

انضمام ابن الأشتر إلى سليمان بن صرد ، أو إلى المختار الثقفى ؛ انطلاقًا من أن ابن الأشتر لم يكن يؤمن بالحركة الشيعية كما كانت آنذاك ، وربما لأنه لم يكن يثق بأى من هذين الزعيمين ، أو أنه اعتبر نفسه فى موقع يوازى مكانتهما ، إن لم يكن يفوقهما كفاءة .

ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، الجواب الذى أعطاه ابن الأشتر لأتباع المختار عندما سألوه الانضمام إلى حركتهم . فقد أرسل المختار إليه وجهاء الشيعة والمتنفذين من أتباعه ، ومن بينهم : عامر الشعبى وأبوه ، وعندما سألوه الانضمام إليهم أبدى موافقته على ذلك ، ولكنه اشترط أن تناط به قيادة الحركة . وردوا عليه بعدم إمكانية ذلك ، طالما أن المختار كان قد أرسل إليهم من قبل المهدى محمد بن الحنفية . ورغم شرط ابن الأشتر هذا ، حاول المختار أن يكسبه إلى جانبه ، فسعى إلى التوفيق بين مراده وبين مطلب ابن الأشتر ، حيث ذهب بعد ثلاثة أيام بصحبة عدد من أتباعه إلى ابن الأشتر حاملين له رسالة تخصه، ادعوا فيها أن ابن الحنفية كتبها له . ونص هذه الرسالة هو: " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد، فإنى قد بعثت إليكم بوزيرى وأمينى ونجيى الذى ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى ، وأجبت دعوتى ، وساعدت وزيرى ، كان لك عندى بذلك فضيلة ، ولك بذلك أعنة الخيل ، وكل جيش غاز، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة أقصى بلاد أهل الشام، وعلى الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكًا لا تستقيله أبدًا ، والسلام عليك " [(١)] .

وقد شهد جميع الذين وفدوا مع المختار أمام ابن الأشتر بأنهم شاهدوا ابن الحنفية وهو يكتب الرسالة له ، فقبلت الرسالة دون اعتراض .

---

(١) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٢٢ .

ولكن ابن الأشتر أشار إلى أن ابن الحنفية سبق وأن كتب لـه ، كما أنه كتب إلى ابن الحنفية قبل اليوم ، فما كان يكتب إلاّ باسمه واسم أبيه . بناءً على ذلك ، طلب من المختار توضيحات أكثر حول هذا الموضوع ، فأجابه : إن ذلك زمان وهذا زمان. ومع ذلك فقد طلب ابن الأشتر من عامر الشعبى بأن يشهد على ما ادعاه الشهود : وهو أن ابن الحنفية كان قد كتب الرسالة . ويبدو أن التوضيحات التى أوردها المختار بشأن ذلك ، وشهادة الشهود ، قد أقنعت ابن الأشتر . وقد شكل هذا الحدث بداية لتحالف ابن الأشتر مع المختار وتعاونه معه ، حيث بدأ يحضر الاجتماعات فى بيته .

لقد اجتمع رأى المختار وأصحابه على إعلان الثورة ، وحددوا يوم الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ٦٦هـ موعدًا لانطلاقها ، ولكن يبدو بأن استعدادات المختار للثورة لم تغب عن عيون صاحب شرطة الوالى ، إلا أنه لم يكن يعرف الموعد المحدد لها بالضبط .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٦هـ ، ذهب ابن الأشتر ومجموعة من أتباعه تقدر بمائة فرد ، وأخفوا أسلحتهم فى بيت المختار كعادتهم . ولم يحاول ابن الأشتر تحاشى قوات الوالى ، ربما كتحدٍ له . وفى طريقه إلى هناك التقى بإياس بن مضارب وشرطته الذين حاولوا منعه من المرور ، وطالبوه بالاستسلام والسير معهم إلى الوالى . فكان جواب ابن الأشتر لهم ، بأن قتل صاحب الشرطة ، فتفرق أتباعه ، واستمر فى المسير إلى بيت المختار . وهناك أخبر المختار بما حدث ، وقدم له رأس إياس صاحب الشرطة ، فسر المختار بذلك ، ولكن ما حدث ، دفعه إلى إعلان الثورة قبل يوم من الموعد المحدد لها . وقد أبلغ المختار أتباعه ببداية انطلاق الثورة وأمرهم بإشعال النيران فى هرادى القصب ، والنداء بشعاراتهم " يا منصور أمت " و " يا لثارات الحسين " [1] .

إن اتخاذ المختار شعار : " يا منصور أمت " لم يكن ذا أهمية . فالمنصور هو الشخص الذى ينتظره اليمانيون ليعيد لهم سلطانهم وسيادتهم ، وهذا الشعار يعنى : " يا منصور اليمن، أمت أعداء أهل اليمن " ، ولما كان عرب اليمن هم العنصر الغالب

---

(١) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥، ص ٢٢٢ .

بـــين أتـــباع المختار ، فإن تبنى هذا الشعار ، كان بمثابة استقطاب لتطلعاتهم السياسية والدينية .

كـــان المختار وأتباعه يعسكرون قرب (دير هند) فى منطقة السبخة ، وكان فى جيشه حوالى خمسمائة من الموالى ، على رأسهم قائد منهم .

وقد أرسل الوالى عبد الله بن مطيع ثلاثة آلاف رجل ، على رأسهم شبث بن ربعى التميمى إلى (السبخة) ، وراشد بن إياس بن مضارب مع أربعة آلاف من الشرط إلى (جبانة مراد) فى محاولة منه لمواجهتهم . وفى المقابل أرسل المختار تسعمائة رجل على رأســـهم ابـــن الأشتر ، لمواجهة راشد بن إياس ومن معه ، وأرسل نعيم بن هبيرة مع ثلاثمائـــة فـــارس وستمائة راجل لمواجهة شبث بن ربعى التميمى ، كما جعل يزيد بن أنس مع تسعمائة رجل فى مقدمته . وعندما التقى الطرفان بدأت قوات شبث بن ربعى تتراجع أمام قوات المختار ، مما دفع شبث إلى المناداة فى جنده لإثارة حفيظتهم ، فكان ينادى : " يا حماة السوء ، بئس خرسان الحقائق أنتم ، أمن عبيدكم تهربون " . إشارة إلى الموالى فى جيش المختار ، فتابت إليه جماعة منهم . وكانوا يقتلون كل مولى يقع فى أســـرهم ، فى المقـــابل هيئوا الفرصة أمام الأسرى العرب للفرار، ونتيجة لذلك أصبح جيش المختار فى موقف صعب .

وفى هـــذا الوقـــت، قام الوالى بإرسال تعزيزات جديدة لأتباعه قوامها ألفا رجل ، عـــلى رأســـهم يزيد بن الحارث بن رويم . وقد كان المختار فى هذا القتال على رأس الرجالة من أتباعه ، بينما كان يزيد بن أنس على الخيالة .

وقد تمكن ابن الأشتر فى هذا الوقت من دحر راشد بن إياس وقتله ، قبل عزمه على الـــتوجه إلى نجـــدة المختار . وقد كان لهذا النصر أثر كبير فى رفع معنويات أصحاب المختار ، وتثبيط عزائم من كانوا تحت إمرة شبث بن ربعى . بعد ذلك أرسل الوالى ، حســـان بن فائد بن بكر العبسى مع ألفى رجل ليحول بين ابن الأشتر وبين المختار ، ولكن حسان هُزم واستمر ابن الأشتر فى تقدمه . وعندما ظهر ابن الأشتر بدأت قوات شـــبث بالـــتراجع أمامه حتى وصلت إلى الوالى ابن المطيع الذى أصابه اليأس بعد قتل راشـــد بن إياس وهزيمة جنده . ولكن القوات المهزومة عادت فتجمعت مرة أخرى فى

الكناسة ، ومع ذلك تمكن ابن الأشتر من دحرها ، فهرب الأشراف ومعهم الوالى إلى القصر ، وظلوا محاصرين فيه مدة ثلاثة أيام . وفى مساء اليوم الثالث ترك ابن المطيع القصر ، وذهب إلى بيت أبى موسى الأشعرى وأخفى نفسه هناك . أما الأشراف فقد طلبوا الأمان من ابن الأشتر ، وعندما أجيبوا إلى ذلك ، استسلموا للمختار .

وقد أمضى المختار تلك الليلة فى القصر ، وفى الصباح صعد المنبر فى المسجد وخطب فى الناس ، وعقب انتهاء خطبته بايعه الناس لا سيما الأشراف وغيرهم . وكانت البيعة على " كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفاع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم "[١] .

وقد سعى المختار منذ استيلائه على الكوفة إلى التوفيق بين جميع الفئات ، كما أظهر العدالة ، ونشر الأمن .

وقد وجد المختار فى بيت مال الكوفة تسعة ملايين درهم ، فأعطى كل واحد اشترك فى مهمة السيطرة على القصر خمسمائة درهم ، وكانوا ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل . وأعطى كل فرد انضم إليه بعد ذلك مائتى درهم ، وقدروا بستة آلاف فرد .

وفى محاولته لإظهار صفة التسامح منع المختار أتباعه من أن يقتلوا أحدًا [٢] .

كما عمل المختار كذلك من أجل حماية الضعفاء ، وأكد فى بيعته تمشيًا مع مبادئ الإسلام على مبدأ المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن قوميتهم أو جنسهم .

لقد أباح المختار للموالى مشاركة العرب بالفىء وركوب الخيل . كما عين كيسان أبا عمرة مولى عرينة على حرسه . وربما جاء تعيين كيسان فى هذا المنصب جراء ثقة المختار به دون غيره ، أو لأن كيسان كان أكثر نفوذًا من بين الموالى المؤيدين للمختار . كما أعلن المختار أيضًا أن كل عبد ينضم إليه سيكون حرًا . فليس غريبًا أن يزداد عدد الموالى والعبيد بين أتباعه إلى درجة كبيرة .

---

(١) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٢٨ .
(٢) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٢٢٨ .

وفى هذه الأثناء تقدم ابن زياد نحو الموصل فى طريقه إلى الكوفة . عند ذلك كتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى والى الموصل إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى يخبره أنه بسبب قلة رجاله ترك الموصل وذهب إلى تكريت منتظرًا أوامره ، فأرسل المختار بناءً على ذلك ثلاثة آلاف فارس كلهم من العرب بقيادة يزيد بن أنس الأسدى . فالتقوا مع جزء من الجيش الشامى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٦٦هـ /١٧ تموز سنة ٦٨٦م عند الفجر فى مكان يبعد خمسة فراسخ عن الموصل . وقد انتهت هذه المعركة بانتصار يزيد بن أنس بالرغم من مرضه فى ذلك الوقت ، ومن أن جيشه كان يساوى نصف عدد جيش أهل الشام ، ولكن فى أثناء القتال توفى يزيد الأسدى بعد أن كان قد أمر بقتل جميع الأسرى من أهل الشام . وقد سببت وفاته ضعفًا ملموسًا فى عزائم أتباعه ، إذ رأوا أنه من الحكمة الانسحاب نظرًا لقلة عددهم وعدم قدرتهم على مواصلة الصمود فى وجه جيش أهل الشام الذى يقدر عدده بثمانين ألفًا، والذى كان يواصل الزحف نحوهم .

إن انسحاب جيش المختار كان له ردة فعل عنيفة فى الكوفة . إذ راجت إشاعات مفادها : أن عبيد الله بن زياد دحر جيش المختار ، وقتل قائده يزيد بن أنس ، وهو يتقدم الآن بجيشه الكبير نحو الكوفة .

وعندما سمع المختار ذلك أمر قائده ابن الأشتر بالتوجه لملاقاة عبيد الله بن زياد بجيش قوامه سبعة آلاف رجل ، وأمره أن يضم إليه جيش يزيد بن أنس .

إن تقدم جيش أهل الشام تجاه منطقة نفوذ المختار من جهة ، وخروج جزء كبير من جيشه بعيدًا عن الكوفة من جهة أخرى ، جعل موقفه حرجًا ، فقد شجع هذا الظرف أشراف أهل الكوفة على إبداء مظاهر التحدى له ، بل والاستعداد للتخلص من حكمه . فقد أدان أشراف الكوفة المختار لإقدامه على تنصيب نفسه حاكمًا عليهم دون رضاهم ، وقيامه أيضًا على رفع مكانة مواليهم ، ومنحهم امتياز ركوب الخيل والاشتراك فى الفىء ، واستلام العطاء . وكان المتكلم باسمهم شبث بن ربعى التميمى، حيث نقل شكواهم هذه إلى المختار [1] .

(١) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٦ .

استعد الأشراف للثورة ، وذهبوا إلى عبد الرحمن بن مخنف ، فدعوه إلى الخروج معهم ، فنصحهم بعدم الخروج على المختار ، قائلاً : " إنى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل والله شجعاؤكم وفرسانكم من أنفسكم ... ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم أشد حنقًا عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم ، وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدوم أهل الشام أو بمجيء أهل البصرة ، فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم "[1] ، ولكن يبدو أن نصيحته هذه قد رُفضت ، ولكنه انضم فيما بعد إليهم فى الثورة ضد المختار .

وبعد رحيل ابن الأشتر لقتال جيش أهل الشام الذى كان يقوده عبيد الله بن زياد، قامت ثورة الأشراف ، واحتل الثوار الأماكن المهمة فى الكوفة .

وقد نجح المختار فى استدعاء ابن الأشتر مع قواته إلى الكوفة . وبينما كان فى انتظار وصوله ، فإنه لم يدخر جهدًا فى سبيل مصالحة الأشراف ومهادنتهم ، فأرسل إليهم بوعوده واستعداده للاستجابة إلى جميع رغباتهم . وعندما طالبوه باعتزالهم ، بسبب بطلان ما ادعاه بشأن مسألة مراسلة ابن الحنفية لسؤاله عن ذلك . ويبدو أن المختار قد لجأ إلى هذا الإجراء لتحقيق هدفين مهمين : الأول أن يحدث خلافًا بينهم ، والثانى أن يكسب الوقت لحين وصول ابن الأشتر . ومع ذلك لم يقبل الأشراف بما اقترحه عليهم المختار ، وقرروا انتهاز هذه الفرصة للتخلص من المختار ، كذلك لجأ المختار إلى اعتماد استراتيجية جديدة تهدف إلى زيادة العداوة بين الموالى – وهم أربعون ألفًا فى هذا الوقت – وبين أسيادهم من الأشراف ، وذلك من خلال إقناعهم بأن قتالهم معه يصب فى مصلحة قضيتهم الخاصة التى هى قضيته ، وأن الأشراف لم يخرجوا عليه إلا لأنه قام بتقديمهم فى المناصب ، وسعى إلى تحسين أوضاعهم .

وبعد ثلاثة أيام من خروجه رجع ابن الأشتر إلى الكوفة ، وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦هـ / الثانى والعشرين من تموز سنة ٦٨٦م، جمع الأشراف قواتهم فى ثلاثة مواقع : مضر فى الكناسة ، وأهل اليمن فى جبانة السبيع ،

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب : النويرى ، ج١٩، ورقة ١٨ .

وربيعة فى السبخة . ولعلمه بالعصبية القبلية ، طلب المختار إلى ابن الأشتر قتال مضر بالكناسة ، بينما ذهب هو نفسه لقتال أهل اليمن ، لاعتقاده أن ابن الأشتر ربما يتقاعس عن قتال قومه من أهل اليمن ، ولا يخلص له فى أداء هذه المهمة .

وقد تحققت توقعات عبد الرحمن بن مخنف ، إذ سرعان ما بدأت المنافسة والغيرة تستشرى بين الأشراف ، مما ساعد ذلك على تحقيق انتصار مؤثر للمختار .

نظم المختار أتباعه بعد الانتصار الذى حققه ، وعقد الرايات لقواده ، فأرسل جيشًا مع ابن الأشتر لقتال ابن زياد بالجزيرة ، الذى كان يستعد للزحف على العراق بعد هزيمة التوابين ، لولا انشغاله بفتنة القيسية فى الجزيرة ، حيث يبدو أنه استمالهم فى النهاية ، فتقابل جيش ابن الأشتر مع جيش ابن زياد عند نهر خازر ، قرب الموصل سنة ٦٧/٦٨٦م، ودارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار ابن الأشتر ، وإذ بالدائرة هذه المرة تدور على جيش الأمويين ، لا سيما بعد أن انضمت القيسية فى جيش ابن زياد إلى ابن الأشتر ، جراء حقد لم ينسوه تجاه الأمويين الذين أوقعوا بهم القتل فى موقعة راهط ، وقد تتبع ابن الأشتر أعداءه ، فغرق منهم أكثر ممن قتل ، وتمكن ابن الأشتر من قتل ابن زياد بنفسه ، فضربه ضربة قدته نصفين [1] ، كما وقع الحصين بن نمير فى الأسر ، فأقدم المختار على قتله بعد أن قرضه بالمقاريض [2]، وحينما أرسل ابن الأشتر ببشارة النصر إلى المختار ، ولاه على الجزيرة ، فأقام بها ، ووجه عماله على مدنها [3] .

لقد ساهمت جملة من العوامل فى الانتصار الذى حققه ابن الأشتر رغم قلة عدد جيشه بالمقارنة مع جيش عبيد الله بن زياد ، فإلى جانب شجاعة ابن الأشتر وكفاءته العسكرية ، فقد لعب الحماس الدينى للشيعة دوره فى هذه المعركة ، إذ التقى هؤلاء الشيعة وجهًا لوجه مع ابن زياد قاتل الحسين " رضى الله عنه " ، هذا الحماس الذى أذكته خطبة ابن الأشتر قبيل المعركة ، كما أن انضمام القيسية فى جيش عبيد الله بن زياد إلى جيش ابن الأشتر ساهم فى انتصار ابن الأشتر ، فقد ذكر أن عمير بن الحباب

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٨١ .

(٢) فى مقتل الحسين ، ورسالة أخذ الثأر وانتصار المختار : أبو مخنث ، ص ١٠٠ .

(٣) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٢٨٩ .

السلمي - الذى كان على ميسرة جيش ابن زياد ومعه القيسيون - قد زار ابن الأشتر، وأخبره بأنهم يكنون الكره تجاه آل مروان بسبب معركة مرج راهط ، ووعده بهزيمة ابن زياد عندما تبدأ المعركة [١] ، وبالفعل فقد تم ذلك .

وإبان ذلك أخذ المختار يتعقب بلا هوادة كل من خرج إلى قتال الحسين أو اشترك فى دمه ، فكان يحرقهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويطعنهم بالرماح ، ويتبعه الفعلة بالمعاول لهدم دورهم ، حتى بلغ من عذب منهم عشرون ألفًا ، وفوق ذلك تمكن من الإيقاع بالشخصين اللذين يعتبران مسئولين عن قتل الحسين ، وهما : شمر بن ذى الجوشن ، الذى ركب صدره الشريف وذبحه ، وكان شمر قد هرب من الكوفة بعد وثوب المختار بها ، ولكن المختار أرسل إليه من تمكن من قتله ، وعمر بن سعد ، الذى كان قد تولى قيادة الجيش الأموى إلى كربلاء ، ثم اختفى بعد ذلك بالكوفة ، ولكن المختار ظفر به وأحضره بين يديه ، فقتله صبرًا ، بأن أمر به ، فجرده من أطماره ، ولوى شفتيه وأذنيه كما يلوى فى البهيمة ، وشد لحيته ، وقلع أضراسه ، وسبل عقد أصابعه ، وقرض لحمه ، وقطع لسانه ، وغور عينيه ، فمات ، وأخذ رأسه وبعث بها إلى بنى هاشم بالحجاز ، كذلك تمكن المختار من إخماد ثورة عرب الكوفة من غير الشيعة ، وعلى رأسهم أشرافهم من رؤساء القبائل ، تلك الثورة التى اشتعلت بحجة أن المختار باعد العرب وقرب الأعاجم ، وقد تم إخماد الثورة ، وهرب معظم الأشراف إلى البصرة ، فإن الإنجازات التى حققها المختار نالت إعجاب بنى هاشم وثناءهم ، حتى قال ابن العباس عنه : " إنه أصاب بثأرنا "[٢] .

حاول المختار أن يتجنب العداء السافر مع عبد الله بن الزبير ، لذلك بدأ معه اتصالات دبلوماسية، فحاول أولاً أن يبرر له أسباب طرد عامله على الكوفة عبد الله ابن مطيع متهمًا إياه بأنه كان يعمل لصالح عبد الملك بن مروان ، كما كتب إليه يذكره بالشروط التى على أساسها بايعه قائلاً : " فقد عرفت مناصحتى إياك وجهدى على أهل عداوتك وما كنت أعطيتنى إذا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت وقضيت

---

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٩٩ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٧٣ .

الذى كان لك على خست بى و لم تف بما عاهدتنى عليه ورأيت منى ما قد رأيت فإن ترد مراجعتى أراجعك وإن ترد مناصحتى أنصح لك " [١] .

ولكن عبد الله بن الزبير أراد أن يختبر إخلاص المختار له ، فأرسل واليًا جديدًا على الكوفة هو عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، وعندما وصلت أخبار ما قام به ابن الزبير إلى المختار بواسطة أحد عيونه فى مكة ، أرسل زائدة بن قدامة مع خمسمائة من الفرسان بقيادة مسافر بن سعيد الناعطى ، وسبعين ألف درهم - وهى ضعف ما أنفقه الوالى الجديد فى جهازه - وطلب إلى قدامة أن يأمر الوالى الجديد بأخذ المال والرجوع من حيث أتى ، وفى حالة رفض الوالى ذلك ، فعلى ابن قدامة أن يريه الخيالة ، ويخبره أن هناك مائة كتيبة أخرى وراءها ، وقد رفض عمر المخزومى فى البداية أن يأخذ المال ، وحاول أن ينفذ أوامر ابن الزبير ، ولكنه عندما رأى الخيالة ، رضخ وأخذ المال ، وذهب إلى البصرة [٢] .

ويبدو أن الظروف السياسية قد أجبرت المختار مرة أخرى على التصرف بصورة سرية ، فأخذ يسعى إلى صداقة ابن الزبير ، وفى نفس الوقت كان يعمل على تقويض سلطته .

أما نهاية المختار وحركته فكانت على يد مصعب بن الزبير الذى ولى فى سنة ٦٧هـ البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير ، بعد أن عزل عنها عاملها السابق من قبله : القُباع ، فقد وجد عبد الله بن الزبير أن استفحال أمر المختار فى الكوفة كان يشكل خطرًا كبيرًا على مركزه فى العراق ، فعهد لذلك بولاية البصرة والكوفة إلى أخيه مصعب ، الذى كان كما وصفه عبد الملك بن مروان : " ذاك الليث النهد " [٣] ، وأمره أن يقضى على المختار ، وأن يعيد الأمور إلى نصابها فى العراق .

لما سمع المختار عن استعدادات مصعب للحرب ضده ، اعتقد أنه قد أرسل من قبل ابن الأشتر ، لأنه خذله وقعد عنه ، فقام خطيبًا فى أتباعه ، وأخبرهم أن ابن الأشتر قد

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٢) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٤٣ .
(٣) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١٠ .

خذله وقعد عن نصرته ، وسألهم أن ينضموا إلى جيش أحمر بن شميط ، ومع ذلك فإن المختار كان فى حاجة ماسة إلى مساعدة ابن الأشتر وإلى خبرته العسكرية ، خاصة بعد هـــزيمة جيشه فى المذار ، ولذلك كتب لـــه عدة مرات يطلب مساعدته ، ولكنه رفض الاستجابة له .

قام مصعب بالمهمة التى عهد بها إليه أخوه خير قيام ، فاستدعى بعد قدومه البصرة المهلب بن أبى صفرة الذى كان يتولى فارس لابن الزبير ، ويقوم بحرب الخوارج فيها ، ووجهـــه إلى الكوفـــة لقـــتال المختار ، ثم لحق مصعب بالمهلب وجعله على ميسرته ، وقـــد قـــام مصـــعب بهذا الإجراء حتى يمنع المختار من استباقه ، فيقدم على مهاجمة البصرة ، لا سيما وأن المختار سرح جيشًا إلى المذار (*) لمهاجمة البصرة ، ولكن مصعبًا ترك البصرة وتوجه إلى المذار ، وعسكر قريبًا من جيش المختار ، وجرت بين الجيشين معـــركة قُتل فيها قائد جيش المختار أحمر بن شميط البجلى ، وتابع مصعب سيره بعد ذلـــك بـــرًا عبر واسط حتى وصل الفرات ، فأركب جيشه السفن وعبروا النهر حتى وصـــلوا الكوفة ، أما المختار نفسه فقد كان فى المدائن كعادته ينتظر الأخبار ، وعندما وصـــلته أنـــباء الهـــزيمة (١) تـــألم وتمنى ميتة كريمة مثل ميتة أحمر بن شميط ، وبدا أنه سيســـتميت بالقتال ، حيث بدأ يستعد للحصار ويتقوى بالأموال والسلاح فى الوقت الـــذى انفتحـــت فـــيه الطريق إلى الكوفة أمام قوات مصعب بن الزبير ، الذى اتخذ احتـــياطات عسكرية ذكية ، تمثلت فى قطع الطريق النهرى أمام أصحاب المختار (٢) ، أمـــا أصحاب المختار الذين تحصنوا معه فكانوا ثمانية آلاف فقط وهرب الباقون عندما وصـــلت جـــيوش مصـــعب إلى الكوفة ، وقد أحكم مصعب بن الزبير الحصار على القصر (٣) ، ثم شدد على المؤونة وحال دون وصولها إلى القصر ، وكانت المؤونة والمال تصل المختار وأصحابه عن طريق السبخة ، تحضرها النساء لهم بطرقهن الخاصة، فندب مصـــعب بـــن الـــزبير عبيد الله بن الحر لملاحقة السقائين الذين استغلوا فرصة عطش

(*) وهى بلدة بين واسط والبصرة بينها وبين البصرة نحو من أربعة أيام .

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ج٥ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق : ج٥ ، ص ٢٦٠ .

أصحاب المختار ، وأخذوا يبيعون شربة الماء بدينار أو دينارين [١] ، وكان المختار قد وضع العسل فى بئر الماء الوحيدة الموجودة فى القصر ليتقوى به أصحابه ، ولكن نقص المؤونة والماء بينهم أدى إلى ضعف مقدرتهم القتالية وبث الذعر فيهم .

وتختلف الروايات فى مدة الحصار ، فيذكر الطبرى أنها أربعة أشهر[٢] ، ويبين الدينورى فى موضع أنها شهران [٣] ، وفى موضع آخر أنها أربعون يومًا [٤] ، ويبدو أن ما يذكره الواقدى غير ممكن ، لأن عدد المحصورين فى القصر كبير ولا تكفيهم المؤونة، ثم إن فى تجربة حصار المختار لابن مطيع فى قصر الإمارة ما يوحى بصعوبة هذه التجربة مع أن عدد المحصورين مع ابن مطيع لم يكن كبيرًا ، وهذا يدعو إلى الأخذ بأقل عدد توروده المصادر لمدة الحصار وهو أربعون يومًا ، وكان المختار يخرج أثناء الحصار مع أصحابه فيقاتلون قتالاً ضعيفًا ، ثم يعودون إلى القصر .

شعر المختار بعدم جدوى الحصار فقرر الخروج مستميتًا ، فدعا أصحابه فخرج معه مائتا رجل فقط ، وقد أبدى المختار شجاعة ومقدرة فى القتال ، إذ قتل رجلاً بصريًا يعد من مقاتليهم الأشداء اسمه : يحى بن ضمضم الضبى ، وكان أصحابه قد خافوه وتراجعوا عن مواجهته ، إلاّ أن المختار تراجع عندما تكاثر عليه أصحاب مصعب ، وحاول إثارة أصحابه ببلاغة مؤثرة قائلاً : (إنى والله إن قتلت لم تزدادوا إلاّ ضعفًا وذلاً ، ثم إن أخذتم ذبحتم كما تذبح الغنم ، يقولون هذا قاتل أبى ، وهذا قاتل أخى ، وإن قاتلتم صابرين قتلتم فمتم كرامًا)[٥] . ويبدو أن أصحاب المختار تخاذلوا ، وتمسكوا بالاختباء فى القصر ، فتبين له فشل أصحابه وتخليهم عنه .

وبدت النهاية أمام المختار واضحة ، فتحنط وتطيب وخرج مستميتًا فى عدد من أصحابه قليل ، لا أقل من سبعة عشر رجلاً ولا أكثر من تسعة وعشرين [٦] ، واندفع

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ج٦ ، ص ١١٥ .

(٣) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٠٧ .

(٥) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٦٢ .

(٦) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١٠٧ .

يقــاتل حــتى ألجأه أصحاب مصعب بن الزبير إلى حائط فى سوق الزياتين وقتلوه مع أصــحابه جميعًا ، وتختلف الأخبار فيمن قتله ، قيل: قتله أخوان من عترة اسمهما: طرفة وطــريفة ، وقيل: إن تميمًا تدعى أن قاتله تميمى ، فى حين تدعى ربيعة أنه: طراف بن يزيد الحنفى (١) ، والمتفق عليه أنه قتل فى صبيحة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٧هــ / ٦٨٦م ، وله من العمر سبعة وستون عامًا (٢) .

وقد أمر مصعب بن الزبير بقطع يد المختار اليمنى ، ثم سمرها على حائط المسجد ، وبعــث برأسه ورؤوس وجهاء أصحابه إلى أخيه عبد الله بمكة ، فلم تزل مسمورة حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الكوفة ، فأمر بها ، فانتزعت ثم دفنت (٣) .

قــام مصعب باضطهاد أهل الكوفة ، وسمى نفسه الجزار ، وفعل بهم ما كان يفعله عمــال بنى أمية ، ويبدو أن ذلك حدث تحت ضغط الكوفيين الموتورين من الأشراف فأصدر أمرًا بقتل المحصورين جميعًا صبرًا فى مذبحة جماعية مؤثرة (٤) ، وتختلف الروايات فى عدد المقتولين ، حيث تتفق روايات أبى مخنف وعوانة وعمر بن شبه وابن عياش على أنهم ستة آلاف (٥) ، وفى رواية أخرى لعوانة أنهم خمسة آلاف (٦) ، ويصل العدد عند المســعودى إلى ســبعة آلاف (٧) ، ثم تســعة آلاف عند صاحب تاريخ الخلفاء وهو تصــحيف للخبر السابق ، أما ابن أبى شبيه فيذكر أنهم ثلاثة آلاف ، وأقل الأعداد التى رويت تجعلهم سبعمائة (٨) .

وأجــبر حــريم المختار على التبرؤ منه ، فقبلن إلاّ واحدة قتلها ، هى عمرة بنت الــنعمان بن بشير ، التى قالت : " إنه كان عبدًا من عباد الله الصالحين " ، وهى أول

---

(١) مروج الذهب : المسعودى ، ج٥ ، ص ٢٢٥ .
(٢) أنساب الأشراف : البلاذرى، ج٥ ، ص ٢٦٤ .
(٣) طبيعة الدعوة العباسية : فاروق عمر ، ص ١٠٩ .
(٤) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١١٦ .
(٥) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .
(٦) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٧١ .
(٧) مروج الذهب : المسعودى ، ج٥ ، ص ٢٢٧ .
(٨) الإمامة والسياسة / ص ٢٥٧ .

امرأة ضربت عنقها صبرًا فى الإسلام [١] ، فكان لمقتلها أثر مفجع حتى ذكرها الشعراء وتوجعوا لها [*] .

وبذلك عاد العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وأخمدت أكبر الحركات الثورية ، التى تطلعت إلى الانتصار لعصبة بنى هاشم ، ولكن بعد مقتل المختار ، أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا قوة فى ظل حكم الطاغية ابن الزبير ، فرحل ابن العباس وابن الحنفية من مكة إلى الطائف هربًا منه ، حيث توفى بها ابن العباس فى نفس العام ، أما ابن الحنفية فبقى فيها إلى أن وقعت حادثة قتل ابن الزبير ، حيث قفل بعدها إلى مكة ، وتوفى بالمدينة عام ٨١هـ/٧٠٠م ، كذلك على بن الحسين أقام بالمدينة طيلة مدة الفتنة ، ويبدو أن ابن الزبير كان يعتقد أن عليًا بن الحسين لم يكن على صلة بأعمال المختار ، ولذلك لم يتعرض له، وتوفى فى خلافة الوليد ، حوالى عام ٩٤هـ/٧١٢-٧١٣م [٢].

إن هذه الحركة لم تكن مجرد ثورة على حكم بنى أمية وثورة ابن الزبير معًا ، وإنما كانت بداية خط فى حركة التشيع عرف باسم (الشيعة الكيسانية) ، نسبة إلى كيسان أبى عمرة صاحب شرطة المختار ، أو إلى مولى لعلى بن أبى طالب ، أو لمحمد ابن الحنفية اسمه كيسان ، استطاع أن يحيط بالعلوم ، ويقتبس الأسرار عن هذين السيدين من علم التأويل والباطن ، أو أن كيسان كان لقبًا للمختار نفسه . كما عرفت حركة المختار بأسماء أخرى منها « المختارية » نسبة إليه أو « الخشبية » نسبة إلى العصى الخشبية التى كان الموالى يستعملونها أثناء القتال معه .

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ج٣ ، ١٣ .

(*) إن من أعجب العجائب عندى ... قتل بيضاء حرة عطبول
قتلوها ظلمًا على غير ذنب ... إن لله درها من قتيل

انظر : البلاذرى : ج٥ ، ص ٢٦٤، والطبرى : ج٦ ، ص ١١٣، والدينورى : ص٣١٠، وابن الأثير: ج٤ ، ص ٢٧٦ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ١٦٤ .

تعتبر هذه الثورة بمثابة انقلاب خطير فى حركة المعارضة العلوية ؛ ذلك لأنها نقلت الإمامة من الفاطميين العلويين إلى محمد بن الحنفية ، وهو ابن الإمام على من غير فاطمة رضى الله عنها .

إن التفاف عدد كبير من العرب حول المختار خلال مراحل ثورته ، كان جراء ما نشره بشأن أسباب مجيئه إلى الكوفة ، وهو الأخذ بثأر الحسين ، والانتصار لآل البيت، وهـــذان أمران كان لهما سحرهما فى الكوفة باعتبارها مهدًا للحركة العلوية ، ومستقرًا للإمـــام علىّ نفسه ، ومحط آمال ابنه الحسين الذى روى دمه الطاهر أديم أرضها . هذا فضـــلاً عن العصبية الإقليمية التى كانت سائدة بين العراق والشام من جهة ، والعراق والحجاز من جهة أخرى .

أمـــا وقوف الموالى إلى جانب حركة المختار ، فهو أمر تؤكده كل المصادر التى بين أيدينا ، ويمكن تفسير الأسباب التى دفعت الموالى إلى تأييد المختار ، وللثورات الأخرى الـــتى رفعـــت راية التشيع فيما بعد ، بأن طبقة الأشراف من العرب استأثرت بمعظم الخيرات دونهم رغم إسلامهم ، بالإضافة إلى عدم المساواة ، فى وقت حض فيه الإسلام عـــلى المساواة بين أتباعه دون اعتبار لجنس أو لون ، هذه المساواة التى لم يحصل عليها الموالى ، بل وظلت حلمًا يراودهم حتى انتصرت الثورة العباسية[1] .

إن انتصار مصعب على المختار أدى إلى عودة العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وإلى القضاء على حركة من أكبر الحركات التى هبطت لنصرة آل على وبنى هاشم عمومًا، بيد أن ابن الزبير لم يهنأ بهذا النصر طويلاً ، حيث قطف ثمار هذا النصر الخليفة الأموى عـــبد الملـــك بن مروان الذى وجه قواته للقضاء على مصعب بن الزبير ، وتمكن من استعادة العراق إلى الصف الأموى بعد أن زال عنه كابوس المختار .

إن المختار كان شيعيًا مخلصًا ، لكنه أصبح نافد الصبر فى ظل تردد محمد بن الحنفية وضـــعف نشاطه السياسى فيما يتصل بمسألة الأخذ بثأر الحسين بن على « رضى الله عـــنه » ، خاصة وأنه يرى بجلاء أهمية الانتصارات السياسية التى يمكن أن يحققها مثل

---

(١) طبقات الدعوة العباسية : ص ١٠٩- ١١٠ .

هـــذا الثأر لرجل طموح مثله ، لذلك ، فقد سعى إلى تحقيق طموحاته الهادفة للوصول إلى السـلطة مــن خلال تسميته لمحمد بن الحنفية بالمهدى ، وإثارته موجة متصلة من الحماس الدينى وبراعته فى صناعة النثر المسجوع ، وظف المختار هذا الحماس الدينى فى تحقــيق طموحه السياسى ، وفى الانتقام من قتلة الحسين « رضى الله عنه » ، وكذلك فـإن المخــتار يــبدو أنه اهتم بصدق بالوضع الاجتماعى السيئ للموالى وسعى إلى إصــلاحه، مــع أن هذا الاهتمام كان يشكل إحدى إرهاصات الثورة ، كون الموالى يمــثلون فـئة اجتماعية يمكن المراهنة عليها فى تأييد ثورة كثورة المختار ، كونها تنادى بمبادئ وأفكار تلامس معتقداتها وتتحسس الأوضاع الاجتماعية السيئة التى كان يعانى منها أفرادها .

وعمومًـــا، يمكن القول بأن النجاح السياسى المؤقت الذى انتهت إليه ثورة المختار يعتـــبر خطوة حاسمة ومفصلية فى تاريخ تطور الحركة الشيعية ، وفى نهوض الموالى من المستنقع الاجتماعى الذى فرضته ظروف العصر السياسية فى ذلك الوقت .

* * *

مراجع البحث

١ - ابن أعثم الكوفى ، أحمد بن عثمان (ت ٣١٤ / ٩٢٦م) : كتاب الفتوح ، مخطوط (Sary Library of Ahmet III) ، اسطنبول (رقم ٢٩٥٦) .

٢ - ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

٣ - ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) : كتاب الفخرى ، القاهرة ، سنة ١٨٩٩م .

٤ - ابن العماد، عبد الحى بن محمد الحنبلى (ت ١٠٨٩ / ١٦٨٧م) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ، سنة ١٣٥٠م .

٥ - ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) : كتاب الطبقات ، ليدن ، سنة ١٩٠٥م .

٦ - ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ومكتبة المعارف ، بيروت سنة ١٩٦٦م .

٧ - أبو الفداء ، إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية، ط١ ، القاهرة .

٨ - أبو شعر ، هند : حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى الكوفة ، رسالة قدمت إلى الجامعة الأردنية لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ ، عمان سنة ١٩٨٣م .

٩ - أحمد ، د. محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، ط١ ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

١٠ - البلاذرى ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : أنساب الأشراف ، مخطوط فى Suleymaniye Kutyphanesi تحت رقم (٥٩٨) .

١١ - حمادة ، محمد ماهر : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى (٤٠ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) ، ط٣ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٢ - خالدى ، أبو النصر محمد : قصة المختار بن أبى عبيدة الثقفى ، أسباب ثورته ونتائجها ، دراسة اجتماعية وسياسية ودينية ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٤٩م .

١٣ - الخربوطلى ، على حسين : المختار الثقفى ، القاهرة سنة ١٩٦٣م .

١٤ - داوود ، نبيلة عبد المنعم : نشأة الشيعة الإمامية ، رسالة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة بغداد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد سنة ١٩٦٨م .

١٥ - دكسن ، عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الأموية (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م دراسة سياسية)، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٣م .

١٦ - الدورى ، عبد العزيز : الجذور التاريخية للشعوبية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢م .

١٧ - الدينورى ، أبو حنيفة محمد بن داوود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة ، ط١ ، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

١٨ - السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

١٩ - شاكر ، محمود : التاريخ الإسلامى ، ط١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

٢٠ - الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١م والطبعة الأوروبية أيضًا .

٢١ - عاقل ، نبيه : خلافة بنى أمية ، سلسلة تاريخ العرب والإسلام ، دمشق سنة ١٩٧٢م .

٢٢ - عطوان ، د. حسين : الأمويون والخلافة ، ط١ ، دار الجيل ، سنة ١٩٨٦م .

٢٣ - على ، سيد أمير : مختصر تاريخ العرب ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨١م.

٢٤ - فروخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين .

٢٥ - كتاب سيرة المختار (منسوب إلى أبى مخنف) : مخطوط برقم (٥٢٧٤) فى Chester Beaty Library .

٢٦ - ماجد ، د. عبد المنعم : التاريخ السياسى للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ، الجزء الثانى ، ط٣، ١٩٦٦م .

٢٧ - النجار ، محمد الطيب : تاريخ العالم الإسلامى الدولة الأموية فى الشرق ، مكتبة المعارف ، الرياض سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

٢٨ - الواقدى ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) : كتاب المغازى ، القاهرة سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥م .

٢٩ - الوكيل ، د. محمد السيد : الأمويون بين الشرق والغرب ، دراسة وصفية وتحليلية للدولة الأموية ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

٣٠ - اليعقوبى، أحمد بن على (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) : تاريخ اليعقوبى ، تقديم محمد صادق بحر العلوم، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .



طرز تخطيط مساجد دهلى
قبـل عصـر المغـول

إعداد الدكتور

أحمد رجب محمد على

أستاذ مساعد بقسم الآثار الإسلامية

كلية الآثار – جامعة القاهرة



مقـــدمة

تعـــد دراســـة العمائر الإسلامية بشرق العالم الإسلامى بصفة عامة، وبشبه القارة الهندية بصفة خاصة من المجالات الخصبة التى تحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث، إذ إن الإســـلام قد دخل الهند منذ عصوره الأولى وبدء فتح الهند سنة ٩٢ هـــ ٧١١م على يد محمد بن القاسم [(١)] .

و لم يكن دخول محمد بن القاسم الهند وفتحه لها هو أول عهد هذه البلاد بالإسلام؛ إذ إن الإســـلام قـــد دخـــل الهند قبل ذلك بكثير؛ على يد التجار حيث كانت هناك صـــلات قوية بين العرب وثغور الهند. وكان العديد من التجار يفدون إلى بلاد العرب والعكس مما كان لـــه الأثر فى اعتناق بعضهم للديانة الإسلامية [(٢)] . وقد شهدت بلاد الهـــند بعد فتح محمد بن القاسم العديد من الدول الإسلامية القوية والفاتحين المسلمين الأشداء الذين عملوا على نشر الإسلام بين ربوع الهند وفتح المناطق التى لم يمتد سلطان المسلمين إليها .

---

(١) محمـــد بـــن القاسم هو ابن أخى الحجاج بن يوسف الثقفى، أوفده الحجاج إلى الهند على رأس جيش قـــوى وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة . انظر: الإمام الحافظ أبو الفداء بن كثير الدمشقى : البداية والـــنهاية فى الـــتاريخ الإسلامى ، جـــ ٩ مطبعة السعادة – بدون تاريخ طبع ص٧٨. وانظر: محمد عـــبد المجـــيد العـــبد : الإسلام والدول الإسلامية فى الهند ، الطبعة الأولى ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٩٣٩ – ص٤ .

(٢) القاضى أطهر مباركيورى الهندى : العرب والهند فى عهد الرسالة ، ترجمة : عزت عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ – ص١٣ ، عبد الحميد العبادى : صور من التاريخ الإسلامى، الإسكندرية ١٩٤٨ – ص ١٤٧ .

؛ ومــن أشهر الدول الإسلامية التى حكمت الهند الدولة الغزنوية خصوصًا فى عهد الفــاتح الشــهير الســلطان محمــود الغزنوى الذى فتح العديد من المدن التى لم يمتد ســلطان المسلمين إليها من قبل ، فغزا أبهاطيه وكالنجر فى شمال الهند سنة ٣٩٥هـ - ١٠٠٤م [١] .

وغــزا كشمير سنة ٤٠٣هـ سنة ١٠١٢م واستولى على قلاع ميرت وجلمندوا ومــترا بشمال الهند [٢] كما قام السلطان محمود بفتح مدينة قنوج والتى كانت تشتمل على أكثر من عشرة آلاف بيت للأصنام فى شمال شرق الهند وضمها إلى حظيرة الدولة الإســلامية [٣] . وفى ســنة ١٠٥٢م غزا محمود الغزنوى ولاية جوجرات وأصبحت مــنطقة البنجاب فى شمال الهند بأكملها فى أيدى المسلمين ، وبعد وفاة السلطان محمود تابع ابنه السلطان مسعود فتوحات والده شرقًا وغربًا[٤] .

وبعــد الدولــة الغزنوية حكمت الهند دولة أخرى قوية هى الدولة الغورية والتى تنسب إلى مؤسسها الحسن بن الحسين الملقب بعلاء الدين الغورى ٥٤٧هـ ١١٥٢م، ومــن أشهر حكامها السلطان محمد الغورى الذى وسع حدود الإمبراطورية الإسلامية فى الهــند وغزا ملتان فى غرب الهند سنة ٥٧١هـ ، ١١٧٥م . وفتح لاهور (باكستان الحالــية) ســنة ٥٧٢هـ ١١٧٦م . وتلا ذلك فتح العديد من المدن فى شمال وغرب الهند [٥] .

---

(١) د. عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م - ص ٧٤ .

(2) Mahmod Habib: Sultan Mahmod of Ghazain, New delhi 1967, p. 37

(٣) الشيخ أبو صر العتبى: تاريخ العتبى المسمى بالفتح الوهبى ، الهند ، حيدر آباد ١٣٤٨هـ ، ص ٣٧٩.

(٤) محمــد قاســم فرشتة : تاريخ شاهانى مغل ، مخطوط مؤرخ سنة ٩٩٨هـ محفوظ بقسم المخطوطات مكتبة أزاد عليكره ، الهند ، تحت رقم ٣٣/٣٤٣ تاريخ فارس صفحة ٤٤، ٤٥ .

(٥) المؤرخ الهندى عبد الحى الحسنى الندوى (م ١٢٤١هـ): تاريخ الهند فى العهد الإسلامى ، طبعة حيدر آباد ١٩٧٢م، ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ . وانظر .

John Briggs: History of the rise of the Mohamedan power of India, calcuta 1910, p.193.

وبعد الغوريين حكمت الهند دولة تعد من أقوى الدول الإسلامية التى حكمت الهند وهى الدولة المملوكية التى تنسب إلى مؤسسها السلطان قطب الدين أيبك والذى حكم الهند ابتداء من سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٦م) وكان قبل ذلك نائبًا للسلطنة فى عهد آخر السلاطين الغوريين وهو السلطان محمود بن غياث الدين(١) وبعد الدولة المملوكية حكمت الهند الدولة الخلجية والتى تنسب إلى مؤسسها جلال الدين فيروز الخلجى سنة ٦٨٩هـ ، والذى واصل فتوحاته هو وخلفاؤه لإتمام نشر الإسلام فى ربوع الهند(٢) .

ومن أشهر الدول الإسلامية التى حكمت الهند دولة بنى طغلق (الطغلقيين) وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها « غياث الدين طغلق شاه » سنة ٧٢١هـ ، سنة ١٣٢١م ، ومن أشهر حكامها محمد شاه طغلق الذى غزا الملتان ودخل دهلى واستولى عليها(٣) . وفى سنة ٧٥٥هـ غزا تيمور لنك بلاد الهند ودخل دهلى غير أنه لم يمكث فى دهلى سوى خمسة عشر يومًا بعدها تركها ورحل عن أرض الهند(٤) .

وبعد رحيل تيمور لنك عادت الهند إلى حكم بنى طغلق ثم تلا دولة بنى طغلق دولة السادات الأشراف وهم ينسبون إلى أشراف قريش المكرمين(٥) . وبعد أسرة الأشراف حكمت الهند دولة بنى لودى والتى تنسب إلى مؤسس هذه الأسرة « بهلول اللودى » وهو من أصل أفغانى حكم الهند وأسس بها دولة سنة ٨٥٥هـ(٦) وبعد أسرة بنى لودى حكمت الهند دولة المغول والتى استمرت حتى سنة ١٨٥٧م حين بدء الاحتلال الإنجليزى للهند .

---

(١) د. عبد المنعم النمر : المرجع السابق ، ص١٠٤ .

(٢) عبد الحى الحسنى الندوى : المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(3) Futuhs - salatin (Shah Namah hindo of islam, volume three, translation and commantory-Agha Mahdi Husain, center of advanced study, department of history aligrh muslim university (1977, p.650).

(٤) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى المعروف باسم ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، المعروف باسم تاريخ تيمور ، نسخة مخطوطة مؤرخة لسنة ١٨٤٨م محفوظة بقسم المخطوطات / مكتبة آزاد عليكره ، الهند تحت رقم ٣٣٥/١٥ تاريخ عرب ص١٣٢، ١٣٣ .

(٥) عبد الحى الحسنى الندوى : المرجع السابق ، ص٢٠٠ .

(٦) عبد الحكيم خان لودى : حياة لودى ، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات ، مكتبة آزاد عليكرة ، الهند تحت رقم ١٩٤/٤٧ تاريخ فارس ورقة ٧ .

دهلــى

دهــلى عاصمة الهند الحالية اسمها القديم دهلى ، وتنطق بالإنجليزية (دلهى) وباللغة الأورديــة (دلى) أما نيودلهى فهى حى من أحياء المدينة تتركز فيه الوزارات والهيئات والمؤسسات الحكومية والسفارات فى العصر الحديث .

ودلهــى القديمــة تضم سبع مدن هى عواصم ومراكز حكم الدول الإسلامية التى حكمــت الهند على مر عصورها المختلفة . هذه المدن هى بيرثورا[(١)] ومدينة سيرى[(٢)] ومديــنة طغق آباد[(٣)] ومدينة بناه[(٤)] ومدينة فيروز آباد[(٥)] ومدينة بورانا[(٦)] ومدينة شاه جهــان آباد[(٧)] هذه العواصم السبعة تضمهم الآن حدود مدينة دهلى (دلهى) الحالية وهــى تذكرنا فى ذلك بمدينة القاهرة الحالية والتى تضم هى الأخرى عددًا من العواصم هــى : الفســطاط والعسكر والقطائع وقلعة الجبل والقاهرة القديمة . (انظر خريطة لدهلى وأهم مناطقها شكل ١) .

وقد خلفت هذه الدول الإسلامية التى حكمت الهند واتخذت من منطقة دهلى مقرًا ومركزًا لها تراثًا معماريًا ضخمًا من مساجد ومدارس وأضرحة وقصور وقلاع .. وتعد المســاجد من أهم العمائر التى خلفتها تلك الدول حيث تميزت المساجد التى ترجع إلى تلك الفترة (قبل العصر المغولى) بتعدد طرزها .

---

(١) مدينة « بيرثورا » هى عاصمة الدولة المملوكية فى الهند .

(٢) مدينة سيرى كانت أيضًا من عواصم المماليك فى الهند .

(٣) مدينة « طغلق آباد » هى عاصمة الدولة الطغلقية فى الهند .

(٤) مدينة جهان بناه كانت عاصمة الدولة الخلجيه فى الهند .

(٥) مدينة فيروز آباد هى من عواصم الخليجين فى الهند .

(٦) مدينة بورانا تنسب إلى السلطان شرشاه الأفغانى الذى حكم الهند بعد انتصاره على الإمبراطور المغولى همايون شاه وطرده .

(٧) مدينة شاه جهان آباد تنسب إلى الإمبراطور المغولى « شاه جهان » منشئ تاج محل الشهير .

وبصفة عامة يمكننا أن نقسم مساجد دهلى قبل عصر المغول من حيث تخطيطها إلى خمسة طرز هى :

١ - مساجد تتكون من صحن وأربع ظلات .

٢ - مساجد تتكون من صحن وثلاث ظلات .

٣ - مساجد تتكون من صحن وظلتين .

٤ - مساجد متعددة الصحون .

٥ - مساجد تتكون من مربع يغطيه قبة . (بلا صحن)

وسنقوم الآن بدراسة هذه الطرز مع ملاحظة أن الدراسة قد اعتمدت فى الدرجة الأولى على الدراسة الميدانية فى مواقع المساجد وتصويرها فوتوغرافيًا وعمل تخطيطات للمساجد التى لم يوجد لها مخططات فى المراجع ، فضلاً عن الاستعانة بما توافر من مراجع .

الطراز الأول : مساجد من صحن وأربع ظلات

ويعد هذا الطراز من أكثر طرز تخطيط المساجد شيوعًا فى دهلى قبل عصر المغول إذ وصلنا ثلاثة مساجد تتبع هذا الطراز وهى :

- مسجد قوة الإسلام (قطب منار) .
- مسجد بيجمبورى .
- مسجد كالى ...

وفيما يلى تفصيل لعناصر تخطيط هذه المساجد :

(أ) مسجد قوة الإسلام :

ويعرف هذا المسجد أيضًا باسم مسجد « قطب منار » لاشتماله على مئذنة قطب منار الشهيرة ، ويوجد هذا المسجد بالجهة الجنوبية الغربية من دهلى بمنطقة (بيرثورا) ، والتى كانت عاصمة الدولة المملوكية فى الهند - انظر خريطة دهلى وموقع بيرثورا (شكل رقم ١) .

ويـرجع تـاريخ إنشـاء هذا المسجد إلى عصر السلطان المملوكى « قطب الدين أيـبك »[١] مؤسـس دولـة المماليك فى الهند وقد بدأ السلطان أيبك فى تأسيس هذا المسـجد ليكون مسجدًا جامعًا فى سـنة ٥٨٩هـ ١١٩٢م ، وكان الفراغ من بنائه سـنة ٥٩٤هـ ، ١١٩٧م وقد عرف هـذا المسجد أولاً باسم المسجد الجـامع فى دهلى ، ثم عرف بعد ذلك باسـم مسجد قوة الإسـلام ، ويعرف الآن باسم مسجد « قطب منار »[٢] .

تخطيط المسجد

المسـجد الأصـلى الـذى شيده السلطان قطب الدين أيبك يمثل جزءًا صغيرًا من مسـاحة المسجد الحالية حيث أضيف إلى المسجد مساحات أخرى من بعده . إلا أن المسجد الأصلى باقٍ حتى الآن بمعظم عناصره التخطيطية .

وتخطيط المسجد الأصلى كان عبارة عن مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب طوله ٧٠ مـترًا وعرضه ٤٥ مترًا يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع ظلات ، وفيما يلى تفصيل لذلك :

الصحن

مسـتطيل الشكل أبعاده من الشرق إلى الغرب ٤٠ مترًا ومن الشمال إلى الجنوب ٢٨ مترًا مبلط ببلاطات من الحجر الأحمر ، ويوجد به الآن عدد من التوابيت الحجرية ترجع إلى عصور مختلفة وتطل عليه الظلات من جهاته الأربع بعقود مدببة .

---

(١) يسـتطيع من يدرس تاريخ الدولة المملوكية فى الهند ومؤسسها قطب الدين أيبك أن يكتشف بسرعة التشابه الشديد بينها وبين الدولة المملوكية فى مصر فمؤسس الدولة المملوكية فى الهند هو قطب الدين أيـبك ومؤسـس الدولة المملوكية فى مصر هو عز الدين أيبك أى تشابه فى الاسم وكل منهما كان مملوكـًا لآخر سلاطين الدولة التى سبقته ، قطب الدين كان مملوكًا لشهاب الدين الغورى وعز الدين كـان مملوكًا للصالح نجم الدين وكل منهما جاء إلى الحكم بطريقة سليمة بعد وفاة سلاطينهم وضعف الأحوال فى البلاد .

(2) Sir page (j. A): A Gide to the qutb Dilhi Jodhpur, India, 1986, P. 11 & Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood, delhi 1001, p 52.

ظلة القبلة

توجد ظلة القبلة بالجهة الغربية من الصحن وتطل على صحن المسجد ببائكة من سبعة عقود أكبرها وأكثرها اتساعًا وارتفاعًا العقد الأوسط . وظله القبلة عبارة عن مساحة مستطيلة أبعادها من الشمال إلى الجنوب ٢٨ مترًا ومن الشرق إلى الغرب ١٥ متر تتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب ويعلو بلاطة المحراب خمس قباب أكبرها القبة الوسطى (قبة المحراب) ، وقد سقط جدار القبلة بالمسجد الأصلى غير أن أطلاله تدل على أنه كان يشتمل على خمسة محاريب محراب أمام كل مربعة يعلوها قبة شأنه فى ذلك شأن ما تلاه من مساجد قريبة منه فى التاريخ مثل مسجد باراجومباد فى دهلى . ومن الجدير بالذكر أن ظلة القبلة قد بنيت بأعمدة جلبت من معابد هندوسية وبوذية قديمة لازالت تحمل بعض المناظر والرسوم والنقوش الخاصة بهذه الديانات بعد تشويهها[1] .

الظلة الشرقية

تتكون هذه الظلة من بلاطتين لهما سقف حجرى مسطح ، ويعلو هذه الظلة ثلاث قباب قبة فى الوسط وقبتان فى طرفى الظلة .. وقد بنيت بوائك هذه الظلة بأعمدة ذات طراز هندوسى خصوصًا الأعمدة ذات التيجان المتعامدة كل تاج يتكون من أربع أذرع كل ذراع مشكل على هيئة شكل آدمى يداه ورجلاه على هيئة كوابيل تحمل عتب السقف .

---

(١) أعمدة هذا المسجد جمعها قطب الدين أيبك من معابد هندوسية وبوذية هدمها وبنى بأنقاضها المسجد تعبيرًا عن انتصاره على هذه الديانات الوثنية وأعدائه الهندوس وذلك بعد طمس رموز هذه الديانات أو تشويهها إلا أن بعضها مازال يحتفظ بما يدل على هذه العناصر ، ولعل ذلك يذكرنا بما فعله ملوك الأسبان حين حولوا المساجد إلى كنائس على الرغم من اشتمال بعضها على كتابات قرآنية مع الاحتفاظ بها ، وبما فعله الناصر محمد بن قلاوون حين جعل على مدرسته بالنحاسين مدخل أحد كنائس عكا ظفر به بعد حروبه مع الصليبيين فى عكا وطردهم منها .

الظلتان الشمالية والجنوبية

كـــل ظلة من هاتين الظلتين تتكون من بلاطة واحدة من صفين من الأعمدة صف يطل على الصحن وصف ملاصق للجدار (أكتاف)، ولا تحمل هذه الأعمدة عقودًا، وإنما يرتكز عليها السقف الحجرى مباشرة .

المنــــارة

توجــد منارة المسجد والمعروفة باسم « قطب منار » والتى تعد من أشهر المآذن فى العالم منفصلة عن المسجد على بعد حوالى ٣٥ مترًا إلى الجنوب الشرقى من المسجد . ولعــل ذلــك راجع إلى كبر حجم كتلة المئذنة فهى مئذنة من خمسة طوابق كل طابق أقــل ارتفــاعًــا وقطــرًا من الطــابق الموجود أسفله لتنتهى من أعلى بقية مضلعة . وقـــد زخرفت هذه المنارة بأشكال تضليعات وأشرطة كتابية تلتف حول المئذنة من الآيات القرآنية .

وقد أضيف إلى المسجد زيادات كبيرة من عهد السلطان التمش خليفة قطب الدين أيــبك ، وفى عهد السلطان علاء الدين الخلجى من سلاطين الدولة الخليجية فى الهند ، هذه الزيادات غيرت من شكل الجامع فأصبح يشتمل على عدة صحون وأصبح تخطيطه معقــدًا لا يــندرج تحــت طراز الصحن والأربع ظلات ؛ ولذا نكتفى فى هذا الطراز بدراســة المســجد الأصلى فى عهد قطب الدين أيبك والذى كان يشتمل على صحن وأربع ظلات ، وسنقوم بدراسة المسجد فى عهد السلطان التمش وزيادة السلطان علاء الدين الخلجى مع طراز المساجد المتعددة الصحون حيث أصبح يندرج تحت هذا الطراز بعــد تلــك الزيادات التى طرأت عليه . (انظر المسقط الأفقى شكل رقم ٢ ومنظور شكل رقم ٣) .

(ب) مسجد بيجمبورى

يوجـد مسجد بيجمبورى فى قرية « بيجمبور »[١] فى حى (مهر والى) بدهلى ، ومنشـئ هذا المسجد هو الأمير « خان جهان جنان شاه » كبير الوزراء فى عهد الملك فيروز شاه طغلق . ويرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٧٤٦هـ ، سنة ١٣٤٥م[٢] .

تخطيط المسجد

مسجد بيجمبورى عبارة عن مستطيل قريب من المربع أبعاده (٩٤ × ٩٠ مترًا)، يتكون من صحن أوسط مكشوف سماوى أبعاده (١٨٨٧٥) مترًا يحيط به أربع ظلات أكـبرها ظلـة القـبلة ، وتتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب . أما باقى الظلات فكل ظلة تتكون من بلاطة واحدة ، وفيما يلى تفصيل لذلك :

ظلة القبلة

هذه الظلة توجد فى الجهة الغربية من الصحن ، وهى مستطيلة أبعادها ٩٠ مترًا من الشـمال إلى الجـنوب و ٢٠ مـترًا من الشرق إلى الغرب تتكون من ثلاث بلاطات تتوسـط الظلة مربعة كبيرة بامتداد البلاطات الثلاثة قطرها حوالى ٢٠ مترًا يعلوها قبة ضـخمة وعلى يمين ويسار هذه المربعة تتساوى عدد المربعات حيث تقسم هذه المربعة ظلـة القبة إلى قسمين متساويين على يمينها ويسارها كل قسم يتكون من ٣ بلاطات موازيـة لجدار المحراب و ٨ بلاطات عمودية عليه . وفى نهاية كل بلاطة عمودية يوجد محـراب ذو مسقط على شكل شبه منحرف بينما يوجد المحراب الرئيسى للمسجد فى الجـزء الغـربى لمربعة القبة (المربعة الوسطى) وهو محراب ذو مسقط على شكل شبه منحرف .

---

(١) بيجمـبور كـلمة هـندية تتكون من مقطعين بيجم تعنى السيدة المحترمة وبور بمعنى أرض فهى أرض السيدة المحترمة المصونة .

(2) Archaeological survey of India: Op. Cit, P. 71.

وخان جهان أبوه « كاتو » كان حاكمًا هندوسيًا اعتنق الإسلام أيام محمد بن طغلق الذى ألحقه ببلاطه هو وولده الذى استمر وزيرًا لفيروز شاه طغلق مدة عشرين عامًا . انظر (أبهارانى) .

Abha Rani: Tughluq Architecture of Delhi, Delhi 1991, p. 31.

ومن الجدير بالذكر أن ظلة القبلة تطل على صحن المسجد بكتلة بارزة فى الوسط تمثل واجهة المربعة الوسطى وعلى يمينها ويسارها منارة صغيرة وعلى كل جانب من جانبى كتلة المربعة الوسطى تطل ظلة القبلة على صحن المسجد بسبعة عقود مدببة تمثل واجهة سبع بلاطات طولية . أما البلاطة الثامنة (الطرفية) من بلاطات كل قسم من قسمى ظلة القبلة فتفتح على الظلات الجانبية وليس على صحن المسجد .

الظلتان الجانبيتان

تتشابه الظلتان الجانبيتان (الشمالية والجنوبية) فكل منهما تتكون من بلاطة واحدة تقطعها دركاة مدخل ، وعلى يمين ويسار دركاة المدخل توجد سبع مربعات كل مربعة تطل على الصحن بعقد مدبب .

الظلة الشرقية

وهذه الظلة أيضًا تتكون من بلاطة واحدة تقسمها دركاة المدخل الشرقى إلى قسمين متساويين ، كل قسم يطل على الصحن بسبعة عقود مدببة محمولة على أعمدة حجرية مربعة .

المداخل

الظاهرة الملفتة للنظر فى تخطيط هذا المسجد (شكل ٤) هى توزيع المداخل حيث يشتمل هذا المسجد على ثلاثة مداخل محورية فى منتصف الظلات الشمالية والجنوبية والشرقية . هذه المداخل الثلاثة ذات كتل بارزة عن الواجهات وأكثرها بروزًا كتلة المدخل الرئيسى (الشرقى) . وهذه المداخل الثلاثة تؤدى إلى دركاوات مربعة يعلو كل دركاة قبة . وهذه المداخل بدركاواتها تحدث مع قبة المحراب بظلة القبلة توازنًا فى التخطيط وتماثلاً ، فالقبة فى الجهة الغربية يقابلها كتلة المدخل الشرقى والتى جعلها المعمار أكبر من المدخلين الجانبيين حتى تتوازن مع ضخامة القبة . أما المدخلان الجانبيان فمتماثلان تمامًا ، وهذه الكتل الأربعة فى منتصف الظلات الأربعة (المداخل الثلاثة مع قبة المحراب) تجعل التخطيط يتمتع بتماثل الكتل والتوازن . (شكل ٤) .

مسجد كالى بمنطقة بوابة تركمان بدهلى

يوجـد هـذا المسجد بمنطقة بوابة تركمان (أحد بوابات مدينة شاه جهان آباد) بدهـلى ، ومنشـئ هذا المسجد هو الأمير خان جهان جنان شاه سنة ٧٨٩هـ سنة ١٣٨٧م . قبل وفاته بعام واحد .

تخطيط المسجد

يـتكون هـذا المسجد من مساحة مستطيلة أبعادها ٤٣ × ٣٧ متر . تنقسم إلى صـحن أوسـط مكشوف يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة . وللمسجد مدخل واحد فى منتصف الضلع الشرقى يتقدمه عدد كبير من الدرج حيث إن المسجد موجود على ربوة مرتفعة عما حولها ، وفى زوايا المسجد الأربع يوجد أربعة أبراج ثلاثة أرباع دائرة لتدعيم المسجد .

ظلة القبلة

هذه الظلة أكبر الظلات . وتتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب وسبع بلاطـات عموديـة عليه تكوّن ٢١ مربعة كل مربعة تغطيها قبة وخلف جدار المحراب يوجـد دهلـيز (ممر) عرض ٥ أمتار يفصل بين جدران المحراب وبين الجدار الغربى للمسجد وهذا الممر يعتبر من الظواهر النادرة فى مساجد الهند إذ إنه من المتعارف عليه أن المحـراب يكون فى الجدار الغربى للمسجد . ولعل وجود الدهليز هنا كان للحفاظ عـلى جـدار المحراب حيث إن المسجد كما سبق القول على ربوة عالية ولذا حرص المعمار على ألا يجعل جدار المحراب فى نهاية هذه الربوة حتى لا تتعرض أطرافها للانهيار أو الهبوط فترك هذه المساحة تأمينًا لجدار المحراب وجعل عليه جدارًا آخر وأمن الجدار الخـارجى للمسجد من جميع الجهات بأبراج ضخمة مصمته تحمى المسجد وتدعمه . (انظر شكل ٥) .

والظاهـرة الثانية الملفتة للنظر هنا هى تغطية ظلة القبلة بقباب ضحلة على مثلثات كروية وعدم تميز مربعة المحراب بل على العكس قام المعمار بتمييز قباب الزوايا فجعلها أكـبر وأوسـع . ولعل ذلك راجع أيضًا إلى أن قباب الزوايا تعتبر أيضًا كدعائم تدعم

المسجد ، ومحراب المسجد مستطيل ذو تجويف ضحل ، وذلك راجع لقلة سمك جدار المحــراب حــتى لا يمــثل ثقلاً على طرف هذه الربوة . وللمسجد منبر مبنى من ثلاث درجات حجرية صغيرة .

الظلات الشمالية والجنوبية والشرقية

وهـــذه الظـــلات الثلاث متشابهة كل ظلة تتكون من بلاطة واحدة ، وتطل الظلة الشرقية على صحن المسجد ببائكة من خمسة عقود مدببة محمولة على أعمدة أسطوانية مـــن الحجـــر . أما الظلات الشمالية والجنوبية فكل ظلة تطل على الصحن ببائكة من أربعـــة عقود أى أقل بعقد واحد من الظلة الشرقية ، ويوجد مدخل المسجد الوحيد فى منتصف الظلة الشرقية للمسجد (انظر المسقط الأفقى « شكل ٥ ») .

الطراز الثانى : مساجد تتكون من صحن وثلاث ظلات

وقـــد وصـــلنا من هذا الطراز مسجدًا ضخمًا هو المسجد الجامع بقلعة فيروز شاه طغلـــق، والذى يوجد داخل أسوار مدينة فيروز شاه طغلق [١] ليكون المسجد الجامع لقلعته (مدينته) الجديدة ، وكان ذلك سنة ٧٥٩هـــ / ١٣٦٠م .

تخطيط المسجد

فى حقـــيقة الأمـــر لم يتبق من هذا المسجد سوى أسواره الخارجية وكتلة المدخل وبعض الأساسات والأطلال التى يمكن أن تدلنا على تخطيط هذا المسجد ، حيث كان عـــبارة عن مساحة مربعة تقريبًا طول ضلعها حوالى ٤٠ مترًا يتكون من صحن وثلاث

(١) فيروز شاه طغلق هو ثالث حكام دولة بنى طغلق بالهند تولى الحكم فيها بين عام ١٣١٥ ، ١٣٨١م ، بعـــد وفـــاة ابـــن عمه محمد طغلق وعمل على إصلاح نظام الدولة واهتم بالإصلاحات والإنشاءات الداخلية خصوصًا فى دهلى وظل كذلك حتى وفاته سنة ٧٩٠هـــ ١٣٨١م ، ومما يذكر عن هذا الملك مـــن بـــاب وفائـــه لابن عمه طغلق شاه والذى كان مشهورًا بظلمه وعنفه أن جمع كل من ظلمهم واسترضـــاهم ووصـــلهم ثم جعـــلهم يكتبون إقرارات بأنهم سامحوا ابن عمه طغلق شاه وفتح مقبرته ووضعها فيها ظانًا أن ذلك يمحو عنه ذنوب ظلمهم انظر :

Elliot (H.M): The history of India as told by its own historians Vol, India, Calcutta 1871, p. 128-129.

ظلات أكبرها ظلة القبلة ثم ظلتان فى الجهتين الشمالية والجنوبية . أما الجهة الشرقية فلا يوجـد بها ظلة وإنما تطل على خارج القلعة بسور (درابزين) ضيق حيث إن المسجد أرضـيته مرتفعة جدًا عن أرضية ما حوله ويطل من جهته الشرقية على خارج القلعة ، ومـن ثم يمكن أن تستخدم هذه الجهة من الصحن (الشرقية) للدفاع عن القلعة إذا ما هوجمت من تلك الجهة . وفيما يلى تفصيل لعمارة المسجد :

الصحـــن

الصحن مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب ٣٠ مترًا ومن الشرق إلى الغرب ٢٥ مـترًا مـبلط ببلاطات من الحجر الأحمر ، ويتوسط الصحن بميل ناحية الشرق ميضأة (حـوض للوضـوء) مسـتدير قطره أربعة أمتار ، وتطل الظلات على الصحن من الجهات الغربية والشمالية والجنوبية . أما الجهة الشرقية فتطل على خارج القلعة وأرضية الصـحن مـرتفعة عن أرضية القلعة بحوالى ٧ أمتار ومرتفعة عن أرضية خارج القلعة بحوالى عشرين مترًا .

ظلة القبلة

ظلـة القبلة فى هذا المسجد على شكل مستطيل أبعاده من الشمال إلى الجنوب ٤٠ مترًا ، ومن الشرق إلى الغرب ١٥ مترًا استطعت أن أتبين بعد مسح أطلالها أنها كانت تـتكون مـن ثـلاث بلاطات موازية لجدار المحراب و ١٣ بلاطة عمودية على جدار المحراب بالجدار الغربى ، منها (جدار المحراب) يوجد ١٣ محرابًا فى النهاية الغربية لكل بلاطـة من البلاطات الطولية المحاريب الخمسة ، الوسطى أكبر عمقًا وارتفاعًا من باقى المحاريـب ، و لم يتبق من ظلة القبلة سوى جدار المحراب (الجدار الغربى) وبه المحاريب وأمـام المحـراب الرئيسى الأوسط كان يوجد قبة تعلو المربعة التى تتقدم هذا المحراب (انظـر المسقط الأفقى لبقايا المسجد ومحاولة لإكمال مخطط المسجد الأصلى من عمل الباحث شكل رقم ٦) .

الظلة الشمالية

هـذه الظلة تتكون من بلاطة واحدة و لم يتبق من هذه الظلة سوى الجدار الشمالى وبـه عدد من الدخلات بداخلها نوافذ ، ونستطيع أن نتبين عن طريق هذه الدخلات

وبعض قواعد الدعامات أن هذه الظلة كانت تتكون من بلاطة واحدة مقسمة إلى سبع مربعات بعدد الدخلات الموجودة فى الجدار بواقع دخلة بها نافذة فى الجهة الشمالية من كل مربعة ، وتشغل المربعة الثانية من هذه الظلة من جهة ظلة القبلة دركاة المدخل الوحيد للمسجد وهذه الدركاة لا زالت باقية حتى الآن وهى دركاة مربعة طول ضلعها ٤ أمتار تغطيها قبة تبرز عن سمت الواجهة . ويتقدم المدخل سلم ذو ثلاثة أطراف يصعد منه إلى داخل هذه الدركاة والتى فتح بها ثلاثة مداخل معقودة من ثلاث جهات ، وهذا السلم يتكون من عشر درجات حيث إن المسجد كما سبق القول على ربوة مرتفعة ومعلق من الجهة الشمالية على دعائم وأسفل المسجد من هذه الناحية توجد مخازن وقاعات انظر شكل (٦) .

الظلة الجنوبية

وهذه الظلة تتكون من بلاطة واحدة تنقسم إلى ست مربعات كل مربعة تطل على خارج المسجد بنافذة مستطيلة معقودة وهذه الظلة هى الأخرى مندرسة ولم يتبق منها سوى الجدار الجنوبى منها ، والذى يتكون من عدد من الدخلات بداخلها نوافذ بواقع دخلة معقودة لكل مربعة من مربعات هذه الظلة . (انظر شكل ٦) .

وأخيرًا فهذا المسجد يعد هو المسجد الوحيد الذى وصلنا فى دهلى قبل عصر المغول يتكون من صحن وثلاث ظلات ، ولعل الذى تحكم فى ذلك وفى عدم وجود ظلة رابعة كما سبق القول هو أن هذه الجهة تطل على خارج القلعة ووجود ظلة فى هذه الجهة يقلل من متانتها ويعرقل جهود الدفاع إذا ما هوجمت القلعة من هذه الجهة .

الطراز الثالث : مساجد من صحن وظلتين

وقد وصلنا من هذا الطراز فى دهلى مسجدًا كبيرًا وهو مسجد باراجومباد(١) بمنطقة (حديثة لودى) بدهلى ومنشئ هذا المسجد غير معروف ولكن تاريخ إنشائه مسجل داخل المسجد وهو سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م) وهى فترة حكم إسكندر

---

(١) باراجومباد كلمة هندية (أوردية) تتكون من مقطعين بارا بمعنى ١١ وجومباد بمعنى تربة (مقبرة) فهى تعنى المقابر الإحدى عشرة .

لـــودى (١٤٨٩ : ١٥١٧م) والـــذى توجـــد مقبرته بالقرب من المسجد على هذا الأســـاس ، وأيضًا وجود هذا المسجد فى منطقة مليئة بالآثار التى ترجع إلى فترة حكم بنى لودى وخلفائه ، وهى المنطقة المعروفة حاليًا باسم « لودى جاردن » بناء على كل ذلك وعلى التاريخ المثبت على المسجد .

ظلـــة القـــبلة مســـتطيلة الشكل امتدادها من الشمال إلى الجنوب ٢٨ مترًا ، ومن الشـــرق إلى الغرب ٧ أمتار مكونة من بلاطة واحدة مقسمة إلى خمس مربعات يغطى الثلاثة الوسطى منها قباب والاثنتان الطرفيتان يغطيهما سقف حجرى مسطح ، وتطل هـــذه الظلة على صحن المسجد بخمس فتحات معقودة بعقود مدببة محمولة على دعائم حجرية ومناطق انتقال هذه القباب مثلثة نشأت من وجود عقود حاملة لهذه القباب ، وقد زخرفت بكتابات قرآنية ، وبالجهة الغربية من كل مربعة يوجد محراب ذو مسقط مستطيل . شكل (٧) .

الظلة الشرقية

وهـــذه الظلة بنفس حجم ظلة القبلة وتنقسم أيضًا إلى خمس مربعات تغطى المربعة الوســـطى قبة والمربعتان على جانبيها يغطى كلاً منهما سقف حجرى مسطح ، وتطل كل مربعة على الفناء بفتحة معقودة بعقد مدبب تقابل المربعة نظيرتها بظلة القبلة .

وأخـــيرًا فالملاحظ فى تخطيط هذا المسجد التماثل بين ظلة القبلة والظلة المقابلة فى المســـاحة وعدد البلاطات وعدد الفتحات المطلة على الصحن ، وذلك باستثناء الدرج المـــؤدى إلى الصحن والذى كان لـــه الأثر فى تخطيط المسجد وعـــدم تماثل التخطيط والتوازن على جانبى الصحن (شكل ٧) .

الطراز الرابع : المساجد المتعددة الصحون

وقد وصلنا من هذا الطراز فى دهلى قبل عصر المغول ثلاثة مساجد هى :

- مســـجد قوة الإسلام (قطب منار) بعد زيادة السلطان التمش وزيادة السلطان علاء الدين الخلجى .
- مسجد خيركى .
- مسجد كالان بحى نظام الدين بدهلى .

(أ) مسجد قوة الإسلام بعد زيادة التمش وعلاء الدين :

كان المسجد الأول الذى بناه قطب الدين أيبك - كما سبق القول - يشتمل تخطيطه على صحن أوسط وأربع ظلات . وبعد وفاة السلطان قطب الدين أيبك خلفه السلطان التمش[١] الذى أحس بأن المسجد قد ضاق على المصلين فأمر بتوسعته من الجانبين ومن الجهة الشرقية فأضيف إلى المسجد من جهة الشمال وأيضًا من جهة الجنوب فناء مستطيل الشكل أبعاده ٥٠ متر من الشرق إلى الغرب و٢٥ متر من الشمال إلى الجنوب ومدت ظلة القبلة فى المسجد الأصلى لتشمل الجزء الغربى من الفناءين المضافين[٢] . وقد أضيف إلى الجهة الشمالية من الفناء الشمالى وإلى الجهة الجنوبية من الفناء الجنوبى وإلى الجهة الشرقية من الفناءين والمسجد الأصلى ظلات من ثلاث بلاطات فى كل جهة .

وقد نتج عن هذه الزيادة أن أصبح مسجد قوة الإسلام يشتمل على ثلاثة صحون هى:

- صحن المسجد الأصلى
- صحن فى الزيادة الشمالية .
- صحن فى الزيادة الجنوبية .

هذا بالإضافة إلى ممر يصل بين الصحنين المضافين إلى المسجد ويمتد بالجهة الشرقية من المسجد الأصلى برض ٧ أمتار وطول الضلع الشرقى من المسجد .

---

(١) السلطان التمش هو شمس الدين التمش كان مملوكًا لقطب الدين فأعتقه وعينه صاحبًا لعسكره وبعد وفاة قطب الدين أيبك ٦٠٧هـ اعتلى العرش وقضى على منافسيه ، وكان سلطانًا عادلاً اشتهر بالعدل ومن سننه فى ذلك أنه استن سنة لدفع المظالم وأخذ الحق للمظلوم حيث كان أهل الهند يلبسون الثياب البيضاء عند الصلاة فى يوم الجمعة (المسجد الجامع) فأمر بأن يلبس كل مظلوم الثياب المصبوغة حتى إذا ما رآه أحد أمرائه علم أنه مظلوم فنظر مظلمته . أنظر : عبد الحى الحسنى الندوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(2) page: Op. Cit p. 12- Wahsen : Islamisches Indien, Berlein, 1972 p. 14.

نقاط الاختلاف بين زيادة التمش والمسجد الأصلى

ومـــن خلال زيارتى لهذا المسجد ودراسته أستطيع أن أوجز أهم نقاط الاختلاف بين المسجد الأصلى والزيادة التى أضافها السلطان التمش فى النقاط الآتية :

أصبح المسجد متعدد الصحون .

عدم وجود قباب فوق الظلات التى أضافها التمس باستثناء امتداد ظلة القبلة الذى وجد فيه ثلاثة قباب فى كل جانب من جانبى الظلة الأصلية .

عـــدم اســتخدام أعمـــدة من معابد قديمة وإنما استخدام أعمدة صنعت خصيصًا للمسجد .

جعل السلطان التمس للزيادة ثلاثة مداخل محورية .

أضـــاف الســلطان الــتمش بركة كبيرة فى وسط كل فناء من الفنائين الجانبيين للوضوء .

أنظر المسقط الأفقى شكل (٢) والمنظور شكل (٣) .

زيادة السلطان علاء الدين الخلجى

والســـلطان علاء الدين الخلجى من أشهر سلاطين الدولة الخليجية وفى عهده قام بتوســـعة المســـجد توسعة لم يسبق لها مثيل ، وتشمل هذه التوسعة توسعة المسجد من جهـــة الشـــمال وإضافة مساحة إليه قدر مساحته ثم توسعة المسجد من جهة الشرق وأضـــاف إلـــيه قدر نصف مساحته أى أن المسجد أصبح فى عهد علاء الدين الخلجى ثلاثة أضعاف مساحته فى عهد السلطان التمش أنظر المسقط الأفقى شكل ٢ والمنظور شكل (٣) .

وقـــد مدت ظلة القبلة بالضلع الغربى من الزيادة الشمالية للمسجد وبنفس أسلوب المســـجد المعمـــارى فى عهد التمش وغطيت هـــذه الظلة بعدد من القبـــاب عددها تســـع قباب ذات قطـــاع مخروطى الشكل كما أضـــيفت ظلة بالجهة الشمالية من

هـــذه الزيادة طولها ١٢٠ متر من الشـــرق إلى الغرب وعرضها ١٢ متر من الشمال إلى الجـــنوب مقســـمة إلى ثلاث بلاطات ، كما أضـــيفت ظلة فى الجهة الشرقية من الـــزيادة الشرقية للمسجد امتدادها من الشمال إلى الجنوب ٢٥٠ متر ومن الشرق إلى الغرب ١٢ متر .

وقـــد نتج عن هذه الزيادة أن أصبح للمسجد أربعة أفنية الثلاثة الموجودة من عهد التمش وفناء آخر من فناءين متعامدين إلى الشرق والشمال من مسجد السلطان التمش (أنظر شكل ٢ ، شكل ٣) .

وقـــد أضاف السلطان علاء الدين الخلجى إلى المسجد منارة ضخمة لم يتبقى منها الآن ســـوى قاعدتها ويـــبلغ قطر هذه المنارة ٥٤ متر وارتفاع قاعدتها ٤٠ متر وهى فى ذلـــك تعـــد من أضخم بل أضخم منارات العالم الإسلامى على الإطلاق وتوجد هذه المنـــارة فى وسط الجزء الشـــمالى من فناء الزيادة التى أضافها علاء الدين الخلجى (شكل ٢، ٣) .

كمـــا أضاف السلطان علاء الدين بوابة ضخمة بجوار منارة السلطان قطب الدين أيبك .

(ب) مسجد خيركى : [١]

ظُلّة القبلة

يوجد مسجد خيركى فى شمال دهلى فى قرية معروفة بنفس اسم المسجد ، ويرجع هـــذا المســـجد إلى عصـــر دولة بنى طغلق ، وينسب إلى الأمير خان جهان جنان شاه (شـــأنه فى ذلـــك شأن مسجد « بيجمبورى » ومسجد « كالى ») ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى سنة ٧٥٣هـــ / سنة ١٣٢٥م .

---

(١) خيركـــى كلمة هندية معناها النوافذ ولعل السبب فى تسمية هذا المسجد بهذا الاسم هو اشتماله على عدد ضخم من النوافذ ثم سميت القرية على اسم المسجد .

تخطيط المسجد

يتكون المسجد من مساحة مربعة طول ضلعها حوالى ٥٠ مترًا بأركانها الأربعة أبراج يقل قطرها كلما اتجهنا إلى أعلى ، وتشتمل مساحة المسجد على أربعة صحون متساوية فى المساحة كل صحن مربع طول ضلعه عشرة أمتار ، وهذه الصحون الأربعة تتوسط المسجد بحيث يبتعد كل صحن عن جدار المسجد المقابل له بحوالى عشرة أمتار ويبتعد كل صحن عن الصحن الآخر أيضًا بحوالى عشرة أمتار .

ومساحة المسجد حول هذه الصحون الأربعة (المناور الأربعة) مقسمة إلى مربعات مغطاة بقباب ضحلة قائمة على عقود مدببة .

وللمسجد ثلاثة مداخل محورية بارزة مدخل فى منتصف كل ضلع من الأضلاع الشمالى والجنوبى والشرقى . أما منتصف الضلع الغربى فبه بروز يشبه كتلة المداخل الثلاثة يقابل تجويف المحراب الرئيسى .

ونستطيع أن نجمل الظواهر الملفتة للنظر فى تخطيط هذا المسجد فى النقاط الآتية :

١ – تعدد الصحون حيث إن هذا التخطيط ذا الصحون الأربعة المتساوية لم يظهر قبل هذا المسجد فى الهند ، والملفت للنظر فى ذلك أن هذا النوع من التخطيط قد انتشر فى بلاد المغرب ، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل : هل هناك علاقة بين تخطيط المساجد المتعددة الصحون فى دهلى وتخطيط المساجد المغربية ، وهل الطرق التجارية وانتقال التجار يمكن أن يكون سببًا فى نقل هذه التقاليد المعمارية من المغرب إلى الهند أو العكس ؟ وإذا كان الحال كذلك ، فلماذا لم ينتشر هذا النوع من التخطيط فى البقاع والدول الواقعة بين الهند والمغرب وعبر كل هذه البلاد دونما تأثير فيها ليؤثر مباشرة فيما يليها ... كل هذه التساؤلات وبعد المسافة بين البلدين وعدم وجود تأثير تدريجى على الدول المحصورة بينهما والتى كانت تربطها علاقة أقوى من علاقة الهند بالمغرب مثل مصر وعدم تشابه المناخ بين بلاد المغرب ودهلى ، فدهلى شديدة الحرارة والمغرب بلاد معتدلة الحرارة ... كل هذه الأسباب مع عدم وجود وثائق تفيد انتقال معماريين أو عمال من الهند إلى المغرب أو العكس تجعلنا لا نقطع بوجود تأثير متبادل بين البلدين .

وفى اعتقادى أن السبب فى ظهور هذا الطراز من المساجد هو :

- الرغبة فى توزيع الإضاءة فى سطح المسجد .

- الرغبة فى تحقيق التماثل فى أجمل صورة .

ويؤكد ذلك أن المعمارى بلغ من حرصه على التماثل أن شكل البروز خلف المحراب بشكل يشبه كتلات المداخل الثلاثة الموجودة على المحاور الثلاثة الأخرى من محاور المسجد .

١ - التماثل الشديد .

٢ - تغطية جميع سطح المسجد بقباب ضحلة .

٣ - المسجد معلق يتكون من طابقين شأنه فى ذلك شأن مسجد قلعة فيروز شاه طغلق .

٤ - كثرة النوافذ (خيركى) للإضاءة والتهوية . ونستطيع القول أن النوافذ الكثيرة مع الصحون الأربعة قد جعلت المسجد لا يحتاج إلى إنارة فى النهار ولا إلى تهوية فى فصل الصيف القائظ ، والذى يتعدى الخمسين درجة مئوية فى فصل الصيف فى شهرى إبريل ومايو . (انظر المسقط الأفقى شكل (٨)) .

(جـ) مسجد كالان بحى نظام الدين بدهلى :

يوجد هذا المسجد بمنطقة نظام بدهلى بالقرب من ضريح الشيخ نظام الدين [١] ، ومنشئ هذا المسجد هو نفس منشئ المسجد السابق (مسجد خيركى) وهو الأمير جهان جنان شاه رئيس الوزراء فى عهد فيروز شاه طغلق ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا

---

(١) الشيخ نظام الدين من كبار رجال الصوفية فى بلاد الهند ولد فى مدينة بدوان سنة ١٢٣٦م ، وفقد أباه وهو فى سن الخامسة من عمره ثم جاء إلى دلهى مع والدته حيث رافق الشيخ الصوفى المعروف فريد شاكر جانج الذى اتخذه كمساعد لـه ثم توفى فريد شاكر وبدأ نجم الشيخ نظام الدين يلمع وقصده المريدون من جميع الأنحاء وتوفى سنة ١٣٢٤م . انظر : سيد دانيال نظامى سجادة تشين : دركاة حضرة خواجة نظام الدين أوليا أنديا ١٩٩٠ نمبر ٣ .

المسجد إلى نفس تاريخ إنشاء مسجد خيركى ، وقد جرى على المسجد تجديد فى عهد ابنه الأمير « جنان شاه مقبول » سنة ٧٧ هـ سنة ١٣٧٠م ، وسجل هذا التجديد فى لوحة أعلى المدخل الرئيسى (الشرقى) قرأتها أثناء دراستى للمسجد .

تخطيط المسجد

تخطيط مسجد كالان يكاد يكون نسخة من تخطيط مسجد خيركى حيث يتشابه معه فى وجود الصحون الأربعة ، والمداخل الثلاثة المحورية البارزة ، وكتلة بروز المحراب التى تشبه كتلة المداخل ووجود الأبراج فى زوايا المسجد ، والتغطية بقباب ضحلة على عقود مدببة .

ويختلف مسجد كالان عن مسجد خيركى فى نقاط طفيفة وهى :

ظلة القبلة فى مسجد كالان أكبر من باقى الظلات حيث تشتمل على ثلاث بلاطات بعكس باقى الظلات التى تتكون من بلاطة واحدة .

تفصل بين الصحون الأربعة بلاطة واحدة وليس ثلاث بلاطات كما هو الحال فى مسجد خيركى .كتلة المحراب أقل بروزًا من كتلات المداخل الثلاثة فى مسجد الآن بينما نجدها مماثلة للمداخل تمامًا فى مسجد خيركى .

(انظر شكل ٩) وقارن بينه وبين شكل (٨) .

الطراز الخامس : مساجد تتكون من مربع يغطيه قبة

وفى هذا الطراز يتكون المسجد من مساحة مربعة تغطيها قبة ، ويتبع هذا النظام مسجد « خيزر خان » بمنطقة نظام الدين بدهلى إلى الغرب من ضريح الشيخ نظام الدين وعلى بعد حوالى عشرة أمتار فقط إلى الغرب من مقامه .

ومنشئ هذا المسجد هو الأمير خيزر خان بن السلطان علاء الدين الخلجى ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى سنة ٧٢١هـ وسنة ١٣٢١م . وقد سجل تاريخ إنشاء هذا المسجد ومنشئه على رقبة قبة المسجد من الداخل .

تخطيط المسجد

تخطيط المسجد بسيط للغاية حيث يتكون من مربع طول ضلعه عشرون مترًا تغطيه قبة كبيرة قائمة على حنايا ركنية وبالجهة الغربية من جدار المسجد يوجد المحراب ، وهو محراب له مسقط مستطيل قليل العمق عليه كتابات قرآنية وعلى يسار المحراب يوجد منبر رخامى من ثلاث درجات ، وبالجدار الشمالى للمسجد توجد ثلاث دخلات إحداها وهى الشرقية فتح بها نافذة معقودة ، وكذلك الحال بالنسبة للجدار الجنوبى الذى يشبه الجدار الشمالى تمامًا فى الدخلات والنوافذ – وبالجدار الغربى توجد دخلتين على يمين ويسار المحراب سدتا الآن وتستخدما كتبيتين .

وللمسجد مدخل واحد بمنتصف الضلع الشرقى للمسجد على محور المحراب وهو مدخل ذو حجر غائر موجود داخل دخله معقودة بعقد مدبب ومن الجدير بالذكر أن طراز المسجد القبة لم ينتشر بعد ذلك بدهلى وإنما انتشر فى البنغال (شمال شرق الهند) بنجلاديش الحالية كما فى مسجد شامكاتى، وأخيرًا وبعد هذا العرض لمساجد دهلى قبل عصر المغول نستطيع أن نتبين أن هذه المجموعة من المساجد التى أنشئت فى دهلى فى عهد الدول الإسلامية التى سبقت حكم الدولة المغولية قد اشتملت على معظم الطرز المتعارف عليها فى تخطيط المساجد وهو ما يعكس لنا مدى تقدم فن العمارة وتخطيط المساجد فى تلك الدول ذات التاريخ والحضارة والآثار الخالدة التى لم تأخذ حقها فى الشهرة مثل آثار الشرق الأوسط أو آثار الهند فى عصر المغول ولذا كان هذا البحث الذى حاولت أن أبرز فيه طرز تخطيط هذه المساجد والذى اعتمدت فيه على الدراسة الميدانية بالإضافة إلى ما توافر من مراجع ومصادر لعلماء هنود أو أجانب وقمت بعمل مساقط أفقية للمساجد التى لم يتوافر لى الحصول على مساقط لها من المراجع من الطبيعة مباشرة كما قمت بعمل إعادة بناء وإكمال لتخطيط المسجد الذى اندثرت أجزاء منه وهو مسجد فيروز شاه طغلق فى محاولة لإكمال طرز المساجد فى دهلى قبل عصر المغول وحصرها وبيان مميزاهما .

* * *

مراجع البحث

أولاً : المخطوطات

١ - ابـن عـرب شاه (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى) : عجائب المقدور فى أخبار تيمور المعروف باسم تاريخ تيمور ، نسخة مخطوطة مؤرخة سنة ١٨٤٨م محفوظة بقسم المخطوطات، مكتبة أزاد - عليكرة الهند تحت رقم ٣٣٥/١٥ تاريخ عرب .

٢ - فرشته (محمد قاسم) : تاريخ شاهانى مفل ، مخطوط مؤرخ سنة ٩٩٨هـ محفوظ بقسم المخطوطات مكتبة أزاد - عليكرة - الهند - تحت رقم ٣٣/٣٤٣ تاريخ فارس .

٣ - لودى (عبد الحكيم خان) حياة لودى ، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات ، مكتبة آزاد - عليكرة - الهند - تحت رقم ٤٧/١٩٤ تاريخ فارس .

ثانيًا : المصادر والمراجع العربية والفارسية المطبوعة

١ - ابن كثير (الإمام الحافظ أبو الفداء) : البداية والنهاية فى التاريخ الإسلامى - الجزء التاسع - مطبعة السعادة ، بدون تاريخ طبع .

٢ - سيد دانيال (نظامى سجادة تشين) : دركاة حضرة خواجة نظام الدين أوليا ، إنديا ١٩٩٠ نمبر ٣ .

٣ - العـبد (عبد المجيد) : الإسلام والدولة الإسلامية فى الهند ، الطبعة الأولى ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٩٣٩م .

٤ - العتبى (الشيخ أبو نصر): تاريخ العتبى المسمى بالفتح الوهبى - الهند ، حيدر آباد ١٣٤٨هـ .

٥ - الـندوى (المؤرخ الهندى عبد الحى الحسنى م ١٣٤١هـ) : تاريخ الهند فى العهد الإسلامى ، طبعة حيدر آباد ١٩٧٢م .

٦ - النمر (د. عبد المنعم) : تاريخ الإسلام فى الهند ، الطبعة الثالثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

٧ - مباركيورى (القاضى أطهر) : العرب والهند فى عهد الرسالة ترجمة عزت عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

المراجع الأجنبية

1 - Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood, Delhi 1990.

2 - Briggs (John): History of the rise of the Mohamedan power of India, Calcuta 1910 .

3 - Desai: Mosques of India, Delhi 1990.

4 - Elliot (H. M): The history of India as told by its own historians, vol 1 India, calcuta 1871.

5 - Futuhs - Salatin (Shah namah 1 hind of islam volume three translation and commantory Agha mahdi husain, center of advanced study aligarh muslim university 1977.

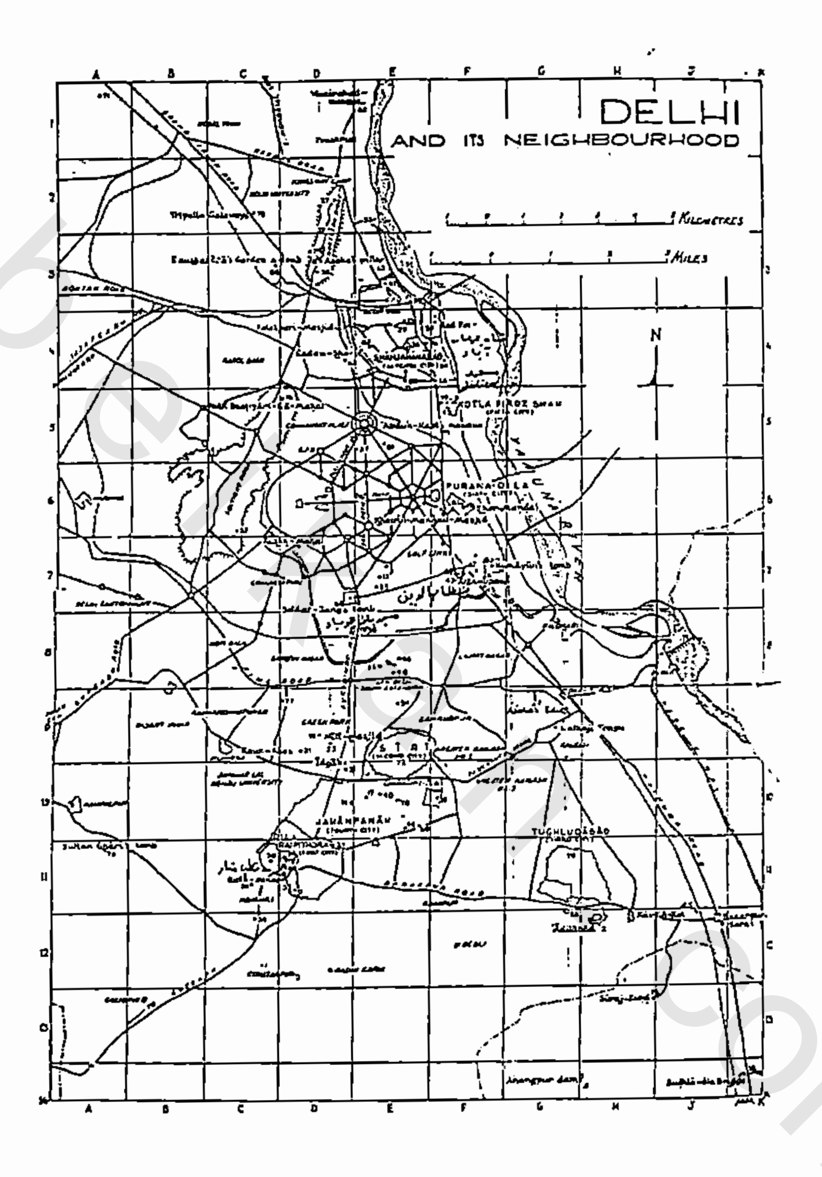
6 - Habib (mahmod): Sultan mahmod of Ghazin new Delhi 1967 .

7 - Nath ®: History of sultanate architecture, new Delhi 1985 .

8 - Page (J-A): A Gide to the Qutb Delhi jodhpur, India 1986.

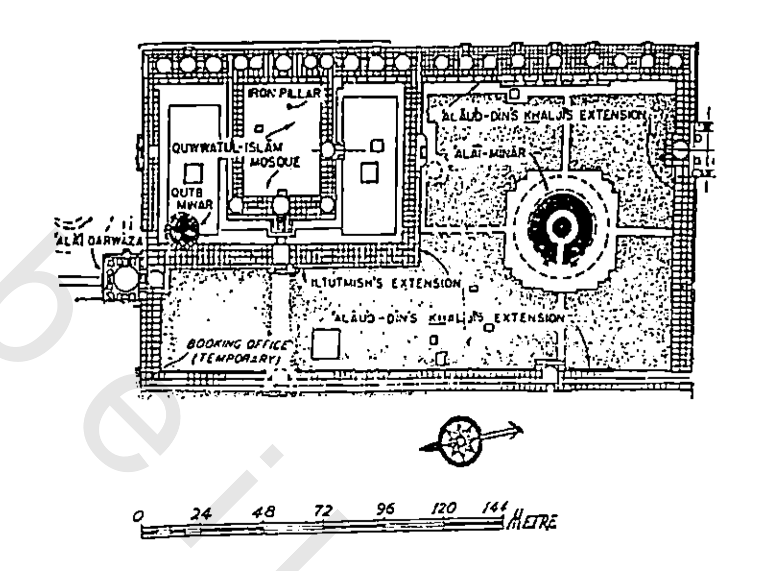
9 - Rani (or Abha): tughluq architecture of Delhi, Delhi 1991.

10 - Wahsen (Vol): Islamisches indien , Berlein 1972.



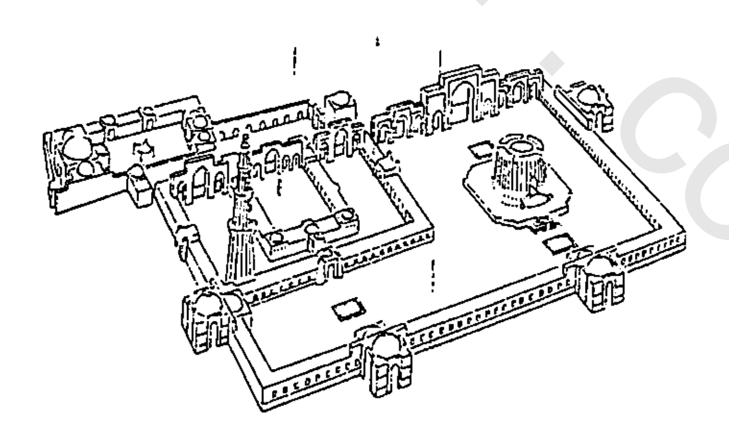
شكل (١) خريطة لمدينة دهلي (دلهي) وضواحيها وأهم مناطقها الأثرية نقلاً عن مصلحة الآثار الهندية – وزارة الثقافة والتراث الهندي .

Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood, Delhi 1990 pL XXVIII.



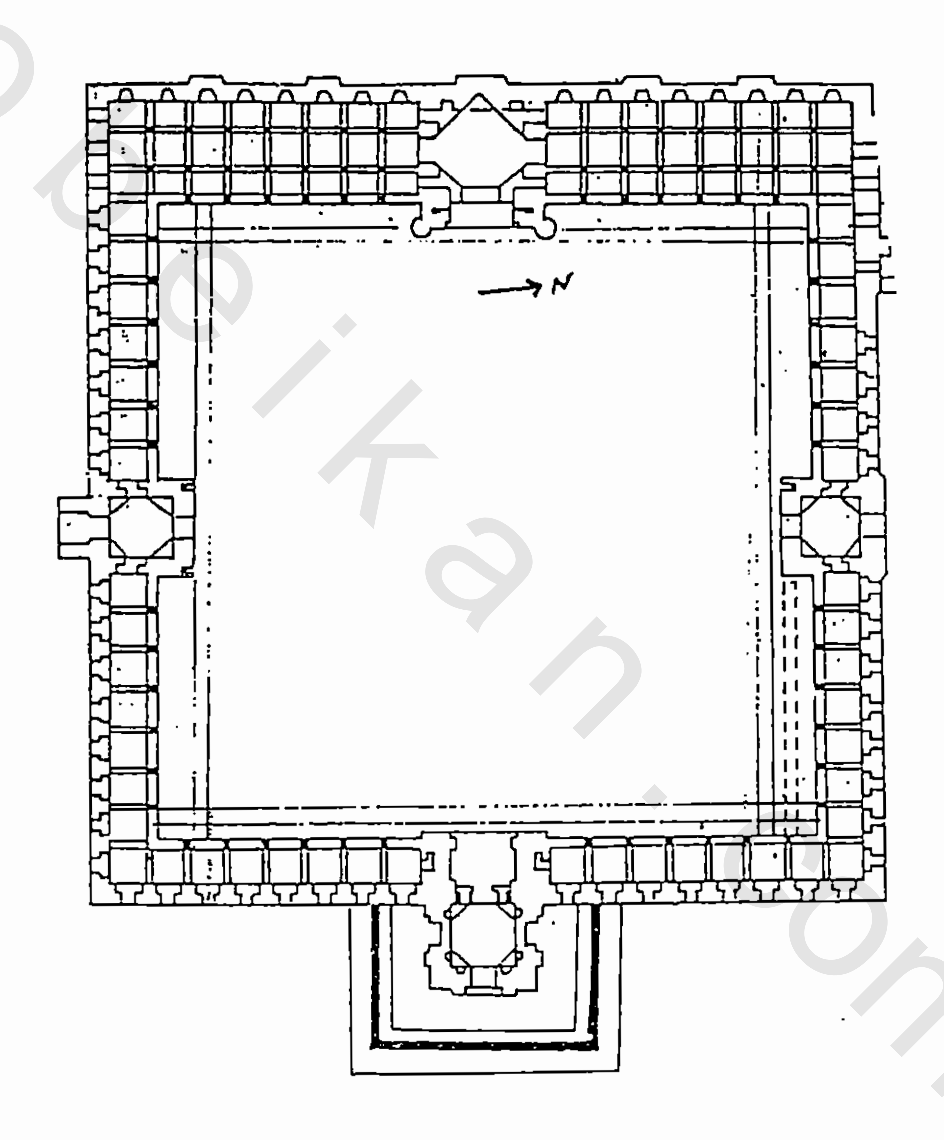
شكل (٢) مسقط أفقى لمسجد قوة الإسلام (قطب منار) بدهلى وزياداته عن مصلحة الآثار الهندية .

Archaeological survey of India: Ibid, P. 16.



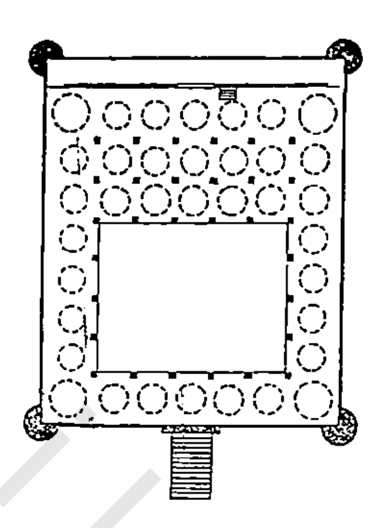
شكل (٣) منظور لمسجد قوة الإسلام وملحقاته وزياداته (عن دوش) .

Whoshsen oosh: Islamisches Indien , Berlein 1972, p. 14.



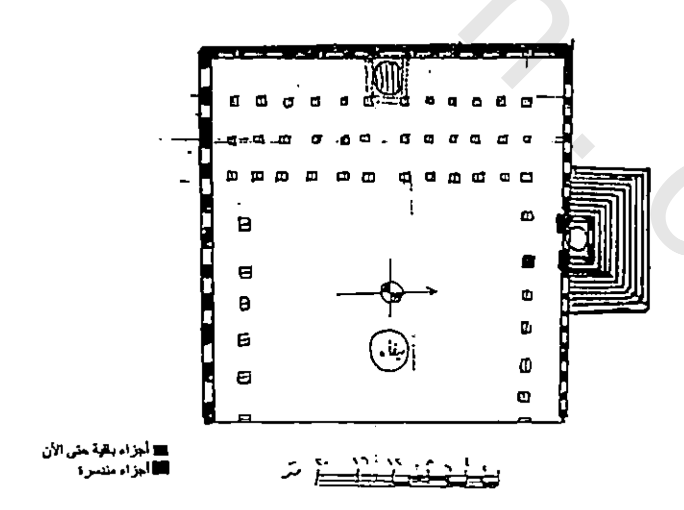
شكل (٤) مسقط أفقى لمسجد (بيجمبورى) بدهلى (عن أبهارانى) .

Abha Rani : Tughluq Architecture of delhi, delhi 1991, Fig 4.

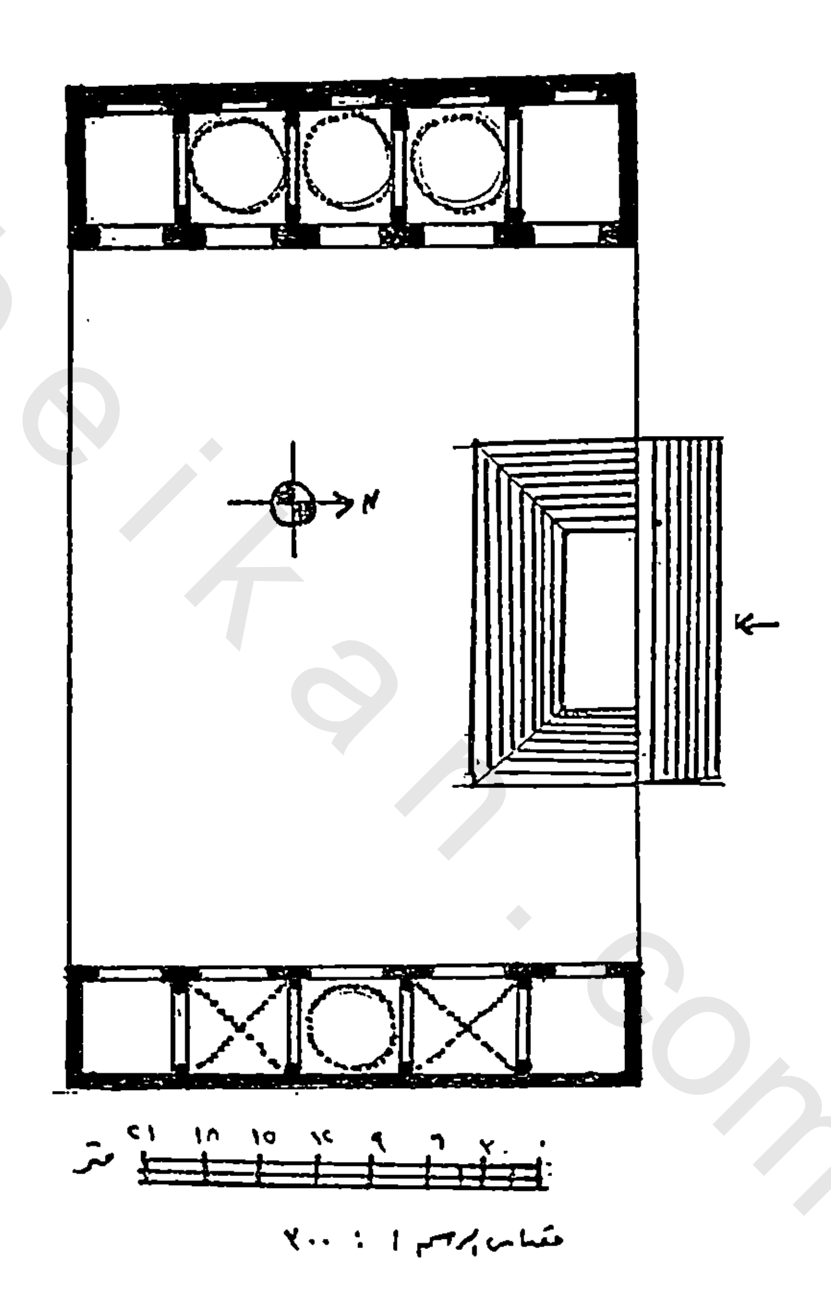


شكل (٥) مسقط أفقى لمسجد « كالى » بمنطقة بوابة تركمان بدهلى « عن ناث » .

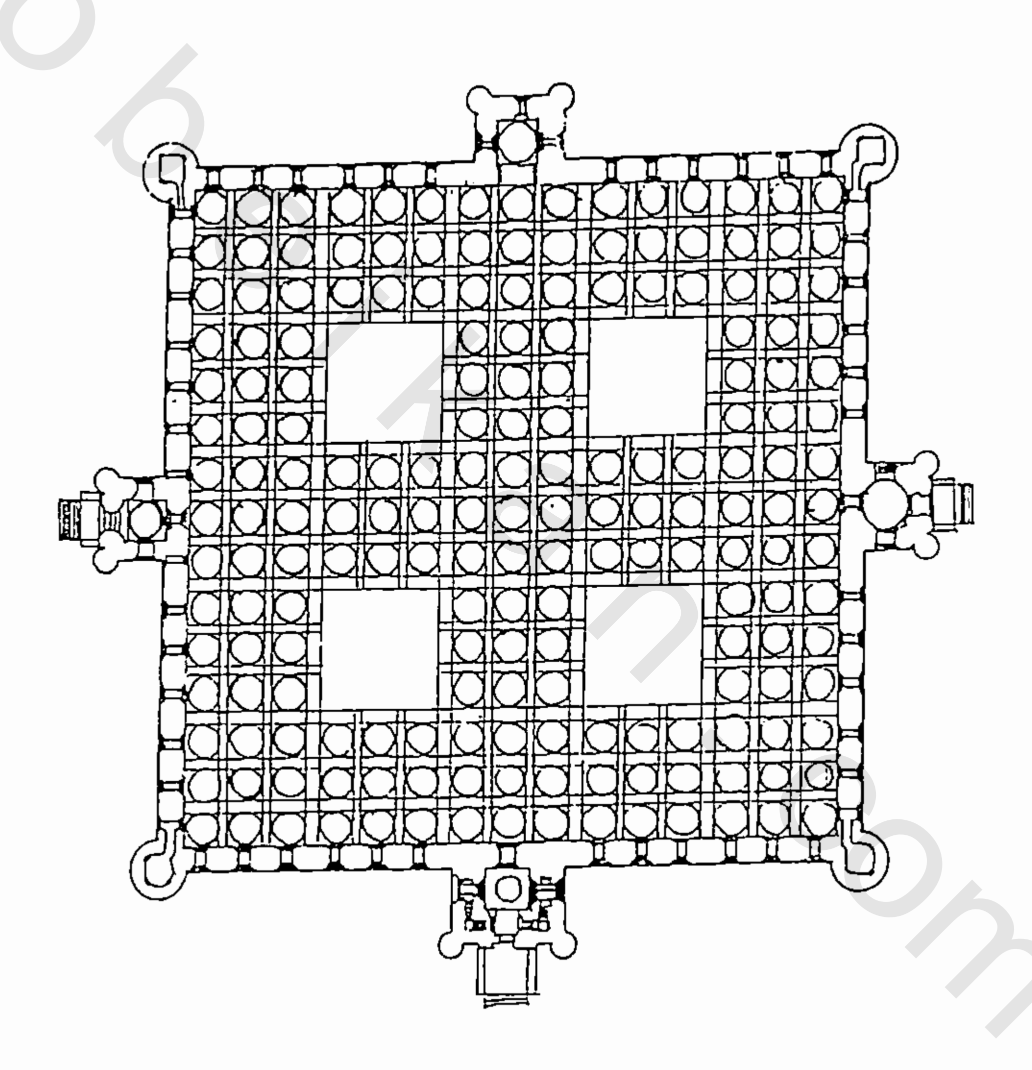
Nath ®: History of sultanate Architecture, new Delhi 1985 , Fig 24.



شـــكل (٦) مسقط أفقى للمسجد الجامع بقلعة فيروز شاه طغلق روعى فيه تكملة المسجد (من عمل المؤلف) .

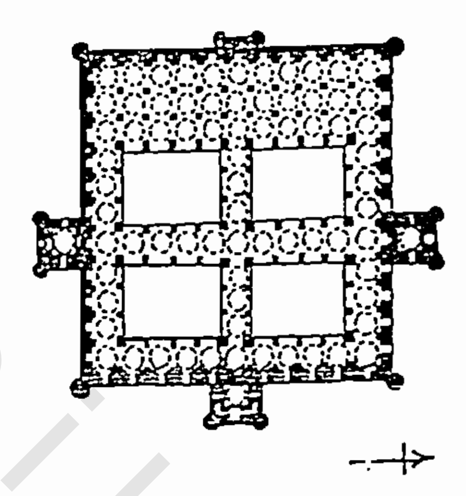


شكل (٧) مسقط أفقى لمسجد « باراجومباد » بدهلى . « من عمل المؤلف » .



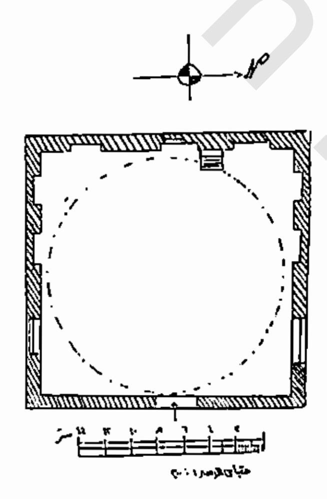
شكل (٨) مسقط أفقى لمسجد « خيركى » بدهلى « عن أبهارانى » .

Abha Rani : Op. Cit, Fig 7.



شكل (٩) مسقط أفقي لمسجد « كالان » بمنطقة نظام الدين بدهلي (عن ناث) .

Nath: Op. Cit, Fig 35, P. 69 .



شكل (١٠) مسقط أفقي لمسجد « خيزر خان » بحي نظام الدين بدهلي (من عمل المؤلف) .

بنو زَهْر ودورهم فى ازدهار الطب فى الأندلس

فى القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد

إعداد الدكتور

حسن خضيرى أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادى

بنو زَهْر ودورهم فى ازدهار الطب فى الأندلس فى القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد

بنــو زُهْــر :

يتصـــل نسب بنى زهر بإياد بن نزار بن معد بن عدنان [١] ، وزهر هو الجد الأعلى للفرع الأندلسى من قبيلة إياد ومنه تفرع أبناء زهر ، قدم زهر بن إياد إلى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ، واستقر فى مدينة شاطبة[٢] شرق الأندلس[٣] .

---

* أتيحت لى فرصة الحصـــول على مهمة علمـــية من جامعة بتســـبرج (Pitt. U.,) بالولايات المتحدة الأمريكـــية فى الفـــترة من ٥ أكتوبر ٢٠٠٠ إلى ٥ أبريل ٢٠٠١ ، زرت خلالها العديد من المكتبات والمراكز البحثية ، واطلعت على المصادر والدراسات التى أمدتنى بمادة وفيرة استفدت منها فى إعداد هذه الدراسة .

(١) يذكـــر الهمدانى نقلاً عن محمد بن السائب الكلبى ، أنه سمع عبد الله بن عباس عندما سأله رجل عن ولد نزار بن معد ، فقال : « هم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار » ، وكانت منازل إياد بين وعلان وحذار جنوب صنعاء ، ثم انتقلوا إلى تهامة ، يقول الشاعر :

مـــاذا أؤمل بعـــد آل محـــرق   تركـــوا منازلهـــم وبعـــد إياد

ثم رحـــل بعضـــهم إلى العراق . (الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) « المتوفى فى النصـــف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى » : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عـــلى الأكوع ، بيروت ١٩٨٣، ص٨٣، ص ٢٨٦، ص٣٣١، ص٣٣٢، الإكليل، جـــ ١٠، تحقيق محـــب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـــ ، ص ١٩٠ ، أما المسعودى فيذكر فى أخبار ولد نزار بن معـــد بـــن عدنان أن ربيعة ومضر ، هما الصريحان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وإياد وأنمار مع تنازع النساب فيهما من اليمن ، يقول الكميت بن زيد الأسدى :

إيـــاد حين تنســـب من معـــد   وإن رغمت أنـــوف الراغمـــينا

وكانوا فى الـــذؤابة من نـــزار   وأهـــل لوائهـــا مترزنينـــــا

(المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـــ/٩٥٦م) : التنبيه والإشراف ، دار الصاوى للنشر ، القاهرة (د. ت)، ص ١٥٩ .

(٢) شـــاطبة : مدينة فى شرق الأندلس متقنة حصينة ، وهى كريمة البقعة ، كثيرة الثمار طيبة الهواء ، وهى حاضرة آهلة بالسكان ، بها جامع ومساجد وفنادق وأسواق .

(الحميرى، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـــ/١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠، ص٣٣٧ .

(٣) الـــمَقَّرى ، أحمد بن محمد الـــمَقَّرى التلمسانى (ت ١٠٤١هـــ / ١٦٣١م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـــ / ١٩٨٨م، جـــ ٣، ص ٤٣٢ .

علـى أن هـذه الأسرة اشتهرت بنبوغ أفرادها فى الفقه ، والعلم والأدب ، فكان منهم الفقهاء والأطباء والشعراء والوزراء ، يصفهم ابن خلّكان[(١)] بقوله : « .. كلهم علماء رؤساء حكماء ، ووزراء ، نالوا المراتب العليا ، وتقدموا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم » ، وقد تميز من هذه الأسرة ستة أطباء تعاقبوا فى التربع على عرش الطب فى القرنين الخامس والسادس للهجرة / العاشر والحادى عشر للميلاد[(٢)] ، ويتعذر الاهتداء إلى أية أسرة عربية أخرى نبغ فيها هذا العدد المتلاحق من مشاهير الأطباء ، الذين حملوا مشعل العلم على مدى قرنين من الزمان ونيف ، فى عهد الظلام الدامس للعصور الوسطى[(٣)] .

أما مروان بن زهر ، فتضن علينا المصادر ، ولا نعرف الكثير عنه ، بينما ابنه محمد ابن مروان بن زهر ، فيقول ابن دحية[(٤)] : « كان عالمًا بالرأى ، حافظًا للأدب ، فقيهًا حاذقًا بالفتوى ، مقدمًا فى الشورى ، متفننا فى الفنون ، جمع الرواية والدراية» ، وحدث عنه جماعة من علماء الأندلس ، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل[(٥)] .

لما اشتهر أمر الفقيه محمد بن مروان ، وطار ذكره فى بلاد الأندلس ، بعث المعتضد ابن عباد (ت ٤٦٤هـ / ١٠٧١م) فى طلبه[(٦)] ، فقد جعل المعتضد لنفسه بلاطًا فى

---

(١) ابن خلّكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) ؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د. ت) ، جـ٤ ، ص ٤٣٤.

(٢) ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٧هـ/١٢٧٠م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥، ص٥٢٧ - ٥٢٩ .

وراجع :

- Colin Gabriel. Avenzoar: Sa vie et ses auvres - Paris: Ernest Leroux, 1911, pp. 28-30.

(3) Chejneh, Anwar G. Muslim Spain. Its History and culture Minneapdis, The University of Minnesota Press 1974 pp. 102-103.

(٤) ابن دحية ، الحافظ أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبى (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م): المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرون ، القاهرة ١٩٥٤، ص٢٠٣ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤، ص٤٣٧، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٧.

(٦) المراكشى ، عبد الواحد بن على (ت: ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٥٧ .

إشبيليه(١) وأحاط نفسه بمشاهير الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان هو نفسه شاعرًا(٢)، أنزل الملك العبادى الفقيه محمد بن مروان منزلاً كريمًا ، وأغدق عليه الأرزاق ، وجعله من خاصته ، وما لبث أن أوغر الحاسدون صدر المعتضد من الفقيه ابن زهر ، فغضب عليه ، يقول المقرى(٣) : « فضاقت الدولة العبادية عن مكانه ، وأخرج عن بلده ، واستصفيت أمواله ، فلحق بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره » .

توفى الفقيه محمد بن زهر فى طلبيرة(٤) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م(٥) ، وبوفاة هذا الفقيه تبدأ صفحة جديدة من اهتمامات أفراد الأسرة فى دراسة الطب ونبوغهم وتميزهم فيه ، ولا بأس من أن نعرض لمشاهير هؤلاء الأطباء ، نظرًا لأهميتهم فى الدراسة :

ابن زُهر الطبيب الأول

هو الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد ، وهو أول طبيب فى الأسرة الزهرية (٦)، درس الفقه والحديث على والده ، وعلى غيره من علماء الأندلس ، ثم مال إلى التفنن

---

(١) حسين مؤنس (الدكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٦١ .

(٢) إشبيلية : مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ، ومن الأميال ثمانون ميلاً ، يقال الذى بناها بوليش القيصر ، وهى مدينة قديمة ، كبيرة عامرة لها أسوار حصينة ، وسوقها عامرة ، وخلقها كثير وأهلها مياسير . (البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى « ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ») : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢، جـ ٢ ص٩٠٤ - ٩٠٥ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢.

(٤) طلبيرة Talavera مدينة بالأندلس ، وهى أقصى ثغور المسلمين ، وباب من الأبواب التى يدخل منها على أرض النصارى ، وهى قديمة أزلية ، على نهر تاجة ، وهى مبنية على جبل عظيم وقلعتها أرفع القلاع حصنًا ، وهى بلد واسع المساحة ، كثير المنافع به أسواق وديار حسنة ، وبينها وبين طليطلة سبعون ميلاً . (الإدريسى ، أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز «ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ جـ ٢ ص٥٥١ - ٥٥٣ ، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر وتحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨، ص ١٣٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان . جـ ٤ ، ص ٤٣٧ .

(٦) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢ .

فى أنواع التعاليم من الطب[١] ، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، ثم لدراسة الطب فى المشـــرق ، « والـــرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم [٢]» ، عـــرج فى رحلته على القيروان ، التى كانت حاضرة ثقافية مزدهرة فى ذلك الوقت ، ثم رحـــل مـــنها إلى مصر حيث استكمل دراسة وممارسة الطب على يد مشاهير الأطباء المصـــريين[٣] ، والمعـــروف أن مصـــر ، كانت قد وصلت إلى ذروة النشاط الفكرى والعلمى فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، ويبدو أنه مكث فى مصر حيـــنًا مـــن الدهر ، يقول صاعد الأندلسى[٤] : « .. وتطبب هناك زمنًا طويلاً .. » وســـاعده نـــبوغه وتميزه فى الطب أن يتولى رئاسة الطب فى مصر [٥] ، وطار ذكره فى الآفاق ، ثم ما لبث أن يمم وجهه صوب بغداد ، ونال فيها شهرة كبيرة فى الطب ، مما حدا به أن يتولى رئاسة الطب فى بغداد[٦] ، ويبدو أنه أثناء إقامته فى بغداد ، اطلع على مؤلفـــات أبى عـــلى الحسين بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـــ / ٩٨٠ - ١٠٣٦م)[٧] ، وأخصها كتاب القانون فى الطب ، حيث إن أبا مروان كان معاصرًا لابن سينا .

---

(١) صاعد الأندلسى ، القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـــ/١٠٧٠م): طبقات الأمم ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٠٦ .

(٢) ابـــن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـــ/١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د. ت) ، ص٣٩٩.

(٣) ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن أبى العلا زهر (ت ٥٥٧هـــ/١١٦١م): كتاب التيسير فى المداواة والتدبير ، تحقيق الدكتور ميشيل الخورى ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٣، ص ٢٢٧، ابـــن الأبار ، أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبى بكر (ت ٦٥٨هـــ/١٢٦٠م) ، التكملة لكتاب الصـــلة، تحقـــيق السيد عزت العطار الحسينى، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٥هـــ/١٩٥٥م) جـــ١، ص ٦٠٦-٦٠٧. وراجع :

- Sami khalaf Hamarneh, «Medical education and practice, in Medieval Islam» in The History of Medical Education, ed. C.D O'Malley (Berkeley: University of California Press, 1970(, pp. 39-71.

(٤) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١٠٦، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٧ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـــ ٤ ، ص٤٣٦.

(٦) نفس المصدر ، جـــ٤، ص٤٣٦ .

(٧) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص٣٤٦ وراجع :

WWW.Khayma.com(sina.htm)

عول أبو مروان على العودة إلى الأندلس ، وقصد مدينة دانية[١] ، ورحب به أميرها مجاهد العامرى (٤٠٠-٤٣٦هـ / ١٠١٠-١٠٤٥م)[٢] ، وقربه إليه ، وأجزل له العطاء ، وأكرمه إكرامًا كثيرًا ، واشتهر فى دانية بصناعة الطب ، ومن بلاط هذا الأمير طار ذكره فى أنحاء الأندلس والمغرب ، وظل فى دانية متمتعًا بالجاه العريض والثروة الطائلة[٣] .

وما لبثت رياح التغير أن هبت على دانية ، فقد توفى أميرها مجاهد العامرى سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م، وقرر أبو مروان أن يرحل منها إلى أشبيلية ، وظل بها إلى أن توفى فى سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م، وخلف أموالاً جزيلة ، وكان غنى أشبيلية ، محط أنظارها فى الرباع والضياع[٤] ، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التى نالها ابن زهر فى الطب ، إلا أن المصادر لم تذكر له مؤلفًا واحدًا فى الطب ، ربما ما كتبه فى الطب نسب لابنه الطبيب أبى العلا فيما بعد .

أبو العلا زهر

وأما عن حياة أبى العلا زهر بن عبد الملك ، فنحن لا نعرف الكثير عن بدايات حياته ، وترجح الباحثة كارمن بينا[٥] Carmen Pena: « أنه ربما ولد فى دانية سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م» تلقى أبو العلا أولى مراحل تعليمه فى أسرته ، ومن خلال أسرته بدأ أول جسر مع المعرفة ، ثم رحل إلى قرطبة التى كانت تمثل إحدى منارات الثقافة

---

(١) دانية : مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة ، حسنة لها ربض عامر ، وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية الشرق فى داخل البحر قد بنى بهندسة وحكمة ، والسفن واردة عليها وصادرة عنها ، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو ، وبها ينشأ أكثره ، لأنها دار إنشائه .

(الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢، ص٥٧، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٣٩٥)

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص١٢٧، وراجع: أحمد مختار العبادى (الدكتور): دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم، ص١٠٦، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤، ص ٤٣٧ .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٧ .

(5) Pena, Carmen, «Corpus medicorum arabico - hispanorum» Awraq 4 (1981): 79-111, p. 88.

فى أوائل العصر الذهبى للثقافة العربية ، وفى الجامع الكبير فى قرطبة افتتح دراسته بعلوم القـــرآن الكـــريم والحديـــث والفقه ، والأدب العربى[١] ، هذه العلوم التى كانت تمثل الركـــيزة الأساســـية فى ثقافته وتبحر فى هذه العلوم حتى ، « اخترع فصلاً لم يكن فى الحساب ، وشرع نبلا قصـــرت عنه نتائج أولى الألباب»[٢] ، يصفه الذهبى[٣] بقوله : «العلامة الأوحد زز الطبيب الشاعر ، له النظم الفائق ، وفيه كرم وسؤدد » .

أمـــا ابـــن خلكان[٤] فيبدى حماسًا فى وصفه فيقول : « .. كان وزير ذلك الدهر وعظـــيمه ، وفيلســـوف ذلك العصر وحكيمه » . على أن أبا العلا وطن نفسه على دراسة الطب ، الذى كان مفتونًا به منذ نعومة أظفاره ، يقول ابن الأبار[٥]: «.. ومال إلى عـــلم الطـــب الذى أخذه عن أبيه ، فجهر فيه وأنسى من قبله إحاطة به ، وحذقًا لمعانـــيه » ، وأخـــذ يمارس الطب عمليًا ونظريًا ، فتخرج على يديه عدة تلاميذ ، حتى غـــدا عـــلمًا فى تشخيص الأمراض[٦] ، « وله علاجات مختارة تدل على مهارته فى صـــناعة الطـــب ، واطلاعـــه على دقائقها ، وكانت له نوادر فى مداواته المرضى ، ومعرفـــته لأحوالهم»[٧] ، وبلغت شهرته المعتمد بن عباد (٤٦٤ - ٤٨٤هـ/١٠٧١-

---

(١) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، جـ١ ، ص ٣٣٤ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٤٣٢ .

(٣) الذهبـــى ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) : ســـير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، جـ١٩ ، ترجمة رقم ٣٤٥ ، وراجـــع : ابن بسام ، أبو الحسن على الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٩ ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢١٨ - ٢٢١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٤٣٦ ، ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ص ٣٣٤ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٤ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦) الذهبـــى : ســـير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ترجمـــة رقم ٣٤٥ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٤٣٢ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ وراجع :

- Encyclopeadia of Islam art (Ibn Zuhr).

١٠٩١م)[١] أمير إشبيلية ، فاستدعاه المعتمد إليه ، وألحقه ببلاطه الذى كان يحفل بفحول الشعراء والأدباء والمفكرين ، وجعله طبيبه الخاص ، وبالغ فى إكرامه ، ورد عليه ضيعة كانت لجده محمد بن مروان سبق أن صادرها والد المعتمد[٢] .

على أية حال ، ظل أبو العلا فى بلاط إشبيلية ، حتى غزاها المرابطون ، وأسروا أميرها المعتمد بن عباد سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م[٣] ، ونقلوه إلى منفاه فى أغمات[٤] ، عول أبو العلا بعد ذلك على الالتحاق ببلاط أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (٤٨٠-٥٠٠هـ / ١٠٧٨ - ١١٠٦م)[٥] فى مراكش ، يقول المراكشى[٦] : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » .. فقربه الأمير المرابطى إليه ، وأغدق عليه من النعم والأموال الشىء الكثير[٧] ، وولاه منصب الوزارة حتى « صار وزير ذلك الدهر

---

(١) ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الأشبيلى (ت ٥٣٥هـ/١١٣٤م) : قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ، تحقيق محمد العنابى ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢٢ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣، جـ ٢ ، ص ٦١ - ٦٢ ، المراكشى : المعجب ، ص ١٥٨ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ٤٣٢ .

(٣) المراكشى : المعجب ، ص ١٥٨، ص٢٠٥-٢٠٧ .

(٤) أغمات : مدينة بأرض المغرب ، بقرب وادى درعة ، وأغمات مدينتان إحداهما تسمى أغمات وريكة ، والأخرى أغمات إيلان ، وبينهما نحو ثمانية أميال ، وبأغمات قبر الملك الشاعر المعتمد بن عباد ، جلبه إليها يوسف بن تاشفين ، فلم يزل بها حتى مات سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . وقبره هناك معروف . (البكرى : المسالك والممالك ، جـ ٢ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣، الحميرى : الروض المعطار، ص ٤٦) .

(٥) ابن أبى زرع ، أبو الحسن على بن عبد الله (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى ، الرباط ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦م، ص ١٥٦، ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد (كان حيًا سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢م) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠، جـ ٤ ، ص ٤٥، وقارن المراكشى حيث يقول إنه توفى فى سنة ٤٩٣هـ ، وأجمع أكثر المؤرخين على أن وفاته كانت سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م (المعجب ، ص ٢٣٤) ، وراجع : حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دولة المرابطين القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٢١، ص ٤٤٥.

(٦) المراكشى : المعجب ، ص ٢٢٧ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

وعظـيمه[١] » ، « وحل من السلطان محلاً لم يكن لأحد من أهل الأندلس فى وقته ، وكانـت إليه رئاسة بلده ، ومشاركة ولاته فى التدابير »[٢] ، وفى ظل هذا المناخ قدم أبـو العلا أبدع ماجادت به قريحته فى الأدوية المفردة والمركبة ، حتى برز فى الطب إلى غاية عجز الطب عن مرامها ، وشاع ذكره فى الأندلس وغيرها من البلاد [٣] ، « حتى أن أهل المغرب ليفاخرون به وبأهل بيته فى ذلك »[٤] .

وعلى الرغم من الظروف القاسية التى كان يمر بها المعتمد بن عباد فى منفاه ، إلا أن أبـا العلا ظل وفيًا له ، ولم ينس فضله عليه ، يذكر المراكشى أن المعتمد كتب إلى أبى العـلا راغـبًا فى علاج زوجته اعتماد الرميكية[٥] ، فكتب إليه أبو العلا مؤديًا حقه ، ومجيبًا عن رسالته ، ومسعفًا له فى طلبته[٦] .

ويروى لنا ابن أبى أصيبعة أن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من كتاب القانون فى الطب لأبى على بن سـينا ، وأهداها لأبى العـلا تقـربًا إليه ، « ولم يكـن هـذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك ، فلما تأمله ذمه وأطرحه ، ولم يدخله خـزانة كتبه[٧] » ، ويبدو أن أبا العلا كان قد اطلع على هذا الكتاب من قبل ، وربما جلبه والـده معـه من بغداد ، ويدعم ما ذهبنـا إليه أن من بين مؤلفات أبى العلا ، « مقالـة فى الـرد على أبى على بن سينا » الأمر الذى يشير أنه اطلع على هذا السفر العظيم .

ويبدو أن أبا العلا كان يتمتع بنفوذ كبير طوال حكم يوسف بن تاشفين وابنه على (٥٠٠ - ٥٣٧هـ/١١٠٦ - ١١٤٢م[٨])، باستثناء فترة قصيرة قبيل وفاة أبى العلا ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤، ص ٤٣٦ .

(٢) ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٨، الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥).

(٤) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جـ١، ص٣٣٤ .

(٥) اعتماد الرميكية : جاريته الحظية عنده الغالية عليه ، وهى أم الربيع وتعرف بالسيدة الكبرى ، وتلقب بالرميكـية نسـبة لمولاها رميك بن حجاج ، وكان ابن عباد مفرط الميل إليها ، حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها . (ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٦٢) .

(٦) المراكشى : المعجب ، ص ٢١٨ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٨ .

(٨) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٧ .

حيث حدثت جفوة بينه وبين الأمير المرابطى على بن يوسف ، بسبب وشاية دسها له بعض الحاسدين من أمثال أبى الحسن سفيان (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) طبيب على بن يوسف الخاص ، الذى كانت بينه وبين ابن زهر منافسة شديدة[١] ، وكذلك الفتح بن خاقان (ت ٥٣٥هـ / ١١٣٤م) أحد رجال الحاشية المقربين ، والقاضى أبى القاسم ابن منظور ، وبالفعل نجح هؤلاء فى أن يرصدوا كلامًا بذيئًا ، قاله أبو العلا فى حق الأمير ، يقول ابن أبى أصيبعة [٢] : « .. ولولا بذاء اللسان وعجلة إنسان ، وأى الرجال تكمل خصاله ، وتتناسب أوصاله » ، مما حدا بالأمير أن يتخذ كافة الإجراءات الرادعة ضد أبى العلا وأسرته ، ومن بينها إيداع ابنه عبد الملك فى سجن مراكش[٣] .

توفى أبو العلا فى قرطبة سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م، ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح[٤] .

مؤلفات أبى العلا وفكره الطبى :

ترك لنا أبو العلا إنتاجًا غزيرًا من المؤلفات الطبية ، بلغت أربعة عشر مؤلفًا ، حفظ لنا ابن أبى أصيبعة ثمانية منها :

١ - كتاب الخواص ، وهذا الكتاب مرتب على حروف المعجم فى خواص الحيوانات ومنتجاتها ، ومنه استقى ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) خواص لحوم

---

(١) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٣٩٩، وراجع أيضًا :

- Abd Al - Malik Faraj, Relation medicales hispano - maghrebines au XII, Siecle, These pour le doctoraten medecine (Paris: Les Edition Vega 1935) pp. 15 - 16 .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٨ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥) .

(٣) ابن زهر : كتاب التيسير ، س ٢٣٣ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٤٣٦، ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٣٣٥، الذهبى: سير أعلام النبلاء ، جـ ١٩ (ترجمة ٣٤٥) ، ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥، المراكشى: المعجب ، ص ١٤٣ .

الحيوانات فى كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية(١) ، ويوجد هذا الكتاب مخطوطًا فى مكتبة باريس(٢) .

٢ - كتاب الأدوية المفردة(٣) .

٣ - كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح فى الرد على ابن رضوان(٤) ، فيما رده على حنين بن إسحاق فى كتاب المدخل إلى الطب(٥) .

٤ - كتاب حل شكوك الرازى على كتب جالينوس(٦) .

٥ - مقالة فى الرد على أبى على بن سينا ، الفها لابنه أبى مروان(٧) .

٦ - كتاب النكت الطبية كتب بها إلى ابنه أبى مروان(٨) .

٧ - مقالة فى بسطه لرسالة يعقوب بن إسحاق الكندى فى تركيب الأدوية(٩) .

٨ - كتاب المجربات ، أمر بجمعها على بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبى العلا، فجمعت بمراكش ، وبسائر بلاد العدوة والأندلس سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م(١٠) ، ويوجد هذا الكتاب مخطوطًا فى مكتبة الاسكوريال رقم ٨٤٤(١١) .

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، عصام الحمصى : الموسوعة الطبية الموجزة ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، دمشق سوريا (د. ت) ، جـ ١، ص ١٢١٥ .

(2) Cristina Alvarez Millan, « El Kitab al-Jawass de Abu Al-Ala Zuhr: materials para su estudio », Aslepio 46 (1994): 151 - 174 .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٤) هو أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر - ولد فى مصر ونشأ بها ، وبها تعلم الطب ، وكان من أشهر الأطباء ، وكبير أطباء الحاكم بأمر الله ، وله مسائل ومباحثات دقيقة ، وكتب بخطه كثيرًا جدًا من كتب الطب ، ولا سيما فى كتب جالينوس وشروحها وجوامعها . (القفطى ، جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦هـ ، ص ٢٨٨، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٦١ - ٥٦٥ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٥١٩، وراجع : الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥) .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٥١٩ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٥١٩ .

(١٠) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(11) Colin, Avenzoar, pp. 50 - 51 .

٩ - كتاب التذكرة ، كتبه لابنه أبي مروان ، وهو مجموعة من الملاحظات التى سجلها أبو العلا أثناء إقامته فى مراكش ، عرض فيها للأدواء الغالبة فى مراكش والأدوية المناسبة لها ، وكان هذا الكتاب قد ترجم من اللغة العبرية إلى اللاتينية عن طريق (جان دو كابو) ، وتوجد منه نسخة فى مكتبة كلية الطب بباريس ، ثم توالت التراجم بعد ذلك من سنة ١٢٨٨م وحتى سنة ١٤٥٥ [١] ، وقام جابريل كولان (Gabriel Colin) بنشر هذا الكتاب إلى اللغة العربية فى باريس سنة ١٩١١م ، ثم أعاد نشره بعد ترجمته إلى اللغة الفرنسية [٢] .

١٠ - جامع أسرار الطب .

١١ - كتاب نجح النجح .

١٢ - مسهلات فى تدبير الفصول .

١٣ - الوصية .

١٤ - كتاب الطرر[٣] .

على أن من بين مؤلفات أبى العلا المتاحة لنا كتاب التذكرة وكتاب المجربات ، وهذان الكتابان مختلفان كل منهما عن الآخر ، ويبدو أنهما كتبا فى ظروف مختلفة ، هذا فضلاً عن الفكر الطبى لمؤلفهما ، مما ألقى بظلال من الشك فى نسبتهما إلى أبى العلا ، وعلى الرغم من ذكر ابن أبى أصيبعة لكتاب التذكرة من بين مؤلفات أبى مروان بن أبى العلا ، إلا أن جابريل كولان يعضده فريق من الباحثين[٤] ، يرون نسبة

---

(1) Colin, Avenzoar, p. 51 .

(٢) ترجمة كولان إلى الفرنسية بعنوان : «Tedkira d' Abu Al-Ala»

- Publiée et trduite pour la premiere fois (Paris: Ernest Leroux 1911).

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١، ص ٣٣٤ .

(٤) كولان : مقدمة كتاب التذكرة لأبى العلا زهر ، ص ٣ - ٤ .

- Alvarez Millan, Qantara 16 (1995) p. 178, Kuhne Brabant, «hacia una revision de la bibliografia de Abu I-Ala» Zuhr (m. 1130/1) Awraq 13 (1992): 581 - 585.

هـذا الكتاب إلى أبى العلا مستندين فى ذلك على نسخ المخطوط الموجودة فى مكتبة باريس ومكتبة الاسكوريال ، وعلى الجانب الآخر يرى الأستاذ محمد العربى الخطابى[١] نسبة كتاب التذكرة إلى أبى مروان بن أبى العلا استنادًا على مخطوطتى الرباط ، ويؤكد بالأدلـة أن مخطوطـتى الـرباط أكـثر حفظًـا وأقـل أخطاء عن مخطوطتى باريس والاسـكوريال، هذا فضلاً عن أن عنوان المخطوط يؤكد أن ابن زهر هو مؤلف هذا المخطوط وليس والده ، حيث يشير ابن زهر فى صدر هذا المخطوط أنه كتبه لابنه أبى بكـر الحفيد ، ويرجح الخطابى أن ابن زهر ربما كتب هذا الكتاب قبيل نهاية حياته فى إشبيلية ، عندما لم تكن صحته تقوى على السفر إلى مراكش ، فكتبه لابنه الحفيد الذى كان دائم السفر إلى إشبيلية للانتفاع من علم والده .

أمـا كتاب المجربات ، فهو مؤلف موجز ، ويبدو أن أبا العلا لم يخطط لكتابة هذا الكـتاب ، وربما أملاه عليه والده ، وثمة ملاحظة نلحظها عند مراجعة كتابى التذكرة والمجـربات ، مـدى التشـابه فى مكونات المواد المستخدمة فى علاج الأمراض مثل : (وفقـاح الـبابونج وزهر الورد والمصطكا والقرنفل وبذر الكتان)[٢] ، وهذه المواد ذكرها أبو مروان بن زهر فى كتابه التيسير ، مما يشير إلى تأثره بوالده أبى العلا[٣] ، ومما لا شك فيه أن أبا العلا هو المدرسة التى تلقى فيها ابنه أبو مروان أولى معارفه فى الطب، وعـلى يديه برع فى هذا الفن ، ودائما يذكر ابن زهر أن أباه هو معلمه الأول، الذى أشـرف علـيه ، وصقل معارفه فى الطب نظريا وعمليا . ومن هنا نجد تأثير ابن زهر بأبـيه، ولا غرو أن كتاب السيرة والناسخين ، حتى بعض المؤرخين الطبيين المحدثين ، وهـم بعضهم والتبس عليه الأمر فى نسبة مؤلف إلى واحد منهما نتيجة التشابه الكبير من التأثير والتأثر .

---

(١) محمـد العـربى الخطـابى : الطب والأطباء فى الأندلس الإسـلامية ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ١٩٨٨ ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ - ٣٠٣ ، وراجـع : ص ١٩ ، ص ٣٦ - ٣٨ ، أبو العلا زهر : كتاب التذكرة .

(٢) أبو العلا زهر : كتاب التذكرة ، ص ١٥ ، ص ١٧ - ١٨ ، ص ٦٤ .

(٣) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

ابن زهـر الوزيـر

هـــو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلا زهر ، المولود فى إشبيلية ، والمتوفى فيها سنة ٥٥٧هـــــ / ١١٦١م[١] ، ولا خـــلاف بين المؤرخين فى سنة وفاته ، بيد أن التاريخ الحقـــيقى لمولـــده ، لايـــزال مجهولا ، ويرجح كولان[٢] ، تاريخا تقريبيا لمولده خلال السـنوات (٤٨٤- ٤٨٧هـــ/ ١٠٩١- ١٠٩٤م) . درس أبو مروان العلوم الإسلامية والأدب العـــربى فى أعظـــم مدارس الأندلس ، ودرس الطب على يد والده أبى العلا ، وكـــان جيد الاستقصاء فى الأدوية المفردة والمركبة ، ذاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد[٣] ، حتى اعتبره ابن رشد[٤] ، بأنه : « أكبر الأطباء بعد جالينوس » ، ويقول عنه ابن أبى أصيبعة[٥] : « لم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة أعمال صناعة الطب »، أمـــا ابن خلدون ، فيعده أشهر أطباء أهل الأندلس[٦] ، ويذكر أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ، ولا يعدله سوى الرازى فى المشرق[٧] ، وأوجزت كارمن بينا[٨] كل ما قيل فى ابن زهر ، فقالت : « إنه كان أعظم طبيب فى العالمين الإسلامى والمسيحى » ، ولا غرو فقد كان ابن زهر جديرا بهذا التفوق ، لأنه قصر همه على الطب دون سواه ، فلم يكن مهتما بالأدب أو السياسة مثل والده أبى العلا ، أو ابنه الحفـــيد ، وإنما انقطع

---

(١) ابـــن زهر : كتاب الأغذية ، نشر جارسيا سانشو ، مدريد ١٩٩٢ ، ص ١٢ - ١٣ كتاب التيسير ، مقدمة المحقق (ح) .

(2) Colin, Avenzoar, p. 25, Carmen Pena, al.. Awraq 4)981). P. 89.

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأبناء ، ص ٥١٩ .

(٤) ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـــ / ١١٩٨م) : كتاب الكليات فى الطب ، تحقيق خ . م. فورنـــياس ، ك. الباريث دى مورالبس ، نشر مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة ، المجلس الأعلى للبحوث العلمية ، مدريد ١٩٨٧ ، ص ٤١٩ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٤٦ .

(٧) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق ، (ط) .

(8) Carmen Pena, al - Awraq, p. 89.

إلى الطب دون غيره من العلوم[١] ، وتجرد من قيود التقليد الذى تمسك بها سواه من أطباء عصره ، حتى أهلته شهرته هذه إلى الاستئثار بالكنية (ابن زهر) ، فإذا قيل ابن زهر دون إتباع هذه الكنية بأى اسم آخر ، أو بأية كنية أخرى ، كان المقصود أبا مروان عبد الملك بن أبى العلا زهر[٢] .

على أية حال ، خلف ابن زهر أباه فى خدمة المرابطين ، وكان الطبيب الخاص لعلى بن يوسف تاشفين ، بيد أن على بن يوسف ما لبث أن قلب لابن زهر ظهر المجن، وأودعه سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م فى سجن مراكش ، لأسباب غامضة نجهلها ، ولم تفصح عنها المصادر[٣] ، ويبدو أن لها علاقة من جراء ما حدث لوالده من نكبة على يد هذا الأمير .

على أن رياح التغير ما لبثت أن هبت على المغرب والأندلس بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين فى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م[٤] ، وفى ظل هذه الدولة الجديدة ، أطلق سراح ابن زهر ، وأصبح وزيرا مقربا من الخليفة الموحدى أبى محمد عبد المؤمن بن على (٥٢٤-٥٥٨هـ /١١٣٠-١١٦٢م)[٥] ، ويذكر أن عبد المؤمن كان مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكمون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم[٦] ، يصفه ابن أبى دينار بقوله[٧] : « وكان رحمه الله فقيها فصيحا ، عالما بالجدل والأصول ،

---

(1) Henry Amin Azar, Ibn Zuhr (Avenzoar): diss., Ph. D, The Faculty of the University of North Caroline at Chapel Hill 1998. P. 90.

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق .

(3) Henry Amin Azar, Op. cit., P. 90.

(٤) المراكشى : المعجب : ص ٢٧٢ وراجع حاشية رقم (١) نفس الصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٥ ، ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد أبو القاسم الرعينى (ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ١٣٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ، ص ٢٦٩ .

(٧) ابن أبى دينار : المؤنس ، ص ١٤٠، السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، جـ٢ ، ص ١٤٥ .

حافظـا لحديـث النبى ﷺ ، مشاركا فى علوم كثيرة: الدينية والدنيوية ، وعلم النجوم واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات » .

عـول عـبد المؤمن بن على أن يصطفى ابن زهر لنفسه ، وجعل اعتماده عليه فى الطب ، وأناله من الإنعام والعطاء فوق أمنيته ، وكان مكينا عنده ، عالى القدر، متميزا عـلى كثير من أبناء زمانه[١] ، وألف له أبو مروان بن زهر «الترياق السبعينى[٢]» .. ، واختصره عشاريا ، واختصره سباعيا[٣] ، ولم تقتصر شهرة ابن زهر على مغرب الدولة الإسلامية ، بل تجاوزتها إلى أوروبا النصرانية ، فذاع صيته فى فرنسا وإيطاليا ، ولاسيما بعد أن انتقلت إليها الترجمات العبرية واللاتينية لكتابه « التيسير فى المداواة والتدبير » ، هـذا الكتاب الذى يعتبر من أهم الكتب العربية فى الطب قاطبة ، لما له من تأثير عظيم عـلى طـب العصـور التالية ، فقد كان يدرس فى جامعات أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر[٤] .

تـوفى ابـن زهر فى سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م ، ودفن بأشبيلية خارج باب الفتح بجوار قبر أبيه[٥] .

---

(١)ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٠ .

(٢) الـترياق : قـال الفيروز أبادى : الترياق بالكسر ، دواء مركب اخترعه ماغنيس وتممه أندرو ماخس بـزيادة لحـوم الأفاعى فيه ، وهو نافع من لدغ الهوام ، وهو باليونانية تريا نافع من الأدوية المشروبة (القاموس المحيط) ، الترياق ما يمنع امتصاص السم فى المعدة والأمعاء (المعجم الوجيز ، القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م) .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٠ .

(٤) ابـن زهـر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق وراجع : جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، دار الهلال ، القاهرة (د.ت) جـ٣ ، ص ٢٠٣ .

- Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver, Spleen and Abdomen in The Kitab Al. Taysir (WWW. Islamest. Com/ isc/ Zuhr/ htm).

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ . وراجع : Henry Azar: Ibn Zuhr, p. 94 .

مؤلفات ابن زهر وفكره الطبى

وطـن ابن زهر نفسه لدراسة الطب ، وترك لنا أعمالا موسوعية ، تشير إلى طول باعه وعبقريته الفذة فى هذا الميدان ، بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية ، ومنهجه التجريبى ذكر لنا منها ابن أبى أصيبعة[1] ، سبعة كتب هى :

١ - كتاب التيسير فى المداواة والتدبير ، ألف ابن زهر هذا السفر العظيم بناء على طلـب صـديقه ورفيقه الفيلسوف القاضى ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦-١١٩٨م) لجعلـه تفصيلا لكتابه الكليات فى الطب ، الذى وصف فيه بصورة عامة ما كـان معروفا عن الأمراض فى زمانه[2] ، ونظرا لأنه لم يتطرق إلى التفاصيل فى المعالجة كطبيـب ممتهن ، فإنه طلب إلى صديقه ابن زهر أن يجعل كتابه مشتملا على اختباراته ومشـاهداته فى علمى الأمراض والمداواة ، يتجلى ذلك من قول ابن رشد[3] ، فى آخر كـتابه الكليات : « .. فهذا القول فى معالجة أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه .. فمـن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجـزء ، فأوفق الكنانيش[4] ، الكتاب الملقب بالتيسـير ، الـذى ألفه فى زماننا هذا أبو مروان بن زهر ، وهذا الكتاب سألته أنا إياه وانتسخته ، فكان ذلك سبيلا إلى خروجه ، وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التى قيلت فيها شديدة المطابقة للأقاويل الكلية ، إلا أنه شرح هنالك مع العلاج ، العلامات وإعطاء الأسباب .. » .

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق ، وكذلك :

- Colin, Avenzoar, P. 54, Henry Azar, Ibn Zuhr, P. 94 Islamic culture and the Medical Arts. Htm.

(٣) ابن رشد : كتاب الكليات فى الطب ، ص ٤٩١ .

(٤) الكنانـيش : نسـبة إلى كناش أو كناشة بضم الكاف وتشديد النون فيهما وتجمعان على كنانيش ، ومعـناهما فى الأصل مجموعة مذكرات ، وبالتخصيص مجموعة مذكرات وفوائد طبية ، وقد توسع فى معـنى الكـناش فأطلق قديما على كل كتاب علمى أو طبى أو لغوى ، يكون البحث فيه على وجه التفصيل . (راجع : ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ ، حاشية رقم ٣) .

وكتاب التيسير مرتب على الترتيب التقليدى ، أى بذكر أمراض الأعضاء من الرأس إلى القدم ، ويتألف من سفرين ، يبدأ ابن زهر بأولهما ، وهو أطول السفرين بفصل قصير فى حفظ الصحة ، ثم يأخذ بذكر الأمراض وعلاجها ، مبتدئا بعلل الرأس، ومنتهيا بذكر أمراض الصدر والحجاب الحاجز . أما السفر الثانى فيبدؤه بالكلام فى البطن الأسفل ، ويختمه بالكلام على الحميات والبحارين والأمراض الوبائية[١]، وأردف ابن زهر كتابه هذا بملحق أسماه « الجامع » نزولا على رغبة الأمير المرابطى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين – صاحب إشبيلية – وأشار إلى ذلك فى مقدمة كتاب التيسير فقال[٢] : « .. ولقد دخل فى خلال وضعى له من كان كالموكل علىّ فيه ، فلم يرضه منى ذلك » ، وقال : « إن الانتفاع به لمن لم يحذق شيئا من أعمال الطب بعير ، وإنه ليس على ما أمر به ، ولا على غرض ما يريد ، فذيلته بجزء منحط الرتبة سميته بالجامع ألفته مضطرا ، وخرجت فيه عن الطريقة المثلى كارها ، ووضعته بحيث لا يخفى على المريض ، ولا على من حول المريض » .

ويبدو أن ابن زهر لم يؤلف كتاب التيسير إلا بعد أن نضج علمه ، واكتملت اختباراته وتعددت مشاهداته وتجاربه ، ولا نعرف تاريخا محددا لتأليفه لهذا الكتاب ، يذكر ابن الأبار أنه ألفه بعد تأليف كتاب الاقتصاد ، الذى انتهى من تأليفه سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[٣] ، ويرجح المستشرق الفرنسى كولان ، أنه ربما ألفه فيما بين عامى ٥١٥هـ / ١١٢١ ، ٥٥٨هـ / ١١٦٢م[٤] ، بينما يرى الدكتور ميشيل

---

(١) راجع : ابن زاهر : كتاب التيسير وراجع :

- Pena Carmen, Awraq 4 (1981) :pp. 109 - 111, Henry Azar, Medicine in Muslim Spain: «The Legacy of Avenzoar of Seville», Carolina Seminar on Comparative Islamic Studies (October 17, 2000) (Ibn Zuhr htm/).

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ – ٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جـ٢ ، ص ٢١٨ . وراجع :

- Kuhne Barabant, Rosa. El - Kitab al - Iqtisad de Avenzoar Doctoral Thesis. Madrid: Facultad de Filosofla Y letras, 1971. pp. 3 - 5.

(٤) كولان : مقدمة كتاب التذكرة لأبى العلا زهر ، ص ٣ – ٤ .

الخـــورى[١] ، « أنـــه ربما أنجز تأليف هذا الكتاب فى أواسط القرن السادس الهجرى / الـــثانى عشـــر الميلادى » ، والمعروف أن ابن زهر سجن فى مراكش سنة ٥٣٥هـــ / ١١٤٠م ، ممـــا يجعلـــنا نرجح أن تأليفه لهذا الكتاب كان فيما بين عامى ٥١٥هـــ / ١١٢١م ، ٥٣٥هـــــ / ١١٤٠م ، أى قبيل إيداعه فى السجن . يدعم ما ذهبنـــا إليه ما ذكره ابن زهر فى مقدمة كتاب التيسير ، أنه ألف الجامع وألحقه بكتاب التيسير بناء عـــلى رغبة الأمير المرابطى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين سنة ٥١٥هـــ / ١١٢١م ، وذلك التاريخ هو الأقرب إلى الواقع التاريخى .

عـــلى أن هذا الكتاب يوجد مخطوطا فى العديد من دور الكتب الأوروبية[٢] ، كما توجـــد تـــراجم قديمـــة عربـــية لهذا الكتاب ، هذا فضلا عن تراجم باللغتين العبرية واللاتينية[٣] ، ونظرا لأهمية هذا الكتاب ، قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بنشر هذا الكتاب فى دمشق سنة ١٩٨٣م تحقيق الدكتور ميشيل الخورى .

٢ – كتاب الأغذية ألفه لأبى محمد عبد المؤمن بن على[٤] .

٣ – كتاب الزينة[٥] .

٤ – تذكرة فى أمر الدواء المسهل ، كتبها إلى ولده أبى بكر الحفيد[٦] .

---

(١) ميشيل الخورى (الدكتور) : مقدمة كتاب التيسير ، (ك) .

(٢) يوجد كتاب التيسير مخطوطا فى المكتبة الوطنية فى باريس (مخطوطة شرقية رقم ٢٩٦٠) ، انتهى من كتابـــتها فى برشـــلونة ٥٦١هـــــ / ١١٦٥م ، وتوجد نسخة ثانية فى مكتبة البودليان فى أكسفورد (مخطوطة هونتينتون رقم ٢٥٥) ، ولا نعرف مكان النسخ ولا تاريخه . أما النسخة الثالثة ، فتوجد فى المكتبة المريشية اللورنزية فى فيرنزى بإيطاليا رقم ٢١٥ ، وأخيرا كانت توجد نسخة أخرى فى المكتبة العبدلية بتونس تحت رقم ٧/٢٨٦٧ . وللأسف مفقودة . وراجع :

- Colin, Avenzoar, p. 76, Pena Carmen and Amador Diesm, Anatomy of Liver, (WWW. Islamest. Com/ isc/ Zuhr/ htm).

(3) Henry Azar, Inn Zuhr, p. 97.

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، وراجع : ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٤٨٤ .

(٥) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ –٦ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

٥ – مقالة فى علل الكلى ، وهذا الكتاب مفقود(١) .

٦ – رسالة فى علتى البرص والبهق ، كتب بها إلى بعض الأطباء بأشبيلية(٢) ، وهى مفقودة(٣) .

٧ – تذكرة ، كتب بها لابنه أبى بكر الحفيد ، يذكره فيها بعلاج الأمراض(٤) .

ومما يجدر ذكره أن هناك كتبا أخرى لأبى مروان بن زهر لم يذكرها ابن أبى أصيبعة وهى : كتاب الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد ، الذى ألفه للأمير المرابطى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م(٥) ، وكتاب الجامع فى الأشربة والمعاجين(٦) ، وكتاب القانون الذى ألفه لأبى محمد عبد المؤمن بن على(٧) ، وكتاب مختصر حيلة البرء لجالينوس(٨) ، ورسالة فى تفضيل العسل على السكر(٩) .

ويجمع المؤرخون على أن كتاب التيسير من أروع مؤلفات ابن زهر وأشهرها ، وتحذو حذو المؤرخين الموسوعات العربية والأجنبية ، والمعجمات الطبية الكبرى التى تثبت أسماء أعلام الطب ، بالإضافة إلى ما تحويه من مصطلحات التشريح ، وأسماء

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ص٥١٩. وراجع: Pena Carmen, Awraq 4 (1981), p. 81.

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(3) Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver, (Zuhr, htm).

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٥) ابن زهر : بكتاب التيسير ، ص ٣٨٥ . وراجع :

- Kuhne, Rosa, El- Kitab al Iqtisad de Avenzoar , p. 17.

(٦) ملحق كتاب التيسير وراجع : ابن زهر : كتاب اتيسير ، ص ٦ .

(٧) محمد العربى الخطابى : الطب والأطباء فى الأندلس ، جـ١ ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ .

(8) Bena Carmen, Anatomy of Liver, (Zuhr, htm).

(9) Ibid, (Zuhr. Htm).

الأمـــراض وأساليب العلاج[١] . كما يعد فى مرتبة أعظم الكتب العربية التى عرفت فى تاريخ الطب ، ولا يقل شأنه عن كتب الحاوى للرازى ، وكتاب القانون لابن سينا[٢]. ولعـــل ذلك من شأنه أن يجعل ابن زهر فى مرتبة هذين العالمين اللذين تربعا على عرش الطـــب فى مشرق الدولة العربية الإسلامية ، ولا غرو فى ذلك ، فقد ذكر لنا ابن سعيد المغـــربى أن كـــتاب التيسير مشهور بأيدى الناس بالمغرب ، وقد سار أيضا فى المشرق لنبله[٣] .

عـــلى أن مؤلفـــات ابن زهر فى الاقتصاد والزينة والأغذية والتيسير ، تظهر ثلاث مراحل من التطور الفكرى لصاحبها ، كل مرحلة منها موازية للبيئة السياسية والثقافية والاقتصادية ، التى عاشها ابن زهر خلال سنى حياته ، وانعكست على فكره وثقافته ، فهـــو يـــبدو فى كتاب الاقتصاد كواحد من النبلاء فى ظل حكم المرابطين ، ويعرض للاســـتقرار النفسى والوجدانى ومقاومته للمرض ، ويتفرد كطبيب بارز فى إلقاء الضوء عـــلى العلاقة النفسية بالأمراض العضـــوية ، ونكاد لا نجد إشارة إلى أبيه أبى العـــلا كمـــرجع مـــن مراجعه فى هذا الكتاب ، بيد أنه أولى العوامل الاجتماعية والاقتصادية أهمـــية بالغـــة ، عندما جعل العقل البشرى البؤرة التى يمكن من خلالها السيطرة على المـــرض من منطلقات متعددة ، مما يدعو إلى القول أنه كان مبدعًا ، وعمله هذا عملاً

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٤٦ ، المقرى : نفـــح الطيب ، جـــ٢ ، ص ٧٧٨ ، وراجـــع : جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـــ٣ ، ص٢٠٣ ، ميشـــيل الخـــورى : مقدمة كتاب التيسير ، عصام الحمصى : الموسوعة الطبية الموجزة ، وكذلك :

- Colin Avenzoar. P. 76, Kuhne Rosa. El- Kitab al - Iqtisad, pp. 15 - 18, Henry Azar, Ibn Zuhr, pp. 130 - 131, Enc., of Islam, art (Ibn Zuhr), National Library of Medicine. Islamic culture and the Medical Arts. Htm.

(٢) ميشيل الخورى : مقدمة كتاب التيسير .

(٣) المقـــــرى : نفح الطيب ، جـــ٢ ، ص ٧٧٨ ، نقلاً عن ابن ســـعيد فى الرسالة التى ذيل بها رســـالة ابن حزم فى فضل علماء الأندلس .

إبداعيًا(١) . أما كتاب الزينة فيمثل مرحلة مبكرة من حياة ابن زهر لم تكن نضجت تجاربه واكتملت ثقافته بعد ، حتى إنه ليخجل عند ذكره لهذا الكتاب يقول ابن زهر(٢) : « كنت اقتصرت فى كتابى فى الزينة .. ، وأنا فتى حين وضعته ، فتكلمت فى ذلك الكتاب فى أعراض منحطة ، حتى إنى لأخجل من ألفاظ صرفتها ، حين تكلمت فى تعليل روائح مذمومة » ، بينما نجد ابن زهر فى كتاب التغذية ، تأثر كثيرًا بسجنه فى مراكش ، وتجاربه فى منفاه فهو يخاطب الرجل المغربى البسيط من سكان الصحراء المغربية ، ويبدو واضحًا التحول من خلال كتابه هذا ، ومن خلال الوصفات الطبية(٣) ، بيد أن هذا الكتاب يزودنا بمعلومات وفيرة عن نظام الغذاء الصحى من خلال عرضه .. للأطعمة والمشروبات ، وطريقة الطهى الصحية ، وكذلك أنواع لحوم الحيوانات ، وأنواع النباتات والطريقة المثلى فى استخدامها(٤) ، مما يدل على أن ابن زهر أصبح طبيبًا لامعًا(٥) .

أما كتاب التيسير فيمثل مرحلة متقدمة من مؤلفات ابن زهر الموسوعية ، حيث يتسم بالعمق والنضج ، يحمل تعليقات ابن زهر فى صورة نثر عربى منظوم تفوح منه رائحة العربى على خلاف كتابى الاقتصاد والزينة(٦) ، وذلك حين يسترسل مع ذكرياته وتجاربه ، أو حين يقدم وصفة عامة لطبيب يتخيل أنه ماثل بين يديه يتجلى ذلك من قوله(٧) : « .. فإن منّ الله عليك وعلى عليلك على يديك ، فتحلل الورم وارتدع منه ما ارتدع ، فتعلم أن الذى منحك عظيم » ، والمطالع لكتاب التيسير يشعر من خلاله بتفكير الرجل المؤمن الذى يستعمل العقل ، ويعتمد على التجربة ، ويخضع فى كل

---

(١) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥-٦ . وراجع .
Kuhne Rosa, El - Kitab al Iqtisad, PP. 3-5 .
(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥-٦ . وراجع .
(3) Henry Azar, Ibn Zuhr, , PP. 150-153 .
(٤) ابن زهر : كتاب الأغذية ، ص ٢٢-٣٠ .
(٥) جارسيا سانشو : مقدمة كتاب الأغذية .
(6) Henry Azar, Ibn Zuhr, , P. 154 .
(٧) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٢٦٦ .

أعمالــه إلى معطــيات الواقع ، ولكن ذلك لا يمنعه من الاستسلام لإرادة الله فى لحظة يعجــز فيها العقل البشرى ، وتتقاصر إمكاناته[١] ، كما نهج ابن زهر أسلوبًا جديدًا فى الحكمة القياسية مستخدمًا التمحيص للوصول إلى أحسن النتائج بقوله : « وما ذكرته فى الصــحة شــهدت الــتجربة لى به ، فأنا آخذ من ذى قبل فى علاج دفع أسباب الأمراض ، بما يسهل تركيبه وتخف مؤونته ، ويكون فى أكثر المواضع موجــودًا بحول الله»[٢] ، ولعــل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عــن أمراض جديدة ، لم تدرس قبله ، فقد اهتم بالأمراض الرئوية ، وتمكن من تشريح القصــبة الهوائــية ، وتضــلع فى أمراض الجهاز الهضمى ، واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع[٣]، واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب، كمــا بســط طرق العلاج القديمة ، واعتبر أن الطبيعة قوة داخلية تدبر شئون الجهاز البشرى[٤] ، وكان ابن زهر إذا عالج مريضه نسى نفسه وتعايش مع مريضه ، وهذا هو سر عبقريته ، وإذا عرضت عليه حالة شائكة ، حاول أن يعيشها من ذكرياته وتجاربه ، ومــنطقه ، ولهــذا كان نسيج وحده وفريد عصره[٥] ، استطاع أن يطور شعبًا ثلاث حــاول توحيدها وهى : الصيدلة والجراحة والطب العام[٦] ، وثمة ملاحظة نلحظها فى فكــر ابن زهر ، وهى إظهار مدى الاستقلال الفكرى تجاه التراث الإغريقى والرومانى الذى مثله أبقراط وجالينوس ، وعلى الرغم من احترام ابن زهر لجالينوس ، إلا أنه كان يشــرّح الموتى غير مقتنع بتشريح جالينوس للحيوانات[٧] ، كما يعتبر ابن زهر أول من حــاول الــربط بــين مرض معين وإصابة محددة فى الجسم ، وذلك واضح فى دراسته

---

(١) ميشيل الخورى : مقدمة كتاب التيسير .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٦-١٧ .

(3) Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver. htm.

(4) Henry Azar, OP. cit., P. 143 .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥١٩ .

(٦)خولــيان ريــبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة (د. ت) ، ص ٨٦ .

(7) Pena Carmen Amador, Anatomy of Liver (WWW. Islamest. com/isc/ Zuhr/ htm).

لـــرطوبة غشـــاء القلب وأورام الصدر[١] ، ولعل أهم سمة من سمات فكر ابن زهر فى مؤلفـــه هذا ، أنه جمع بين طب اليونان والفُرس والهنود والكلدان والعرب ، وأضـــاف بفكـــره وتجاربـــه إلى ذلـــك كثيرًا ، بفضل ما أحدثه من آراء جديدة ، خالف فيها بشجاعة جالينوس وابن سينا والرازى فى تدبير الأمراض[٢] ، ويبدو تأثر ابن زهر بوالده أبى العـــلا وجـــده عبد الملك واضحًا ، فقد تعلم كثيرًا من خبرات والده وتجاربه ، مما جعلـــه أكـــثر استعدادًا للتميز والتفوق فى هذا الميدان ، وأن يصل فى هذه المرحلة إلى مســـتوى المعـــرفة الـــتى تؤهله أن يذكر قاعدته أو قانونه الخاص عن طريق الملاحظة الشخصـــية والتجربة[٣] ، مما حدا بأحد الباحثين[٤] ، إلى القول : « أن ابن زهر أعظم الأطـــباء منذ جالينوس ، ولعل مؤلفاته الطبية ، العديدة والمتنوعة ، تقيم الدليل على أنه أكثر الأطباء شهرة وتأثيرًا فى أوروبا العصور الوسطى»، فقد كان كتابه التيسير المرجع الرئيســـى الـــذى تقوم عليه الدراسة فى مدارس الطب الأسبانية فى العهود الأخيرة من حياة الإسلام فى الأندلس[٥] .

على أننا إذا كنا تطرقنا فى الحديث عن ابن زهر ، تبقى لنا نقطة جديرة بالمناقشة ، وهـــى تفنـــيد المزاعم القائلة[٦] بيهودية هذا الطبيب العربى الأندلسى ، وأصحاب هذه المـــزاعم لا يملكون دليلاً ماديًا قاطعًا فى إثبات زعمهم هذا ، وإنما اعتمدوا على بعض الآراء الـــتى رددها بعض مؤرخى اليهود منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى ، والتى تجاهلـــت عـــن قصد مصادر التاريخ الإسلامى فى نسب هذه العائلة ، وفق استراتيجية

---

(1) Henry Azar, Op. cit, PP. 16 - 17 .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٧٩، ٢٢٥، ص ٢٧١ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(4) Henry Azar, Op. Cit, p. 18 .

(٥) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ٦٨ .

(6) Michaelis Casiri, Bibliotheca Arabico - Hispano Escurialensis (Madrid: Antonio Perez de soto 1770) P. 132, Barthelemi d'Herbelot, BibLiotheque Orientale (The Hague: J.Neaulme & V.Van Daalen, 1778), V.3,P.621, Esmond R. Long, A History of PathoLogy (New York: Dover Puplications, 1965), P.26.

صممتها مدرسة الاستشراق الغربية وتقاسم مؤرخوها الأدوار ، فالشواهد التاريخية التى تضمنتها المصادر العربية من سير وتراجم وطبقات وأنساب ، والتى سبق أن عرضنا لها فى هذه الدراسة تؤكد نسب ابن زهر العربى هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى تضلع بنو زهر فى العلوم الإسلامية ، حتى غدت سمة بارزة تأثرت بها مؤلفاتهم ، « فهم أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء ووزراء ، مع سمو النسب »(١) ، والمطالع لمؤلفات ابن زهر ، يحس من خلالها بتفكير الرجل المؤمن الذى لا ينقطع عن ذكر الله جل جلاله ، وتدعيم معطياته بما تعيه حافظته من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، مما يؤكد سلامة معتقده ، وإذا كانت بعض مؤلفات ابن زهر ، وجدت منها نسخ باللغة العبرية ، فنفس الشىء وجدت بعض النسخ باللغة اللاتينية ، وهذا ليس أمرًا غريبًا ، فقد ازدهرت حركة الترجمة فى الأندلس فى هذه الفترة ازدهارًا عظيمًا(٢) ، وهذا ليس دليلاً على الطعن فى نسبه العربى ، ووصفه بأنه كان يهوديًا ، مما حدا بفريق من الباحثين المنصفين(٣) التصدى لهذه المزاعم ووصفها « بأنها أسطورة افتراء وزيف ، تبتعد عن المسار العلمى ، ويرفضها الواقع التاريخى » .

الوزير أبو بكر بن زهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ، ويعرف بالحفيد، ولد فى سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م فى إشبيلية(٤) ، افتتح دراسته بدراسة العلوم الدينية ، ثم درس اللغة العربية والأدب العربى ، ووطن نفسه على دراسة الشعر ، حتى صار ديدنه وميدانه(٥) ، يقول

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ص ٤٣٤ .

(٢) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ٧١٤ - ١٨٥ .

(3) Moritz Steinschneider, Die hebraeischen Ubersetzungen des Mittelalters und die juden als Dolmetscher (Graz: Akademische Druck - U. verlang sanstalt 1956), P.748, Colin, Avenzoar, PP. 34 - 35, Henry Azar, Ibn Zuhr, PP. 9 - 10 .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٣١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٣٤ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٣٤ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٤٣٤ .

عـــنه ابن دحية(١) : « كان شيخنا أبو بكر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عـــذب معين ، كان يحفظ شعر ذى الرمة ، وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب ، .. صحبته زمانًا طويلاً ، واستفدت منه أدبًا جليلاً » .

أما المراكشـــى(٢) . الذى التقى بأبى بكر بن زهـــر فى مراكش ســـنة ٥٩٥هـــ/ ١١٩٨م يصفه بقوله : « الوزير الأجل أبو بكر محمد بن الوزير أبى مروان ..، له شعر كثير أجاد فى أكثره ، وأما الموشحات(٣) خاصة ، فهو الإمام المقدم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، وهو آخر المجيدين فى صناعتها » .

وأمـــا فى مجـــال الطب يقول ابن أبى أصيبعة(٤) : « أخذ صناعة الطب عن أبيه ، وباشـــر أعمالها ، وكان صائب الرأى ، حسن المعالجة ، جيد التدبير ، .. ولم يكن فى زمانـــه أعلم منه بصناعة الطب ، وذِكره قد شاع واشتهر فى أقطار الأندلس ، وغيرها مـــن الـــبلاد » . ومما يدل على تضلع أبى بكر فى الطب ، يذكر أن والده أبا مروان ، كتب نسخة دواء مسهل للخليفة عبد المؤمن بن على، فلما رأى أبو بكر هذا الدواء ، نصـــح الخليفة أن يبدل هـــذا الدواء بدواء آخر ، بيد أن الخليفة ، لم يوافق على قول

---

(١) ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٦ ، وراجع : المراكشى : المعجب ، ص ١٤٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٦ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٦ – ٤٣٨ .

(٣) يذكر ابن خلدون أن أهل الأندلس ، لما كثر الشعر فى قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنًا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطًا أسماطًا ، وأغصانًا أغصانًا ، وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغـــراض والمذاهـــب ، اســـتظرفه الـــناس جمـــلة الخاصـــة والكافة لســـهولة تناوله وقرب طريقتـــه (ابن خلـــدون : المقدمة / ص ٤٣٦ – ٤٤٠) ، ويقول هل : « تعتبر العذوبة الخالصة فى جمال الكلمات وتنسيقها إحدى مميزات العرب البارزة » (ى. هل : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العـــدوى ، دار الهـــلال ، العدد ٣٤٢ ، يونيو ١٩٧٩ ، ص ١٣٢ – ١٣٣) ، وراجع أيضًا : فوزى سعيد عيسى: ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس منشأة المعارف ، الإسكندرية، ١٩٨٣).

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ – ٥٢٢ .

أبي بكـــر ، فقال أبو مروان بن زهر للخليفة : يا أمير المؤمنين ما قاله ابنى هو الصواب، وبالفعل كان دواء أبي بكر أكثر نفعًا وأعظم فائدة[١] .

سار أبو بكر على سنن آبائه ، حيث تقلد الوزارة للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن عـــلى (٥٢٤ - ٥٥٨هـــ / ١١٢٠ - ١١٦٣م) ، ثم لابنه الخليفة أبي يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥هــــ/١١٨٤ - ١١٩٩م)[٢] ، وكـــان الخليفة أبو يعقوب على درجة عالـــية من الثقافة ، ويروى عنه أنه كان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو ، هذا فضلاً عن العلوم الرياضية والطب والفلسفة[٣] ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، إلى أن اجتمع له مـــا لم يجـــتمع لملك قبله من ملوك المغرب[٤] ، وكان مجلسه مجلس الفضلاء والأدباء ، وأرباب المعارف والفنون[٥] ، وفى ظل هذا المناخ العلمى ، تألق نجم أبي بكر بن زهر ، وطـــار ذكره بين أهل الشرق والغرب ، حتى صار أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، ونـــال حظـــوة عـــند الخلـــيفة المنصور ، وأصبح طبيبه الخاص ، وألف لـــه الترياق الخمسينى[٦] .

عـــلى أن الشـــهرة التى أحرزها أبو بكر بن زهر فى مجال الطب والشعر ، جعلت بعـــض الحاســـدين والناقمين يتربصـــون به الدوائر ، وفى هذا الصـــدد يروى لنا ابن أبي أصـــيبعة ، أن رجـــلاً مـــن أعيان إشبيلية ، كان يعادى الحفيد أبا بكر بن زهر ، ويحســـده ، ويضمر لـــه الشر ، وعمل محضرًا بعث به إلى الخليفة ، اتهم فيه ابن زهر ، بالاشـــتغال بعـــلم المنطق ، وأن خزانة كتبه تحوى شيئًا كثيرًا من كتبه[٧] ، ويبدو أن

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .
(٢) المراكشـــى : المعجـــب ، ص ٣٠٨ ، ٣١٦ ، مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، السلاوى ، الاستقصا ، جـــ٢ ، ص ٢٠٥ .
(٣) المراكشى : المعجب ، ص ٣١٠ ، السلاوى ، الاستقصا ، جـــ٢ ، ص ٢٠١ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣١١ .
(٥) السلاوى ، الاستقصا ، جـــ٢ ، ص ٢٠١
(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .
(٧) نفس المصدر .

الفلســـفة لم تكن يومًا ما موضوع الرضى من عامة الناس فى الأندلس مثل بقية فروع المعــرفة الأخـــرى ، حيـــث كان أصحابها يرمون بالزندقة ، وهذا الخوف جعل من المســـتحيل أن تـــأخذ دراسة الفلسفة طريقها إلى المدارس مثل بقية العلوم(١) ، بيد أن الخليفة لم يعر هذا الأمر اهتمامًا ، وقال فى مجلسه(٢) : « والله لو أن جميع أهل الأندلس وقفـــوا أمامى وشهدوا على ابن زهر ، لم أقبل قولهم ، لما أعرفه فى ابن زهر من متانة ديـــنه وعقله » . ولعل هذه الواقعة تكشف عن مدى ثقة الخليفة المنصور فى ابن زهر ، الـــذى كـــان حافظًا للقرآن الكريم ، ملازمًا للأمور الشرعية(٣) ، كما يذكر أنه كان حافظًا لصحيح البخارى بأسانيده(٤) ، الأمر الذى ينفى عنه أى اتهام عند الخليفة .

عـــلى أن هـــذه المؤامرة ، وإن كانت باءت بالفشل ، وأجهضت فى مهدها ، فإن ذلك لم يثن من عزيمة المتآمرين فى تدبير مؤامرة أخرى ، تكون نتيجتها محسوبة بدقة ، واضطلع بتنفيذها أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان – وزير المنصـــور الموحدى – «الذى كـــان يعـــادى أبا بكر بن زهر ويحســـده ، لما يرى من عظيم حاله وعلو منـــزلته وعـــلمه»(٥)، ونجح ابن يوجـــان فى أن يستقطب أحد معـــاونى ابن زهر إلى جانبه ، وأن يـــدس لـــه الســـم فى طعام ، أكل منه ابن زهـــر ، توفى على أثره فى أواخر سنة ٥٩٥هـ/ ١٩٩٨م(٦) .

لم يقتصر التفوق فى الطب على رجال بنى زهر فحسب ، بل نبغ جماعة من النساء من بنى زهر اشـــتهرن بصناعة الطب ، نذكر منهن أخت أبى بكر بن زهر وابنتهـــا ،

---

(١) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ٨٦ – ٨٧ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ١٨٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ .

(٦) ابـــن خلكان : وفيات الأعيان ، جـــ٤ ص ٤٣٥ ، وراجع المراكشى : المعجب ص ١٤٢ ، المقرى : نفح الطيب جـــ٣ ص ٤٣٤ .

« فقد كانتا عالمتين بالطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة وحذق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الموحدى وأهله ، ولا يقبل المنصور سواهما[١] .

مؤلفات أبى بكر بن زهر وفكره الطبى

على أن أبا بكر بن زهر وإن كان قد أحرز تقدمًا كبيرًا فى الطب ، ونال شهرة واسعة فى الأوساط الطبية ، فإن ذلك كله لا يقاس إطلاقًا ، بما أحرزه والده وجده فى هذا الميدان[٢] ، وعن مؤلفات أبى بكر يذكر ابن أبى أصيبعة ، أنه ألّف الترياق الخمسينى للخليفة الموحدى أبى يعقوب المنصور[٣] ، ويقول ابن خلكان[٤] : « ومن المنسوب إليه فى كتاب جالينوس الحكيم المسمى «حيلة البرء لجالينوس» وقال فيه :

حيلة البرء صنفت لعليل ... يترجى الحياة أو لعليله
فإذا جاءت المنية قالت ... حيلة البرء ليس فى البرء حيلة»

وتشكك الباحثة كارمن بينا[٥] فى نسبة هذا الكتاب لأبى بكر بن زهر ، وترى أنه من مؤلفات والده، ولحسن الحظ عثر على كتاب آخر لأبى بكر يحمل عنوان الأغذية، بيد أنه بمطابقته بكتاب الأغذية الذى ألّفه والده ، تبين الاختلاف فى المحتوى ، مما يرجح نسبته إلى أبى بكر[٦] .

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ٣ ص ٢٠٤ .

Chejneh, Muslim Spain. P. 245.

(2) Henry Azar, Ibn Zuhr, P. 99.

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٣٥ .

(5) Carmen Pena, Anatomy of Liver, (Zuhr. Htm).

(6) Carmen Pena, et al - Awraq 5 (1981) : 84.

وتشير الباحثة كارمن بينا أن هذا المخطوط موجود فى مكتبة جامعة لندن تحت رقم ٢٥٣٩ مخطوطات عربية ويحمل اسم أبى بكر الحفيد ، وهو مختلف تمامًا عن كتاب والده .

ومما لا شك فيه أن أبا بكر كان طبيب بلاط من الطراز الأول ، وصاحب مدرسة فى الطب ، تعلم على يديه الكثير من طلابها ، ليس فى الأندلس أو المغرب فحسب ، بل جاءه الطلاب من بلدان أوروبا[١] ، يقول ابن أبى أصيبعة[٢] : « وكان من أجلّ تلامذة الحفيد أبى بكر بن زهر فى صناعة الطب والآخذين عنه: أبو جعفر بن الغزال » ، ويبدو أن دراسة الطب كانت تتم بفحص الطبيب للمريض ، ثم تحديد المرض ومعرفته ، ثم يدعو الطالب لكى يفحصه أيضًا ، وخلال تبادل الملاحظات بين الأستاذ والطالب ، تتم عملية الإعداد ، وفى النهاية يكتب الطبيب العلاج . ويرى أحد الباحثين[٣] ، أن نقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية للطب فى الأندلس يفسر لنا ، ربما ظاهرة حرص بعض الأسر على أن تتوارث مهنة الطب، وأن يتخصص أفرادها فيه، لأن قلة فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه من التدريب الجيد والدراسة العملية المتواصلة ، ولعل هذا ينطبق على أسرة بنى زهر ، وكان الأطباء من بنى زهر يدرسون علم النبات ، والأحياء والعلوم الطبيعية الأخرى ، إذ كان عليهم أن يقوموا فى الوقت نفسه بعمل الصيدلى ، وأن يعدوا الدواء من الأعشاب والعقاقير ، وانعكس ذلك على مؤلفاتهم[٤] .

ونحن بصدد الحديث عن فكر أبى بكر الطبى تجدر الإشارة ، أن هذا الفكر تأثر تأثرًا كبيرًا بالشعر ، فقد كان أبو بكر يقرض الشعر ومن المجيدين فيه [٥] ، وأمر أن يكتب على قبره هذه الأبيات[٦] :

تأمل بفضلك يا واقفا ... ولاحظ مكانًا دفعنا إليه
تراب الضريح على صفحتى ... كأنى لم أمش يومًا عليه
أداوى الأنام حذار المنون ... فها أنذا قد صرت رهنًا إليه

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ – ٥٢٢ وراجع :
Chejneh Muslim Spain. P. 86.
(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ .
(٣) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ٨٤ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٨٥ .
(٥) راجع: المراكشى المعجب، ص ١٤٢ – ١٤٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ – ٥٢٧ .
(٦) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٤٣٤ .

ويـبدو فى هـذه الأبيات الإشارة إلى عمله بالطب ومعالجته للناس ، ويروى عنه بعض الأشعار الجيدة نذكر منها على سبيل المثال قوله عندما غلب عليه الشيب[١] :

إنى نظـرت إلى المـرآة إذ جليـت فأنكـرت مقلـتاى كـل ما رأتا

رأيـت فـيها شـيخًا لست أعرفه وكنـت أعهـده من قبل ذاك فتى

فقلـت: أين الذى بالأمس كان هنا مـتى تـرحل عن هذا المكان متى ؟

فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة: إن الـذى أنكرتـه مقلتـاك أتـى

ومـن نافلـة القـول أن نشير إلى أن عصر الدولة الموحدية ، يعد من أبهى عصور المغـرب والأندلـس فى مضمار النشاط الثقافى والتعليمى ، حتى غدت قصور الخلفاء تغـص بالشعراء والأدباء والعلماء شأنها شأن قصور الفاطميين فى مصر والعباسيين فى بغداد .

نهاية العائلة الطبية :

خلـف أبو بكر الحفيد ابنًا له يدعى أبا محمد عبد الله ، ولد عبد الله فى إشبيلية سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ – ١١٨٢م[٢] ، تلقـى أولى مراحل تعليمه فى إشبيلية ، حيث درس العلـوم الإسلامية ، واللغة العربية وآدابها ، ثم تعلم الطب على يد والده ، ووطن نفسه عـلى تعـلم دقائقها ، قال ابن أبى أصيبعة[٣] : « وكان كثير الاعتناء بصناعة الطب ، والـتحقق لمعانـيها ، واشتغل على والده ، ووقفه على كثير من أسرار هذه الصناعة وعملها ، وقرأ كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى على أبيه ، وأتقن معرفته » .

عمـل أبـو محمد عبد الله ابن الحفيد فى خدمة الخليفة الموحدى الناصر محمد بن المنصور (٥٩٥ – ٦١٠هـ / ١١٩٩ – ١٢١٣م)[٤] ، وما لبث أن توفى مسمومًا فى

---

(١) المراكشى : المعجب، ص ١٤٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٣٥، ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ، ص٥٢٤ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٢٩ .

(٤) المراكشى : المعجب : ص ٣٨٦ – ٤٠٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، ص ١٤٥ – ١٤٦ ، السلاوى: الاستقصا ، جـ ٢ ص ٢١٤، ص ٢٢٥ .

سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م ، وهو فى سن الخامسة والعشرين من عمره ، ودفن عند آبائه فى إشبيلية خارج باب الفتح[١] ، وترك ولدين ، أحدهما يسمى أبا مروان عبد الملك ، والآخر أبا العلا محمد ، وتضن علينا المصادر فى إماطة اللثام حول تاريخ ميلادهما ووفاتهما الذى لا يزال مجهولاً ، ويذكر صاحب عيون الأنباء أن أبا العلا محمد مال إلى الطب ، وبرع فى صناعته ، وكان له نظر جيد فى كتب جالينوس ، واستقر فى إشبيلية[٢] .

ومهما يكن من أمر فبوفاة الخليفة الناصر محمد الموحدى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، ينتهى عهد الازدهار فى خلافة الموحدين ، وتبدأ مرحلة جديدة من عهود خلفائه ، ضعفت فيها قبضة الدولة فى إحكام السيطرة على أراضيها ، حيث كثرت الفتن ، وانتزى السادات منهم بنواحى الأندلس كل فى عمله ، واضطربت الأحوال ، وكثرت المحن وغلت الأسعار ، وكثر الخوف ، وأخذت دولة الموحدين فى الإدبار ، وما لبثت أن سقطت سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م[٣] ، وكان من الطبيعى أن تتأثر مهنة الطب فى الأندلس بهذه الاضطرابات السياسية والاقتصادية . يقول ابن خلدون[٤] : « كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه ، وهى من الصنائع التى لا يستدعيها إلا الحضارة » .

وهكذا أنجبت هذه العائلة ستة أطباء ، توارثوا الطب طوال قرنين من الزمان ونيف، وأرسوا قاعدة قوية ، ووضعوا الأساس لحضارة عريقة . فالأهمية الحقيقية لنبوغ بنى زهر يكمن أثرها فى تطور الطب فى المستقبل ، وبفضل هؤلاء وجدت القواعد الحالية لعلوم الطب ، وأثروا بمؤلفاهم العديدة المكتبة الطبية ، ووصلوا إلى العقل الأوروبى وأثروا فيه .

* * *

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣٠ .
(٣) المراكشى : المعجب ، ص ٤٠٩ - ٤١٩ ، السلاوى : الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ .
(٤) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٣ ، ابن أبى زرع : المؤنس ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

شجرة نسب قبيلة بنى زهر العربية

ملحق رقم (١)

عدنـــــان

معـــــد

نـــــزار

مضـــــر ربيعـــــة إيـــــاد أنمـــــار

استقر فى تهامة – الجزيرة العربية

زهـــر الإيادى

استقر فى شاطبة شرق الأندلس (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

مروان بن زهر الإيادى

الفقيه محمد بن مروان بن زهر

توفى فى طلبيرة (Talavera) « ٣٣٦ – ٤٢٢هـ / ٩٤٦ – ١٠٣٠م »

الوزير الطبيب أبو مروان عبد الملك بن محمد

أول طبيب فى العائلة توفى فى اشبيلية سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م

الوزير الطبيب أبو العلا زهر بن عبد الملك

الطبيب الثانى فى العائلة ولد فى دانية سنة ٤٥٢ / ١٠٦٠م

وتوفى فى إشبيلية سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م

الوزير الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر

الطبيب الثالث ولد فيما بين (٤٨٤ – ٤٨٧هـ / ١٠٩٢ – ١٠٩٥م)

وتوفى فى اشبيلية سنة ٥٥٧ / ١١٦١م

الوزير الطبيب الشاعر أبو بكر محمد بن عبد الملك (الحفيد)

الطبيب الرابع ولد فيما بين (٥٠٤ – ٥٠٧هـ / ١٠٩٢ – ١٠٩٥م)

وتوفى سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م

الطبيب أبو محمد عبد الله (ابن الحفيد)

الطبيب الخامس فى سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) وتوفى فى إشبيلية سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥

الطبيب أبو العلا محمد بن عبد الله

الطبيب السادس (عاش فى إشبيلية وتوفى بها)

ملحق رقم (٢)

أشهر الأطباء فى الأندلس

فى القرنين : الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد

- الزهراوى (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م)
- أبو مروان بن زهر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م)
- أبو العلا زهر (ت ٥٢٦هـ / ١١٣٠م)
- ابن زهر الوزير (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م)
- أبو بكر الحفيد بن زهر (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م)
- ابن رشد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م)

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) .
  - التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .
  - الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور / حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣، جـ ٢ .
- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤، ٢ جزء .
- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ .
- ابن بسام ، أبو الحسن على الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٩ ، القسم الثانى ، المجلد الأول .
- البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢ .
- الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ .
- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الأشبيلى (ت ٥٣٥هـ / ١١٣٤م) قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ، تحقيق محمد العنابى ، تونس ١٩٦٦ .
- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .
  - مقدمة ابن خلدون ، الإسكندرية (د. ت) .
  - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ .
- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د. ت) .
- ابن دحية ، الحافظ أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبى (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين ، القاهرة ١٩٥٤ .

- ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الدعينى (ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، بيروت ١٩٩٣ .

- الذهبى ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، جـ ١٩ .

- ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) : كتاب الكليات فى الطب ، تحقيق خ. م فورنياس ك . الباريث دى موراليس ، نشر مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة ، المجلس الأعلى للبحوث العلمية ، مدريد ١٩٨٧ .

- ابن أبى زرع ، أبو الحسن على بن عبد الله (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى ، الرباط ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

- ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن أبى العلا زهر (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م) : كتاب التيسير فى المداواة والتدبير ، تحقيق الدكتور ميشيل الخورى ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٣م .

- ابن زهر : كتاب الأغذية ، نشر جارسيا سانشو ، مدريد ١٩٩٢ .

- السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤، ٢ جزء .

- صاعد الأندلسى ، القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م): طبقات الأمم ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٥ .

- ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد (كان حيًا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ ٤ .

- أبو العلا زهر بن عبد الملك (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) : كتاب التذكرة ، نشره جابريل كولان ، باريس ١٩١١م .

- الفيروز أبادى ، مجد الدين (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) : القاموس المحيط ، القاهرة (د. ت) .

- القفطى ، جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦هـ .

- المراكشى ، عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ١٩٦٣ .

- المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : التنبيه والإشراف ، دار الصاوى للنشر ، القاهرة (د. ت) .

- المقرى ، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨، جـ١ ، جـ٣.

- مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، لمؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ .

- مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، نشر وتحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨م .

- الهمدانى/ أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) :

  - صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٧ .

  - الإكليل جـ ١ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

ثانيًا : المراجع العربية الحديثة

- أحمد مختار العبادى (الدكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٧٢م .

- جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، دار الهلال ، القاهرة (د. ت) ، جـ ٣ .

- حسن أحمد محمود (الدكتور) ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

- حسين مؤنس (الدكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة (د. ت) .

- عصام الحمصى : الموسوعة الطبية الموجزة ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، دمشق (د. ت) .

- فوزى سعيد عيسى : ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

- محمد العربى الخطابى (الدكتور) : الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ١٩٨٨، جـ ١ .

- المعجم الوجيز : القاهرة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

- ميشيل الخورى (الدكتور) : مقدمة كتاب التيسير لابن زهر ، دمشق ١٩٨٣ .

- ى . هل : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، دار الهلال : العدد ٣٤٢، يونيو ١٩٧٩ .

ثالثًا : المراجع الأجنبية

- Abd Almalik Faraj. Relations medicales hispano - maqhrébines au XII 'Siecle, These pour le doctorat en medecine (Paris: les Editions Vega, 1935).

- Alvarez Millan, Cristina. Actualization del Corpus médico - Literario de Los Banu Zuhr. "Al-Qantara 16 (1995) : 173 - 180 .

  - " El kitab al - jawass de Abu I'Ala Zuhr : materiales para su estudos, Asepio 46 (1994): 151 - 174 .

- Barthelemi d' Herbelot, Bibliotheque orientale, The Hague: j. Neaulme & N. Van Daalen 1778), V. 3.

- Chejneh, Anwar G. Muslim Spain. Its History and Culture. Minneapolis: The university of Minnesota press. 1974.

- Colin, Gabriel. Avenzoar: Sa vie et ses auvres. Paris: Ernest Leroux, 1911.

- Encyclopeadia of Islam .

- Esmond R. long, A History of pathology (New York: Dover Publications, 1965) .

- Henry Amin Azar. Ibn Zuhr (Avenzoar) Supreme in the Science of Medicine Since Galen: diss., Ph. D, The Faculty of the University of North caraline at Chapel Hill. 1998.

  - Medicine in Muslim Spain: The legacy of Avenzoar of Seville, Carolina seminar on comparative Islamic studies (October 17. 2000) Ubn Zuhr. Htm.

- Islamic Culture and the Medical Arts. Htm.

- Kuhne Brabant, Rosa. El-Kitab Al - Iqtisad de Avenzoar Doctorat Thesis - Madrid 1971.

  - Hecia una revision de la bibliografia de Abu I. "Ala Zuhr" Al - Qantara 13 (1992): 581 - 585.

- Michaelis Casiri. Bibliotheca Arabico - Hispano Escurialensis (Madrid: Antornio de soto 1770) .

- Moritz Stenschneider. Die hebraeischen uberset Zun gen des Mittelalters und die juden als Dolmetscher (Graz: Akademis che Druck - U. verlang sanstalt, 1965).

- National Library of Medicine (htm).

- Péna Carmen and Amador Dias. Anatomy of liver, spleen and Abdomen in the kitab Al- Taysir.

(www. Islamest.com/sc/zuhr/htm)

- Péna Carmen. "Corpus medicrum arabico - hispanorum" Awràq 4 (1981).

- Sami Khalaf Hamarneh. "Medical education and practice in Medieval Islam" in the History of Medical Education, ed. C.D. O'Malley (Berkeley: University of California press, 1970.

- WWW. Khayma.com (sina.htm).

روســيا الكيبفيـة

د. وفاء بنت عبد الله المزروع

روسـيا الكييفيـة

المقـــدمة :

لم يعـــرف الـــروس بهذا الاسم حتى وقت طويل من تاريخهم ، ولا يمكن أن نتتبع بداياتهم بالتفصيل بسبب نقص البيانات التاريخية ، فلم يتعلم الشعب الروسى فن الكتابة حـــتى القـــرن التاسع الميلادى ، لذلك لم يترك أية سجلات مكتوبة عن حياته ، ولهذا لم يكـــن أمام المؤرخين إلا الاعتماد على مصادر أخرى للحصول على معلومات عنهم مـــثل : الاكتشـــافات الأثرية لمدافنهم ، وبقايا منازلهم ولوازمهم العائلية ، والمعلومات والتفســيرات عـــن حياتهم بواسطة الكتاب المعاصرين اليونانيين واللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، إلا أن تلك المعلومات وجدت غير كاملة ومتناقضة .

يـــبدأ التاريخ المبكر للشعب الروسى منذ بداية العهد المسيحى حيث كان أسلاف الشـــعب الروســـى يعيشون فى المناطق التى أصبحت : بولندا الشرقية وأوكرانيا الغربية وروســـيا البيضـــاء ، وكانوا لايزالون شعبًا بدائيًا يتحدثون اللغة السلافية ، والتى اتخذ أصـــحابها طريقهم إلى الهجرة البطيئة والمستمرة . لكننا لا نستطيع أن نعرف تاريخهم بدقة ، غير أنه مع حلول القرن السادس انفصلوا وانقسموا إلى ثلاث مجموعات تركت تـــأثيرات مختلفة للمناطق التى مروا بها ، واستقروا فيها وانقسموا إلى ثلاث مجموعات : الغربية والجنوبية والشرقية .

١ – هاجر السلاف الغربيون إلى أنهار الألب والأودر والفيستولا ، وتأثروا بالحضارة الغربية (الأوروبية) ، واعتنقوا الكاثوليكية ، واستخدموا الحروف اللاتينية .

٢ – أما السلاف الجنوبيون ، فقد اتجهوا عبر جبال الكاربثيان إلى البلقان ، وأصبحوا تحت تأثير الحضارة البيزنطية ، واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى ، واستخدموا حروفه .

٣ – أما السلاف الشرقيون (أسلاف الروسيين) وهم موضع الدراسة ، فقد اتجهوا شرقًا إلى بحيرة بيبوسى وبحيرة المين ونهر الدنيبر والأوكار والفالوج ، وتأثروا بالحضارة البيزنطية وأصبح بينهم وبين السلاف الجنوبيين مميزات متشابهة واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى فيما بعد .

إن لفظ روسيا لم يوجد فى لغة من اللغات للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم إلا إبان القرن التاسع الميلادى ، واستخدم هذا اللفظ عن أحوال هذه البلاد قبل هذا التاريخ من باب التجاوز .

كما أن معظم أهل روسيا يرجعون إلى السلاف الشرقيين ، وطوال العصور الوسطى ظل سكان السهول والبرارى الروسية فى عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التى شكلت الشعوب اللاتينية والتيوتوية . ثم إن الحركات الكبرى التى هزت غرب أوروبا لم تعن روسيا فى قليل أو كثير ، ولم يمس أولئك الروس شىء من حركة إحياء العلوم القديمة ، كما لم تسهم حركة الإصلاح البروتستانتى بشىء أيضًا ، فعاشوا بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات التى عكفت عليها أوروبا العصور الوسطى ، كما برئ تاريخهم من برلمانات أو جماعات ، كما أنهم نجوا من الحروب الدينية التى ملأت أوروبا .

والخلاصة : أن روسيا ظلت فى عزلة دون أن تؤثر أو تتأثر بتجربة مما مر من تجارب أوروبا .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى : مقدمة وخمسة مباحث ، تناول الجزء الأول أصل الروس ، وتناول الجزء الثانى طبوغرافية بلاد الروس ، ثم انتقلت إلى الجزء الثالث

وهــو عــن اســـتقرارهم وبداية تكوينهم . أما الجزء الرابع فتنــاول تنمية القوة فى كييف. أما الجزء الخامس فكان عن روسيا الكييفية وعلاقة الروس بالبيزنطيين .

أصل الروس :

بــدأ فجر التاريخ الروسى فى الظهور حول شواطئ البحر الأسود؛ حيث توطنت مجموعــة من الجاليات اليونانية القديمة وخلقت حركة تجارية واسعة ، وكان لها نشاط زاهــر أحــدث أعظــم حضارة للقبائل الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطئ الــبحر الأســود فى العصور القديمة ، على أن هذه الحضارة التى أينعت ثمانية قرون من ٤٠٠ ق. م إلى ٤٠٠م ودلت آثارها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع لم تلبث أن غدت أثــرًا بعد عين بسبب ما غلب عليها من غزوات البرابرة ، والحقيقة، أن ما كان متوقعًا حدوثه من اتصال الروس بآداب اليونانيين الأقدمين وفنونهم لم يكن يحدث حتى تلاشى فجأة و لم يتجدد بعد ذلك أبدًا .

ويتضح من ذلك: أن الروس فى العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشىء سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات فى المتاحف . إن العوامل التى يرجع إليها الفضل فى أول نوع من الحكومة بين الروس لم تكن يونانية بل كانت إسكنديناوية ، وهذه لم تأت من طريق سواحل البحر البلطى والبحر الأسود ، ففى ثنايا هذه الأنهار ومنحنــياتها ولاســيما نهر نيفا ودنيبر أنشأ السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم منذ القرن الأول الميلادى فيما يبدو ، واستقرت حول هذه المحطات جموع عظيمة فى القرن الــثامن الميلادى ، وأخذت هذه الجماعات الروسية عندئذٍ تتاجر مع السكندناويين فى منــتجات الغابات من الفراء وعسل النحل وصمغ العسل ، ثم تطورت هذه إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، ولما تعرضت لــه متاجر هذه المدن من عادية القــبائل التركــية والخزرية والمجرية كذلك ، وما تعثرت به المدن نفسها من منازعات داخلــية قامــت فئات من شجعان الشماليين السويديين بتوفير الأمن وجمع الضرائب وحمايــة القوافل . من هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا وأهمها فئة الزعيم روريك Rurik

الذيـــن سماهم جـــيرانهم الأصليون فى فنلندا قبل رحيلهم جنوبًا باسم: روستى Rusty، وهى تسمية لصقت بهم وصارت علمًا جغرافيًا على جميع البلاد التى حلوا بها منذ سنة ٨٦٣ وتلــك عـــدا تسميتهم باسم الفرانجيين Varegues ومعناها الأسلاف فى لغات الشـــماليين ، ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة من البحر البلطى والبحر الأسود لم تلبــث أن غـــدت فى قبضــة أولـــئك الشجعان الشماليين بعد أن ثبتوا أنفسهم فى نوفجـــورود[1] Novgorod وكيـــيف Kiev وأسسوا تجارة واسعة من الرقيق ، وظلوا يغامـــرون بأنفسهم أقصى مغامرة فى جرأة منقطعة النظير ، فأغاروا على القسطنطينية ، وحـــاولوا فتح بلغاريا وتجرأوا على الإمبراطور البيزنطى فى عاصمته القسطنطينية ونالوا بحد السيف هذه العاصمة المتعالية أنواعًا وألوانًا من الامتيازات التجارية .

والواقـــع أن الشـــماليين تعلموا الكثير من مبادئ الحياة السياسية بعد احتكاكهم بالبيزنطيين .

وبمجـــىء روريـــك وإخوتـــه سند ٨٦٢م وصل هؤلاء الأمراء إلى بلاد الصقالية (الســـلاف) وأخذوا فى سياستها وتدبير شؤونها ، فبنى أكبرهم روريك مدينة فى سهل منبسط أطلقوا عليها لادوجا Ladoge وجعلها عاصمة البلاد ، وسكن الثانى مدينة بيلو أوزيـــرو Beloozero ، والثالـــث اختار مدينة إيزبورسك Izborsk . ومن ذلك الحين صارت أرض الصقالية (السلاف الشرقيين) تدعى بلاد الروس نسبة إلى عائلة الأمراء، وابـــتدأ تـــاريخ المملكة الروسية من سنة ٨٦٣ م ، وبعد سنتين مات الأميران فاستلم روريـــك زمـــام الحكم بلا معارض ، واختار مدينة نوفجورود عاصمة لبلاده ، ومنها تسلل الأمراء والملوك الروس .

وقـــد شـــعر الصـــقالبة نوعا من الراحة تحت سلطة الأمير ريوريك ، وقلت الفتن والمقاومـــة فيما بينهم ، وانتشرت قواهم وصـــاروا يؤلفون إمارة قوية يخشاها الجيران ولا يقوون على محاربتها أو قهرها[2] .

---

(1) Edward Acton: The Present and the Past, Russia 1987- London- P. 17.

(2) Oblonsky, Companion to Russian Studiesan Introduction to Russia History. P. 16

محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ص ١٧٤ — ١٧٦ .

ولقد استمدت روسيا كيانها الاجتماعي والسياسي من امتزاج جموع متعددة من المستوطنين ، ومن أوائل هؤلاء الصقالية الذين سكنوا مناطق السهوب ، ويرجع هؤلاء لغويا إلى الشعوب الإيرانية . أما اجتماعيًا فهم أقرب في العادات إلى الشعوب المغولية، ظهروا في الأقسام الجنوبية الروسية منذ القرن السابع ق. م . وكانت لهم علاقات تجارية مع المستعمرات اليونانية في تلك الجهات ، وأشار إليهم هيرودوت في القرن الخامس ق. م بأنهم منتشرون في مناطق الدانوب والدنيبر والدون[١] .

ويذكر المؤرخ بيتر Baynes بأن الرومان أطلقوا على السلاف (السكلاف) وكانوا يتجولون مع قبائل مشابهة لهم في جهات الدانوب الشمالية في أواسط القرن السادس[٢]. هذا بالنسبة إلى المصادر غير العربية . أما أول إشارة لهم في المصادر العربية أي الروس ، فقد جاءت على لسان اليعقوبي عند حديثه عن الأندلس ووصف مدن هذا الإقليم : (وغربي المدينة – التي يقال لها الجزيرة – مدينة يقال لها أشبيلية ... دخلها المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ هـ فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا)[٣] .

أما المسعودي فيذكر : (وقد كان الثلثمائة وردوا إلى الأندلس مراكب من البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم وزعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس تطرأ إليهم في هذا البحر كل مائتين من السنين وأرى والله أعلم أن هذه الأمة هي الروس إذ كان لا يقطع هذه البحار غيرهم)[٤] .

وكذلك ابن حوقل في معرض حديثه عن مراكب الروس والترك والصقالية[٥] ويتضح من ذلك أنه يقصد بالروس هنا النورمان أو أهل الشمال ، الذين ذكرتهم المصادر العربية باسم المجوس أو الأردمانيين الذين شنوا العديد من الإغارات على

(1) G. Vernadsky, History of Russia- Yala- 1145. P.P. 21-22.

(2) N. Baynes And. H. Moss, Byzantum, AnIntrodCtion to East Romen Civilization. Oxford. 1961. P. 398.

(٣) المسعودي : كتاب البلدان ، إبريل ، ١٩٧٦م ، ص ٣٥٤ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ط١ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ، لندن ، ١٩٧٢م ، ص ١٦٣ .

الأندلس فى عام ٢٢٩ هـ / ٢٣٠ هـ / ٢٤٥ هـ[(١)] ، والذين كان يطلق عليهم فى العصور الوسطى الفيكنج Viking الذين سكنوا شبه جزيرة اسكندناوة والبحر البلطى[(٢)] .

وعرف البيرونى الكثير عن البحر البلطى وعن سكان الشمال وشرق أوروبا وخاصة هؤلاء النورمان الاسكندنافيين الذين يدعونهم باسم الروس أو الورنك أى: (الفارنجيين) Varegues ، كما جاء فى كتابات المؤرخ الروسى فطور[(٣)] .

ويبدو أن المؤرخين العرب خلطوا بين أجناس الفيكنج ، ولم يفرقوا بين الدانيين الذين هاجموا بلاد الأندلس وبين السويديين الذين ارتحلوا إلى البلاد الروس واتحدوا مع السلاف .

ويذكر البيرونى : (وأما فى مغرب المعمورة ... البحر المحيط ويسميه اليونانيون أوقيانوس يمتد نحو الشمال بمحاذاة أرض الصقالية ويخرج منه خليج عظيم (أى بحر البلطى) فى شمال الصقالية ... ويعرفونه ببحر ورنك وهم أمة على ساحله)[(٤)] .

وكلمة الورنك أو الفارنجيين تعنى عضو اتحاد التجار ، وهى مشتقة من الكلمة الاسكندنافية فار Var أى العهد أو العقد – وتشير كلمة الورك إلى مغامرة النورمان الذين ارتبطوا بعهد أو تضامن ، كما تعنى الأحلاف فى لغة الشماليين؛ وعلى هذا فإن إشارات اليعقوبى أو المسعودى وابن حوقل قد أرجعت الروس إلى النورمان وأهل الشمال إلى الفيكنج . أما إشارة البيرونى فقد حددت انتماء الروس على فرع واحد من

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ط٣ ، ١٩٣٦م ، ص ١٢٠ ، ابن عذارى البيان ، ط٢ ، ١٩٥٠م ، بيروت، ص ١٢٩ – ١٣٢ ، ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢م ، القاهرة ، ص ٧٨ – ٨١ .

(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى ، ط١ ، ترجمة محمد مصطفى زيان والسيد الباز العرينى ، ١٩٦٨م ، القاهرة ، ص ١١٥ .

(٣) البيرونى : كتاب الفهم لأوئل صناعة التنجيم ، نشر : رمزى رايت ، اسكفور ، ص ١٢١ – ١٣٣.

(٤) ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، دار الثقافة العربية ، ص ٢ .

فــروع النورمان أو الفيكنج وهو الفرع الإسكندنافى أو السويدى بصفة خاصة ، وقد سكن هؤلاء البحر البلطى أو بحر ورنك كما يطلق عليه البيرونى[١] .

ويرجع الباحثون الغربيون أصل الروس إلى أهل الشمال (النورمان) Northman، وقــد اســتند هؤلاء على ما جاء أولاً : فى التاريخ المسمى The Russian Primary Chronicie الــذى كتــب فى القرن ١٢ وحدد (٨٥٢ – ١١١٠م) ، والذى يعتبر الروس شعبًا نورمانيا . وقد استند إلى ما جاء فى حوليات برتينانى Annales Bertiniani فى عــام ٨٣٩ م أنهم وصلوا فى هذا العام إلى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل يحملون هدايا ثمينــة وخطابا للإمبراطور ، وأن الإمبراطور استقبل الرسل فى إنجلهــيم (Ingelhim) وعــندما ســئل هؤلاء عن جنسيتهم ذكروا أنهم من الروس Rhos وأن مليكهم يحمل لقــب خاقــان Chacanus ، وتحرى الإمبراطور عن هؤلاء الروس ، ودل البحث فى شخصــيتهم على أنهم من أهل السويد Suedois . ويتضح من هذا الأصل الاسكندنافى للروس أنهم من السويديين كما ذكرنا سابقا[٢] .

إن الفانــيين (Finnois) والفنلــنديين أطلقــوا على العناصر الشمالية التى تغلغلت بلادهــم وخاصة الورنك اسم ريوتسى Ruotsi ، ومن ثم فهو فى الروسية (روسى) ، وأصــل كلمتى ريوتسى وروسى كلمة اسكندنافية تعنى المجدفون أو هى لفظ فنى يعنى النواتــية أو البحارة ، وقد التصقت بهم هذه التسمية وصارت علما جغرافيا على جميع البلاد التى حلوا بها منذ عام ٨٦٢[٣] .

---

(١) البيرونى : المراجع السابقة ، ص ١٢١ .

(2) Obolensky, Byzantin Commonwealth Eastern Europe 500- 1453. London. 1971. P.P. 181. I Cam. Med. His V. 4. Part. I. 1964. P.P. 96-504.

Flornsky: Russia, V.I. New York- 1953- P.P. 15- 16.

Mawer: The Vikings. P. 327. I Rambaud: Histaire de La Russie.

(3) Minorsky (ed) Hudud al Alam- London- 1937. P. 432. Pares: A History of Russia- London- 1962. P. 54.

إن عددا كبيرا من أسماء أمراء الروس كانت أسماء اسكندنافية مثل : روريك Rurik – Hroereek وأيجور Ingvar – Igor وغيرها[١] .

وهناك رأى آخر أورده ابن خرداذبه فى أصل الروس ، فعندما تحدث عن التجار الروس ذكر : (إنهم جنس من الصقالية) ، وعند حديثه عن مسلك هؤلاء التجار ذكر أيضا : (إنهم يسيرون فى تنيسى نهر الصقالية)[٢] .

وعلى هذا فقد أرجع ابن خرداذبه أصل الروس إلى الصقالية أو السلاف ، ويتفق مع رأى الباحثين الروس الذين يرجعون أصل الروس إلى قبيلة سلافية كانت تسمى بالروس Ros أو Rus وكانت هذه القبيلة تعيش فى منطقة السهوب ، وكانت مدينة رودون Roden هى مركز هذه القبيلة وسرعان ما تعرض سلاف السهوب لهجمات من جانب كل من القوط والهون والأفار الذين اجتاحوا البحر الأسود ، ونتيجة لهذه الهجمات اتحدت قبائل السهوب السلافية وكونت تحالفا قبليا كبيرا بزعامة قبيلة الروس هذه وأخذ هذا التحالف اسم هذه القبيلة أى اسم (الروس) وذلك فى القرنين: السادس والسابع الميلاديين . كما اتخذ هذا التحالف من مدينة رودون Roden والأراضى التى تجاور نهر الروس أى إقليم الدنيبر الأوسط مركزا له ، ثم ما لبث هذا التجمع القبلى أن نقل مكانه إلى مدينة كييف مركز البلويتز Polianes شعب السهل جيران الروس الشماليين ، وسرعان ما تحول هذا التجمع إلى دولة إقطاعية تحمل اسم الروس[٣] .

وإذا كان ابن خرداذبة قد اعتبر الروس من جنس الصقالية ، واتفق معه الدارسون السوفييت ، فإن المقدسى يفصل تماما ما بين الروس والصقالية إذ يذكر : (ويتاخم بلدهم (أى الروس) بلد الصقالية فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم وبيوتهم)[٤] .

---

(1) Rambaud, Histoire de la Russie. P. 39.

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ م ، ص ١٥٤ .

(٣) ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس ، ص ١١ .

(٤) المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ، ط٤ ، ص ٦٦ .

أمـا ريـباكوف Rybakov يذكر أن هذا الفصل لا يعنى تعارض مكان الصقالية ووصفهم بالنسبة للروس ، ولكن هذا فقط على الصعيد الجغرافى ، وفى الفترة التى كان الروس يستعدون فيها لإقامة دولة لهم و لم يكونوا قد اتحدوا مع السلاف الشرقيين(١) .

وفى القـرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى وبعد أن قامت دولة الروس يذكر ابن حوقـل : أن الـروس اسم المملكة والناحية لا للناس والقبيل ، ونستنتج من ذلك أن الروس أصبحوا معنى سياسيا .

ويبدو من ذلك كله أن للمصادر العربية آراء مختلفة حول أصل الروس ، فمنهم من يـرى أنهـم مـن النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتـبرهم مـن الصـقالية ، وليس هذا الأمر بغريب فقد حار الغرب بدوره فى تحديد أصلهم ، ويرجح أنهم من الفرع الشرقى من الفيكينج (أى السويديين) الذين سرعان مـا امـتزجوا بالسلاف الشرقيين وقبلوا أن يطلق عليهم اسم الروس الذى سرعان ما أصبح علما عليهم .

طبوغرافية بلاد الروس :

إن هجرة السلاف الشرقيين جاءت بهم إلى المنطقة المعروفة الآن بالسهل الروسى ، ويمـتد هـذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد إلى جـنوب جـبال الكاربثيان Carpathian والبحر الأسود القوقاز وبحر قزوين Caspain وجبال آسيا الوسطى . وتعتبر سلسلة جبال الأورال هى التى تشكل شطرا شماليا جنوبيا ويصـل ارتفاعها فوق ١٢٠٠ قدم . أما الطرق المائية للسهل الروسى والتى يبلغ طولها حـوالى ٧٥٠٠٠ ميل تساعد على التغلب على عوائق امتدادها العظيم ، وتعتبر الأنهار متعددة وطويلة وصالحة للملاحة .

ويمكن الوصول إليها من واحد إلى آخر بواسطة الأنهار والبحيرات معا ليصبح النقل الـبحرى ممكنا تقريبا من أى اتجاه . ويعتبر نهرا الدنيبر والفولجا رابطين لأعظم خطين

(1) Rybakov, Early Centuries. P.P. 9- 17.

مائيين فى روسيا ، ويمر خط البحر البلطيقى إلى البحر الأسود من خلال بحيرات عظيمة، ومن هذه البحيرات يمكن الوصول إلى بحر البلطيق والبحر الأبيض[١] .

أما الإقامة على السهل الروسى فحينما اقترب السلاف الشرقيون من السهل الروسى فى القرنين السادس والعاشر اختاروا أن يستقروا فى أراضى الإستيبس التى يسهل الوصول إليها جغرافيا والمرغوب فيها اقتصاديا بالنسبة للغزاة . وكان مجىء الفارزار Farther إيذانًا بالحروب فقد بدأوا فى تأسيس حكمهم فى المناطق المملوءة بمياه نهر الفلجا والدون . إن هؤلاء الذين حاولوا الدخول إلى المنطقة عبر الساحل الشمالى للبحر الأسود وجدوا مستوطنات ومستعمرات تجارية ورومانية فى طريقهم ، وفى أراضى الغابة الشمالية كانت القبائل الأصلية[٢] أقل عددا وأكثر ضعفا من قبائل الإستيبس ، ونتيجة لذلك كان السلاف قادرين على تمكين أنفسهم من مناطق البلطيق التى سكنتها قبائل اللتوانية واللتيبة والليفية ، وكانوا قادرين على المطالبة بتوسيع مناطقهم ولكنهم استطاعوا تحقيق ذلك ببطء . وقبل نهاية القرن التاسع كانوا قد شغلوا أجزاء صغيرة مما يسمى الآن بروسيا الأوروبية ، وقد وصلت المستوطنات الرئيسية لهم شمالا إلى بحيرة لادوجا وجنوبا إلى الدنيبر Dinieper الأوسط والدنيستر Dinester وشرقا إلى نهر أوكا Oka .

استقرارهم وبداية تكوينهم :

قبل القرن التاسع كانت حياتهم قوامها العشيرة التى تعيش فى بيوت خشبية وتحرث الأرض بواسطة المحاريث البدائية التى تجرها الخيول والثيران واعتمدوا على تربية المواشى والصيد فى الأنهار ، فكانت حياتهم الاقتصادية ضعيفة تعتمد على البحث عن أراضٍ ومستوطنات جديدة ، وكانوا كثيرى التنقل بسبب تهديد القبائل الأقوى لهم . أما معتقداتهم الدينية فقد انعكست عليها المعتقدات الدينية للسلاف الشرقيين على مستوى إنجازهم الحضارى ، وكان العالم يمثل لهم وجود حياة غامضة مليئة بالأرواح الطيبة

---

(1) Sidney, op. cit. P. 36.

(2) Obplenky, companion To Russian Studies an Introduction to Russian Histoty. P.P. 246.

والخبيثة ، ولقد تعددت آلهتهم ومن أمثلتها : بيرون Perun إله الرعد واستريبوج Stribog إله الرياح وغيرهم .

ولم يكن لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية ولكن كانوا يلجئون إلى السحرة لاسترضاء الأرواح الشريرة . وبُنى تنظيمهم السياسى على العشيرة كما ذُكر ، وكانت العشيرة تحت قيادة أكبرهم سنا وهى التى تسن لهم القوانين ، وتمثل مصدر العدالة ، وكانت القبائل تعيش بصورة مفككة إلا فى حالة الحرب واجتياح الأعداء المفاجئ . ومع مرور الوقت بدأت العشيرة تفقد أهميتها[1] وبدأت المدن تدريجيا بالظهور ، وقد دعم نمو المدن والأحياء الاقتصادى لمدن أوروبا الغربية والشمالية والامتداد الناتج للتجارة بين أوروبا وآسيا الذى نمت فيه أعظم المدن السلافية مثل : كييف Kiev وشيرنيجوف Chernigov على طول نهر الرود . وقد ربحت هذه المدن الأخرى من التجارة النامية والتى تمثلت فى السلع المهمة مثل : العسل والشمع والعبيد التى نقلها التجار وغيرهم إلى القسطنطينية المركز التجارى الرئيسى للإمبراطورية البيزنطية والعربية، وهناك تبادل شحنات الحرير والعطور والتوابل والرماح والسيوف والمعادن النفيسة .

ولقد كان لنمو المدن أثر اقتصادى واجتماعى وسياسى فى حياة السلاف الشرقيين، وقد كان فى كل مدينة مجلس عام يتكون من الذكور ، ومن وقت لآخر يعين لهذا المجلس الأمير الذى يتعهد هو ورجاله بواجب حماية المدينة . أما المغامرون من الرجال فكانوا هم القادرين على التقدم ماديا ، وغالبا ما كان هؤلاء المغامرون يتعاونون مع الأمير . ومع مرور الأيام بدأت تختفى تدريجيا الطبقة المؤسسة للثروة لتظهر الطبقات الوسطى بوضوح .

تنمية القوة فى كييف وازدهارها :

كانت بدايتها القرن العاشر ، وكان الروس المؤسسون فى كييف على درجة من القوة يكفى لأن يستخدموها كقلعة لحماية تجارتهم الموجودة على الدنيبر Dnieper

---

(1) Sidney, Op. Cit. P. 7.

ومن الأخطار الممتدة فى طريقهم إلى القسطنطينية[١] أثناء المائة سنة التالية . وأثبت الأمراء الكييفيون قدرتهم على تقوية مراكزهم وتوسيع سلطتهم على القبائل والمدن الموجودة على طول نهر الرود بالإضافة إلى ضم مناطق جديدة للدولة المسيطرة عليه . ولم يكن تقدمهم سريعا ولا سهلا بل عانوا فيه الشيء الكثير ، واستطاعوا بإصرارهم على العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية[٢] .

وعندما استولى سفايتوسلاف Sviatoslav بن إيكور (إيجور) ٩٤٥ – ٩٦٤م على الحكم بدأ عهد دولة كييف التوسعى ، إذ وجد المدينة قوية سياسيا واقتصاديا وعسكريا تكفى لتبرير محاولة امتداده للعالم الموجود تحت حكمه ، وقد اتجه أولا إلى الشرق بغزو الخزر Khazasrs[٣] وضم أراضيهم الموجودة على الفولجا Volga والدون don تنفيذا لأوامر الإمبراطور البيزنطى فاتجه بقواته إلى الغرب ضد البلغار Bulgar الموجودين على الدانوب Danube ، وهناك ضم أكثر من إقليم للدولة الكييفية .

ولقد أخذ البيزنطيون يتوجسون خيفة من توسع نفوذ دولة كييف فى جهات البلقان الشمالية ، لذلك خاض الإمبراطور حنا زيمسكس John Zimiscees معركة ضد سفايتوسلاف أجبره على الانسحاب من بلغاريا سنة ٩٧١م ، كما اشتبك الأخير عند رجوعه إلى كييف فى معركة مع قبائل البشناق Pecheneg ، التى أخذت تنهال على

(١) شكل الخرز حاجزا اقتصاديا بين تجار الشمال فى الأجزاء الشمالية الروسية والمناطق البلقانية – ولم يكن بمقدور الشماليين القيام بحركة عسكرية عامة ضد الخزر لقتالهم عدديا . لذا وجهوا الدعوة لأبناء جنسهم من الشماليين سنة ٨٥٦م فاستجاب الزعيم رويك لهذه الدعوة ، وكان هذا حكما على الأقسام الجنوبية من جواتلاند وفريزلاند ، وقاد جموعه نحو الجهات الروسية ، فأنشأ نوفوجورود وجعلها مقرا لإمارته سنة ٨٦٠م وتولى الحكم بعد وفاته أوليج Oleg بصفته وليا على إيجور . ويعتبر أوليج المؤسس الحقيقى لدولة كييف ، إذ تمكن من الاستيلاء على تلك المدينة سنة ٨٧٨م التى كانت يحكمها السويديون القدماء ، والتى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لأسرة رويك الحاكمة . وأدى توسع دولة كييف جنوبا إلى الاصطدام مع البيزنطيين .

(2) B. Grkov, Kievrus. Moscow. 1959. p. 382.

(3) Vasilliev, Historyog the Byzantine Empire. Vol. I. Madison. 1964. 310 Vernadaty op. cit.

الجهـــات الروسية فى آسيا ، والتى أسفرت عن مصرع الأمير سفايتوسلاف ، وهذا ما نراه فى العلاقات الروسية البيزنطية[١] .

وهكـــذا أصـــبحت مديـــنة كيـــيف الروسية دولة لها كيالها تحت حكم سلالة ريوريـــك[٢]، وذلك لهيمنتها على مجموعة من المستوطنات الكبرى التى حكمتها حكما شـــاملا ، نشـــرت العـــدل بين ربوعها ، وأمنت شر جيرالها ، وتوسعت فى علاقاتها التجارية مع الدولة البيزنطية مما أدى إلى نمو ثرواتها ورسوخ واستقرار كيالها السياسى.

روسيا الكييفية :

رغم أن مناطق السهل الروسى كانت معبرا ومقرا للكثير من الشعوب والقبائل قبل مجىء السلاف الشرقيين ، إلا أنه لم ينجح أحد فى تكوين نظام حكم دائم ومستقر كما فعل الروس ولكن بعد التغلب على كثير من الصعوبات والعراقيل التى اعترضتهم.

أما عن بداية تأسيس دولتهم فلا يمكن استعراض الأحداث التى مرت بهم أثناء فترة ارتـــباطهم بالفارنجـــيين ، وذلـــك بسبب نقص المصادر الموثوقة فيذكر أن الفارنجيين الواثقـــين من قوتهم الفائقة بدءوا فى تجميع الضريبة من السلاف الشرقيين فى منتصف القـــرن التاســـع ، وأدى ذلـــك إلى ثورة السلاف الذين قاموا بدورهم وطردوهم إلى اســـكندنافيا ، ولكن هذه الفوضى لم تلبث أن تحولت إلى محاولات من السلاف لعودة الفارنجـــيين مـــرة أخرة لحكمهم وتنظيم أمورهم واستقرار دولتهم التى بدأت بمجىء الإخـــوة الـــثلاثة الفارنجيين: ريوريك Rurik – سينوز Sineus وتروفو Truvor الذين اســـتجابوا للنداء وجاءوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب ريوريك نفسه أميرا على نوفوجـــورد Vovgorod وســـينوز أميرًا على بيلوزيرو Beloozero وتروفو أميرا على إيزوبورسك . وفى خلال عامين مات كل من سينوز وتروفو تاركين ريوريك حاكما عـــلى مـــناطقهم بيـــنما اهتم ريوريك بولايته الكبرى ، ونصب أتباعه من السلاف والفارنجـــيين عـــلى الولايات الأخرى فحرصوا على الاهتمام بولاياتهم وقاموا بإقامة

(1) Cam, Med. His. V. T. IV. P. 207.

(2) B. Qrekov, Kiev Rus. P. 365.

اتصالات تجارية ممتدة من الجوار . وبوفاة ريوريك عام ٨٧٩م اعترف بابنه إيجور كوريث له ولكنه كان طفلا صغيرا فنصب قريبا له يدعى أولج Oleg . ولقد أثبت أولج أنه أكثر طموحا وقوة من ريوريك فى توسيع وتقوية ولايته ، فقد استولى على كييف وأسس هناك حكما مركزيا على المدن الأخرى التى أخضعها والتى تشمل المراكز التجارية المهمة مثل : سمسولنسك ونوفوجورد .

والواقع أن أولج يعد من أشهر الحكام الذين أغاروا على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وهو الذى أجبرهم على دفع الجزية للروس عام ٩١١م(١) .

علاقة الروس بالبيزنطيين :

الواقع أن العلاقة بين الروس والبيزنطيين قامت على صراع دائم ، فأول إغارة قام بها الروس على الإمبراطورية البيزنطية كانت عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو من أجل السلب والنهب والغنائم ؛ لذلك عادت القوات الروسية بعد أن حققت أهدافها فيما رمت إليه .

ثم تجدد الصراع مرة أخرى فى عهد الإمبراطور لى يو السادس من ٨٧٠– ٨٨٦م، واقتحم الروس بقيادة أميرهم أولج Oleg المياه البيزنطية ووصلوا حتى أسوار العاصمة عام ٨٩٧م ونجح الروس فى إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية وانتهى الأمر إلى التفاوض بعقد اتفاق بين الطرفين ، وتجدد هذا الاتفاق مرة أخرى عام ٩١١م فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الإمبراطور البيزنطى ونصت بنود هذا الاتفاق على منح تسهيلات وامتيازات بحرية فى الأرض البيزنطية واستمر السلام قائما بين الطرفين لمدة ثلاثين عاما انتعشت خلالها التجارة بينهم ، واستمر البيزنطيون فى سياستهم التى ترمى إلى كسب الروس إلى جانبهم .

وفى عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ؛ فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ورست القوات الروسية على الشاطئ الأسيوى للبسفور فى إقليم بثنيا Bithynia ونهبوا وسلبوا

---

(1) Sidney: op. cit., p. 11-12. B, Grekov, Kiev Rus. P. 366.

وعـــادوا بالغـــنائم ، فى الوقـــت الـــذى كانت القوات البيزنطية تحارب فى المشرق، فاستدارت القوات برئاسة حناكور أوكس John Cur Cuas وهزمت الروس شر هزيمة فى إقليم بثنيه وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحرى قـــاد حملة بحرية عليهم وهم يعدون العدة للانسحاب ونجح فى تدمير معظم سفنهم ، ثم عاود الروس الإغارة على الأراضى البيزنطية فى خريف عام ٩٤٤م واستعدوا استعدادا ضـــخما هـــذه المرة وتحالفوا مع البشناق لضرب الإمبراطورية البيزنطية ، وحدود نهر الدانـــوب بـــدلا مـــن الشـــاطئ الآسيوى ليكونوا على مقربة من البشناق ، ولكن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبشناق لاشتغالها بحروبها فى الشرق. فعقدت معاهدة تجارية كانت لصالح الروس . ثم ساد السلام بينهم وتوطدت[١] أركان الصـــداقة ، عـــندما زارت الإمـــبراطورية أولجـــا أرملة إيجورد – الوصية على العرش الروسى – القسطنطينية عام ٩٥٧م حيث تم استقبالها استقبالا حارا ، وعمدها بطريق الإمـــبراطورية عـــام ٩٥٦م – ٩٧٠م وسميت باسم هيلينا . والبعض يرى أنها اعتنقت المســـيحية قـــبل ذلـــك بعدة سنوات .. والواقع أن هذا الحدث فتح عصرا جديدا فى العلاقـــات بيـــنهم وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضا صالحة للقيام بعملها التبشيرى فى روسيا[٢] .

ونتـــيجة لهزيمة البلغار على أيدى الروس زاد طمعهم فى الممتلكات البيزنطية . ففى عام ٩٧٠م تقدم الأمير الروسى سفيا توسلاف إلى الحدود البيزنطية ودخل تراقية وأخذ يلتمس طريقه إلى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذى أثار الذعر فى القسطنطينية ، ولم يعد

---

(١) محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، بيروت ، ص ١٨٩ – ١٩١.

Rambaud, A, Empire Grecau Dixieme Constanantin Por Genete. Paris 1870. p.p. 380- 381.

Cam. Med. IV. P. 207.

(2) Schiumberger, G, UN Empete Ur byzantin Siecle Niecphore. Paris. 1980- 563.

أمام زمسيكس سوى الحرب فاستدعى قواده الكبار وتقابل الجيش البيزنطى مع القوات الروسية فتظاهر البيزنطيون بالانسحاب ، الأمر الذى أطمع الروس فى ملاحقتهم وكانوا قد أعدوا لهم الكمائن فى الأماكن التى تراجعوا منها وسدوا المنافذ التى يمكن للقوات الروسية استخدامها ونجح سفياتوسلاف فى هذه المرحلة فى ضم المجر والبشناق إلى جانبه ، فضلاً عن أمراء البلغار ، واغتر الأمير الروسى بما تحت يديه من قوات وتقدم خلف القوات البيزنطية حتى دخل منطقة الكمائن ، وفى الوقت المناسب ضربت القوات البيزنطية ضربتها وانتصرت انتصارا ساحقا على الروس وحلفائهم بالقرب من مدينة أدرنة واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب إلى بلغاريا .

وانشغلت الإمبراطورية البيزنطية ولكنها لم تهمل الجانب الروسى، ففى عام ٩٧٢م أعد يوحنا زمسيكس جيشا قويا ، كما أبحرت البحرية البيزنطية من نهر الدانوب ، وفى بريلاف نشبت معركة بين الجانبين انتهت بانتصار القوات البيزنطية انتصارا ساحقا وهلك عدد كبير من القوات الروسية وكانت كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالروس فى هذه المرحلة من الزمن، ووقع العديد من الأسرى فى أيدى القوات البيزنطية، وبعد هذه الأحداث فر الأمير الروسى إلى مدينة سيلستريا Silistria على نهر الدانوب فتتبعه يوحنا وانضم إليه الأسطول البيزنطى القادم من الدانوب غربا وهلك الروس فى هذا الحصار ، وانتهى الأمر بأن عرض الأمير الروسى الصلح على يوحنا فقبله[١] .

فى هذه المعاهدة عرض عليه أن يسلم سيلسترا ، ويجلو عن بلغاريا ، وأن يعيد الأسرى ، مقابل أن يسمح له بالعودة إلى بلاده مع من تبقى معه فى الجيش الروسى، وألا تتعرض لعساكره السفن التى تحمل النيران الإغريقية ولما لم يكن لديه من القمح ما يكفى لمؤونة جيشه ، طلب إلى الإمبراطور أن يمده بالقمح اللازم لجنده ، ثم طلب آخر الأمر أن يعتبر البيزنطيون ، الروس من بين الأمم الصديقة للإمبراطورية ، وأن يسمح لهم بالقدوم إلى القسطنطينية لبيع ما لديهم من السلع ، وتعهد الروس أيضا ألا يغيروا

---

(1) Schlum berger: LE popce. I. P. 52.

محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

على أطراف الأرض التابعة لمدينة خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم ، والتى تعتبر آخر ما للإمبراطورية من ممتلكات على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود ، وتعهد الروس أيضا أن يبذلوا المساعدة للبيزنطيين فى رد كل عدو أجنبى ، وأعلن زمسكيس قبوله لما تقـدم به سفياتو سلاف من مقترحات وأنقذ الصلح . وتم إرسال القمح إلى من تبقى مـن الجند الروس وحلفائهم وعددهم اثنان وعشرون ألف مقاتل ، وتجدد أيضا ما كان للـروس من امتيازات تجارية ، ثم جرى اللقاء بين سفياتوسلاف وزمسكيس وتلا هذا الاجتماع توقيع المعاهدة بين الروس والبيزنطيين .

وبعد أن تم عقد المعاهدة ، اتخذ سفياتوسلاف طريقه فى نهر الدانوب حتى وصل إلى الشـلالات وحيث احتشد البشناق متربصين لـه[1]، إذ إن أهل بريسلاف أرسلوا إلى البشـناق يخطرونهم أن سفيا توسلاف حصل من البلغار على غنائم وفيرة ، وليس فى صـحبته إلا جماعة قليلة العـدد ، فأعد البشناق له كمينا هو رجاله وعند الشلالات قرب مصب النهر أخذت الأقوات تنفد من عند الروس وحلت بهم مجاعة شديدة وتحتم عـلى سيفاتو سلاف أن يمضى الشتاء فى هذا الموضع (جزيرة Bielo Berejie) وعند حلـول فصل الربيع أزمع المسير غير أنه تعرض له أمير البشناق ويدعى كوريه Kouria فاغتال سفياتو سلاف واحتز رأسه . وترتب على هذا الانتصار الكبير نتائج مهمة :

١ – تتمـثل فى أن الإمبراطورية تخلصت من عدو خطير ، ظهرت قوته باستيلائه على مملكة الخرز ، وإخضاع البلغار .

٢ – أن بلغاريا أضحت تحت السيادة البيزنطية ، فعلى الرغم من أن زمسكيس فى أثناء قتاله ضد سفياتو سلاف ، وعندما أطلق سراح بوريس الملك البلغارى وأسرته من أسر الروس أعلن أنه نهض للانتقام للبلغاريين لما تعرضوا له من أذى الروس وقسوتهم ، فإنه لم تتوفر عنده النوايا الخالصة لإعادة نظام الحكم القديم .

(1) Ostogorowski: op. cit. p. 261.

وبعد موته بدد أبناؤه بواسطة الصراعات الأخوية قواهم حتى ظهر من هو جدير بحمل المسئولية ، وكان فلاديمير Valdimir ٩٧٨ – ١٠١٥م قد واجه مهامًّا صعبة لإعادة بناء دولته فى ظل نظام جديد ، واستطاع أن يحقق كثيرا من الإنجازات ، وأن يعيد البناء مرة أخرى على أساس اقتصادى قوى عمل له فى السنوات الماضية(١) .

ولقد أعقبت وفاة فلاديمير حروب أهلية أسفرت عن انتصار ابنه أيروسلاف ١٠١٩ – ١٠٥٤ ، وقد اهتم بتشريع القوانين وتقوية الكنيسة الأرثوذوكسية ، واعتمد فى سياسته الدينية على الزعيم الروحى الروسى هيلاريون مؤسس الحركة الديرية الروسية المسماة بالديرية الكييفية Monawtery of The Caves(٢) .

وتعتبر سنوات حكم هذا الزعيم هى السنوات المشرقة الروسية أو ما يسمى بالانتعاش الحضارى ، فقد استطاع أن يصل بروسيا الكييفية إلى أعلى درجات التقدم واستمرار الخطط التى بدأها فى السنوات الأولى من حكمه ، وقام بتشجيع وتوطيد العلاقات الاقتصادية الروسية مع كل البلاد الآسيوية والأوروبية حيث أصبحت كييف مكانا لتلاقى التجار البيزنطيين والعرب والألمان والبولنديين والمجريين والاسكندنافيين ، وأصبحت أيضا مركزا للتنميات الحضارية الروسية ، وقد قام ببناء المدارس والمكتبات وشجع الفنانين والمتعلمين والموهوبين ، ودفع الناس إلى الاتجاه إلى المساعى السلمية ، وبالرغم من أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة اقتصاديا وحضاريا بالإمبراطورية البيزنطية إلا أنها اتجهت إلى إقامة روابط عائلية مع الأجزاء الأخرى من العالم أيضا حيث كان أيروسلاف نفسه مرتبطا بملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا عن طريق المصاهرة .

وفى عهده جمعت فى روسيا أول مجموعة من القوانين كانت مماثلة للقوانين البيزنطية لكن محتواها كان أفضل ، ومن بين الحقوق والأعراف عند كل من السلاف والإسكندنافيين والألمان أخذ الروس بعض النظم السياسية فى التجارة والاقتصاد .

---

(١) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٣ – Ostogorowski. P. 262 .

(2) Vernadsky op. cit. p. 40.

وتعتبر السنوات ١٠٥٤ – ١٣٣٣ من سنوات الانهيار السياسى أو ما يعرف بالسنوات المظلمة، فعندما مات أيروسلاف ١٠٥٤م بدأ يختفى بريق السنوات المشرقة، وأملاً فى منع النزاع ترك لكل من ورثته الستة إدارة جزء واحد من هذه المملكة ، وأمر أبناءه الخمسة بطاعة الأكبر الذى سوف يحكم كأمير عظيم للكييف ، ويعتبر بذلك أنه أسهم فى تأسيس نظام جديد أدى إلى نتائج سلبية وإلى ضعف محقق لكييف ، لأن هذه الخطة لكى تنجح كانت تتطلب درجة أعلى من الوحدة السياسية والترابط الحضارى أكثر من الذى حققته روسيا الكييفية . وقد كانت قوة الأمير العظيم لكييف هى العامل الأساسى لربط العالم بالعائلة الحاكمة ليؤكدوا طموحهم فى السلطة والاستقلال ويشكلوا مجموعات مجاهدة ضد الأمير العظيم ، أو يجابهوا مع المنافسين الآخرين والمجرمين وآل كومنين قيام بيزنطة .

ثم تولى حكم كييف عام ١١١٣م أمير عظيم قوى نجح فى إخماد القوى وهو فلاديمير مونوماخ Valadimr Mon makh حفيد أيروسلاف ، وقد بذل جهدا كبيرا ليصل إلى اتفاق سلمى مع الأمراء المنافسين ، وبالرغم من أنه فشل فى إيجاد تنظيم عملى بينهم إلا أنه نجح فى صد البدو الموجودين على الحدود الروسية ، وأعطى الفرصة لكييف لتستعيد بعض رخائها السابق ، ولكنه لم يكن قادرا على تحويل قوة الهدم إلى قوى بناء . وبعد انتهاء عصر مونوماخ بدأت كييف تفقد قوتها كمركز للقوة السياسية والمدنية وبدأت مدن أخرى فى الظهور ، واكتسبت مدينة نوفوجورد Novgorod تفوقها شمالا وجاليسيا Galicia تفوقها غربا Suzdal وفلاديمير Valadimir شمال شرق ، وضعفت كييف بعد ظهور هذه المدن بصورة كبيرة . وفى عام ١١٦٩م حدث أن اتحدت القوات واجتاحوا المدينة ، وفى خلال ثلاثة أيام دمروها ونقلوا كنوزها وآثارها الحضارية[١] .

وهكذا ضعفت كييف ، وتضافرت عدة عوامل على القضاء عليها ، فالبدو العاملون فى شمال البحر الأسود قد منعوا التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا مؤشر خطير على اقتصاد كييف ، وأسهموا فى تدمير المدينة وضعفها .

---

(1) Sidney: op. cit. p.

وفى تلك الأثناء كانت الدولة البيزنطية تعانى من ضعف اقتصادى وسياسى مما أدى إلى انعدام الدعم الاقتصادى لكييف ، وأصبحت روسيا فريسة سهلة لكل مغير من القبائل المجاورة ، وقد كان العديد منها رابضا على الحدود :

١ – الكومانيون البدو الذين أزعجوا الولايات فى منطقة لاستبس .

٢ – اللتوانيون الذين جاءوا من المنطقة البلطيقية وبحثوا عن مستوطنة فى الولايات الروسية الشمالية .

٣ – السويديون الذين بحثوا عن كسب التحكم فى نيفا Neva ، وقطعوا التجارة فى نوفوجورد .

٤ – الهنغاريون فى الجنوب الغربى الذين جاءوا وواصلوا هجومهم ناحية الشرق .

٥ – التتار الذين اجتاحوا روسيا من منطقة القوقاز وجاءوا من الجنوب الشرقى[١] .

ونتج عن اجتياح هذه القبائل القاطنة على الحدود سقوط وانهيار كييف . وخلاصة القول : أنه لم يكن فى تاريخ دولة كييف ما يستدعى الانتباه سوى تنافس الأمراء وحروبهم الأهلية المدمرة وتحالفهم مع الهنغاريين والبولنديين والكومان ضد بعضهم البعض من ١٠٥٤ – ١٢٤٠م .

وليس عجبا أن تظل الحال على هذا المنوال فى روسيا فى العصور الوسطى ما دام حكامها من سلالة ريوريك يعتقدون أن الإمارة فى الدوقيات الروسية على اختلاف مدائنها إرث لا يتجزأ بل يتوزع بين أبناء الأسرة الحاكمة[٢] ، استنادا على قاعدة السن بحيث يكون الأكبر سنا هو الأعظم جاها والأوسع سلطانا مما جعل كل توزيع جديد مجالا لترقيات فى الأقدمية بحسب السن ، فضلا عن وجود ضغائن وأحقاد واختلافات لا نهاية لها بينهم .

---

(1) Sidney: op. cit. p. 17. 190.
Bayhes and Miss: Byzant ium (oxford) 1063. p.

(2) Vernadsky: op. cit. p. 40.

ومن هنا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر الدنيبر دولة ثابتة الأركان ، برغم مجيء أوروسلاف إلى عرش الدوقية وهو الذى عرف باسم القانونى . ولكن أعقبت وفاته ١٠٥٤م مرحلة طحنت روسيا فيها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة. وفى أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييف سنة ١١٦٩م ونهبها وخربها وهى المدينة الهامة ذات الكنائس الأربعمائة ، وتجرأ ونقل الدوقية من كييف الواقعة على نهر الدنيبر إلى مدينة اختارها لنفسه ، وهذا الابن هو أندريه سوزدال الذى أسس مدينة فلاديمير والتى غدت ثانية العواصم الروسية(١) .

وبسقوط كييف تختتم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهى مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها الكثير من الأعمال الهامة .

التحول الدينى فى روسيا :

لقد كان انتشار المسيحية فى روسيا عملية تدريجية تبدأ بالطبقات العليا وتنتشر ببطء إلى الطبقات الأقل تمدنا ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية إذ استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون عديدة . ولقد وجدت العناصر الوثنية طريقها حتى فى طقوس الإيمان الجديد ، ولكن تدريجيا بنيت بيوت العبادة وأسست الأديرة ودرب رجال الدين ، وبدأ الروس ينظرون إلى الكنيسة كمركزهم الروحى . وبعد ذلك انتشرت المسيحية فى كل مكان وعرفت البلد باسم روسيا المقدسة .

وفى الواقع ، إن تحول مملكة كييف الروسية إلى المسيحية لا يحدد فقط بداية عصر جديد فى تقدم روسيا ، بل يشير أيضا إلى انتصار باهر لبيزنطة واتساع مجال التأثير البيزنطى إلى مدى لم يكن متوقعا ، وخضعت أكبر أمم السلاف ووضعت نفسها تحت القيادة الروحية بالقسطنطينية ، وأدارها من البداية مطارنة بيزنطينيون أرسلتهم بيزنطة لهذا الغرض ، ولفترة طويلة ظل التقدم الحضارى لروسيا يسير تحت الحماية البيزنطية . وفى عهد فلاديمير ربطت علاقة هامة بين بيزنطة والأمير الروسى الذى ارتبط

(١) فشر : تاريخ ، ط١ ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ . Cam. Med- His, VII- p. 600 - 602 .

اسمه بدخول المسيحية ، ذلك أنه عندما تمرد بارديايس فوكاس Fkacas Bradas ضد الإمبراطور بازل الثانى Basil II وهجم مع أتباعه فى إقليم آسيا الصغرى على العاصمة عندما هجم البلغارى فى نفس الوقت على أراضى الإمبراطورية من ناحية الشمال أرسل بازل الثانى يطلب العون من الأمير الروسى .

وعقد الاتفاق بين الاثنين تعهد فيه فلاديمير أن يرسل ٦٠٠٠ جندى روسى لخدمة بازل الثانى ، كما وعد الأمير الروسى أن يعتنق هو وشعبه الديانة المسيحية على شريطة أن يزوج الأمير الروسى من شقيقة بازل الثانى وهى الأميرة Anne . وقد أرسل الأمير الجند الذى وعد بإرسالهم ، وتمكن بازل بمعونتهم من أن يخمد حركة تمرد فوكاس ، غير أن بازل لم يف بوعده الخاص بالأميرة . فهاجم فلاديمير مدينة خرسان (Cherson) فى شبه جزيرة القرم Crimean واستولى عليها انتقاما من الإمبراطور ، وهنا اضطر بازل الثانى إلى أن يفى بوعده واعتنق فلاديمير المسيحية وتزوج من آن Anne ويحدد تاريخ المسيحية رسميا فى روسيا بعام ٩٨٩م . وبعد ذلك صارت العلاقات بين الجانبين علاقات حسنة[١] .

ويعتبر دخول المسيحية إلى روسيا تحولاً جديدًا فى حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحى المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذى عرف باسم الأرثوذكس الشرقية أو الأرثوذكس اليونانية[٢] .

ظهرت هذه الكنيسة نتيجة للعديد من الانشقاقات التى دمرت الوحدة الأصلية للكنيسة المسيحية ، وبسبب هذه الانشقاقات تطور مركزان دينيان رئيسيان وهما : روما والقسطنطينية ، وبالرغم من أن الانفصال النهائى لم يحدث حتى عام ١٤٠٥م إلا أنه قد ظهر مركزان دينيان مميزان فى القرن التاسع وهما: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها فى روما ، وكنيسة الأرثوذكس الشرقية ومركزها فى القسطنطينية .

---

(١) محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢١١ .

(2) Schiumberger: L, Epopel. P. 759. Sidney: op. cit. p. 11 – 12.

إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطى اكتسبت خصائص مميزة كانت تتسم بالتأثير اليونانى أكثر من الرومانى ، وحكمت بواسطة الأباطرة البيزنطيين ، وأثناء القرن العاشر كان العديد من الطبقات العليا الروسية متأثرين بالحضارة البيزنطية ، ومال الأمراء الحاكمون إلى الإيمان ببيزنطة .

وفى عام ١٩٨٨م استقبل فلاديمير فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وبعد ذلك بعامين أعلن المسيحية كديانة رسمية لبلاده وأمر كل الخاضعين له بأن يتنصروا. وبعد ذلك بدأ بتنظيم الكنيسة فى روسيا فجعل مركزها الرئيسى فى كييف وعرف رئيسها بالمطران ، وأصبح تابعا لبطريرك القسطنطينية ، وكان المطران المعين واحدا من اليونانيين ، وكان الكهنة والأساقفة فى البداية من اليونان أو البلغار وقد اتبعت كنيسة الأرثوذكس عامة اللغة الدارجة للمناطق التى توغلت فيها ، لكن لغة الكنيسة السلافونية التى تطورت فى بلغاريا كانت مرتبطة بشدة باللغة المتحدث بها فى روسيا ، لذلك كانت تستخدم كلغة دينية . وحروف اللغة السلافونية المؤسسة على حروف اللغة اليونانية تطورت فى الجزء الأخير من القرن التاسع بواسطة سيريك لكى يستطيعوا أن يترجموا الأدب الدينى إلى اللغة الدارجة عن السلافة الشرقيين والغربيين ، وهكذا يسهل تحولهم الدينى .

لقد ترجم ميتوديوس أخو سيريل الإنجيل إلى اللغة السلافونية ، وهذه الترجمات كانت أولا أدبًا مكتوبًا متاحًا للروس ، وأصبحت نموذجا لأدبهم الدينى فيما بعد ، ولقد استخدم أدبهم الدنيوى اللغة السلافونية حتى القرن الثامن(١) .

---

(1) Sidney: op. cit. pp. 12- 13.

الخاتمة

١ – اختلاف المؤرخين ، واختلاف المصادر حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة من الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم جنسًا من الصقالية (السلاف) .

٢ – إن هجرة السلاف الشرقيين إلى المنطقة المعروفة بالسهل الروسى أدى إلى انتشارهم فى هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد جنوبا إلى جبال الكارثيان والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين وجبال آسيا الوسطى .

٣ – تعتبر كثرة الأنهار وتعددها وطولها هى السبيل الوحيد والتى أدت إلى سهولة الغارات والتنقل البحرى ، ويعتبر نهرا الدنيبر والفولجا رابطين لأعظم خطين مائيين فى روسيا .

٤ – قبل القرن التاسع الميلادى كانت حياة الروس قوامها العشيرة التى تعيش فى بيوت خشبية وتعتمد على تربية المواشى والصيد فى الأنهار ، وكثرة التنقل . أما حياتهم الدينية فليس لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية بل كانوا يلجئون إلى السحر ، وكان العالم يمثل لهم حياة غامضة مليئة بالأرواح الشريرة . أما حياتهم السياسية كان قوامها العشيرة ، ثم بدأت المدن فى الظهور تدريجيا ومن أعظم المدن السلافية : كييف، شيرنيجوف ونوفوجورد .

٥ – تنمية القوة فى مدينة كييف كانت فى القرن العاشر ، وبدأت باستيلاء سغايتوسلاف بن إيجور ٩٤٥ – ٩٦٤م على الحكم ونمت هذه الدولة وأصبح لها كيان تحت حكم سلالة ريوريك .

٦ – روسيا الكييفية وبداية تنظيم الولايات واستقرارها كان بمجىء الإخوة الثلاثة من أسرة ريوريك الذين حرصوا على الاهتمام بولاياتهم ، وقاموا بإقامة اتصالات تجارية ممتدة من الجوار .

٧ – مواصلة أولج المسيرة ، وإثباته أنه أكثر طموحا وقوة فى توسيع وتقوية ولايته.

٨ – علاقة الروس بالبيزنطيين .

تراوحت تلك العلاقة بين الروس والبيزنطيين بين صراع وسلم . ففى البداية قامت على صراع دائم وإغارات مستمرة بدأت منذ عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن ذلك كان من أجل السلب والنهب والغنائم ، ثم دخلت مرة أخرى فعقدت بينهم معاهدة تجارية ٩٥٧م دعمت بريادة امبراطورأولجا ، ثم عادت للحرب والغزو مرة أخرى ، ثم وقعت معاهدة صلح نتج عنها توطيد العلاقات بين الطرفين ١٠١٩ – ١٠٥٤م .

٩ – التحول الدينى فى روسيا : الانتشار للديانة المسيحية فى روسيا كان تدريجيا وبدأ بالطبقات العليا ، ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية ، إنما استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون ، ثم تدريجيا بنيت بيوت العبادة ، وأسست الأديرة ، ودرب رجال الدين وبدأ الروس على الكنيسة كمركزهم الروحى ، وانتشرت المسيحية فى كل مكان ، وعرفت البلاد باسم روسيا المقدسة .

١٠ – يعتبر دخول المسيحية على روسيا تحولاً جديدًا فى حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحى المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذى عرف باسم الأرثوذكس الشرقية .

١١ – إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطى اكتسبت خصائص مميزة ، وكانت تتسم بالتأثير اليونانى أكثر من الرومانى .

قائمة المصادر والمراجع

١ - ابن حوقل : (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت أواخر القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢م .

٢ - ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالى ٣٠٠هـ ٩١٢م) ، المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩م .

٣ - ابن عدارى : (من كتاب القرن السابع عشر الهجرى) ، البيان المغرب ، ١٩٥٠م ، بيروت ، ط٢.

٤ - ابن القوطية : (أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧هـ) ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢م ، بيروت .

٥ - البيرونى : (محمد بن أحمد ت ٤٣٠هـ ١٠٣٨م) ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، نشر رمزى رايت ، اكسفورد ، ١٩٣٣م .

٦ - خليل بيدس : العقد النظيم فى أصل الروسيين واعتناقهم الإيمان القويم ، بيروت ، ١٨٩٧م .

٧ - السيد البازر العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت / ١٩٨٢م .

٨ - فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، ١٩٦٨م ، القاهرة .

٩ - ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٠م ، القاهرة .

١٠ - محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية .

١١ - محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ، ٢٠٠٢م ، بيروت .

١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسن ت ٣٤٦ هـ ظ ٩٥٧م) ، كتاب البلدان ، ليدن ، إبريل ، ١٩٧٦م .

١٣ - المسعودى : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧م .

١٤ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ ظ ٩٩٨م ، البدء والتاريخ ، ط٤ ، باريس، ١٩٠٧م .

١٥ - المقرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ت ١٠٤١ هـ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيى الدين ، ط٣ ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

١٦ - الموسوعة العربية العالمية ، ط٢١ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع .

قائمة المراجع الأجنبية

1- Baynes and H. moss: Byzantium an Introduction to East Roman Civilization' Oxtord. 1961.
2- Cam- Med- His. Part. I. 1964.
3- Chronique de Nestir (ed) Leger- Paris- 1884.
4- Durant. W,: The age Of Faith. 325- 1300- New York- 1950.
5- Edward acton: The Present and The Past, Russia- 1987- London.
6- Florinsky: Russia. V. 1. Newyork- 1953.
7- Francis Carr: Ivan The Terrible- 1981- New York.
8- Fennel Yohn: The Crisis Of Medieval Russia- 1200- 1304- London- Longman.
9- Grekov: Kiev Rus. Moscow- 1959.
10- Kluchevsky. (V): A history Of Russia Tr. C. Y. Itogarth- 1911- 1931.
11- Mawer: The Viking- Cambridge- 1930.
12- Minor skyu (ed): Hudud al- Alam- London- 1037.
13- Rybakov: Early Centuries of Russian History H. From The Russian by John Weir- Moscow- 1965.
14- Pares: A History Of Russia Methuen London. 1962.
15- Pirenne: A History Of Eyrope From The Invosions To The Xvi Century New York, 1955.
16- Rambaud: Histoire de La Russia Depuis Les Origines Insqua- Lan 1877- Paris.
17- Robert Auty and Dimitri Obolensky: Companion To Russian Studies an Introduction To Russian History, Cambridge.
18- Sidney Harcave: Russia A History. London- 1954.
19- Vasilliev, A. History Of Byzantin Empire. V I. (Madison) 1964.
20- Vernadsky. G. A History Of Russia Yala- 1954.
21- Oblonsky: Companion To Russian Studiesan Introduction To Russian History.

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب
فى القرن التاسع عشر

إعـــداد
د. عامر جاد الله أبو جبلة
جامعة مؤتة – قسم التاريخ
الأردن

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب
فى القرن التاسع عشر

النظرة إلى نظام الحكم :

إن رحلة العـــرب إلى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، كانت للتعـــلم أو العلاج ، أو لعقد الاتفاقيات التجـــارية ، أو للقيام بالمهمـــات الرسمية التى كلفتهم بها دولهم ، أو للإقامة كممثلين دبلوماسيين[1] . وكان أول هؤلاء الرحالة الذين رحلوا إلى أوروبا وبخاصـــة إلى فرنســـا رفاعـــة رافع الطهطاوى من مصر الذى ذهب فى رحلة (بعثة تعليمية) إلى باريس عام ١٨٢٦م .

ولقـــد لفت انتباهه كما لفت انتباه وإعجاب غيره من رحالة القرن التاسع عشر «نظـــام الحكم فى أوروبا» فلاحظ رفاعة الطهطاوى أن الحكم هناك للقانون ، وأن الدســـتور هـــو سيد الجميع ، وهو الذى ينظم علاقة الدولة بالمواطنين ، والمواطنين بعضهم ببعض ، وحول هذا الموضوع قال الطهطاوى :

---

(١) أبـــو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظـــر فهـــيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت / ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

« إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وإن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد، بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين .. والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة (المشروطية) ومعناها فى اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله وليس فى سنة رسوله ﷺ ؛ لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيه من يشكو ظلما أبدا والعدل أساس العمران »[1] .

وفسّر الطهطاوى المادة الأولى من القانون الفرنسى ، والتى تنص على أن « سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة » فقال : معناه: أن سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظرًا إلى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحاضرة .

ويضيف الطهطاوى : « وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية » .

---

(١) الطهطاوى ، رفاعة ، تخليص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩٩ .

وأوضـــح الطهطـــاوى كذلـــك ، أن « الفرنســـاوية مستوون فى الأحكام على اخـــتلافهم فى العظـــم والمنصب والشرف والغَناء ، وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية » .

ومـــع ذلـــك فإن رفاعة رافع الطهطاوى وعلى الرغم من إعجابه بالعدل والحرية والإنصاف فى بلاد باريس إلا أنه يعتبر أنه « إذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نســـبى إضـــافى لا عدل كلى حقيقى ، فإنه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان فإنه كالإيمان الكامل والحلال الصرف »(١) .

وهـــناك أحمد فارس الشدياق فى كتابه « كشف المخبا عن فنون أوروبا » الذى زار بلاد الإنجليز ووصف حرية الناس هناك مقارنة مع البلاد العربية إذ قال : « ومن العجيـــب أن الإنجلـــيز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا فى رأسه ولا فى عارضه .. والظاهر أن أعظم أسباب الشيب هو الهم والإصر والخوف من ظلم الولاة وذوى الســـيادة كمـــا هو فى بلادنا وكذا فى كل بلاد يقل فيها الأمن والسلامة فإن أحـــد الإنجليز إذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه أو من أمير أن ينافسا علـــيه بذلـــك، بل يعتقد أن غناه أو غنى أمثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شاء ولا يخشـــى أن يـــتطاول علـــيه فى حقـــوقه أحد ممن هو أعلى منه ، فإن الجميع فى الحقـــوق متساوون »(٢).

ويرجع خير الدين التونسى فى كتابه « أقوم المسالك » أساس التقدم الأوروبى إلى أن « أســـاس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد فى الممالك الأورباوية بالعيان وليس بعده بيان »(٣) ، هذا فضلا

---

(١) الطهطـــاوى ، رفاعة ، تخليص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

(٢) الشـــدياق ، أحمد فارس ، كشـــف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـــ ، ص ١٠٧ .

(٣) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـــ ، ص ٥ .

عن أن تقدم الإفرنج فى المعارف نتج عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية»[١]، ويقول كذلك : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى »[٢] .

وجعـــل خير الدين التونسى الحرية « منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأورباويـــة » وقال : « إن لفظ الحرية يطلق فى عرفهم بإزاء معنيين أحدهما يسمى الحرية الشخصية : وهو إطلاق تصرف الإنسان فى ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه ، وعرضـــه ، وماله ، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم ، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضـــيمه فى ذاته ولا فى سائر حقوقه ، ولا يحكم عليه بشىء لا تقتضيه قوانين البلاد المـــتقررة لدى المجالس . وبالجملة ، فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية ، والحرية بهذا المعنى موجودة فى جميع الدول الأورباوية إلا فى الدولة الباباوية والدولة المسكوبية لأنهمـــا مستبدتان وهما وإن كانتا ذواتى أحكام مقررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك ..

والمعـــنى الـــثانى : الحرية السياسية وهى تطلب من الرعايا التداخل فى السياسات الملكية والمباحثة فيه هو الأصلح للمملكة .. ولما كان إعطاء الحرية لسائر الأهالى مظنّة لتشـــتيت الآراء وحصـــول الهرج عدل عنه إلى كون الأهالى ينتخبون طائفة من أهل المـــروءة والمعرفة تسمى عند الأورباويين بمجلس نواب العامة .. كما أشار خير الدين التونسى إلى حرية التعبير فى طرح الآراء فقال : « وبقى وراء ذلك للعامة شىء آخر يســـمى حرية المطبعة (الكتابة) وهو أن لا يُمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح فى الكتب والجـــرنالات التى تطلع عليهـــا العامة أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها »[٣] .

---

(١) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـــ ، ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ — ٧٥ .

ويرى خير الدين التونسى « أن البلدان التى ارتقت إلى أعلى درجات العمران هى التى تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم إلى مصالح دنياهم ، ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الإدارة المستجربة فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها فتعذر عليهم تحريكها وبالجملة ، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة »[١] .

وأوضح خير الدين التونسى أسباب اتخاذ الممالك الأوروبية للقوانين والأنظمة التى تحكم سلوك الراعى والرعية إذ قال : « اعلم أن الأمم الأورباوية لما ثبت عندهم بالتجارب إطلاق أيدى الملوك ورجال دولهم بالتصرف فى سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر فى الأمم الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد مع جعل المسؤولية فى إدارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين : أحدهما : قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثانى : قوانين حقوق الأهالى فيما بينهم »[٢] .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسى هذا الموضوع كذلك فقال : « وأن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمة وما يقتضيها حالها ، وأن يستوى الشريف والمشروف فى الحقوق الشخصية ، وأن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم والأراضى والتجارة وغيرها ... وقال : « فسارعوا (ملوك أوروبا) إلى منح الأهالى بالقوانين والحرية منّة منهم وما حصل فى إحدى الممالك من إجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة إلا أخذت فى الترقى والثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت إتقانا واختراعا ، وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من

---

(١) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

لم يجارهـــا فيما هى عليه ، وسرى العمل على ذلك النحو فى جميع ممالك أوروبا .. بحيـــث يصـــح أن يقـــال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاخـــتلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة . أما أصول هذه الأشياء فهى موجودة فى الجميع »[١] .

كما تنـــاول محمد بيرم التونسى الحيـــاة السياسية فى أوروبا بالتفصـــيل فقال : «وخلاصـــة الكـــلام على جميع قسم أوروبا هو أن يقال: إن جميع الممالك – إلا ما اســـتثنى – كـــلها ممالك قانونية يعنى أن إدارتها منضبطة فى السياسات بأمور محدودة مكـــتوبة يعـــلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف مجاوزتها، والمباشر لإجرائها هم الـــوزراء بـــإذن رئـــيس الدولـــة على اختلاف لقبه من إمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية، وعدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها ، ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما: مجلس الأعيان من الأمة واختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواســـطة وراثـــة تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الأهالى بعض الأعضاء من بعـــض المملكة . والثانى : مجلس النواب أى نواب الأمة ينتخبهم الأهالى لمدة معلومة بغايـــة الحـــرية فى الاختيار على شروط فى المنتخب والمنتخب تؤول إلى صفات تثبت حـــق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والأهلية لنصحه ، ومجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمة أو المملكة ، فإذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو مجموعهـــم وأصـــر المعترض على رأيه لزمه الاستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمـــة . وهنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس وإبدال المعترض علـــيه ، أو يأذن الأمة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول ، فإن وقع انتخاب الأمة عـــلى إنـــاس موافقين للمعترض عليه بقى الأمر على ما هو عليه ، وإن انتخبوا أهل المجلـــس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم فى الرأى لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعترض عليهم وتوظيف غيرهـم ممن يوافق رأى الأمة هذا زيادة عماً لهـــذا المجلـــس من حفظ القوانين ومراعاة مصالح المملكة فى المال والسياسة والأحكام

---

(١) بيرم التونسى ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـ ، ج١ ، ص ٤٢ – ٤٣ .

وعقاب المذنبين من المتوظفين ولو من الوزراء ، غير أن مباشرة العمل ليست بيده وإنما هى لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية »(١) .

أما أحمد زكى فى كتابه السفر إلى المؤتمر ١٨٩٣ فقد وصف طريقة حرية التعبير فى (لورندة : لندن) إذ قال عن مواطنيها : إن كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف فى أى مكان ، ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أو لا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على إحراق دور الأغنياء وسلب المخازن الكبيرة ، وما أشبه ذلك فإن حرية المقال فى هذه البلاد وصلت إلى ما هو فوق منتهاها »(٢) .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب فى القرن التاسع عشر قد اهتموا اهتماما بالغا بتفاصيل الحياة السياسية فى أوروبا من حيث الانتخاب الحر لممثلى الشعوب ، وسيادة القانون ، والعدل ، والحرية ببعديها : السياسى ، والشخصى ، وتأكيدهم الواضح على أن سر التقدم الأوروبى هو ما يتيحه العدل السياسى لتلك الشعوب من مرونة تساعدهم فى الرقى والتقدم فى الصنائع والفنون .

النظرة إلى التقدم :

من أوائل الرحالة العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ولاحظوه فى أوروبا ودونوا ملاحظاتهم حوله ، وبصورة تفصيلية ، رفاعة رافع الطهطاوى ، فى كتابه « تخليص الإبريز » إثر رحلته إلى باريس منذ عام ١٨٢٦م . فلقد آمن رفاعة بالحقائق العلمية وبأنها أساس التقدم الحضارى والسعادة الدنيوية(٣) . وكان المثل الأعلى فى رأيه أن

---

(١) بيرم التونسى ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـ ، ج١ ، ص ٥٨ .

(٢) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط١ ، ١٣١١هـ ، ص ١١٢ .

(٣) سابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٧ .

يأخذ المسلم العلوم الأوروبية ليطور دنياه وأن يحتفظ بإسلامه الذى يهديه إلى الطريق المستقيم والنجاة(١) .

وصف رفاعة الطهطاوى التقدم فى باريز ، مبينا أسباب ذلك وأن الأصل فى ذلك تطور الناس أنفسهم إذ قال : « اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات ... وليسوا أسراء التقليد أصلا بل يحبون دائما معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى إن الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره(٢) .

وأضاف رفاعة قوله : والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والنادر أولى فى العمارات عادة من القرى ومن الضياع والمدن العظمى أولى من سائر ما عداها من مدن المملكة . فحينئذ لا عجب إن قيل إن باريز التى هى قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة(٣) .

ولفت نظر الطهطاوى فى باريز طرقاتها المبلطة بالحجر التى لا تتشرب المياه ، بل تسير مياهها إلى المجارى ثم إلى البالوعات(٤) . وذكر أن مطايا هذه المدينة كغيرها من

(١) سابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٩ .
(٢) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ — ٦٦ .

بلاد فرنسا العربات ، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ولاتزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع[١] .

ويذكر الطهطاوى أن الذى « يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر (عصره) بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الفرنج من يضاهى حكماء باريس بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر »[٢] .

وأشار إلى تقدم الزراعة فيها بالإضافة للفنون والعلوم والصنائع فقال : وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه بستان عظيم الأشجار والخضروات وغيرها ، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم مثل شجر النخيل[٣] .

وأعطى الطهطاوى وصفا تاما لعمل البريد والتقدم فى خدمة المواطنين الباريسيين فى هذا المجال فقط : « وأما البريد المسمى عند الفرنسيين البُسطة فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع ما يكون وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فإن المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عدده المسمى نمرة فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوعة فى كل حارة فيأتى الساعى ويأخذه فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ويأتى رده فى يومه ، ثم إن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشىء »[٤] .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

ومما لفت نظر الطهطاوى من مظاهر التقدم استخدام وسائل الإعلام بمفهومنا الحديث للترويج عن سلعة من السلع أو لأعمال تجارية بصورة عامة . فيذكر أن «من الأمور النافعة فى التجارات الجرنالات ، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا نظير ذلك »[١] .

ويشير الطهطاوى إلى أن من أسباب رغد عيش وتقدم باريس فى فنونها وصنائعها يرجع إلى أن أهل باريس يمتازون بالنشاط الدائم وعدم التكاسل وقال : « اعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى ، حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » . كما لفت انتباهه وجود نظام الصيرفة الذى يسهل الأعمال التجارية ، وذلك بقوله : « ثم إن أعظم التجارات وأشهرها فى باريس معاملات الصيارفة ، والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو الميرى وصيارفة باريس »[٢] .

وينتقد الطهطاوى كسب أهل باريس بأنه قائم على الربا وهنا يقول : « ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا »[٣] .

وذكر الطهطاوى أن « من جملة أسباب غناء الفرنساوية ، أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى إنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف »[٤] .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

وفى عام ١٨٦٠ قام أبو جمال محمد الطاهر الفاسى المغربى برحلة إلى الديار الإنجليزية فزار لندن ووصف التقدم فيها عن أهلها : « والحاصل أنهم أتعبوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظريات ، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولازالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة ، كما أحدثوا البابور وغيره»[١].

ووصف الفاسى مدينة (لندريز) فقال : « وهذه المدينة من المدائن العظام ما رأيت أعظم منها ولا أحظى حتى تكرر على أسماعنا أن طولها ستة أيام ، وعرضها كذلك ، وبها سلطانة الإنجليزى ، وغالب بنائها بالحجر المنحوت ويبطنون الحيطان من داخل بالخشب ويجعلون عليه كاغيدا – مموها ، ويفرشون الأرض ببسط وزرابى جيدة .. » كما أعطى وصفا عاما للعمران بقوله « والديار بهذه المدينة كلها متشابهة إلا ما قل وتتميز بالأعداد على أبوابها .. والعادة أنهم لا يحمون البساتين بالحيطان ، وإنما يحدقونها بقصب من حديد واقف ، وبرأسه شيء شبيه بالحربة »[٢] .

ويرى الفاسى أن كل شيء فى بلاد الإنجليز عجيب فيقول شعرا :

الله أخّر مدتى فتأخرت   حتى رأيت فى ذا البلاد عجائبا[٣]

ومن الأشياء والصنائع التى وصفها فى كتاب رحلته وصفه لـ : الفبارك (المصانع) مصانع السلاح ، وفبركة معدة لنشر الخشب ، والأساليب الحديثة عندهم فى الزراعة ، ثم حديثه عن البنك : « وهو معدود من دار السكة عندهم » ، كما وصف دار صنعة الزجاج من كؤوس وغيرها ، كما وصف حسب تعبيره « محل السلك » (التلغراف) المعد لورود الأخبار وتوجيهها[٤] .

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ – ٣٦ .

كما وصف التقدم العسكرى ، خصوصا الصناعة العسكرية من حيث « أسلحة البنادق ، والمدافع والعربات »(١) .

ويوضح اندهاشه بهذا التقدم بقوله : « والحاصل أنهم - دمّرهم الله - يستعملون أشـياء تدهـش سيما من رآها ربما اختل مزاجه من أجل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بـالله العلى العظيم ، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم حتى أدركوا مُنها مناهم ، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط وفى كل ما يقربهم منها غوابط »(٢) .

وهكذا فإنه قد اهتم بصورة خاصة بمظاهر المدنية الحديثة فى لندن وأبدى استغرابه من الأشياء التى رآها لأنها كانت بعيدة كل البعد عن مألوفه ، ولكنه يتفهمها ويصفها بكـل وضوح ودقة مثلما وصف ميزان الطقس (بارومتر) والتنبؤ بالطقس بناء على ذلك .

ولكـن الفاسـى يفسر تقدم الإنجليز استنادا إلى استخدامهم العقل وبعدهم عن الإيمـان فقال : « العقل على قسمين : ظلمانى ونورانى ، فالظلمانى به يدركون هذه الأشـياء الظلمانـية ، ويـزيدهم ذلك توغلا فى كفرهم ، والنورانى به يدرك المؤمن المسـائل المعنوية كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله ، ومن هذا الباب وصفهم الله فى غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكر وبعدم الفقه »(٣) .

وهـو يقف من الإنجليز وقوتهم العسكرية موقفا واضحا فلم يكن مسرورا لقوتهم وتدريـبهم الـذى رأى فيه تميزا عن الجيش فى بلاد المغرب ، فبعد أن وصف عسكر المديـنة (لـندن) الذى أُحدِث أيام الملكة فكتـوريا ومشاهدته للاسـتعراض الذى قـاموا به أمام الملكة ، وقال : والله يهلك القوم الكافرين ، وينصرنا عليهم ، آمين .

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقـيق الأسـتاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥ - ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

وقـال : «هذا العسكر أباده الله»[١] وفى مقام آخر قال الفاسى : «اللهم احص القوم الكافرين عددا وشتتهم بددا ولا تبق منهم أحدا ، آمين»[٢] .

وقـال : « قال بعض العلماء : إن النصارى حرموا جنة الأخرى ، فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج قسطنطينية »[٣] .

ولقد أعجب أحمد فارس الشدياق بما رآه من تقدم فى أوروبا ، من حيث التمدن والبراعة والتفنن والتفكر فى المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية وإتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع ، وهو يقول: إنه دائم التفكر فى خلو بلادنا عما عندهم من تقدم[٤] .

ورأى الشدياق أن من أسباب التقدم فى أوروبا أنه « إذا نبغ أحدهم مثلا فى فن أو صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله ، وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ جذوة قريحته، بل بالحرى يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم ، فأما فى بلادنا ما ينبغ أحد فى شيء يبادره حاسدوه بقولهم : « هو مُدّعٍ ، هو حمار ، هو متطفل »[٥] .

ووصف خير الدين التونسى ، التقدم والتمدن فى أوروبا بقوله : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى، وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة »[٦] وأضاف أن هذا التقدم لم يحصل إلا بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات الراجعة إلى الأصول

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٤) الشدياق ، أحمد فارس ، الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط١ ، دار الوحدة، ١٩٧٨ ، ص ١٣ ، وكشف المخبا ، ص ٣ .

(٥) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٤٩ .

(٦) التونسى ، أقوم المسالك ، ص ٩ .

الأربعة : الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية ، وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الإنسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن النظام ونظام الجماعة حتى يكون المحترف مثلا آمنا من اغتصاب شيء من نتائج حرفته أو تعطيله فى بعض أحوال خدمته . ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال إلى أن يعم الاختلال المفضى إلى الاضمحلال »[١] .

وذكر خير الدين التونسى أن من أسباب التقدم « تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاضد الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الحرف والصنائع ، فبالطرق تُستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها .. وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتى الأرباح على قدرها ، وتتداول على المال الأيدى المحسنة لتنميته ، وبتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال »[٢] . ويشير خير الدين التونسى إلى أن من أسباب تقدمهم كذلك « العناية بمن اخترع شيئا لم يسبق إليه أو أجاد فى عمل مفيد »[٣] .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسى فى كتاب « صفوة الاعتبار » موضوع التقدم، أو كما يسميه (التمدن) فى أوروبا ، فقال : « وهاته القارة الآن رمقها السعد بألحاظه .. فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا ، وامتد فيها تدريجيا إلى أن بلغت فى هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لأهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الأرض »[٤] .

ووصف محمد بيرم تقدم الصنائع فى إيطاليا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر فقال : « وأما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع الضرورية والتحسينية ، لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هى من أعظم أسباب الثروة والترقى ، وإن كانوا لازالوا

---

(١) التونسى ، أقوم المسالك ، ص ٧٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ — ٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
(٤) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج١ ، ص ٤١ .

مجتهدين فى ترقياتها إلى بلوغها لمثل درجة الأمم البالغة للنهاية فى المعارف ، والتمدن ، والحاصلون عليه الآن هو أن لهم معامل للسلاح بأنواعه ومعامل لإنشاء السفن والبواخر المدرعة . ومعامل للتحليلات الكيماوية وللأعطار وللشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود ، ولصناعة الورق ، وغزل القطن ، ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ، ومنه النوع الفاخر المسمى بالأمير أو القطيفة ، ومعامل للطراز ، كما أنه يصنع بالأيدى أيضا ، ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة ، وآلات الموسيقى وخصوصا أوتار بلدنا بل لها صيت كبير فى جميع الجهات ، وفى نابلى وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب ، كما أن فى إيطاليا إتقانا لصناعة الأحذية وسائر الأنعلة وخياطة الملبوسات وهم فائقون فى صناعة تخت المرمر ونفسه ، وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان »[١] .

وأعطى محمد بيرم وصفا شاملا للطرق المرصوفة فى إيطاليا وأكد على اهتمام بلدانها بالنظافة والتنوير واتساع الطرقات ، وحول الطرق المرصوفة قال : « اعلم أن إيطاليا تكاد أن لا تجد بين بلدتين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير أن الطرق فى البرية لا تنظف ، وأن لها قيمين لإصلاح ما يفسد منها كأن يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى إليه وفيه من آلات الإصلاح ما فيه الكفاية » أما النظافة فى بلدان إيطاليا : فقال : « ولا تجد مزبلة فى البلد لأن خدمة التنظيف يرفعون الأزبال الملقاة من الدور فى آخر الليل ومن طرح الأوساخ من داره فى غير الأوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث نجد سائر الطرق نظيفة ، وفى الليل منوّرة بالبخار الغازى والفوانيس نظيفة ... ويضيف : وغاية ما هناك هو الفرق بين البلدان فى شدة النظافة ، والتنوير واتساع الطرقات فقط »[٢] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

ولفت نظر محمد بيرم ما تأخذه الدولة من السكان فى إيطاليا كضرائب وما يترتب على ذلك من تقدم وتحسين البلد ، فقال : « كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسم مما تدفعه الأهالى إلى دولتهم يصرف فى تحسين المملكة ورونقها وإصلاحها كمد الجسور والطرق الحديدية وتنظيف الطرق زيادة على إنشائها ، وكذلك يؤول لتوسيع التجارة والمعارف والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين »[١] .

وفى حوالى عام ١٨٨٩ ، زار أوروبا محمود عمر الباجورى (من مصر) ، ابتدأ رحلته بإيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إنجلترا ، ثم استوكهولم ، وألمانيا ، ثم العودة إلى مصر . وفى رحلته الشاملة هذه لأهم بلدان أوروبا آنذاك وصف التقدم والحياة وصفا شاملا، حتى إنه كان كثيرا ما يعطى جداول بالأرقام حول بعض مظاهر التقدم فى تلك البلدان. ووصف مدينة تريستة فى إيطاليا فقال : « وفيها مدارس عديدة للملاحة والتجارة وغيرها ، وكتبخانة وانتفخانة ... وفيها التياترو ، والبورصة ، ومحل إنشاء السفن والمستشفى ، والقناة الجالبة لمياه الشرب والأرصفة التى على البحر ، كل ذلك فى غاية الحسن والمتانة »[٢] .

وعند حديث الباجورى عن (سراى ميرمار) فى مدينة تريستة ، قال : « والحيطان فى غاية الإتقان مع جمال النقش وحسن الشكل بما حوى من الرسم العجيب والوضع البديع والألوان الجميلة التى تأخذ بالأبصار « كما أُعجب بحديقة السراى هذا أيما إعجاب فقال : « وبالجملة ، فهى حديقة لم يسمح الدهر بمثلها »[٣] .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن مدينة ميلانو فوصف تقدم صناعاتها ، وبخاصة الحرير ويذكر أن فيها « نور الغاز والنور الكهربائى ، حتى إن محطة سكة الحديد على اتساعها وارتفاع قبتها منورة بفانوس واحد كهربائى ، بحيث يتمكن الإنسان من القراءة على نوره فى الخط الرفيع »[٤] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٥٩ .

(٢) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١١ — ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

والتفت الباجورى إلى المسارح (المراعى) « وترتيب الغيطان » فى مدينة فينيسيا ، وأرجع التقدم فى هذا المجال إلى انتشار الأمن هناك فقال : « كنا نرى فى طريقنا هذا البقر والغنم والمعز والخيل والجاموس الأسود الذى لا يوجد إلا فى بلاد إيطاليا دون غيرها من أوروبا فى المسارح بدون من يحفظها وذلك لعموم الأمن عندهم ، إنما يجعل الإنسان على حدود غيطه حاجزا من الخشب أو الأشجار الصغيرة المشتبكة بالصناعة يمنع خروج الدواب منها ، فعند الصباح يأتى بها صاحبها إلى ذلك الغيط ويقفل عليها بابه ، ويتركها ترعى ، ويذهب لشغل آخر ، ثم يعود إليها آخر النهار ليأخذها إلى بيته »[(١)] .

وقد تعجب من طرق سكة الحديد النافذة عبر الأنفاق فى الجبال فى أوربا[(٢)] . فقال : « حين يمر بك الوابور فى سرداب تحت صخور الجبال التى لا يمسكها إلا الله تعالى فى ظلام حالك لولا ما فى الوابور من النور ماذا يكون حالك وإلى أى شىء تتجه أفكارك ، نعم ذلك شىء يحير الألباب ويدهش العقول ويطير النوم من العيون ، ولا ينفع إذ ذاك إلا التسليم لقضاء الملك الحكيم فهو كما يقال داخله مفقود وخارجه مولود ، فهناك لا تسمع إلا دويا هائلا وفرقعة مزعجة ، من سرعة الوابور ، مع طبقات الهواء المخزون فسبحان المنجى من المهالك التى هى أمثال ذلك »[(٣)] .

وعندما تحدث الباجورى عن مدينة لوسرن السويسرية أعجب بالبيوت الريفية المقامة على بعض الأنهار هناك ، ويصفها « بالبيوت الخلوية »[(٤)] .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن باريس التى كان قد وصلها فى أول آب ١٨٨٩ ، فذكر ساحاتها وكنائسها ، ومستشفياتها ومدارسها ، وأفاض فى الحديث عن مكتبتها وموجوداتها من الكتب ، فيذكر أنها تشمل على ٩٠٠ ألف مجلد طبع ، و٨٠ ألف مجلد خط آنذاك ، ويطلق عليها اسم « الكتبخانة »[(٥)] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١٧ – ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

وقال عن باريس : « باريز هى أول مدن فرنسا تمدنا وتجارة وعلما وصناعة لاسيما الأشياء التى تلزم للنساء والأطفال » ... كما عقد فصلا عن « الانتظام والترتيب فى محلات التجارة » فى باريس . وقال : « وكل شىء قد يكتب عليه ثمنه فلا يحتاج إلى نزاع فى المساومة ، وهكذا فى كل محل مشهور يكون بهذه الصفة المستحسنة ، وكل بضاعة يشتريها الإنسان يمكن توصيلها إلى محله بواسطة عربات محل التجارة المعدة لذلك بدون مقابل ، غير أنه يلزم الإنسان أن يكتب على بضاعته اسمه ونمرة محله ويتركها لهم ، فانظر إلى هذا الاستعداد الغريب والترتيب العجيب والانتظام الكامل ، وفى هذه زيادة عن الترتيب الأمانة بحيث إن أهلها لا يكونون محترسين من الناس الأجانب ، مع كثرتهم ، وقوة ازدحامهم مع بعضهم البعض والتصاقهم بالبضائع »[١] .

وقد أعجب الباجورى ببناء كتبخانة باريس وبوابتها التى تعجب من صنعها كذلك فقال : « أما بناء الكتبخانة ففى غاية الصلابة والمتانة والانتظام وحسن الوضع، وأبوابها من الداخل فى غاية الغرابة بحيث إن الإنسان إذا فتح الباب وتركه ينغلق وحده بقوة فى أول الأمر إلى أن يقرب من تمام الغلق يرجع القهقرى قليلا ، ثم ينغلق بكل هدوء وسكون وذلك بواسطة مكنة فى أعلاه جعلت لذلك فإنه لو ترك الباب ينغلق بدون الآلة المذكورة لحصل للبناء أضرار كثيرة مع طول الزمن من قوة الباب وعظم جرمه ، فسبحان الهادى المدبر الحكيم »[٢] .

وذكر الباجورى بعض مظاهر التقدم الأخرى فى باريس مثل « اللوكاندات » وما تشتمل عليه من حسن التنظيم ، والترتيب والنظافة[٣] ، وكذلك الوابور الكهربائى ومركز التلفون ، الذى وصفه بأنه « يخدم أربعة آلاف فرع لمدينة باريز والحال أن المتولى لتوصيل هذه الفروع أربع نساء ، فتكون كل واحدة توصل ألف فرع ، فانظر إلى تلك المهارة والإتقان والتقدم ، وكنا نراهم حال تأدية العمل فى غاية

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ – ٣٥ .

الهدوء والسكينة مع نشاط تام ، فجل من خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم »[١] .
كما تكلم عن الآلات الميكانيكية بشتى أنواعها وأغراضها[٢] .

ويرجع الباجورى سبب هذا التقدم عند أهل باريس إلى أن : « أوقاتهم مرتبة فى العمل للمعاش وفى الأكل والشرب والتنزه والاستراحة والنوم ، تراهم لا يضيعون أوقاتهم سدى ولا تذهب أعمالهم أدراج الرياح ، وأساس ذلك التربية وسرعة حركة التجارة ، والصناعة بالتفات الحكام وتيقظهم لذلك فترى هذا رأى العين ، إذا سكنت على شارع من الشوارع العامة ذهاب الناس والعربات والبضائع من كل الجهات على الدوام فى ليل أو نهار حتى الساعة الأخيرة التى من شأنها نوم جميع الناس فيها لها ناس يعملون فالحركة مستمرة والناس يجدون فى أعمالهم »[٣] .

ثم انتقل الباجورى إلى إنجلترا فوصف مدينة (لندرة) وتقدم العلوم فيها وبخاصة فى مدرستها الجامعة ، ومدارسها الأخرى وجمعياتها ، ومستشفياتها (وفبريقاتها) أى صناعاتها الخاصة بالسكر وبناء السفن والأنسجة وصب الفولاذ والصباغة ، ونسيج الصوف ، والقطن ، والدباغة ، ومعامل الزجاج وغيرها »[٤] .

ومن مظاهر التقدم الأخرى التى أشار إليها الباجورى : البنك الإنجليزى ، وما يقدمه من خدمات مصرفية لأهل (لندرة) وغيرها هذا فضلا عن الحديث عن التمدن والتجارة فى مدينة (لندرة) فقال : « متجر مدينة لندرة وحده يساوى خمس تجارة المملكة الإنجليزية كلها وبها جملة من البورصات المهمة وميناها أعظم مينة فى العالم وكذا أرصفتها التى عددها ٧ ، الصادر منها سنويا يساوى ٢٠٠ مليون جنيه ، ويدخل ميناها فى السنة نحو ١٢ ألف سفينة »[٥] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٤٢ – ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

وقـال الـباجورى: إن أول سكة حديد فى أوروبا عموما قد أنشئت كانت فى إنجلترا، ثم ذكر تسلسل البلدان التى استخدمت السكة الحديدية فى بلادها كما يلى : «افتتحت أول سكة حديد فى إنجلترا سنة١٨٢٥م ، وفى بلاد النمسا وفرنسا ١٨٢٨، وفى ألمانـيا وبلجيكا ١٨٣٥ ، وفى بلاد الروسيا ١٨٣٨ ، وفى إيطاليا ١٨٣٩ ، وفى بـلاد أسبانيا ١٨٤٨ ، ثم ذكر بلاده مصر سنة ١٨٥٦ » ، ثم يعلق على هذا بقوله : «فلو نظرت إلى هذا وجدته دليلا واضحا على تقدم الأمة الإنجليزية خصوصا صناعة الآلات الميكانيكية»[١] .

ثم انـتقل الـباجورى من إنجلترا إلى هولندا فوصف التجارة والصناعة فى مدينة روتردام وكذلك مدينة ليدن ، ثم أمستردام ، ثم بعض المدن الألمانية التى زارها كذلك مـثل كولونـيا ، ثم مديـنة هامبورغ التى قال عنها وهى أعظم مدن ألمانيا عموما كتبخانـتها ٢٠٠ ألف مجلد ، وبها مدارس عليا ووسطى وابتدائية ، لكل الفنون من بحرية وتجارية وغيرها ، وتكلم عنها كميناء تجارى فقال إنها : « أعظم مينات أوروبا البحرية التجارية بعد لندرة ، وليفربول من بريتانيا ، وتجارتها رواج زائد لها علاقة مع كل المدن المهمة فى الأقسام القريبة والبعيدة فى البواخر البحرية »[٢] .

وفى رحلـة لأحمـد زكى (من مصر) بعنوان : (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣ ، وصـف التقدم فى إيطاليا بقوله : « وبرعـوا فى الفنون الظريفة ولا بدع إذا قلت فى هـذا المقـام إن كل طليانى لابد أن يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش ، والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والأغانى ، ونظم القريض والمعانى ، فقد زرت معرض الصـور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقـايا فنيـة جميلة أو فوق جميلة مما لا تكاد تضاهيه مجموعة الدنيا القـديمة والجديدة حتى لقـد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض »[٣] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٣٠ .

وأشـــار أحمد زكى إلى مظاهر التقدم الأخرى : « مثل العربات والسكة الحديدية والبوســتة والــتلغراف والبواخروالبولــيس ، وما أشبه ذلك من التنظيمات من أنهم يضــعون أسمــاء الشــوارع على رقع مربعة من الرخام كى لا يتطــرق إليها البلاء بسرعة »[1] .. كما وصف نظام مكتبة بيزا فى إيطاليا وأعجب بهذا النظام فقال : « ثم زرت المدرســة الجامعــية ومكتبــتها العظــيمة ورأيت فيها من النظام ما يوجب الإعجــاب بهــا .. مثال ذلك أن الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشــب بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه إلى أن يرد الكــتاب إلى محله ، وفى ذلك فائدتان : أولهما – حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها . وثانيها – التنبه على أن هذا المكــان يشــغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لإعلام من يريد أن يجيل ناظــره على الكتاب فقط، ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية ، وأخرى لحفظ الكراريس والأجزاء التى تظهر فى أوقات معيــنة من كتاب واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ، ومتى تمت الكراسات والأجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها »[2] .

ووصف أحمد زكى كذلك مدينة (لوندرة) أى لندن فى رحلته ، فقال : « حتى إذا وصــل المحطة (القطار) زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الأرصفة ، وجســامة المــبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهــب بالرشاد ، ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه »[3] .

ويــرى أحمــد زكــى أن مــن جملة أسباب التقدم فى بريطانيا كثرة الشركات والجمعــيات المنضبطة وأوضح ذلك بقوله : ولكنى أقول إن الشركات والجمعيات ،

---

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ – ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ومـا بينها من المزاحمة الممدوحة ، والمناظر المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقـاء فمهمـا نظـر الإنسـان إلى أى عمل من الأعمال رآه فى يد شركة من الشركات، وليس للحكومة دخل فى شيء ما سوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمـان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فإن الأمة قائمة بنفسها مكدّة فى طلب المكاسب والمعالى بما يفيدها ، ويرفع شأن دولتها ، من غير أن تتنازل وتمد يدها لإمداد الحكومة ماديا ، أو معونتها معنويا ، حتى إن الإنسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤون العقليات أو المحسوسات ، كيف أن مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات، نعم، فقـد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد ، ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى وإضافتها للدولة الإنجليزية على يد شركات تجارية »[١] .

ووصف أحمد زكى بلاد بريطانيا بأنها « بلاد التعاضد على الأعمال والتباعد عن الخمول والإهمال ، ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على إنماء المال »[٢] .

ويـرى أن تقدم الأمة البريطانية يرجع إلى نشاط أفرادها ، فقال : « وذلك لأن أفـراد الأمـة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا إلا للعمل والاكتساب ، ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى إن بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهـب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ، ولا تكـون كـلا على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ، ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خالـيات مـن العمل منغمسات فى البطالة والكسل ، وذلك شأن الشباب أيضا ... وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سـائر الأمم ، ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحـل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القنـاطير المقنطرة ، فلابد له من التكسب بعرق جبينه »[٣] .

---

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

وفى الكتاب المرسوم بـ « الدنيا فى باريس » لأحمد زكى ، يرى ويؤكد على «عظم المدينة» فى أوروبا و « جلالة الحضارة » فيها ، ويرى أن هذا التقدم يجب أن يحرك فى العرب تنشيط الإحساس والشعور بمواكبة التقدم ، ليكون من ورائه عظائم الأعمال[١] .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب قد تنبهوا إلى فهم أسس التقدم الصناعى ، والمعرفى العلمى فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، من حيث سيادة القانون والعدل السياسى والاجتماعى ، هذا فضلا عن مثابرة الفرد الأوروبى وسعيه المتواصل لتحقيق الرقى فى كل مجال من مجالات الحياة وصولا إلى دولة المؤسسات التى تحفظ الأمن والرخاء والرفاهية لجميع أفراد المجتمع وبدون استثناء .

النظرة إلى الحياة الاجتماعية :

من الظواهر العامة التى ميزت كتابات الرحالة العرب فى القرن التاسع عشر عن البلاد الأوروبية ، توسعهم فى الحديث عن مكنونات المجتمعات الغربية من حيث الطبقات فيها ، والدين والعادات الاجتماعية فى اللباس ، والأكل ، كما لفت انتباههم بصورة خاصة المرأة الأوروبية ، ووضعها فى المجتمع ، وهذا منتظر ، لانفتاح المرأة على المجتمع هناك ، ومشاركتها الفاعلة فيه ، وفى مختلف نشاطاته الثقافية والاقتصادية بصورة تختلف كليا عن المرأة فى المشرق آنذاك .

وصف رفاعة الطهطاوى مجتمع باريس بأنه ثلاث طبقات كما يفهم من خلال العمران فيها ، فيقول : « وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب ، المرتبة الأولى : بيت عادى ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول : يسمى بيتا ، والثانى : يسمى دارا ، والثالث : يسمى قصرا أو سراية »[٢] .

---

(١) زكى ، أحمد ، الدنيا فى باريس ، ١٩٠٠م ، ص ٢٧٢ .
(٢) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

وعـن طبائع « الفرنساوية » يقول الطهطاوى : « ومن طبائع الفرنساوية التطلع والـتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصا فى أمـر الملـبس فإنه لا قرار لـه أبدا عنـدهم و لم تقف لهم إلى الآن عادة فى التزيى . ومن طباعهم الطيشان والتلوّن فيتنقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومـن الجد إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة من أمـور متضادة ، وهذا كله فى الأمور غير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بـين المشـرق والمغرب ، حتى إنهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم »[١] .

ويضـيف الطهطـاوى « ومـن المركوز فى طبعهم حب الريا والسمعة لا الكبر والحقـد.. طـباعهم الغالبة وفاء العهد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة .. ومن طباعهم الغالـبة الصدق .. ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية ، ومن خصالهم أيضا صرف المال فى حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف، ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم سواء كنّ حمّالات أم لا »[٢] .

وعند حديثه عن أمور الأسرة ، والأولاد وتربيتهم فى باريس يشير الطهطاوى إلى أن « أولادهـم دائمـا مـتأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا فى الفرنسيين على الإطلاق والعادة أنهم لا يُزجون أولادهم قبل تمام تعلمهم وهذا يكون غالبا فى عشرين إلى خمس وعشرين سنة فقل منهم من كان فى سن العشرين و لم يبلغ درجة التدريس أو تعلم صنعته التى يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن وهذا السن فى الغالب يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعه »[٣] .

أمـا الدين فى باريس فكان له نصيب من الحديث عند رفاعة الطهطاوى إذ قال : «إن أكـثر أهل هذه المدينـة إنما لـه من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

دينه ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب » . ويضيف فى هذا الأمر قوله : «إن كثيرا من الفرنساوية خصوصا سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا على ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء من العوام والخواص »[١] .

أما من عادات أهل باريز فى الأكل فيذكر الطهطاوى ذلك . ويقول : « وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا فى آنية النحاس أبدا ، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة أو الشلبنة أن لا يمس الإنسان الشيء بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق .. وبالجملة فآداب سفرتهم ، وترتيبها عظيم جدا، وابتداء المائدة عندهم الشوربة ، واختتامها الحلويات والفاكهة ، والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغالب خصوصا لأكابر الناس ، يُشرب من النبيذ قدر لا يسكر به أبدا »[٢] .

ووصف الطهطاوى طريقة الأكل ، إذ قال : « فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينته أو يشرب من قدحه أبدا ، يزعمون أن هذا أنظف وأسلم عافية »[٣] .

أما طعامهم ، فلم يعجب الطهطاوى إذ قال : « فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ »[٤] .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٣٢ — ١٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

وكـــان لـــلمرأة نصيب من كلام ووصف الطهطاوى لأهل باريس ، فيذكر أن «عــادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين »[(١)] . ويضيف كذلك قوله : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمـــال واللطافـــة ، حسان المسايرة ، والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المترهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، ســـواء الأحرار وغيرهن خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ويـــوم الاثنين فى البارات والمراقص .. ومما قيل : إن باريس جنة النساء .. وذلك أن النســـاء بها منعمات سواء بمالهن أم بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه ويبره عشيقته »[(٢)] .

وحول عمل المرأة ، فإن رفاعة الطهطاوى يصف نساء « باريز » بقوله : « فهن كالرجال فى جميع الأمور »[(٣)] .

ومن الأمور التى انتقـــد فيها رفاعة الطهطاوى المرأة فى باريس والمجتمع الفرنسى مـــا نصه « ومن خصائلهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم .. وعدم غيرة رجالهم فـــيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. وبالجملة فهذه المدينة (باريس) كباقى مدن فرنســـا ، وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا ، وديار العلوم البرانية »[(٤)] .

أمـــا أحمد فارس الشدياق فقد وصف المجتمع الأوروبى فى كتب رحلاته الموسومة بـــ « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و « الساق على الساق فى ما هو الفارياق » و « كشـــف المخـــبا عن فنون أوروبا » . واللافت للنظر أنه انتقد المجتمع الأوروبى انتقادا شديدا مركزا على مساوئه أكثر من غيره من الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا آنذاك وسجلوا ملاحظاتهم عن المجتمع الأوروبى .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ — ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

وحـــول الزواج فى المجتمع الإنجليزى ، قال الشدياق منتقدا الغاية التى تدفعهم إلى ذلك : « أليس من العار على الرجال فى هذه الأرض أرض العلوم والصنائع والتمدن والتحضر أنهم لا يتزوجون عن حب بل عن طمع فى زيادة المال ، فإن من كان دخله مثلا مائة دينار فى كل يوم يريد أن يتزوج من دخلها مائة دينار أيضا تماما ، ولو كان تســعة وتسعين لم يصح ولذلك فكثيرا ما ترى شابا جميلا قد تزوج نصف شوهاء ، وهــيهات ، فإن الرجال هنا أكثرهم مصاييف أى لا يتزوجون إلا إذا دخلوا فى حيز الكهول ، فيقضون شبابهم فى السفاح. ومن حد الثلاثين إلى الأربعين فى البحث عمن عندها جدة وغنى، وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الإصافة من عار»(١).

وأبرز الشدياق بعض مساوئ مجتمع لندن ، قال : « ألا ترى إلى هؤلاء ، الألوف من البنات اللاتى يجرين فى أسواق لندن ، وجميع المدن العامرة ، بأخلاق من الثياب ، كـــيف يـــتهافتن عـــلى الرائح والغادى رجاء أن ينلن ما يتقوتن به ويتجملن به من الثـــياب، ولاســـيما هؤلاء النواشئ اللائى لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة ، فهذا لعمرى الاهتجان بعينه فكيف يعيبون علينا هذه فى بلادنا ، وهى مستعملة عندنا على وجه الحلال ، وعندهم بالحرام ، فلو كن مكفيات المؤنة لما فعلن ذلك لأن البنت فى هذا الحد من السن لا تكرع إلى الرجل ، ولا تضيع إلى البغال ، ولاسيما فى البلاد الـــباردة ، ولسلم من كيدهن ، وتهافتهن خشعا إلى المال إناس كثيرون جلب عليهم شرههم إليهن مضار كثيرة ، وما عدا ذلك فإن هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة وأهـــل الكنيســـة يعـــنون بتجهيزهن بما يقدرون على الزواج الشرعى بعد تربيتهن وتهذيبهن ، لكن يلدن الأولاد الصباح فيُزيّن المملكة بأثمار أرحامهن »(٢) .

وعند كلام الشدياق عن عادات أهل مالطة فى الزواج والأوروبيين عموما قال : « فهـــو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة وربما أقام على ذلك ثلاث

---

(١) الشـــدياق ، أحمـــد فارس ، الساق على الســـاق فى ما هو الفارياق ، قدم له وعلق عليه ، الشيخ نسيب وهيبة الخازن ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، ص ٥٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

سنين فأكثر .. ولا يخفى أن النساء فى بلاد الإفرنج هن اللواتى يمهرن الرجال ، فالأغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتى ليرة ، والذين هم من الوسط ، يؤثثون له منزله من فرش وكراس وموائد وآلات الطبخ ، وينقدونه شيئا من الدراهم ، والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادى حماه بأحذية »، ويضيف : « وأهل مالطة أشد الخلق تهافتا على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه فى اليوم قرشان ، وهما لا يشبعانه خبزا وإداما ، وإنما يثق بأن زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله .

ويصف الشدياق أخلاق المرأة المالطية والإنجليزية فيقول : « وآفة نسائهم حسن الخَلق دون حسن الخُلق ، فإن المرأة تجرى وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمها كون الرجل فقيرا أو جاهلا أو شريرا ، غير أن النساء هنا لا يحترمن أزواجهن ، فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس ، وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى عنده الغريب مبهوتا ، ويرجع كل هذا فى أنهن تخلقن بأخلاق نساء الإنجليز »[١] .

ووصف الشدياق سلوك المرأة فى مالطة عندما تكون حاملا ، إذ قال : « ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملا مشت الخيلاء ، ورفعت بطنها ليراها كل من مرّ بها، ومتى أبصرت ذا شوهة ، رسمت الصليب على بطنها تعوذا من سريان الشوهة إلى الجنين ، وإذا شمّت فى الطريق رائحة طبيخ وتوحّمت عليه بعثت تستهدى منه » . وحول حلى النساء فى مالطة يقول : « أما حلى النساء فالذهب غالبا للأغنياء والفضة للفقراء »[٢] .

وعقد الشدياق فصلا فى كتابه الواسطة عن عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وحول لباس نساء أهل مالطة قال : « عادة أهل مالطة المتشيعين فى اللباس

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٦٠ – ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ .

كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الأسود وعلى رؤوسهن غطاء منه أيضا من دون برنيطة . أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهى معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته »[١] .

وتكلم الشدياق عن « الموضة » وأثرها فى المجتمعات الأوروبية آنذاك وبخاصة فى الأزياء فيقول : « فأما تغيير الزى عندهم فإنه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ، ومنشأ هذا التغيير يكون فى باريس ، فتطبع صورته على أوراق وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها »[٢] .

ولقد استغرب الشدياق بعض عادات أهل مالطة والإفرنج فى الأكل ، فى كونهم يطبخون الدم ، ويأكلون المخنوق ، فقال : « وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستبقون على أكله ، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين ، وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخرى مما نتقزز نحن منه وقد بلغنى أن من المالطيين من إذا فجع بشىء فجأة أكل فأرا أو ضفدعا لإزالة الدهشة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج فى كونهم يأكلون المخنوق ، وزادوا عليهم فى أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها »[٣] .

ووصف الشدياق أهل مالطة عندما يكونون ضيوفا على غيرهم ، إذ قال : « وإذا دعوت أحدا منهم إلى مأدبة لم يكن منه خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل ، وعلى ذلك قولى :

لئامٌ إذا زرتُهم فى بيوتهم كرامٌ إذا زاروكَ ما أمكن اللّحسُ
ولو وَسِعت أفواهُهم غيرَ ما بها لكان لكلٍّ بين أنيابه فأسُ

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلاتزال رائحة أفواههم منتشرة »[٤] .

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ ، وانظر : فهيم ، أدب الرحلات ، ص ٢٠٠ .
(٢) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ – ٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

انتقد الشدياق أهل القرى فى كل من مالطة ، ولندن ، لبعض عاداهم الغريبة فى نظره ولجهلهم ، فقال عن رجال مالطة : « أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوالف مجعدة من أفوادهم .. وهاتان صفتان من صفات الإناث ، ويلبسون طرابيش مختلفة الألوان مسدلة على أكاتفهم ، ويمشون حفاة ، وجميع الأعيان فى مالطة من دون أردية أدبارهم ، خلافا لعادة الإفرنج »[١] .

أما وصف الشدياق لمجتمع الفلاحين فى بلاد الإنجليز بالجهل وبعدهم عن العلم فكان ذلك ما نصه : « ومن أين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكد والتربح ، وليس عندهم مدارس ، وقد كنت أظن أنهم جميعا يحسنون القراءة والكتابة ، فإذا هم لا يحسنون النطق بلغتهم ، فإنى أقرأ فى الكتاب شيئا وأسمعه منهم مخالفا لحقيقة استعماله، وناهيك أن أكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا ، وقد قيل لأحدهم مرة أن الملك أمر بتسفير خيل فى سفن لحرب العدو ، فقال : « إنى أعجب كيف يقاتل الناس فى البحر على الخيل . وكأنى بهم لجهلهم يحسبون أن سكان الأرض بأسرهم دونهم ، أو يظنون أن الرجال فى غير البلاد يبيعون نساءهم أو يأكلونهن أكلا ، أو أنهم يتقوتون بالجذور والبقول »[٢] .

وذكر الشدياق أن مجتمع لندن من الناس لا يتزاورون ، وأن الجار لا يكاد يعرف جاره ، فقال : « ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون فى التاسعة ويقومون صباحا فى الرابعة ، كل ذلك حتى يأكلوا الفقع ، ويشربوا الفقاع أو ربما أقام الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن »[٣] .

وأنكر الشدياق على المجتمع الإنجليزى بعض الأمور منها : « ومن منكر عاداهم التى لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع سكان أوروبا قد خالفوهم فيها

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) الشدياق ، الساق ، ص ٥٩٦ .

(٣) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ — ١٣٠ .

حلقهم لحاهم وشواربهم حتى إن عساكرهم لم تتحلّ بها .. فليت شعرى كيف يرى وجه الجندى محفوفًا منتوفًا كوجه المرأة ثم ليت شعرى أى حُسن للشاب من الشوارب ، وأى حلية وفضل وكمال للشيخ أكثر من اللحية ؟

لعمرى أن الشيخ بلا لحية وشوارب ، كالقرد أشبه بالقرد منه بالإنسان ، وأن الشاب بلا شوارب أشبه بالأنثى أو الخنثى منه بالرجل ، فإنها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية »[١] .

وأنكر الشدياق على الإنجليز تربية أولادهم من حيث احترام الأولاد لوالديهم ، واحترام الشيخوخة فى تلك البلاد . فقال : « ومن طبعهم أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هى شيخوخة ، ولا يهاب الأولاد والديهم كما يهابون عندنا ، ولا يحن الوالدون أيضا على أولادهم كما عندنا ، ولذلك يقع كثيرا أن الأب يقتل أباه والولد يقتل والده وأمه ، وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته ، ولكن لم يبلغنى أن ولدا ضاجع أمه »[٢] . وفى هذا إشارة واضحة إلى تفكك الأسرة وانحرافها كما يشير الشدياق .

وأشار الشدياق إلى بعض مظاهر الفساد والانحراف الأخرى فى الأسرة الإنجليزية فقال : « وفى المدن الجامعة قد تتواطأ الأم وابنتها أو الأخت وأختها على الفحش والفساد » . ويضيف قوله : « فأما ما يحدث فى بلاد الإنجليز من تسميم الأزواج أزواجهن والوالدين أولادهم وقتلهم ، وبالعكس ، ومن الانتحار ، وهو قتل الإنسان نفسه ، فأمر يهول وشرحه يطول »[٣] .

ووصف الشدياق دُور اللهو ، والغناء فى كل مكان فى لندن ، وباريس ، فقال : « فأما مواضع الرقص فى لندن ، تفتتح كل ليلة ، وفى باريس ثلاث مرات فى الجمعة لا غير ، وفى أكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جوارٍ حسان ، وآلات الطرب ليلا ونهارا من دون غرامة ولا كلفة وليس كذلك فى باريس إلا ما ندر ... أما غناؤهم

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ – ١٣٨ .

فــلا يمكــن لذى ذوق أن يطرب به ، وقد سمعت أغانى الفرنساوية وسائر الإفرنج فوجــدت كــثيرا منها ما يشجى لأن فيها ترجيعا ومدا ، فأما أغانى الإنجليز غير التى يتلقونها من الصلبانيين والفرنساويين فى الملاهى فكلها نبر ودرج »[١] .

أمــا محمد بيرم الخامس التونسى فى كتابه « صفوة الاعتبار » فقد وصف كذلك جانــبا آخــر من حياة المرأة الأوروبية وبخاصة فى إيطاليا من حيث عملها ونشاطها وانخــراطها فى الحــياة الاجتماعــية، وانــتقد سلوك المرأة الإيطالية فقال ما نصه : « والنســوة يخــرجن مكشــوفات الوجوه ويتعاطين من الأشغال مثل الرجال ، إلا الأشغال الشاقة ، والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الأجانب عن قرابتهن مثل الرجال ويقول : إن لكل شىء سببا فرؤية الذات والوجه مكشوفا ، ثم المكالمة ، ثم المداعبة ، ثم الــرقص فى حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو إلى الاتفاق طبعا إلى ما وراءها بلا شك وإثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم أن البكارة هى التى لم تتزوج صاحبتها من غير نظر إلى حقيقتها الأصلية . وهو يعلق على هذه بقوله :

« فكــل بــلاد حافظت على ذلك (حجاب المرأة وعدم خروجها) قلت فيها الفاحشــة حتى كادت أن لا تقع ، وكل بلاد تساهلت فى خروج النساء مكشوفات الوجــوه بالــبراقع الصــفيقة وغض النظر عن مكالمة النسوة للرجال ، والمزاحمة فى الأســواق، والمجــامع فشــت فيها الفاحشة ، واتخذ رجالها هجيراء مسارتهم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلدة إسلامية أم إفرنجية »[٢] .

وتعرض محمد بيرم الخامس التونسي إلى قضية الحياء عند المرأة فى المجتمع الإيطالى، فقــال : « ولــيس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهــه أمــام والديهــا ، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها ، وترقص مع الرجال أمــامهم، هذا فى البنات ، فكيف بالبنين ، وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ ، وانظر : بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٤ ، ص ٥٦ .

(٢) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤٦ – ٤٧ .

فترى أكبر الأعيان يحتفل فى داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغنى فى ذلك الملأ وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ، ولا تأثيم من ذلك بل يرونه إكراما بحيث إن المسلم الغيور يتفطر مما يرى»[١] .

ووصف محمد بيرم سكان إيطاليا ونشاطهم اليومى بصورة عامة، فقال: « وسكان إيطاليا هم بيض أقوياء مدنهم أكثر أهاليها مهذبون » ، وأما ذوو الترف والأحكام فإنهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يبتدئون الأشغال إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال ، وكثيرا ما يدعون الأحباء بعضهم للبعض للسمر والرقص فى منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقديم فواكه ، وحلويات ، وخمور »[٢] .

ووصف محمد بيرم كذلك ملابس أهل إيطاليا فقال : « ثم أهل البلد على قسمين.. الأول : الأعيان والوافدون وكلاهما لباسهم مثل لباس الأورباويين . والثانى: بقية الأهالى ومثلهم بقية سكان البوادى والقرى فى الجزيرة يلبسون جلود الغنم ، بصوفها . فالصوف مما يلى البدن ، والجلد من أعلى ، وهيئة اللبس هى صدرية ، ومنتان ، وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة ، والنعال خشنة ذات مسامير كبيرة ، وعلى رؤوسهم عرارق من الصوف أو قلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم ، والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر ، وفى أرجل أغلبهن قباقب من خشب »[٣] .

أما الأكل فى إيطاليا فذكر محمد بيرم التونسى ذلك فقال : « والأكل رخيص هناك » ولفت انتباهه هناك وبخاصة فى المطاعم أن هناك « بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الأكلة حتى تأخذ مما تشتهيه » . ثم قال : «كل صحن حوله ملعقة وشوكة وسكين . وبعد الفراغ من كل لون يبدل

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦ .

(٣) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤ — ٥ .

الصحن والسكين والملعقة بغيرها نظيفة ... وفى وسط المائدة أوانٍ بالزهور بحيث إنه فى غاية المنظر الحسن والنظافة ... وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوى ... ولهم كتب مؤلفة فى تركيب الأكل والطبيخ »[١] .

أما محمد عمر الباجورى الذى طاف أوروبا فى عام ١٨٨٩ فقد أعطى صورة مشرقة للحياة الاجتماعية فى أوروبا ، القائمة على الاستقرار والأمن لعموم الناس مما يساعدهم على التقدم والحفاظ على ممتلكاتهم وأعطى الباجورى مثالا على ذلك القرى التى هى خارج مدينة فينيسيا بإيطاليا فقال : « وكنا نرى القرية الصغيرة وسط المزارع مؤلفة من نحو ١٠ أبيات فسألنا أهل تلك البلاد : أفلا يكون صغر القرية سببا لسطو اللصوص عليها فقيل لنا إنه لا يوجد فى القرى لصوص بل ذلك يكون فى المدن لسرقة النقدية والمصاغ مثلا ، وعلى الغالب لا يتبعون إلا الغريب ، وأما الحيوان فلا يُسرق فكان هذا القول فيه لنا فائدتان .. الأولى : أننا عرفنا إنه لا يوجد سطو فى القرى الثانية : أننا أخذنا حذرنا فى المدن من اللصوص حيث إننا أغراب ظاهرون لكل الناس »[٢] .

ووصف الباجورى « نساء باريز »كغيره من الرحالة ، فقال : « نساء باريز خصوصا وأوروبا عموما فى المعارف كالرجال فيشاركنهم فى علوم كثيرة كالجغرافيا والتاريخ والهندسة والحساب والكتابة والقراءة والفلسفة إلى غير ذلك .. وأما فى الأعمال فيزدن على الرجال فترى الواحدة منهن ترأس محلا (كما يرأس الرجل) كقهوة أو حمام أو لوكاندة أو محل تجارة وتدبر أمره على أحسن ما يكون ، وتنفرد المرأة بتدبير المنزل وترتيبه ، وتربية الأولاد تربية تناسب حال الزمان والمكان وتعمل بيدها ما لا يعمله الرجل كخياطة وطرازة وتنتلا وركامو وغير ذلك »[٣] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٥ ، ٥٩ .

(٢) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ .

وقـال الباجورى : « كل ما ذكرناه فى نساء باريز ، ورجالها يعتبر عاما فى نساء أهـل أوروبـا بـأجمعهم ، بحيث لا يتميز فيهم ناس عن آخرين فكان مناديا جمعهم ونـادى عليهم بالاتحاد والمساواة فى معرفة الآداب العمومية والقراءة والكتابة والدأب فى الأعمـال والجهـد فى تحصيل المعاش بدون فتور ولا كسل ، وأن لا يقتصر واحد مـنهم عـلى معرفة صناعة واحدة بل لابد له من صناعات بحيث لو عجز عن صنعة لسـبب مـا يمكـنه أن يستعمل الأخرى فى معيشته ... ومن طباعهم الولوع برؤية الأشياء والبحث عن أسبابها واعتبار قيمة العلوم والفنون لما علموا أن التقدم والسعادة لا يكونـان إلا بهمـا مع لطف المعاشرة ولين الجانب وحسن المعاملة ورعاية الحقوق ونـبذ الجور ، وإبعاد الشر وعدم الكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة فى المعاملات .. غالبا هذه أوصاف أهل أوروبا نساء ورجالا »[1] .

أما ملابس النساء فقال الباجورى : « وأما ملابسهن فهى مقبولة مناسبة لأحوال بلادهن من البرد مع كونها لا تخلو من الزينة والزخرفة والإتقان وحسن الشكل » .

كما وصف الجمال عندهن بقوله : « وأما فى الجمال فعلى الغالب لهن فيه درجة مناسـبة ومن لم تكن جميلة بخلقتها تصنّعن جمالا فلا تخرج من بيتها إلا أن بعد تعمل فى نفسـها عمـلا بقـدر إمكانها تظن أنها بعد ذلك تعجب الرجال حتى لو كانت عجوزا، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر »[2] .

وأشـار الـباجورى إلى جملة من عاداتهن ، وطبائعهن ، ودرجة عفتهن ، فقال : «ومن عادتهن كشف الوجه ، والرقبة ، والكفين ، فيتمكن الإنسان بذلك من معرفة الجمـيلة من غيرها ، وأما طبائعهن ففيها رقة ولطف وبشاشة لا سيما للغريب ، متى عرفته الواحدة لا تكاد تنسـاه ، ولا تفارقه وتعمل له من المسـاعدة كل ما قدرت عليه... وأما عفتهن فتناسب خلطة النساء بالرجال فى الخارج والداخل ورقة طباعهن مع وجود الميـل الغريزى والشـهوى الطبيعية فى الجنسين عنـد اجتماعهما فكثيرا مـا يعشـق الرجل امرأة ، ويهجر زوجته من أجلها فقد ثبت فى الإحصائيات التى

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

عملت عندهم أن عدد النساء المهجورات من أزواجهن خمسة وتسعون بالمئة ، وعدد الـزناة واحد وسبعون بالمئة ، فلا شك أن مثل هذه الأحوال مما يوجب الفساد بكثرة خصوصا وعندهم الزواج نوعان : زواج شـرعى ، وزواج مدنى . أما الأول : فهو مـا حصل رسميًّا فى الكنيسة أو الحكومة بعلم الناس ، وأما الثانى : فهو باتفاق الرجل مـع امرأة خالية من الأزواج على أنها تعيش معه ولا تذهب إلى غيره ، وأما درجتهن عـند الـرجال فهـى فى المترلة الأولى والدرجة القصوى ، فلهن من الاعتبار ما لا يساويهن فيه الرجال ، فترى الواحد إذا قابل امرأة مع زوجها أو أبيها ، لابد أن يسلم عليها أولا ثم على الرجال ثانيا ، وإن فعل غير ذلك عدوه غير متمدن »[١] .

أمـا الأكـل فقد وصفه الباجورى كغيره من الرحالة ، فركز أساسا على « أن الأكل عندهم لا يكون بالأيدى مباشرة بل بواسطة الشوكة والسكين والملعقة ، ولذا تراهم لا يغسلون أيديهم من الأكل »[٢] .

وتعـرض الـباجورى إلى وصف أخلاق أهل مدينة (استوقهولم) ومملكة السويد فأشـاد بهم أيما إشادة فقال : « أخلاق أهل مملكة السويد عموما ومدينة استوقهولم خصوصـا فى غايـة الاعـتدال ، ومعـرفة مقادير الناس وإعطاء كل ما يليق به من التشريف والاعتبار والإكرام ، وعندهم الغرباء فى مترلة عالية ، ودرجة رفيعة ، وأهمية كـبرى فـتراهم يعطفـون علـيهم عطف الأهل على أهليهم من حسن المعاشرة ، ويوافقونهـم كل الموافقة حتى يكاد الإنسان ينسى أهله بما يراه منهم من جميل الشيم وحسـن العادات ، ولهم مروءة واهتمام بهم كما يهتمون بأنفسهم ، ومن أخلاقهم العالـية ، وأوصافهم المقبولة الأمانة التى لا يساويهم فيها أحد تقريبا ، بل هى عندهم فى رتبة لا تضاهى ، ومكانة لا تسامى »[٣] .

---

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

أما على بن سالم الورداني التونسي الذى زار إسبانيا فى أيلول من عام ١٨٨٧م ، فوصف كرم وبخل أهالى إسبانيا إذ قال : « إن أهالى جنوب إسبانيا كغرناطة وبلنسيه وغيرها إذا دخل عليهم الضيف وهم يأكلون يعرضونه إلى الطعام كعادات العرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم عاملون بقول الشاعر :

قومٌ إذا أكلوا أخفُوا كلامَهم ... واستوثقوا برِتاج الباب والدارِ[(١)] .

كما وصف على الورداني التونسي مجتمع مدينة مدريد وصفا طيبا منتقدا سلوك بعض شرائحه الفقيرة إذ قال : أما أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانب إلا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعوه من المرور ، وحالتهم سيئة جدا ومن الغريب أن الأوروباويين يعيبون علينا لوجود السُّؤَّال فى بلادنا والشحاذون عندهم أشد نكبة ، وأبرد قلبا مما هم عليه عندنا »[(٢)] .

وأبدى على بن سالم الورداني التونسي استغرابه من سلوك النساء العاملات فى البيوت بعد إتمامهن أعمالهن فى إسبانيا إذ قال : « إن النساء المستخدمات بعد إتمام أشغالهن يخرجن من البيوت فيقفن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن للمارين . فإذا راودهن القاصد اتفقن معه وذهبن به إلى حيث الهوى والموبقات وأكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور الأغنياء والأكابر ولا حرج عليهن فى ذلك مطلقا »[(٣)] .

وتناول أحمد زكى فى كتاب رحلته الموسوم بـ (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣م جملة من هذه المواضيع فقد وصف متناقضات عادات المجتمع الإنجليزى فى (لوندرة) (أى لندن) فقال: « وفى يوم الأحد يكثر السكر والسرقة أيضا لأن الإنجليز لا يعرفون الوسط فإن بلادهم بلاد التناقض جمعت الأطراف ، فإما التناهى فى الغنى وإما التناهى فى الفقر ، وإما التناهى فى الفضيلة والمعارف ، وإما التناهى فى الرذيلة والفجور، وإما

---

(١) على بن سالم الورداني التونسي، الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧ م) تحقيق ودراسة عبد الحكيم القفصى ، مجلة أوراق عدد ٥ - ٦ ، مدريد ، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ (ص ١١٥ - ١٣٠) ، ص ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

التناهي فى العمل وإما التناهى فى الكسل ، إلى غير ذلك من الأطراف حتى إن المدينة إما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الأحد) وهكذا »[١] .

وعلق أحمد زكى على الملابس الأوروبية ، ويرى عدم ملاءمتها لنا فى بلاد الشرق، هذا فضلا عن المساوئ التى تترتب على اتخاذ هذه الملابس فى بلادنا مثل «إماتة كثير من صنائعنا وصناعنا ، وإحياء صناعات الإفرنج السريعة العطب ، ومساعدة التجارة الأجنبية على استنزاف ما بقى لنا من قليل الثروة»[٢] .

أما المرأة فى باريس فلأحمد زكى فيها رأى آخر ، فقال : «أرسَلوا إلينا مثلا تناقلته الأفواه وهو (إن ما تريده المرأة يريده الله) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والأمر المطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لا ترضاه زوجته ، ومتى أقدمت هى على عمل أو تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والإقرار بوجوبه ، وأن لا مندوحة عنه وهم يبالغون فى إكرام المرأة والتأدب فى حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف ، وفى تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى لا يقدم إليها إلا فحول الرجال) ، ولذلك نبغ منهن الكاتبات والمحررات والشاعرات والخطيبات والمصورات والمشخصات والمحاميات والطبيبات والمخترعات فى كل أمر ذى بال أو غير ذى بال»[٣] .

ويعطى أحمد زكى رأيه فى حرية المرأة فى باريز فيقول : « إنى من أهل المذهب القائل بعدم إطلاق الحرية للنساء إلى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال إلى التطرف فى الإفراط ، فإن المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات ، والتفانى فى الملاذ ، فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ – ٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

الطعام، فإن التعليم ليس بقادر أن يترع منهن هذه الأميال ، وإن نزع منهن الخرافات التي يثثنها في عقول الأطفال[١] .

كما تكلم عن خيانة المرأة الأوروبية لزوجها في كل من : ألمانيا ، وبلجيكا ، وإنجلترا ، والنمسا ، والدنمارك ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، واليونان ، وقال : «فإذا سلمنا بما استنتجه الأستاذ الألماني كستنر (الذى نشر دراسته تلك عن الخيانة الزوجية) رأينا أن في التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة في صيانة الأعراض »[٢].

الخلاصة :

إن نظرة الرحالة العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر ، أظهرت أن هؤلاء الرحالة قد سبروا أغوار جميع مجالات الحياة في أوروبا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ففي الجوانب السياسية : أكد هؤلاء الرحالة على بعض أسباب التقدم في أوروبا بعامة يرجع إلى سيادة القانون الذى يضبط سلوك الحاكم والمحكوم ، هذا فضلا عن حرية التعبير ، والحريات الشخصية ، القائمة كلها على العدل والإنصاف . وفي الجوانب الاقتصادية وتقدمها : ركز هؤلاء الرحالة على أن تقدم العلوم النظرية والعلمية، كان وراءها العقل الأوروبي المنفتح، والمدقق في كل شيء ، الذى لم يكن أسير التقليد، بل حاول معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه ، ولذلك وصفوا كل ما شاهدوه من مظاهر التقدم الصناعي والعلمي في أوروبا وبخاصة التركيز على أحدث المخترعات ، ووسائل الرفاهية التي توافرها تلك المخترعات وتشجيع القائمين عليها ، وتيسير سبل الوصول إلى نتائج فرضياتهم وأفكارهم الجديدة .

وبين الرحالة العرب أن من الأسباب الأساسية للتقدم في أوروبا عموما حسن النظام والتنظيم، وسيادة الأمن ، والشركات والجمعيات التي شكلت هناك ما يعرف

---

(١) زكي ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ – ٦٦ .

بدولة المؤسسات . أما فى نظرتهم إلى الحياة الاجتماعية : فقد وصف الرحالة العرب المجتمعات الغربية من خلال إعطاء صورتين أساسيتين حولها ، الأولى : إيجابية ، والثانية : سلبية .

ومن النواحى الإيجابية التى سجلوها عن المجتمعات الغربية ، الصدق والأمانة وتنظيم الوقت ، والعمل الدؤوب على مدار الساعة ، وأعطوا صفات إيجابية للمرأة الأوروبية منها : مساهمتها كالرجال فى مباشرة أعمالها ونشاطها ، وقد لمسوا آثار ذلك بصورة عملية فى كل مجالات الحياة والتقدم فى أوروبا ، وبخاصة أنها على قدر كبير من الثقافة والتعليم ، وتحصيل الفنون ، هذا فضلا عن الحديث عن الاستقرار فى المجتمع واحترام الناس بعضهم البعض وعدم التدخل فى شؤون الغير ، والأمن على الممتلكات واحترام المواعيد .

أما النواحى السلبية التى سجلوها عن المجتمعات الغربية فكانت ترتبط بشكل أساسى بالفكر العربى الإسلامى ، والعادات الموروثة عندهم ، فنظروا إلى الغرب من حيث عاداته وطبائعه وأخلاقه ، على أنها لا تصلح للمجتمعات العربية ، ورأوا أن فيها خطرا كليا وعظيما على تركيب وتكوين المجتمع العربى وأخلاقه وعاداته .

ولقد وصفوا مساوئ المجتمعات الغربية من حيث : تفكك الأسرة ، وعدم التدين، وانتشار الفساد الأخلاقى والفاحشة بين نساء أوروبا ، ويرجع هؤلاء الرحالة أسباب ذلك إلى أنها تتصل بسفور المرأة واختلاطها بشكل كبير بمجتمع الرجال هناك، نتيجة للحرية الزائدة فى نظرهم التى منحت لنساء أوروبا .

وانتقد الرحالة العرب طعام الأوروبيين لأنهم يأكلون الميتة والحيوانات المخنوقة .. هذا فضلا عن انتقادهم لما يحدث هناك من الانتحار ، والقتل فى داخل الأسرة الواحدة، مظهرين التفكك الأسرى بصورة واضحة ، كما انتقدوا عدم معرفة الجيران بعضهم البعض ، ووصفوا المجتمع القروى البعيد عن المدينة بالجهل وعدم المعرفة بما يحيط بهم وبالمعالم ، لكونهم غير متعلمين ، هذا فضلاً عن وصفهم الأوروبيين بأنهم يحبون الرياء ، وارتفاع الصيت ، وعدم استقرار المزاج .

وهكـــذا فقد لوحظ أن الرحالة العرب إلى الغرب لم يلاحظوا أى نقص عندهم تجاه هذه الحضارة المتفوقة ، لأنهم نظروا إليها على أساس أن هذا التقدم وهذا التفوق لم يكـــن بســـبب ميزات خاصة موجودة فى أهل أوروبا وحدهم ن بل نتيجة للجد والرغـــبة فى الـــتقدم ، وأكدوا على أن البلاد العربية قادرة على اللحاق بهذا الرقى ، بنفس الطريقة ، مع توفير الوسائل الضرورية الأساسية .. لذلك فإنهم آمنوا بنفع هذه الحضـــارة الغربية للبلاد العربية ، فحثوا بنى جنسهم على الأخذ بها ، ولكنهم نبهوهم إلى أن هـــناك مساوئ فى الغرب عليهم تركها جانباً ، والابتعاد عنها ، لخطرها على المجتمع العربى الإسلامى وبنيته الخاصة التى ينفرد بها عن غيره من أمم الأرض .

* * *

الهوامش

(١) أبـو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربة ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظـر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

(٢) الطهطـاوى ، رفاعـة ، تخليص الإبريز ن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨م ص ٣ . ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

المصادر والمراجع

١ – **الباجورى ، محمد عمر**

الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م .

٢ – **بيرم التونسى ، محمد الخامس**

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥. ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـ .

٣ – **التونسى ، خير الدين**

أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة ، بحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤هـ .

٤ – **زكى ، أحمد**

السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ط١ ، ١٣١١هـ .

٥ – **المؤلف نفسه**

الدنيا فى باريس ، ١٩٠٠م .

٦ – **سابا يارد ، نازك**

الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل ، ط١، بيروت، ١٩٧٩.

٧ – **الشدياق ، أحمد فارس**

الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار الوحدة ، ط١٢ ، ١٩٧٨ .

٨ – **المؤلف نفسه**

كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـ .

٩ – **المؤلف نفسه**

الساق على الساق فى ما هو الفارياق ، قدم له وعلق عليه: الشيخ نسيب وهيبة الخازن ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

١٠ – **الطهطاوى ، رفاعة**

تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، طبعة ١ ، ١٩٥٨ .

١١ - الفاسى ، أبو جمال محمد الظاهر

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق : الأستاذ محمد الفاسى ، رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧م .

١٢ - فهيم ، حسين

أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩م .

١٣ - أبو لغد ، إبراهيم

انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة: محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ آب ١٩٦٤ (ص ١٣٢-١٣٨) .

١٤ - الوردانى ، على بن سالم الوردانى التونسى

الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧م) تحقيق ودراسة : عبد الحكيم القفصى ، مجلة أوراق ، عدد ٥ - ٦ مدريد (١٩٨٢ - ١٩٨٣) ، ص ١١٥ - ١٣٠ .

نشأة قطر وتطورها
حتى عام ١٨٦٨

الدكتور
يوسف إبراهيم العبد الله
قسم التاريخ - جامعة قطر

نشأة قطر وتطورها
حتى عام ١٨٦٨

فى البداية ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ قطر منذ مطلع العصر الحديث ، وحتى أواسط القرن التاسع عشر ، قبل انفراد آل ثانى بالسلطة فيها وبروزها كإمارة مستقلة، كان جزءا من تاريخ منطقة الأحساء ، أو المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، ومن ثم خضعت قطر لكل ما خضعت له هذه المنطقة من تطورات وأحداث، ويترتب على ذلك أن قطر - بل وبقية إمارات الخليج العربى - لم يكن لها تاريخ مستقل كوحدة سياسية خاصة ، وإنما كانت ، رغم تميزها الجغرافى ، داخلة ضمن إقليم الأحساء ، الذى كان يشكل الجزء الأكبر من إقليم ممتد على الساحل الغربى للخليج العربى ، يمتد من البصرة شمالا حتى عُمان جنوبا ، كما يطلق على هذا الإقليم اسم « بلاد البحرين» لفترة طويلة من الزمن مع بداية الفتح الإسلامى[1] .

وربما لعدم وجود فاصل جغرافى واضح يفصل جزيرة قطر عن شبه الجزيرة العربية، فإنها مع جزر البحرين وساحل الأحساء ، كانت قطر تشكل جزءا متكاملا من الكيان السياسى القائم حولها لفترات كثيرة ، وعموما ظلت المنطقة كلها تتبع مقر الخلافة الإسلامية ، سواء فى الحجاز أم فى الشام أم فى بغداد ، إلى أن تمكّن القرامطة من

(١) راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الثانى ، ط (١) القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٧٢ .

تخريب عاصمتها « هجر » عندما استولوا عليها ، وبنوا مدينة « الأحساء » التى جعلوها عاصمة جديدة للمنطقة . ومن مدينة الأحساء اتخذ الإقليم اسمه فيما بعد .

وقد تتابع على حكم الأحساء كل من العيونيين وآل زامل الجبرى وآل مغامس ، إلى أن جاء البرتغاليون فاحتلوها حوالى عام ١٥١٧ ، وظلوا يسيطرون عليها حتى جاء الأتراك العثمانيون وطردوهم منها فى أواسط القرن السادس عشر ، ومنذ سيطر العثمانيون على المنطقة ، ارتبطت الأحساء مع شقيقتها القطيف بتاريخ سياسى واحد، ثم انفصلت عنها جزيرة « أوال » التى استقلت باسم « البحرين »[١] .

والمعروف أنه عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى البصرة على الخليج العربى فى موجة زحفهم لضم العالم العربى منذ أوائل القرن السادس عشر ، لم يستطيعوا أن يؤسسوا لهم قاعدة بحرية قوية فى البصرة ، ويبسطوا من خلالها سيطرتهم على الخليج ، حيث لم تكن ملائمة لذلك آنذاك ، كما أنهم ووجهوا بالعصبيات القبلية البدوية ومشاكلها ، فضلا عن مواجهتهم للدولة الصفوية فى إيران ، التى كانت تؤكد وجودها وطموحها فى المنطقة ، ولذلك يجمع المؤرخون على أن الخليج العربى لم يشهد سيطرة عثمانية فعّالة حتى الثُلث الأخير من القرن التاسع عشر .

ومع ذلك استطاع العثمانيون غزو الأحساء والاستيلاء عليها خلال العقد الأخير من القرن السادس ، وعينوا عليها « فاتح باشا » أول والٍ عليها بعد إخضاع عشيرة « أجود بن زامل الجبرى » ، وبالرغم من ذلك فإن سلطة الأتراك فى المنطقة كانت ضعيفة ، ثم ما لبثت أن انهارت نحو عام ١٦٧٠ على يد قبيلة آل حميد من بنى خالد ، التى ظلت تناضل الأتراك نضالا مريرا طوال ثمانين عاما تقريبا ، تداول حكم الأحساء خلالها أربعة من الباشوات العثمانيين ، كان آخرهم « عمر باشا » الذى استسلم لـ « براك بن عرير » من آل حميد من بنى خالد[٢] .

---

(١) فى سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م بنى أبو طاهر (من القرامطة) مدينة بجانب هجر سماها « الأحساء » وهى التى نمت وأصبحت قاعدة للبلاد . راجع محمد عرابى نخلة : تاريخ الأحساء السياسى ١٨١٨ - ١٩١٣ ، دار السلاسل بالكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ وأحمد أبو حاكمة : تاريخ شرق شبه الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .

وهكذا انهار سلطان الأتراك فى شرق شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٦٧٠ ، لينفرد بـــنو خـــالد بحكـــم المنطقة ، حيث استطاعوا تأسيس سلطة قوية فى إقليم الأحساء ، امـــتدت مـــن حـــدود ولاية البصرة شمالا ، وضمت مناطق الكويت والأحساء وقطر والبحرين ، وبالرغم من ذلك فضّل حكام بنى خالد إعلان ولائهم للدولة العثمانية من خلال محافظتهم على علاقة طيبة بولاة البصرة العثمانيين . وقد استمر هذا الوضع حتى أواخـــر القرن الثامن عشر ، عندما نجحت الدولة السعودية الأولى ، التى أسسها محمد ابـــن سعود ، مستندا إلى مبادئ الدعوة السلفية (الوهابية) ، فى ضم الأحساء والقضاء عـــلى سلطة بنى خالد منذ عام ١٧٩٣ ، فى الوقت الذى كانت الدولة العثمانية غارقة فى مشاكلها فى أوروبا والبلقان .

وبـــدا واضـــحا أن انصراف الدولة العثمانية عن الخليج أتاح الفرصة لحكومة الهند الـــبريطانية ، لتبسط نفوذها على المنطقة ، فى ظل غياب أية قوة محلية أو عربية مؤثرة ، باستثناء قوة القواسم الذين تصدت لهم السلطات البريطانية بقوة وحزم ، لذلك عندما فكـــرت الدولـــة العثمانية ، فى أن تحوِّل وجودها الاسمى فى الخليج إلى وجود فعلى ، عسكرى وسياسى ، منذ عام ١٨٦٩ ، وجدت أن بريطانيا قد سبقتها وثبتت أقدامها فى الخليج وعلى سواحله من خلال القوة العسكرية ، وبالمعاهدات التى قيدت بها شيوخ المـــنطقة تحـــت اســـم إقرار السلم العام أو الهدنة البحرية ... إلخ ، كما أنها حصَّنت وجودهـــا باتفاقيات مقاومة « القرصنة » وتجارة الرقيق وتجارة السلاح وغير ذلك من الذرائع التى أباحت بها لنفسها التدخل فى المنطقة وفرض هيمنتها عليها .

ويتفق المؤرخون على أنه لم تكن هناك إدارة عثمانية حقيقية للدولة العثمانية خارج ولايـــة البصـــرة ، حتى لقد أصبح الوجود العثمانى على الساحل الغربى للخليج مجرد وجـــود اسمى لا تأثير له ، كما أن سيادة الدولة العثمانية الاسمية لم تتعدَ الكويت ، التى كانت تكتفى بمجرد رفع الراية العثمانية على قصر شيخها دونما سلطة حقيقية للدولة، فى الوقت الذى أصبح فيه الساحل الجنوبى للخليج العربى منطقة نفوذ بريطانية صرفة . أما البحرين فلم يمانع شيوخها من الارتباط بالدولة العثمانية كذريعة لمواجهة الأطماع

الإنجليزية أو الفارسية ، وعندما رفعوا راية الدولة أنزلها الإنجليز . أما قطر فلم تكن قد برزت ككيان سياسى مستقل مثلما حدث بعد ذلك عام ١٨٦٨ .

* * *

وقد خضعت شبه جزيرة قطر بطبيعة الحال لحكم بنى خالد حتى أواخر القرن الثامن عشر ، قبل أن يقضى السعوديون على سلطتهم ، ولم يكن بنو خالد يمارسون سلطة مباشرة على قطر وقبائلها ، وإنما كانوا يعتمدون على أصهارهم من أسرة «آل مُسلَّم» التى كانت تتخذ الحويلة مركزا لها آنئذ ، فقد عهد إليهم أمير الأحساء بجمع الخراج السنوى من أهالى قطر لإرساله إلى الأحساء ، مما اقتضى قيامهم بتصريف شؤون قطر ، فاكتسبوا بذلك نفوذا على الأهالى لفترة من الزمن[1] . وإن لم يكن هذا النفوذ شاملا ، فالمعروف أن الشيوخ المحليين فى المناطق التى تخضع لسلطة بنى خالد كانوا يمارسون نوعا من الاستقلال الذاتى فى أعقاب وفاة سليمان بن محمد زعيم بنى خالد عام ١٧٥٢ .

ومنذ أواسط القرن الثامن عشر بدأ حكم بنى خالد للمنطقة يضعف ، وبدا عجزهم واضحا فى التصدى للقوة السعودية المكتسحة للمنطقة ، التى شهدت فى نفس الفترة تقريبا انتقال آل خليفة ، أحد فروع تجمع العتوب ، بعد ابتعادهم عن هذا التجمع القبلى، وهجرتهم للإقامة فى الزبارة على ساحل قطر الغربى منذ عام ١٧٦٦ .

وكانت قبائل العتوب والمعاضيد وغيرها من التجمعات القبلية قد هاجرت من أواسط شبه الجزيرة العربية ومن قلب نجد بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب القحط الشديد ، وبسبب تفشى الصراعات القبلية ، واتجهت نحو الساحل الغربى للخليج ، سعيا وراء الرزق الذى قد يأتى به الساحل ، فاستقر العتوب

---

(١) راجع : محمد شريف الشيبانى : إمارة قطر العربية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ص٣٩ وإن كان كيلى يرى أنه ليس ثمة ما يؤيد احتمال أن يكون بنو خالد شيوخ الأحساء قد مارسوا نوعا من السيطرة على آل مُسلَّم حتى منتصف القرن الثامن عشر ، راجع جون كيلى : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٤٧ .

بفروعهم الثلاثة المعروفة (آل خليفة يقودهم الشيخ خليفة بن محمد ، وآل صباح يقودهم الشيخ سليمان بن أحمد ، ثم آل الجلاهمة يقودهم الشيخ جابر بن عتبة)[١] فى ساحل قطر عند الزبارة فى ظل رعاية آل مُسلَّم وضيافتهم ، وإذا كانوا قد وفدوا إلى الزبارة فى أواخر القرن السابع عشر ، ثم هاجروا إلى الكويت عن طريق البحر حوالى عام ١٧١٦ ، فمعنى ذلك أنهم قضوا فى الزبارة نحو نيف وعشرين عاما تقريبا . ويبدو أن القبائل الثلاث قد اختلفوا مع آل مُسلَّم ، الذين أوجسوا منهم خيفة ، فضيقوا عليهم ، بل قد اشتبك الفريقان فى معركة عند رأس التنورة انتصر فيها العتوب ، لكنهم اضطروا إلى أن يضربوا بسفنهم فى الخليج حتى تجمعوا عند ساحل الكويت ليستقروا فيها نحو خمسين عاما (١٧١٦ - ١٧٦٦) .

وقد ازدهرت الكويت بفضل نشاط أهلها التجارى وبلغت درجة عالية من الرخاء، مما قاد فى النهاية إلى اختلاف آل خليفة مع حلفائهم وإيثارهم الهجرة عن الكويت فاتجهوا بسفنهم نحو البحرين ولكنهم مُنعوا من النزول ، فاستأنفوا السير إلى الزبارة ونزلوا بها عام ١٧٦٦ ، وكانوا على خبرة بالمكان منذ هجرتهم الأولى إليه ، كما كانوا يدركون أهميته لموقعه التجارى ولقربه من مغاصات اللؤلؤ الغنية . وعند وصول آل خليفة إلى المنطقة لم يلقوا أية معارضة ، كما لم يحدث أى صدام بينهم وبين أهالى قطر لكثرة ترددهم على المنطقة ، ونجح شيخهم محمد بن خليفة فى أن يجمع الناس حوله وذلك بإقراضهم المال مقابل شراء محصول اللؤلؤ ، كما اتجه إلى الإصهار إلى آل ابن على من قبائل قطر لتزداد روابط المودة معهم .. ولم ينظر آل مُسلَّم إلى نجاح

---

(١) ذكرها فرانسيس واردن فى ملاحظاته عن عرب العتوب فى البحرين عام ١٨١٩ ، ولكن عباس الخصوصى ذكر أنه ليس بين زعماء آل صباح أحد بهذا الاسم وأن واردن اختلط عليه اسم «سليمان ابن محمد آل حميد» أمير بنى خالد ، الذى كانت الكويت ضمن مناطق نفوذهم ، وأن أول زعيم برز من آل صباح هو الشيخ صباح بن جابر أول حاكم للكويت من العتوب ، راجع الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، جـ١ ، الكويت ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ وراجع كذلك : فائق طهبوب : تاريخ البحرين السياسى ١٧٨٣ - ١٨٧٠ ، ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٣ ، ص ٤٠؛ وكذلك يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٨ .

آل خليفة وتفوقهم التجارى بعين الرضا ، ورغم اعتراف آل خليفة بسلطة آل مُسلّم باعتبارهم نوابا عن بنى خالد كما كانوا يدفعون نصيبهم من الخراج شأن القبائل القطرية ، إلا أن الشيخ محمد بن خليفة جعل يحصن نفسه فى الزبارة ، ويحصن المدينة ، التى بنى فيها قلعة « المرير » عام ١٧٦٨ ، استعدادا لحماية الزبارة إذا ما هاجمها آل مسلم .

وعندما نمت ثروة آل خليفة وقوى مركزهم ، خاصة وأن الزبارة شهدت ازدهارا تجاريا كبيرا بفضل نشاطهم وبسبب هجرة تجار البصرة الأثرياء إليها فرارا من احتلال الفرس لبلدهم (١٧٧٥ - ١٧٧٩) وكذلك ازدهار نشاط الغوص وتجارة اللؤلؤ ، وبسبب ذلك كله ونتيجة إحساس آل خليفة بالغنى والقوة بدأوا يتوقفون عن دفع حصتهم من الخراج ، وتحصنوا بقلعتهم التى اتخذوها فيما بعد نقطة الوثوب على البحرين[١] .

ومن الملاحظ أن إقامة آل خليفة فى قطر لم تتعد ميناء الزبارة . أما بقية شبه الجزيرة فكانت تقطنها مجموعات قبلية بعضها حضرى أهمها المعاضيد ، الذين تنتمى إليهم أسرة آل ثانى ، والبوعينين والسودان وآل بن على والقبيسات والخليفات والبوكوارة والسلطة والمنانعة والمهاندة ، فضلا عن الهولة ، والبعض الآخر بدوى مثل المناصير وبنى مُرّة والهواجر والكعبان وبعض من النعيم وغيرهم .. وكانت معظم هذه القبائل تمارس نوعا من الحكم الخاص بها .. ويتركز معظمها فى البدع والوكرة والحويلة والفويرط وخور حسان[٢] .

---

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ وحول إقامة محمد بن خليفة الكبير فى الزبارة راجع راشد بن فاضل البنعلى : مجموعة الفضائل فى فن النسب وتاريخ القبائل ، تحقيق حسن ابن محمد آل ثانى ، الدوحة ٢٠٠١ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) شركة الزيت العربية الأمريكية ، عُمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص٢٧٥ - ٢٨١ ؛ وكذلك جمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤١١ ؛ وكذلك :
Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, London 1979, pp. 26- 27.

لقـــد كانت عيون آل خليفة تتطلع إلى البحرين ، خاصة بعد أن تحولوا من مجتمع بـــدوى إلى مجتمع شبه رأسمالى ، وبات يشكل خطرا على حكام البحرين من الفُرس ، الذين أثارهم ازدهار الزبارة ونشاط آل خليفة ، حتى لقد حاول حاكم البحرين «نصر آل مذكور» احتلال الزبارة بين عامى ١٧٧٧ ، ١٧٨١ لكنه فشل ، وبدا واضحا أن خصومه من آل خليفة صاروا أقوياء وأنهم باتوا يتطلعون إلى التوسع فى البحرين بعد أن رأوا أن الزبارة رغم ازدهارها ونموها لم تعد تكفى طموحهم الكبير ، كما أن توسعهم فى بـــر قطر سيقودهم إلى الصدام مع قبائل قطر وآل مُسلَّم وبنى خالد بطبيعة الحال .. المهـــم أن ســـوء العلاقـــات بين آل خليفة وحكام البحرين ومحاولات هؤلاء إخضاع الزبارة، قد دفع بالفريقين إلى صراع حاسم(١) .

واســـتطاع آل خليفة حشد معاونين لهم من عتوب آل صباح والجلاهمة ، وكذلك الحصول على معونة القبائل القطرية وعلى رأسها آل مُسلَّم من الحويلة وآل بن على من الفويرط والسودان وآل سليط من الدوحة ، والبوعينين من الوكرة والقبيسات من خور حســـان والمـــنانعة من أبو الظلوف والسادة من داخل قطر ، حسب رواية «لوريمر»، ليشارك هؤلاء جميعا برجالهم وسلاحهم فى فتح البحرين والقضاء على الحامية الفارسية فى المنامة بعد حصارها(٢) .

وهكـــذا استطاع آل خليفة بمعونة حلفائهم السابقين والجدد الاستيلاء على جزر الـــبحرين فى يولـــيو ١٧٨٣ ليستقروا فيها بشكل أساسى وليتخذوها مقرا لحكمهم ، محققـــين بذلـــك أحلامهـــم ، ومستقلين بهذه الجزر ، مبتعدين عن أخطار أى توسع ســـعودى محـــتمل يـــأتى من البر . وقد آثر الشيخ أحمد بن خليفة الذى قاد العملية والـــذى لُقِب « بالفاتح » أن يقضى سنواته التالية بين مملكاته فى الزبارة ، تاركا حكم

---

(١) فائق طهبوب : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) لوريمـــــر : دليل الخليج ، ترجمـــة الديوان الأميرى بدولة قطر ، الجـــزء الثالث ، الدوحة ١٩٧٥ ، ص١٢٧٢ .

البحرين لولديه ، حتى انتقل مقر الأسرة جميعا إلى البحرين نهائيا بعد وفاة الفاتح عام ١٧٩٤[١] .

وتحولت البحرين منذ ذلك التاريخ إلى إمارة عربية يحكمها فرع العتوب من آل خليفة، وكان أول شيخ منهم يحكم البحرين هو الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (١٧٨٣ - ١٧٩٤) كما أصبحت البحرين - لا الزبارة - هى مقر الأسرة الحاكمة . ولما كان فرع العتوب من آل صباح قد انفردوا بحكم الكويت ، فإن الفرع الآخر من الجلاهمة الذين كانوا يأملون فى أن مشاركتهم فى فتح البحرين ستعود عليهم بفوائد تتيح لهم بناء سلطة مستقرة ، لكنهم لم يكافأوا بما يليق بجهودهم ، بل لقد بدأوا يحسون أن بقية أهل البحرين يسيئون معاملتهم ، لذلك اتجهوا بأشرعتهم ، تحت قيادة رحمة بن جابر ، صوب جزيرة خرج وبوشهر ، ثم ما يلبثوا أن عادوا إلى شبه جزيرة قطر ، حيث استقروا فى خور حسان ، وسرعان ما بدأ رحمة فى الانتقام من حلفاء الأمس ، ومنذ عام ١٨٠٩ بدأت عملياته البحرية واعتداءاته ضد سفن العتوب الآخرين وكذلك الإيرانيين ، وكانت هذه العمليات ، على ما فى بعضها من طابع «القرصنة» ، تتخفى دائما تحت ستار الحرب المشروعة ، وإن ظل مسلكه تجاه السفن والرعايا البريطانيين يتسم بالحذر والدهاء .

وينبغى التأكيد على أن سلطة رحمة بن جابر لم تتعد خور حسان ، بل إنها لم تمتد إلى الزبارة التى كانت تقع إلى جوار مقره مباشرة ، ورغم أنه أثبت لنفسه مكانة ودورا واستطاع بواسطته إقامة علاقة وثيقة مع السعوديين حتى عاونهم فى إخضاع قطر لسيادتهم ، كما عاون مبعوثهم فى حكم المنطقة حتى الزبارة[٢] .

* * *

---

(١) راشد بن فاضل البنعلى : مجموع الفضائل ، ص ٤٨ - ٤٩ حول إمارة الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة وفتح البحرين ؛ وراجع عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦ ، ذات السلاسل بالكويت ، ط(٢) ١٩٨٠ ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ وكذلك صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٥٢ - ٥٥ ؛ وجمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) راجع لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

كان ظهور الدعوة السلفية فى نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واقتناع الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية بها منذ عام ١٧٤٥ ، وتحالف الشيخ مع الأمير ، قد أدى إلى قيام الدولة السعودية الأولى ، التى استطاعت بعد معارك طاحنة أن تثبت دعائمها فى نجد ، وأن تواجه تحديا خطيرا من قوة بنى خالد فى الأحساء ، الذين قادهم « عريعر بن دجين » هم وغيرهم من قبائل الأحساء ، وزحف بهم إلى الدرعية عاصمة السعوديين عام ١٧٥٨ ، لكنه فشل فى هذا الهجوم ، ليظل بنو خالد يناصبون الدولة السعودية العداء خلال الفترة التالية ، حتى سير السعوديون جيوشهم إلى الأحساء التى سقطت فى أيديهم عام ١٧٩٣ بعد معارك عنيفة ، ثم اتخذوها قاعدة تنطلق منها جحافلهم نحو عُمان والبريمى وقطر والبحرين ، وبقية بلدان الخليج العربى[١] ، حتى قضوا على حكم بنى خالد فى المنطقة بأسرها .

وفيما يتعلق بقطر فقد بدأت علاقة السعوديين بها منذ عام ١٧٨٨ عندما أعد سليمان بن عفيصان أمير الخرج حملة عبر بها الأحساء للإغارة على قطر ، وهناك فاجأ رجالا من قبيلة آل بورميح فهزمهم ثم انسحب إلى نجد . وبين عامى ١٧٩٣ – ١٧٩٤ تولى إبراهيم بن عفيصان قيادة حملة لبسط سيادة السعوديين على قطر ، ووصلت جيوشه إلى الحويلة على الساحل الشمالى الشرقى لقطر وإن لم تستقر فيها[٢] . وفى عام ١٧٩٨ شن إبراهيم هجوما كبيرا على الزبارة ، وعهد إلى رجاله بمهمة عزل المدينة عبر البر ومحاصرتها تمهيدا للاستيلاء عليها دون قتال ، ولكن الحصار فشل ، مما اضطره إلى الهجوم على قلعتها التى سقطت فى يده بعد خسائر فادحة فى الأرواح ، ثم شرعت القوات السعودية فى احتلال مدن قطر الأخرى مثل الحويلة والفريحية واليوسفية والرويضة ، وقد استعان السعوديون بسفن الأهالى ضد سفن العتوب ، الذين أدركوا مدى قوة السعوديين ، فاضطروا إلى مغادرة الزبارة ، التى باتت خاوية ، واستطاع السعوديون بعد ذلك بسط سيطرتهم على شبه جزيرة قطر .

---

(١) محمد عرابى نخلة : تاريخ الأحساء السياسى ، ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) شركة الزيت العربية – الأمريكية ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

وقد خضعت البحرين كذلك لحكم السعوديين ، حتى استطاع الأمير سعود ابن عبد العزيز أن يؤلف ولاية تضم كلا من القطيف وقطر والبحرين ، وأن يجعل من الأخيرة مقرا لها . بعد أن عهد إلى عبد الله بن عفيصان بحكمها(١) ، وقد دخلت المنطقة طواعية فى المذهب السلفى كما هو معروف ، وكانت أموال الزكاة أو الخراج تجمع من قطر والأحساء لترسل إلى مقر الولاية فى البحرين ليتم إرسالها إلى عاصمة الدولة السعودية . ومضى آل خليفة يصرفون شؤون إدارة الولاية فى ظل السيادة السعودية .

غير أن النفوذ السعودى على الولاية المثلثة لم يستمر طويلا ، فلم يلبث سوى أعوام قليلة ، فقد شكلت الدولة السعودية خطرا على سيادة الدولة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية ، خاصة بعد أن ضمت الجيوش السعودية الحجاز ، لذلك لجأ السلطان العثمانى إلى واليه فى مصر « محمد على باشا » الذى أرسل عدة حملات خلال الفترة (١٨١٢ - ١٨١٨) استطاعت أن تقوّض سلطة الدولة السعودية وأن تدمر عاصمتها الدرعية ، وأن تتقدم قوات محمد على لتنهى نفوذها على الأحساء والخليج بشكل عام، وخلال نفس الفترة تقريبا تعرّض السعوديون لمتاعب جاءت من حدودهم الغربية تمثلت فى هجمات قام بها سلطان مسقط ، الذى شن حملة بحرية على قطر وطرد الحاميات السعودية من الزبارة وخور حسان ، بل وأحرق الزبارة ودمرها تماما ، فضلا عن مهاجمة السلطان جزر البحرين واحتلالها فترة من الزمن(٢) .

وكانت النتيجة هى إجلاء الحاميات السعودية عن قطر والبحرين ، حيث تم أسر الحاكم السعودى لولاية « القطيف - قطر - البحرين » وعادت البحرين إلى سيطرة آل خليفة ، بل أكثر من هذا فإن طبيعة تلك التطورات جعلتهم يتولون تسيير الأمور فى المناطق الثلاثة كما استمروا يجمعون الزكاة التى كانت تُحصَّل من قبل لصالح السعوديين(٣) .

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠١ ؛ وكذلك شركة الزيت العربية الأمريكية ، ص ٢٨٦ .

(٣) كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، الدوحة ١٩٨٤ ، ص ٤٨ .

ويلاحظ أنه قبل انتهاء النفوذ السعودى من المنطقة ، كان السعوديون قد بسطوا حمايتهم على رحمة بن جابر ، الذى صارت تربطه بهم علاقات وثيقة ، حتى لقد ذكر « لوريمر » أنه صار يحكم بالاشتراك مع مبعوثهم حتى مدينة الزبارة و لم يكف رحمة عن توجيه هجماته على سفن أعدائه فى الخليج من قاعدته التى اتخذها فى خور حسان[١] ، غير أن سقوط حلفائه جعله يتخبط فى قتال يائس ضد سفن العتوب ، حتى لقد اضطر إلى نقل مقره من قطر إلى الدمام على ساحل الأحساء ، ثم ما لبث أن انقلب على السعوديين ، الذين أسخطهم ذلك فدمروا عام ١٨١٦ قلعة كان قد شيدها بالدمام وإن تمكّن بجهد خارق من إنقاذ أسرته وممتلكاته وإعادتها إلى خور حسان ، ثم لم يلبث أن رحل إلى بوشهر ، ليعود مرة أخرى إلى الدمام عام ١٨١٩ ، و لم يعد يلعب دورا فى تاريخ قطر ، وعموما لم تنته المتاعب التى أثارها رحمة ضد آل خليفة إلا بعد أن لقى حتفه فى إحدى المعارك البحرية عام ١٨٢٨[٢] .

* * *

وحتى حدوث التطورات السابقة لم تكن بريطانيا قد اتصلت بقطر اتصالا مباشرا، أو أدخلتها فى دائرة اهتمامها ، باستثناء يقظتها وتصديها لنشاط رحمة بن جابر . وعموما صارت علاقة بريطانيا ، فيما بعد ، بقطر تشكل فصلا هاما من فصول تطور قطر السياسى ، يمتد من الربع الأول من القرن التاسع عشر وحتى استقلالها عام ١٩٧١ . والواقع أن صلة بريطانيا بقطر تمثل حلقة من حلقات نفوذها فى الخليج العربى ككل ، ذلك النفوذ الذى بدأ مع تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ، ثم ضم الشركة إلى التاج البريطانى وتأسيس حكومة الهند البريطانية ، التى نشطت لإخضاع الخليج لسيطرة بريطانيا ، التى بررت ذلك بالقضاء على « القرصنة » وعلى تجارتى السلاح والرقيق ، أو باسم تأمين الملاحة وتحقيق السلام العام فى البحر . وقد

---

(١) حول نشاطات رحمة بن جابر البحرية ورصد السلطات البريطانية لها ، راجع لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١١٩٩ ؛ وكذلك شركة الزيت ، ص ٢٨٦ .

(٢) لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .

لجأت بريطانيا لتنفيذ سياستها عبر مرحلة طويلة ، وبأساليب مختلفة ، نتج عنها فرض الاتفاقيات والمعاهدات أو التعهدات التى يلتزم فيها الحكام بتنفيذ السياسة البريطانية التى تمليها القوة وحدها . وقد بدأت هذه التعهدات منذ عام ١٨٢٠ ، وانتهت بمعاهدة الحماية البريطانية على قطر عام ١٩١٦ ، ومرورا باتفاقيات الهدنة البحرية ، المؤقتة والدائمة ، ثم الاتفاقيات الانفرادية أو المانعة ، التى طالت كل إمارات الخليج العربى .

وقد نجحت بريطانيا من خلال التهديد باستعمال القوة ، واستعمالها أحيانا ، فى أن تجعل من نفسها حكما وجلادا فى كل الصراعات المحلية والإقليمية فى المنطقة ، وخلقت بذلك مشكلات حدودية لاتزال المنطقة تعانى من آثارها حتى وقتنا هذا .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر فيلاحظ أن علاقة قبائلها وشيوخها ببريطانيا تأخرت نسبيا عن غيرها من الكيانات السياسية والقبلية فى الخليج ، فلم يحدث ذلك إلا مع بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر ، فليس ثمة معلومات موثّقة عن اتصال الإنجليز بساحل قطر قبل عام ١٨٢١ . فبعد إقرار بريطانيا لمعاهدات السلام العامة (السلم البحرى) عام ١٨٢٠ ، كانت السلطات البريطانية فى الخليج وعلى رأسها المقيم السياسى البريطانى (مقره فى بوشهر) تعتقد أن امتداد السواحل القطرية يدخل فى إطار تلك المعاهدات .

ونتيجة للمتاعب والقلق الذى سببه نشاط رحمة بن جابر ضد سفن آل خليفة ، وانحيازه إلى حاكم فارس فى محاولة غزو البحرين - التى لم يقدر لها أن تتم - ثم رفضه طلب المقيم السياسى لأن يكون طرفا فى معاهدات السلام العامة عام ١٨٢٠ ، ونتيجة حدوث بعض أعمال « القرصنة » على ساحل قطر ، أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية المدمرة « فستال » عام ١٨٢١ لتطلق مدافعها على طول ساحل المنطقة لإرهاب الشيوخ والأهالى وإثبات قوة بريطانيا . وكان من نصيب « البدع » أن قصفت بالمدافع لإرهاب القبائل القطرية ، مما نتج عنه تدمير المدينة وهجرة المئات من سكانها إلى الجزر الممتدة بين قطر والساحل العُمانى . وكان هذا القصف البريطانى لسواحل قطر أول « اتصال » لبريطانيا بالمنطقة ! .

وبعد ذلك بنحو عامين قام المقيم السياسى البريطانى فى الخليج « ماكلويد » فى يناير ١٨٢٣ بأول زيارة له للدوحة ، خلال قيامه بجولته على طول ساحل الخليج العربى ، ووجد أن كبار رجال البوعينين يتمتعون بنفوذ كبير فى الدوحة ، كما كان يعتقد بتبعية المنطق للبحرين ، وبالتالى فإنها تخضع لمعاهدة السلم العامة التى وقّعها شيوخ البحرين مع بلاده فى فبراير ١٨٢٠ ، لكنه أبدى ملاحظة هامة مؤداها أنه وجد السفن التجارية للأهالى فى الميناء لا ترفع الأعلام المنصوص عليها فى المعاهدة أو تحمل التراخيص المتعلقة بذلك ، مما يعنى أن القطريين لا يعرفون شيئا عن هذه المعاهدة[١] ، وقد يفهم من ذلك أن الأهالى لم يكونوا خاضعين لسلطة آل خليفة فى البحرين ، الذين دخلوا فى المعاهدة ، ولذلك أمر المقيم البريطانى بحصر جميع السفن ومنحها التراخيص اللازمة ، وبأن ترفع أعلام المعاهدة ، كما أمر بإجراء مسح شامل لسواحل قطر ومياهها الشرقية ، وقد نفذت هذه الأوامر بالفعل .

ومنذ زيارة المقيم لقطر عام ١٨٢٣ وحتى انسحاب الجيوش المصرية من الأحساء والجزيرة بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ لم تبد السلطات البريطانية اهتماما كبيرا بتطور الأحداث فى شبه جزيرة قطر ، ومن ثم لم يكن لها علاقة واضحة بالمنطقة ، وكل ما ورد بتقارير البريطانيين هو ما لاحظوه من وجود سلطة لشيخ البحرين على المنطقة الساحلية من قطر ، ومع ذلك لم تكن سلطة وحيدة ، أو أنها لم تجد من ينازعها وينافسها[٢] .

* * *

ويلاحظ أنه خلال فترة انحسار النفوذ السعودى عن المنطقة وتقدم قوات محمد على، أنه قد نتج عن ذلك تطور هام تمثل فى بدء ظهور نفوذ القبائل المحلية القطرية فبرزت قوة قبيلة البوعينين ، بدا هذا واضحا عندما قتل شيخهم رجلا من البحرين فى الدوحة عام ١٨٢٨ ، فأمر شيخ البحرين (عبد الله بن أحمد) بالقبض عليه وسجنه ،

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٤ - ١٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠٦ .

لكن قبيلته رفضت أن تسلمه وتمردت ، عندئذ أمر شيخ البحرين بتدمير حصن البوعينين بالدوحة ونقلهم منها إلى الرويس والفويرط[١] .

ونتيجة لاستئناف السعوديين لنشاطهم منذ بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وخشية شيخ البحرين من تحركاتهم ، رأى أن ينتقل مع ولديه (مبارك وناصر) ليقيم على ساحل قطر لمراقبة هذه التحركات ، حيث لم تكن علاقته بالسعوديين طيبة آنذاك، وأراد الشيخ أن يمارس نفوذه على أهالى الحويلة ، لكن هؤلاء تمردوا ضده عام ١٨٣٥ ، ولم ينته تمردهم إلا بعد توسط سلطان مسقط ، كما شهدت نفس الفترة خلافات حادة بين شيخ البحرين وبين قبيلتى آل بن على وشيخها عيسى بن طريف ، الذى اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبى ، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البوعينين نفس الشيء ، وقد حاول عيسى بن طريف، الذى اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبي، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البدعينيين نفس الشيء ، وقد حاول عيسى بن طريف اتخاذ أبو ظبي قاعدة لعملياته ضد آل خليفة ولكن السلطات البريطانية حالت دون ذلك .. وثبت من التطورات السابقة أن القبائل القطرية رفضت الخضوع لسلطة آل خليفة[٢] .

غير أن الخلافات والمتاعب السابقة كانت أقل بكثير من الصراعات العائلية التى كان الشيخ عبد الله بن أحمد يعانى منها فى البحرين ، الأمر الذى جعله يفكر فى تركها واتخاذ مقر هادئ له فى خور حسان على الساحل القطرى ، ورغم أنه اتخذ الترتيبات فعلا لهذا الأمر ، إلا أنه لم ينفذه إلا بعد فترة طويلة[٣] ، وعموما ساهمت الصراعات بين القبائل القطرية وآل خليفة ، ثم بين آل خليفة وبعضهم البعض ، فى بلورة القوى

---

(١) سالدانها ، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسى ١٧٥٣ - ١٩٠٤ ، دراسة وترجمة فتوح الخترش ، ذات السلاسل بالكويت ٢٩٩٢ ، ص ٣١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٦ - ١٢٠٧ .

(٣) لوريمر : المرجع السابق ، ص ١٢٠٧ .

المحلــية القطــرية ، مما نتج عنه التطورات التى أبرزت شبه جزيرة قطر كوحدة سياسية بعيدة عن أية سلطة لآل خليفة وبروزها كإمارة مستقلة فيما بعد .

وعندما لاحظت السلطات البريطانية فى الخليج تزايد عمليات الاعتداء على السفن فى الخلـيج بين عامى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ والتى يقوم بها المهاجرون من ساحل عُمان إلى السـاحل القطـرى ، حيـث استقر جزء منهم فى خور العديد هربا من دفع غرامات فرضت عليهم من قِبَل الإنجليز نتيجة عمليات سابقة ، اتهمت السلطات البريطانية أهالى قطـر بـأنهم يتعاطفون معهم ولا يردعونهم ، لذلك أرسلت قوة بحرية إلى ساحل قطر لـتذكير الأهالى بمسؤولياتهم تجاه هذه الأعمال ، ونجحت القوة فى فرض تعهدات على شـيوخ الدوحـة والوكـرة والعديد ، بالاستيلاء على قوارب « القراصنة » أو دفع الغـرامات ، وفى سـبتمبر ١٨٣٦ قدمـت السلطات البريطانية إنذارا شخصيا لشيخ الدوحـة ، الذى كانت تظن أن له علاقة بأحد زعماء القراصنة ، بأن يمتنع عن إيوائه فـيما بعـد .. ثم قررت إدخال قطر منذ ذلك العام ضمن اتفاقيات الهدنة البحرية التى أبرمـت قـبل عـام .. ومع هذا لم تكف العمليات العدائية فى البحر تماما ، حتى إن السلطات البريطانية ألقت بالمسؤولية على شيخ الدوحة ، وقصفت المدينة بأحد مدافعها عام ١٨٤١ وطالبت الشيخ بالتعويضات[١] .

وهكذا شهدت فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر فى شبه جزيرة قطر اضطرابات ومتاعب بدأت بمحاولة عتوب البحرين ملء الفراغ الناتج عن سقوط الدولـة السعودية الأولى ، وصراع رحمة بن جابر المتواصل معهم ، واتخاذه من ساحل قطـر قاعدة لعملياته ، ثم محاولات شيوخ البحرين فرض سيطرتهم على القبائل القطرية ومـا نـتج عـن ذلـك من تحديات وحركات تمرد قامت بها هذه القبائل ، وتزايد الاعـتداءات الـبحرية التى قام بها اللاجئون من ساحل عُمان إلى ساحل قطر وتصدى الإنجليز لذلك .

---

(١) يذكـر كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، ص ٤٩ « أن زعامة البدع كانت إذ ذاك لسالمين وعلى ابنى ناصر من قبيلة السودان » ؛ وراجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٠ - ١٢١٢ .

وقـد انشغل شيوخ البحرين بالتصدى لتهديدات السعوديين ، بعد أن تطلع هؤلاء لبسط سيادتهم على البحرين مرة أخرى ، خاصة وقد نجح الأمير تركى آل سعود فى توطيد سلطته فى الأحساء وشرع يطالب آل خليفة بدفع الزكاة منذ عام ١٨٣١ ، وإن كـان انشغال السعوديين بتجدد الصراع مع القوات المصرية فى نجد قد عطل ذلك إلى حـين ، حيث نجحت القوات المصرية فى الإطاحة بالأمير فيصل الذى كان قد استرد عرش والده (١٨٣٤ - ١٨٣٨) غير أن فيصل تمكّن من الوصول إلى الحكم مرة أخرى عـام ١٨٤٣ ، واسـتمراره فيه بعد توطيد دعائم الدولة السعودية الثانية ونجاحها فى تأمين سيطرتها على الجزيرة العربية والخليج العربى خلال السنوات التى أعقبت انسحاب القـوات المصرية ، إذ حقق فيصل نجاحا كبيرا فى استعادة جميع الممتلكات التى فقدها السـعوديون ، كما أخضع الأحساء ، ونجح فى كسر شوكة القبائل المتنازعة كالمناصير وآل مُرّة والعجمان ...

* * *

وقـد حملـت الأربعينيات والخمسينيات فى طياتها تطورات مهمة وخطيرة فى شبه جزيـرة قطر كان أبرزها انعكاس أحداث ووقائع الحرب الأهلية فى البحرين على شبه الجزيرة التى اتخذت ميدانا لذلك الصراع ، ومعاودة الدولة السعودية بسط نفوذها على كـل من البحرين وقطر ، واصطدامها بسلطة آل خليفة فى البحرين ، ودخول أبو ظبى حلـبة هذا الصراع ، والأهم من ذلك كله ، وما نتج عنه ، من نمو قوة القبائل المحلية القطـرية ، وظهور أسرة آل ثانى ، لتلعب بعد ذلك دورا مصيريا فى شبه جزيرة قطر ، حيـث استطاعت توفير الزعامة المحلية المطلوبة ، لتخلص قطر وقبائلها من أية سيطرة فرضت عليها .

وفـيما يتعلق بالحرب الأهلية فى البحرين (١٨٤٠ - ١٨٤٣) ، فقد نازع الشيخ محمـد بـن خلـيفة جده (أو عم أبيه) الشيخ عبد الله بن أحمد السلطة فى أعقاب انسحاب القوات المصرية من الأحساء عام ١٨٤٠ ، واضطر محمد بن خليفة أن يهاجر إلى قطـر وأن يـتودد إلى أهلها ، ليستطيع تشكيل معارضة قوية وقوة حربية يغزو بها الـبحرين ، فى الوقت الذى كان الشيخ عبد الله يلقى معارضة أبنائه الذين تمردوا على

سلطته ، مما أدى إلى اضطراب الأوضاع فى البحرين ، ورغم تسوية الأزمة بين الشيخين المتنافسين لفترة قصيرة ، عاد بعدها محمد بن خليفة إلى البحرين ، بينما أقام الشيخ عبد الله فى خور حسان بقطر ، إلا أن الصراع لم يلبث أن تجدد عام ١٨٤٢ ، وانتقل إلى شبه جزيرة قطر[١] .

ولا شك أن الحرب الأهلية فى البحرين قد أمدت القوى المحلية فى قطر بدم جديد حين استعان أحد طرفى الصراع وهو الشيخ محمد بن خليفة بها ، ففى غمرة استعداده لغزو البحرين للتخلص من شيخها المسن ، بدأت تظهر بعض القوى المحلية القطرية لتلعب دورها ، فبدأ يظهر الشيخ محمد بن ثانى الذى كان يقيم فى الفويرط ، حيث طلب محمد بن خليفة مساعدته فى البداية عام ١٨٤٢ لكنه لم يستجب – ولعلها كانت أول مرة يبرز فيها اسم محمد بن ثانى – فطلب محمد بن خليفة مساعدة أهل قطر الشرقيين المقيمين فى الدوحة والخور ، الذين تعاطفوا معه ، عندئذ وافق محمد ابن ثانى والمعاضيد على مساعدته ، كما لقى محمد بن خليفة دعماً ومساعدة من عيسى بن طريف وآل بن على الذين كانوا قد عادوا إلى الدوحة ، فضلا عن معاونة نفر من الجلاهمة وشيخهم بشير بن رحمة بن جابر . وهكذا حشد محمد بن خليفة من قبائل قطر قوة كبيرة اتخذت من الفويرط قاعدة للانطلاق نحو البحرين ، وفى إبريل ١٨٤٣ استطاع احتلالها ، بينما خرج الشيخ عبد الله بن أحمد ليقيم بعائلته فى الدمام. ويبدو واضحا أن القوى القطرية المحلية قد شعرت بقوتها الذاتية وقدرتها خلال تجربتها فى هذا الصراع ، وبدورها فى إيصال محمد بن خليفة إلى مركز السلطة فى البحرين[٢] .

ونتيجة لدور عيسى بن طريف شيخ آل بن على فى معاونة محمد بن خليفة ، صار رجله المهم فى قطر ، وحدث أن ضجر أولاد الشيخ عبد الله بن أحمد من العيش فى الدمام فطلبوا من عيسى بن طريف أن يتوسط لهم لدى الشيخ محمد بن خليفة ليعودوا

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٣١٠ – ١٣١٥ .

(٢) عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ١٨٦٨ – ١٩١٦ ، ص ٣٨ .

إلى البحرين وأن ترد إليهم أملاكهم ، فأسخط قبول عيسى هذه الوساطة شيخ البحرين محمد بن خليفة ، وتفاقم الخلاف بينهما فى الوقت الذى كان خصوم الشيخ محمد بن خليفة من العتوب الساخطين عليه يتجمعون فى جزيرة قيس لاتخاذ موقف ضده ، فلحق بهم عيسى بن طريف ورجاله يساندهم حشد من المناصير والهواجر وأبناء الشيخ عبد الله ، وكانت كراهية عيسى لمسلك محمد بن خليفة وصلفه قد فاقت كراهيته للحاكم السابق عبد الله بن أحمد ، واستعد الحلفاء بقواتهم ثم اشتبكوا مع قوات حاكم البحرين فى معركة برية عام ١٨٤٧ قرب الفويرط فى موقع يسمى «أم سوية» كان النصر فيها فى البداية حليف عيسى وحلفائه ، ولكنه لم يدم ، إذ لم يلبث أن سقط عيسى قتيلا ودارت الدائرة على جموعه وحلفائه الذين لقوا هزيمة منكرة ، اضطرت معها قبيلة آل بن على أن ترحل عن قطر ، كما تبخرت آمال شيخ البحرين السابق فى العودة إلى سلطته(١) .

ونتيجة لذلك ركز أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد جهودهم على طلب معونة الأمير فيصل بن تركى آل سعود . الذى كان فى حالة عداء مع الشيخ محمد بن خليفة ، منذ استطاع أسطول البحرين محاصرة ساحل الأحساء فى العام السابق (١٨٤٦) وجرت تسوية بين الجانبين عام ١٨٤٧ تعهد فيها الأمير فيصل بعدم معاونة شيخ البحرين السابق ، كما تعهد محمد بن خليفة بأن يدفع زكاة سنوية للسعوديين مقدارها ٨٤ ألف روبية ، غير أنه لم تلبث أن ظهرت بوادر الخلاف بين الجانبين مرة أخرى عام ١٨٥٠ فى ظل استمرار مشكلة حاكم البحرين السابق وأبنائه وتهديدهم للبحرين .

ولم يلبث الأمير فيصل بن تركى أن تقدم بقواته فى عام ١٨٥٠ نحو قطر فى جولة يتفقد فيها أقاليم حكمه ، وعندما وصل قرب الدوحة ، هرع إليه الأهالى وكذلك أهالى الوكرة والفويرط ليعلنوا عن عدم ولائهم لشيخ البحرين ، ويرحبون بارتباطهم

---

(١) حول دور عيسى بن طريف فى قطر وعلاقته بآل خليفة فى البحرين راجع :

- Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, pp. 36- 40.

وعبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لقطر ، ص ٣٩ ؛ لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢٠ - ١٣٢٨ .

بالدولة السعودية ، وبات واضحا أن تسوية عام ١٨٤٧ قد تم تجاهلها ، وعموما تصدت لقوة الأمير فيصل قوة من البحرين يقودها الشيخ على بن خليفة ، كان يعاونها فى البداية قوة قطرية يقودها جاسم بن محمد آل ثانى ، فى مكان يُسمى « المسيمير » غير أن فيصل آثر الانسحاب بقواته مؤقتا ، فخشيت القوة القطرية أن يعود فيصل بحملة قوية لا يستطيعون لها ردا فى ظل غياب الرجال فى موسم الغوص ، وبينما رجع الجيش البحرينى إلى بلاده ، اقترح محمد بن ثانى مصالحة الأمير فيصل ، فاتهمه الشيخ على بالخيانة ، لكن محمد بن ثانى اتصل بالأمير فيصل وأجرى معه تفاهما وصلحا لحقن دماء قبائله مبتعدا بذلك عن آل خليفة .

وقد عزم فيصل على أن يؤدب آل خليفة فطلب من الشيخ محمد بن ثانى الذى أصبح زعيما للقبائل القطرية ، وصار هو ومعظم المعاضيد من قبيلته يقيمون فى الدوحة، أن يستعد بسفن مجهزة بالمؤن والمياه ، كما كتب إلى بشر بن رحمة شيخ الجلاهمة أن يتقدم بجماعته إلى « البدع » فعلم أهل البحرين بهذه الاستعدادات ، واستعدوا للقاء خصومهم المتحالفين الذين توجهوا إلى البحرين ليتلقوا هزيمة فى معركة سميت « نهاية معركة المسيمير » التى انتصر فيها آل خليفة .

ونتيجة لإحساس آل خليفة بأن القوة القطرية التى يقودها محمد بن ثانى وابنه جاسم تولت حركة التمرد والعصيان متعاونة مع الأمير فيصل ، جهز آل خليفة جيشا لتأديبهم ، وطلبوا أن يعاونهم الشيخ سعيد بن طحنون حاكم أبو ظبى ، الذى استجاب وتوجه بجيشه مع جيش البحرين وحاصروا الدوحة من البحر ، ومنعوا أية سفينة من الوصول إليها فأصبح القطريون يعتمدون فى مؤنهم على ما يأتيهم من الأحساء ، وطالت المناوشات ولم يجرؤ المحاصرون على اقتحام الدوحة لمرابطة جيش سعودى مساند بها . ولم تنته المسألة إلا بالصلح الذى قبل فيه السعوديون خراجا سنويا من حاكم البحرين قدره أربعة آلاف ريال فرنسى مقابل بسط نفوذه على قطر[1] .

---

(١) محمد شريف الشيبانى: إمارة قطر العربية، ص ٦٥–٦٨؛ وعبد العزيز المنصور، المرجع السابق ص٤٠؛ وراجع كذلك محمود بهجت سنان : تاريخ قطر العام ، ط(١) بغداد ١٩٦٦ ، ص ٧٠ – ٧١ .

ورغم ذلك ظل التوتر قائما ، ففى عام ١٨٥٩ بدأ الحاكم السعودى للأحساء - بمعاونة الشيخ محمد بن عبد الله نجل الحاكم السابق للبحرين - يستعد لمحاولة جديدة لغزو البحرين وتولية الشيخ محمد بن عبد الله حكمها ، وكانت الحجة الظاهرة هى أن شيخ البحرين قد حرّض بعض القبائل القطرية على مهاجمة رعايا الأمير السعودى ، غير أن تدخل الأسطول الإنجليزى أوقف المحاولة تماما ، وأعقب ذلك توقيع السلطات البريطانية اتفاقية مع الشيخ محمد بن خليفة فى مايو ١٨٦١ ، اعترف فيها بصحة وسريان الاتفاقيات والمعاهدات التى عقدها أسلافه مع الحكومة البريطانية ، كما تعهد فيها بالامتناع عن الحرب « والقرصنة » وتجارة الرقيق فى مقابل حماية الحكومة البريطانية للبحرين ضد أى اعتداءات[١] .

وفى تقرير للمقيم السياسى البريطانى « بيللى » عام ١٨٦٦ ورد أن ولاء شيخ البحرين للسعوديين كان مقصودا منه المحافظة على أملاكه فى قطر ، وأنه يعتبر نفسه مستقلا فيما يتعلق بجزر البحرين . أما الخراج الذى يدفعه للسعوديين كل عام وقدره أربعة آلاف ريال ، فيدفعها لحساب ممتلكاته فى قطر والهدف منها تأمين ممتلكاته القطرية من أى هجوم عليها من قِبَل القبائل العربية من ناحية البر . وورد بالتقرير أيضا أنه خلال الفترة بين سنتى١٨٥٢ و ١٨٦٦ يبدو أنه كان للسعوديين وكيل فى الدوحة، وأن من المحتمل أن هذا الوكيل كان شيخا من شيوخ قطر[٢] .

* * *

لاحظنا خلال الصفحات السابقة أن القبائل المحلية القطرية لم تكن تقبل الخضوع لسلطة حكام البحرين ، غير أن خلافاتها وتفككها هو الذى سهل على آل خليفة بسط نوع من النفوذ عليها ، عادة ما كان يواجه دائما بأحداث تمرد واضطرابات ، ومنذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأت شخصية محمد بن ثانى ثم ولده قاسم لتوفر

---

(١) سالدانها، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسى، ص ٦٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث، ص ١٣٣٩ - ١٣٤٣ .

(٢) راجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٤ ؛ وأيضا ص ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

تدريجـيا الزعامة المطلوبة لحفز القبائل القطرية للسعى نحو الاستقلال وحكم نفسها فى شبه جزيرتها .

وينـتمى آل ثانى إلى المعاضيد وهم فرع من قبيلة الوهبة الذين يعودون إلى تميم ، وقد هاجروا من شبه الجزيرة العربية فى أواخر القرن السابع عشر ، وفى بعض الروايات أنهـم وصلوا إلى شبه جزيرة قطر فى أوائل القرن الثامن عشر ، وأن هجرتهم ترجع إلى صـراعات قبلية تفشت فى قلب الجزيرة العربية الذى كان يمر بسنوات قحط شديد ، حولته إلى بيئة طاردة ، دفعت بموجبات هجرات نحو الساحل ، وقد هاجرت أسرة آل ثـانى من بلدة « أشيقر » حيث حطت رحالها فى واحة « جبرين » فى جنوب شرق شبه جزيرة قطر ، ثم غادروها ليقيموا فى « اسكاك » ، ثم « الرويس » فالزبارة ، إلى أن استقروا فى الدوحة ، بعد مصرع شيخ آل بن على (عيسى بن طريف) .

ويجمـع المؤرخون على أن آل ثانى نجحوا فى زعامة القبائل القطرية نتيجة مكانتهم الاجتماعـية والاقتصادية ، مع أنهم لم يكونوا أكبر القبائل عددا ، وأن جدهم الأكبر «ثـانى» الذى ولد فى الزبارةوأصبح من تجار اللؤلؤ المشهورين قد نجح فى تكوين ثروة كـبيرة وأحـرز مكانة اجتماعية مرموقة ، جعلته يأتلف القبائل القطرية ، خاصة وأن أسـرته عرفت بالتحضر والتطور الذى اشتهر به المعاضيد ولابد أن « ثانى » قد ظفر لنفسه وللمعاضيد ببعض السلطة فى المنطقة المجاورة للبدع[1] ، وقد أوصلت هذه المكانة ابـنه « محمـد بـن ثانى » الذى كان قد ولد فى الفويرط ، وخلفه فى زعامة آل ثانى والمعاضـيد ، لكى يبرز اسـمه فى قيادة بعـض القبائل القطرية التى عاونت محمد بن خلـيفة فى انـتزاع السلطة فى البحرين (١٨٤٢ - ١٨٤٣) وليبرز نفوذه ومكانته بين القبائل القطرية بشكل أكبر فى أعقاب مقتل عيسى بن طريف وتشتت آل بن على ، ثم ها هو يكشف عن مهارة سياسية عام ١٨٥٠ عندما فاوض أمير فيصل بن تركى لينجو

---

(١) شركة الزيت العربية - الأمريكية ، ص ٢٩٣ ؛ وكذلك الشيبانى : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠؛ والدبـاغ : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ وكذلك سنان : المرجع السابق ، ص ٨٦ - ٨٩؛ وراجع إبراهيم جار الله التميمى : المعاضيد وقطر ، الكويت ١٩٩٩ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بالقبائل القطرية من هزيمة مؤكدة ، ويتحالف مع السعوديين ، بل ويصبح وكيلا لهم فى قطر ، يأخذ على عاتقه جمع الزكاة والخراج من القبائل القطرية حتى وفاة الأمير فيصل (١٨٦٥) ، ثم ها هو يتولى زعامة القبائل القطرية فى التصدى لانتقام آل خليفة ، وليحظى بمكانة مرموقة باعتباره شيخا للبدع ، وإن كان بسلطة غير كاملة ، يحد منها نفوذ آل خليفة ، الذين كان يمثل القبائل القطرية أمامهم .

وعندما زار الرّحالة « بلجريف » قطر فى يناير ١٨٦٣ ذكر أنه التقى بمحمد ابن ثانى «حاكم البدع، الذى يعترف به الجميع رئيسا للمنطقة كلها ، مع أنه لا يملك سلطة كبيرة على القرى الأخرى التى يقوم سكانها بتدبير أمورهم مع رؤسائهم المحليين» وقد وصفه بأنه « داهية عجوز وبدين إلى حد ما ، يشتهر بالحكمة وبساطة السلوك الذى يدل على خفة ظله ، وإن كان عنيدا عند المساومة ، وهو رجل عملى فى المقام الأول ، استطاع عن طريق الدراسة أن يحوز معرفة أدبية وشعرية ، وقدرا من المعرفة بالطب .. كما أنه رجل متدين جدا يؤم الناس فى الصلاة فى المسجد الكبير فى معظم الأحوال .. » . وقد زار بلجريف كذلك ولده وولى عهده قاسم ، ووصفه بأنه « شخصية مندفعة أكثر من والده ، وأن قصره يشبه القلعة ... » . وانتقل الرحالة بعد ذلك إلى زيارة الدوحة التى وصفها بأنها « قرية شمال مدينة البدع ، وتقع فى نصف حجمها ، ورئيسها ليس إلا جابيا لحساب محمد بن ثانى .. »[١] .

وعموما استمرت حالة العداء والاستعداد بين القبائل القطرية وآل خليفة الذين اعتقدوا أن سلطتهم على قطر قد استمدوها بالشراء من السعوديين ، وأن القطريين ممثلين فى آل ثانى أصبحوا فى جانب السعوديين ، وقد عين آل خليفة ممثلا لهم على قطر هو (أحمد بن محمد آل خليفة) الذى حاول أن يتقرب من القطريين فأصهر إلى زعيمهم محمد بن ثانى ، ومع ذلك فإن شراسة طباعه جعلته يعامل القطريين بالاستهانة والغلظة حتى كرهوه .

---

(١) وليم جيفور بالجريف ، وسط الجزيرة العربية وشرقها ، ترجمة صبرى محمد حسن ، الجزء الثانى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٨ .

وفى عـــام ١٨٦٦ اعـــتدى رجاله على قافلة للنعيم كانت فى سوق الوكرة تتجهز لـــرحلة الغوص واستولوا على أمتعتها ، وعندما قاومت سجن ممثل آل خليفة رئيسهم (عـــلى بـــن ثامر) فاهتاج النعيم وطلبوا إلى قاسم بن محمد آل ثانى ، الذى كان يقيم بالدوحـــة آنـــئذ ، أن يـــتدخل لكف الأذى عنهم ، فما كان منه إلا أن قاد القطريين وحاصـــر ممـــثل آل خلـــيفة بقلعة الوكرة ، لكنه استطاع الهروب بليل إلى البحرين ، واستطاع الثائرون إطلاق سراح السجين ، وتوالت بعد ذلك الأحداث التى زادت من حالـــة العـــداء ، والتى بدأ القطريون خلالها يستعدون لإنهاء أية سلطة لآل خليفة على بلادهـــم .. وفى الوقت الذى كاد فيه أن ينتهى نفوذ السعوديين فى أعقاب وفاة الأمير فيصل بن تركى .

أعقب ما سبق أن كتب قاسم بن محمد رسالة إلى الشيخ محمد بن خليفة يشرح له فـــيها الموقف وسوء تصرف عامله الهارب وعدم كفاءته فى تصريف الأمور فى قطر ، وأشـــار علـــيه بعزله ، وطلب بصراحة ووضوح منح قطر استقلالا شبه ذاتى فى إدارة شـــؤونها ، وإلا فـــإنهم سيخلعون طاعته ويطلبون المساعدة من أى حاكم يعاونهم فى الحصـــول على استقلالهم إن لم تتحقق مطالبهم ، وفى رواية أخرى أنه قد يلتجئون إلى طلب الحماية من السعوديين[١] .

وبطبـــيعة الحال لم تكن التطورات السابقة فى صالح آل خليفة أو تتفق مع رغبتهم الانفـــراد بقطـــر ، لذلـــك دعا آل خليفة زعماء النعيم إلى زيارة البحرين ، وأكرموا وفادتهم ، حتى ينقلوا ذلك لجماعتهم فى قطر ، لتهدأ النفوس ، فى الوقت الذى خططوا فيه للتخلص من قاســـم بن محمد آل ثانى ، لذا أرســـلوا إليه رسالة ودية لدعوته لأن يســـتأنف زياراتـــه المعتادة للبحـــرين ، وعبروا فيها عن استيائهم من ســـوء تصرف عامـــلهم مـــع النعيم فى الوكرة ، وحثوه على المجىء « للتشاور وتجديد الصحبة وإزالة الشبهة .. » ، وتقدم قاسم بجرأة ، وما كاد يصل إلى المنامة حتى ألقى به فى السجن !

---

(1) Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, p. 41.

وعبد العزيز المنصور ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

وكانت هذه الواقعة بداية لسلسلة من المعارك البرية والبحرية ، دارت بين شيوخ البحرين ، وبين القبائل القطرية ، التى تولى قيادتها محمد بن ثانى وابنه قاسم .. ويلاحظ المؤرخون أن شخصية قاسم بدأت تبرز على نحو كبير باعتباره زعيما وطنيا خلال هذه المعارك ، وكان الرجل بالفعل تتوفر فيه عناصر الزعامة من الذكاء والجرأة وحسن السياسة ، واستطاع أن يعبر عن شعور القبائل القطرية ورغبتها فى التخلص من أى نفوذ أو سلطة عليها من خارج شبه الجزيرة القطرية .

وقد استعد آل خليفة فى البحرين بقوة بحرية هائلة استهدفت شن حملة على قطر ، وقد عاونهم حاكم أبو ظبى بقوة كبيرة ، وبدأ الهجوم على الوكرة والدوحة فى أكتوبر ١٨٦٧ ، حيث دخلت القوات المتحاربة الدوحة وخرّبوها وشرّدوا أهلها . كما نهبوا ما تبقى فى المدينة بعد رحيل الكثير من سكانها تاركين بيوتهم وأموالهم « وتفرقوا شذرا وخربت تلك البلدة وكانت هى قصبة قطر » كما يقول « النبهانى » . أما رواية « لوريمر » فتذكر أن « مدينتى الدوحة والوكرة كانتا فى نهاية عام ١٨٦٧ قد أزيلتا تماما من الوجود » .

غير أن القطريين لم يلبثوا أن جمعوا صفوفهم ، واستعدوا بعد انتهاء موسم الغوص، للانتقام وإطلاق سراح زعيمهم قاسم بن محمد ، وبالفعل بدأوا هجوما كبيرا على البحرين فى يونيو ١٨٦٨ ، حيث التقى جيشهم بجيش آل خليفة فى معركة « أحمر وجه البحر منها » كما يقول النبهانى ، فى موقع من جزر البحرين اسمه « دامسة » و لم يستطع القطريون التقدم ، بل إنهم آثروا التقهقر إلى قطر فى خطة لاستدراج أسطول آل خليفة للانقضاض عليهم وقطع سبل العودة إلى سفنهم ، وبالفعل نجحت خطة القطريين بعد أن باغتوا خصومهم بهجوم كبير قبل أن يستقروا فى المدينة ، ونجحوا فى أسر الشيخ إبراهيم بن عيسى آل خليفة وكذلك الشيخ حمود بن سلمان آل خليفة ، حيث ساوموا آل خليفة بهما لإطلاق سراح قاسم بن محمد آل ثانى .

ولما كان آل خليفة قد تعهدوا لبريطانيا عام ١٨٦١ بالحفاظ على السلام فى البحر، لذلك فإن هجومهم البحرى على قطر ، وبمساعدة أبو ظبى ، اعتبر فى نظر السلطات البريطانية فى الخليج خرقا للمعاهدة وتحديا لهيبة ونفوذ بريطانيا ، لذلك طلب المقيم

السياسى « لويس بيللى » قوة من حكومة الهند مع تفويض كامل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع حاكمى البحرين وأبو ظبى ، وتقرر فرض عقوبة مالية على شيخ أبو ظبى تعويضا عن الخسائر التى لحقت بقطر والاعتذار عن عمله هذا والتعهد بمسلك أفضل فى المستقبل .. أما البحرين فقد كان موقف المقيم منها أكثر تشددا ، باعتبارها مصدر هذه المشاكل ، ولما كان الشيخ محمد بن خليفة قد فرَّ خارج البحرين على إثر التحرك البريطانى ، فقد وقّع « بيللى » مع شقيقه الشيخ على بن خليفة تعهدا بدفع غرامة كبيرة وأن يحافظ على السلم فى البحر ، كما تقرر أن يتولى السلطة فى البحرين ، بدلا من أخيه الذى لم يعد أهلا للحكم ، وتعهد الشيخ على كذلك بتسليمه إلى السلطات البريطانية ، كما تقرر تسليم السفن الحربية التى يملكها آل خليفة للقائد البريطانى الذى تولى إحراقها ، وكذلك جرى تدمير قلعة أبو ماهر فى المحرَّق ، ووزع الجزء الذى تم جمعه من الغرامة على المتضررين من أهالى قطر ممن أصابهم العدوان .

وتقدم بيللى بسفن الأسطول البريطانى إلى سواحل قطر فوصل إلى الوكرة فى أوائل سبتمبر ١٨٦٨ ، واجتمع هناك بكبار شيوخ قطر وعلى رأسهم الشيخ محمد بن ثانى ، وأظهر استياءه من حملتهم التى شنوها على جزر البحرين ، وذكر أن حكومة بلاده تتفهم حجتهم فى أنها لم تكن سوى حملة انتقامية ، وأنها تعتبر ذلك سببا يهدئ الاضطراب ، ثم وقّع بيللى معاهدة مع الشيخ محمد بن ثانى فى ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ ، نصت على أن يقيم محمد بن ثانى فى سلام فى الدوحة (التى كان قد غادرها إلى داخل شبه الجزيرة القطرية خلال المعارك) وأن لا يقوم بأى أعمال عدوانية فى البحر ، وأن يحتكم إلى المقيم فى أى نزاع ، وأن يقوم بتسليم محمد بن ثانى خليفة للسلطات البريطانية إذا وقع فى يده ، وأن يكون على علاقة طيبة مع الشيخ على بن خليفة ، وإذا ما اختلفا بأى شأن يتعلق بدفع الأموال أو غيرها ، فإنه لابد أن يحتكم إلى المقيم السياسى البريطانى بهذا الشأن[1] .

---

(١) راجع نص المعاهدة بكتاب وثائق التاريخ القطرى ، (٢) من الوثائق (البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ – ١٩٤٩) تقديم أحمد العنانى ، الدوحة ١٩٧٩ ، ص ١٠ – ١١ ، وتعليقات المنصور ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛ وجمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

وهكـــذا أدخلت معاهدة ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ قطر ضمن سلسلة اتفاقيات السلام العام والهدنة البحرية التى وقعتها إمارات الخليج العربى مع الحكومة البريطانية ، مما يعنى اعتـــبارها مشيخة أو إمارة مستقلة ، غير خاضعة لأية سلطة من جانب جيرانها ، كما وقّعها محمد بن ثانى باعتباره « شيخا لقطر » ، لذلك اعتبر المؤرخون أن قطر منذ هذه الفـــترة ظهـــرت ككيان سياسى مستقل ، كإحدى إمارات الخليج العربى ، وأن ذلك ســـجل تاريخـــيا بداية حكم أسرة آل ثانى باعتبارهم حكاما على قطر ، وبداية مرحلة تاريخية جديدة .

* * *

أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية
(فبراير ١٨٤١ ـ مارس ١٩٤٩)

دكتور
فطين أحمد فريد على
كلية التربية – قسم التاريخ
جامعة قناة السويس

أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية

(فبراير ١٨٤١ ـ مارس ١٩٤٩)

مقــــدمة

إن التاريخ يدل على أن رفح أو شجرتين فى ضواحيها هى أول حد مصر الشرقى من جهة البحر المتوسط ، وإيلة المعروفة الآن بالعقبة كانت تعتبر تارة فى الحجاز وتارة فى مصــر ، ولكنها كانت فى أغلب الأحيان تابعة لمصر . أما اللجنة التى ندبت لتعيين الحدود سنة ١٩٠٦ فقد أبقت على رفح الحد بين مصر وسوريا ، ولكنها ألحقت إيلة بالحجــاز وجعلت رأس وادى طابا قرب جزيرة فرعون الحد بين الحجاز وسيناء[١] . وبذلك أصبحت قرية « أم الرشرش » تقع داخل الحدود المصرية ، وعلى ساحل خليج العقبة من جهة سيناء .

فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١

تعــود قضية الحدود بين مصر وفلسطين ، أو على الأصح بين الولايات التركية فى فلســطين والأراضى المصرية فى سيناء أو الحد الشرقى لمصر ، إلى عهد فتوحات محمد عــلى باشــا فى سوريا حين أجبر بعد انتصاره الكبير فى معركة نزيب أو نصيبين عام ١٨٣٩ عــلى الجــيوش العثمانية وأصبح على أبواب القسطنطينية – على التراجع إلى حــدود مصــر التى تقررت فى معاهدة لندن ١٨٤٠ وأبلغت إلى محمد على بفــرمان

---

(١) نعوم بك شقير ، « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩١ ، ص ٢١ .

١٣ فــبراير ١٨٤١ حيث ثبته السلطان العثمانى محمود الثانى على ولاية مصر بالحدود المرسومة على الخريطة التى أرسلت إليه[١] .

لقد حدد فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ ، الحدود بين مصر والإمبراطورية العثمانية بخط يـبدأ من رفح على ساحل البحر الأبيض المتوسط ويمر مستقيمًا إلى ميناء العقبة على خليج العقبة ثم إلى ميناء الوجه على الساحل الشرقى لخليج العقبة . وقد ضمنته الدول الكبرى : بريطانيا ، النمسا ، المجر وبوهيميا ، بروسيا وروسيا[٢] .

ومعنى هذا أن فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ أعطى لمصر : الوجه ، ضبه ، المويلح، والعقــبة التى تتمكن من تأمين طريق الحج البرى بين مصر والحجاز . وقد توقف هذا الطــريق بعــد شــق قناة السويس سنة ١٨٦٩ . ولم يعثر حتى الآن على الخريطتين الخاصــتين بهــذا الفــرمان . فقد احترقت النسخة التى كانت تحتفظ بها مصر . وإن اخــتلف الحــد الســابق فى الخريطة الموجودة فى استنبول عما جاء ذكره فهى مزيفة وليســت الأصــلية . إلا أن الفرمانات التالية لذلك تؤكد خط الحدود الذى سبقت الإشارة إليه . وقد ظل الساحل الشرقى لخليج العقبة حتى ميناء الوجه ضمن مصر حتى سنة ١٨٩٢ حين نشأت أزمة سيناء مع الإمبراطورية العثمانية[٣] .

أهمية المنطقة لبريطانيا

وكان لموقع سيناء والمناطق الواقعة على طرفها أهمية دولية لوقوعها على طريق الهند حــتى قبل شق قناة السويس والاحتلال البريطانى لمصر . ومنذ حملة نابليون بونابرت ، تحققــت لــبريطانيا أهمــية هذه المنطقة بالنسبة لإمبراطوريتها الشرقية . فسعت بشتى

---

(١) جريدة المؤيد ، القاهرة فى ٢٤ أبريل ١٨٩٢ .

(٢) أمــين سامى باشا ، «تقويم النيل وعصر محمد على باشا» ، الجزء الثانى ، ص ٥١٠ – انظر كذلك كريم ثابت ، «محمد على» ، ص ص ٣١١-٣١٤ ، محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية »، دار الجيل ، بيروت ص ص ٣٤٦ – ٢٤٧ .

(٣) فيليــب بــن يوسف جلاد ، «قاموس الإدارة والقضاء»، م٦، ص ٥٦٠، انظر كذلك دكتور محمد محمــود الديــب ، « حدود فلسطين دراسة تحليلية لوثائق الانتداب» ، معهد البحوث والدراسات العربــية ، القاهــرة ١٩٧٩، ص ١١٣، محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، دار الجيل بيروت ، ص ص ٢٤٦ – ٢٥١ .

الوسائل لإبعاد أى نفوذ آخر عن تلك المنطقة بحجة حماية الطريق الذى تسلكه لمصالحها إلى الهند ، وهذا ما دفعها إلى مساندة الدولة العثمانية حين أحست بخطر جديد لمصالحها فى الشرق مع ظهور قوة محمد على باشا[١] .

أصبحت قضية الإشراف البريطانى على تلك المنطقة أمرًا حيويًا . ووجدت بعض الدوائر البريطانية أن ذلك يرتبط بالإشراف على فلسطين نظرًا لأهمية موقعها بالنسبة للمنطقة ، ورأت الحل فى إيجاد خطة لإبعاد فلسطين من دائرة نفوذ كل من الدولة العثمانية ومحمد على باشا باستيطان اليهود فى فلسطين . وللاهتمام البريطانى بفكرة هذا الاستيطان تقليد طويل انبعث فى القرن التاسع عشر من دوافع دينية بدراسة الكتاب المقدس وما تلاها من إرساليات وبعثات إلى الأرض المقدسة ، كما وجد تعبيرًا له فى الأدب الإنجليزى[٢] . أضيف له منذ منتصف القرن التاسع عشر عنصر من الإمبريالية البريطانية دفع بريطانيا إلى أن تتبنى الفكرة الصهيونية حتى قبل أن تتبناها أية منظمة صهيونية ، فدعمت مشاريع مونتفيورى ، اليهودى البريطانى ، فى مفاوضاته الأولى مع إبراهيم باشا من أجل استيطان زراعى فى فلسطين[٣] . ثم فى اتخاذها دور حماية اليهود فى الإمبراطورية العثمانية – فى فلسطين بالذات – تمامًا كما تدعى فرنسا حماية الكنيسة الكاثوليكية وروسيا الكنيسة الأرثوذكسية ، وكان ذلك الهدف الرئيسى وراء إنشاء قنصليتها فى القدس . وفى تعليمات لورد بالمرستون إلى الممثلين فى الشرق ١٨٣٩ لتشجيع هذه الحماية وجهوده لإقناع السلطات العثمانية أن الاستيطان اليهودى فى فلسطين إنما هو لفائدتهم ؛ لأنه يحول بين محمد على وبين سيادته على سوريا ومصر معًا ، إذ من موقع القوة هذا يمكنه التقدم نحو طرق داخلية من ممتلكات الدولة العثمانية الآسيوية . ومع تأزم المسألة السورية أرسل بالمرستون تعليماته إلى

---

(١) خيرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، شئون فلسطينية ، نوفمبر ١٩٧١ ، رقم «٥» ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٦٣ .

(2) Palestine, The Organ of the British - Palestine Committee, Jan 26, 1917, P. 2.

(٣) أيلى ليفى أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودى » ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ص ١٤٦ – ١٥١ .

سفيره فى الآستانة ١١ أغسطس ١٨٤٠ - يوم نزول القوات البريطانية بيروت - أنه لو عاد اليهود « إلى فلسطين » بموافقة السلطان سيكون ذلك كبحًا لأى مشاريع خطرة فى المستقبل من محمد على باشا أو خلفائه[١] . ولذلك ، ليس من الغريب بعد عودة فلسطين إلى السلطان أن يشير قريب بالمرستون : لورد شافتسبرى فى مذكرة سبتمبر ١٨٤٠ إلى أن توطين اليهود بضمان من الدول الأربع هو جزء من تسوية القضية السورية يحمل السلم والازدهار لكل البلاد التى تقع بين الفرات والبحر المتوسط . وأجمعت مشاريع بريطانية أخرى على أن التوطين اليهودى ضرورى من أجل تحكم بريطانيا فى الشرق وكحل عملى للمسألة الشرقية ، أهمها ما اقترحه الكولونيل تشرشل فى الستينيات بأن سوريا « ومن ضمنها فلسطين » هى جغرافيًّا وتاريخيًّا ضرورة محتمة لمصر وكلاهما يجب أن يرتبطا ببريطانيا[٢] .

صندوق الاكتشاف الفلسطينى

ويلعب صندوق الاكتشاف الفلسطينى الذى أنشئ عام ١٨٦٥ دورًا كبيرًا فى تأكيد هذه الصلة العملية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومع أنه انطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالأراضى المقدسة ، إلا أن حقول نشاطاته قد تعدت المسألة الدينية العلمية ، فاجتماعات جمعية الصندوق غالبًا ما كانت تشير إلى فكرة « عودة اليهود » ، كما أن أعماله قد شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودى بتقديم صورة مفصلة عن فلسطين ، ثم إن معظم الذين قاموا بالبعثات والاكتشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط كانوا من سلاح الهندسة الملكية[٣] .

---

(1) F.O. 7/8/392.

(٢) خيرية قاسمية « قضية الحدود بين مصر وفلسطين » ، ص ١٦٤ .

(٣) خيرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين » ، ص ١٦٤ . بدأ الصندوق ينشر دورية منذ عام ١٨٧١ باسم : Palestine Exploration Fund, Quarterly statement

بعد افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ ، ازدادت أهمية المنطقة التى تقع شرقى القناة[٤] ، وشهدت السبعينيات فترة نشطة من الاهتمام بفلسطين لما تولى دزرائيلى رئاسة الوزارة البريطانية . ورغم أنه لم يحقق شيئًا له علاقة بفلسطين حين قام بتسيير سياسة أوروبا حيال المسألة الشرقية فى مؤتمر برلين ، إلا أنه شجع ودعم جهود بريطانى آخر من الذين شاركوه عطفه على اليهود ، والدور الذى يمكن أن تلعبه بريطانيا فى سياسة الشرق عن طريقهم . كان لورنس أوليفنت (١٨٢٨ - ١٨٨٨) صحفيًا وعضو برلمان قام برحلات إلى الشرق بعد توقيع معاهدة برلين حين دخلت المسألة الشرقية مرحلة جديدة ، ورأى أن مشكلة الشرق ستتركز فى المستقبل فى تلك المنطقة التى تحرس طريق البحر الأبيض المتوسط نحو المحيط الهندى بسبب خطر تهديد روسيا بالتقدم نحو البحر الأحمر عن طريق العقبة مما يخول لها الإشراف السياسى على كل الشرق ، فوضع مشروعًا يضمن حل المشكلة وينمى موارد الإمبراطورية العثمانية بإنشاء شركة لاستيطان المناطق الغنية وغير المأهولة فى الدولة العثمانية ، وأوصلته استنتاجاته ونتائج تحرياته إلى أن مكان الاستيطان هو الجانب الشرقى للأردن فى النهاية العلوية للبحر الميت « أرض جلعاد » التى أثبتت تحريات صندوق الاكتشافات الفلسطينى أنه يتمتع بإمكانات كبيرة وأن الشعب الذى سيدعى لاستيطان هذا المكان هو الشعب اليهودى من أوروبا الشرقية . وفى دعوته التى بناها على عوامل دينية عاطفية تكمن أمور سياسية واستراتيجية ، فقد دعم مشروعه كل من لورد بيكونسفيلد « دزرائيلى » وسالسبورى ، وكتب سنة ١٨٨٠ أن الأحداث السياسية فى الشرق قد أخذت تتجه نحو فلسطين وخاصة ولايات شرقى الأردن بسبب توسطها الجغرافى بين الأماكن المقدسة قرب الحدود الروسية من الجانب الآسيوى وبين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .. وبين سوريا ومصر .. ولها قيمة استراتيجية وسياسية . ومن الواضح أن اليوم ليس ببعيد حين سيتحقق تهديد المصالح البريطانية بالخطر ؛ بسبب أننا فوتنا فرصة

---

(٤) أيلى ليفى أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودى » ، ص ص ١٤٦ - ١٥١ .

الاهـــتمام بالأشـــياء الـــتى يمكـــن أن تحدث فى المستقبل . لكن مفاوضات أوليفنت الدبلوماسـية فشـــلت فى الآستانة ورفضت السلطات إدخال عنصر جديد فى المسألة الشرقية بفتح ولاياتها الآسيوية ، وخاصة هذا البلد المقدس، للهجرة اليهودية الجماعية. وربمـــا كانت المرامى البعيدة وراء تلك المخططات هى التى دفعت السلطات العثمانية إلى وضـــع قـــيود أمام هجرة يهودية جماعية ، وألجأت السلطان عبد الحميد إلى فصل سنجق القدس عن ولاية دمشق وإلحاقه بالآستانة مباشرة[1] .

زاد تعقـــيد الموقـــف نتيجة احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ . فقد أعطاها ذلك اهتمامًا أكثر بفلسطين ، وزاد قلقها فى الحصول على دولة صديقة على جانبى الطريق نحو الهند ، هذا القلق هو الذى أدى إلى اهتمام متعاطف مع الهجرة اليهودية فى أوروبا الشـــرقية إلى فلســـطين فى أوائل الثمانينيات وتشجيع جمعيات أحباء صهيون وتدخل الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين بالآستانة بالاشتراك مع ممثلى فرنسا والولايات المتحدة لتخفـــيف قـــيود الدولـــة العثمانية على الهجرة . وربما كانت العقبات التى وضعتها الســـلطات العثمانية فى وجه الاستيطان اليهودى فى فلسطين هى التى أدت بالسلطات البريطانية فى مصر إلى العطف على مشروع فردى لاستيطان يهودى فى منطقة تشرف عليها بريطانيا قرب فلسطين . ويرتبط هذا المشروع باسم بول فريدمان[2] .

مسألة فرمان ١٨٩٢ وتطوراتها

كـــان الســـبب فى تأخر صدور فرمان تولية عباس الثانى أن الباب العـــالى كان يـــريد تحوير الحد الفاصل بين سيناء والعقبة وسلخ الأخيرة عن الحدود المصرية . وقد دارت المفاوضـــات فى هذا الشأن بين الحكومة المصرية والباب العالى بواســـطة مختار

---

(1) F. O. 882/17. Syrian political situation since 1800.

(1) F. O. 78/5479. (Immigration of Jelils into Palestine 1891-1905), see also.

أحمـــد فـــؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر من واقع كتابات المسئولين عن الأحداث » ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٩، ص ص ٣٨ – ٣٩ .

باشـــا ، وبعـــد موافقة الســـير بارنج على طلب تركيا ، تقـــرر نهائيًا فى يوم ١٦ فـــبراير ١٨٩٢ أن تتخـــلى مصر عن العقبة للدولة العلية ، ورفع هذا القرار للصدارة العظمـــى . وكـــان الخديو يرمى بهذا التساهل إلى استمالة الباب العالى وإظهار تقربه للدولة[١] .

وبعـــد ذلك ، وردت برقية من الآستانة فى يوم ٢٤ فبراير ١٨٩٢ بأن أحمد باشا أيوب – مشير السراى الهمايونية – سيقوم إلى القاهرة حاملاً فرمان التولية[٢] .

مضـــى بعد ذلك أكثر من شهر ، ولما لم يصل المندوب حتى أواخر مارس ، بحث الخديـــو مـــع النظار فى إرسال خطاب استعجال إلى الباب العالى مشرب بروح الود والـــتفاهم ، فأرســـل بعد الاتفاق على صيغته . وفى الساعة الثانية بعد ظهر ٥ أبريل ١٨٩٢ ، وصـــل إلى محطـــة العاصمة حامل الفرمان أحمد أيوب باشا . وقد كان من المنتظر قراءة الفرمان كالعادة ، ولكن كانت ثمة عقبات لم تذلل بعد ، وذلك أن الباب العـــالى كان يريد الاستيلاء على الطور أيضًا بعد التسليم له فى العقبة . وقد ورد ذلك فى الفرمان الذى لم يطلع عليه سفير إنجلترا فى الآستانة .

فأرســـل اللورد سالسبورى رئيس الوزراء الإنجليزى إلى السير أفلين بارنج « لورد كرومـــر» بالمعارضـــة فى تلاوة الفرمان قبل الاطلاع عليه وحتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة الطور لمصر . وقد اجتمع قنصلا فرنسا وروسيا مع الجناب الخديو . وتحادثا معـــه فى مسألة الطور . ثم اجتمع تيجران باشا « الإنجليزى الجنسية » ناظر الخارجية

---

(١) أحمـــد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الثانى ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٨٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص ص ٩ – ١٠ .

(٢) فيليب بن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » م ٦، الإسكندرية ١٨٩٩م ، نص الفرمان ص ص ٧٥٧ – ٧٥٨، انظـــر كذلك ، أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٤١ – ٤٢ .

لقـــد صـــدر هذا الفرمان فى ٧ جمادى الآخرة ١٣٠٩هـــ الموافق ٩ يناير ١٨٩٢م. وأرخ فى ٢٧ شعبان ١٣٠٩هـــ الموافق ٢٦ مارس ١٨٩٢م .

المصرية بالغازى مختار باشا وتداولا مليًا فى الموضوع . ورفعت نتيجة المباحثات إلى السلطان[١] .

أحست الدولة العثمانية بحرج موقفها أمام الدول الكبرى الضامنة لفرمان ١٣ فبراير ١٨٤١م الخاص بمحمد على باشا ، ووجدت أن الموقف ينذر بعواقب وخيمة ، فبدأت تتراجع بعد المراوغة[٢] .

وكانت فرنسا وروسيا توافقان على ترك الطور لتركيا على أن يسمح لمصر نظير ذلك بتقوية جيشها إلى حد يكفى لصون حدودها . ولكن انجلترا كانت تعارض فى هذه النظرية . ثم شاء القدر أن يحل المشكلة لصالح مصر وأن تبقى الطور فى يدها[٣] .

فريدمان والاستيطان الصهيونى

والشيء العجيب أن أزمة سنة ١٨٩٢ بين مصر والإمبراطورية العثمانية ارتبطت بمحاولة مبكرة للصهيونية سعيًا للاستيطان على الساحل الشرقى لخليج العقبة على مقربة من فلسطين . فقد حضر يهودى ألمانى يدعى فريدمان سنة ١٨٩٠ إلى مصر واستأذن فى السفر لزيارة الساحل الشرقى لخليج العقبة ، وأجابه الخديو والاستعمار البريطانى إلى طلبه ، ثم عاد إلى ألمانيا ليجمع اليهود للاستيطان فى الأراضى المصرية الواقعة فى شرق خليج العقبة وما حولها . وحضر مع عشرين من اليهود الألمان والروس ، واشتروا أرضًا جهة المويلح وما حولها مع العلم بأن قوانين الدولة العثمانية كانت تمنع بيع الأراضى فى شبه الجزيرة العربية . وقد أساء فريدمان وجماعته معاملة الأهالى هناك . وأثار ذلك العمل غيظ السلطان العثمانى فاتخذ إجراءين :

١ – طرد فريدمان وجماعته الصهيونية خارج الإمبراطورية العثمانية .

---

(١) أحمد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، ص ص ١٠ – ١٢ ، انظر أيضًا فيليب بن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » ، م ٦ ، ص ٧٥٩ .

(٢) جريدة المقطم ، العدد ٥١٩٥ بتاريخ الثلاثاء ٢ مايو ١٩٠٦م الموافق ٩ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .

(٣) أحمد شفيق باشا « مذكراتى فى نصف قرن » الجزء الثانى ، ص ص ١٢ – ١٣ .

٢ - إدخـــال تعديـــلات عـــلى حدود مصر بعد موت الخديو توفيق فى ٧ يناير ١٨٩٢ . ولذلـــك حرم فرمان تولية الخديو عباس الثانى الصادر فى ١٧ يناير ١٨٩٢ مصر ليس فقط من إدارة المراكز التى كانت ممنوحة لها شرق خليج العقبة ، وإنما أيضًا من قسم من أرضها ، وهو شبه جزيرة سيناء . ولذلك ، ثارت ثائرة مصر والاستعمار الـــبريطانى لأن هـــذا العمـــل كان معناه العدوان على تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ التى ضمنتها الدول الكبرى فى مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وفرمان ١٣ فبراير ١٨٤١[(١)] .

وبذلـــك ، اقتربت الدولة العثمانية بصورة خطيرة من قناة السويس ؛ الأمر الذى يهـــدد شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية . كما أن اللورد كرومر خاف أن تتمكن الدولـــة العثمانـــية بهذا الاقتراب من إثارة المشاكل السياسية فى مصر . ولذلك استقر الرأى على إبعادها قدر الإمكان عن مصر وعن قناة السويس[(٢)] . ومن ثم اتخذ اللورد كرومـــر المعتمد البريطانى فى مصر موقفًا صلبًا فى هذا الخصوص ، وأوعز بعدم تلاوة الفرمان حتى يأتى تعديل من القسطنطينية يعيد لمصر شبه جزيرة سيناء التى حاولت تســـلخها مـــنها الدولة العثمانية وتضمها إلى ولاية الحجاز . وبالفعل تقرر إعادة شبه جزيـــرة سيناء لمصر فى برقية أرسلها جواد باشا الصدر الأعظم إلى الخديو عباس الثانى يـــوم ٨ أبـــريل ١٨٩٢ جاء فيها : « أما من جهة شبه جزيرة سيناء فهى باقية على حالـــتها ، وتكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية التى كانت مدارة بها فى عهد جدكم إسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا . أما الأراضى التى تقع بين العقبة والوجه فقد ضمت إلى ولاية الحجاز نظرًا لأنها لم تعد فى طريق المحمل المصرى الشريف »[(٣)] .

---

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ص ١١٣ - ١١٤ ، انظر كذلك : أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .

(2) Mariolile, j. (Cromer in Egypt), Elek looks, London 1970, P.264, see also, رشدى باشا ، « مسألة العقبة » ، ص ٩ .

(٣) فيليـــب بـــن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » ، م٦ ، ص ٧٥٩ ، انظر كذلك : خيرية قاسمـــية ، « قضـــية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، مجلة شئون فلسطينية ، عدد ٥ نوفمبر ١٩٧١، ص ١٦٦ .

وأصبحت تلك البرقية مكملة لفرمان تولية الخديو عباس الثانى ، وقد نشرها اللورد كرومــر عــلى العالم . وحتى لا يحدث أى لبس بخصوص تلك البرقية المكملة لفرمان التولية ، أرسل اللورد كرومر بمذكرة فى ١٣ أبريل ١٨٩٢ إلى وزير الخارجية المصرى تــيجران باشا جاء فيها : « إن برقية الصدر الأعظم التى تفضلتم باطلاعى عليها تجعل مــن الواضح أن شبه جزيرة سيناء - وهى الأراضى المحددة من الشرق بخط يسير فى اتجــاه جنوبى شرقى من نقطة قريبة من شرق العريش إلى رأس خليج العقبة - سوف تظل تحت الإدارة المصرية ، وأن قلعة العقبة الواقعة شرق هذا الخط سوف تبقى قسمًا من ولاية الحجاز »[١] .

ونشــرت كل هذه الوثائق فى جريدة الوقائع المصرية بتاريخ ١٤ أبريل ١٨٩٢ . وأحيطت دول العالم التى كانت ضامنة لاتفاقية لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ ، فرنسا وروســيا وإنجلــترا والنمسا وروسيا ، بكل هذه الإجراءات وكذلك الباب العالى . وردت هذه الدول بالموافقة ، أما السلطان فلم يعترض على شيء[٢] .

وهكــذا نجد أن الأراضى التى تقع غرب العقبة وضمنها قرية « أم الرشرش » هى أراضٍ مصــرية تكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية ، وأصبح معروفًا أن الحد الفاصل بين سيناء والأملاك العثمانية هو « خط يمتد من نقطة شرقى العريش بمسافة ٢٨ ميلاً هــى رفح يتجه جنوبًا بشرق حتى ينتهى إلى قلعة العقبة على خليج العقبة ، فما وقع غربى هذا الخط تكون إدارته منوطة بالخديوية المصرية »[٣] .

---

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ١١٥، انظر كذلك: فيليــب بــن يوسف جلاد ، «قاموس الإدارة والقضاء »، م ٦ ص ٧٦٠، نعوم بك شقير ، المرجع السابق ص ص ٥٨٨ - ٥٨٩ .

(٢) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ١١٦ .

(٣) جريدة المقطم ، العدد ٥١٩٦ بتاريخ ٣ مايو ١٩٠٦ ، الموافق ٨ ربيع الأول ١٣٢٤هـــ .

واعتبر مشروع فريدمان السبب المباشر لنشوب نزاع الحدود بين مصر وتركيا عام ١٨٩٢ ، فقد أثار هذا المشروع الشكوك فى ذهن السلطان بأن اليهود المتوطنين خارج حدود السلطنة سوف يستخدمون هذا المكان كنقطة انطلاق نحو فلسطين وإنشاء دولة يهودية - وأراد السلطان أن ينتهز الظروف لحسم مسألة الحدود الفاصلة بين الأراضى المصرية وسائر ولايات السلطنة العثمانية، لأنه منذ فرمان ١٨٤١ لم يجر تحديدًا قاطعًا، واتجه الرأى فى الآستانة على عدم ترك شىء لمصر خارج حدودها الأصلية « خشية أن تكــون هــذه الجهات يومًا ما محلاً لنفوذ غير وطنى ولا إسلامى فيه .. ولا سيما وأن خليج العقبة من الممهدات إلى بلاد فلسطين »[١] .

ومن الجدير بالذكر أن إنجلترا والدول المتحالفة معها التى وقعت على معاهدة لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠م ، والضامنة لتنفيذ الفرمان السلطانى الصادر إلى محمد على فى ١٣ فــبراير سنة ١٨٤١م بخصوص حكم مصر ، لم تتدخل فى شئون مصر عندما رفض محمد على تحديد الحدود المصرية الشرقية كما جاء فى فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١، وجعل حد مصر الشرقى من رفح حتى جنوب قلعة الوجه . أما فى عهد عباس حلمى «عــباس الــثانى» فإن إنجلترا تدخلت عندما أراد الباب العالى سلخ جزء من سيناء ، وحرضت بعض الدول الكبرى كفرنسا وروسيا ، خوفًا على قناة السويس وعلى مصر التى تحتلها بالطبع[٢] .

أحســت الدولــة العثمانــية بأن ذراعيها قد لويتا ، عندما ضغطت عليها إنجلترا لتصــحيح الوضــع بالنسبة لفرمان تولية العرش الذى صدر إلى عباس حلمى باشا ، فأصدرت برقية الصدر الأعظم التى صححت الوضع بالنسبة لشبه جزيرة سيناء . وهذا الوضــع يعتبر وضعًا مهينًا بالنسبة لدولة الخلافة الإسلامية وبالنسبة للسلطان العثمانى

---

(١) جــريدة المؤيــد ، عــدد يوم ٢٤ أبريل ١٨٩٢ ، انظر كذلك : جريدة المقطم ، عدد يوم ٦ أبريل ١٨٩٢، أحمــد فــؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر من واقع كتابات المسئولين عن الأحداث »، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٦٧ .

خليفة المسلمين .. مما جعل الأوضاع فى هذه المنطقة الحدودية تنذر بالخطر ، لوجود ثلاث قوى فيها هى[١] :

١ - مصر صاحبة الحق فى أراضيها .

٢ - إنجلترا ، دولة الاستعمار صاحبة القوة والبطش .

٣ - الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية ، وصاحبة السيادة على ولاياتها .

فمصر تريد حقها كاملاً فى سيطرتها على كامل أراضيها دون انتقاص من حدودها التاريخية والطبيعية .

وإنجلترا تريد تأمين الحدود الشرقية لمصر تأمينًا كاملاً ، تحسبًا للأخطار المرتقبة فى المستقبل على قناة السويس ، شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية . وتود أن تقيم الاستحكامات المنيعة فى منطقة طابا وما حولها ضمانًا وأمانًا .

والدولة العثمانية تريد أن تسترجع هيبتها التى ضاعت منذ عهد محمد على باشا ، وسيطرتها الفعلية على مقدرات الأمور فى مصر لترسم سياستها كما ترى هى لا كما يرى المصريون . تريد تبعية فعلية لا اسمية . تريد تقوية قبضتها من آن لآخر على مصر. لذلك فهى ترى أن مطالبة مصر أو إنجلترا برسم خط الحدود الشرقية لمصر يعتبر تعديًا على سيادتها ، من دولة تابعة لها وهى مصر التى تشغل جزءًا من إمبراطورية يحكمها خليفة المسلمين ، أو من دولة استعمارية محتلة كإنجلترا التى تحتل إحدى الولايات الهامة للدولة العثمانية . ولا يمكن رسم خط الحدود والحالة هذه ، لأن الإمبراطورية كل يتبع السلطان العثمانى ولا يمكن أن يتجزأ أبدًا . ولا يشغل مساحة الإمبراطورية إلا دولة واحدة حاكمة ومسيطرة هى الدولة العثمانية وسلطان واحد هو السلطان العثمانى ، وما الخديو إلا وال تابع ، ينبغى أن تسير تصرفاته وأعماله فى فلك الحكم العثمانى ، وتحت سيطرة السلطان وتوجيهاته وأوامره . فمع من ترسم الحدود على حد قول الصدر الأعظم مرارًا[٢] ؟

---

(١) المصدر السابق ، ص ص ٨٦ - ٩٦ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٦٨ - ٩٦ .

ويتضـح مـن فـرمان اعتلاء العرش الذى صدر لعباس حلمى باشا ، أن الدولة العثمانـية كانت تريد الاقتراب من قناة السويس بأى شكل من الأشكال كى تتمكن مـن نقل معداتها العسكرية إلى المناطق البعيدة . وتود إحكام السيطرة على الأراضى البعـيدة الـتابعة لها فى منطقة البحر الأحمر والخليج[١] .كما تهدف إلى تأمين الأماكن المقدسـة فى القـدس وفى الحجاز . وكانت تريد أيضًا إبعاد مصر وإنجلترا عن العقبة حيث تخطط لمد خط السكك الحديدية من معان إلى العقبة بعد أن وصل خط الحجاز من إستنبول حتى المدينة المنورة[٢] .

ونسـتطيع هـنا أن نسـتخلص نتـيجة هامة من جراء أزمة فرمان تولية العرش لعـباس حـلمى باشـا ، وهـى أن هـذا الحدث « فتح أعين الدبلوماسية المصرية والدبلوماسية البريطانية على ضرورة مراقبة تحركات الدولة العثمانية عند حدود مصر الشرقية »[٣] .

حادث المرشش

هدأت الأوضاع على الحدود ، ونامت المسألة نومًا طبيعيًا ، إلى أن عين الكولونيل برامـلى BRAMLY الإنجليزى مفتشًا على شبه جزيرة سيناء سنة ١٩٠٥[٤] . وشرع المستر براملى فى الإصلاح الإدارى ، وكان ضمن هذا الإصلاح تنظيم البوليس الأهلى وتقسمته إلى هجانة ومشاة وإقامة سد فى بطن وادى العريش قرب نخل لرى الأراضى المجـاورة لهـا . فأشاعت بعض الجرائد المحلية المعادية للاحتلال خبرًا مؤداه أن الإنجليز أرسـلوا رجالهم إلى سيناء ليبنوا القلاع على حدودها وفى النفس شيء ، فبعث والى

(١) أورخان محمد على « السلطان عبد الحميد الثانى » الكويت ١٩٩١، ص ٢٦٦ .

(٢) السـلطان عـبد الحمـيد الثانى « مذكراتى السياسية ١٨٩١ – ١٩٠٨» ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٧، ص ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٣) أحمد أمين عامر « أزمة طابا وانعكاساتها على الدبلوماسية المصرية » ، مجلة السياسة .

(٤) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٧١ .

سوريا برسالة برقية بهذا المعنى إلى السلطان العثمانى فطلب من مصر رجوع العساكر الإنجليزية عن الحدود فأجابته مصر بكذب هذه الإشاعة[١] .

ثم بلغ مصر أن السلطان أمر بإنشاء نقطة عسكرية عند عين القصيمة وأخرى عند مشاش الكنتلا فى وادى الجرافى وكلا المحلين داخل فى حد سيناء . وكان السلطان قد أنشأ قائمقامية جديدة سنة ١٨٩٩ فى بئر سبع . فأخذت مصر ترقب حركاته على الحدود بعين ساهرة[٢] .

وفى يناير ١٩٠٦ أصدرت الحكومة المصرية أوامرها إلى المستر براملى مفتش شبه جزيرة سيناء ، بوضع خفر من البوليس فى نقب العقبة لمراقبة الحدود ، فذهب المستر براملى ببعض رجال البوليس إلى رأس النقب . ولما لم يجد فيه الماء الكافى نزل إلى المرشش « أم رشرش » فى سفح النقب على الجانب الغربى من رأس خليج العقبة[٣] .

ولما علم البكباشى صدقى أفندى قائد العقبة بالخبر ، توجه إلى براملى بعد أن وصل إليه رسولان من قبله يطلبان السماح لبراملى بمقابلته . وقد أفاد براملى بصورة قاطعة بأنه جاء لإقامة معسكر للجنود فى المنطقة المذكورة ، طبقًا للأوامر التى تلقاها من سردار مصر « حاكم مصر العام » . وذكر أن المناطق الممتدة من خليج العقبة حتى البحر الأبيض تابعة لمصر ، وهى المرشش وأم البيان وغديان ونقب العكفى وكونتلة الجرافى والقسيمة وعجرود وخان يونس[٤] .

وكان براملى بك قائمًا فى خيمته فى المرشش ، وجنود حرس الحدود «الجندرمه» الذين فى معيته فى خيمة أخرى ضربت على حدة. فتقابل معه رشدى باشا وقال له: إن المنطقة التى يقيم فيها منطقة تابعة لإدارة الحكومة السنية مباشرة . ولن يسمح

---

(١) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٨٩ .

(٢) نعوم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ٥٨٩ .

(٣) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٨٩ .

(٤) رشدى باشا « مسألة العقبة » ، ص ٢٥٥. وكان رشدى باشا يشغل منصب قومندان العقبة التركى أى محافظ العقبة أو الحاكم العسكرى للعقبة .

لـــه بإنشـــاء مركز الحراسة الذى أراده . ونصحه رشدى باشا بأن ينهى المشكلة فى مصر[١] .

وهكذا بدأت المشكلة بهذه الصورة . وقد طلبت الدولة العلية العثمانية ضم معظم بـــلاد التـــيه إلى سوريا وذلك برسم خط من العريش إلى السويس ومن هذه إلى نقب العقـــبة بحيث يكون شرق هذا الخط لها والباقى لمصر . ولما رفضت مصر النظر فى هذا الطلـــب عـــادت الدولة العثمانية فطلبت قسمة جزيرة سيناء قسمين بخط مستقيم من العريش إلى رأس محمد وجعل القسم الغربى لمصر والشرقى للدولة العثمانية فأبت مصر الـــنظر فى هذا الطلب أيضًا وأصرت على الخط الذى يخوله فرمان تولية عباس حلمى باشا[٢] وبرقية الصدر الأعظم جواد باشا من رفح إلى العقبة[٣] .

أزمة خليج العقبة – طابا سنة ١٩٠٦

تأزمـــت الأمور مرة ثانية بين الإمبراطورية العثمانية ومصر على الحدود المصرية فى شـــتاء ســـنة ١٩٠٦. ويرجع ذلك إلى رغبة الدولة العلية العثمانية فى الاستيلاء على خليج العقبة وتحويله إلى بحر مغلق فى أيدى الدولة العثمانية . وإبعاد مصر عن مداخله وســـاحله الغربى . وكذلك رغبة من الدولة العثمانية فى مد فرع من خط سكة حديد الحجـــاز الـــذى كـــان مزمعًا مده آنذاك من معان إلى العقبة ، وبالتالى زحزحة الحد السياسى المصرى غربًا مما يضيع على القوات المصرية أو قوات الاحتلال البريطانى اتخاذ سيناء كقاعدة لتهديد هذا الخط[٤] .

ونتـــيجة لهـــذا احتلت الدولة العثمانية طابا ، ونقب العقبة ، والقطار وهى ضمن الأراضـــى المصرية الأمر الذى فجر أزمة طابا سنة ١٩٠٦ . وبرر الغازى أحمد مختار

---

(١) المصدر السابق ، ص ص ٢٠ – ٢١ .

(٢) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٩٤ .

(٣) جـــريدة المقطم ، العدد ٥١٢٩ بتاريخ الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٩٠٦ الموافق ١٩ من ذى الحجة سنة ١٣٢٣هـــ .

(٤) محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين » ، ص ١١٦ .

باشا «المعتمد من الدولة العثمانية فى مصر » احتلال تركيا لطابا فى مذكرة مطولة بعث بها إلى بطرس غالى باشا ناظر الخارجية المصرية بالآتى : « موقع طابا المختلف عليه والداخل فى شبه الجزيرة إن كانت إدارته لمصر فإن مرور فرع خط السكة الحديد الحجازية من العقبة يجعل منه ميناء بالخليج وأن سواحل الميناء لا تكون فى يد إدارتين . ومع أن الملكية للدولة فإن كل ما هناك هو عبارة عن ساحة جبلية صخرية لا تنفع بشىء ، وإن ترك إدارتها للدولة لن يضر ذلك مصر فى شىء »(١) .

ورفضت مصر ومعها إنجلترا هذا العمل وتلك الإجراءات . وأن اللورد كرومر الذى اتخذا موقفًا صلبًا بخصوص حدود مصر الشرقية وقت أزمة الفرمان لم يتهاون مرة ثانية فى هذا الموضوع . فلو قبلت مصر تلك الادعاءات التركية لتنازلت عن حقوق مصرية تاريخية مقررة على الساحل الغربى لخليج العقبة . ولو رضيت إنجلترا بالادعاءات التركية لأصبحت الدولة العثمانية فى مركز اقتراب تستطيع أن تهدد منه ، بصورة خطيرة ، قناة السويس شريان حياة الإمبراطورية البريطانية(٢) .

وبينما الأحداث توالى تطورها فى منطقة الحدود الشرقية ، قدم القومسير التركى فى مصر أحمد مختار باشا تقريرًا مطولاً لوزير الخارجية المصرية بطرس غالى باشا عن المشكلة برمتها فى ١١ أبريل سنة ١٩٠٦م . وهذا التقرير يحمل بين طياته ، وجهة النظر التركية التى أرسلت من إستنبول بناء على المعلومات الواردة من أحمد مختار باشا ومن قومندان العقبة رشدى باشا ، وتتلخص فى الآتى(٣) :

– إن حد مصر هو من العريش إلى السويس . وكل الأراضى الواقعة فى شرقه هى لولاية الحجاز وسوريا . ولم يكن فى الأمر معاهدة دولية بخصوص ذلك .

---

(١) أحمد شفيق ، «مذكراتى فى نصف القرن» ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٨٢ .
(٢) محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين » ، ص ١١٧ .
(٣) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ١٣٢ – ١٤٣ ، تقرير المعتمد التركى أحمد مختار باشا المقدم للحكومة المصرية ، انظر كذلك : إبراهيم أمين غالى ، « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ، ص ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

– إن شبه جزيرة سيناء تركت لمصر بصفة أمانة تسترد عند اللزوم وحان الوقت لاستردادها .

– إن خليج العقبة وشبه جزيرة سيناء خارج المنطقة التى حددها فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١م . وإن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ تشير فقط إلى القسم الغربى من شبه جزيرة سيناء الواقع إلى الغرب من الخط الممتد من العريش إلى السويس .

– إن تفسير هذه البرقية هو وفقًا لرغبة الحكومة التركية . وإن العقبة هى عاصمة متصرفية العقبة .

– للدولة العثمانية الحق فى إرسال عساكر شاهانية كل يوم حتى السويس .

– طابا وغيرها من المراكز التى احتلتها القوات التركية تقع ضمن أراضى الدولة العثمانية . وإن كان هناك عدوان فهو عدوان مصر عليها(١) .

– بالرغم من أن الملكية للدولة العثمانية ، فإن الموقع المتنازع عليه عبارة عن مساحة جبلية صخرية ، لا تنفع بشىء وترك إدارتها للدولة العثمانية لا يضر مصر بشىء .

– حق الكلام هو لسمو الخديو وحده ، وليس لبريطانيا .

وهكذا كشف الباب العالى كل أوراقه بتقديمه المذكرة إلى وزارة الخارجية المصرية. فاتضح أن المطامع التركية تتعدى بكثير موقع طابا . وترمى إلى الاعتراف للسلطان بحق استرداد جزء من سيناء أو شبه الجزيرة بأسرها إذا ما ترائى له ذلك(٢) .

ورأت إنجلترا أنها احتلت مصر وشبه جزيرة سيناء تابعة لها ، ولابد وأن تظل كذلك طالما بقيت إنجلترا فى مصر . ولابد وأن تكون حدود مصر مستقرة كما كانت وغير متنازع عليها كما كان الحال قبل الاحتلال البريطانى لمصر(٣) وإن إنجلترا لن تعرض حد مصر الشرقى ، وأمن قناة السويس وأمن مصر للتحكيم الدولى . وأنها تفضل حل النزاع بطريق المفاوضات وإنما بشرط أن تجلو القوات التركية أولاً عن المراكز المصرية التى احتلتها فى شبه جزيرة سيناء ، وأن السلطان التركى ليس حرًا فى

---

(1) Parliamentary Debates, vol – 156, May 7, 1906, pp. 917-919.

(٢) إبراهيم أمين غالى « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، ص ٤٢٠ .

(3) Parliamentary Debates, vol. 156, May 7, 1906, p. 919.

تفســير فرمان سنة ١٨٩٢ والبرقية المكملة لــه حسب هواه[١] . وأن القبول بمطالب السـلطان والسـكوت علـيها معناه تهديد الملاحة فى قناة السويس ، وحرية مصر ، ومستقبل الأسرة الخديوية فى مصر .

ولمـا اطلع الخديو عباس حلمى على تقرير المعتمد التركى أحمد مختار ، تباحث مع رئـيس الوزراء مصطفى فهمى باشا ووزير الخارجية بطرس غالى باشا فيما جاء فيه، وبعـد تباحث رئيس الوزراء ووزير الخارجية مع اللورد كرومر ، قدما للخديو تقريراً منه بوجوب حفظ حقوق مصر فى سيناء[٢] .

وفى الـيوم الـتالى ١٤ أبـريل ١٩٠٦ بعث الخديو عباس برسالة سرية للصدارة العظمـى يحتج على ما ورد فى التقرير ويقول : لا يمكن قبول ما جاء فى التقرير لأنه يـتجاوز حقوق مصر ، التى تتلخص فى أن الحدود المصرية فى شبه جزيرة سيناء تنتهى فى العقبة ، ويدخل فى هذا التحديد موقع طابا كما ورد فى برقية الصدر الأعظم جواد باشا فى ٨ أبريل ١٨٩٢ والتى تعتبر أساسًا للمفاوضات[٣] .

وعـلى أثر وصول هذه الرسالة للآستانة ، جاء الرد فى ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٦ بما يفيد أنه صرح لإدارة المصرية بإنشاء نقاط حراسة عسكرية على طريق الحج بين العقبة والوجـه . وبما أن هذه الأماكن لم تدخل فى خريطة التحديد المصرية المرفقة بالفرمان الصـادر لمحمد على باشا ، فقد وجد من الضرورة إعادة هذه المناطق لولاية الحجاز . أمـا شـبه جزيرة سيناء فتبقى على ما كانت عليه أيام محمد على باشا وإسماعيل باشا ومحمد توفيق باشا[٤] .

---

(1) Parliamentary Debates, vol. 155, April 2, 1906, p. 169.

(٢) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ص ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) أحمـد شفيق باشا « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ، ص ص ٨٣ — ٨٤ ، انظر كذلك ، إبراهيم أمين غالى ، « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، ص ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، انظر : نـص رسـالة الخديـو عباس إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٠٦ والتى تحدد وجهة نظـر الحكومـة المصـرية بشـأن حدود مصر الفاصلة بينها وبين الأملاك العثمانية « نص الرسالة باللغة الإنجليزية » .

(٤) أحمد شفيق باشا « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ، ص ٨٤ .

ثم وردت رسالة خاصة من الباب العالى إلى الخديو عباس حلمى باشا تطلب منه الاطلاع على الفرمان الصادر لمحمد على باشا والخريطة المرفقة التى توضح حدود مصر، لكى لا يكون هناك أدنى شك أو تردد أو تدخل أجنبى والمقصود به تدخل بريطانيا فى المشكلة[١] .

وتقرر سفر أحمد شفيق باشا إلى إستنبول لحل مشكلة طابا حيث سافر يوم ١١ أبريل سنة ١٩٠٦ ومعه ملف بصور جميع المكاتبات والوثائق المتعلقة بمسألة طابا . وقد وعد الصدر الأعظم أن الدولة العثمانية تجرى اللازم لإنهاء الأزمة . أما موقف السفير الإنجليزى ، فإنه يعكس وجهة نظر حكومته فى ضرورة إخلاء طابا أولاً من الجنود العثمانيين ثم البدء فى ذلك فى التفاوض لتخطيط الحدود . وعاد أحمد شفيق إلى مصر فى ٢٨ يونيو ١٩٠٦ صفر اليدين دون أن يصل إلى حل لمشكلة طابا[٢] .

حادث رفح

أرسلت الدولة العثمانية نفرًا من الجنود لاحتلال رفح بعد أن احتلوا طابا . فأزالوا عمودى الحدود من مكانهما تحت السدرة فى ١٢ أبريل سنة ١٩٠٦ بعد أن تقرر سفر أحمد شفيق باشا إلى إستنبول لحل المشكلة . واقتلعوا عمد التلغراف المصرى بين بئر رفح وطريق بئر الرفيح فى ٢٨ أبريل ، وجعلوا مكانها عمدًا تركية . ونصبوا خيامهم فى حد مصر بين السدرة وطريق رفيح[٣] .

ويذكر رشدى باشا أن إنجلترا استغلت هذا الحادث استغلالاً جيدًا ، حيث استخدمته فى تقوية موقف مصر من مشكلة العقبة[٤] . ورفض الخديو عباس حلمى باشا بإيعاز من اللورد كرومر مطالب الدولة العثمانية الخاصة بالحدود والسابق ذكرها ، وأرسل رده إلى السلطان وجاء فيه : « إن الأساس الصالح للحدود هو برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ . وإنه إذا ما كانت هناك بعض البقاع المعينة مشكوك فى وضعها فيمكن أن يمسح المهندسون خط الحدود بين رفح والعقبة . وبدلاً من أن ينتهى هذا

---

(١) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ، ص ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) أحمد فؤا متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٣) نعوم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ٥٦٤ .

(٤) رشدى باشا « مسألة العقبة » ، ص ٧٨ .

الخـــط عند قلعة العقبة يمكن أن يسير إلى نقطة على ساحل الخليج تبعد ما لا يقل عن ثلاثـــة أميال إلى غرب القلعة . وختم برقيته بأن طابا على اقتراحه تقع ضمن الأراضى المصـــرية، وبالتالى يجب أن تنسحب منها قوات الدولة العثمانية فورًا حتى يتسنى بدء المفاوضـــات مـــع الدولة العلية »[١] . وبذلك نجد أن أم الرشرش تقع داخل الحدود المصرية .

واعـــترض السلطان العثمانى على ذلك وقال : إن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ المكملة لفـــرمان تولية الخديو عباس حلمى الثانى تشير فقط إلى القسم الغربى من شبه جزيرة سيناء[٢] .

زاد حـــادث رفح من غضب الإنجليز ، فقرروا وضع حد لمشكلة الحدود ، وذلك باســـتعمال الـــتهديد حيث أرسلوا إنذارًا بواسطة السفير البريطانى فى إتنبول نيقولاس أوكونـــور إلى وزير الخارجية التركى توفيق باشا يوم ٣ مايو ١٩٠٦ للجلاء عن طابا وتحديـــد خـــط الحدود بين رفح حتى رأس خليج العقبة على أن يتم قبول ذلك خلال عشرة أيام وتهديد بعواقب الامتناع عن التنفيذ[٣] .

كانـــت أول ردود الفعـــل التركية للإنذار البريطانى أن أرســـل السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى «نجيب باشا» كمبعوث خاص له صباح يوم ٥ مايو سنة ١٩٠٦ إلى الســـفير الـــبريطانى فى إستنبول نيكولاس أوكونور برسالة يجدد فيها تأكيداته باحترام برقـــية ٨ أبريل ١٨٩٢، وبأنه لا يدعى أى شيء غرب خليج العقبة . وقد رد السير أوكونور على ذلك بأنه على السلطان أولاً وضع هذه التأكيدات موضع التنفيذ بالجلاء عن طابا وتعيين الحدود بين سيناء وولاية الحجاز[٤] .

---

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين » ، ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(2) F.O, No. 372, Sir Telilfik to Sir N. Oconor, 17 may 1906.

(3) F.O, No. 163, Sir N. Oconor to Sir Eduard Grey, May 3. 1906.

(4) Oconor to Grey, May 5, 1906 (Tel. No. 38) corres. No. 138.

ورفعـــت بريطانـــيا كل المحاولات العثمانية التى تهدف إلى إصدار بريطانيا تصريحًا بســيادة الســلطان عــلى مصر[١] . وقد رأت إستنبول بعد ذلك أن تغير من أسلوبها السياسى ؛ فقامت بمحاولة يائسة لإبعاد البريطانيين تمامًا عن ميدان الصراع على اعتبار أن المســألة تخص مصر والدولة العثمانية وحدهما . وعلى هذا الأساس أرسل الصدر الأعظــم برقية إلى الخديو فى ٧ مايو ١٩٠٦ يطلب منه التفاهم مع مختار باشا بصورة مباشرة بشأن مسألة الحدود . وكان مما جاء فى هذه البرقية « أن وضع إنجلترا فى مصر يعــتمد كمــا هو معروف على الاحتلال العسكرى فى البلاد ، وأن تدخلها فى تلك المســألة لا يصــح فهى من اختصاصك وحدك . وحيث إن السلطان قد أسند إدارة الأراضى المصرية إليكم ، فهو يرجوكم ألا تمكنوا أية قوة أجنبية من التدخل[٢] .

وقد بعث الخديو – بناء على نصيحة كرومر – بالرد على برقية الصدر الأعظم ، بأنه ليس لديه ما يضيفه إلى آرائه السابقة فى الرد على هذا الموضوع[٣] .

وقبل أن تنقضى الأيام العشرة للإنذار جاء رد الصدر الأعظم توفيق باشا بعد ثمانية أيام أى فى ١١ مايو سنة ١٩٠٦، يؤكد على سعادته تلقى الرسالة . وينفى الشبهات التى تحوم حول قيام الجنود العثمانيين بشغل طابا . ويقرر إعادتهم إلى أماكنهم الأولى . ويبدى موافقته على بحث الموضوع من جانب المسئولين المصريين والعثمانيين[٤] .

ويــبدو من هذا الرد أن الدولة العثمانية بدأت تحسب للأمور حسابها ، وأخذت تتوقع رد فعل عنيف إذا هى ترددت أو رفضت ما يطلب منها . وأصبحت تعلق تأزم الموقف على تصلب رشدى باشا وتصرفاته على الحدود[٥] .

---

(1) Corres. No 199, coromer to grey, may 10, 1906 (Tel. No. 104)

(2) Corres. No 179, O conor to grey, may 9, 1906 (Tel. No. 96)

(3) Corres. No 181, cromer to grey, mg 9, 1906 (Tel. No. 147)

(٤) رشدى باشا ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٥) رشدى باشا « مسألة العقبة » ، ص ٦٥ .

كما اشتد غضب بعض الصحف اليومية فى مصر فى تلك الآونة من الباب العالى الذى يدعى أن جزءًا من سيناء لا يتبع مصر ويود سلخه منها عن طريق الفرمانات المتوالية التى يحدد فيها حدود مصر الشرقية . وقد اتضح ذلك بنوع خاص فى جريدة المقطم التى أخذت تؤكد على مصرية سيناء بكاملها(١) .

ارتأت الحكومة البريطانية أن ترسل مذكرة أخرى فى ١٢ مايو سنة ١٩٠٦م قبل يوم واحد من انتهاء مهلة مذكرة التهديد والوعيد الأولى المؤرخة فى ٣ مايو سنة ١٩٠٦. فقام أوكونور بمخاطبة الصدر الأعظم توفيق باشا بمذكرة تؤكد على خط الحدود الذى يبدأ من رفح شمالاً إلى العقبة جنوبًا . وتنبه إلى عدم استعمال تعبيرات غامضة فى المباحثات فى المستقبل كما حدث من قبل فى مشكلة طابا عند بداية ظهورها(٢) .

ولكن السلطان العثمانى أقر بعد ذلك بالحقوق المصرية المشروعة . واعترفت الحكومة العلية فى رسالة بعث بها الصدر الأعظم توفيق باشا إلى سفير إنجلترا باستنبول سير نيقولاس أوكونور ١٩٠٦ بأنه لم يخطر قط ببال الحكومة الشاهانية الخروج عن مضمون البرقية المرسلة من المرحوم جواد باشا إلى سمو الخديو فى ٨ أبريل ١٨٩٢ وإن إخلاء طابا قد تقرر وخرجت العساكر التركية من طابا ، وعاد عساكر رفح إلى حدهم ، وأقام قائمقام بئر سبع عمودين من خرائب رفح ونصبهما تحت السدرة مكان العمودين الأولين علامة على الحدود المصرية الفلسطينية(٣) . ويتضح من هذه المذكرة أن الحكومة البريطانية أصبحت على علم تام بانسحاب الجنود العثمانيين من طابا . ولذلك طالبت فى هذه المذكرة بتطبيق البند الثانى من مذكرة التهديد الأولى التى أرسلت بتاريخ ٣ مايو ١٩٠٦ . وهو تحديد خط الحدود من رفح شمالاً إلى العقبة جنوبًا . وقد استقر الرأى على أن الضباط أركان حرب الموجودين الآن فى العقبة

---

(١) المقطم ، العدد ٥٢٠١، الصادر فى يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٠٦ ، الموافق ١٦ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .

(٢) رشدى باشا ، المصدر السابق ، ص ص ٩٤ — ٩٥ .

(3) F. O; No. 372, Sir Tewfik to Sir N. Oconor, 14 May 1906.

انظر كذلك : نعوم بك شقير ، المرجع السابق ، ص ص ٦٠٢ – ٦٠٣ .

والموظفـــين الذين ينتدبون من قبل سمو الخديو يمرون معًا على الأمكنة اللازمة ليجروا الـــتحريات الفنـــية عـــلى مقتضى القواعد الطبوغرافية ويعينوا على خريطة — النقط الطبيعـــية الـــتى يكون بها ضمان الحال الحاضرة وبقاء القديم على قدمه فى شبه جزيرة سيناء على القاعدة التى وضعها جواد باشا فى برقيته السالفة الذكر . وأن يرسموا خطًا لـــلحدود يبتدئ من رفح بقرب العريش ويتجه جنوبًا بشرق على خط مستقيم تقريبًا إلى نقطة على خليج العقبة تبعد على الأقل ٣ أميال من العقبة(١) .

وتكونـــت اللجـــنة المصرية التى اشتركت مع نظيرتها التركية لتعيين خط الحدود برياسة الأميرالاى أوين مدير المخابرات ، اللواء إبراهيم فتحى ، ونعوم شقير سكرتيرًا لهـــا بمقتضـــى أمر صادر من الخديو فى ٢٢ مارس ١٩٠٦ . وصحب اللجنة كل من كيلـــنج Keeling ، وويد Wade وهما مهندسان إنجليزيان فى قلم المساحة المصرية من أجـــل رسم خريطة فنية للحدود من العقبة إلى رفح . وقد سمح للجنة بإدخال تغييرات طفـــيفة عـــلى مســـار الحد وفقًا للظروف الطبيعية وتمشيًا مع الأحوال البشـــرية . وتجـــــدر الإشـــارة هنا أن الظروف الطبوغرافية والبشرية قد تسمح أحيانًا بحدوث انحـــرافات فى مسار الحد لخلق حد ســـياسى مناسب . ويكون الانحراف فى حـــدود ١ كيلومـــتر (٠,٦٢ مـــيل) وأحيانًا ينص على أن الانحراف لابد وأن يكون متساوى المساحة على الجانبين(٢) .

تحـــرك أعضاء اللجنة المصرية من مصر يوم الخميس ٢٤ مايو ١٩٠٦ . قاصدين العقـــبة بطريق البحر ، فوصلوا جزيرة فرعون مساء السبت ٢٦ مايو من نفس العام . وفى صـــباح اليوم التالى ذهبت اللجنة إلى العقبة . وكان لابد للجنة المصرية قبل ترك العقـــبة من تعيين نقطة على خليج العقبة تكون مبدأ الخط الذى تسير عليه . فاتفقت عـــلى أن يكون مبدؤه المرشش التى تبعد ٣/٤ ٣ ميل من قلعة العقبة . وخمنت موقع رفح تخمينًا من الخرائط التى بأيديها . ورسمت بين المكانين خطًا تقريبيًا اتخذته دليلاً لها

---

(1) Parliamentary Debates, Vol. 157, May 14, 1906, pp. 98 - 99 .

(2) East, G. And J.R.V. Prescott, «our fragmented word».

لتعيين جهة السير على الحدود . فجعلت أول محطة لها المفرق عند رأس النقب ، فوصلته عصر يوم ٤ يونيو ١٩٠٦. وقد استخدمت اللجنة المصرية مائة جمل ، يخفرها اثنا عشر من هجانة خفر السواحل[١] .

وفى اليوم التالى لحق مندوبا اللجنة التركية : « الأميرالاى أحمد مظفر بك ، والبكباشى محمد فهمى بك » باللجنة المصرية . وفى ٧ يونيو سنة ١٩٠٦ سار المهندسان فى المقدمة على الخط المستقيم التخمينى يعينان مواقع الجبال والأمكنة البارزة على جانب الخط بالأرصاد الفلكية ، ويرسمان خريطة الطريق . ومازال الجمع سائرًا حتى وصل إلى رفح فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦. وكان فى انتظارهما هناك المستر هيس أحد موظفى قلم المساحة . فرسموا خريطة للحدود عبارة عن خط مستقيم من رفح إلى المرشش والبلاد على جانبيه على نحو خمسة أميال من كل جانب[٢] . ويتميز خط الحدود الذى رسمته اللجنة المصرية بأنه يقترب جدًا من المستقيم ، وينطبق على طبيعة البلاد وتقسيم القبائل أكثر من أى خط سواه[٣] .

اللجنة التركية وتحديدها المبدئى لخط الحدود

ضمت اللجنة التركية طبقًا للإرادة السلطانية السامية كلاً من الأميرالاى أركان حرب أحمد مظفر بك ، والبكباشى أركان حرب محمد فهمى بك ، وصحب اللجنة كل من الصاغ أركان حرب محمد أسعد بك ياور رشدى باشا ، وضابط تركى برتبة ملازم وبعض العساكر ، وسليم بك أسعد سكرتيرًا[٤] .

وفى ١٥ يونيه ١٩٠٦ ، أبلغ قومندان الجيش الخامس الهمايونى ، رشدى باشا بنص البرقية العاجلة التى وصلت إليه من القيادة العامة للجيش العثمانى ، والتى اشتملت

(١) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٢٢٥ .

(٢) نعوم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ص ٦٠٧ – ٦٠٨ .

(٣) نعوم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ٦٠٨ .

(٤) نعوم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ص ٦٠٥ – ٦٠٧ .

عـــلى عدم تخطى الأوامر السابقة الخاصة برسم خط الحدود . وينوه بأن الخط الفاصل سينتهى عند نقطة فى منطقة المرشش تبعد ثلاثة أميال أو ثلاثة أميال وربع من الميل من العقـــبة ، كما ذكر وفد المباحثات التركى . ويهيب السردار بلجنة المباحثات التركية إلى عدم إفساح المجال لإثارة أية مشاكل[١] .

وعرضت اللجنة التركية خطًا قامت برسمه سمته : الخط الإدارى الفاصل ، يبدأ من رأس طابـــا على خليج العقبة ويمتد على رؤوس التلال المطلة على العقبة إلى المفرق . ثم ســـار بطريق غزة المشهور إلى أن وصل جبل الأحيقبة فانحرف شمالاً بغرب إلى بئر عجرود فضمها إليه . ثم عاد إلى طريق غزة حتى وصل قرب عين القصيمة فانحرف نحو ٥ كيلومـــترات غربًا عنها فضمها إليه . ومر فوق جبل المويلح إلى الروافعة فى وادى العـــريش . ويمشـــى فى الوادى إلى المقضبة . ثم سار شمالاً بشرق إلى الحد بين قبائل السواركة والترابين فمشى عليه إلى رفح فمر بعامودى الحدود إلى أن وصل إلى البحر المتوسط عند تل خرائب عند ميناء رفح على البحر الأبيض المتوسط . وبذلك أدخلت اللجنة التركية فى هذا الخط كثيرًا من مناطق قبائل اللحيوات والتياها العزازمة والترابين التابعين لسيناء[٢] .

رأى اللجنة المصرية فيما وصلت إليه اللجنة التركية

وكانـــت حجـــتها فى ذلـــك أن قائمقامية بئر السبع بعد تأسيسها سنة ١٨٩٩، وقائمقامـــية غزة من قبلها ضربتا عليها الضرائب . وأن اتفاق ١٤ مايو ١٩٠٦ يقضى عليهم بترك القديم على قدمه . وفندت اللجنة المصرية هذه الحجة تفنيدًا وبينت بالأدلة الناصـــعة والمحـــررات الرسمية وشهادة مشايخ الحدود أنفسهم الذين رافقوا اللجنة من العقـــبة إلى رفـــح ، أن المـــناطق التى سلخها حد اللجنة التركية من مصر وضمها إلى فلسطين « الدولة العثمانية » كانت منذ القدم تابعة لسيناء ولم يدفع أهلها قط ضرائب للدولـــة العثمانـــية . إلا أنـــه قد تبين أن قبائل القديرات التياها والصبحيون العزازمة

---

(١) رشدى باشا ، المصدر السابق ، ص ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء وجغرافيتها » ، ص ص ٦٠٩ — ٦١٠ .

الداخلين فى مصر بناء على خط الحد الذى رسمته اللجنة المصرية كانت قائمقامية بئر السبع بعد تأسيسها سنة ١٨٩٩ ضربت عليهم بعض الضرائب ظلمًا واعتداءً ، ولكن قائمقامية غزة من قبلها لم تضرب عليهم ضرائب[١] .

وقد استغرقت هذه المناقشات بين اللجنتين عدة جلسات استمرت من ٨ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٦ ، فأصرت اللجنة التركية على رأيها و لم تشأ تعديل خطها فرفع كل فريق حججه وآراءه مفصلة إلى حكومته[٢] .

اتفاق الحدود

وفى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٦ جاء لكل فريق تلغراف من حكومته يخبره بما تم عليه القرار بين سفير الدولة البريطانية ومجلس الوكلاء « الوزراء » فى الآستانة ، ومفاد الإرادة السلطانية بهذا الشأن وهو[٣] :

١ – أن الحكومة العثمانية أقرت على أن النقب من رأس طابا الشرقى إلى نقطة قرب المفرق يكون للعقبة . وأما المفرق نفسه وآبار مابين عين قديس وعين القديرات وعين القصيمة تكون لجزيرة سيناء . ويكون خط الحدود من المفرق إلى رفح خطًا يقرب من المستقيم ، كما اقترحته اللجنة المصرية .

٢ – أن تقام أعمدة على خط الحدود للدلالة عليه ، وذلك بحضور مندوبى الفريقين .

٣ – أن القبائل القاطنة على جانبى الخط يكون لها حق الانتفاع بالمياه كما جرت العادة . وكذلك العساكر الشاهانية وأفراد الأهالى والجندرمة « البوليس العسكرى » ، ينتفعون من المياه التى بقيت غربى الخط الفاصل .

٤ — أن يبقى الأهالى والعربان على ما كانوا عليه قبلاً من حيث ملكية الأراضى والمياه ، كما هو متعارف بينهما .

---

(١) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء وجغرافيتها » ، ص ٦١٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٣) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٢٤٢ – ٢٤٣ ، انظر كذلك : نص اتفاقية الحدود باللغة الإنجليزية ، ص ص ٤٠٠ – ٤٠٤ .

عقـد أعضـاء اللجنتين عدة جلسات ، وعينوا خط الحدود بموجب هذه القواعد الأربع على الخريطة . فكان خطًا يقرب جدًا من المستقيم ولكنه واقع كله غربى الخط المستقيم إلا نقطـة واحـدة فيه أى موضع عمودى رفح ، فإنها وحدها على الخط المستقيم . فرفع كل فريق هذا الخط وصورة الاتفاق إلى حكومته . وفى أول أكتوبر ١٩٠٦ جـاء لكـل فريق التصريح من حكومته بتوقيع الاتفاق والخريطة ، فاجتمع الفـريقان فى خيمة المندوبين المصريين بعد ظهر ذلك اليوم . ورسموا الخط المتفق عليه منقطًا بالحبر الأسود الهندى على نسختين من خريطة الحدود[1] .

ومـن الملاحظ على اتفاق الحدود ، أنه نص على تعيين حدود شبه جزيرة سيناء الشـرقية عـلى أنه « خط فاصل إدارى » ، وذلك لأنه كان يفصل بين ولايتين من ولايـات الدولـة العثمانية . ففى ذلك الوقت لا يمكن اعتبار مصر دولة مستقلة حتى تصبح حدودها مع الولايات العثمانية الواقعة إلى الشرق منها حدودًا سياسية فهى دولة تابعـة . وبقـيام الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وانقضاء تبعيتها للدولة العلية ، وبالتالى إنهاء سيادة الدولة العثمانية وكل حقوقها على مصر[2] . وبهـزيمة الدولـة العلـية فى الحرب العالمية الأولى ، وقعت اتفاقية سيفر ثم لوزان التى عدلـتها . وبمقتضاها تنازلت تركيا رسميًا عن كل حقوقها فى مصر . فقد نصت المادة ١٧ مـن معاهدة لوزان ١٩٢٣م على أن تتنازل تركيا عن حقوقها فى مصر والسودان ويسـرى ذلك ابتداء من نوفمبر ١٩١٤م[3] . وبناء على ذلك أصبحت حدود مصر الشـرقية حدودًا دولية ، تفصل بين مصر المشمولة بالحماية البريطانية التى انتهت اسميًا فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وبين فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى[4] .

---

(١) نعوم بك شقير ، المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٣) الكـتاب الأبـيض « القضية المصرية ١٨٨٢ – ١٩٥٤» ، وزارة الخارجية المصرية ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩، ص ص ٢١٢ – ٢١٥ .

وفى هذا المقام لا يفوتنا أن نثبت هنا أنه قد تم تبادل المذكرات بين وزارة الخارجية المصرية ووزارة الخارجية البريطانية عقب إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، تطلب فيها بريطانيا من مصر الاعتراف بوضع بريطانيا الخاص بفلسطين ، وتؤكد فيها أن حدودها مع فلسطين قائمة ومشهورة ومعروفة منذ سنة ١٩٠٦ وليس فيها لبس أو غموض ، وليست موضع خلاف ، وبإمكان جمعية الأمم أى : عصبة الأمم تعيين هذه الحدود بما لديها من خرائط لا تقبل الجدل(١) .

ولم تنازع أية دولة منذ ذلك التاريخ وحتى الآن فى السيادة المصرية على سيناء ، ابتداءً من رفح إلى رأس خليج العقبة . ثم جاءت اتفاقية الهدنة لتصف هذا الخط بأنه « خط الحدود المصرية » ، مما يفيد اعتراف إسرائيل بهذه الصفة فى نص المادة ٦ من اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩(٢) .

ومن الملاحظ على النص العربى والإنجليزى المترجمين عن الأصل التركى ، أنهما أقحما كلمة نقطة Point على صياغة المادة الأولى دون أن تكون موجودة فى الأصل التركى فقد ورد فى الترجمتين أن « الخط الفاصل يبدأ من نقطة رأس طابا »(٣). كما أن الأصل التركى للاتفاقية المكتوب من صورتين والخريطة المرفقة المرسومة من صورتين والموضح بياناتها بالتركية ، هما اللذان وقعا من أعضاء اللجنتين . أما الترجمة الإنجليزية والعربية للأصل التركى ، فلم توقع على الإطلاق(٤) .

ويجب ألا يغيب عنا ونحن نتناول موضوع ترسيم الحدود عام ١٩٠٦ أن نذكر أن قومندان العقبة رشدى باشا رغم تحيزه لجانب موطنه تركيا ومحاولته مخالفة الحقيقة فى

---

(١) أحمد شفيق باشا « حوليات مصر السياسية » ، الحولية السياسية الأولى ، ص ص ٣٨ – ٣٩ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، « اتفاقية الهدنة العامة المصرية – الإسرائيلية ، هيئة الأمم المتحدة – رودس – اليونان، ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩، القاهرة ، مطبعة الحربية والبحرية الفرعية ١٩٤٩، ص ٦.

(٣) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٢٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

كثير مما ذكره فى كتابه إلا أنه اعترف فى برقية أرسلها إلى قيادة الجيش العثمانى بتاريخ ١٦ يونية سنة ١٩٠٦ بأن خط الحدود يبدأ من رفح وينتهى على بعد ثلاثة أميال من خليج العقبة ، نتيجة لسريان مفعول حكم برقية الصدر الأعظم جواد باشا السابق ذكره(١) .

كما أبلغ قومندان الجيش الخامس الهمايونى رشدى باشا يوم ١٥ يونية سنة ١٩٠٦ بنص برقية عاجلة وصلت إليه من القيادة العامة للجيش العثمانى ، يشير فيها سردار الجيش العثمانى إلى ضرورة عدم تخطى الأوامر الخاصة برسم خط الحدود . كما ينوه بأن الخط الفاصل سينتهى عند نقطة فى منطقة المرشش تبعد ثلاثة أميال أو ثلاثة أميال وربع من الميل من العقبة ، كما ذكر وفد المباحثات التركى . ويهيب السردار بلجنة المباحثات التركية إلى عدم إفساح المجال لإثارة أى مشاكل ، مع الاحتفاظ بالتعليمات والأوامر المبلغة إليها فى نفس الوقت(٢) .

كما نوضح أن اتفاقية الحدود عام ١٩٠٦ نصت فى المادة السادسة على أن جميع القبائل القاطنة فى كلاَ الجانبين لها حق الانتفاع بالمياه حسب سابق عاداتهم أى أن القديم يبقى على قدمه فيما يتعلق بذلك وتعطى التأمينات اللازمة بهذا الشأن إلى العربان والعشائر . كما نصت المادة الثامنة على أن يبقى أهالى وعربان الجهتين على ما كانت عليه قبلاً من حيث ملكية المياه والحقول والأراضى فى الجهتين كما هو متعارف بينهم(٣) .

لقد انتهت مشكلة تعيين الحدود الشرقية لمصر بصفة نهائية بين الحكومتين: المصرية والعثمانية فى أكتوبر سنة ١٩٠٦، بالاتفاق على أن تمتد حدود مصر الشرقية من رفح، على البحر الأبيض المتوسط ، إلى نقطة تقع غرب ميناء العقبة بثلاثة أميال . وبقيت

---

(١) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) دكتور أحمد فؤاد متولى ، المصدر السابق ، انظر : نص برقية القيادة العامة للجيش العثمانى يوم ١٥ يونيه ١٩٠٦ إلى قومندان الجيش الخامس الهمايونى رشدى باشا مترجمة إلى العربية نقلاً عن رشدى باشا ، « مسألة العقبة » ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٨ ، نقلاً عن أرشيف متحف طوبقابى سرابى بإستنبول ، رقم ٥٢٢٧، الوقائع المصرية ، العدد ١٢٧ السنة ٧٦ بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٠٦ .

طابا فى أملاك مصر .. أما العقبة فظلت فى أملاك تركيا . على أنه يلاحظ أن هذه الحدود كانت حدودًا إدارية بحتة ، إذ ظلت السيادة العثمانية — من حيث أحكام القانون الدولى — ثابتة على جميع البلاد التى تضم خليج العقبة . فاستمر هذا الخليج محتفظًا بوصف الخليج الوطنى ، واستمرت مضايقه ، فى تيران وصنافر ، مضايق وطنية كذلك[١] .

وتوالت الأحداث الدولية بعد ذلك . فقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وفى خلالها انحاز الشريف حسين : أمير مكة ، إلى جانب بريطانيا ، وأعلن الثورة على الدولة العثمانية ، ونجح الثوار فى الاستيلاء على العقبة فى صيف عام ١٩١٧ . ومنذ ذلك التاريخ صار ميناء العقبة – بصفة مؤقتة – جزءًا من أرض الحجاز التى أصبح يحكمها الملك حسين . وعندما ثار عليه «الوهابيون» فر الملك إلى العقبة عام ١٩٢٤ ، وحاول « الوهابيون » بزعامة الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود أن يحتلوا العقبة ، ولكن تدخل البريطانيين منعهم من ذلك . وقامت المفاوضات بين الملك عبد العزيز آل سعود والبريطانيين ، وانتهت بعقد معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ . وتضمنت هذه المعاهدة نصًا يقضى بأن تبقى العقبة فى إقليم إمارة شرق الأردن . وكان الوضع الدولى للمنطقة كلها قد تبدل بما عقدته الدول المتحالفة من معاهدات فيما بينها – فى خلال الحرب العالمية الأولى وعقبها مباشرة – لتصفية الإمبراطورية العثمانية ، وتوزيع أقاليمها أسلابًا فيما بين بريطانيا وفرنسا[٢] .

وكان لهذه الأحداث جميعًا آثارها فى النطاق الدولى ، وبالأخص فى موضعنا الهام وهو خليج العقبة . فقد ظهر هذا الخليج – لأول مرة فى تاريخه – بمظهر مخالف لمظهره الأول . ذلك أنه لم يعد يصدق عليه وصف الخليج الوطنى ، لأن شواطئه صارت تضمها دول ثلاث ، هى : المملكة العربية السعودية ، المملكة المصرية ، وإمارة شرق الأردن . ولكنه من المهم أن نقرر أنه ظل محتفظًا بطابعه التاريخى البحت . ذلك أن مياهه تحولت من مياه وطنية خالصة لدولة واحدة – هى الدولة العثمانية المسلمة – إلى

---

(١) حامد سلطان ، « مشكلة خليج العقبة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧، ص ١١ .

(٢) حامد سلطان ، الصمدر السابق ، ص ص ١٢ – ١٣ .

مياه تاريخية تخضع للسيادة المشتركة للدول الثلاث الإسلامية التى ورثت ما كان للدولة العثمانية من حقوق دولية فى هذه المنطقة ، وهى مصر ، والسعودية ، والأردن. وهذه السيادة المشتركة الثابتة للدول الثلاث سيادة كاملة لا يرد عليها حق المرور البرى للسفن الأجنبية . ومن الأمور الجوهرية أن نقرر أيضًا أن خليج العقبة ظل منذ أقدم العصور بعيدًا عن استعمال الملاحة الدولية . ذلك أن الملاحة فيه كانت مقصورة على رعايا الدولة العثمانية . وعندما ورثت مصر والسعودية والأردن - ما كان للدولة العثمانية من حقوق دولية على مياهه ظلت الملاحة فى الخليج مقصورة على رعاياها . وإذا كانت السفن البريطانية قد مارست الملاحة فى الخليج عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان ذلك للوصول إلى ميناء العقبة - فى شرق الأردن - بوصف أن الأردن كانت تحت الانتداب البريطانى ، وتوجد بها بعض القوات العسكرية البريطانية التى كانت السفن البريطانية تقوم بتموينها عن طريق خليج العقبة وميناء العقبة . ولم يصل إلى علمنا أنه قد مارست الملاحة فى خليج العقبة سفن أخرى تابعة لأية دولة أجنبية ، مما يقطع بأن خليج العقبة طوال هذه الفترة ، لم يكن طريقًا تستعمله الملاحة الدولية[1] .

حدود فلسطين الشرقية

وفى ٣١ أكتوبر ١٩١٧ احتلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبى بئر السبع ، وفى أول نوفمبر احتلت غزة وتبعتها يافا ، وسار اللنبى بعد ذلك إلى القدس التى سلمها إليه رئيس البلدية بعد انسحاب الأتراك منها فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ . وفى ١٩ سبتمبر ١٩١٨ استأنف الجنرال اللنبى الهجوم على القوات التركية فى باقى فلسطين حيث تقدم بصورة سريعة وفى خلال أسبوع سقطت الأجزاء الشمالية من فلسطين ودخلت القوات البريطانية حيفا وعكا والناصرة وطبرية وبيسان وصفد . وبذلك انتهى الحكم التركى لفلسطين[2] .

---

(١) حامد سلطان ، « مشكلة خليج العقبة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) وزارة الدفاع الوطنى - الجيش اللبنانى ، الأركان العامة - الشعبة الخامسة ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، ص ص ٤٥ - ٤٧ .

وقبل أن يجف مداد مراسلات حسين - مكماهون دخلت وزارة الخارجية البريطانية فى مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لاقتسام مناطق النفوذ فى الولايات العربية الخاضعة للحكم التركى ضاربة عرض الحائط بالالتزامات والوعود التى قطعتها حول الاعتراف بالاستقلال العربى فى تلك المناطق[١] .

تمخضت هذه المباحثات عن اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة والتى حصلت بموجبها فرنسا على أجزاء كبيرة من سوريا وجنوب الأناضول وعلى منطقة الموصل فى العراق ولونت هذه المناطق على خارطة الاتفاق باللون الأزرق . أما حصة بريطانيا فشملت الأراضى الواقعة من أقصى جنوب سوريا إلى العراق شاملة بغداد والبصرة والمناطق الواقعة بين الخليج العربى والأراضى الممنوحة لفرنسا ، كما شملت مينائى عكا وحيفا ولونت جميعها باللون الأحمر . أما بالنسبة لفلسطين فقد لونت باللون البنى إذ اتفق على إقامة نظام دولى خاص بها[٢] .

وعلى الرغم من أن اتفاقية سايكس - بيكو كانت مؤامرة ضد الوحدة العربية والتقدم العربى بالدرجة الأولى فإن القسم المتعلق منها بفلسطين ، وضع معظمه تحت إدارة دولية ، كان موضع معارضة من قبل قوى أخرى أيضًا . ذلك أن هجوم الأتراك على قناة السويس برهن فى مطلع الحرب بشكل قاطع أن خط الدفاع الأول عن ذلك الممر الحيوى هو فلسطين لا سيناء ، وبالتالى فقد رأى لفيف من السياسيين والعسكريين البريطانيين أن الاكتفاء بتحييد فلسطين ووضعها تحت إدارة دولية ربما عرض أمن السويس للخطر خصوصًا وأن دولة قوية طامعة هى فرنسا تصبح عندئذ بمثابة جارة لمصر . أما القوة الأخرى التى كانت تعارض إقامة إدارة دولية فى فلسطين فكانت الحركة الصهيونية العالمية التى رأت فى الحرب واحتمال تفكك الإمبراطورية العثمانية فرصة تاريخية للحصول على فلسطين بموجب اتفاقات دولية وعن طريق

---

(١) عبد الوهاب الكيالى « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٢ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية « الوثائق الرئيسية لقضية فلسطين » ، صادرة عن الأمانة العامة للجامعة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، نص اتفاقية سايكس - بيكو .

الـــرعاية الاستعمارية الغربية أى عن طريق التحالف مع أشد الدول الاستعمارية طمعًا بفلسطين أى من خلال الانضواء تحت علم الإمبراطورية البريطانية(١) .

غـــادر آخر جندى بريطانى شرق الأردن يوم ٤ ديسمبر ١٩١٩ ، وبذلك أخلت إنجلـــترا المنطقة (ب) على حسب اتفاقية سايس - بيكو لإتاحة الفرصة لنشأة الدولة العربية المتفق عليها بين بريطانيا وفرنسا . وبالفعل قامت الدولة العربية فى دمشق تحت حكم فيصل بن الشريف حسين ، إلا أن فرنسا أسقطتها فى ٢٥ يوليو ١٩٢٠ . وقد أصـــدرت إنجلـــترا على منع فرنسا من تخطى حدود اتفاقية سايكس - بيكو جنوبًا . وقرر الإنجليز سواء جاء فيصل إلى المنطقة (ب) أم لم يكن هناك حكام عرب ، أم نشأ هـــناك شـــبح دولـــة عربية « فإن هذه المنطقة (شرق الأردن) يجب أن تكون مجالاً لنفوذهم وحدهم فقط » . ونقلت تلك الرغبة لفرنسا(٢) .

وهكـــذا قســـمت هـــذه المنطقة إلى ما وصف بالعراق ، وفلسطين وإمارة شرق الأردن، الـــتى وضعت جميعها تحت الانتداب البريطانى ، وسوريا ولبنان اللتين وضعتا تحت الانتداب الفرنسى ، والحجاز التى قام الملك عبد العزيز آل عبد الرحمن آل فيصل آل ســـعود بتوحيدها مع غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية فى شكل مملكة متحدة هـــى : المملكة العربية السعودية . أما مصر فقد ألزمت بريطانيا بإعلان انتهاء الحماية عليها ، وصارت دولة مستقلة بذاتها(٣) .

وتسلم هربرت صموئيل عمله كمندوب سامى لإنجلترا فى فلسطين يوم ٢٩ يوليو ١٩٢٠ . أى بعـــد إخـــلاء إنجلترا لشرق الأردن ، وسقوط دولة فيصل فى دمشق ، وسيطرة فرنسا هناك .

وفى الحال قام فى نفس اليوم بإرسال برقية لوزارة الخارجية البريطانية يقول فيها : « إن ســـكان حوران يطالبون باحتلال إنجلترا لمنطقتهم . وحوران هذه كانت عبارة

---

(١) وزارة الدفـــاع الوطـــنى - الجـــيش اللبنانى ، الأركان العامة - الشعبة الخامسة ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٨٥ .

(٢) د. محمد محمود الديب « حدود فلسطين » ، ص ٨٥ .

(٣) حامد سلطان «مشكلة خليج العقبة» ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦.

عن سنجق من ولاية سوريا يقع إلى الشرق من نهر الأردن بين البحر الميت ودمشق . ونصح حكومته البريطانية بأن تغتنم تلك الفرصة للحصول على حدود سياسية شرقية صحيحة لفلسطين »[١] . ويكشف هذا عن الجهود التى بذلتها الصهيونية فى رسم الحد السياسى الشرقى لفلسطين مستغلة فى ذلك عميلها الأول .

وجرت مناقشات بخصوص الحد السياسى الشرقى لفلسطين بعد ذلك مباشرة فى وزارة الخارجية البريطانية . وعقدت لجنة فلسطين التى تشكلت فى وزارة الخارجية البريطانية أول اجتماع لها فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ برئاسة السير جون تللى John Tilley . وناقشت فى اجتماعها الثالث الذى عقد فى ١٧ أغسطس ١٩٢٠ مسألة حدود فلسطين وميزوبوتاميا . وقررت زيادة المناقشة فى اجتماعات قادمة حول كيف وأين تثبت حدود كل من فلسطين وميزوبوتاميا . وناقشت اللجنة الحد الشرقى لفلسطين جنوب نقطة الاتصال مع المنطقة الفرنسية (سوريا) فى اجتماعها الخامس يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٠[٢] .

وقال الميجور جنرال ثويتس Thwaites ممثل وزارة الحرب ، أن هيئته (العسكرية) مقتنعة بخط منرزهاجن Meinertzhagen كحد لفلسطين . أما كليتون Clayton فقد أشار إلى أن خط منرزهاجن Meinertzhagen Line لأية دولة تنشأ مستقبلاً فى شرق الخط سوف يحرم فلسطين من مخرج على خليج العقبة . وقررت اللجنة أن تبحث خط منرزهاجن بعد ذلك بأسبوع عندما يكون هو نفسه حاضرًا[٣] .

وفى الاجتماع الثامن للجنة فلسطين الذى عقد فى ٣١ أغسطس ١٩٢٠ دعا السير تللى الكولونيل منرزهاجن لأن يشرح الخط الذى يحمل اسمه ، وهل هو رسمه بناء على طلب من مؤتمر الصلح . وأجاب الكولونيل منرزهاجن بأنه لم يرسمه بناء على طلب من مؤتمر الصلح ولكنه شرح رأيه فى هذا الخصوص لمؤتمر الصلح . وذهب إلى القاهرة

---

(١) حامد سلطان «مشكلة خليج العقبة» ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦.

(2) Foreign Office Registry No. E. 12296/65, November 7, 1922.

(3) Foreign Office, op cit, p. 14.

ورســم حدود فلسطين بناء على أسس واعتبارات اقتصادية محضة وذلك بالتشاور مع الجنرال بولز Bols[١] .

وإلى الجـنوب من البحر الميت قال الكولونيل منرزهاجن : أن قراره برسم حدود فلسطين قد تأثر برغبة الدكتور وايزمان فى أن يكون لفلسطين ميناء عند العقبة . وأن العقـبة لن تكون بذات قيمة لأى أحد على الأقل لمدة ٥٠ عامًا ، ولو أدخلت ضمن فلســطين . ولــو دخل هذا الميناء ضمن فلسطين فبالفعل ستمنع أية دولة تنشأ شرق الأردن من منفذ على خليج العقبة . « وجاء فى هامش - مذكرة الجنرال هيوبرت ينج - مذكــرة وزارة الخارجـية الــبريطانية بخصــوص هذا الرأى أن اللجنة قبلت خط مــنرزهاجن على أن يكون الحد الشرقى لفلسطين جنوب البحر الميت لكنها لم تتخذ قرارًا بذلك »[٢] .

ويكشــف هــذا عن أن الصهيونية هى التى لعبت الدور الأكبر فى وضع الأساس لــلحدود السياســية لفلسطين . وأنابت الصهيونية عملاءها فى كل موقع وأى مكان ملحين فى تحقيق مطالبها بخصوص الحدود السياسية لفلسطين ومؤثرين بذلك على كل المســئولين الذيــن أنــيط بهم هذا العمل . كما أن هذا يدحض خداع الإنجليز بأنهم لم يقصدوا بوطن قومى لليهود فى فلسطين إنشاء دولة سياسية . فضلاً عن أنه يكشف عن النية الخبيثة التى بيتتها الصهيونية بخصوص فلسطين وتحويلها إلى دولة لهم مستقبلاً وإلا لما بذل الصهاينة كل هذه الجهود بخصوص حدودها السياسية[٣] .

وفى أغسطس ١٩٢٢ أرسلت وزارة المستعمرات البريطانية إلى مندوبها السامى فى فلســطين خطابًــا تســأل عن الحدود الفاصلة بين شرق الأردن وفلسطين[٤] . ورد هربرت صموئيل بكتاب بخط اليد وبرقية مخبرًا حكومة إنجلترا بأن نقطة البدء فى الحد

---

(1) Foreign Office, op cit, p.p. 15-16.

(2) Foreign Office, op cit, p. 17.

(3) Foreign Office, op cit, p.p. 17-18.

(4) From Colonial Office, E, 8709/582/65, No. 43548/82, dated 1st Sept. 1922.

تقــع على خليج العقبة على بعد ٢ ميل إلى الغرب من مدينة العقبة . وقرر فى رسالته أن نقطــة الـــبدء هذه تتفق مع نقطة الحدود القديمة التى كانت تفصل بين تركيا من جهــة ومصـــر من جهة أخرى ، وبذلك يكون لفلسطين ٤ أميال على ساحل خليج العقبة(١) .

ثم طلبــت وزارة المســتعمرات البريطانية من مندوبها السامى فى فلسطين تحديدًا جغرافيًا دقيقًا للحدود(٢). ورد المندوب السامى ببرقية رقم ٣١٥ بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٢٢ محــددًا بكــل وضوح هذا الحد الفاصل . وأصبحت تلك البرقية هى الوثيقة الأساســية المحــددة للحد الفاصل بين شرق الأردن وفلسطين . وجاء فيها : « إذا لم تعتقدوا بأن سلطات الحجاز ترضى بأن تكون العقبة بداية الحد فإن حد شرق الأردن مع فلسطين يبدأ من نقطة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة، وبعــد ذلك شمالاً فى وسط وادى عربة »(٣) . ويدل هذا على أن الحد السياسى بين شرق الأردن وفلسطين باعتراف المندوب السامى هربرت صموئيل اليهودى الصهيونى يبدأ من نقطة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة .

كما أن وزارة الخارجية الأمريكية سألت إنجلترا عن مسار الحد السياسى بين شرق الأردن وفلسطين بالضبط ، فقررت الثانية بأنه هو الذى سبقت الإشارة إليه . أن يبدأ مــن نقطــة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة ، وبعد ذلك يســير شمالاً فى وسط وادى عربة متتبعًا خطًا يمر وسط البحر الميت ووسط نهر الأردن حــتى الــتقاء نهر الأردن باليرموك مع السماح لشرق الأردن بأن يأخذ اللسان ثم فى وسط نهر اليرموك(٤) .

---

(1) Telegram from the high Commissioner of Palestine to the secretary of state for the colonies, No. 309, 27th August1922.

(2) Telegram from the secretary of state for the colonies to the high Commissioner of Palestine, No. 280, 28th August1922.

(3) Telegram from the high Commissioner of Palestine to the secretary of state for the colonies, No. 315, 30th August 1922.

(4) Foreign Office Registry No. E. 12296/582/65, November 7, 1922.

ويختلف الحد فى هذا القطاع عن حد اتفاقية سايكس - بيكو ، حيث ضم إلى فلسطين : صحراء النقب ، النصف الغربى من البحر الميت ، نصف نهر الأردن ، أوصل فلسطين إلى خليج العقبة وأصبح لها ساحل عليه طوله أربعة أميال . أى أن الحد فى هذا القطاع طرأت عليه تغيرات لصالح فلسطين ويتفق هذا القطاع من الحد مع وضع الظاهرات الطبيعية فى المنطقة فهو يسير فى وسط وادى عربة ، وفى وسط البحر الميت ، وفى وسط نهر الأردن ، وفى وسط نهر اليرموك . ويرجع ذلك إلى أن إنجلترا كانت تسيطر على كل من فلسطين وشرق الأردن ، ولذلك جعلت الحد السياسى بينهما متوازنًا إلى أبعد حد ممكن . وتجدر الإشارة هنا إلى أن شرق الأردن لم يكن داخلاً ضمن وعد بلفور الخاص بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين لأن ذلك الوعد اقتصر على فلسطين الحقيقية التى تقع غرب الخط الذى سبقت الإشارة إليه[1] ، وهذا ينفى أى مزاعم للصهاينة بخصوص انتزاع مناطق من شرق الأردن وتغيير موضع الحد هناك .

وأدى تعديل الحد بهذه الصورة عما حددته اتفاقية سايكس - بيكو إلى نتائج هامة تتلخص فى حصول فلسطين على نصف نهر الأردن ، كما حصلت على النصف الغربى من البحر الميت ، كما وصلت فلسطين إلى ساحل خليج العقبة على عكس ما كان فى اتفاقية سايكس - بيكو . وتمشى هذا مع مذكرة المنظمة الصهيونية التى قدمتها لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ حيث جاء فيها : « أن التنمية الكثيفة للزراعة تستوجب أن يكون لفلسطين حرية الوصول إلى البحر الأحمر ، وفرصة تنمية الموانئ الجيدة على خليج العقبة . وترى إسرائيل أن جبهتها على خليج العقبة ضيقة والنية مبيتة لتوسيعها »[2] .

---

(1) Department of state, division of Publications, series C, No. 55, Palestine No. 1, «Mandate for Palestine», Prepared in the division of Near Eastern Affairs, U.S.A., May, 1926.

(٢) عادل حامد الجادر ، « سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة فى فلسطين أيام الانتداب » ، مجلة شئون فلسطين ، عدد (٥٥) ، مارس ١٩٧٦ ، ص ١٩١ .

وأضيفت صحراء النقب التى تبلغ مساحتها ١٢٢١٥ كيلو مترًا مربعًا وكان هذا مكسبًا عظيمًا ، ويتماشى تمامًا مع رغبة الصهاينة حيث جاء فى مذكرتهم السابقة « يجب أن تراعى لجنة الحدود أنه من الملائم جدًا ، لمصلحة الإدارة الاقتصادية ، أن تكون مساحة فلسطين على أكبر اتساع ممكن لتستطيع مع الوقت أن تحتوى أعدادًا كثيرة من السكان الميسورين . يستطيعون أن يتحملوا أعباء الحكومة العصرية الحديثة ، بأسهل مما تتحملها بلاد صغيرة محدودة السكان بالضرورة[١] . وبذلك نجد أن توصيل الوطن القومى لليهود فى فلسطين إلى خليج العقبة ، وضم النقب إليه يحقق الفصل والعزل بين العالم العربى فى آسيا وأفريقيا[٢] .

وصدر صك الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يوليو ١٩٢٢ بعد أن كانت إنجلترا بتوجيه من الصهيونية - قد وضعت الأساس للحدود السياسية لفلسطين . وجاء فى المادة ٢٥ من مواد الصك : « إن الانتداب على المنطقة الواقعة بين الأردن والحد الشرقى لفلسطين كما يتم تحديده » . ومعنى هذا أن تحديد الحد الشرقى لفلسطين ترك للتفاوض عليه[٣] .

وقام المندوب السامى البريطانى فى ١ سبتمبر سنة ١٩٢٢ بتعيين الحدود الإدارية Administrative Boundaries بين غربى فلسطين وشرقيها على حد التعبير الصهيونى وجرى رسمها على الشكل التالى : تبدأ من نقطة اتصال اليرموك بالأردن فتسير جنوبًا فى منتصف مجرى نهر الأردن والبحر الميت ووادى العربة حيث ينتهى فى ساحل خليج العقبة على بعد ميلين غربى مدينة العقبة[٤] .

---

(١) محمد السيد غلاب « الجغرافية التاريخية لإقليم النقب » ، الجمعية الجغرافية المصرية ، الموسم الثقافى سنة ١٩٥٦، ص ٧٩ .

(٢) د. محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ٩٧ .

(٣) أسعد رزوق « إسرائيل الكبرى » ، سلسلة كتب فلسطينية - منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ص ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٤) عادل محمود رياض « الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة » ، جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٧٠ .

ورفعت الحكومة البريطانية فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢، المذكرة التفسيرية للمادة ٢٥ المتعلقة بالحدود ، لمجلس عصبة الأمم وتمت الموافقة عليها فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٢[١] . وهذا ما دفع الصهاينة إلى السخط على صك الانتداب لأنه استبعد شرق الأردن من منطقة الوطن القومى لليهود . وبهذه الصورة دخلت المنطقة المثلثة الشكل التى تقع إلى الغرب من وادى عربة ، وهى التى كانت جزءاً من ولاية سوريا ، ووعدت إنجلترا الدولة العربية بها (وعود مكماهون للشريف حسين) ، ضمن الوطن القومى لليهود فى فلسطين[٢] . وكان هربرت صموئيل هو المسئول الأول عن حصول فلسطين على أربعة أميال من ساحل خليج العقبة كواجهة بحرية لها هناك فيما بعد .

وفلسطين بهذا الوصف تقع بين خطى عرض : ٣٠ ٢٩ و ١٥ ٣٣ وخطى طول : ١٥ ٣٤ و ٤٠ ٣٥ . ومما يجدر ذكره أن هذه هى المرة الثانية فى تاريخ فلسطين التى تصل فيها حدود فلسطين الجنوبية خليج العقبة . ومرد ذلك هو حرص بريطانيا على قطع بلاد الشام والعراق وعرب المشرق عن مصر وعرب المغرب ، مما يجعل من دولة (إسرائيل) عائقًا جغرافيًا مانعًا للنهضة فى هذه المنطقة . وقد كانت المرة السابقة أيام مملكة الفرنجة فى القدس (٤٩٢ – ٥٨٣هـ / ١٠٩٩ – ١١٨٧م)[٣] .

أم الرشرش فى مشروع التقسيم وحرب فلسطين

صدر القرار رقم ١٨١ للأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية ومنطقة مدولة . وأصبحت قرية أم الرشراش حسب هذا التقسيم خارج الدولة اليهودية[٤] .

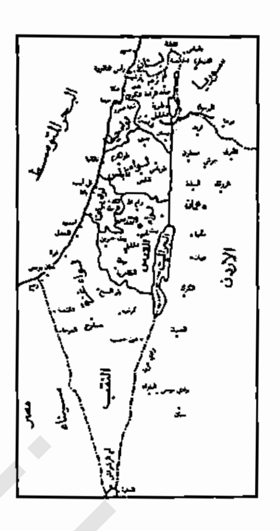
---

(١) عادل محمود رياض « الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة » ، جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٨٨ .

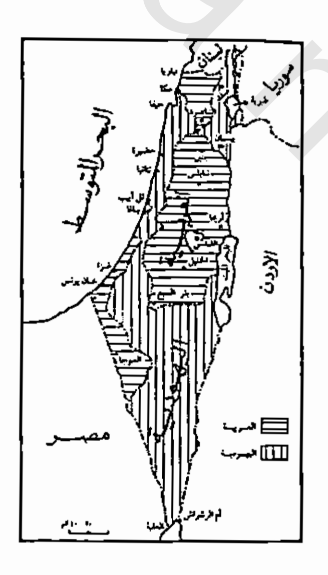
(2) Foreign Office, op cit, p. 46.

(٣) أنيس صايغ وآخرون ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ١٩٩٠، مطبعة ميلانو ستامبا (فارجليانو – إيطاليا) ، ص ١٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ص ١٠ – ١١ ، انظر : الخريطة المرفقة رقم ( ) فلسطين حسب مشروع تقسيم ١٩٤٧ .



التقسيمات الإدارية فى فلسطين فى عهد الانتداب (١٩١٨ - ١٩٤٨)



فلسطين حسب مشروع تقسيم ١٩٤٧

وظل الوضع القانونى لخليج العقبة خاضعًا للسيادة المشتركة لمصر والسعودية والأردن ، إلى أن قامت حرب فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨. فقد حدث عقب الهدنة بين مصر وإسرائيل التى انعقدت فى رودس فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩، وقبل عقد الهدنة بين الأردن وإسرائيل ، أن تحركت بعض القوات الإسرائيلية فى ١٠ مارس ١٩٤٩، واحتلت « أم رشرش » على خليج العقبة . وقد تم هذا العمل العسكرى على الرغم من وقف جميع التحركات العسكرية التى تضمنتها أحكام الهدنة التى فرضها مجلس الأمن على المتقاتلين(١) .

المعارك العسكرية لاحتلال أم الرشرش

بانتهاء معركة رامات هاكوفيتش يوم ٧ يناير ١٩٤٩ بانتصار القوات العراقية طويت صفحة القتال فى الجبهات الثلاث العراقية والسورية واللبنانية ، وبدأت بعض الحكومات العربية تتفاوض مع نائب الوسيط الدولى الدكتور رالف بانش لعقد هدنة دائمة مع إسرائيل ، على حين راح بن جوريون يرسم الخطط لاحتلال مزيد من الأراضى فى جبهة الأردن(٢) .

الهدنة الرابعة (٧ يناير - ٦ مارس ١٩٤٩)

غربت شمس السابع من يناير ١٩٤٩ على القوات الإسرائيلية وقد بلغ بها الإنهاك نتيجة الجهد الكبير الذى بذلته على امتداد سبعة عشر يومًا من القتال المستمر . وبقدر ما أزعج الأركان العامة ما كانت عليه قواتها فى المسرح من إرهاق وانتشار واسع وعمق ضحل ، راع الحكومة الإسرائيلية ما وصلت إليه سمعتها بين الدول ، وإن أثار إعجاب البعض ما حققته قواتها المسلحة من إنجازات فى المسرح(٣) .

ولهذا قبلت إسرائيل هذه الهدنة الرابعة ، حتى تتفرغ للمعركة السياسية والإعلامية التى تعزز بها المكاسب ، وتفرض الأمر الواقع كحل وحيد للمشكلة ، ثم تطمس قضية

---

(١) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٤ .

(٢) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، دار الوطن العربى ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٤٥٧ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات العسكرية ، وثائق حرب فلسطين ، غير منشورة ، ملف الهدنة رقم (٦٦٥)، ص ٣٥ .

اللاجئين وتغسل يدها من دمائهم ، وتحول مشاعر الأسى على مصيرهم نحو العرب ، على زعم أنهم المسئولون عن تركهم الديار ، فيكون خليقًا بهم أن يستوعبوهم ويخلعوا عليهم جنسيتهم ، ويملأوا بهم الفراغ الذى خلفته هجرة اليهود من البلاد العربية التى أجبرتهم على الرحيل[١] .

أوجبت هذه المعركة السياسية الإعلامية المستهدفة أن تحول إسرائيل سائر أنشطتها إلى أروقة المنظمات الدولية ، وصفحات الجرائد الأجنبية ، وموجات الأثير وشاشات السينما ، فحفلت هذه الفترة بحملة إعلامية ضخمة ، لا تقل فى حجمها عن الحملة العسكرية التى سبقتها ، وقد تزيد عنها خطورة بالنسبة لنتائجها[٢] .

وبينما حكومة إسرائيل والمنظمة الصهيونية تمضيان قدمًا فى تنفيذ هذا المخطط الجديد ، بدأت فى ١٣ يناير ١٩٤٩ بجزيرة رودس وتحت إشراف نائب الوسيط الدولى مفاوضات الهدنى بين مصر وإسرائيل فى نطاق قرارى مجلس الأمن رقم ٦١ ورقم ٦٢ الصادرين فى ٤، ١٦ نوفمبر ١٩٤٨[٣] .

وبعد شد وجذب ، وتعنت ولين ، تم يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ توقيع الاتفاق على المشروع الذى تقدم به رالف بانش للهدنة بين مصر وإسرائيل . وبناء على المادة الثالثة من هذا الاتفاق ، والملحق (١) المرفق به ، انتهى حصار الفالوجا ، ووصلت طلائع قواتها الباسلة يوم ٢٦ فبراير إلى غزة ، بكل أسلحتها ومعداتها ، حيث استقبلتها الجماهير العربية بحماسة بالغة[٤] .

الإعداد لاحتلال أم الرشرش

وفى يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩ وصل وفد الأردن إلى رودس ، وفى نفس اليوم نمى إلى علم بن جوريون قرب عودة القوات العراقية إلى ديارها فامتلأ صدره بالرغبة فى التهام

---

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات العسكرية ، وثائق حرب فلسطين ، غير منشورة ، ملف الهدنة رقم (٦٦٥)، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص - ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) لواء أحمد فؤاد صادق « مذكراته » ، غير منشورة ، ص ١٥ . (اللواء أحمد فؤاد صادق كان يشغل منصب قائد القوات المصرية بفلسطين) .

شـــريحة أخرى من الضفة الغربية ، ولهذا أسرع يضع الخطط مع يادين للاستيلاء على المثلث العربي الخصيب حتى ضفة نهر الأردن[١] .

كانـــت القوات الأردنية تحتل مساحة شاسعة من النقب الفلسطيني . وهي عبارة عن مثلث طول ضلعه الشرقي في وادي عربة مائة كيلومتر ، وطول ضلعه المقابل على الحـــدود المصرية مائة كيلومتر كذلك . وطول قاعدته أي المسافة ما بين وادي عربة والحـــدود المصرية في سيناء تزيد على ٦٠ كيلومتر . وملتقى الضلعين في أم الرشراش وهـــي المركز أو الميناء على خليج العقبة . وتبعد عن ميناء العقبة الأردني حوالي خمسة أميال[٢] .

وحيـــنما سافر الوفد الأردني لرودس ، حمل الخرائط التي تشير إلى مواقع القوات الأردنية في النقب ، وعلل الوفد نفسه بالآمال ظانًا أن حدود الهدنة ستكون بحسب ما يـــبرزه من خرائط . ونسيت عمان أن أيلة (إيلات) أو العقبة الفلسطينية التي تسمى (أم الرشرش) تعتبر في نظر اليهود مكملة لأحلامهم التي حققها لهم الإنجليز في لندن وعمان . ولم تدر حكومة عمان بما كان يجرى على مسرح فلسطين لأنها تركت الأمر للفريق جلوب يتصرف فيه كما يشاء وبحسب الأوامر التي يتلقاها من لندن[٣] .

كانـــت القوات الأردنية في النقب تتراوح بين ٨٠٠ جندي وألف جندي انتشروا في مراكـــز حربـــية هامة تسد كل الطرق التي يمكن للعدو أن يسلكها ، إذا فكر في احتلال أم الرشرش . وكانت تلك القوة مزودة بمدرعات ثقيلة وخفيفة ، وبحضيرة من فرقة التدمير . ولم يطمئن جلوب باشا لوجود تلك القوة بدون قائد إنجليزي ، فأرسل الكابتن (برومج) ، ليكون مسئولاً عن العمليات الحربية في تلك المنطقة[٤] .

---

(١) حســـن البدري « الحـــرب في أرض السلام » ، ص ٤٦٠، انظر كذلك : عبد الله التل « مذكرات عبد الله التل – كارثة فلسطين » ، دار القلم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ص ٤٦٩ – ٤٧٣ . (تشكل الوفـــد الأردني من القائمقام أحمد صدقي الجندي رئيسًا للوفد ، القائد محمد المعايطة عضو ، وكيل القـــائد راضي الهنداوي عضوًا ، رئيس علي أبو نوار عضوًا ، ملازم فتحي ياسين سكرتيرًا ، وكيل الخارجية رياض المفلح وقاضي عبد الله نصير ، مستشاران قضائيان .

(٢) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٤) عـــبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٧٥ – ٤٧٦ . (ومن المعروف أن جلوب باشا سلم قيادة الجنوب للضابط الذي أشرف على تسليم اللد والرملة) .

ويذكر عبد الله التل : « وبدأت الحركات الحربية فى جنوب فلسطين فى ٢٥ فبراير ١٩٤٩، واتخذت شكل دوريات كاشفة فى أغلب الأحيان . وقد بدأ اليهود بإرسال دورياتهم الخفيفة وأغلبها من سيارات الجيب إلى الجنوب لكشف المسالك المؤدية إلى العقبة عبر الصحراء . ومن جهتنا كان الجيش العربى قد كشف جميع الممرات والطرق التى يمكن اجتيازها بالسيارات بما فى ذلك المنطقة الواقعة ما بين وادى عربة وصحراء سيناء وهى الجهة التى بدأ اليهود بكشفها . وعندما كشف قائد القوات الأردنية (العربى) وتأكد من الطرق التى ستمكن اليهود من الوصول للخليج وزع قواته على تلك الطرق والمسالك وأخفاها فى كمائن ومواقع حربية قوية لدرجة أنه أصبح من المستحيل مرور قوات يهودية دون الاشتباك مع الجيش العربى . وقد بث الألغام الأرضية وحفرت الخنادق ونسفت الطرق فى أماكن عديدة لتزيد فى متاعب القوات المهاجمة . وحينما وصلت طلائع القوات اليهودية لمراكز الجيش العربى فى ٤ مارس ١٩٤٩ اشتبك معها وكان نصيب السيارة الأولى التى وقعت فى الكمين أن تطايرت أجزاؤها فى الفضاء وهلك جميع ركابها اليهود . ثم عادت الدورية من حيث أتت »[١] .

وبينما كان الوفد الأردنى فى رودس ينتظر أوامر عمان لتوقيع اتفاقية الهدنة ، بعثت الحكومة البريطانية برقية إلى الدكتور بانش تخبره فيها بأن القوات البريطانية المرابطة فى العقبة لن تتدخل فى حوادث جنوب النقب ولن تطلق النار إلا إذا هوجمت من قبل اليهود . وقد أرسلت صورة من البرقية إلى السلطات اليهودية ، وبديهى أن إرسالها لليهود هو إيعاز لهم بالزحف على أم الرشرش لتحقيق أهدافهم كاملة . وقد أكدت برقية حكومة لندن إلى بنش ما أذاعته الصحف العبرية فى ذلك الحين عن وصول أوامر وزير الحربية البريطانية (شنويل) اليهودى إلى قائد القوات البريطانية فى العقبة والتى تتلخص فيما يلى : « لا يجوز الاشتباك مع اليهود بأى حال من الأحوال ، لا يجوز دخول الحدود الفلسطينية ، إذا هوجمت العقبة من قبل اليهود فعليكم الدفاع عنها على ألا تطاردوا المهاجمين داخل الحدود الفلسطينية »[٢] .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٦ .

(٢) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٧٦ – ٤٧٧ ، انظر كذلك : محمد فيصل عبد المنعم ، أسرار ١٩٤٨ ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ١٩٦٨، ص ٦٥٦ .

كمـــا أن هيكـــتور ماكنيل قد صرح فى مجلس العموم البريطانى مساء ١١ مارس ١٩٤٩ : « بأنـــه ليس من المتوقع أن يطلب من القوات البريطانية القيام بأية إجراءات إلا فى حالة وقوع خطر يهددها وهو الأمر الذى يرجى أن لا يقع أبدًا »[١] .

ويذكر عبد الله التل : « هكذا كانت أوامر لندن الحقيقية ، أما ما كان يشاع عن أن القوات البريطانية كانت مرابطة فى العقبة لحمايتها والدفاع عن الأردن ضد هجوم الـــيهود . فقـــد كان مصدره حكومة عمان التى لم تفكر يومًا ما فيما كان يجرى فى العقـــبة أو فى أى مكـــان آخر لأن أغلب وزرائها من الجهلة الذين لا يعرفون أين يقع النقب »[٢] .

كـــثرت دوريـــات الاستطلاع اليهودية وأصبح الاشتباك بين قوات الجيش العربى والـــيهود متوقعًا فى كل لحظة ، وساعدت طائرات الاستطلاع اليهودية القوات البرية الزاحفة. وكان قائد القوات الأردنية على اتصال بقيادة الجيش فى عمان لتلقى الأوامر، وقد جاءته أخيرًا البرقية التالية من الجنرال جلوب تأمره بسحب جميع القوات الأردنية إلى العقبة[٣] .وقد نصت برقية جلوب على : اسحبوا قواتكم من المراكز التالية فورًا . **أولاً** : جبل الردادى . **ثانيًا** : وادى الحيانى . **ثالثًا** : رأس النقب. **رابعًا** : أم الرشراش. تـــتجمع القـــوات فى العقبة بالمواقع التى يعينها لكم الجيش البريطانى . تنقل الأسلحة والذخائر بقدر الإمكان وتتلف التجهيزات الثقيلة[٤] .

هـــذه أوامر الجنرال جلوب وقد نفذها الكابتن « برومج » فسحب جميع القوات مـــن مراكـــزها قبل أن ترى اليهود بأعينها ، وكانت صدمة عنيفة للجنود الأبرياء أن تأتيهم الأوامر بترك ميناء « أم الرشرش » الحصين وهم لا يعلمون السر فى ذلك[٥] .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٧ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .

(٣) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٤٧٧ – ٤٧٨ .

(٤) المصـــدر السابق ، ص ٤٧٨. (وبرقية الجنرال جلوب برقم ٨١١/٢/١٧/٣ بتاريخ ١٩٤٩/٣/٦) . الـــردادى : جـــبل يشرف على سهول العقبة ووادى عربة ، الحيانى : واد يقع على خط مواصلات اليهود الذين زحفوا من بئر السبع إلى الخليج . رأس النقب : تل عال يشرف على أم الرشرش وميناء العقبة) .

(٥) المصدر السابق ، نفس المكان .

العملية « شن تاف شن »

حشد بيجال يادين كافة القوات المتيسرة لشن الهجوم على المثلث العربى واحتلاله حتى نهر الأردن . وأصبح الأمر معدًا للتنفيذ لولا أن ساورت بن جوريون الهواجس خشية أن يتسبب هذا العدوان الجديد فى إثارة مشاكل محلية دولية تعرض مكاسب إسرائيل للانكماش . ولهذا فضل أن يستخدم شن تاف شن للتهديد عسكريًا والمزايدة دبلوماسيًا بدلاً من التورط فيها بالقتال الفعلى[١] .

وأصدر بن جوريون أوامره إلى يادين بأن يبذل جهده حتى تتسرب الخطة لتصل إلى الملك عبد الله ليجعله أكثر ميلاً إلى تقبل وجهة نظر إسرائيل فى المفاوضات الدائرة برودس . ولم يستغرق نبأ الهجوم وقتًا طويلاً ليبلغ أذن الملك عبد الله الذى راح جلوب يحذره مغبة التورط فيه ويذكره بأنه لم يعد للقوات العربية المجتمعة فى فلسطين ما يساوى ربع ما لدى الأركان العامة الإسرائيلية منها ، ناهيك عن الفرق الكبير بين النوعين من حيث الكفاءة القتالية[٢] .

ولم يكن الملك عبد الله فى حاجة إلى تكرار النذير أو التذكير به ، ولكن بن جوريون لم يكن قد ملأ جوفه بعد من تراب فلسطين بالقدر الذى يشبعه ، ولهذا تحول بكل ثقة نحو الجنوب ليمد حدود إسرائيل حتى البحر الأحمر ، ويأخذ ما يستطيع برغم من لا يستطيع[٣] .

العملية « عوفداه »

مدت الأركان العامة الإسرائيلية قبضتها جنوب شرق النقب حتى عين حصب بالعملية «لوط» ، مثلما مدتها غربًا حتى العوجة بالعملية « حوريب ». إلا أن أنظارها

---

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة ، وثائق حرب ١٩٤٨، ملف رقم (٦٨٨) ملف العملية « شن تاف شن » وهى تعنى السن بالسن .

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة ، وثائق حرب ١٩٤٨، غير منشورة ، ملف رقم (٦٨٨) المصدر السابق .

(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، ص ٤٦١ .

ظلت تتطلع إلى المثلث الحيوى الذى تمتد أضلاعه المتساوية فوق وادى عرابة من جهة، وحدود مصر من الجهة المقابلة ، وتقع قمته على رأس خليج العقبة فى الجنوب[١] .

وقــدرت الأركــان العامــة أن الفاصل الزمنى بين توقيع مصر على هدنة رودس وتوقــيع الأردن علــيها يكفــى ويــزيد لدق إسفين بين جيشيهما واحتلال المثلث ثم مجابهتهما والعالم أجمع بالأمر الواقع[٢] .

وخــلال مــا بقــى من أيام شهر فبراير ١٩٤٩ ، والأيام الأولى من مارس نشط الاستطلاع الإسرائيلى الذى أظهر أن الطريق إلى قمة الخليج وعر لكنه ممكن .

ومثلما اعتمدت خطة « يوءاب » على مطار روحاما لزيادة سرعة اندفاع القوات الإســرائيلية نحو هدفها النهائى فى عمليات أكتوبر ١٩٤٨ ، اعتمدت أيضًا على مطار إبراهيم الواقع على مسافة ٥٠ كيلومترًا شمال أم الرشرش لنقل الأسلحة والمعدات قريبًا مــن قمة خليج العقبة للانقضاض على شاطئه بقفزة واحدة . وتم تخصيص لواء النقب واللواء جولانى وبعض عناصر من اللواء الثامن مدرع لتنفيذ القفزة حتى شمال العقبة ، عــلى حين وقع على اللواء إسكندرونى مهمة تنفيذ القفزة الشمالية منها حتى جنوب البحر الميت[٣] .

وفى ٤ مــارس ١٩٤٩، تحركت القوات الإسرائيلية المؤلفة من لواء النقب المدرع ولــواء جــولانى وثلاث مجموعات من قوات البالماخ التى يقودها إيجال آلون من بئر السبع إلى خليج العقبة[٤] .

---

(١) وثائق وزارة الدفاع المصــرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨، ملف رقم (٦٧١)، ملــف العملــية (عوفداه) . انظر كذلك عبد الله التل ، « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٨٠ - ٤٨١، لــوط هــو ابن أخى سيدنا إبراهيم الخليل ، والمعروف أنه كان يسكن جنوب الــبحر الميت حول سدوم ، وعمورة . والعملية حوريب سميت على اسم أحد جبال سيناء ويعرف الــيوم بجبل الجلال . وقد عرفت هذه العملية أيضًا باسم العين لأن أهدافها الثلاثة تبدأ بحرف العين وهى العسلوج والعريش وغزة التى تنطق باللسان العبرى (عزة) . والعملية عوفداه تعنى الأمر الواقع أو حقيقة واقعة .

(٢) المصدر السابق .

(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ص ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .
(ويوءاب هو الاسم الحركى لإسحق دوفنو قائد معركة نجبا التى سقط فيها قتيلاً) .

(٤) نجيب الأحمد « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، ص ٥٥٥ .

وبعد توقيع مصر اتفاقية الهدنة فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، سارعت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم مشروع قرار إلى مجلس الأمن فى ٤ مارس ١٩٤٩ بقبول إسرائيل عضوًا فى الأمم المتحدة باعتبارها دولة محبة للسلام رغبة فى تنفيذ ميثاق الأمم المتحدة[(١)] .

وفى اليوم التالى مباشرة بدأت إسرائيل فى تحريك قواها جنوبًا لاحتلال مناطق حيوية فى النقب ، ضاربة عرض الحائط بقرارات مجلس الأمن التى تحول دون أى تحرك عسكرى للحصول على مكاسب إقليمية . ولما كانت هناك قوات أردنية متمركزة فى بعض النقاط المسيطرة فى النقب وعلى امتداد وادى عربة إلى خليج العقبة ، فقد تقدمت الحكومة الأردنية بمذكرة احتجاج على التحركات الإسرائيلية المخالفة لقرارات مجلس الأمن ، إلى الدكتور رالف بانش والذى كان يقوم بدور الوسيط للأمم المتحدة . وقد أبرق بنتيجة تحقيقه إلى رئيس مجلس الأمن وورد فيه أن القوات الإسرائيلية بدأت منذ ٧ مارس فى تحركها جنوبًا لاحتلال منطقة العقبة ، كما أشار إلى تواجد دوريات أردنية تجوب المنطقة وأوضح أن ما قامت به إسرائيل كان مخالفًا لأحكام الهدنة[(٢)] .

وكان على لواء النقب بعد تدعيمه بدبابات اللواء الثامن أن يندفع بأقصى سرعة نحو الجنوب بمحاذاة الحدود المصرية صباح ٦ مارس لينجز المهام التالية[(٣)] :

١ - احتلال مطار إبراهيم وتجهيزه للعمل .

٢ - قفل محور التقدم إلى المطار من اتجاه غرندل .

٣ - احتلال المرتفعات المشرفة على طابا وأم الرشرش .

---

(١) محمود رياض « مذكراته ، الجزء الثانى ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ص ٢٢، انظر: نجيب الأحمد « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، دار الجليل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ٥٣٩ . يوضح نجيب الأحمد أن مجلس الأمن الدولى وافق يوم ٥ مارس ١٩٤٩ على الاعتراف بدولة إسرائيل وقبولها عضوًا فى هيئة الأمم المتحدة ورفع قراره إلى هيئة الأمم المتحدة .

(٢) محمود رياض « مذكراته » الجزء الثانى ، ص ٢٢ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، غير منشورة ، ملف رقم (٧١٠)، خاص بمعارك لواء النقب ولواء جولانى واللواء الثامن المدرع الإسرائيلى ، ص ٤٥٠ .

بينما كان على اللواء جولانى أن يتجه بعد تدعيمه بالمدرعات أيضًا نحو الجنوب على أن يبدأ السير فى توقيت لاحق للواء النقب ، فيقطع وادى عرابة لينجز المهام التالية[١] :

١ - احتلال عين ويبه وراديان .

٢ - دفع الداوريات على طول امتداد وادى عرابة حتى ٢٠ كيلومترًا من خليج العقبة .

٣ - الاحتفاظ بكتيبة ميكانيكية كاحتياط عام لتوجيه الضربات المضادة .

أما سلاح الطيران فقد كلف بتنفيذ مهام النقل الجوى إلى مطار إبراهيم ، وإجراء الاستطلاع الجوى لصالح لواءى النقب والجولانى ، علاوة على وضع سرب مقاتلات فى حالة الاستعداد الكامل ، وتقديم المعاونة الجوية المباشرة للقوات المهاجمة بمجرد طلبها[٢] .

ومع أشعة الشمس التى بزغت صباح ٥ مارس ١٩٤٩ تحركت مقدمة لواء النقب برًا نحو مطار إبراهيم مارة بعبدات ومختشى رامون . وفى نفس الوقت بدأ تحرك مقدمة اللواء جولانى من كرنب . أما اللواء إسكندرونى فقد باشر التقدم من بئر سبع نحو عين جدى مارًا برأس زويرة وأم البرج ، على حين خرجت بعض الزوارق من سدوم مساء ٦ مارس لتقوم بعملية برمائية صغيرة تعاون بها عناصر إسكندرونى المتقدمة برًا فى احتلال جنوب البحر الميت عند عين جدى[٣] .

وفى مواجهة هذه التحركات الإسرائيلية كانت عناصر الفيلق الأردنى تحتل النقب الجنوبى إلى الجنوب من بئر سبع ، وتتمركز فوق بعض الهيئات الحاكمة على امتداد وادى عرابة والحدود المصرية لقفل الطريق إلى قمة خليج العقبة[٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، غير منشورة ، ملف رقم (٧١٠) ، المصدر السابق .

(٤) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٨ .

وبعد أن تأكدت الأركان العامة الإسرائيلية أن القوات البريطانية المتمركزة حول مدينة العقبة لن تعترض طريق قواتها وهى تندفع على قمة الخليج[١] بناء على التدخل الأمريكى ، وأن مجلس الأمن لن يتحرك أيضًا بسبب الدور الأمريكى[٢] ، وأن عناصر الفيلق الأردنى سوف تحذر الاصطدام بها ، أصدر يعقوب دورى الأمر إلى إيجال آلون أن يبدأ العملية « عوفداه »[٣] .

وحتى يتجنب يعقوب دورى إثارة أى مشاكل سياسية أو عسكرية فقد أوصى قواته أن تتجنب الاحتكاك بأى قوات مصرية أو أردنية تصادفها على الطريق . وقبل أن يحل مساء ٦ مارس كانت عناصر اللواء النقب قد أتمت تجهيز مطار إبراهيم لتهبط عليه الطائرات . وسرعان ما استقبل طائرتى كوماندو حوالى الساعة ١٨٠٠ بعد إنارة ممر الهبوط . ثم راحت الطائرات تتوالى حتى فجر ٨ مارس لتنقل الأفراد والأسلحة والمعدات حسب الخطة الموضوعة[٤] .

كان اليهود يعرفون تمامًا نوايا بريطانيا ورغبتها فى تسليم النقب جميعه لإسرائيل ، كما كشفت طائراتهم انسحاب القوات الأردنية بسرعة من جنوب النقب وأم رشرش وتحاشى الاشتباك مع اليهود ، لذلك أسرعت القوات الإسرائيلية بالزحف مارةً بنفس المراكز والمسالك التى أخلاها الجيش العربى الأردنى[٥] .

ثم تحركت عناصر جولانى من عين حصب صباح يوم ٧ مارس فوصلت طلائعها عين ويبة قبل هبوط الظلام مباشرة ، وبعد أن أمضت الليل فيها استأنفت التحرك جنوبًا حتى وصلت يوم ٨ مارس إلى سفوح جبال قطورة الذى يبعد نحو ٦٠ كيلو مترًا من قمة الخليج[٦] . وفى نهاية يوم ٨ مارس ١٩٤٩ وصلت القوات الإسرائيلية نقطة تبعد ٣٠ كيلومترًا عن الخليج[٧] .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٨ .
(٢) محمود رياض « مذكراته » ، الجزء الثانى ، ص ٢٢ .
(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، ص ٤٦٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ص ٤٦٤ – ٤٦٥
(٥) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٧٨ – ٤٧٩ .
(٦) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ص ٤٦٥ .
(٧) عبد الله التل ، « مذكراته » ، ص ٤٧٩ .

وعـــندما علمت القيادة الأردنية بذلك أصدرت تعليماتها إلى عناصرها بالنقب أن تـــترك مواقعها لتتفادى الاصطدام بمفرزتى النقب والجولانى ، وبهذا لم يقع قتال يذكر ليقوم دليلاً على خرق إسرائيل الهدنة[١] .

إلا أنـــه ذَرًّا للـــرماد فى العـــيون أرسلت الحكومة الأردنية فى ١٠ مارس ١٩٤٩ احتجاجًا لوسيط الأمم المتحدة على ما ترتكبه القوات الإسرائيلية فى النقب من أعمال عدائـــية . وكـــان هذا الاحتجاج مكشوفًا بالدرجة التى جعلت الدكتور رالف بانش يهمله تمامًا ولا يتخذ أية إجراءات فعالة لردع القوات المعتدية ، مكتفيًا بسؤال حكومة الأردن .. « إذا كانت صادقة فى احتجاجها ، فلماذا لم توقف هذا الزحف أو تشتبك معه »[٢] .

كما أنكرت الحكومة الإسرائيلية أى نشاط لقواتها فى النقب ، ثم عادت – بمجرد أن وصلت طلائع لواءى النقب والجولان إلى شاطئ الخليج عند أم الرشرش فى الساعة ١٥٠٠ يـــوم ١٠ مـــارس – تعلن على الملأ أنها احتلت كل النقب وضمته إلى رقعة الدولـــة باعتباره جزءاً من القسم الإسرائيلى فى قرار التقسيم . وفى نفس الوقت أرسل آلـــون إشـــارة برقية إلى الأركان العامة يبشرها « بأن جنـــوده قد وصلت إلى نهاية الخريطة »[٣] .

وفى ١١ مـــارس تقدمت مصر بواسطة محمود رياض باحتجاج رسمى إلى الجنرال رايلى الأمريكى الجنسية وكبير مراقبى الهدنة للمخالفات العديدة التى ارتكبتها إسرائيل باعتدائها واحتلال أم رشرش . وطالبت مصر أثناء مناقشة العدوان الإسرائيلى فى لجنة

---

(١) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، ص ٤٦٥ .
(٢) عبد الله التل « مذكراته – كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٩ .
(٣) عـــبد الله الـــتل « مذكـــراته – كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٨٠ – ٤٨٢ ، انظر كذلك : حسن البدرى، «الحرب فى أرض السلام » ، ص ص ٤٦٥ – ٤٦٦ ، انظر: نجيب الأحمد « فلسطين تاريخًا ونضـــالاً » ، دار الجليل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ص ٥٥٥ – ٥٥٦ . ذكر نجيب الأحمد أن القوات الإسرائيلية دخلت أم الرشراش يوم ١١ مارس ١٩٤٩ ورفع عليها العلم الإسرائيلى .

الهدنة بإدانة إسرائيل وعودة قواتها إلى مواقعها فاضطر الجنرال رايلى أمام أحكام اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية الصريحة أن يدين فقط الطريقة التى اتبعتها إسرائيل فى احتلال أم رشرش ولكنه لم يدنها لاحتلالها و لم يطالبها بالانسحاب منها[١] .

ثم اجتمعت اللجنة العليا للهدنة برئاسة الجنرال رايلى ومثل مصر القائمقام اسماعيل شرين ومثل إسرائيل موشى ديان فى محاولة جديدة لانسحاب إسرائيل من أم رشرش ، إلا أن الجنرال رايلى أفهم إسماعيل شرين بعدم جدوى المحاولة لأن حكومة الولايات المتحدة لن تمارس أى ضغط على إسرائيل فى هذا الاتجاه[٢] .

وكان أمام إسرائيل للوصول إلى أم رشرش طريقان رئيسيان ، أولهما الاتجاه جنوبًا عن طريق وادى عرابة بجوار الحدود الأردنية والمرور بالقرب من ميناء العقبة مما يعرضها للاحتكاك بالقوات الموجودة فى ميناء العقبة ، والثانى عبور الحدود المصرية جنوب سيناء لبضعة كيلومترات ثم العودة إلى الأراضى الفلسطينية باتباع الطريق الموجود شمال طابا للوصول إلى أم رشرش ، و لم يكن لمصر أية قوات فى هذه المنطقة . واختارت إسرائيل الطريق الثانى لاحتلال أم رشرش لما فيه من عنصر المفاجأة ، فجاءت إدانتها على أساس انتهاكها للحدود المصرية ومخالفتها لنص ما جاء فى الاتفاقية بعدم السماح لأى قوات عسكرية باستخدام هذا الطريق الواقع فى سيناء والذى يصل إلى أم رشرش[٣] . وهو نص اقترحته إسرائيل فى رودس و لم يجد الوفد المصرى سببًا قويًا يجعله يرفض أو يعترض عليه ، وبعد احتلال إسرائيل أم رشرش واحتلالها استفسر محمود رياض من رئيس الوفد الإسرائيلى موشى ديان أثناء اجتماعات لجنة الهدنة عن سبب إصرارهم على وضع هذا النص فى اتفاقية الهدنة مع

---

(١) مقابلة مع محمود رياض بمنزله بالزمالك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩١ .

(٢) أوراق محمود رياض الخاصة، غير منشورة، محاضر اجتماعات لجنة الهدنة خلال شهر مارس ١٩٤٩ .

(٣) اتفاقية الهدنة العامة المصرية – الإسرائيلية ، هيئة الأمم المتحدة رودس – اليونان ، ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩ ، القاهرة ، مطبعة الحربية والبحرية الفرعية ١٩٤٩ ، ص ص ٣ – ١٤ ، وزارة الإرشاد القومى « ملف وثائق فلسطين – مجموعة الوثائق الفلسطينية » ، الجزء الأول ، انظر كذلك : اتفاقية الهدنة العامة المصرية – الإسرائيلية ، ١٩٤٩/٢/٢٤، ص ص ١٠٠٣ – ١٠١٦ .

عدم وجود أية أهمية عسكرية لهذا الطريق بالنسبة للجيش المصرى . وكان رده مفاجأة لمحمود رياض ، فقد ذكر أنهم يقصدون بهذا النص القوات البريطانية الموجودة فى القناة لأنــه قــد يحــدث فى المنطقة ما يدفع بريطانيا إلى محاولة إيجاد اتصال برى بين قواتها الموجــودة فى قــناة السويس وقواتها الموجودة فى ميناء العقبة ، وهو ما يتفق فعلاً مع رواية توفيق أبو الهدى عن محاولة بريطانيا منع إسرائيل من احتلال أم رشرش[1] .

وقــد أدرك إسماعــيل شرين خطورة الموقف واستطاع إقناع حيدر باشا بضرورة تشــكيل لجــنة عســكرية وقانونية ، كان من بين أعضائها القائمقام إسماعيل شرين والدكــتور وحــيد رأفــت والبكباشى محمود رياض مندوبين عن القوات المسلحة . وتوجهت اللجنة بطائرة عسكرية إلى شرم الشيخ فشاهدت خليج العقبة وجزيرة تيران وصنافير واتضح لها أن إسرائيل بوصولها إلى خليج العقبة وجزيرة تيران أصبحت تهدد جــنوب شبه جزيرة سيناء والممر المائى لقناة السويس ، كما تهدد منطقة البحر الأحمر كلها سواء السواحل المصرية أم السعودية[2] .

وفى يــوم ١٣ مــارس ١٩٤٩ ، أتم اللــواء إســكندرونى مهمته باحتلال عين جــدى[3] .

إن مــا يــزيد فى فداحــة المأساة ، أن نعلم أن القوات اليهودية التى وصلت إلى أم رشرش لم تزد على ٢٠٠ جندى جاءوا بسيارات الجيب واللوريات وبعدد قليل من المدرعات الخفيفة .

وبديهــى أن هذه القوة كان يمكن القضاء عليها فى الصحراء لو سمح جلوب باشا لمفــرزة واحدة أن تعمل بحرية فى النقب ، وخاصة أن جنود الجيش العربى الأردنى قد عرفوا مسالك النقب وطرقاته وخبروها جيدًا طوال السنين الماضية التى كان يجرى فيها هذا الجيش مناورات سنوية بها[4] .

---

(١) مقابلة مع محمود رياض بمنزله بالزمالك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩١ .

(٢) محمود رياض « مذكراته » ، الجزء الثانى ، ص ٢٤ .

(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، ص ٤٦٦ .

(٤) عبد الله التل « مذكراته » ص ٤٧٩ .

ويذكر عبد الله التل : « وهكذا خسرنا منطقة تعتبر من أخطر المواقع الاستراتيجية فى الشرق العربى ولأول مرة فى تاريخ العرب والإسلام الطويل ينقسم العالم الإسلامى - العربى الذى يمتد من طنجة فى الغرب إلى الصين فى الشرق إلى قسمين نتيجة وصول اليهود إلى أم رشرش . وتزيد مساحة المنطقة التى سلمها جلوب باشا لليهود على ثلاثة آلاف كيلومتر وربع »[١] .

وفى ١٥ مارس ١٩٤٩ قدمت السلطات الأردنية مذكرة أخرى تفصيلية إلى الأمم المتحدة فى هذا الخصوص . وقد قام الدكتور (رالف بانش) بإجراء تحقيق فى ادعاءات كل من الأردن وإسرائيل فى خصوص تحرك القوات التابعة للطرفين ، وفى خصوص تحرك القوات الإسرائيلية نحو قرية (أم رشرش) واحتلالها ، وبعث بنتيجة ما أجراه فى هذا الشأن من تحقيقات إلى رئيس مجلس الأمن فى برقية بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٤٩ . وقد جاء فى نهاية هذه البرقية : « إننى متأكد تمام التأكد أنه - ما عدا ما هو متعلق العقبة ذاتها - فإن المراكز التى أنشأتها فى هذه المنطقة القوات الأردنية والقوات الإسرائيلية قد أنشئت كلها بعد الهدنة التى دخلت فى التنفيذ فى ١٨ يوليو ١٩٤٨ ، مع استثناء مراكز القوات الأردنية فى (عين عبد) و (وكرنوب) ، وبذلك تكون هذه المراكز جميعها قد أقيمت خلافًا لأحكام الهدنة »[٢] .

وعلى الرغم من أن هذه النتيجة الخطيرة التى وصل إليها التحقيق الذى أجراه الدكتور (رالف بانش) فإن الأمر وقف عند هذا الحد ، فبقيت القوات الإسرائيلية فى (أم رشرش) . غير أن بقاءها فيها يعد من الوجهة القانونية الدولية ، ومن وجهة نظر الدول العربية - حتى ما كان منها متهادنًا مع إسرائيل - أمرًا غير مشروع ، لم تسلم به الدول العربية قط ، ولا يجوز الاحتجاج به عليها ، كما لا يجوز الاحتجاج به فى مواجهة المملكة العربية السعودية - التى تشترك فى السيادة على خليج العقبة - لأن هذه الدولة لم تعقد هدنة ما مع إسرائيل . يضاف إلى ذلك أن المراكز والخطوط التى

---

(١) عبد الله التل « مذكراته » ص ٤٧٩ .

(٢) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٤ .

تقــررت فى اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل هى مراكز وخطوط عسكرية بحتة ، ولا يمكن – على أية صورة من الصور – اعتبارها حدودًا إقليمية من حيث القانون الدولى[١] .

ولقــد كــان لاحتلال إسرائيل لقرية (أم رشرش) التى صارت تعرف الآن بميناء (إيلات) الإسرائيلى ، أثر بالغ لدى السلطات المصرية . فقد اتفقت هذه السلطات مع سلطات المملكة العربية السعودية على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرة (تيران) و(صــنافير) وهمــا الجزيرتان اللتان تتحكمان فى مداخل خليج العقبة . وعلى أثر هذا الاحــتلال أقامــت الســلطات العسكرية المصرية فى (رأس نصرانى) مدافع ساحلية تسيطر تمامًا على الملاحة فى مضيق (الانتربرايس)[٢] .

وبعــد أن تم ذلك رأت وزارة الخارجية المصرية أن تبعث يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٠ بمذكــرة إلى الحكومة البريطانية – بوصفها الدولة التى تمون قواتها فى الأردن عن طريق ميــناء العقــبة – تعلمها بأنه « بالنظر للمحاولات التى ظهرت من جانب السلطات الإسرائيلية بالنسبة لجزيرتى تيران وصنافير بالبحر الأحمر ، بمدخل خليج العقبة ، أمرت الحكومــة المصــرية ، وذلك بالاتفاق التام مع حكومة المملكة العربية السعودية قواتها باحــتلال الجزيرتين احتلالاً فعليًا . وهذا الاحتلال الآن أمر واقع . وقد جاء فى هذه المذكرة : « ولما كان هذا الاحتلال لم توح به فكرة إعاقة المرور البرى على أى وجه فى المجال البحرى الذى بين الجزيرتين المذكورتين وشاطئ سيناء المصرى ، فمن المسلم به أن هذا الممر ، وهو الوحيد الممكن سلوكه عمليًا ، سيبقى حرًا كما كان بالماضى ، وذلــك وفقًا للعرف الدولى ومبادئ القانون الدولى المقررة »[٣] . وقد رأت الحكومة المصــرية أن تــبلغ السفارة الأمريكية بالقاهرة بمذكرة مماثلة فأخطرتها بذلك يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠[٤] .

---

(١) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ص ١٥ – ١٦ .

(٢) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٦ .

(٣) وثــائق وزارة الخارجــية المصرية ، مذكرة برقم ٣٦ بعث بها الدكتور وحيد رأفت مستشار الرأى لــوزارة الخارجــية بتاريخ ٢٣ يناير سنة ١٩٥٠ ، انظر كذلك وثائق الخارجية المصرية ، مذكرة من الخارجية المصرية إلى الحكومة البريطانية برقم ٥٥ بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٥٠ .

(٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، مذكرة برقم ٤٢ بعث بها وكيل وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .

اتفاقية المثلث

وفى اجتماع (الشونة) وفى العاشرة والنصف صباح يوم ٢٦ مارس ١٩٤٩ اجتمعت الحكومة الأردنية وجلوب باشا بالملك عبد الله ، حيث كشف توفيق باشا أبو الهدى - رئيس الحكومة الأردنية - النقاب عن مأساة النقب الجنوبى بما فى ذلك أم الرشرش ، فقال : كان وصول القوات البريطانية للعقبة بناء على طلبنا وبقصد منع اليهود من الوصول إلى الساحل حتى لا يمنعوا اتصالنا بمصر ، ولكن ذهبت أم الرشرش ولم يتدخل الإنجليز . وعندما سألنا السير ألك كركيرايد عن السبب حاول أن يبين وقوع سوء فهم بما يتعلق بمجيء القوات للعقبة وأنها جاءت فقط لحماية العقبة . ولكن أقنعته بوجهة نظرى فأبرق إلى المستر بيفن فجاء الجواب مؤيدًا صحة رأى الحكومة الأردنية وأن الحكومة البريطانية تعتذر لتقصيرها فى تنفيذ العهد لسببين :

الأول : لأن أمريكا نصحتها بعدم الاشتباك مع اليهود .

والثانى : لأن أغلب دول الكومنولث البريطانى لم توافق على الاشتباك مع اليهود[١] .

ثم أعلن توفيق باشا أبو الهدى ، ما قرره مجلس الوزراء الأردنى تنفيذًا لرغبة جلالة الملك عبد الله وحرصًا على سلامة الجيش . وكان القرار ما يلى[٢] :

١ - يدعى اليهود للشونة يوم الثلاثاء ٢٩ مارس ١٩٤٩ أى قبل آخر موعد لقبول الاتفاقية التى تم التباحث بشأنها بين الأردن وإسرائيل .

٢ - يستحسن أن يحضر مع الوفد اليهودى رئيس حكومتهم لأن رئيس الحكومة الأردنية سيحضر الاجتماع .

٣ - تنوى الحكومة الاتفاق مع الوفد اليهودى وتلبية جميع طلباته ، ولكنها ستسعى لتعديل بعض المواد .

٤ - يستدعى رئيس الوفد الأردنى فى رودس للاشتراك فى المفاوضات وللاطلاع على كل ما يجرى ليسهل توقيع الهدنة فى رودس .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

٥ - يفــاوض اليهود فى هذه المرة كل من : فوزى باشا الملقى - وزير الدفاع ، فــلاح باشا المدادحة - وزير العدلية ، حمد بك الفرحان - سكرتير الحكومة ، الميجر كوكر - رئيس فرع الحركات الحربية .

٦ - تكون الاتفاقية مع اليهود سرية ، وتدمج فى هدنة رودس وتصدر كأنها تمت فى مفاوضات الهدنة هناك ويحاط نائب الوسيط والمراقبون علمًا بكل ما جرى .

وفى اجــتماع الشونة يوم ٢٦ مارس ١٩٤٩ ، شرح الملك عبد الله موقف أمريكا وإنجلــترا ، ووضح أنه لا يعتمد عليهما وعلى وعود أية أمة أجنبية . وكشف النقاب عــن البرقية الواردة لــه من المستر بيفن حيث جاء فيها : « تنصح حكومة صاحب الجلالــة الــبريطانية أن تتصلوا جلالتكم شخصيًا بالمستر ترومان لاستطلاع رأيه فى المشــكلة[1] . واســتطرد الملك عبد الله قائلاً إنه رغم اعتقاده بعدم جدوى الاتصال بــترومان فإنه قد بعث له برسالة خاصة يوم ٢٥ مارس ١٩٤٩ يرجوه فيها أن يتدخل فى الأمر لإيقاف اليهود عن حدهم[2] .

وفى يــوم ٢٩ مــارس ١٩٤٩ ، أرسل الرئيس الأمريكى ترومان رده على رسالة الملــك عــبد الله ، حيث جاء فيها : « يشكر المستر ترومان لجلالتكم اتصالكم به ، وينصـــح بقبول مطالب اليهود فى هذه المرة . ويعد المستر ترومان جلالتكم أن يقف حــائلاً دون طلــبات يهودية فى المستقبل ، أو أى توسع يهودى جديد على حساب القسم العربى الباقى من فلسطين »[3] .

عاد من رودس يوم ٢٩ مارس ١٩٤٩ القائمقام أحمد صدقى الجندى رئيس الوفد الأردنى فى مفاوضات رودس ومعه الرئيس على أبو نوار عضو الوفد ، لحضور الجلسة الختامــية الــتى تعقدها الحكومة الأردنية مع اليهود فى الشونة ، لوضع الصيغة النهائية لاتفاقية المثلث[4] .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ٥٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢٩ .

وفى مســاء اليوم التالى ٣٠ مارس ١٩٤٩ ، وبناء على طلب الملك ، تحرك حرس الجـيش مع الوفد اليهودى من القدس للشونة . وكان الوفد اليهودى مكونًا من نفس الأعضـاء الذين اشتركوا فى الجلسات السابقة بالإضافة إلى (روبين شيلوح) رئيس الوفـد اليهودى فى رودس الذى حضر للاشتراك فى آخر جلسة كما فعل رئيس الوفد الأردنى[١] .

وبعد ترحيب الملك عبد الله بأعضاء الوفد الإسرائيلى ، أذن لتوفيق باشا أبو الهدى – رئيس الحكومة الأردنية – بالتحدث إلى الوفد رسميًا وباسم الحكومة الأردنية . وبدأ توفـيق أبــو الهــدي موجهًا كلامه إلى إيتان والملك صامت لا يتكلم : « وتعلمون سيادتكم أن السياسة الأصلية التى سرنا عليها ، هى أن يقف الجيش العربى على حدود القســم العــربى من فلسطين ولا يتعداه و لم يتعده بالفعل ولو أن هذه السياسة لم تقل أو تنشر ، إلا أنها كانت بالفعل مرسومة . و لم يكن هناك ميل للحرب بالمرة ، ولا نية أكــيدة . ويمكــنكم أن تقدروا صعوبة موقفنا فى تنفيذ تلك السياسة المرسومة ، وفى الانجراف مع سياسة الدول العربية مجاراة لها وللتغطية فقط . والآن لن نتقيد بعد اليوم بنصائح خارجية حتى ولا بالسياسة العربية . ونرغب من كل قلوبنا أن نصل معكم إلى تســوية وصلح دائم . وإذا توافرت لديكم حسن النية كما هى عندنا ، لا شك بأننا ســننهى كــل المشاكل بما تمليه المصالح المشتركة وحسن الجوار بين بلدينا . والمشكلة الحالــية هــى الهدنــة الدائمة التى تطالبون فيها بتغيير الحدود وصعوبة ذلك علينا . وحكومة صاحب الجلالة ترى وجوب التقيد بمشروع التقسيم وفيه تقسيم المنطقة إلى:

(أ) منطقة داخلة حسب المشروع بدولتكم .

(ب) منطقة داخلة حسب المشروع لنا أى بالقسم العربى .

ثم استطرد توفيق باشا أبو الهدى قائلاً : « إن اتفاقية هذه الليلة ستدخل فى اتفاقية رودس وكأنهــا جزء منها ، وهو ما جعلنا نستدعى صدقى بك الجندى ليشترك بنفسه فى محادثات الليلة »[٢] .

---

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ص ٥٢٩ – ٥٣٠ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣١ – ٥٣٢ .

رد إيتان على توفيق باشا أبو الهدى قائلاً : « ... إن الصداقة يجب أن تكون على أساس متين لا تشوبه شائبة فى المستقبل ومن الأسس التى ستجعل صداقة إسرائيل بالأردن قوية ، هى تسوية مشكلة المثلث بما يرضى إسرائيل ويؤمن سلامتها وطمأنينة شعبها ، إن طلبات إسرائيل فى المثلث لا تقبل المساومة ، ولا يمكن التنازل عن شىء منها ، لأن الخبراء العسكريين أوصلوا بها كحد أدنى لتأمين سلامة الدولة اليهودية الفتية من تلك الناحية ، وتوصيتهم هذه تعتبر بنظر الحكومة أهم بكثير من قضية لاجئين وتعويضات وما شابه ذلك ، لأن سلامة إسرائيل هى ما يطالب بها الوفد اليهودى بالدرجة الأولى ، ومتى تأمنت هذه المطالب سيتم الاتفاق هذه الليلة »(١) .

وعلى الفور بدأت المفاوضات بين الوفد الأردنى والوفد اليهودى واستعمل فوزى باشا الملقى وزير الدفاع الأردنى مقدرته ومؤهلاته الدبلوماسية الخارقة ، وعمل كل ما باستطاعته لـيزحزح اليهود عن شبر واحد مما طلبوه ولكن دون جدوى . وعندما قاربت الساعة الرابعة صباحًا وقع الطرفان الاتفاقية التى لم تختلف عن مسودة الاتفاقية السابقة فى شىء(٢) . وزادت هذه الاتفاقية على سابقتها بالمادة التى جعلتها نهائية نافذة المفعول بمجرد توقيع الهدنة فى رودس ، وقد وقع الاتفاقية والخرائط كل من فوزى باشا الملقى وزير الدفاع الأردنى وفلاح المدادحة وزير العدلية والقائمقام صدقى الجندى رئيس وفد رودس والرئيس على أبو نوار عضو وفد رودس والميجر كوكر رئيس فرع الحركات الحربية الأردنية . وعاد صدقى الجندى إلى رودس حاملاً نسخة من الاتفاقية لإدماجها فى معاهدة رودس(٣) .

وحينما عاد رئيسا الوفدين الأردنى واليهودى إلى رودس ، لم تستغرق المفاوضات أى وقت بعد أن حقق اليهود مطالبهم جميعًا . وقدم الوفدان نسخة اتفاقية الشونة إلى الجنرال رالى والدكتور بنش ، وعلى ضوئها قاما بتنظيم اتفاقية الهدنة التى وقع عليها

---

(١) عبد الله التل « مذكراته » ص ص ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥١٥ - ٥١٦ . انظر : مسودة الاتفاقية ، ص ص ٥١٥ - ٥١٦ .

(٣) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣٣ - ٥٣٥ .

الطرفان فى الساعة السابعة والنصف من مساء الأحد ٣ أبريل ١٩٤٩[١] ، التى شملت جميع النقب بما فى ذلك أم الرشرش التى احتلها اليهود فى الهدنة ، لا بل سلمت إليهم تسليمًا[٢] . لقد جعلت اتفاقية الهدنة فى رودس حدود إسرائيل كما هو موضح فى الخريطة المرفقة[٣] .

وهكذا سلم الوفد الأردنى بحق اليهود فى النقب الجنوبى حتى خليج العقبة . ولم يبق للأردن موضع قدم فى جنوب فلسطين ، ومع أن الوفد وصل إلى رودس حاملاً الخرائط التى تشير باحتلال الجيش العربى لتلك المنطقة الشاسعة . ويقع اللوم فى هذا على الحكومة الأردنية وحدها[٤] .

إلا أن وثائق جامعة الدول العربية توضح صورة أخرى لما سبق أن قاله توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن .. ففى مؤتمر رؤساء الحكومات العربية الذى عقد فى يناير سنة ١٩٥٥ ، روى توفيق باشا قصة احتلال إسرائيل لأم رشرش للتدليل على أن أحد أهداف قيام إسرائيل هو فصل مصر عن المشرق العربى ، فذكر أنه عندما بدأت القوات اليهودية فى تقدمها جنوبًا فى اتجاه خليج العقبة فى مارس ١٩٤٩ لاحتلال أم رشرش جاءه الوزير المفوض البريطانى فى عمان ليقول له بأن حكومته ترى بضرورة استمرار المواصلات البرية بين مصر والدول العربية وتقترح إرسال كتيبة بريطانية إلى مدينة العقبة لتمنع اليهود من الوصول إلى خليج العقبة . وأوضح أن تواجد كتيبة بريطانية فى ميناء العقبة كان يتطلب موافقة الحكومة الأردنية حسب الاتفاقية العسكرية بين البلدين ، وأضاف أنه وافق فورًا على الاقتراح ، وكانت الحكومة البريطانية ترغب فى الاحتفاظ بخطوط مواصلاتها بين قواتها فى قناة السويس ، وقواعدها فى الأردن والعراق والخليج . ووصلت الكتيبة فعلاً إلى ميناء العقبة الأردنى على أن تتحرك فى الوقت المناسب لوقف التقدم اليهودى ، إلا أنها ظلت فى ميناء

---

(٤) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ٥٣٦ .

(١) عبد الله التل « مذكراته » ص ٤٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٥٣٦ - ٥٣٨ ، انظر الخريطة .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣٩ .

العقبة دون أن تتحرك لتنفيذ المهمة المكلفة بها ، بينما استمرت القوات اليهودية فى تقدمها إلى أن احتلت أم الرشرش . وذكر توفيق باشا فى روايته هذه أنه استدعى القائد الإنجليزى واستفسر منه عن السبب فى عدم التعرض للقوات اليهودية ، ووقف الزحف اليهودى ، فأجاب بأن التعليمات التى لديه هى عدم التعرض للقوات اليهودية إلا إذا اعتدت على الحدود الأردنية(١) .

واستدعى توفيق باشا الوزير المفوض البريطانى مستنكرًا الموقف البريطانى وذكره بحديثه وطلب منه تفسيرًا لموقف الحكومة البريطانية . وفى اليوم التالى وصلته رسالة مستر بيفن وزير خارجية بريطانيا ، يبلغه فيها أن الحكومة الأمريكية ضغطت عليه لتغيير سياسته والسماح لإسرائيل باحتلال أم الرشرش ، وكان الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد اعترف بإسرائيل فور إعلان قيامها وأطلق المقولة المشهورة بأن العرب ليس لهم صوت فى انتخابات الرئاسة الأمريكية(٢) .

ورواية توفيق أبو الهدى تشير إلى مدى التواطؤ الأمريكى اليهودى فى التخطيط لقيام إسرائيل وعدوانها على الشعب الفلسطينى وتحقيق أهدافها للوصول إلى خليج العقبة ، وتشير أيضًا إلى مسئولية بريطانيا التى لم تكن فى تلك الوقت بالذات بالدولة المستضعفة لتخضع للضغط الأمريكى بهذه البساطة(٣) .

وبعد اغتيال الملك عبد الله وإعفاء ابنه الملك طلال وتولى الملك حسين الحكم حيث كان صغيرًا ، طلب توفيق أبو الهدى عقد جلسة سرية لمجلس النواب الأردنى حمل فيها الملك عبد الله كل النكبات وهاجمه واتهمه فى أمور كثيرة وقال إن الملك فاروق والملك عبد الله كانا يتسابقان للسيطرة على أكبر جزء من فلسطين وإن الملك

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، غير منشورة ، محضر جلسة مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة بالقاهرة فى يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن قصة احتلال إسرائيل لأم الرشرش .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، غير منشورة ، محضر جلسة مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة بالقاهرة فى يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى .

(٣) محمود رياض ، « مذكراته » ، الجزء الثانى ، دار المستقبل العربى، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .

عـــبد الله عين حاكمًا عسكريًا على اللد والرملة وهو نعيم عبد الهادى وأجبر جلوب باشا على إعطائه ســرية من الجيش لحماية نعيم عبـــد الهادى لا لمقاتلة اليهود طمعًا فى ضـــمها إلى ملكه وقال إنه هرب إلى بيروت لعدم توقيع اتفاقية رودس أو تصديقها لكنه أجبر على ذلك فيما بعد وقال إن الملك عبد الله هو الذى كان يتصل مع اليهود مـــنذ عـــام ١٩٤٥ مع الياهو ساسون فى باريس محاولاً ضم فلسطين مع الأردن تحت ملكه وإعطاء اليهود حكمًا ذاتيًا فى مناطق اكتظاظهم ثم محاولاته الكثيرة لضم فلسطين أو أى جزء منها له وتحت ملكه وحمل الملك عبد الله كل شىء وقال عنـــدى الوثائق الثبوتية[١] .

ولكن مجلس النواب الأردنى قال له : هذا دفاع مرفـــوض لأن رئيس الوزراء هو المســـئول عـــن التنفيذ ورد توفيق أبو الهدى قائلاً : إنه عارض وحدة الضفتين وقدم مذكرة خطية بذلك للملك عبد الله قال فيها إن قضية فلسطين قضية عربية إن لم تكن دولـــية ولا يستطيع الأردن تحملها وأن الوحدة هذه ستشكل خطرًا على الأردن ، ثم قال : والآن أكرر ما قلته إذا رغبتم وأنتم نواب الأمة فسأعلن فصل هذه الوحدة[٢] .

اســـتاءت العائلة الهاشمية من توفيق أبو الهدى بسبب هذا البيان وقال الكثيرون إنه انـــتهازى غـــدار . وفى الأول من يوليو ١٩٥٦ وجد أبو الهدى ميتًا فى بيته فى عمان ومـــربوطًا برقبته بحبل فى شباك الغرفة وصدر بيان رسمى أردنى نعى فيه رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى وقال البيان الرسمى إن المرحوم كان يعانى من مرض عصبى وقد وجد منتحرًا فى بيته وهكذا انتهت حياته[٣] .

وقد ذكر الرئيس جمال عبد الناصر : « إن إسرائيل ضربت بقرارات الأمم المتحدة الصادرة سنة ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ وسنة ١٩٤٩ عرض الحائط » . وتساءل : ماذا فعلت إســـرائيل بقـــرارات الهدنـــة التى فرضها مجلس الأمن ؟ إنها احتلت كل ما احتلته من

---

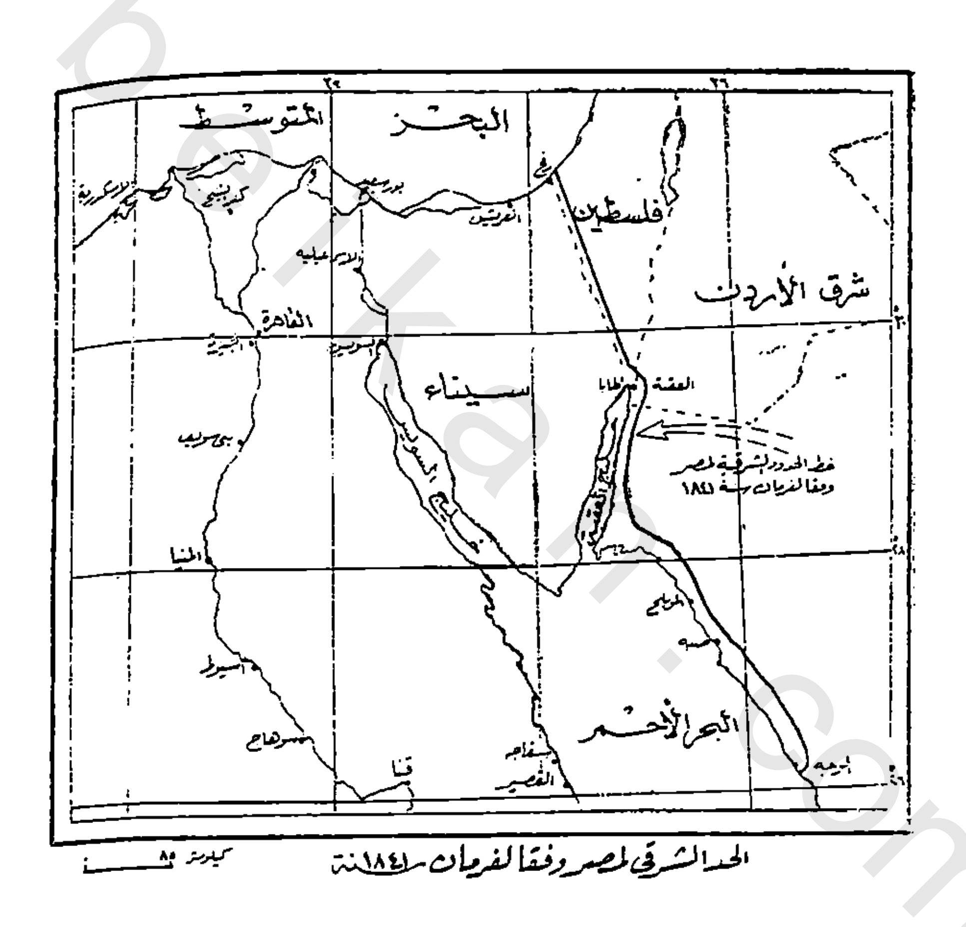
(١) نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، دار الجيل للنشر ، عمان ، الأولى ١٩٨٥ ، ص ٦١٧ .
(٢) نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، ص ٦١٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٦١٨ .

الأرض الفلسطينية بعد هذه القرارات ، وأبرز مثل على ذلك **ميناء إيلات الذى بنته إسرائيل على موقع أم الرشرش العربى** . لقد احتلت هذه المنطقة بعد اتفاقيات الهدنة... جرى توقيع اتفاقيات الهدنة فى فبراير ١٩٤٩ . وفى مارس ، الشهر الذى يليه مباشرة ، احتلت إسرائيل هذا الموقع وداست بأقدامها على كل قرارات مجلس الأمن وعلى اتفاقيات الهدنة التى لم يكن الحبر الذى وقعت به قد جف بعد »[١] .

والخلاصة : إنه على الرغم من صعوبة طرح قضية احتلال إسرائيل لقرية (أم رشرش) المصرية العربية على بساط التحكيم الدولى العادل إلا أننا نطالب بذلك لتعود كما كانت دومًا ، جزءًا عزيزًا غاليًا من أرض هذا الوطن ، ولتبقى فى نفوسنا جميعًا رمزًا نبيلاً للإصرار على نيل الحق وعدم التفريط فى التراب الوطنى مهما طال الزمان .

إن الوثائق التاريخية هى اللغة الموضوعية التى تحمل أمانة الحقائق ، لا تصبغها بلون، ولا تحملها بفكر أو رؤية أو غرض ، وإنما تسوقها للقارئ وللتاريخ فى حياد وتجرد ، وليقف القاصى والدانى على دقائق هذه القضية ، ويتعرف على أبعادها . إننا نطالب بتقديم هذه القضية العادلة لمحكمة العدل الدولية كما حدث فى قضية طابا وكلنا ثقة فى حقنا الوطنى الأصيل فى عودة قرية (أم رشرش) للسيادة الوطنية .

(١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، « وثائق عبد الناصر - خطب ، أحاديث ، تصريحات ، الفترة يناير ١٩٦٧ ديسمبر ١٩٨٦ » ، حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى ممثلى أجهزة الإعلام العالمية والعربية فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ص ١٨٩ - ١٩٠ .



الحد الشرقى لمصر وفقًا لفرمان سنة ١٩٤١

المصــادر

أولاً : وثائق غير منشورة

١ - العــربية

- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب فلسطين - ملف الهدنة رقم (٦٦٥) .
- وثــائق وزارة الدفاع المصــرية ، دار المحفوظات المركزية العســكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٦٨) ، ملف العملية « شن تاف شن » .
- وثــائق وزارة الدفاع المصــرية ، دار المحفوظات المركزية العســكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٨٨) ، ملف العملية « شن تاف شن » .
- وثائق وزارة الدفاع المصــرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٧١) ، ملف العملية « عوفداه » .
- وثــائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، ملف رقم (٧١٠) ، ملف معارك لواء النقب ولواء جولاني واللواء الثامن المدرع الإسرائيلي .
- وثــائق وزارة الخارجــية المصرية مذكرة رقم ٣٦ بعث بها الدكتور وحيد رأفت مستشار الرأى لوزارة الخارجية إلى السيد وزير الخارجية المصرى الدكتور محمد صلاح الدين بتاريخ ٢٣ يناير سنة ١٩٥٠ .
- وثــائق وزارة الخارجــية المصــرية مذكرة من الخارجية المصــرية إلى الحكومة البريطانية برقم (٥٥) بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .
- وثــائق وزارة الخارجية المصرية مذكرة رقم (٤٢) بعث بها وكيل وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .
- وثــائق جامعة الدول العربية ، محضر مجلس مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة العربية بالقاهــرة فى يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن - لاحتلال إسرائيل لأم الرشرش .

٢ - الأجنبيـــة

- Foreign Office, Registry No. E. 12296/582/65, November 7-1922.
- Foreign Office, **"Effects of deviation of river on boundaries"**, E. 2916/65/1927.
- Foreign Office, S.W.I. to Colonial Office, E. 2916/65/, 12th July, 1927.
- Foreign Office, **"Memorandum on the execlusion of Palestine from the area assigned for Arab independence by McMahon - Hussein Correspondence of 1915 - 1916"**, No. 5539/21590. October 24, 1930. London.
- Telegram from the Secretary of States for the Colonies to the High commissioner for Palestine, No. 280, 28th August 1922.
- Telegram from the Secretary of States for the Colonies to the High commissioner for Palestine, No. 286, 30th August 1922.
- Department of State, Division of Publication, Series, C, No. 55, Palestine No. 1 **"Mandate for Palastine"**, prepared in the Division of NEAR EASTERN Affairs. U.S.A., May 1926.

ثانيًا : وثائق منشورة

١ - العـــربية

- وثـــائق وزارة الدفـــاع المصـــرية ، « اتفاقية الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية ، هيئة الأمم المتحدة - رودس - اليونان ، ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩ » ، القاهرة مطبعة الحربية والبحرية الفرعية ١٩٤٩ .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب فلسطين - ملف الهدنة رقم (٦٦٥) .
- وثـــائق وزارة الخارجية المصـــرية ، القضية المصرية (١٨٨٢ - ١٩٥٤) ، المطبعـــة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٥ .
- وزارة الدفـــاع الوطـــنى - الجـــيش اللبـــنانى ، الأركان العامة ، الشعبة الخاصة ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، « القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى » ، بيروت ١٩٧٣ .
- جامعـــة الـــدول العربية ، الأمانة العامة ، إدارة فلسطين ، الشعبة السياسية « الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين » ، المجموعة الأولى ١٩١٥ - ١٩٤٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الحكومة المصرية ، « جريدة الوقائع المصرية » ، العدد ١٢٧، السنة ٧٦ ، بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٠٦ . نص الاتفاقية المصرية التركية المتعلقة بالحد السياسى الشرقى المصرى التركى (الفلسطينى) .

- أنيس صايغ وآخرون ، الموسوعة الفلسطينية، الطبعة الأولى، مطبعة ميلانو ستامبا (فارحليانو- إيطاليا) .
- وزارة الإرشاد القومى ، « ملف وثائق فلسطين - مجموعة الوثائق الفلسطينية » ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٩ .
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، « وثائق عبد الناصر - خطب ، أحاديث ، تصريحات ، الفترة يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٨٦ » ، حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى ممثلى أجهزة الإعلام العالمية والعربية فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢ - الأجنبيـــة

- F.O. 882/17. Syrian political situation since 1800.
- F.O. 78/5479. Immigration of Jelils into Palastine, 1891 - 1905.
- United Nations Peacekeeping, 1946 - 1967, Documents and Commentary. The - Middle East, Oxford University Press, London 1969.

ثالثـاً : المذكرات الشخصية

١ - غير منشورة

- أحمد فؤاد صادق ، الأوراق الشخصية ومذكراته .
« أحمد فؤاد صادق : كان يشغل منصب قائد القوات المصرية بفلسطين بعد اللواء أحمد على المواوى ، ثم شغل منصب رئيس أركان الجيش المصرى » .
- حسن البدرى ، الأوراق الخاصة ، وقد شغل اللواء أركان حرب حسن البدرى مناصب عسكرية كثيرة منها : رئيس هيئة البحوث العسكرية بالقوات العسكرية بالقوات المسلحة ، ومدير أكاديمية ناصر العسكرية العليا .
- عبد الرحمن عزام ، الأوراق الشخصية ومذكراته .
« عبد الرحمن عزام : شغل منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية » .
- محمود رياض ، ومذكراته الخاصة ومحاضر اجتماعات لجنة الهدنة .
« محمود رياض : شغل منصب وزير خارجية مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٢ ثم شغل منصب أمين عام جامعة الدول العربية من عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٧٩ » .

٢ - منشـــورة

- أحمد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ .
- أحمـــد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ .
- أحمد شفيق باشا ، « حوليات مصر السياسية » ، عشرة أجزاء ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٦ .
- رشدى باشا ، « مسألة العقبة » ، دار الكتب المصرية .
- عـــبد الحميد الثانى (السلطان) ، « مذكراتى السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨ » ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٧ .
- عبد الله التل ، « مذكراته - كارثة فلسطين » ، دار القلم ، القاهرة ١٩٥٩ .
- محمود رياض ، « مذكراته » ، الجزء الثانى ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ .
- نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، دار الجيل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ .

رابعًا : المقابلات الشخصية

- أمين حامد هويدى ، مقابلات كثيرة معه ابتداء من ١١ أكتوبر ١٩٨٩ وحتى الآن بمنـــزله بالحى الثانى بمصر الجديدة. وأمين هويدى شغل مناصب كثيرة منها: وزير دولة لشئون مجلس الأمة ووزير حربية .
- زكـــريا محيى الدين ، مقابلات معه عام ١٩٦٨ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٦ ، بمنـــزله بالعجوزة وقد شغل مناصب كثيرة منها : وزير الداخلية ورئيس وزراء ونائب الرئيس جمال عبد الناصر .
- عـــبد اللطـــيف البغـــدادى ، مقابلات معـــه عام ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٦ ، بمـــنـــزله بمدينة نصر . وقد شغل مناصب وزارية كثيرة ثم شغل منصب نائب الرئيس جمال عبد الناصر .
- كمـــال الديـــن حسين ، مقابلات كثيرة معه عام ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٦ ، بمنـــزله بالعجوزة وبنها . وقد شغل مناصب وزارية كثيرة ثم شغل منصب نائب الرئيس عبد الناصر .
- محمـــد صلاح الدين ، مقابلات معه بمنـــزله بالزمالك . وقد شغل منصب وزير خارجية مصر فى آخر وزارة وفدية .
- محمـــود رياض ، مقابلات معه كثيرة وشبه مستمرة خلال الفترة من يناير ١٩٨٨ وحتى فبراير ١٩٩٢ بمـــنـــزله بالزمالك . وقد شغل مناصب كثيرة منها : عضو الوفد المصرى فى مفاوضات رودس ثم سفير مصـــر فى دمشق والمندوب الدائم لمصر فى الأمم المتحدة، ووزيرًا للخارجية، ثم أمينًا عامًّا لجامعة الدول العربية .

خامسًا : الدوريات

- جريدة المقطم العدد ٥١٩٥ بتاريخ الثلاثاء ٢ مايو ١٩٠٦م الموافق ٩ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المقطم العدد ٥١٩٦ بتاريخ الأربعاء ٣ مايو ١٩٠٦م الموافق ١٠ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المقطم عدد يوم ٦ أبريل ١٨٩٢ .
- جريدة المقطم العدد ٥١٢٩ بتاريخ الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٩٠٦م الموافق ١٩ ذو الحجة ١٣٢٣هـ .
- جريدة المقطم العدد ٥٢٠١ الصادر فى يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٠٦م الموافق ١٦ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المؤيد ، القاهرة ، عدد يوم ٢٤ أبريل ١٨٩٢ .
- مجلة شئون فلسطين ، رقم ٥ ، نوفمبر ١٩٧١ ، خيرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧١ .
- مجلة شئون فلسطين ، عدد ٥٥ ، مارس ١٩٧٦ ، عاد حامد الجادر ، « سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة فى فلسطين أيام الانتداب » .

سادسًا : الكتب والمراجع

١ - العربيـــة

- إبراهيم أمين غالى ، « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- أحمد أمين عامر ، « أزمة طابا وانعكاساتها على الدبلوماسية المصرية » ، مجلة السياسة .
- أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر من واقع كتابات المسئولين عن الأحداث » ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٩ .
- أسعد رزوق ، « إسرائيل الكبرى » ، سلسلة كتب فلسطين ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٨ .
- أمين سامى باشا ، « تقويم النيل وعصر محمد على باشا » ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٢٨ .
- أورخان محمد على ، « السلطان عبد الحميد الثانى » ، الكويت ١٩٩١ .
- أيلى ليفى أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودى » ، القاهرة ١٩٣٤ .
- حامد سلطان ، « مشكلة خليج العقبة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- حسن البدرى ، « الحرب فى أرض السلام » ، دار الوطن العربى ، بيروت ١٩٧٦ .
- عادل محمود رياض ، « الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ .

- عباس مصطفى عمار ، « المدخل الشرقى لمصر » ، الجمعية الغرافية المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
- عبد الوهاب الكيالى ، « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٠ .
- فيليب يوسف جلاد ، « القاموس العام للإدارة والقضاء » ، ستة أجزاء ، الإسكندرية ١٨٩٩ - ١٩٠٢ .
- محمد السيد غلاب ، « الجغرافية التاريخية لإقليم النقب » ، المحاضرة العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، الموسم الثقافى ، سنة ١٩٥٦ .
- محمد عبد الفتاح محسن ، « دراسة موجزة عن الحدود الشرقية لمصر » ، مصلحة المساحة العسكرية القاهرة ١٩٧٨ .
- محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .
- محمد فيصل عبد المنعم ، « أسرار ١٩٤٨ » ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ١٩٦٨ .
- محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٩ .
- محمود كامل خلة ، « فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢ - ١٩٣٩ » ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٧٤ .
- نعوم بك شقير ، « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، دار الجليل ، الطبعة الأولى ١٩٩١ .
- يونان لبيب رزق ، « أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابا ١٩٠٦ » ، المجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٧ ، ص ص ٢٤٧ - ٣٠٥ .

٢ - الأجنبية

- Afaf Lutfi Al - sayyid «Egypt and cromer», John Murry, London 1968.
- Mariolile, J. «Cromer in Egypt», Elek Looks, London 1970.

التهـويد الثقـافى والإعـلامى
لمدينة القدس وتـراثها

الدكتور
خـالد عـزب

التهـويد الثقـافى والإعـلامى
لمدينة القدس وتـراثها

يدرس الطفل الإسرائيلى القدس وتراثها من وجهة النظر اليهودية ، وذلك فى إطار تـــبرير الوجود اليهودى فى فلسطين ، والذى نراه ملخصا فى كتاب (ديفيد الصغير) بصورة تعكس كيف يغرز اليهود ما لديهم من معتقدات لأطفالهم . وفى هذا الكتاب تتـــلخص قصـــته التاريخية فيما يلى : (فى ذلك العام ، فى أورشاليم (القدس) ، كان ديفـــيد صغيرا جدا ، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع . وبناء على أوامـــر الإمـــبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم بضربات ســـيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتى نســـميها حائط المبكى . وبما إن ديفيد يركض سريعا فقد أفلت من الجلادين الرومان وهـــو يقـــول: العـــام القادم فى أورشاليم ..). تلك صورة مصغرة من غرز الثقافة الإسرائيلية فى نفوس الأطفال .

ولكـــن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهـــذا يـــبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرائيلية ، فبالرغم من تسليم الأثريين اليهود بفشلهم فى العثور على حجر واحد من حجارة أية بناية تنسبها التوراة إلى الـــنبى سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية المكثفة فى العديـــد من المواقع بالقدس ، والتى ستبين الدراسة طبيعة بعضها . بالرغم من هذا كله فقد أظهرت المجلة الجغرافية الإسرائيلية فى عدد خاص لها البعد العلمى لبناء هيكل

سليمان فى موضع قبة الصخرة . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها فى الغرب يوحى بجدية وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

ولذا ، بات علينا أن نكتشف صورة المجتمع الإسرائيلى من الداخل وموقفه من قضية إعادة بناء الهيكل ، وحقيقة هذا الهيكل . وهل يحق لليهود إعادة بنائه ؟وهل للهيكل موقع ثابت ومقدس فى العقيدة اليهودية؟. حيث يرى الباحث أن الهيكل ليس له موضع ثابت مقدس فى العقيدة اليهودية ، وتثبيته جاء كأسطورة بثها اليهود بعد السبى البابلى كنوع من مقاومة الذوبان فى المجتمع الذى هاجروا إليه . خاصة مع وجود شكوك فى قدسية القدس كمدينة لدى اليهود .

وتكتمل هذه الصورة مع المخططات الإسرائيلية للسيطرة على آثار القدس القديمة بل والاستيلاء على بعضها ، وهو ما سيوضحه البحث . وهذا كله يأتى فى إطار تطويق القدس بقدس جديدة بحيث تذوب المدينة القديمة سكانا وتراثا فى المدينة الجديدة ولتبتلعها ويصبح من الصعب فصل المدينتين ، بل والبحث عن وثائق المدينة الإسلامية لنفى ملكيتها كما حدث حين سرقت بعض وقفياتها .

ونرى صورة أخرى من صور التهويد الثقافى والإعلامى حين تنشر اللوحات التى رسمها الرحالة الأوروبيون لمدينة القدس ، فنجد إحدى دور النشر حينما تنشر لوحات ديفيد روبرت الرحالة الإسكتلندى الشهير ، تصحبها بصور معاصرة لأرض فلسطين والقدس تبين الفارق بين الفضاء فى القرن ١٩ والوضع بعد الاحتلال الإسرائيلى وكأنها رسالة موجهة تريد أن تقول منها: أن الأرض المقدسة لدى اليهود والمسيحيين أرض التوراة والعهد الجديد كانت فضاء يحتاج إلى من يعمره .

كل هذا يقدم صورة مختلفة عن رؤيتنا لقضية القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة . لذا باتت المواجهة الإعلامية والثقافية حتمية ، بل يجب أن يكون ضمن بنود مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل مطالبات عربية خاصة بالمناهج الدراسية فى

إســرائيل ، وكذلك مطالبات خاصة بإلغاء قانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية ، هذا إن كانت إسرائيل تبحث عن سلام حقيقى مع العرب .

لقــد فهــم عــبد الملــك بن مروان أهمية القدس كمدينة مقدسة لدى المسلمين والمســيحيين . لذا كان تشييده مبنى قبة الصخرة بنقوشه التى تحمل آيات من القرآن خاصــة بالديانــة المسيحية رسالة إعلامية موجهة إلى مسيحى القدس الموالين للدولة البيزنطية ، والدولة البيزنطية هدفها إعلامهم بأنه فى ظل الصراع الأموى البيزنطى فإن القدس مدينة إسلامية يحكمها المسلمون أحفاد العرب مؤسسى المدينة . لذا بات علينا أن نوجــه رســائل مماثلــة لليهود والمسيحيين البروتستانت الذين يساندون اليهود فى ادعــاءاتهم . ولكــى تكون هذه الرسالة ذات مغزى علمى وإعلامى جيد سنطرح لها بعض المقترحات :

- يجــب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأميركى للآثار بالقدس وتخصيص منح دراسية لذلك للأثريين الشبان ، خاصة الدراسات التى تتعلق بعصور ما قبل التاريخ التى يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم . وكذلك يجب دراسة طبوغرافية مدينة القــدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه الباحثون العرب فى هذا المضمار غير دقيق وغير كاف . مع تقديم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .

- ضــرورة تعزيــز المواقع العربية والإسلامية الخاصة بالقدس على الإنترنت بهذه الدراسات .

- نوجه نداء لاتحاد الجامعات العربية بتخصيص الموسم الثقافى فى الجامعات العربية هذا العام للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ فى المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .

- تكلــيف كل من منظمة المدن العربية ومنظمة العواصم والمدن الإسلامية لتنظيم مؤتمــر عــالمى فى غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعمارى كوسيلة إعلامية لبيان أهمية هذه المدينة للمسلمين .

التهويد هو عملية نزع الطابع الإسلامى والمسيحى عن القدس، وفرض الطابع الذى يسمى (يهوديا) عليها . وتهويد القدس جزء من عملية تهويد فلسطين ككل ، ابتداء من تغيير اسمها إلى (ارتس يسرائيل) ، مرورا بتزييف تاريخها ، وانتهاء بهدم القرى العربية وإقامة المستوطنات ودعوة اليهود للاستيطان فى فلسطين[1] .

وقد بدأت عملية التهويد منذ عام ١٩٤٨م وزادت حدتها واتسع نطاقها منذ يونية ١٩٦٧م . وقد ارتكزت السياسة الإسرائيلية على محاولة تغيير طابع المدينة السكانى والمعمارى بشكل بنيوى؛ فاستولت السلطات الإسرائيلية على معظم الأبنية الكبيرة فى المدينة واتبعت أسلوب نسف المنشآت وإزالتها لتحل محلها أخرى يهودية ، كما قامت بالاستيلاء على الأراضى التى يمتلكها عرب وطردهم وتوطين صهاينة بدلا منهم .

يعد التهويد الثقافى والإعلامى أحد المحاور الهامة فى مخططات تهويد القدس ، ويمس هذا التهويد تراث المدينة بدرجة كبيرة ذلك لأنه التعبير الحى عن هويتها . لذا بات التراث هاجسًا يمس بصورة يومية المقولات اليهودية الدارجة حول المدينة ، بل تحول مؤخرا إلى قلق دائم لدى اليهود . وهم يحاولون من آن لآخر الإجابة على التساؤلات المطروحة أمامهم حول تاريخ القدس وتراثها ومدى يهوديتها . وللتهويد الثقافى والإعلامى صور شتى ، منها : التربوى ، ومنها ما يمس مفاهيم ماهية القدس وحدودها، ومنها ما يتعلق بتزييف الحقائق التاريخية حول مدى قدسية القدس لدى اليهود ومنها ما يمس حقيقة الهيكل وهل له مكان ثابت مقدس يجب أن يبنى فيه ؟

تعتبر التربية عاملا حيويا فى بث الأفكار والمعتقدات لدى الشعوب . لذا كان اليهود حريصين على بث ما يؤيد ادعاءاتهم فى القدس وفلسطين من خلال المناهج الدراسية وقصص الأطفال ، ومن ذلك ما يروى فى قصة (ديفيد الصغير) بصورة تغرس أصالة الوجود اليهودى حيث تروى القصة ما يلى : (فى ذلك العام ، فى أورشليم – القدس – كان ديفيد صغيرا جدا ، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع.

---

(١) عبد الوهاب المسيرى (دكتور) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ج٤ ، ص ١٢٧ . دار الشروق ١٩٩٩م .

بناء على أوامر الإمبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم[(١)] بسيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتى نسميها حائط المبكى) . و(بما أن ديفيد الصغير يركض سريعا ، وهو كذلك يتمتع بالدهاء ، فقد أفلت من الجلادين الرومان . ابتدأ اليهود الذين خرجوا أحياء بالانتشار فى العالم ، وهذا الهرب فى كل يسمى الدياسبورا) . (ها هم اليهود دون وطن ، لكن ديفيد الصغير يقول: العام القادم فى أورشليم) . (وبعد الرومان جاء الغزاة البيزنطيون ، ثم الفرس ، ثم الصليبيون الذين هم فرنسيون وإنجليز وألمان ، وزعموا بأنهم هنا لتخليص قبر المسيح . كانوا يحملون صلبانا على صدورهم وعلى سيوفهم ، كانوا رهبانيين ، فقتلوا كثيرا من اليهود ، وليبرروا عملهم احتجوا بأنهم لم يميزوا بينهم وبين العرب . ولمدة طويلة جدا كان الاحتلال التركى ، وترك الباشاوات اليهود يقبلون حائط المبكى، كما بنوا سورا جميلا حول أورشاليم ، ومازال ديفيد الصغير دون وطن ، لكنه يقول العام القادم فى أورشاليم) .

ولكن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهذا يبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرائيلية ، فبالرغم من تسليم الأثريين اليهود بفشلهم فى العثور على حجر واحد من أية بناية تنسبها التوراة إلى النبى سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية الإسرائيلية المكثفة فى العديد من المواقع بالقدس ، إلا أنه لم يعثر على شيء ذى بال يؤكد يهودية المدينة ، وينسب اليهود حجرًا عثر عليه بالقدس نقشت عليه أسماء الشهور بالحروف العبرية القديمة المشتقة من الأبجدية الفينيقية إلى عصر النبى سليمان، وحجرًا آخر تدل نقوشه على نسبته للنبى حزقيا فى قناة مياه خارج القدس[(٢)] . وقد أدت نتائج الحفائر إلى جوار الحرم القدسى عن الكشف عن ثلاثة قصور أموية كانت مخصصة لإقامة الأمراء

---

(1) Xavier Antomarchi, Le Petit David, ou Israel Raconte Aux Enfants. Paris 1969, p. 4100.

- إبراهيم عبد الكريم ، قصة تأسيس إسرائيل كما تروى للناشئة اليهود ، ص ١٥١ ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٧٦ ، ديسمبر ١٩٩٣م .

(٢) عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٨٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م .

الأمويـين الذين حكموا المدينة ، وهو ما مثل خيبة أمل كبيرة لدائرة الآثار الإسرائيلية التى تخضع لها المنطقة حاليا فضلا عن خيبة الجامعة العبرية وجمعية كشف إسرائيل التى قامت بالحفائر . وكانت الجمعية السابق ذكرها دعمت برنامج بنيامين مازار الأستاذ فى الجامعة العبرية والذى وضع مشروعا للكشف عن الطبقات الدنيا من الهيكل فى موضع الحرم القدسى الشريف وبالقرب منه ، وهو ما أدى إلى هدم العديد من الآثار الإسلامية فى مناطق الحفر ، ولم يعثر اليهود على أى أثر يعتد به يعود إلى عصر الهيكل المزعوم .

هكذا أتيحت لليهود وللباحثين عن الآثار وفقا لما جاء فى التوراة فرصة ذهبية للبحث عن مملكة إسرائيل فى القدس من خلال التنقيبات الأثرية ، ولكن نتائج حفائرهم لم تؤد إلى شىء ذى بال . بالرغم من هذا فهم يعطون مشروع إعادة بناء الهيكل اليهودى بعدا علميا ، فقد أصدرت الجمعية الجغرافية الإسرائيلية عددا خاصًا من مجلتها العلمية سنة ١٩٩٦ عن إعادة بناء الهيكل تضمن مقابلة مع مهندس يهودى حول عمارة الهيكل ، وأبحاث عن الهيكل الأول والهيكل الثانى ، وكذلك النماذج المعاصرة التى وضعت لبناء الهيكل فى موضع قبة الصخرة ، ودراسة أثرية مقارنة بين تصور هيكل هيرود وما هو موجود اليوم فى الحرم القدسى وينسبه اليهود إلى عمارة هيكل هيرود مثل الأقصى القديم وهو سلسلة من عقود تمثل قبوا أسفل المسجد الأقصى فضلا عن حائط البراق[1] . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها فى الغرب يوحى بجدية وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

بل وامتد الأمر إلى إقامة معارض أثرية تضمنت بعض ما نتج عن حفريات القدس، ونسب إلى اليهود بطريق لى ذراع النتائج العلمية ، وتسويق هذه المعارض سياحيا يصاحبها أدلة بلغات عديدة ، وهو نوع من الدعاية الإعلامية التى تأخذ صبغة علمية (صورة رقم ١) .

(1) Eretz, The Geographic Magazine from Israel, Special Issue, 46, May 1996.

استعان اليهود بعلم الآثار كوسيلة لتدعيم تصوراتهم حول القدس؛ فاكتشاف الماضى يوفر عاملاً حاسمًا فى بناء الهوية السياسية أو تأكيد الحاضر ، وهو ما يوفره علم الآثار لليهود . ولذا نراهم يحرصون على أن تكون جميع الرموز الوطنية الإسرائيلية مستمدة من عناصر ذات طبيعة تراثية ، مثل : شعار الدولة ، والأوسمة والنياشين ، وطوابع البريد والنقود .

على الجانب الآخر، مازال العرب مغيبين فى مجال الدراسات الأثرية التى تتعلق بفلسطين خاصة فى عصور ما قبل التاريخ التى يركز عليها اليهود حاليا لإثبات وجودهم فى فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة . بل إن التركيز على تراث المدينة الإسلامى لم يخرج عن الحرم القدسى ، ولذا بات من الملح الاهتمام بهذا المجال كجزء من الخطاب السياسى الإسلامى والعربى الخاص بالقدس ، فوضع خريطة طبوغرافية لتطور عمران القدس من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث أمر حيوى ، خاصة إذا أردنا الحديث عن ملكيات الأوقاف الإسلامية فى المدينة التى استولت عليها إسرائيل . ومع توافر الوقفيات الأيوبية والمملوكية والعثمانية[1] التى توضح بالتفصيل الدقيق عمران المدينة فى هذه العصور وملكيات الأراضى والمبانى بها وبالمناطق المحيطة بها والتى أصبحت اليوم جزءاً لا يتجزأ من المدينة . إن هذا العمل لا شك سيكون مفيدا للباحثين وللسياسيين حين حديثهم عن المدينة كجزء من مقدسات وأملاك المسلمين التى لا يجوز التنازل عنها .

---

(١) توجد أعداد لا حصر لها من وقفيات المنشآت المعمارية فى القدس تصف العمائر الدينية وبصفة خاصة الحرم القدسى الشريف وأوقافه ، وكذلك المنشآت الدينية الأخرى فى القدس ، وما أوقف عليها من منشآت كالحمامات والوكالات والفنادق والخانات ، هذه الوقفيات متناثرة فى القدس حيث يوجد جزء منها ضمن وثائق الحرم القدسى المملوكية فى المتحف الإسلامى فى القدس ، والبعض الآخر ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية ، والبعض الآخر فى القاهرة ضمن وثائق الوقف بوزارة الأوقاف المصرية . ومن أبرزها وثيقة وقف السلطان قايتباى التى تصف مدرسته بالقدس ، وهى محفوظة تحت رقم ٨٨٧ . والبعض الآخر فى استانبول ضمن حجج الوقف العثمانية ، وقد نشر بعض الباحثين نماذج من هذه الوثائق ، ولكن إلى الآن لم تول المؤسسات البحثية العربية أو الإسلامية عنايتها نحو نشر أبحاث كافية عن هذه الوثائق .

تزخـــر القدس بتراث معمارى فريد يبدأ من الحرم القدسى حتى باقى آثار المدينة التى تتنوع ما بين :

١ - بيمارســتانات(١) ، ومن أشهرها البيمارستان الصلاحى الذى أقامه السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بعد فتحه للقدس ، وقد رحل عن القدس تاركا القاضى ابن شداد ، ليعتنى بعمارة البيمارستان ، وقد وقفه صلاح الدين عــلى كافة أبناء القدس ليعالجوا فيه مجانا ، ورتب فيه دروسا لتعليم الطب فيه ، وقد تعــرض البيمارســتان إلى زلزال فى القرن ٩هـ / ١٥م ، ولم يتبق من البناء الأصلى للبيمارستان إلا جزء بسيط ، وهو يستخدم حاليا كبازار .

٢ - الخانــات(٢) والأسواق والوكالات ، أحصى منها فى القدس الدكتور كامل جمــيل العسلى ١٦ خانا(٣) ، وهو فى حصره يخلط بين الخانات القياسر وهى الأسواق المبنية والوكالات ، وهذا الخلط ناتج عن التداخل بين وظائف هذه المنشآت ، انتشرت هذه المنشآت بين أحياء المدينة وقد وقف ريعها على المنشآت الخيرية والدينية بالمدينة ، ومــن أبرزها قيسارية السلطان التى أنشأها السلطان المملوكى برقوق سنة ٧٨٨هـ . وســوق القطــانين الــذى شيده الأمير المملوكى تنكز ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى الشريف ، وخان الفحم ، وخان الخاصكية .

---

(١) بيمارســتان ، لفظ فارسى مركب من بيمار أى مريض وستان بمعنى محل ، أى دار المرضى ، ويقال بيمرســتان أو مارستان ، وهو مستشفى عام لمعالجة كافة الأمراض ، وقد عرفت هذه المنشآت منذ العصر الأموى .

محمد أمين (دكتور) وليلى إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٤٢ ، دار النشر بالجامعة الأميركية فى القاهرة ، ١٩٩٠م .

(٢) الخان ، فارسى معرب وهو الحانوت ، ويطلق على الدكان أيضا ، ثم توسعوا فى استخدامه فى الوثائق فأطلقوه على الوكالة والفنادق ، والخانات مبان خصصت لنزول التجار الواردين والبضائع المستوردة، وكذلك الزوار ، ولذا جاء تصميمها المعمارى كما يلى : طابق أرضى يتكون من حواصل وحوانيت لعرض وتخزين السلع قد يلحق به مسجد ، وجوابق علوية لإقامة التجار وزائرى المدينة .

محمد أمين ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٣) كامل جميل العسلى (دكتور) من آثارنا فى بيت المقدس ، ص ٣٩ - ٩٦ . عمان ١٩٨٣م .

٣ – الحمامات : ومنها حمام عين الشفا وحمام العين وحمام الباب الأسباط وحمام السلطان وحمام السيدة .. إلخ .

٤ – الأسـبلة[1] ، تنتشـر الأسـبلة فى مدينة القدس ، ومن هذه الأسبلة سبيل السـلطان قايتباى (صورة رقم ١) الذى يعد أشهر أسبلة القدس ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى ، وقد سقف بقبة حجرية رائعة لفتت انتباه الرحالة الأجانب . ومن أسـبلة القدس الأخرى : سبيل باب الناظر وسبيل باب الخليل وسبيل البديرى وسبيل باب خان الزيت ودرج الواد وسبيل باب حطة وسبيل السيدة مريم .

٥ – الـتكايا ، أشـهرها تكـية خاصكى سلطان ، التى شيدها زوجة السلطان العثمانى سليمان القانون خرم المشهورة بروكسلانا ، هذه التكية كانت مجمعا معماريا ضـخما ملحقا به منشآت عديدة منها مدرسة وأماكن لإقامة الصوفية وزوار القدس ومطـبخ لإطعام نزلاء التكية وفقراء القدس . ولهذه التكية وقفية باللغة التركية مترجمة إلى اللغة العربية ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية[2] .

٦ – المسـاجد : كانـت المساجد تنتشر فى القدس لأداء المسلمين بها الصلوات الخمـس ، ومن أشـهرها مسجد عمر بن الخطاب ، هذا المسجد أقيم فى الموضـع الـذى صلى فيه عمر بن الخطاب فى القدس ، بعد تسلمه المدينة ، وكان الخليفة عمر ابـن الخطـاب قد رفض الصلاة فى كنيسة القيامة حتى لا يقيم المسلمون مسجدا فى المكـان الذى يصلى فيه خليفتهم ، احتراما من عمر لأماكن العبادة الخاصة بالديانات

---

(١) أسـبلة جمـع سبيل ، وهى من سبل الشيء أى جعله مباحا فى سبيل الله . والسبيل أصبح مصطلحا للوحـدة المعماريـة التى تعمل على توفير مياه الشرب للناس . والسبيل كمنشأة معمارية يتكون من صـهريج لخـزن المياه يعلوه حجرة لتسبيل المياه للمارة فى الشوارع . وكان تخزين المياه يتم إما عن طريق الأمطار كما هو الحال فى سبيل قايتباى بالقدس أو عن طريق مياه الآبار كما فى بعض أسبلة القدس أو عن طريق الأنهار كما هو الحال فى أسبلة القاهرة . محمد أمين مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٢) هذه الوقفية مدونة فى السجل رقم ٢٧٠ من سجلات المحكمة الشرعية فى القدس من ١٨ : ١٩ وهى مؤرخة بسنة ٩٤٦هـ .

الأخرى بالمدينة وإقرارا منه بحرية العبادة فى المدينة المقدسة من المسيحيين والمسلمين على حد سواء .

لقد عنى المسلمون بهذا الجامع منذ إنشائه ، فقد جددوا بناءه فى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، فى العصر الأيوبى ،وأعادوا بناء مئذنته فى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م ، فى العصر المملوكى وهى مئذنة مربعة الشكل جميلة التكوين . وهذا المسجد ذو رمزية سياسية عالية إذ إنه يمثل السياسة التى اتبعها المسلمون فى المدينة تجاه الديانات الأخرى، إلى جانب رمزيته كمكان صلى فيه فاتحو القدس من المسلمين .

٧ - المدارس ، حرص أغنياء المسلمين وحكامهم على تشييد المدارس فى القدس خاصة فى الحرم القدسى والمنطقة المجاورة لها ، وهذه المدارس كانت تدرس فيها العلوم الشرعية والفلك والرياضيات والحديث الشريف وعلومه[(١)] ، ومن أبرز هذه المدارس المدرسة الأشرفية التى شيدها السلطان قايتباى ، والمدرسة التنكزية التى شيدها الأمير تنكز الناصرى (صورة رقم ٢) ، المدرسة الجاولية التى شيدها الأمير علم الدين سنجر الجاولى .

هذه المنشآت وغيرها كثير بالإضافة إلى كنائس الطوائف المسيحية وأديرتها التى تكتظ بها المدينة[(٢)] ، ومنها كنيسة القيامة التى تضم قبر المسيح والكنائس المقامة على جوانب طريق الآلام . وللأقباط فى القدس العديد من دور العبادة أبرزها دير السلطان، وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية ، وفيه كنيستان : كنيسة الملاك ، وكنيسة الحيوانات الأربعة . دير مار أنطونيوس ، وبعرف بالدير الكبير وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية الشرقية ، وفيه كنيسة القديس أنطونيوس ،

---

(١) على السيد على (دكتور) القدس فى العصر المملوكى ، ص ١٦١ / ١٦٦ ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ١٩٨٦م .

(٢) عن هذه الكنائس والأديرة : انظر عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٣٩ : ٢٤٢ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١م . عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

وكنيســة الملكة هيلانة . وبالرغم من أن الحج من الشعائر المهمة لدى الأقباط إلا أن الكنيســة القبطية أصدرت قرارا بتحريم أداء هذه الشعيرة طالما أن القدس تحت هيمنة الدولة الصهيونية .

إننا نستطيع من خلال وثائق القدس[١] وآثارها المعمارية التى مازالت باقية إلى اليوم الإسلامية والمسيحية رسم صورة متكاملة للقدس فى العصور المختلفة ، وتحديد ملكية أراضــيها خاصة ما يقع فى ملكية الأوقاف منها . ومما يساعد على ذلك أن الوقفيات وســجلات محكمة القدس الشرعية تحدد حدود كل منشأة وأبعادها والطرق التى تقع عليها ومكوناتها والأراضى التى وقفت عليها إن كانت منشأة دينية أو خيرية أو منشأة اقتصــادية تدر ريعا . إن هذه الخريطة الطبوغرافية التاريخية ستساعد بلا أدنى شك فى اســترداد الأراضى التى استولت عليها سلطات الاحتلال الإسرائيلى . سواء فى القدس أو فى بــاقى أراضى فلسطين المحتلة . لقد فهم اليهود أهمية وثائق القدس فقاموا فى ١٨ نوفمبر ١٩٩١م بالاستيلاء على بعضها من مبنى المحكمة الشرعية فى المدينة .

إن التصــور الإســرائيلى يطرح القدس وكأنها مدينة خالية من البشر والعمران ، إحــدى دور النشــر الغربية عكست هذا التصور حين نشرت كتاب ديفيد روبرت (الأرض المقدسة) وديفيد رحالة اسكتلندى رسم العديد من اللوحات لمصر وفلسطين بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، وسجل مع هذه اللوحات انطباعاته عن الأماكن التى مر بهــا . وإلى هــذا الحد فالأمر ليس فيه ما يثير أى تساؤل إلا أن دار النشر التى أعادت نشــر اللوحــات عام ١٩٩٠م وتعليقــاتها تمر دون أن يرفق بها ســرد تاريخى للأب كرولــلى لا يمــت لعــلم الآثار بصلة قدر ما يمت بصلة قوية إلى الرائج من روايات وخــرافات العصور الوسطى ، ففى وصفه لا وجود للعرب وإنما هناك التسمية الخطأ الــتى يتعمد بعض الأوروبيين استخدامها وهى (السرسيون) نسبة إلى السيدة سارة ، ولا يــرد ذكرهم إلا فى سياق أنهم سبب معاناة المدينة المقدسة – القدس – تلك التى لا ترتفع معاناتها إلا مع سيطرة الصليبيين عليها !

---

(١) عن وثائق القدس انظر على سبيل المثال : دكتور كامل جميل العسلى ، وثائق مقدسية ، ٤ مجلدات ، عمان ١٩٨٣م .

ويستند وصف الأمكنة إلى مخيلة كروللى المستمدة من روايات التوراة على رغم من إثبات الدراسات الآثارية حديثا شكوكا واسعة حول صحة روايات التوراة حتى إن العديد من علماء الآثار الغربيين بدأوا يصرفون النظر عن اعتماد التوراة كمرجع للأبحاث الأثرية فى فلسطين لتناقض ما جاء بها مع المكتشفات الأثرية الحديثة .

تصور لوحات ديفيد روبرت مشاهد من خارج المدن ، ولا تصور الحياة داخلها (صورة رقم ٣، ٤، ٥) ، وغالبا حين يصور البشر يصورهم فى حالة استرخاء ، وتظهر بلوحاته الأرض حول القدس على سبيل المثال وكأنها صحراء جرداء خالية من العمران والبشر ، هنا تتقدم دار النشر لتقدم لعبة ذكية لخدمة مقولة الأرض الخالية التى روجت لها الصهيونية . بأن أرفقوا مع كل لوحة من لوحات ديفيد صورة فوتوغرافية حديثة للموقع نفسه . وبالمقارنة يظهر الفرق الشاسع بين موقع يكاد يكون صحراويا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبين الموقع نفسه المحتشد بالعمران فى أواخر القرن العشرين ، توحى هذه المقارنة بالأيدى البيضاء للصهيونية على القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة .

الكتاب بهذا المعنى صورة أعيدت صياغتها لتلائم أغراض الحاضر الصهيونى كما يذكر الكاتب الفلسطينى محمد الأسعد ، ليس لأن شروحات كروللى تشير إلى (أرض إسرائيل) قبل قيام دولة بهذا الاسم فقط ، بل لأن المنحى كله يود أن يقول إن الأرض الخالية التى شاهدها روبرت لم تعد خالية .

وربما لهذا السبب عمد ناشرو الكتاب إلى تصديره بكلمة لعمدة القدس المحتلة تيدى كوليك ، وإلى وضع خرائط للأرض المقدسة تطابق بين الجغرافية الخيالية للتوراة والجغرافيا الطبيعية لفلسطين . هذا الكتاب يمثل واحدا من عشرات الكتب التى يتم بها تغذية الوجدان الثقافى الغربى ، وهو نموذج صافٍ لنظرة ثقافية غربية لا ترى فى المشهد الثقافى العربى غير مسار التاريخ التوراتى .

الصورة هنا صورة قدس جديدة رأى اليهود أن تشيع فى العالم سواء من خلال الكتاب الذى يقدم مسار رحلة الحج التاريخية إلى مسيحيى العالم كما رآها رحالة فى

القرن ١٩، وكما رأتما دار النشر فى القرن العشرين ، هذه الصورة هى للقدس عاصمة إسـرائيل الأبدية ، التى سعى اليهود إلى تكريسها حتى أصبحنا نحن العرب نتقبل جانبًا مـن هذه المقولات كحقيقة صادقة لا تقبل النقاش ، فالقول بوجود قدسين : شرقية وغربية ، أشبه بالهراء، إذ لا توجد سوى قدس واحدة ، هى المدينة القديمة وضواحيها، التى هى عاصمة فلسطين المحتلة ، فمنشأ شيوع هذا الخطأ السياسيون ووسائل الإعلام، إذ كانت القدس حتى عام ١٩١٧م ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الهوية العربية للقدس فى التغير خلال فترة الانتداب البريطانى الذى منحته عصبة الأمم لبريطانيا فى عام ١٩٢٢ عـلى فلسطين ، وترتب على ذلك زيادة هجرة اليهود لفلسطين ، وبدأت ديموغرافية القدس فى التغير ، وتضاعف عدد اليهود فيها فى الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨م ليقفز من ثلاثين ألفا إلى حوالى مائة ألف بنهاية فترة الانتداب.

اغتصب اليهود القدس على مرحلتين فى المرحلة الأولى عام ١٩٤٨م استولوا على القـدس الجديـدة وضـموا إلـيها المدن العربية المحيطة بها ، كان يسكن هذه المدينة فلسـطينيون عـرب ويهود ، وقد سكنت الأغلبية من أهالى القدس العرب فى خمس عشـرة ضـاحية سكنية فى القدس الجديدة وامتلكت ثلاثة أرباع أراضيها ومبانيها ، وكانـت المـناطق العربية تفتقر إلى الحماية تماما ؛ ولذا احتلت إسرائيل ثلاث عشرة ضـاحية مـنها ، وبذا يكون من الخطأ أن نتصور أن اليهود فى ١٩٤٨ استولوا على الجزء الغربى اليهودى من المدينة بينما فرض العرب سيادتهم على الجزء العربى .

عمـل اليهود منذ أن استقرت أقدامهم فى المدينة المقدسة على إقرار سياسة الأمر الواقـع بها فنقلوا أجهزة دولتهم إليها ، وبالرغم من أن القدس تمثل من وجهة نظرهم «مدينة على الحدود فى كل شيء ، تنقصها القاعدة الاقتصادية الواسعة ، كما تنقصها الوفـرة فى الأرض»[١] . وقد أعلن بن جوريون فى الكنيست يوم ١٤ يونيو ١٩٤٨م «أن مسـألة إلحـاق القدس بإسرائيل ليست موضع نقاش ، فما يناقش هو تحقيق هذا الهـدف» أعلنـت القدس عاصمة لإسرائيل فى ٢٣ يناير ١٩٥٠م . وبعد هزيمة يونيه

---

(١) جاء ذلك فى صحيفة (لاحاف) الإسرائيلة فى عددها الصادر فى ١٩/٦/١٩٦٦م .

١٩٦٧م ، صار الإعلام الإسرائيلى يتحدث عن تحرير القدس وليس احتلالها وضمها . صارت المدينة بالكامل تحت سيطرة اليهود ومنذ ذلك الحين بدأ تهويد المدينة يأخذ بعدا متكاملا . وطرح هذا البعد من خلال مشروع القدس الكبرى ، والذى هدف إلى تطويق المدينة القديمة ذات الأغلبية العربية والمقدسات والآثار الإسلامية والمسيحية بنطاق لمدينة كبرى تذوب المدينة القديمة فيها ، وتعد حينئذ مجرد نقطة أو حى صغير داخلها . فقد تم إنشاء سبع عشرة مستوطنة إسرائيلية شمالى القدس وثمانى مستوطنات جنوبها . ربطت بينها شبكة طرق سريعة تتخلل المدينة الكبرى . بما فى ذلك أوتوستراد القدس . هذه الشبكة من الطرق ساهمت فى ربط المستوطنات الإسرائيلية وفى تطويق المدينة القديمة والقرى العربية حولها . على حين أنشئت جيوب استيطانية داخل القدس الشرقية بهدف تفريغها من سكانها العرب ومن طبيعتها العربية . وهو ما يعد تمزيقا للوحدة الديموغرافية للمدينة القديمة . لقد تم هذا على مراحل استهدفت المرحلة الأولى إحداث توازن ديموغرافى بين العرب واليهود . استغرقت هذه المرحلة السنوات من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧م ، وبدأت أولى الخطوات العملية لهذه المرحلة حين حصل تيدى كوليك عمدة القدس العمالى على موافقة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل حينذاك على برنامجه لتوطين ١٢٠ ألف يهودى فى مدينة القدس الشرقية فى مدى عشرين سنة. وعندما عاد الائتلاف العمالى إلى الحكم عام ١٩٩٢م أطلق - بالتوافق مع عملية أوسلو - مشروعا عمرانيا لبناء ثلاثين ألف وحدة سكنية لإيواء ١٢٠ ألف يهودى فى القدس الكبرى . ومنذ عام ١٩٩٣ تجاوز تعداد اليهود فى القدس الشرقية تعداد العرب من مسلمين ونصارى حيث بلغ تعداد اليهود بها ١٦٥ ألفًا بينما بلغ تعداد سكانها العرب ١٦٠ ألفًا . وإذا كان تعداد سكان القدس الغربية اليهود اليوم أعلى من سكان القدس الشرقية - ٢٣٠ ألفًا مقابل ١٩٠ ألفًا - فإن هذه المعادلة مرشحة للانقلاب فى الأعوام القليلة المقبلة . فابتداء من ٢٠٠٣م سيكون تعداد السكان اليهود فى القدس الشرقية أعلى منه فى القدس الغربية ، وأغلب هؤلاء فى القدسين من اليهود الأرثوذكس المتعصبين .

هؤلاء يرون فى القدس مدينة مقدسة بالنسبة لهم ، وواقع التراث اليهودى ينفى ذلك ، فمن المعروف أن أسفار موسى الخمسة لم يرد بها أى ذكر للقدس كمدينة مقدسة لدى اليهود ، ولم تذكر القدس سوى فى أربعة أسفار: سفرى صموئيل الأول والثانى وسفرى الملوك الأول والثانى ، ومن الواضح أن استشهادات اليهود الحالية جاءت من سفرى صموئيل . وأكد علماء الديانة اليهودية بأن هذين السفرين من تأليف النبى صموئيل نفسه والذى يعتبر آخر قضاة بنى إسرائيل . ويوجد فى السفرين ما يناقض فكرة كتابة صموئيل للسفرين المنسوبين إليه ، ففى الإصحاح ٢٥ من سفر صموئيل الأول : (مات صموئيل فاجتمع جميع إسرائيل وندبوه ودفنوه فى بيته) والمعروف أن قصة بناء القدس ذكرت فى السفر الثانى . فإذا كان صموئيل قد مات قبل أن يكمل السفر الأول فالسؤال الآن: من أكمل السفر الأول وكتب الثانى بأكمله[1] ؟

وإجابة السؤال هى : أن فى السفرين إضافات لاحقة أضيفت فيما بعد لخدمة الأغراض السياسية القومية لليهود ، خاصة أن كتبهم المقدسة لعنت القدس كمدينة فى مواضع عديدة .

كان اليهود قبائل من البدو الرحل وبالتالى لم يكن لديهم فكرة الاستقرار فى مكان محدد وتشييد حضارة خاصة بهم فيه . ولم يعرفوا الاستقرار إلا عند دخولهم مصر ،

(١) هناك تساؤلات حول أصالة النص العبرى للتوراة ، خاصة أن هذا النص تعرض لأعمال الحرب والإبادة بسبب الحروب الداخلية أولا والغزو الخارجى ثانيا . وحوالى أوائل القرن الأول الميلادى ، فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة سواء المحفوظ منها فى الصدور أم المدون ، وقامت منافسات بين المدارس الشرقية البابلية من ناحية والغربية من ناحية أخرى ، إلى جانب ما أظهرته مخطوطات وادى قمران المكتشفة عام ١٩٤٧ ق. م بجوار البحر الميت وغيرها من المخطوطات ، ثم نجد التوراة السامرية لا تتفق مع ما جاء فى الترجمة السبعينية التى ترجمت فى الإسكندرية إلا فى الثلث، ويرى الدكتور عبد الحميد زايد أن كتابا تطلب جمعه وتأليفه ألف عام لابد أنه مر بأدوار كثيرة ، وهذا واضح من عدم وجود وحدة عضوية لأسفاره . جيمس بريتشارد ، نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ، ص٢ ، ترجمة وتعليق دكتور عبد الحميد زايد ، الهيئة المصرية للآثار ١٩٨٧م .

ولكـــن من الواضح أنهم احتفظوا بترابطهم القبلى فى أثناء وجودهم فى مصر ، وعند خروجهم منها لم يخرجوا بمفردهم بل خرج معهم من آمن من المصريين بدعوة موسى علـيه السـلام ، وخـرجوا وهـم محملـون بالتأثيرات الحضارية المصرية . وأثبتت الاكتشافات الأثرية أن كتب اليهود تأثرت بشدة بالموروث القصصى والعقدى السابق لها سواء فى مصر أم فى العراق[1] .

هــنا يجب أن نتوقف عند فكرة الهيكل لدى اليهود وهوبيت الإله ومكان العبادة الأساسى لديهم ، فباعتراف اليهود البدو الرحل أنه لم يكن لديهم مكان عبادة مقدس ثابـت مـنذ عصـر موسى إلى عصر النبى سليمان عليه السلام . بل كانت لوحات

(١) يـرى الدكـتور فؤاد حسين فى مؤلفه (التوراة الهيروغليفية) : (إنه لا ينكر أن موسى عليه السلام جاءتـه صـحف وأنزلت عليه توراة إلا أن هذه التوراة العبرية والتى هى بين أيدينا ويؤمن اليهود بها وغيرهم ليست هى توراتنا التى أنزلت على موسى وبسبب جوهرى صحيح هو أنها جاءت بالعبرية ، والعـبرية لم يعرفها موسى و لم يعرفها الإسرائيليون ، فموسى كما تذكر المصادر ولد فى مصر وعاش فى مصر وتكلم المصرية وتلقنها قراءة وكتابة وهكذا شأن العبرانيين المقيمين فى مصر .. ولو سلمنا أن موسـى وسـائر العبرانيين المقيمين فى مصر لم يتكلموا المصرية فإنهم لم يتكلموا العبرية بل الأرامية . ونحـن نفهـم تحت لفظ العبرية لغة الشعب الإسرائيلى التى اقتبسها من الكنعانيين عندما تسللوا إلى أرض كـنعان حوالى آخر القرن الثالث عشر ق. م وهذه التسمية لغة عبرية لا تجد لها أثرا فى العهد القـديم حيث ذكرت فى سفر أشعيا (سفر كنعان) أى لغة كنعان أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى (يهوديـت) أى اليهودية كما أطلق على اللغة العبرية فى المؤلفات المتأخرة اسم (لشون هقودش) أى اللسان المقدس . أما اللغة الكنعانية فهى الأم التى تفرعت عنها العبرية والموآبية الفينيقية ، قد حفظت لنا بعض خصائصها فى هذه المجموعة من المفردات التى وجدت فى طريقها إلى اللغة المصرية القديمة .. وقـد أخـذ الإسرائيليون هذه اللغة الكنعانية الأصل بعد اختلاطهم بالكنعانيين أيام يشوع بن نون ، ومن خلفه أعنى بعد وفاة موسى ، وهؤلاء الإسرائيليون هم الذين أغنوا اللهجة العبرية بهذه المفردات المصـرية القديمة . من هنا نرى أن ظهور اللغة العبرية كان لاحقا جدا لا لموت موسى فحسب ، بل لدخـول مـن خرجوا معه من مصر إلى أرض كنعان ، فصحف موسى وتوراته لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة .

دكـتور فؤاد حسنين ، التوراة الهيروغليفية ، ص ٥٧ وما بعدها . دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٨م .

الوصايا العشر توضع فى تابوت كان يعرف باسم تابوت العهد[(١)] ، هذا التابوت خصصت له خيمة عرفت بخيمة الاجتماع ، ترحل مع اليهود أينما رحلوا . فأين القداسة هنا لأى بيت أسس فى القدس كما يرى اليهود . بل جاء تأسيس الهيكل ليكون المكان المفضل لوضع تابوت العهد وليكون بيتا لرب اليهود نتيجة لتأثر اليهود بالحياة الحضرية فى مدينة القدس[(٢)] . شيد سليمان الهيكل على قطعة أرض غير معلومة فى القدس ، بل حينما شيد الهيكل الثانى لا يوجد دليل قاطع على تشييده فى موضع الهيكل الأول . وتاريخ بناء الهيكل فى القدس هو تاريخ تحول عبادة يسرابيل البدوية المتجولة إلى العبادة القربانية المركزية . وهنا يجب أن نلاحظ أن اليهود أثناء السبى البابلى صاغوا العديد من الثوابت التى يؤمنون بها اليوم كأرض الميعاد ، وقدسية مكان الهيكل فى محاولة منهم لمقاومة الذوبان فى أرض المنفى فى العراق .

---

(١) تابوت العهد أو تابوت الشهاد يقابلها فى العبرية (أرون هابريت يهوه) أو (تابوت يهوه صباءوت) جاء وصف هذا التابوت فى سفر الخروج ، وهو صندوق مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ذراع ، أى ثلاثة أقدام وثلاثة أرباع القدم ، محلى بالذهب من الخارج والداخل ، يقف عليه ملكان (كروبان) ناشرين أجنحتهما رمزا للعرش الإلهى (شيخناه) بين الشعب المختار . وأصبح التابوت ذاته رمزا للعرش الإلهى . ويقال إن الإله قد أخبر موسى بأنه سيقابله بين الملاكين . ولم يكن يسمح لأحد بأن يمس التابوت باعتباره محرما (تابو). وكان التابوت يحتوى على المن ، وعصا هارون، ولوحى الشريعة أو العهد ، ثم وضع بجانبه كتاب التوراة ، ولكن المن والعصا كانا قد اختفيا مع حكم سليمان. ومن الواضح أن فى هذا الوصف إسقاطا لقيم وتخيلات مرحلة مركبة لاحقة على مرحلة التيه التى كانت تتسم بالبداوة والبساطة . كما أنه بتطور اليهودية جرى تفسير وجود التابوت تفسيرا أكثر عمقا من التفسير السابق . فقد أصبح التابوت شيئا مقدسا بناه موسى تنفيذا لأمر الرب (ليضع فيه اللوحين اللذين كتب عليهما الوصايا العشر) ليحمله أعضاء جماعة يسرائيل معهم فى ترحالهم وقد حفظ سليمان التابوت فى قدس الأقداس فى الهيكل .

دكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج ٤ ، ١٥٨ .

(٢) لقد تأثر اليهود فى بناء هيكلهم بالأقوام التى جاورتهم وخاصة الكنعانيين منهم ، فالدكتور فيليب حتا يذكر فى كتابه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) الجزء الأول أن : زخارف الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة ، هذا وكانت طقوس الهيكل وذبائحه تظهر الأساليب المتبعة عند الكنعانيين وحتى كلمة هيكل أصلها كنعانى . بينما يقول ويل ديورنت فى كتابه قصة الحضارة : إن طراز الهيكل المعمارى هو الطراز الذى أخذه الفينيقيون عن مصر وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب الزخرفة .

بل إن الهيكل تعرض للإهمال وصار موضع ازدراء من اليهود فى مراحل تاريخية لاحقة . تعرضت القدس للهدم مرات عديدة فى التاريخ مما يجعل من الصعب تحديد موضع الهيكل اليهودى بها . بل طرأ تغيير على العهد القديم فى خلال فترة السبى البابلى يجعلنا نشك فى كثير من المسلمات اليهودية اليوم . أثبتها عالم الآثار الآكدى فريدريك ديليتش من خلال سلسلة من المؤلفات حول بابل والكتاب المقدس ، انتهى فيها إلى اعتماد العهد القديم إلى حد ما على العقائد البابلية .

تعد إعادة بناء الهيكل واحدة من أهم القضايا الخلافية بين اليهود الذين ينقسمون إلى صهاينة وغير صهاينة ، فغير الصهاينة يعارضون فكرة العودة وبالتالى إعادة بناء الهيكل . أما الصهاينة فقضية إعادة بناء الهيكل قضية محورية لديهم والمتطرفون من الصهاينة يولون هذه القضية أولوية شديدة ، بحيث جعلت المنظمات الصهيونية هدم الآثار الإسلامية الموجودة فى هذا الموقع ، من أهم أهدافها .

وقد قامت عدة محاولات من جانب الجماعات الصهيونية تستهدف تفجير الأماكن المقدسة الإسلامية فى القدس، أو حرقها ، بل ضبطت محاولة لإلقاء قنبلة عليها من الجو. وهناك منظمة يهودية تسمى (أمناء جبل الهيكل) التى يمولها المليونير الأمريكى (المسيحى الأصولى) ترى رازنهوفر ، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسى ، وقد أسست مدرستان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مئتى طالب على شعائر العبادة القربانية وهى الشعائر الخاصة بالهيكل . وإحدى هذه المدارس، معهد الهيكل (يشيفات هبايت) ، وظيفتها الأساسية محاولة التعجيل ببناء الهيكل . وقد بدأت هذه المدرسة فى إعداد أدوات العبادة القربانية التى يبلغ عددها ١٠٣ ، مع العلم بأن الأدوات التى تم الانتهاء منها وضعت فى متحف . وقد عقد فى سنة ١٩٩٠م مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل كهنة الهيكل . ويوجد فى فندق الهيكل فى القدس مجسم مصغر للهيكل . وينوون أن يبنوا مجسما آخر أكبر حجما يتكلف مليون دولار يتم جمعها حاليا من يهود العالم .

وقد قامت جماعة أمناء الهيكل بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث فى احتفال تحت إشراف رئيس الجماعة المدعو جرشوم سالمون . وقد حضر الاحتفال الذى جرى

فى منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٨٩م ، كاهن يرتدى ملابس كهنوتية خاصة مصنوعة مـن الكـتان المغزول باليد من ستة خيوط مجدولة تم إعدادها فى معهد الهيكل . وقد اسـتخدموا فى الاحتفال بعض الأوانى الشعائرية ، وبوق الشوفار ، وأدوات موسيقية مثل الأوكورديون . أما حجر الأساس نفسه ، فحجمه متر مكعب ، وقد قام حفاران يهوديان من القدس بإعداده دون استخدام أية أدوات حديدية (كما تتطلب الشعائر)، وقـد حـاولوا الوصـول بالحجر إلى ساحة حائط البراق عند حائط المبكى ، ولكن الشـرطة الإسرائيلية تصدت لهم فحمل الحجر إلى مخزن الحفارين وأودع فيه . وتتجه النية إلى زراعة حديقة حوله . ويساند جماعة أمناء جبل الهيكل بعض أعضاء المؤسسة الدينية فى إسرائيل .

ورغـم هذا الانقسام ، بشأن إعادة بناء الهيكل ، فإننا نجد أن بعض الأطروحات التى صنفت فى الماضى باعتبارها دينية مهووسة ومتطرفة ، صارت مقبولة بل أصبحت جزءا من الخطاب السياسى الصهيونى ، أو ضمن برامج الأحزاب المعتدلة ، ولذا فليس من المستبعد أن نجد جميع الصهاينة (الأقلية المتدينة والأغلبية الملحدة) تؤيد كلها بعد قلـيل إعادة بناء الهيكل باعتباره أمرا أساسيا للعقيدة الصهيونية لا تكتمل بدونه[١] . ويـرى المسـيحيون الأصـوليون أن بناء الهكيل هو الشرط الأساسى للعودة الثانية للمسـيح. وهـم ينظرون إلى قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م تأكيدا لنبوءات التوراة حول نهاية العالم وإحلال مملكة جديدة مع المجىء الثانى للمسيح بعد عودة اليهود إلى الأرض المقدسـة . وانـتظرت المسيحية الصهيونية اكتمال خطة الرب بعد تأسيس إسرائيل ، وبالتالى كان انتصار إسرائيل فى حرب يونيه ١٩٦٧م ، واحتلالها لبقية أرض فلسطين وبخاصـة القدس ، إضافة إلى أراضٍ عربية أخرى ، تأكيدا على أن خطة الرب تكتمل وأن النبوءات التوراتية تتحقق وأن نهاية التاريخ أصبحت قريبة[٢] .

---

(١) الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) مجدى شندى ، قبل أن تضيع القدس ، ص ٧٧ / ٩٠ . القاهرة ١٩٩٢ .

رضا هلال ، المسيح اليهودى ونهاية العالم ، المسيحية السياسية والأصولية فى أميركا ، ص ٨٣: ١٦١ . مكتبة الشروق ٢٠٠٠

وأنتجت المنظمات الأصولية الأمريكية العديد من الأفلام والبرامج التى تروج لهذه الرؤية وأبرزها ما رعى إنتاجه القس والواعظ الأمريكى التليفزيونى مايك إيفانز ، ففى برنامجه الاستعراضى (إسرائيل : مفتاح أمريكا للبقاء) الذى كان يبث فى ٥٠ محطة تليفزيونية عبر ٢٥ ولاية ، لمدة ساعة يوميا ، عام ١٩٨٣ ، تحدث إيفانز عن أن الرب أمره بوضوح برعاية إسرائيل ، ولذا قام بإنتاج هذا البرنامج الخاص بإسرائيل ، وقال : (إن إسرائيل تلعب دورا حاسما فى المصير الروحى والسياسى لأمريكا ، كما أن تخلى إسرائيل عن الضفة الغربية سوف يجر الدمار على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة من بعدها) ونشر إيفانز فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، إعلانا فى صفحة كاملة فى صحيفة (نيويورك تايمز) جاء فيه (إن بقاء إسرائيل حيوى لبقائنا ، وإن الإيمان بإسرائيل يعزز موقف الولايات المتحدة الأمريكية) . وأنتج فيلما عنوانه : (القدس عاصمة داود) ربط فيه بين أمريكا وعاصمتها واشنطن والقدس .

إن البعد الإسلامى الذى يحمل خطابا حضاريا نفتقده اليوم فى مخاطبة الآخرين للتعريف بقضيتنا ، بالرغم من إجادة أجدادنا استخدام هذا الخطاب فى المدينة المقدسة القدس ، فقد نجح عبد الملك بن مروان فى ظل الصراع الدولى بينه وبين الدولة البيزنطية من خلال اهتمامه بالمقدسات الإسلامية فى القدس فى إيصال رسالة إعلامية وحضارية وتراثية إلى الدولة البيزنطية . ومازلنا إلى اليوم نستفيد من هذه الرسالة . ولكن لم ننجح فى استيعاب الدرس الخاص بها . جاءت هذه الرسالة ضمن مخطط عبد الملك لإعمار الحرم القدسى الشريف (صورة رقم ٦) .

تعد قبة الصخرة والحرم القدسى الشريف حولها أبرز العمائر التى تحمل مضامين حضارية . يعود تشييد القبة إلى العصر الأموى ، الذى شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم . واتخذ هذا النزاع صورا متعددة . منها تعريب طراز أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر[١] . وتعريب للنقود فى إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الدينى

---

(١) سعيد مغاورى (دكتور) البرديات العربية فى مصر الإسلامية ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦م .

والسياسى للمسلمين ، ورغبته فى إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة فى شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والثائرين فكان الإصلاح النقدى سببا هاما فى القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسى ، فضلا عن أن النقد العربى الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادى البيزنطى . لهذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادى بتعريب النقود ، فضلا عما يتيحه هذا من توحيد النظام النقدى فى دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضى(١) .

اتجه عبد الملك بن مروان فى إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التى ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكرى ، ففى القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسى دينى حضارى ، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسى الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين ، وفيه صلى الرسول بالأنبياء وإليه كان إسراؤه ومنه كان معراجه(٢) .

ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس ، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين ، ومع ما قد تحدثه عمارة الكنائس فى نفوس بعض المسلمين ، ورغبة عبد الملك فى إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة(٣) ، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة (صورة رقم ٧) ، أبرز آثار الحرم، فهى تعد أول عمل معمارى واع لعظمته بل متباه بها ، انتهى من بنائها عام ٧٢هـ/ ٦٩٢م . وهى ترى من مسافات بعيدة ، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة ، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مثمن ، شامخة فى الهواء فى مركز الحرم القدسى على كل من تلال القدس . وهذه القبة ذات التصميم الهندسى الذى يصل إلى حد الجمال والروعة

---

(١) رأفت النبراوى (دكتور) قصة أول نقود عربية فى الإسلام ، ص ٥٨ : ٦٢ . مجلة القدس ، العدد ١٣٤ / ١٩٨٨م .

(٢) الزركشى محمد بن عبد الله ، إعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٢٧٥ : ٢٩٨ . تحقيق أبو الوفا المراغى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٣هـ .

(٣) يوسف شوقى (دكتور) قبة الصخرة ، ص ١٦ ، وزارة الإعلام سلطنة عمان ١٩٨٧م .

كانت مزخرفة بالفسيفساء على كل سطوحها داخلا وخارجا ، وكانت ومازالت تبهر الرائين حتى إن كثيرا منهم لم يملكوا أنفسهم من إضفاء كل صفات البريق واللمعان عليها ، مهملين فى الوقت نفسه ، للأسف ، أن يخبروا ماذا كانت تلك اللوحات الفسيفسائية تمثل ، ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكما كليا لأن جزءا كبيرا من الفسيفساء الأموية قد فُقد ، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المثمن الداخلى ، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها .

مخطط القبة ليس غريبا بالدرجة التى يبدو بها اليوم ، إذ يرى بعض المستشرقين وعلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل رومانى يعرف بمخطط ضريح الشهيد ، وهو عبارة عن الطواف حوله ، وظيفته إذن طقوسية طوافية . وهو لهذا السبب استعمل فى الفترة المسيحية المبكرة فى بلاد الشام، وفى مجال الأراضى البيزنطية، فى عمارة العديد من الكاتدرائيات المهمة ، ككاتدرائية بصرى فى حوران التى مازال بقاياها قائمة إلى اليوم ، وكنيسة القيامة فى القدس نفسها ، وهما الاثنتان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطى فى عهد جوستينيان (حكم ٥٢٧ – ٥٦٥) . ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازنا هندسيا ، وهى دون أى شك قد قصد بها التمايز والتنافس مع قبة قبر المسيح فى كنيسة القيامة التى تطل عليها من أعلى جبل مورياه[١] . ويرى الدكتور فريد شافعى أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أى تخطيط لنماذج العمائر البيزنطية فى منطقة بلاد الشام أو فى غيرها . بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذى شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة ، وهى البقعة المباركة التى عرج منها محمد ﷺ إلى السماء حين أسرى به ربُّه من مكة المكرمة إليها . ولذا فقد روعى فى التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة ، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها . وهو أمر يختلف تماما عن الذى شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية

---

(١) ناصر الرباط (دكتور) نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية ، ص ٩٩ : ١٠٠ ، مجلة أبواب ، ١٩، دار الساقى ، ١٩٩٩م .

ذات التخطيطات المشابهة . التى عادة ما توجه نحو الحنية ، ولا تتعدد فيها المداخل كما تعـددت فى قـبة الصخرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية ، بل كانت فى الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة ، أخذت بدورها من أصول إغريقية[1] .

وتعد فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتدادا للفسيفساء البيزنطية فى بلاد الشـام والدولـة البيزنطـية ، ولها العديد من الأمثلة فى كنائس بلاد الشام والعاصمة القسـطنطينية ، وأشهرها أيا صوفيا ، وكنائس سالونيكا الإغريقية ، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة فى أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها ، فعلى خلاف الـنماذج البيزنطـية التى تتشارك وإياها فى التقنية ، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضـيع اللاتمثيلية ، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتـية ، بعـض الأشـكال الغامضـة اليوم ، والتى ربما تكون تحويرا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها (صورة رقم ٨، ٩) .

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها نحو هذا المبنى ورمزيته . إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز فى الآيات القرآنية المختارة بدقة ، وفى تركيز وضع صور تيجان الملوك فى الرواق حول القبة وبمواجهتها . فالنص القرآنى يحتوى على كل الآيـات التى تتكلم عن المسيح فى موقعه الإسلامى المختار كنبى مرسل[2] . والتيجان تـبدو أشـبه ما تكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين ، التى كان أباطرة الرومان والبيزنطـيين يضـعونها فى معـابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية

---

(١) فـريد شافعى (دكتور) العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٤٠، ٤١، ٧٧، ٧٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩٤م .

(٢) نشـر أولج جـرابار هذه النصوص كاملة فى كتابه عن العمارة المبكرة فى القدس ، وهى فى مجملها نصـوص تشير إلى التوحيد وإلى أن محمدًا رسول الله وإلى أن إلهه لم يكن له ولد وتدعو النصارى إلى عبادة الله عبادة صادقة .

- New p. 184, 185, 186, Jerusalem, olg Graybar, The Shape of The Holy Islamic Jersey, 1996.

معتقدهم. وبالتالى يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناة قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين ، خاصة إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت فى القدس التى كان أغلب سكانها المسيحيين مازالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطى ، فى وقت كانت الدولة الأموية فيه فى خضم صراع مرير مع البيزنطيين فى شمال بلاد الشام(١) .

فالقبة مبنى معمارى ذو رمزية سياسية ينبئ فى القدس عن رغبة الدولة الأموية فى بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين فى المدينة ، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها . وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبى ، رمزا لمدينة القدس ، يعلوها الهلال الذى يوازى اتجاه القبلة . وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة ، وأقاموا مكانه صليبا من الذهب . وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م . تسلق بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه(٢) . هذا شكل الموقع الذى شيدت عليه قبة الصخرة جانبا من الرمزية السياسية (صورة رقم ١٠) .

إن هذه الرسالة تحتم علينا تقديم بعض المقترحات لمقاومة التهويد الإعلامى والثقافى لمدينة القدس وتراثها منها :

- يجب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأمريكى للآثار فى القدس الخاصة بتاريخ وتراث القدس وفلسطين . وتخصيص منح للأثاريين الشبان لدراستها ، مع التركيز على عصور ما قبل التاريخ التى يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم .
- يجب دراسة طبوغرافية القدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه العرب فى هذا المجال غير دقيق وغير كاف . مع تقديم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .
- ضرورة تعزيز المواقع العربية والإسلامية على الإنترنت بهذه الدراسات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يوسف شوقى (دكتور) مرجع سابق ، ص ٦٤ .

- توجيه نداء إلى اتحاد الجامعات العربية لتخصيص الموسم الثقافى الحالى فى الجامعات العربية للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ فى المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .

- تكليف كل من منظمة العواصم والمدن الإسلامية ، ومنظمة المدن العربية بإقامة مؤتمر عالمى فى غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعمارى كوسيلة لبيان أهمية هذه المدينة بالنسبة للعرب والمسلمين .

- يجب أن تتضمن بنود مفاوضات السلام مع إسرائيل بنودًا خاصة بالمناهج التعليمية فى المدارس والجامعات الإسرائيلية .

- كما يجب أن تتضمن بنودًا خاصة بقانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية .

* * *

موقف الجمهورية العربية المتحدة
من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

د. زكريا أحمد محمد سعد
أســتاذ التاريخ الحديث
جامعــة الأزهر

موقف الجمهورية العربية المتحدة
من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

تمهيد

تميزت العلاقات المصرية اللبنانية منذ استقلال لبنان عام ١٩٤٣ وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر بقوتها ومتانتها ، فقد ساندت مصر شعب لبنان فى الحصول على استقلاله ، ودعمت التوجه العربى للسياسة اللبنانية .

ففى يونيه / حزيران ١٩٤٣ جاء إلى مصر بشارة الخورى رئيس الكتلة الدستورية والذى كان يأمل فى الوصول لرئاسة الجمهورية بناء على دعوة مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر للبحث والتشاور فى التعاون العربى ، وقد أبدى بشارة الخورى استعداده للتعاون العربى شرط استقلال لبنان ضمن حدوده المعترف بها ، كما أضاف "أننا نريد التعاون مع الدول العربية إلى أقصى حد على هذا الأساس ثم استدركت أن عدداً من المسيحيين لا يعتنق هذه الأيديولوجيا وقد يعاكسه لاعتقاده بضرورة حماية أجنبية لبلاده"[١] .

وبالفعل خاض بشارة الخورى انتخابات عام ١٩٤٣ معتمدا على الاتجاه الذى يحاول التوفيق بين فكرة الكيان اللبنانى وحركة التجمع العربى ، وحظى بتأييد المعتدلين من المسلمين والمسيحيين ، كما ساندته بريطانيا معنويا ، أما منافسه "إميل إده" فقد خاض انتخابات الرئاسة معتمداً على تأييد فرنسا والمتطرفين فى فكرة "الوطنية اللبنانية"

---

(١) بشارة خليل الخورى : حقائق لبنانية ، الجزء الأول ، منشورات أوراق لبنانية ، بيروت ، د .ت ، ص ٢٤٣ .

ونجـــح بشـــارة الخورى فى الفوز بالانتخابات وتشكيل وزارة وطنية برئاســـة رياض الصلح[١] .

وعـــلى الرغم من نجاح حكومة الاستقلال فى تأكيد التوجه العربى للسياسة اللبنانية إلا أن مســـألة الطائفية داخل المجتمع اللبنانى ظلت تهدد الفكرة العربية فى لبنان . فمنذ عـــام ١٩٤٣ حـــتى عـــام ١٩٥١ كان رياض الصلح ، بحكم مشاركته للشيخ بشارة الخـــورى فى الحكم وبتأثيره الشخصى على الشارع الإسلامى ، قد استطاع استيعاب المطالـــب الإسلامية وإقناع المسلمين بتفهم الأمر الواقع إرضاءً للمسيحيين وتطمينا لهم عـــلى أن الاســـتقلال والـــتعاون العربى لم يلحقا أى ضرر بمصالحهم أو امتيازاتهم أو حقوقهم ، ولكن بعـــد وفاة رياض الصلح (١٩٥١) واســـتقالة الشيخ بشارة الخورى (١٩٥٢) استيقظت الحزازات والمواقف الطائفية من جديد منطلقة من مواقع اجتماعية وقومية[٢] .

والجدير بالذكر أن عام ١٩٥٢ شهد تفجر ثورة ٢٣ يوليو/ تموز على أرض مصر ليدفع دماء الحياة - وبحيوية كبرى من جديد ـ فى قلوب المناضلين العرب الشرفاء من أبـــناء الأمـــة العربية على اتساع ساحة الوطن العربى شرقاً وغرباً وليؤجج نيران الثورة عـــلى الطغـــيان فى نفوســـهم ، وليحيى آمالهم فى القدرة على تحقيق الحياة الكريمة لهم ولأســـرهم عـــلى أرض الوطن ، خاصة بعدما أعلنت ثورة مصر عن هويتها العربية فى أوائل عام ١٩٥٣ بعد أن تحقق لها الاستقرار المنشود داخلياً[٣] .

وفى لبنان شهد عام ١٩٥٢ أيضا اختيار مجلس النواب اللبنانى كميل شمعون ، أحد أعضائه رئيسا للجمهورية اللبنانية ، بدلاً من الشيخ بشارة الخورى الذى آثر الاستقالة

---

(١) د . صلاح العقاد : تكوين لبنان الحديث ، بحث فى كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩٩ .

(٢) باسم الجسر : الصراعات اللبنانية والوفاق (١٩٢٠-١٩٧٥) ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ص ١١٨-١١٩ .

(٣) فتحى الديب : عبد الناصر وتحرير المشرق العربى ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ١٢ .

والانسحاب ، عقب الإضراب العام الذى أعلنه الشعب اللبنانى احتجاجاً على أساليب الحكم التى اتبعت فى عهده ، وكان الرئيس الجديد من أقطاب الحزب الدستورى ومن العاملين فى محيط السياسة العربية القومية[١] .

ولقد أكد كميل شمعون فى بداية عهده على هوية لبنان العربية حيث صرح "أن لبنان لن ينحرف قيد شعرة عن السياسة التى سار عليها منذ عام ١٩٤٣ ، تلك السياسة التى تجعله فى طليعة الدول العربية اهتماماً بقضية العرب وسعياً وراء توحيد الكلمة وجمع الشمل وتقوية الروابط"[٢] .

ومن ناحية أخرى ، فمن الواضح أن الحكومة اللبنانية فى تلك الفترة كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة مع قادة ثورة يوليو فى مصر ، ويؤكد ذلك ما تم من تعاون وتنسيق بين الحكومتين المصرية واللبنانية لمقاومة نشاط أنصار جماعة الإخوان المسلمين المنحلة ، كما أعرب الرئيس كميل شمعون للواء عبد الحميد غالب السفير المصرى ببيروت عن استعداد بلاده للعمل على كل ما من شأنه توثيق الروابط بين مصر ولبنان[٣] .

ولكن سرعان ما توترت العلاقات المصرية اللبنانية ، حيث أدت ضغوط السياسات المحلية والعربية بكميل شمعون إلى التخلى تدريجيا عن حياده وعن اندفاعاته العربية المؤقتة ، مما جعله يسفر عن ميوله الغربية ، وبالتالى يقحم بلاده فى أتون الحرب الباردة بين الشرق والغرب وبين مختلف أنظمة الحكم العربية ، ففى أبريل/ نيسان ١٩٥٥

---

(١) أمين سعيد : الجمهورية العربية المتحدة ، الجزء الأول ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٩ .

(٢) د . على محمد الأغا : الاتجاهات السياسية فى لبنان (١٩٢٠-١٩٨٢) ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ١٢٠ .

(٣) وثائق الخارجية المصرية ، أرشيف الدول ، محفظة رقم ٨ لبنان ، ملف ١/٧/٢٢٧ ج٤ . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى جداً ، بتاريخ ١٩٥٤/١٢/٢٢ .

زار شمعون تركيا ، وفى نهاية الزيارة صدر بيان أشار إلى علاقة الصداقة التقليدية بين لبنان وتركيا وذهب إلى أن تركيا تشكل خط الدفاع الأول عن البلدان العربية[١] .

وهذا يعنى اتجاه لبنان فى سياسته الخارجية إلى دائرة الأحلاف الغربية ومن بينها حلف بغداد . وجاءت الزيارة التى قام بها شمعون إلى تركيا لتؤكد هذا الاتجاه ، وعلى الرغم من عدم الإعلان الرسمى فقد أدت تلك السياسة المتبعة إلى انقسام داخلى فى الآراء تجسد فى ظهور تيارين متعارضين : الأول يؤيد الانضمام إلى الأحلاف ويجد أن سلامة لبنان لابد وأن تعتمد على مساندة دولة أجنبية كبرى تقف وراء رئيس الجمهورية . والثانى : رفض سياسة الأحلاف ورأى فى زيارته لتركيا تحديا لمشاعر الرأى العام اللبنانى والعربى نظراً لأن تركيا فى ذلك الوقت كانت تحشد قواتها على الحدود مع سوريا[٢] .

وأمام خطورة ما أقدمت عليه الحكومة اللبنانية على سياسة مصر العربية بزعامة جمال عبد الناصر ، بدأت القيادة المصرية التحرك السريع لمجابهة هذا الخطر ، وقد تركز التحرك المصرى بشكل خاص على دعم ومساندة كافة القوى الوطنية المعارضة لسياسة شمعون الموالية للغرب .

فمن داخل لبنان يرفع اللواء عبد الحميد غالب السفير المصرى ببيروت للمسئولين المصريين تقريراً هاماً حول الاتجاهات السياسية فى لبنان ، فيؤكد على أن سياسة لبنان الخارجية ترتبط بأوضاعه الداخلية أكثر من ارتباط أية دولة أخرى بمثل تلك الأوضاع، وينبغى لذلك أن لا تغيب هذه الحقيقة عن البال فى تكييف علاقة مصر بلبنان فى أى ظرف كان ، كما أشار إلى أن السياسات فى لبنان تتفاعل مهما تباينت وسائلها تبعا للاختلافات الطائفية والعوامل الاقتصادية ؛ فهى تلتقى عند هدف واحد هو المصلحة الشخصية للفرد أو الطائفة التى ينتمى إليها ، ولا تتغلب المصلحة الطائفية فى معظم الأحوال على المصلحة الفردية إلا لدى المتطرفين فى نزعاتهم الدينية .

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى فى لبنان ، بحث فى كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٦٠٤ .

(٢) د . أحمد خليل محمودى : لبنان فى جامعة الدول العربية ١٩٤٥ – ١٩٥٨ ، المركز العربى للأبحاث والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٥٧ .

ويضـــيف الســـفير المصرى أنه بينما ساعدت وحدة هدف الوطن المسيحى على تقســـيم المســـيحيين إلى مدارس "فرنسية" و "بريطانية" و "أمريكية" تلتقى جميعها عند غـــرض واحد فرقت ا لمصالح الشخصية بين المسلمين وساعدت الأموال السعودية من جهة والعراقية من جهة أخرى على هذه التفرقة[١] .

ومـــع أهمية ما ورد فى تقرير السفير المصرى ببيروت حول الاتجاهات السياسية فى لبـــنان ، بالنسبة لواضعى السياسة المصرية ، إلا أنه يمكن القول بأن ما ورد بشأن تفرق المسلمين فى لبنان وتأثير تغليب المصالح الشخصية على قوهم ووحدة كلمتهم يمثل أهمية خاصـــة نظـــراً للدور المنتظر أن يلعبه المسلمون فى لبنان فى تأييد ومساندة تيار القومية العربية الذى تتزعمه مصر .

ولذلك فعلى الرغم من أن نشاط السفير المصرى ببيروت لتكوين جبهة داخلية قوية ضـــد سياسة شمعون شمل كافة القوى السياسية فى لبنان ، إلا أنه حاول بشكل خاص بذل جهوده لتوحيد كلمة القوى الإسلامية رغم صعوبة المهمة ، فقد سعى للجمع بين الـــزعماء السنيين الذين يتناوبون تولى رئاسة الوزارة وهم سامى الصلح وعبد الله اليافى وحســـين العويـــنى وصـــائب سلام ، وكانت محادثاته مع كل منهم تجرى على انفراد وتدور حول القوة الهائلة التى تتسنى لهم مجتمعين غير أن المصالح الشخصية حالت دون ذلك[٢] .

ولم يقتصـــر الـــتحرك المصرى على جهود السفارة المصرية ببيروت ، بل حرصت السياســـة المصرية بقيادة عبد الناصر على فتح قنوات الاتصال بكافة الزعماء السياسيين اللبنانيين الذين من الممكن أن يلعبوا دوراً على الساحة اللبنانية فى تأييد السياسة المصرية ومعارضـــة سياســـة شمعون ، ويؤكد ذلك اللقـــاء الذى تم فى أواخر عام ١٩٥٥ بين

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٨ لبنان ، ملف ١/٧/٢٢٧ج٤ . السفارة المصرية ببيروت رقم ٢٨ سرى جداً بتاريخ ١٩٥٥/٣/٢٧ .

(٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة والملف ، برقية رقم ٨٤ سرى جداً . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٥/٨/٢ .

عبد الناصر وحميد فرنجيه أحد السياسيين اللبنانيين ، ويذكر السفير المصرى ببيروت أنه لم يلمس خلال السنة التى قضاها فى بيروت إجماعاً على ضرورة تنحية شمعون مثل الإجماع الذى لمسه منذ عودة حميد فرنجيه من القاهرة بعد لقائه بالرئيس عبد الناصر ، كما يشير السفير المصرى إلى أن فرنجيه لم تفتر له همة منذ عودته من القاهرة فى محاولة جمع الصفوف وتأليبها ضد شمعون ، وقد أصبح الكثيرون من خصوم فرنجيه السابقين من أشد أنصاره وخصوصا بين الطوائف الإسلامية بعد أن نجح فرنجيه فى إقناعهم بأمرين أساسيين :

الأول : اتباعه لسياسة عربية بعيدة عن الاتجاه الانعزالى الذى كان معروفاً عنه فيما مضى .

الثانى : إيمانه بضرورة التعاون الوثيق بين سوريا ولبنان ، يضاف إلى ذلك نتائج رحلته إلى القاهرة والعلاقة الشخصية التى نشأت بينه وبين الرئيس عبد الناصر والتى يستغلها فرنجيه للتدليل على ثقة الرئيس به[١] .

ولعل ذلك يدلل على حرص القيادة المصرية على ربط لبنان بفلك سياسة مصر العربية ، كما يوضح أن تأثير شخصية عبد الناصر ونفوذه لدى المعارضة اللبنانية بدأت منذ وقت مبكر ، ولا يمنع ذلك من القول بوجود سياسة المصالح الشخصية التى أشار إليها السفير المصرى ببيروت فى تقريره سالف الذكر ، وربما يكون تحول موقف حميد فرنجيه من تبنى السياسة الانعزالية إلى تزعم السياسة العربية ما يؤيد ذلك .

وفى ظل هذه الأجواء يقع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ليدخل الصراع بين حركة التحرير العربى بقيادة مصر والاستعمار الغربى ومن يدور فى فلكه فى مرحلة أخطر وأصعب على طريق المواجهة بين الطرفين .

وبالطبع كانت الدول العربية فى طليعة من ثار لكرامة مصر وحقها المغتصب ، ولكن يبدو أن بعض السلطات ، ومنها سلطات العراق ولبنان ، كانت تأمل ، رغم

---

(١) المصدر نفسه : نفس المحفظة والملف ، برقية رقم ١٢١ سرى جداً . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٥/١٠/٢٠ .

التظاهر بالعكس ، بأن تنتهى المؤامرة على غير ما آلت إليه ، فيغيب عبد الناصر عن مسرح السياسة فى الشرق الأوسط . إرضاءً لأعدائه فى حلف بغداد ولبريطانيا الوصية على هذا الحلف[١] .

وفى لبنان دعا الرئيس شمعون لعقد مؤتمر قمة عربى فى بيروت للبحث فى الخطوات التى يمكن اتخاذها لوقف العدوان ، ومع أن المؤتمر لم تسبقه أية خطوات تحضيرية لإنجاحه ، فقد أقر مشروعاً مؤيداً لمصر ، وأثناء هذا الاجتماع طرحت مسألة قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا احتجاجا على عدوانها على دولة عربية هى مصر ، فلقى الاقتراح تأييدا من المجتمعين . ثم إن رئيس الحكومة اللبنانية عبد الله اليافى ومعه الوزير صائب سلام طالبا رئيس الجمهورية اللبنانية بضرورة قطع العلاقات الدبلوماسية ، إلا أن الآخر لم يستجب لهذا الطلب رغم تهديد الوزيرين بالاستقالة ، بل طلب منهما التريث إلى أن ينتهى عقد المؤتمر العربى المذكور ومع ذلك فإنه لما انتهى المؤتمر رفض شمعون قطع العلاقات الدبلوماسية مع أى من الدولتين أسوة بباقى الدول العربية[٢] .

ونتيجة لذلك ، قدم عبد الله اليافى وصائب سلام استقالتهما احتجاجا على موقف شمعون من مسألة قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا ، وهنا تبتدئ المعركة الداخلية الصاخبة فى لبنان بين مؤيدى سياسة الرئيس عبد الناصر وخصومها ، وبين مؤازرى حركة التحرر العربية ومناوئيها[٣] .

والجدير بالذكر أن الرئيس عبد الناصر خرج من معركته مع الاستعمار بعد العدوان الثلاثى على مصر وقد ازدادت شعبيته وارتفعت نسبة مؤيديه فى لبنان والعالم العربى كله ، وأصبح بطلاً للقومية العربية .

---

(١) د . عباس أبو صالح: الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، العربية للمنشورات ، بيروت، ١٩٩٨ ، ص ص ٥٦-٥٧ .

(٢) جوزف مغيزل : لبنان والقضية العربية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٤٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٨ .

وفى تلـــك الفترة يكتب السفير المصرى ببيروت تقريراً حول الموقف السياسى فى لبنان وتداعياته على أهداف السياسة المصرية ، فيشير إلى اشتداد دعاية الدول الغربية فى لبنان والمبالغ الهائلة التى صرفتها وما تزال تصرفها تلك الدول - بمساعدة العراق - فى الأوجـــه المختلفة لتلك الدعاية ، ويقترح فى مواجهة ذلك أن تنظم الدعاية المصرية من الناحية المالية بالتعاون مع المملكة العربية السعودية التى قبضت يدها من معونة الصحف المؤيـــدة للسياسية المصرية وأخذت تعتمد فى لبنان إلى حد كبير على العناصر الإسلامية وليس من شك فى أن لبنان ينقسم عند الامتحان الحقيقى أو اشتداد الأزمات إلى مسلم ومسيحى .

ويطالـــب الســـفير المصرى فى نهاية تقريره بإعادة النظر فى سياسة مصر نحو لبنان بحيث تكون أكثر وضوحاً وتحديداً ، حيث انحصرت هذه السياسة فى الفترة الماضية فى منع لبنان من الانضمام إلى حلف بغداد[١] .

ويـــبدو أن لبـــنان فى تلك الفترة تحول إلى ساحة للحرب الدعائية بين التيار الموالى للغـــرب بـــزعامة شمعون والذى يسبح فى فلكه وينعم بدعمه السخى من جهة والتيار القومى العربى والذى تتزعمه وتسانده مصر من جهة أخرى .

ولمـــا كانت الحرب الدعائية تعتمد بشكل كبير على الدعم المالى فقد طالب السفير المصـــرى بـــبيروت بدعم أكبر من الناحية المالية فى هذه المواجهة الشرسة مع الدعاية الغربية وإمكانياتها الكبيرة .

ومـــن الواضـــح أن المملكـــة العربية السعودية كانت تلعب دوراً هاماً فيما يتصل بالدعم المالى وذلك بالتنسيق مع مصر .

ولم يمض وقت طويل على العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وما أحدثه من تداعـــيات فى العالم العربى حتى أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أمام الكونجرس فى ٥ يـــناير / كانون ثان ١٩٥٧ اقتراحه الذى أطلـــق عليه اسم "مذهـــب أيزنهاور"

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١١ لبنان ، ملف ١/٢٢٧ جـــ١ . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية رقم ٢٢٥ سرى جدا بتاريخ ١٩٥٦/١١/٢٤ .

أو مشروع أيزنهاور لملء الفراغ فى الشــرق الأوسط بعد رحيل قوى الاستعمارالغربى عــن بــلاد هــذه المنطقة من العالم . ذلك أن الرئيس أيزنهاور بعد أن أدان بشدة فى مشــروعه مطامع الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط طالب الكونجرس بأن يطلق يده من أجل "تقديم المساعدة الاقتصادية والعسكرية إلى أية بلد أو إلى أى مجموعة من البلاد تنــتمى لهذه المنطقة وترغب فى الحصول عليها والاستفادة منها . بما فى ذلك المساعدة التى قد تضمن استخدام القوات المسلحة الأمريكية[١] .

وفى الوقــت نفسه كان الرئيس عبد الناصر والملك سعود والرئيس شكرى القوتلى يطلعــون عــلى الرأى العام الدولى والعربى بمبدأ الحياد الإيجابى ، وعندما أعلنت نظرية الفراغ وجهت مصر وسوريا أقسى الانتقادات إليها وأذاعتا الشعار الشهير القائل "إذا كان ثمة من فراغ فالدول العربية هى التى تملأ هذا الفراغ" ، وهكذا ظهر مبدأ أيزنهاور ومــبدأ الحياد الإيجابى كخصمين منذ ولادتهما ، غير أنه ما كان الرئيس أيزنهاور يعلن مــبدأه حتى أسرع الدكتور شارل مالك وزير خارجية لبنان آنذاك ، فرحب به باسم لبــنان ، ووضــع بتصرفه هذا لبنان فى فلك المعسكر الغربى ضد الشيوعية الدولية أو السوفيتية ، وبالتالى فى موقف العداء للسياسة المصرية ـ السورية القائلة بالحياد التام بين المعسكرين[٢] .

و لم يكــد الدكتور شارل مالك يعلن موقفه حتى انقســم الرأى العام اللبنانى إلى فــريقين ، فقــد وافقت قطاعات واســعة من الطائفة المارونية والمنظمات السياســية اليمينية ، مثل الكتائب والحزب القومى الســورى على المبدأ ، على حين تصــدت له بقــية القطاعات بما فى ذلك أغلبية كبار الزعماء المتنفذين من مسلمين ومسيحيين وربما أغلبية الشعب[٣] .

---

(١) د . بطرس بطرس غالى : الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٧ .

(٢) جوزف مغيزل : مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٧٢-١٧٣ .

وبطبيعة الحال ، فقد ازدادت العلاقات المصرية اللبنانية توتراً نظراً لقبول لبنان لمبدأ أيزنهاور ، الذى عارضته مصر بل وبدأ لبنان فى مهاجمة مصر وسياستها فى المنطقة[١] .

وقد أكد تقرير صحفى للسفارة المصرية ببيروت بتاريخ ١١ فبراير/شباط ١٩٥٧ ، على الهجوم الخطير الذى تتعرض له مصر فى الحملة الدعائية التى تقوم بها الصحف المعادية لها ، كما أشار التقرير إلى أن هذه الحملة الدعائية، شملت أيضا مؤتمر الأحزاب الذى يناصر السياسة المصرية ، وكذلك بعض زعماء المعارضة وبشكل خاص صائب سلام وبشارة الخورى وعبد الله الحاج ، وأن جريدة النهار ذكرت فى عددها الصادر فى ١١ فبراير/شباط ١٩٥٧ . أن هناك تمويلا من دولة تعادى لبنان لتفسد الأمن فيه ، وأن التمويل عرف أنه يبلغ مليونا ونصف مليون من الليرات[٢] .

ولا يخفى أن المقصود بهذا الاتهام هو مصر ، ولعل ذلك يلفت النظر إلى أن مسألة توجيه الاتهام اللبنانى إلى مصر قد مهدت له الصحف اللبنانية .

وعلى أية حال فقد أدى الموقف اللبنانى من مبدأ أيزنهاور إلى تزايد دعم ومساندة مصر للمعارضة اللبنانية للتخلص من حكم كميل شمعون ، وقد ساعد على ذلك ولا شك أنه بعد وقوع العدوان الثلاثى على مصر ، ارتفعت شعبية الرئيس عبد الناصر ، وتزايدت نسبة مؤيدى المد القومى العربى فى لبنان والعالم العربى .

السياسة المصرية وتفاقم الأزمة اللبنانية :

منذ أن ابتدأ التفكير عام ١٩٥٧ ، فى تحديد موعد الانتخابات لاختيار أعضاء المجلس النيابى الجديد فى لبنان ، اتضح أن المعركة سوف تكون ضارية ، لأن الجبهتين المتصارعتين ، الموالية والمعارضة ، جعلتا من المعركة قضية حياة أو موت لهما .

---

(١) عبد الحميد محمد موافى : مصر جامعة الدول العربية ، دراسة فى دور الدولة الأكبر فى التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥-١٩٧٠" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٩ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١ لبنان ، ملف ٢/٨٦/٧٥٣ جـ١ . سفارة مصر ببيروت رقم ٣٩ سرى جداً بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٥٧ .

فمـــن جهة ، انتصبت جبهة يتزعمها رئيس الدولة نفسه والحكومة ، تمثل السياسة الغربـــية وما يكمن فيها من عداء لمصر ، ومن جهة أخرى قامت المعارضة التى تنادى بإتباع سياسة الصداقة لمصر والحياد وعدم الانحياز تجاه المعسكرين الدوليين .

ولـــو أن التـــنافس انحصر حول القضايا السياسية العامة لكان الأمر طبيعيا ولجرت الأحـــداث جريا معقولاً رغم احتدام المعركة إلا أن أهدافاً خاصة ظهرت وراء الصراع السياســـى وأهم تلك الأهداف رغبة رئيس الجمهورية كميل شمعون فى الاستمرار فى الحكم ست سنوات جديدة خلافًا لنص الدستور اللبنانى الصريح .

ولمـــا كـــان لابد لشمعون من تعديل الدستور فى سبيل إقرار تجديد ولايته ، صمم عـــلى الـــتدخل فى الانـــتخابات لإيصال النواب الذين يضمنون له التعديل ، وإقصاء المرشحين الذين سيقفون بوجه هذه المحاولة(١) .

وإزاء ذلـــك ، فقد دعا السفير المصرى ببيروت المسئولين المصريين منذ فترة مبكرة إلى الاســـتعداد للمعركة الانتخابية فى لبنان ، موضحا خطورتها على مستقبل السياسة الخارجـــية للبـــنان ، باعتبار أنها معركة المجلس النيابى والرئاسة فى آن واحد ، وطالب الســـفير بضرورة وضع خطة عاجلة إزاء هذه الانتخابات على أن تنسق ـ إذا أمكن ـ مـــع سوريا والمملكة السعودية ليس من ناحية الاتجاهات والأشخاص فحسب بل من ناحية الأعباء المالية كذلك(٢) .

وفى تقريـــر آخـــر ، ومع اقتراب موعد الانتخابات اللبنانية ، حذر السفير المصرى ببيروت من خطـــورة الدعاية الغربية والعـــراقية على المعركة الانتخابية إذ أنها تشـــتد فى لبـــنان يومـــا عن يوم ، وتعتمد على إغداق الأموال إغداقاً يقرب من الخيال ، و لم يقتصـــر الأمر على شراء صحف موجودة أو إصدار صحف جديدة أو توزيع النشرات وغيرهـــا بكمـــيات هائلـــة . بل عمدت كذلك إلى إنشاء وكالات جديدة للأنباء ،

---

(١) جوزف مغيزل : مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١١ لبنان ، ملف ١/٧/٢٢٧ جـ ١ . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية رقم ٢٠٨ سرى جداً بتاريخ ١٩٥٦/١٠/١٢ .

كوكالة الصحافة اللبنانية التى بدأت فى إصدار نشراتها باللغة الإنجليزية علاوة على اللغة العربية.

ويشير السفير إلى أمر هام وهو أن كافة المتصلين به من الزعماء المؤيدين للسياسة المصرية يجمعون على أنه من المستحيل الاعتماد فى المعركة الانتخابية القادمة على المبادئ وحدها ، ويرون ضرورة إقناع الملك سعود بتخصيص مبالغ كافية للدعاية فى لبنان ، التى اتخذها الغرب وحلف بغداد مركزاً لدعايته فى البلاد العربية ، وأضاف السفير أنه من بين الزعماء الذين تحدثوا معه فى هذا الصدد عبد الله اليافى الذى أكد على أنه يخسر شهريا ١٧,٠٠٠ ليرة لبنانية نتيجة إقدامه على إصدار صحيفة السياسة مما أغرقه فى دين لا قبل له به(١) .

وهكذا مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية اللبنانية ، تحولت الساحة اللبنانية إلى حلبة للصراع السياسى بين مؤيدى السياسة الغربية وبين مؤيدى القومية العربية وسياسة الحياد ، كما دخلت المعركة السياسية فى مرحلة أكثر شراسة ومكاشفة عن ذى قبل ، ويبدو أن أكثر ما كان يؤرق المعارضة اللبنانية فى هذه المواجهة . هو نقص الدعم المادى ، الذى بات يهدد قدرتهم على الاستمرار ، وخاصة فى ظل الإمكانات الضخمة للدعاية الغربية فى لبنان .

ويلاحظ أن معركة القومية العربية بزعامة مصر ضد الاستعمار الغربى ، كانت تحمّل مصر أعباءً مالية فوق طاقتها سواء على الساحة اللبنانية أو الساحة العربية ، ومن ثم كان لابد لمصر أن تنسق مع الدول المؤيدة لسياستها من أجل وضع سياسة موحدة لمعالجة المشكلات المتعلقة بالناحية المادية .

ومن ناحية أخرى ، فمن الواضح أن تزايد نفوذ السياسة المصرية داخل المعارضة اللبنانية ، وخاصة نشاط السفير المصرى ببيروت ، كان يمثل مصدر قلق شديد للحكومة اللبنانية ، وذلك خوفاً من تدخلها فى المعركة الانتخابية لإنجاح المعارضة اللبنانية .

---

(١) المصدر نفسه : محفظة رقم ٢ لبنان ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ١ . برقية رقم ٤٢ سرى جداً ، من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٧/٢/١٦ .

ويؤكد ذلك ما ذكره الرئيس شمعون فى لقائه مع السفير المصرى ببيروت فى ٢٠ فبراير/ شباط ١٩٥٧ ، حيث استفسر عما إذا كانت مصر مصممة على التدخل فى معركة الانتخابات اللبنانية ، كما ألمح للسفير المصرى عن درايته التامة باتصالاته بجميع المعارضين له[١] .

وإلى جانب ذلك ، بدأت الصحف اللبنانية الموالية لشمعون فى شن الهجوم على السفير المصرى ببيروت ، كما طالبه شارل مالك وزير خارجية لبنان فى لقائه معه فى ٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٥٧ بأن يحد من اتصالاته برجال المعارضة ، بل وصل الأمر بأنه اقترح عليه الحصول على إجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين يقضيهما بأحد مصايف لبنان حتى يبتعد خلالها ولو لمدة قصيرة عن اتصالاته بالمعارضة[٢] .

وعلى أية حال ، فقد أجريت الانتخابات النيابية عام ١٩٥٧ فى جو من التحدى المتبادل بين أقطاب المعارضة والحكومة ، ولكن كان بوسع الطرف الأخير تسخير بعض قوى الدولة ونفوذها وأجهزتها لخدمة المرشحين الموالين للعهد فضلا عن تدخل الرئيس شمعون نفسه أحياناً من أجل إقناع بعض المرشحين للانسحاب لمصلحة المرشحين الموالين له[٣] .

وقد أسفرت نتائج انتخابات عام ١٩٥٧ عن فوز الحكومة بأغلبية الثلثين وسقوط بعض زعماء المعارضة من أمثال "كمال جنبلاط "عبد الله اليافى" و"صائب سلام" و"أحمد الأسعد" ، فثار اللبنانيون لذلك ، وقاموا بنسف الجسور وخطوط السكك الحديدية وأنابيب المياه ، وقاموا بإطلاق النار على مراكز الشرطة وعكف الدروز على التدريب والتسليح ، وتعددت الحوادث فى المدن والمناطق اللبنانية المختلفة حتى نشوب الأزمة الحقيقية فى مايو/ آيار ١٩٥٨[٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ملف ١/٨١/٧٥٣ برقية رقم ٤٦ سرى جداً ، من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية .

(٢) المصدر نفسه : ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ١ ، برقية رقم ٩ سرى جداً ، من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٧/٤/٢٦ .

(٣) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٤) د . بدر الدين عباس الخصوصى : القضية اللبنانية فى تاريخها الحديث والمعاصر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٢٣ .

ولا شك فى أن هزيمة المعارضة اللبنانية فى الانتخابات النيابية ، مثلت خسارة كبيرة للسياسة المصرية فى لبنان ، ومكسبا قويا للجبهة الموالية للغرب بزعامة الرئيس شمعون ، ومع ذلك ظلت السياسة المصرية على دعمها ومساندها للمعارضة اللبنانية استعداداً للجولة التالية ، وهى معركة التجديد للرئاسة والتى كان يستعد لها الرئيس شمعون ، وقد شهدت تلك الفترة توتراً شديداً فى العلاقات بين مصر ولبنان ، والذى ظهر فى الحرب الإعلامية الشرسة التى كانت دائرة بين الطرفين .

وازدادت الأمور تعقيدا بعد ما جاء فى خطاب الرئيس عبد الناصر فى ٢٣ ديسمبر كانون أول ١٩٥٧ ، من اتهام صريح لبعض المتآمرين من أعوان الاستعمار ، الذين اتخذوا من بيروت مركزاً لتدبير مؤامرة ضد نظام الحكم فى مصر ، وإن كانت الحكومة اللبنانية قد أعلنت عن عدم علمها بأمر هذه المؤامرة وأنها كانت تتمنى لو أحيطت علما بها فى حينها حتى تشارك الحكومة المصرية فى تتبعها[١] .

وعلى كل ، فمع أواخر عام ١٩٥٧ ، بدا الرئيس عبد الناصر أكثر إصرارًا عن أى وقت مضى على إسقاط نظام حكم الرئيس شمعون[٢] .

وفى أوائل عام ١٩٥٨ ، أعلن عن قيام الوحدة بين مصر وسوريا ، وجاء رد الفعل داخل لبنان متبايناً تماماً ، فالرئيس شمعون أحس وقد استظل بمظلة القوة الأمريكية الضخمة بأنه بات فى وضع أفضل بكثير يمكنه من مقاومة ضغوط القاهرة ودمشق ودعاياتها ، لقد كان ينظر ولا شك بارتياب إلى الوحدة بين مصر وسوريا ، لكنه كان على بينة فى ذلك الوقت على الأقل من أنه يستطيع الاعتماد على تأييد الولايات المتحدة إذا ما تعرض لبنان للهجوم[٣] .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية ، أرشيف الدول ، محفظة رقم ٢ لبنان ، ملف ١/٨١/٧٥٣ . برقية رقم ١٦٠ سرى جداً من القائم بالأعمال بالسفارة المصرية ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٢/٢٧/ ١٩٥٧ .

(٢) مايلز كوبلاند : لعبة الأمم الأخلاقية فى سياسة القوة الأمريكية ، ترجمة مروان خير ، ط١ ، انترناشونال سنتر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٩ .

(٣) انتونى ناتنج : ناصر ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ط١ ، دار مكتبة هلال ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧١ .

وعلى النقيض من ذلك ، فقد قوبل قيام الوحدة المصرية السورية بموجة عارمة من التأييد فى كافة الأوساط القومية العربية ، وهلل لها العروبيون فى لبنان ، وكبروا واحتفوا بها أكبر احتفاء .

وفى شهر مارس/ آذار ١٩٥٨ ، أتى الرئيس عبد الناصر ، بعد أن انتخب رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، لزيارة الإقليم الشمالى (سوريا) وقد صحب قدومه وإقامته سلسلة من المهرجانات الصاخبة العاصفة تأييدا وولاء له . ولم يكن لبنان بأقل حماسا من جيرانه تجاه الرئيس عبد الناصر ، فهرعت الألوف المؤلفة من اللبنانيين إلى دمشق تحيى بطل العروبة كما أن رسومه ملأت المخازن والشوارع والطرق فى العاصمة والمدن والقرى اللبنانية .

وهكذا فجّر قيام الجمهورية العربية وقدوم رئيسها إلى سوريا المعضلة الداخلية فى لبنان تفجيراً مدوياً[1] .

ففى الثامن والعشرين من مارس/ آذار ١٩٥٨ اجتاحت المظاهرات مدينة (صور) فى جنوبى لبنان وجاوبتها مظاهرات أخرى فى الأقاليم التى تسودها الطوائف المسلمة ، وذلك حينما حكم بالسجن على خمسة شبان اتهموا بأنهم داسوا العلم اللبنانى بالأقدام ليضعوا بدلا منه علم الجمهورية العربية المتحدة ، وصرح وزير التربية والتعليم فى الحكومة اللبنانية ، بأن جزءاً كبيرا من مسئولية هذه الأحداث يقع على عاتق كلية محلية يقوم بالتدريس بها عدد كبير من المصريين[2] .

ونظراً لخطورة الاضطرابات التى وقعت فى مدينة (صور) وتزايد المواجهة بين أنصار التيار القومى العربى وخاصة فى المدن التى يقطن أغلبها مسلمون وبين حكومة شمعون الموالية للغرب ، وضعت الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة مذكرة بهذا الشأن رأت فيها أن تحرك السياسة العربية يمكن أن ينتهج طريقين:

---

(١) جوزف مغيزل : مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٢) جورج كيرك : السياسة العربية المعاصرة ، ترجمة عبد الواحد الإمبابى محمد الخولى ، سلسلة كتب سياسية ، العدد رقم ٣٣٠ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د .ت ، ص ١٢٨ .

الأول : الضغط على الحكومة اللبنانية باستخدام العناصر الإسلامية عن طريق تبصيرها بحقيقة وضعها ودفعها إلى المطالبة بإجراء تعداد يتم وفقا لنتيجته إعادة تنسيق جهاز الحكم فى لبنان .

الثانى : إغراء المارونيين بالمكاسب التى تعود عليهم من السير فى ركاب القافلة العربية وضرر انفصالهم عنها .

وتختم الإدارة العربية مذكرتها بقولها : "وأيا ما تكون الحال فإن تأييد الجمهورية العربية المتحدة لمعارضى شمعون ومالك تأييدا ماديا وأدبيا له ما يبرره من اتجاهات سياستنا الخارجية ، سيما وقد أخذ شمعون يتعاون تعاونا سافرا مع أعداء الجمهورية العربية المتحدة فى العراق والأردن والسعودية حتى باتت بيروت وكراً للمؤامرات التى تحاك ضدها"[١] .

ولعل ذلك يشير إلى أن احتدام الحرب العربية الباردة فى تلك الفترة ، وخروج المملكة العربية السعودية من فلك مؤيدى سياسة الرئيس عبد الناصر ، قد زاد من إصرار الجمهورية العربية المتحدة على دعم ومساندة المعارضة اللبنانية ، للتخلص من حكم الرئيس شمعون ، وإيجاد نظام حكم فى لبنان مؤيد لسياسة الجمهورية العربية المتحدة .

ولا شك أن الأوضاع السياسية فى لبنان بعد أحداث مدينة (صور) ازدادت توتراً، وأصبحت لبنان معدة نفسياً لثورة عارمة ضد حكامه ، ولكنها ترقب الأحداث متحفزة ، حتى جاء اغتيال الصحفى المارونى نسيب المتنى فكان الشرارة التى أشعلت الثورة[٢] .

ففى صباح ٨ مايو/ آيار ١٩٥٨ أطلق مجهول النار على نسيب المتنى صاحب الجريدة البيروتية العربية "التلغراف" ، وكان المتنى قد اشتد فى نقده لشمعون وإدارته ،

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٣ لبنان ، ملف ٤/٨١/٧٥٣ جـ ٤ . الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً ، بتاريخ ١٩٥٨/٤/١٥ .

(٢) محمد فرج : ثورة يوليو ١٩٥٢ وأثرها فى التطور السياسى العربى ، بدون ناشر ، ص ٥٨ .

ونادى بتعزيز العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة ، ولقد أدى مقتل المتنى إلى احتدام الموقف المتوتر فى لبنان ، إذ ألقت المعارضة تبعة مقتله على أعوان الحكومة ودعت إلى إضراب عام إلى أن يستقيل شمعون[١] .

وجدير بالذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر بعث ببرقية تعزية إلى أسرة نسيب المتنى أعرب فيها عن أسفه وألمه لمصرعه[٢] . وكان أمراً ذا مغزى أن يرسل زعيم الحركة التحررية فى العالم العربى ببرقية تعزية إلى أسرة نسيب المتنى أثناء وجوده فى موسكو ، يعزيهم فيها ، ويؤكد لهم أن المصاب الذى آلمهم قد آلمه أيضا ، بل وآلم كل عربى حر يقدر البطولة الوطنية[٣] .

ولعل اندلاع الثورة فى لبنان بسبب مقتل الصحفى نسيب المتنى المارونى يقطع الطريق على الذين يحاولون أن يضعوا البعد الطائفى وراء الأحداث الدامية فى لبنان وعلى رأسهم الرئيس شمعون .

ولقد عمت الاضطرابات مختلف المدن اللبنانية ، واجتاحت المظاهرات الشعبية مدن طرابلس وصيدا والشوف والعديد من الأحياء والمناطق حتى تصدى لها رجال الدرك اللبنانى ، فدارت معارك دامية سقط خلالها العشرات من الضحايا ، وتشكلت لجان المقاومة الشعبية ، كما تشكلت قيادة الثورة وظهرت الإذاعات الموجهة وبدأت حملة لجمع التبرعات لشراء الأسلحة[٤] .

وظلت الثورة تتطور ويطول أمدها يوما بعد يوم ، وحاولت القوى المحايدة تقريب وجهات النظر بين المعارضة والحكومة ، ولكن المعارضة أمام إصرار الحكومة على موقفها قررت رفض أية وساطة لا تحقق مطالبها لأن الحوادث الدامية التى وقعت

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى ، مرجع سابق ، ص ٦٠٥ .

(٢) الجمهورية : العدد ١٦٠٤ ، السنة الخامسة ، ١٢ مايو ١٩٥٨ .

(٣) محمد عبد المولى الزعبى : لبنان بين التحرير والاستعمار ، منشورات مطبعة الحياة ، دمشق ،١٩٥٩ ، ص ص ٤١-٤٢ .

(٤) بدر الدين عباس : مرجع سابق ، ص ص ١٢٤-١٢٥ .

لم تعـــد تسمح بأنصاف الحلول ، وقد أدى ذلك إلى تجميد الوضع بالنسبة للوساطة ، ولكـــن ظلت الأعمال العسكرية مستمرة بين الفريقين ، وكان السبب الرئيسى الذى وصل بالموقف الداخلى إلى هذه الدرجة يرجع إلى أن المعارضة لا تقبل أى حل لا يقوم عـــلى تخلى رئيس الجمهورية عن منصبه ، والوســـطاء يقبلون أن يتباحثوا فى أى شيء مـــا عدا البحث فى تخلى رئيس الجمهورية عن منصبه لأنه رئيس البلاد الشرعى وعلى المعارضة الرجوع إلى الشرعية[١] .

الاتهام اللبنانى ضد الجمهورية العربية المتحدة :

لم تستطع الحكومة اللبنانية السيطرة على الموقف الداخلى بسبب رفض اللواء فؤاد شـــهاب قائد الجيش اللبنانى استخدام الجيش ضد المعارضين ، ولم يستطع شمعون عزل اللـــواء شهاب بسبب موقف كبار الضباط المؤيد لـــه ، ومع زيادة حدة الاشتباكات وضعف موقف الرئيس شمعون أخبر سفراء كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى بيروت فى ١٣ مايو/آيار ١٩٥٨ أن لبنان تتعرض لهجوم خارجى ، واتهم الجمهورية العربـــية المـــتحدة بتقديم الدعم لجبهة الاتحاد الوطنى من المال والسلاح عبر الحدود مع سوريا[٢] .

وفى نفـــس الوقـــت عقد شارل مالك وزير خارجية لبنان مؤتمرا صحفيا وجه فيه الاتهام للجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى الشئون الداخلية للبنان . حيث صرح بأن صـــحافة وإذاعة الجمهورية العربية المتحدة تروج لحملة مكثفة ضد لبنان وحكومتها، وأن الحـــوادث الأخيرة وقعت نتيجة الاتصالات مع الحركات السرية والتى بدأت منذ أعوام بهدف تخريب لبنان وتغيير سياستها المستقلة[٣] .

---

(١) د . حمـــدى الطاهرى : سياحة الحكم فى لبنان ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، د .ت ، ص ص ٣٣٨- ٣٣٩ .

(٢) عبد الحميد موافى : مرعجع سابق ، ص ٢١٠ .

(3) Agwani . M .S . : The lebanese Crisis, 1958A Documentary Study (Asia Publishing House London 1965) P59 .

وقد بعثت وزارة الخارجية اللبنانية فى ١٤ مايو / آيار بمذكرة احتجاج إلى نظيرتها فى الجمهورية العربية المتحدة ، تتهم فيها موظفى سفارتها فى بيروت بالتأثير على بعض الفئات المناوئة للسلطات الشرعية للقيام بأعمال الشغب ، كما تتهم رعاياها فى سوريا بمساعدة بعض اللبنانيين فى القيام بتهريب الأسلحة وتدبير أعمال النسف والتخريب ، ولذا طالبت فى مذكرتها بأن تصدر الجمهورية العربية المتحدة أوامرها بوقف جميع الأعمال التى قد تسيء إلى العلاقات الأخوية بين البلدين ، كما طالبت بوقف جميع الهجمات الصحفية والإعلامية الموجهة ضد السلطات الشرعية اللبنانية[١] .

وقد رفضت وزارة الخارجية قبول هذه المذكرة واعتبرت ما جاء فيها هو محض افتراء وتجنٍّ على الجمهورية العربية المتحدة[٢] .

وجاء رد الرئيس جمال عبد الناصر على الاتهامات اللبنانية من خلال خطابه الذى ألقاه عقب عودته من موسكو فى ١٦ مايو/ آيار ١٩٥٨ . فذكر "إن لبنان بلد عزيز علينا ، وإن شعب لبنان عزيز علينا ، وإننا لا نقبل بأى حال من الأحوال أن تسفك الدماء فى لبنان ، وحينما حدث خلاف داخل لبنان قام حكامه يتهمون الجمهورية العربية المتحدة بأنها وراء هذا الخلاف ، قالوا هذا وأبلغوا الولايات المتحدة ، وقالوا إن الجمهورية العربية المتحدة هى التى تغذى الثورة فى لبنان وتغذى الاضطراب فى لبنان ، إنه افتراء وكذب . . إنهم بهذا يريدون أن يحولوا المشكلة الداخلية التى تقع بين أبناء الوطن الواحد إلى مشكلة خارجية ، وأنهم بهذا يختلقون الأعذار ليستغيثوا بدول أجنبية تحت اسم تدخل الجمهورية العربية المتحدة . إننا نحمى استقلال لبنان ، وإذا اعتدى أى فرد عليه ، وإذا اعتدت إسرائيل عليه فإننا سنقوم بالتعاون مع لبنان ومساندة لبنان ، إننا ننظر إلى هذه الافتراءات وننظر إلى هذه المؤامرات ونغض الطرف ولا نرد عليها ، وإذا اتهمنا حكام لبنان فإن شعب لبنان يعرف ما هى الأسباب التى دفعته إلى الثورة"[٣] .

---

(١) د . بدر الدين عباس : مرجع سابق ، ص ص ١٢٧-١٢٨ .

(٢) الجمهورية ، العدد ١٦٠٧ ، السنة الخامسة ، ١٥ مايو ١٩٥٨ .

(٣) د . حمدى التاهرى : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ ، . Agwani : Op . Cit . P .100

ويبدو أن الرئيس عبد الناصر أراد أن يركز فى رده على أمرين :

الأول : أن الثورة فى لبنان هى مشكلة داخلية بحتة .

الثانى : أن السبب الرئيسى وراء اتهام الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى شئون لبنان هو رغبة الرئيس شمعون فى إيجاد المبرر لاستقدام قوات أجنبية لبلاده لحماية نظامه، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد .

الشكوى اللبنانية فى جامعة الدول العربية :

تقدمت لبنان بشكوى إلى جامعة الدول العربية فى ٢٠ مايو/ آيار ١٩٥٨ ، وطالبت بعقد دورة استثنائية لمجلس الجامعة لبحث تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شئون لبنان الداخلية ، ونظراً لرغبة لبنان فى تصعيد الموقف إلى مستوى أوسع ، وتخوفاً من نفوذ الجمهورية العربية المتحدة فى جامعة الدول العربية ، فقد لجأت إلى تقديم شكوى ضد الجمهورية العربية المتحدة إلى مجلس الأمن فى اليوم التالى مباشرة ٢٢ مايو/ آيار وقبل أن تتمكن الجامعة من اتخاذ أية خطوات[١] .

وقبل انعقاد مجلس الجامعة العربية لبحث الشكوى اللبنانية ضد الجمهورية العربية المتحدة ، سلمت الحكومة اللبنانية مذكرة للممثلين العرب ببيروت تتضمن وجهة نظرها حول تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شئون لبنان ، وقد أكدت المذكرة على أن جميع عناصر الحوادث المؤسفة التى جرت وتجرى فى لبنان ، إنما هى مرتبطة ارتباطا وثيقا بإرادة السلطات القائمة فى الجمهورية العربية المتحدة فى الاعتداء على استقلال لبنان وسيادته[٢] .

ويبدو أن لبنان كان يحاول الحصول على دعم عربى لموقفه أثناء عرض شكواه على الجامعة العربية ، وكان يأمل بشكل خاص الحصول على مساندة فعالة من كل من العراق والأردن ، وقد طلبت الحكومة اللبنانية من بريطانيا مساندتها فى هذا الأمر[٣] .

---

(١) عبد الحميد موافى : مرجع سابق ، ص ٢١١ .

(2) Agwani : Op . CiT . P85 .

(3) Burdett, Anitta (ed) : The Arab League "British Documentary Sources, 1943-1963, Vol . 9, 1958-1960 (Archive ed . 1955) . P . 14 .

وفى ٣١ مايو/ آيار ١٩٥٨ اجتمع مجلس الجامعة العربية فى دورة اجتماعه غير العادى بمدينة بنغازى الليبية لبحث الشكوى اللبنانية ، حيث افتتح الجلسة الأولى عبد المجيد الكعبار رئيس الوزراء الليبى ، الذى رحب نيابة عن الملك إدريس بأعضاء الوفود وأعرب عن أمله بأن تحل الأزمات بين الدول العربية عن طريق العرب أنفسهم[١] .

وفى اليوم التالى للمؤتمر ألقى بشير الأعور رئيس وفد لبنان كلمة استعرض فيها عناصر الاتهام اللبنانى سواء فيما يتعلق بالتحريض عن طريق الحملات الدعائية أم التدخل الفعلى عن طريق عملاء الأجهزة الرسمية ، كما حذر من أن لبنان يرجو ألا يجد نفسه مضطرا إلى البحث عن سلامته وسلامة أوضاعه خارج نطاق جامعة الدول العربية .

وفى رده أكد السفير سيد فهمى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة أن بلاده تحترم استقلال لبنان وتحترم كيانه وسيادته ، وترفض ما ادعته الحكومة اللبنانية بمذكرتها للأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، أو ما ورد على لسان رئيس وفدها فى المؤتمر من افتراءات لا تقوم على أساس .

وقد هاجم السفير سيد فهمى ما قامت به حكومة لبنان من تقديم شكوى إلى الجامعة العربية ثم قيامها عقب ذلك مباشرة بتقديم شكوى تفصيلية إلى مجلس الأمن ، واعتبر أن ذلك يجعل الجامعة العربية فى موضع ثانوى لا ترضاه الدول العربية لها ، كما طالب بإعطاء وفد الجمهورية العربية المتحدة مهلة لدراسة الادعاءات والافتراءات اللبنانية وإعداد الرد عليها ودحضها .

وبالفعل ، تم الاتفاق على إعطاء وفد الجمهورية العربية المتحدة مهلة حتى يوم ٣ يونيه/ حزيران ، ثم دارت مناقشات فى المجلس حول اقتراح بتأجيل شكوى لبنان إلى مجلس الأمن ، وقد تم الاتفاق على أن يقوم رئيس المجلس بإبلاغ رئيس الوزراء اللبنانى برغبة المجلس فى أن يتولى لبنان طلب التأجيل من رئيس مجلس الأمن[٢] .

---

(1) Ibid, P . 19 .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية .

وفى ٣ يونيه/ حزيران عقد المؤتمر جلسته الثالثة ، وقد ألقى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة بيانا تعرض فيه إلى :

- أن الأحداث الجارية فى لبنان أحداث داخلية لا دخل للجمهورية العربية المتحدة فيها .
- تفنيد الادعاءات اللبنانية .
- اتهام الحكومة اللبنانية بأنها : جعلت من أرض لبنان مركزا للمؤامرات ضد الجمهورية العربية المتحدة ومسرحاً للقوميين السوريين وبأنها طردت رعايا الجمهورية العربية المتحدة وقامت تعذبهم دون مبرر .

وردا على ذلك ، قام إدوارد حنين عضو الوفد اللبنانى يدافع عن حكومته ، ثم عرض على المجلس بعض المستندات التى تدعم موقف الحكومة اللبنانية فى شكواها ومنها :

- شرائط مسجلة لإذاعة صوت العرب ، وبسماع المجلس لأحدها لم يتمكن من سماع صوت المذيع أو العبارات التى يقولها ... لماذا ؟
- منشورات من الأحزاب ، ولم يفسر صلة الجمهورية العربية المتحدة بهذه المنشورات .
- بعض الصور لأسلحة ذكر أنها ضبطت عند الحدود ، وليس فى الصور ما يفيد بأن السلاح يتبع الجمهورية العربية المتحدة ، أو حتى نوع السلاح .

وعلى أية حال فقد بدأ أعضاء الوفود فى المؤتمر يميلون إلى البحث عن قرار لتسوية النزاع[1] .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ ١٩٥٨/٦/٩ .

وبـالفعل ففى الجلسة الرابعة للمؤتمر التى عقدت فى ٤ يونيه/ حزيران عرض رئيس وفـد ليبيا مشروعا تضمن إيقاف حملات الإذاعة والصحف ومنع تسرب الأسلحة ، وعلى الفور أبدى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة اعتراضه الشديد لوزير خارجية ليبـيا ، ورفـض قبول هذا القرار ، وأصر على أن يعدل بند الإذاعة والصحافة بالنص على كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين الدول الأعضاء ، وحذف مسألة منع تسرب الأسلحة .

وقد تم قبول هذه التعديلات ، وتقديم مشروع جاءت أهم قراراته كما يلى :

أولاً : العمـل عـلى إيقاف كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين الدول الأعضاء بمختلف الوسائل .

ثانياً : أن تقوم حكومة جمهورية لبنان بسحب شكواها من مجلس الأمن .

ثالـثا : توجـيه نداء إلى مختلف الفئات والأحزاب فى لبنان لإيقاف الاضطرابات والقلاقل والعمل على تسوية الخلافات الداخلية بالطرق الدستورية السليمة .

رابعـاً : إيفـاد لجنة يعينها مجلس الجامعة العربية من بين أعضائه لتهدئة الخواطر وتحقيق ما قرره المجلس .

وفى نفـس اليوم ، وفى الجلسة الخامسة للمؤتمر طلب رئيس وفد لبنان الرجوع إلى حكومته ، كما طلب ذلك أيضا رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة(١) .

وفى الجلسـة الختامية للمؤتمر التى عقدت فى ٦ يونيه/ حزيران ١٩٥٨ ، أعلن فيها وفد لبنان عـدم موافقة حكومته على قرارات المؤتمر لأنها جاءت فى صيغة توصـية أو وسـاطة ، ولا يقابل هذه التوصية سحب الشكوى من مجلس الأمن ، بل الطبيعى أن

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ ١٩٥٨/٦/٩ .

يعلق السحب على تنفيذ التوصية ، وأيد مندوبا العراق والأردن الموقف اللبنانى وسحبا موافقتهما على مشروع القرار واعتبراه كأن لم يكن . وأعلن رئيس الوفد السودانى أنه مـــا دام القرار يستلزم الإجماع ثم رفض لبنان ، فلا يمكن أن يصدر القرار كما أعرب رئـــيس الوفد اليمنى عن أسفه لموقف لبنان ، وتحدث وزير خارجية ليبيا فأعلن بدوره أسفه لما وصل إليه المجلس .

وفى نهاية الجلسة ألقى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة كلمة أشار فيها إلى أن حكومـــة لبـــنان عندما التجأت إلى جامعة الدول العربية ، لم تكن جادة فى ذلك بل هدفها منذ البداية هو مجلس الأمن[١] .

وهكـــذا فشلت جامعة الدول العربية فى إيجاد حل للخلاف بين لبنان والجمهورية العربية المتحـــدة ، وفى واقع الأمر لم تكن هـــذه النتيجة مستغربة ، بل على العكس لم يكـــن مـــن المتوقع فى ظل الخلافات و التوجهات العربية المتباينة ، أن تتمكن الجامعة العربية من الوصول إلى تسوية للموقف تحظى بموافقة كل الأطراف .

فالجمهورية العربية المتحدة كانت ترفض الاتهام اللبنانى شكلا وموضوعاً ، و لم تكن لتقبل أن تدان بأية صورة من الصور داخل الجامعة العربية .

أما لبنان فلم يكن لديها الرغبة الصادقة فى حل الخلاف داخل إطار الجامعة العربية، فـــالدعم والمـــؤازرة الغربية للرئيس شمعون جعلته يخطط منذ البداية لتدويل الأزمة من خلال عرضها على مجلس الأمن .

---

(١) وثـــائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامـــة لجامعـــة الـــدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ ١٩٥٨/٦/٩ .

الشكوى اللبنانية فى مجلس الأمن :

بعدما فشلت جامعة الدول العربية فى وضع حل للأزمة اللبنانية ، اتخذت هذه المسألة بعداً دوليا حين تقدمت الحكومة اللبنانية فى ٢٢ مايو/ آيار ١٩٥٨ بشكواها إلى مجلس الأمن ضد الجمهورية العربية المتحدة ، مدعية أن الجمهورية العربية المتحدة وبخاصة إقليمها الشمالى وقتئذ (سوريا) قد تدخلت فى الشئون الداخلية للبنان تدخلا قد يؤدى استمراره إلى تهديد السلام والأمن الدوليين(١) .

وفى ٦ يونيه/ حزيران ١٩٥٨ ، بدأ مجلس الأمن فى مناقشة الشكوى اللبنانية ، وقد وجه شارل مالك وزير خارجية لبنان خطابا عنيفاً ضد الجمهورية العربية المتحدة، متهما إياها بالتدخل فى الشئون اللبنانية ، وذلك من خلال التزويد الضخم من الأسلحة لمخربين ، وتدريب عناصر التمرد فى سوريا ، والحملة العدائية فى الصحف والإذاعة ضد لبنان(٢) .

وفى رده عرض عمر لطفى مندوب الجمهورية العربية المتحدة قضية بلاده ، فنسب إلى حكومة لبنان أنها "تحاول إعطاء صبغة دولية لمسألة داخلية محضة ، وأن تصرف الرأى العام فى نفس بلادها وفى العالم أجمع عن الموقف السائد الآن فى لبنان" وواصل عمر لطفى كلامه فذكر أن السبب الرئيسى فيما يوجد من المتاعب فى لبنان يرجع إلى رغبة "الرئيس شمعون" فى تقلد الرياسة مدة ثانية ، ثم نفى التهم الموجهة من المندوب اللبنانى إلى الجمهورية العربية المتحدة(٣) .

---

(١) د . بطرس بطرس غالى : الاستراتيجية والسياسة الدولية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٦ .

(2) Dawisha, Adhid Isam : The U .A .R and the Arab East, 1958-1963 . A foreign policy Analysis, PH . D . Department of International Relation of the University of London, July 1974 . P .30 .

(٣) ريتشارد ميللر : داج همرشولد دبلوماسية الأزمات، ترجمة عمر الإسكندرانى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢٦٣-٢٦٥ .

وقــد انتهت المناقشـــات فى مجلس الأمن بالموافقة على مشـــروع قرار تقدمت به الســـويد فى ١١ يونيه/ حزيران نص على أن مجلس الأمن ، بعد أن استمع إلى اتهامات مـــندوب لبنان فيما يتصل بتدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شئون لبنان الداخلية ، وإلى رد مـــندوب هذه الحكومة عليه ، يقرر أن يوفد إلى لبنان على وجه السرعة فريقا مـــن المراقـــبين للتحقيق من أنه ليس هنالك تسلل غير مشروع للرجال أو الأسلحة أو المـــواد الأخرى ، عبر الحدود اللبنانية ، ويخول الأمين العام السلطة فى اتخاذ الخطوات الضـــرورية لتحقيق ذلك ، ويطلب من فريق المراقبين إبلاغ المعلومات إلى مجلس الأمن أولا بأول عن طريق الأمين العام[١] .

ومن جانبه قام همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بزيارة للشرق الأوسط زار فيها لبنان فى ١٧ يونيه/ حزيران والتقى خلالها بالرئيس شمعون ، وبعد يومين من ذلك غادر لبنان ، قاصدا زيارة الأردن وإسرائيل ومصر .

وعـــند مقابلته للرئيس جمال عبد الناصر قضى فى المداولة معه أربع ساعات ، ومن الواضـــح أن الزعيم المصرى قبل القيام "بحسن وساطته" لدى زعماء المعارضة فى لبنان ولكـــن بشـــرط ألا تعتـــبر الجمهورية العربية المتحدة طرفاً فى التراع القائم فى البلاد ، وأعـــرب الرئـــيس عبد الناصر أيضا عن رغبته فى ألا تتخذ الحكومة اللبنانية إجراءات انتقامية ضد المعارضة اللبنانية [*] .

وكانـــت المصادر الرسمية اللبنانية غير متفائلة من جهة النتائج العملية التى ينتظر أن تســـفر عنها مهمة "همرشولد" فقد كان فى أملهم أن يكون فى إمكانه إقنـــاع الرئيس عبد الناصر حتى يتخذ بعض الخطوات الاسترضائية ، الأمر الذى على ما يظهر ، لم يتم تحقـــيقه ، ومـــن جهة أخرى لم يظفر الأمين العام بنجاح قاطع فى محادثاته مع الزعماء اللبنانيين إذ كان المظنون أنه سوف يقوم برحلة أخرى إلى القاهرة لو كانت محادثته فى بيروت تدعو إلى التفاؤل[٢] .

---

(١) أمين سعيد : مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

(*) سنتعرض لشروط الرئيس عبد الناصر لوساطته لحل الأزمة اللبنانية عند الحديث عن الاتصالات المصرية الأمريكية لحل الأزمة اللبنانية .

(٢) ريتشارد ميللر : مرجع سابق ، ص ص ٢٧٢-٢٧٣ .

وفى نهاية شهر يونيه/ حزيران ١٩٥٨ وصلت إلى لبنان هيئة مراقبين تتكون من نحو ٥٤ رجـــلا وشرعت فى إجــــراء التحقيقات وكتبت ثلاثة تقارير تؤكد جميعا عـــدم وجود تسلل جماعى ورغم ذلك فقد ظلت الحكومة اللبنانية غير راضية عن أعمال هيئة المراقبة ، فاحتجت تارة بأن المعارضـــة تسيطر على الحـــدود وأن الحكومة لا تشرف إلا عـــلى ١٨ كيلومـــترا من مجموع الحدود المشتركة مع سوريا والبالغ طولها ٣٢٤ ، وتارة أخرى احتجت بأن أفراد القوة غير كافية وأنها تقوم بالدوريات نهارا فقط وبعد تحديد موعد مسبق للدورية بالاتفاق مع رجال المعارضة الذين يسيطرون على الحدود، يضاف إلى ذلك وعورة المنطقة واحتمال تسلل بحرى عن طريق طرابلس ، وحتى عندما تم نـــزول القوات الأمريكية وارتفع عدد المراقبين الدوليين وأصبحوا يتنقلون بحرية تامة ستنتهى تقاريرهم إلى نفس النتيجة وهى عدم وجود دليل ملموس على تسلل أو تدخل من جانب الجمهورية العربية المتحدة[1] .

بـــيد أن خيبة أمل الحكومة اللبنانية فى الحصول على قوات دولية للحماية لم يكن آخـــر خـــيار لهـــا فى طلب المعونة الدولية ، بل كان لديها بدائل أخرى ومنها طلب المســـاعدة العسكرية بطريقة مباشرة من المعسكر الغربى لا سيما من الولايات المتحدة الأمريكية[2] .

الاتصالات المصرية الأمريكية لحل الأزمة اللبنانية :

مـــع النجاح الجارف لتيار القومية العربية فى كافة أنحاء العالم العربى ، والذى أسفر عـــن قـــيام الوحـــدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ بدأت تتعالى أصوات داخل الإدارة الأمريكية تنادى بضرورة تقويم سياسة الولايات المتحدة تجاه القومية العربية ، وأن على الولايـــات المتحدة أن تقنع العرب بأنها ليست ضد القومية العربية ، وذلك عن طريق اتباع سياسة أمريكية أكثر واقعية تجاه الشرق الأدنى[3] .

---

(١) د . صلاح العقاد : المشرق العربى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص٢٢٨ .

(٢) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(3) Bonnie F. Saunders: The United States and Arab Nationalism: the Syrian Case 1953-1960 (Westport, Connecticut London 1996) PP.86-87 .

وأخـذت الإدارة الأمريكية تظهر من جانبها تفهما أكثر إيجابية للقومية العربية التى نادى بها الرئيس عبد الناصر ، و لم تعد هذه القومية - فى نظر، فريق منها على الأقل - مجرد أداة بيد الشيوعية العالمية تهدد مصالح الغرب فى منطقة الشرق الأوسط ، بل رأت فـيها عاملاً فعالاً لكبح جماح الشيوعية فى العالم العربى ، ولكنها فى أى حال لم تكن حسـب رأى المسئولين الأمريكيين قوة بنـاءة لا تتعارض مع استراتيجية الغـرب فى الشرق الأوسط ، على أن هذا التحول فى النظرة الأمريكية لابد وأنه أسهم ولو إلى حد فى فهـم الأسباب الداخلية للانتفاضة ضد عهد شمعون ، وفى هذا الإطار صرح مساعد وزيـر الخارجية الأمريكى أمام لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى "بأن ما يحدث فى لبنان هو نزاع بين فئتين داخل لبنان ، إحداهما تؤمن بقومية عربية متطرفة، وقد أجج شعورها حملة دعائية عنيفة من إذاعتى دمشق والقاهرة بغية التخلص من نظام شمعون الموالى للغرب وليس وليد تدخل الشيوعية العالمية"[١] .

ولـما كانـت الإدارة الأمريكية تدرك تماما أن مفتاح حل الأزمة اللبنانية بيد زعيم القومـية العربـية الرئـيس عبد الناصر وذلك بسبب قوة تأثيره ونفوذه لدى المعارضة اللبنانية ، فقد سعت إلى إجراء اتصالات معه فى محاولة لإيجاد مخرج لهذه الأزمة .

ففـى ٢٠ مايو/ آيار ١٩٥٨ التقى هير Hare السفير الأمريكى فى القاهرة بالرئيس عـبد الناصـر ، ودار حديـثهما حول الأزمة اللبنانية ، وقد أنكر عبد الناصر تورط الجمهوريـة العربـية المتحدة فى أحداث لبنان ، كما أبدى تعجبه من إصرار الولايات المتحدة على تأييد الرئيس شمعون على الرغم من أن المعارضة اللبنانية تضم جميع رؤساء الـوزراء السـابقين فيما عدا سامى الصلح ، وأيضا رؤساء برلمان سابقين ، والرئيس السـابق بشارة الخورى ، والبطريرك المارونى وزعماء سياسيين مثل جنبلاط وفرنجيه ، وتساءل عبد الناصر هل كل هؤلاء على خطأ وشمعون على حق؟ .

وعلى كل فقد شهد هذا اللقاء تحولاً هاما فى موقف الرئيس عبد الناصر تجاه الأزمة اللبنانية أثار دهشة السفير الأمريكى ، حيث أبدى عبد الناصر موافقته على التعاون مع

(١) عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

الولايات المتحدة من أجل إيجاد تسوية للموقف فى لبنان ، ووضع صيغة تسوية لتحقيق ذلك تتمثل فيما يلى :

- العفو العام عن المعارضة اللبنانية .
- أن يتولى اللواء فؤاد شهاب رئاسة الوزارة نظراً لما يحظى به من احترام وثقة بين المسيحيين والمسلمين .
- أن يتخلى شمعون عن عزمه لتعديل الدستور وأن يكمل مدة رئاسته .
- إجراء انتخابات لبنانية جديدة .

وأشار عبد الناصر إلى أنه يعلم أن المعارضة اللبنانية تصر على استقالة شمعون ، ولكنه يعتقد أن هذا الأمر ستكون له مضاعفاته ، ولذلك لا داعى للإصرار عليه شريطة أن يكون هناك عفو عام له كافة الضمانات .

وقد أبدى عبد الناصر استعداده التام لاستغلال نفوذه لدى زعماء المعارضة اللبنانية للحصول على موافقتهم على أية صيغة يتم الاتفاق عليها .

واعتبر السفير الأمريكى بالقاهرة موقف عبد الناصر الجديد تجاه تسوية الأزمة اللبنانية بمثابة الفرصة التى يجب استغلالها(1) .

ويبدو أن عبد الناصر بعد أن شعر بجدية الولايات المتحدة فى الوفاء بالتزاماتها تجاه لبنان وذلك تطبيقا لمبدأ أيزنهاور ، وأنها فى نفس الوقت تسعى فى ظل سياستها الجديدة لتحسين علاقتها مع الجمهورية العربية المتحدة فإنه أراد أن يتجنب تصعيد المواجهة معها ، كما لا يخفى أن مقترحات عبد الناصر تحقق مطالب المعارضة اللبنانية وتقدم حلاً دستوريا للأزمة .

ومن الواضح أن موقف الرئيس عبد الناصر قد شجع الإدارة الأمريكية على التعاون معه لإنهاء الأزمة اللبنانية ، وخاصة بعد أن ألقى سامى الصلح رئيس الوزراء اللبنانى

---

(1) Foreign Relations of U.S. (FRUS) 1958-1960, Vol. XI. PP. 67-70. Telegram From the Embassy in Egypt to the Department of state. Cairo, May 20 . 1958.

بياناً فى ٢٧ مايو/ آيار عبر راديو بيروت أعلن فيه أن حكومة شمعون لن تقوم بإدخال أية تعديلات على الدستور للسماح بإعادة انتخاب الرئيس لفترة ولاية ثانية على التوالى .

وبالفعل فقد صدرت التعليمات من وزارة الخارجية الأمريكية لسفيرها فى القاهرة لمفاتحة الرئيس عبد الناصر فى مسألة تسوية الأزمة اللبنانية ، وقد حددت الخارجية الأمريكية بعض المطالب التى ترغب أن يستخدم عبد الناصر نفوذه لدى المعارضة اللبنانية لتحقيقها :

- ثنى عزم المعارضة عن مواصلة المطالبة باستقالة الرئيس شمعون قبل انقضاء مدة رئاسته.
- اتخاذ خطوات فورية لإقناع المعارضة اللبنانية باتخاذ خطوة مماثلة للخطوة التى اتخذتها الحكومة اللبنانية .

وأما فيما يتعلق بمسألة العفو العام عن المعارضة اللبنانية التى طرحها الرئيس عبد الناصر كشرط أساسى لإيجاد تسوية للأزمة اللبنانية ، فقد اعتبرت الخارجية الأمريكية أن مسألة عدم التجديد لشمعون لفترة رئاسية أخرى يقلل كثيراً من المخاوف المرتبطة بالانتقام المحتمل من جانب شمعون تجاه المعارضة .

أما بخصوص تعيين اللواء فؤاد شهاب فى منصب رئيس الوزراء فقد أبدت الخارجية الأمريكية عدم معارضتها شريطة أن يبدى شهاب رغبته فى ذلك[1] .

ويلاحظ من ذلك أن مقترحات الرئيس عبد الناصر لحل الأزمة اللبنانية لم تلق قبولاً لدى الإدارة الأمريكية ، ولكنها لم تتخل عن فكرة إمكانية استغلال نفوذ عبد الناصر لدى المعارضة اللبنانية لجعلها تتراجع عن مسألة الإصرار على استقالة الرئيس شمعون .

وقد أصيب الرئيس عبد الناصر بخيبة أمل بسبب عدم استجابة الإدارة الأمريكية لمقترحاته ، وقد أبدى غضبه لذلك فى لقائه مع السفير الأمريكى بالقاهرة فى ٣٠ مايو/

---

(1) Ibid: PP. 76-77. Telegram From the Department of state to the Embassy in Egypt . Washington . May 27 . 1958 .

آيار ، وقد رفض عبد الناصر رفضا باتا اتخاذ أية خطوات نحو تسوية الموقف فى لبنان أو إقناع المعارضة اللبنانية بالتخلى عن المطالبة باستقالة شمعون إلا بمشاركة الولايات المتحدة معه من خلال موافقتها على تقديم أى ضمان لازم لتأمين المعارضة .

وقد علل عبد الناصر ذلك بأنه يخشى أن يحث المعارضة على المصالحة ثم يقوم الرئيس شمعون بشن حملة اضطهاد ضدهم خلال المدة المتبقية من فترة رئاسته(١) .

وأمام إصرار الرئيس عبد الناصر على مشاركة الولايات المتحدة معه فى أى جهود تبذل لحل الأزمة اللبنانية ، وأيضا حرص الإدارة الأمريكية على عدم التفريط فى فرصة استغلال نفوذه لدى المعارضة اللبنانية ، وخاصة على ضوء اعتراف الجمهورية العربية المتحدة بقدرتها على تسوية المسألة فى غضون ٢٤ ساعة ، كان لابد وأن تستجيب الإدارة الأمريكية لرغبات عبد الناصر .

وبالفعل فقد عرضت الإدارة الأمريكية على عبد الناصر استعدادها لنقل مقترحاته الخاصة بتسوية الأزمة للرئيس شمعون ، كما أكدت من جانبها أنه فى حالة قبول شمعون لفكرة العفو العام عن المعارضة ، فإنه إذا ثبت فى وقت لاحق عدم التزام الحكومة اللبنانية بذلك فإن الحكومة الأمريكية سوف تكون على استعداد لاستغلال نفوذها فى لبنان ضد هذا العمل من جانب الحكومة اللبنانية(٢) .

وأراد الرئيس عبد الناصر أن يطمئن الولايات المتحدة على صدق نواياه تجاه الموقف فى لبنان حيث صرح للسفير الأمريكى بالقاهرة بأنه لا يسعى إلى ضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة لاعتقاده بخطإ ذلك ، كما أنه لا يريد حكومة فى لبنان تابعة للجمهورية العربية المتحدة ، وكل ما يريده هو حكومة غير معادية له(٣) .

---

(1) Ibid: PP. 84-85. Telegram From the Embassy in Egypt to the Department of State . Cairo, May 31. 1958.

(2) Ibid :PP. 91-93: Telegram From the Department of State to the Embassy in Egypt. Washington. June5. 1958.

(3) Ibid: PP. 101-103. Telegram from the Embassy in Egypt to the Department of State. Cairo. June 7. 1958.

وفى ١١ يونيه/حزيران ١٩٥٨ بعثت وزارة الخارجية الأمريكية برسالة إلى سفيرها ببيروت كلفته فيها بالقيام وفى سرية تامة بإبلاغ الرئيس شمعون بالمقترحات التى جاءت فى صيغة التسوية التى اقترحها الرئيس عبد الناصر لإيجاد حل للأزمة اللبنانية . وأكدت الخارجية الأمريكية فى رسالتها أن شمعون يجب أن يعلم أن الإدارة الأمريكية تقوم بهذه الخطوة بدافع الوفاء بتعهداتها تجاه لبنان وليس لأنها توافق على هذه المقترحات ، فالقرار النهائى متروك للحكومة اللبنانية وأياما كان القرار الذى سيتم اتخاذه فيجب التأكيد على التزام الحكومة الأمريكية بتعهداتها السابقة .

ومع ذلك فقد أشارت الخارجية الأمريكية إلى الصعوبات الخطيرة التى ستواجه مسألة إدخال قوات أجنبية فى لبنان ، ومن ثم فإنها ما زالت تأمل فى إمكانية الحفاظ على استقلال لبنان دون اللجوء إلى هذا الخيار الأخير[1] .

ويدل ذلك على أن الولايات المتحدة كانت ترغب فى الوصول إلى حل للأزمة اللبنانية بشكل سلمى يجنبها التدخل العسكرى فى لبنان ، والتى تدرك خطورته وانعكاساته على مصالحها فى منطقة الشرق الأوسط ، ولكن لا يعنى أبداً تخليها عن أهم حلفائها فى المنطقة وهو كميل شمعون .

وربما أرادت الولايات المتحدة أن تضغط بشكل غير مباشر على الرئيس شمعون وهى تعرض عليه مقترحات الرئيس عبد الناصر لحل الأزمة اللبنانية حتى يتعامل معها وهو يدرك الصعوبات التى تواجه الخيار العسكرى كحل للأزمة اللبنانية .

ومع ذلك فقد رفض الرئيس شمعون مقترحات الرئيس عبد الناصر ، إذ اعتبر أن موافقته عليها تعنى تزايد قوة قوى المعارضة ، وتعطى الفرصة لعبد الناصر لفرض سيطرته عليه ، وقد قامت الخارجية الأمريكية بإبلاغ الرئيس عبد الناصر بنتائج المباحثات التى دارت مع الرئيس شمعون حول مقترحاته .

ففيما يتعلق بمسألة العفو العام عن زعماء المعارضة اللبنانية ، فإنه إذا تم بشكل فورى وقف العنف الموجه ضد الحكومة اللبنانية وإعادة النظام ، فإن الحكومة اللبنانية

---

(1) Ibid: PP 108-109. Telegram from the Department of State to the Embassy in Lebanon, Washington. June 11. 1958 .

لـــن تـــتخذ إجراءات عقابية ضد زعماء المعارضة ، وسوف تكون الحكومة الأمريكية على استعداد كبير للنصح بذلك .

أما الاقتراح الخاص بتعيين اللواء فؤاد شهاب رئيساً للوزراء فقد أشارت الخارجية الأمريكـــية بأنـــه لن يكون من المناسب لأية حكومة أجنبية أن تضغط على الحكومة اللبنانية بشأن فرد بعينه لتوليته منصبًا عامًّا ، وأن القرار فى هذه المسألة متروك للحكومة اللبنانية وحدها(١) .

ويتضـــح من ذلك أن الاتصالات المصرية الأمريكية التى جرت خلال شهرى مايو/ آيـــار ويونـــيو/ حزيران ١٩٥٨ لم تنجح فى إيجاد مخرج للموقف المتدهور فى لبنان ، وذلـــك بسبب رفض الرئيس شمعون لمقترحات الرئيس عبد الناصر ، وبات واضحا أن شمعـــون ما زال مصرا على أن يتجه بالأزمة اللبنانية نحو التدخل الأجنبى وهو ما حدث بالفعل .

الجمهورية العربية المتحدة والتدخل الأمريكى فى لبنان :

عقـــب قيام الثورة العراقية فى ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨ شملت مظاهر الفرح مناطق المعارضـــة فى لبـــنان ، ورددوا أن مصـــير شمعون سيكون مماثلاً لمصير نورى السعيد ، وطالب شمعون بتدخل سريع ورأت الولايات المتحدة أنه فى حالة عدم وفائها بالتزاماتها إزاء لبـــنان طبقا لمبدأ أيزنهاور ، فلن تشعر أية دولة حليفة للولايات المتحدة فى المنطقة بالأمن ، وستفقد الأمل فى مساعدة الولايات المتحدة لها عند الضرورة ، ولذلك فإنه فى الســـاعة الثالـــثة بعد ظهر يوم ١٥ يوليو/ تموز ١٩٥٨ نزل مشاة الأسطول الأمريكى بجـــوار بـــيروت وتتابعـــت قوات أخرى ، كما انتشرت كل قطع الأسطول السادس الأمريكى فى شرق البحر المتوسط فى المنطقة بين لبنان وقبرص(٢) .

---

(1) Ibid: PP. 111-112. Telegram from the Department of State to the Embassy in Lebanon, Washington. June 12. 1958.

(٢) د . محمـــــود صالح منسى : الشرق العربى المعاصـــر ، القسم الأول "الهلال الخصـــيب" ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص٢٩٨ .

ورغم أن التدخل العسكرى الأمريكى هذا أثار موجة من الاستنكار الشديد إعلامياً على صعيد الجبهة المعارضة الداخلية وشجبا واستنكاراً شديداً من قبل الجمهورية العربية المتحدة فضلا عن الدول المؤيدة لسياسة عبد الناصر ، فقد لقى التدخل الأمريكى ترحيباً من دول حلف بغداد[١] .

ومن جانبه احتج الرئيس عبد الناصر على احتلال الولايات المتحدة للبنان وكان فى يوغوسلافيا حينذاك فقال : "إن احتلال القوات الأمريكية للبنان يشكل خطراً على سلام الشرق الأوسط ، واعتداء خطيراً على ميثاق الأمم المتحدة ، وتهديداً سافراً للدول العربية التى رفضت أن تخضع للاستعمار وصممت على اتباع سياسة مستقلة . . إن إقدام أمريكا على هذا العدوان الخطير تحت عذر مختلق نسب إلى الجمهورية العربية المتحدة وتولت الأمم المتحدة تكذيبه رسمياً بواسطة التقرير الأول لهيئة المراقبين التى كلفها مجلس الأمن بتحرى الموقف فى لبنان ، إنما يفضح النوايا الأمريكية تجاه الشعوب العربية المستقلة ومحاولاتها لإخضاعها والسيطرة عليها"[٢] .

وطار الرئيس عبد الناصر إلى موسكو للتباحث مع خروشوف ، وكان هدفه هو الحصول على تأكيد من موسكو بالمساعدة ضد امتداد التدخل الغربى إلى دمشق وبغداد، وإن يكن فى نفس الوقت بهدف التأكد من أن الروس هم الآخرون لن يدخلوا أو يقوموا بإجراء من شأنه أن يوفر حجة التدخل الغربى ، أو يحولوا الشرق الأوسط إلى ميدان قتال نووى[٣] .

وكانت الولايات المتحدة تعلم برحلة عبد الناصر الخاصة إلى موسكو فسلمت فى اليوم السابق للرحلة الموافق ١٧ يوليو/ تموز مذكرة لوزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة تقول : "إن أى هجوم على قوات الولايات المتحدة تقوم به الوحدات العسكرية للجمهورية العربية المتحدة أو أية وحدات تسيطر عليها الجمهورية العربية

---

(١) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

(٢) أمين سعيد : مرجع سابق ، ص ص ٢١٨-٢١٩ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربى ، مرجع سابق، ص ص ٨٠-٨١ .

سـينطوى على نتائج من شأنها أن تحدث ضرراً بالغاً بالعلاقات بين بلدينا" . وكانت وزارة الخارجـية الأمريكية تعتقد أن مثل هذه المذكرة ستجعل عبد الناصر يتروى مليا قبل أن يقدم على التدخل أو يوجه نداءً يطلب فيه متطوعين(١) .

وعـلى الـرغم من إقدام الولايات المتحدة على هذه الخطوة العسكرية إلا أنه قد رافقهـا تحـرك نشط للدبلوماسية الأمريكية لتبرير التدخل العسكرى والاستفادة منه لإيجاد حل سياسى للأزمة اللبنانية يتوافق مع مجمل مصـالحها الاستراتيجية فى المنطقة ولا سيما المحافظة على سيطرة الغرب المطلقة على منابع النفط فى منطقة الخليج(٢) .

وقـد تمثل التحرك الدبلوماسى فى بعثة روبرت مورفى Murphy, Robert المبعوث الشخصى للرئيس أيزنهاور الذى وصل مع نزول القوات البحرية الأمريكية إلى بيروت ليقوم بمهمة تقريب وجهات النظر بين الفريقين المتنازعين ، حيث صرح عقب وصوله بأن الهدف من حضوره هو الوصول إلى حل ترضى عنه جميع الفئات اللبنانية ، وأنه لم يـأت ليسـاعد فريقا ضد فريق آخر ولا ليفرض مرشحا معيناً للرئاسة بل ليسهم فى تسـوية القضـية وإيجاد اتفاق إجماعى على رئيس جديد للجمهورية ترضى عنه جميع الفئات اللبنانية(٣) .

وقـد بـدأ مـورفى جس النبض فى مختلف الأوساط حتى يتفق الموالون للحكومة والمعارضـون لها على ترشيح شخصية يختارونها لرئاسة الجمهورية ، وقد نجح فعلاً فى تـأمين الإجمـاع بالنسبة للواء فؤاد شهاب قائد الجيش ، وكان من المقرر عقد جلسة لمجلس النواب لانتخاب رئيس الجمهورية يوم ٢٤ يوليو/ تموز إلا أنه فى ذلك التاريخ لم يكـن مورفى قد وصل إلى نتيجة يضمن بها الإجماع على تأييد مرشح واحد ، فأجلت الجلسة إلى ٣١ يوليو/ تموز(٤) .

---

(1) Middle East journal, Vol. 12, 1985, No. 4. P. 445.

(٢) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

(٣) د . حمدى الطاهرى : مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .

(٤) المرجع نفسه : ص ص ٣٥٦-٣٥٧ .

وبالفعل فقد عقد مجلس النواب اللبنانى جلسته فى ٣١ يوليو/ تموز ١٩٥٨ لانتخاب رئيس الجمهورية اللبنانية ، وقد حضر الجلسة ٥٦ نائبا ، ولدى افتتاح الجلسة تليت مواد الدستور اللبنانى المتعلقة بانتخاب رئيس الجمهورية ، ثم أجريت عملية الاقتراع التى أسفرت عن فوز اللواء فؤاد شهاب بالرئاسة حيث نال ٤٨ صوتا وريمون إدة ٧ أصوات ،وعندئذ أعلن عادل عسيران رئيس مجلس النواب اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية اللبنانية وألقى كلمة تهنئة متمنياً للرئيس الجديد التوفيق فى النهوض بمهام الحكم(١) .

ولقد كان مفهوما منذ اللحظة التى تم فيها انتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية أنه دعى للاضطلاع بمهمة شاقة هى تصفية تلك التركة المثقلة التى خلفتها الأزمة اللبنانية منذ نشوبها فى مطلع شهر مايو/ آيار ١٩٥٨ ، ولعل مما زاد المشاكل تعقيدا أمام اللواء شهاب عدم تمكنه من تولى سلطاته الدستورية فور انتخابه نظراً لإصرار سلطة كميل شمعون على البقاء فى الحكم لاستكمال المدة الباقية من ولايته حتى ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨(٢) .

وعندما سئل دالاس Dulles وزير الخارجية الأمريكية عما إذا كان انتخاب اللواء شهاب رئيسا لجمهورية لبنان يسهل سحب القوات الأمريكية أجاب بأنه لا يستطيع الإجابة على ذلك إذ أن سحب القوات يتوقف على موقف الحكومة الجديدة وعلى ما ستفعله الأمم المتحدة وعلى عدة عوامل أخرى(٣) .

وعلى الصعيد الدولى اجتمع مجلس الأمن الدولى بعد نزول القوات الأمريكية فى بيروت لمناقشة الأزمة اللبنانية .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٤ لبنان ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة ببيروت ، بتاريخ ١٩٥٨/٨/١ .

(٢) المصدر نفسه : محفظة رقم ٧ لبنان ، ملف ٥/٤٤٠/١٠٣٧ جـ ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة ببيروت ، برقية رقم ١٣٩ سرى جداً بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٤ .

(٣) المصدر نفسه : محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ، ملف ٥/٣٠٠/١٠٣٧ ، مذكرة من سفير الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون إلى وكيل وزارة الخارجية ، بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٦ .

ففـــى جلسة مجلس الأمن بتاريخ ١٨ مايو/ تموز ١٩٥٨ اقترحت الولايات المتحدة إرسال قوات تابعة للأمم المتحدة إلى لبنان لكى تحل محل القوات الأمريكية ، و لم يصدر القرار رغم فوزه بتسعة أصوات بسبب معارضة الاتحاد السوفيتى لـــه ، واقترح الاتحاد الســـوفيتى ســـحب القوات الأمريكية من لبنان فوراً ومنع التدخل المسلح فى الشئون الداخلية للدول العربية ، إلا أن مجلس الأمن رفض المشروع بأغلبية ثمانية أصوات .

ومن ثم، سارعت الولايات المتحدة إلى التقدم فى الجلسة نفسها بطلب عقد الجمعية العامة لدورة خاصة عاجلة لبحث شكوى لبنان ضد "تدخل الجمهورية العربية المتحدة" فى شئونها الداخلية مما يعرض السلام والأمن الدولى للخطر .

وقـــد قامـــت سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون بإبلاغ وزارة الخارجية الأمريكية عدم ارتياحها لتحريك الحكومة الأمريكية لمشروع قرارها السابق مع ما فيه مـــن اتهـــام للجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى شئون لبنان الداخلية ، الأمر الذى يـــتعارض مـــع الواقـــع وما تدعيه من رغبة فى تحسين العلاقات مع الجمهورية العربية المـــتحدة ، فاعـــتذر المســـئولون الأمريكـــيون بأن ذلك إجراء شكلى تقضيه قواعد الإجراءات وأن هناك محاولة تبذل لتعديل نص مشروع القرار .

وبالفعل ، عندما عاد مجلس الأمن إلى الانعقاد فى ٧ أغسطس/آب ١٩٥٨ للنظر فى دعـــوة الجمعية العامة إلى دورة استثنائية عاجلة لبحث مشاكل الشرق الأوسط ، قبل المـــندوب الأمريكى إدخال تعديلات على المشروع الأمريكى السابق وتقدم بمشروع جديد حذف منه عبارة "تدخل الجمهورية العربية المتحدة"[١] .

وفى أثـــناء عرض المسألة اللبنانية على الجمعية العامة فى ١٣ أغسطس/ آب طالب الدكتور محمود فوزى وزير خارجية الجمهورية العربية ورئيس وفدها فى الجمعية العامة

---

(١) المصدر نفسه : ملف ١٠٣٧/٣٠٠/٥ جـــ ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون ، برقية رقم ١٤ سرى بتاريخ ١٩٥٨/٨/٥ .

للأمم المتحدة بضرورة جلاء القوات الأمريكية من لبنان فوراً ، وقال إن بلاده إذ ترحب بإعلان الولايات المتحدة عن نيتها فى الانسحاب وبدئه فعلا ، ولكنها قلقة أشد القلق لعدم إعلان الولايات المتحدة للوقت الذى سيتم فيه الانسحاب[١] .

وعلى الرغم من التوتر الشديد الذى صاحب المناقشات داخل أروقة الأمم المتحدة حول الأزمة اللبنانية ، فإن مبادرة دبلوماسية جديدة لحل النزاع ، جاءت باسم جامعة الدول العربية ، وقد قام بهذه المبادرة عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية الذى تمكن من عقد عدة اجتماعات جانبية فى مكتب الجامعة العربية الدائم فى نيويورك. كما استطاع الأمين العام للجامعة أن يشكل لجنة فرعية لوضع مشروع قرار التسوية العربية للنزاع ، وتكونت هذه اللجنة من وزير الخارجية السودانى محمد محجوب ، ومن ممثلين عن المملكة العربية السعودية والعراق والجمهورية العربية المتحدة[٢] .

وفى هذه الفترة كان دالاس وزير الخارجية الأمريكية والسفير لودج مندوب الولايات المتحدة قد اجتمعا مراراً بالدكتور محمود فوزى وناشداه قبول الاقتراح الذى تقدم به همرشولد فى بيانه الافتتاحى والذى طالب فيه الدول العربية أن تعيد النظر فى تعهد الجامعة العربية باحترام استقلال بعضها البعض ، كما أكد دالاس للدكتور محمود فوزى أن الولايات المتحدة لا تنوى القيام بمحاولة لقلب حكم الرئيس عبد الناصر . ولكن يجب ألا ينتظر منها مساعدة الجمهورية العربية المتحدة ما لم تسلك القاهرة مسلكاً أكثر مسالمة حيال جيرانها الأضعف منها من الدول العربية[٣] .

(١) المصدر نفسه : محفظة رقم ١٨٠ "واشنطون" ملف ٣/٨٠/٥ ، سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٠ .

(٢) د . بطرس بطرس غالى : جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(٣) ريتشارد ميللر : مرجع سابق ، ص ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

وفى ٢٠ أغسطس/آب اجتمع مندوبو الدول العربية بنيويورك ، وشهد الاجتماع الأمين العام لجامعة الدول العربية ، وأسفر الاجتماع عن الموافقة على مشروع قرار للجمعية العامة[١] .

وفى اليوم التالى قدم محمد محجوب وزير الخارجية السودانى ، باسم جميع الدول العربية ، مشروع القرار إلى الجمعية ، وصدر هذا القرار فعلا بإجماع الأصوات ، ودعا القرار إلى ضرورة احترام الأحكام الواردة فى المادة ٨ من ميثاق الجامعة العربية ، والتى تنص على احترام كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجماعة الأخرى وتعتبره حقا من حقوق تلك الدول وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها ، كما طالب القرار الأمين العام للأمم المتحدة أن يقوم فى الحال بالتشاور مع الدول المعنية ، وطبقا لميثاق الأمم المتحدة والمادة الثالثة من ميثاق الجامعة العربية لاتخاذ التدابير العملية التى تساعد على احترام أهداف ومبادئ الميثاق فيما يتعلق بلبنان فى الظروف الحالية وذلك لتسهيل انسحاب القوات الأجنبية منها فى موعد مبكر[٢] .

وهكذا نجحت جامعة الدول العربية فيما فشلت فيه فى بداية الأزمة اللبنانية ، وحقيقة الأمر أن هذا النجاح جاء نتيجة لتغير الظروف التى كانت تحيط بالأزمة فى بدايتها ، فالوضع فى لبنان اختلف تماماً بانتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية وعودة الهدوء والاستقرار للبلاد ، كما أصبحت الجمهورية العربية المتحدة بزعامة الرئيس عبد الناصر أكثر مرونة واستعداداً للمشاركة فى إنهاء الأزمة ، بعد أن زال حكم شمعون فى لبنان وسبقه حكم نورى السعيد فى العراق وهما من زعماء السياسة الموالية للغرب فى المنطقة ومن أكبر الخصوم لسياسة عبد الناصر .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية: محفظة رقم ١٨٠ ، ملف ١٨ ، سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون، بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٠ .

(٢) انظر : نص القرار العربى فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ملف رقم ١٠٣٧/٣٠٠/٥ جـ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٩ .

أمـــا الولايات المتحدة التى سارعت عقب الثورة العراقية بإنزال قوات عسكرية فى لبـــنان لحماية مصالحها فى المنطقة لم يكن لديها مانع وخاصة فى ظل سياستها الجديدة الأكثر تجاوباً مع القومية العربية فى سحب قواتها العسكرية وإنهاء الأزمة اللبنانية .

والخلاصة أن تغير الظروف المحلية والإقليمية والدولية ساعد بشكل كبير على نجاح الجهود العربية التى بذلت للوصول إلى حل للأزمة اللبنانية .

وعلى الفور قام همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بجولاته فى الدول المعنية تنفيذاً لقـــرار الجمعية العامة ، ففى القاهرة التقى بالرئيس عبد الناصر فى ٤ سبتمبر ١٩٥٨ ، وكـــان دالاس وزير الخارجية الأمريكية قـــد طلب منـــه أن يستخدم نفـــوذه لدى عـــبد الناصـــر لـــلحد من الحرب الدعائية التى يشنها راديو القاهرة ، وبالفعل اقترح همرشولد على عبد الناصر نزع سلاح الإذاعات ، ولكن عبد الناصر رفض هذا الطلب رفضـــا صـــريحا وعلى الفور ، وأشار إلى أن نزع سلاح الإذاعة يعنى بالنسبة له نزع السـلاح بالكـــامل ، حيث إنه فى هذا المجال يجابه الولايات المتحدة التى تملك أعداداً عظمى من الأسلحة فهى تستطيع أن تقدم المساعدات ، ولديها نشاطاتها السرية ، كما أن لها أصدقاء بين الحكام العرب[١] .

وكـــان الاقتراح الثانى الذى حمله همرشولد من "دالاس" من أجل تأمين الانسحاب الأمريكى ، بتعيين ســـفير مقيم للأمم المتحدة فى دمشـــق ، فقد ألمح همرشولد للرئيس عبد الناصر بأنه يود أن يكون للأمم المتحـــدة "وجود" فى دمشق ، وفهم الرئيس فوراً ما كان يرمى إليه . وقد رفض عبد الناصر على أساس أن قبول سفير للأمم المتحدة من شأنه أن يخلق سابقة خطيرة جداً لأن ذلك سيعنى أنه سيكون عليه القبول بسفير للأمم المتحدة لحل أية مشكلة قد يواجهها مع الدول الأخرى فى المستقبل[٢] .

وعلى أية حال ، فقد قدم همرشولد تقريره الأول إلى الجمعية العامة فى ٣٠ سبتمبر/ أيلول عملاً بنص القرار العربى السابق صدوره من الجمعية العامة فى ٢١ أغسطس/ آب

---

(١) محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٢٣٤ .

١٩٥٨ ، وذكر همرشولد أنه قد أبلغ كلاً من لبنان والولايات المتحدة نتيجة مشاوراته فى المنطقة واعتزامه الاحتفاظ بفريق المراقبة فى لبنان وأنه نتيجة لذلك تدرس الحكومتان فى الوقت الحاضر برنامج إتمام انسحاب القوات الأمريكية(١) .

ومع هدوء الأمور فى لبنان ، وخاصة مع تولى اللواء فؤاد شهاب رئاسة الجمهورية فى ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨ خلفا لشمعون ، كما تم تشكيل حكومة جديدة فى ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ، جاء قرار انسحاب القوات الأمريكية من الأراضى اللبنانية فى ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٨ .

وفى يوم ١٦ نوفمبر/ تشرين الثانى أبلغت الحكومة اللبنانية بمجلس الأمن ، أنها قد استأنفت علاقاتها الودية والأخوية مع الجمهورية العربية المتحدة . وطلبت بالتالى شطب شكواها المؤرخة فى ٢٢ مايو/ آيار ١٩٥٨ ضد الجمهورية العربية المتحدة من جدول أعمال مجلس الأمن(٢) .

خاتمة :

من خلال تتبع موقف الجمهورية العربية المتحدة من الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، يمكن القول : بأن هذه الأزمة كانت نتاج عوامل محلية وإقليمية ودولية ، أثرت ولا شك فى تطور مجريات أحداثها وما انتهت إليه من نتائج .

ولقد بينت الدراسة أن الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ كانت جزءاً من المعركة الكبرى التى خاضتها فى تلك الفترة حركة التحرر العربى بقيادة زعيم القومية العربية جمال عبد الناصر ضد السيطرة والهيمنة التى حاول الاستعمار الغربى فرضها على كافة أرجاء الوطن العربى .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٢ "الشرق الأوسط" ملف ١٠٣٧/٣٠٠/٥ جـ٥ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطون ، بتاريخ ١٩٥٨/١٠/٩ .

(٢) د . بطرس بطرس غالى : جامعة الدول العربية وتسوية النزاعات المحلية ، مرجع سابق ، ص ص ٧٦-٧٧ .

ومـــن الحقـــائق الهامة التى أكدت عليها هذه الدراسة وأبرزتها ، ذلك الدور الكبير الـــذى لعبته الجمهورية العربية المتحدة فى دعم ومساندة المعارضة اللبنانية فى معركتها ضـــد سياسة الرئيس شمعون الموالية للغرب ، وتلك الشعبية الجارفة التى كان يتمتع بها الرئـــيس عبد الناصر بطل القومية العربية فى جميع أنحاء الوطن العربى ، وما كان له من نفوذ وقدرة على تحريك وتوجيه الأحداث فى البلدان العربية ، وهو ما جعل الولايات المتحدة تلجأ إليه عندما أرادت أن تصل إلى حل للأزمة اللبنانية .

لقد انتصرت العروبة على أرض لبنان ، فحتى عندما نزلت القوات الأمريكية بها لم تـــنجح فى فرض سيطرتها ، وتغلبت إرادة الشعوب العربية وأجبرت الولايات المتحدة على الانسحاب .

ولكـــن مـــا أشبه الليلة بالبارحة / فمعركة فرض السيطرة والهيمنة الأمريكية على مقـــدرات العرب وخيراتهم ما زالت مستمرة ، ولكن ما فشلت فيه الولايات المتحدة بـــالأمس بفضـــل تماسك وحدة العرب بقيادة الرئيس عبد الناصر ، نجحت فيه اليوم بسبب ما أصاب العرب من تناحر وعجز وتفكك .

وفى ختام هذه الدراســـة نود أن نشير إلى : أن لبنان يتعرض فى الوقت الحاضر فى ظـــل العربدة الأمريكية الراهنة لنفس الضغوط التى تعرض لها فى عام ١٩٥٨ ، فإما أن ينضـــم للمعسكر الغربى بقيادة الولايات المتحدة ، وإما أن ينضم للمعسكر الإسلامى والعربى (معسكر الإرهاب حسب الرؤية الأمريكية) ، ولكن شتان الفارق بين الموقف العربى فى الخمسينيات من القرن العشرين و الموقف العربى فى وقتنا الراهن !!! .

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة

وثائق الخارجية المصرية / أرشيف الدول "لبنان"

- محفظة رقم ١ ، ملف ٢/٨٦/٧٥٣ جـ ١ .
- محفظة رقم ٢ ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٢ .
  ١/٨١/٧٥٣ .
- محفظة رقم ٣ ، ملف ٤/٨١/٧٥٣ جـ ٤ .
- محفظة رقم ٤ ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٤ .
- محفظة رقم ٥ ، ملف ١٣٣٥ .
- محفظة رقم ٧ ، ملف ١٠٣٧/٤٤٠/ جـ ٤ .
- محفظة رقم ٨ ، ملف ١/٧/٢٢٧ جـ ٤ .
- محفظة رقم ١٠ ، ملف ١/٧/٢٢٧ .
- محفظة رقم ١١ ، ملف ١/٧/٢٢٧ جـ ٤ ، ٦ .

الأرشيف السرى الجديد :

- محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ملف ١٠٣٧/٣٠٠/٥ جـ ٣ ، ٤ .
- محفظة رقم ٢ "الشرق الأوسط" ملف ١٠٣٧/٣٠٠/٥ جـ ٥ .
- محفظ رقم ١٨٠ ، ملف ٣٨٠١٥ ملف ١٨ .

ثانيا : الوثائق المنشورة

(1) Burdette, Anitta (ed): The Arab League British Documentary Sources, 1943-1963, Vol. 9, 1958-1960. (Archive ed 1955) .
(2) Foreign Relations of U. S. (FRUS) 1958-1960, Vol. XI. Lebanon and Jordan (U. S. Government Printing Office Washington 1992).

ثالثا : المراجع العربية

- د . أحمد خليل محمودى : لبنان فى جامعة الدول العربية ١٩٤٥-١٩٥٨ ، المركز العربى للأبحاث والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى فى لبنان ، بحث فى كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٨ .
الولايات المتحدة والمشرق العربى، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٨ .
- أمين سعيد : الجمهورية العربية المتحدة ، الجزء الأول ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- أنتونى ناتنج : ناصر ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ط١ ، دار مكتبة هلال ، بيروت ١٩٨٥ .
- باسم الجسر : الصراعات اللبنانية والوفاق (١٩٢٠-١٩٧٥) دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٨١ .
- د . بدر الدين عباس الخصوصى : القضية اللبنانية فى تاريخها الحديث والمعاصر ، ط١ القاهرة ١٩٧٨ .
- بشارة الخورى : حقائق لبنانية ، الجزء الأول ، منشورات "أوراق لبنانية" بيروت ، د .ت .
- د . بطرس بطرس غالى : الاستراتيجية والسياسة الدولية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- جورج كيرك : السياسة العربية المعاصرة ، ترجمة عبد الواحد الإمبابى - محمد الخولى ، سلسلة كتب سياسية ، العدد ٣٣٠ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د .ت .
- جوزيف مغيزل : لبنان والقضية العربية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- د . حمدى الطاهرى : نظام الحكم فى لبنان ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، د .ت .
- ريتشارد ميللر : داج همرشولد ودبلوماسية الأزمات ، ترجمة عمر الإسكندرانى ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- د . صلاح العقاد : تكوين لبنان الحديث ، بحث فى كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
المشرق العربى ١٩٤٥ - ١٩٥٨ ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧
- د . عباس أبو صالح : الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، العربية للمنشورات ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- عبد الحميد موافى : مصرفى جامعة الدول العربية "دراسة فى دور الدولة الأكبر فى التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥- ١٩٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

- د . على محمد الأغا : الاتجاهات السياسية فى لبنان (١٩٢٠-١٩٨٢) ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٩١ .
- فتحى الديب : عبد الناصر وتحرير المشرق العربى ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- مايلزكوبلاند : لعبة الأمم "اللاأخلاقية فى سياسة القوة الأمريكية، ترجمة مروان خير، ط١ ، انترناشيونال سنتر ـ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- محمد عبد المولى الزعبى : لبنان بين التحرر والاستعمار ، منشورات مطبعة الحياة ، دمشق ، ١٩٥٩ .
- محمد فرج : ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وأثرها فى التطور السياسى العربى ، بدون ناشر .
- د . محمود صالح منسى : الشرق العربى المعاصر ، القسم الأول "الهلال الخصيب" ، القاهرة ١٩٩٥ .

رابعاً : المراجع الأجنبية

- Agwani. M .S.: The Lebanese Crisis, 1958 A Documentary Study (Asia Publishing House London 1965).
- Bonnie F. Saunders: The United States and Arab Nationalism: the Syrian Case 1953-1960 (Westport, Connecticut London 1996).

خامساً : الرسائل الجامعية

- Dawisha, Adhid Isam : The U .A .R and the Arab East, 1958-1963 . A foreign policy Analysis, PH . D . Department of International Relation of the university of London, July 1974 .

سادساً : الدوريات العربية

- الجمهورية

سابعاً : الدوريات الأجنبية

- Middle East Journal .



موقف المملكة الأردنية
من انفصال الجمهورية العربية المتحدة
١٩٦١

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الأزهر

موقف المملكة الأردنية
من انفصال الجمهورية العربية المتحدة
١٩٦١

مدخـــل

لقـــد كانـــت الوحدة المصرية / السورية فى عام ١٩٥٨م واحدة من مشروعات الوحـــدة العربية التى شهدها القرن العشرون ، وقد جاءت هذه الوحدة كنتيجة حتمية للتقارب الذى شهدته السياستان : السورية والمصرية آنذاك ، ومما هو جدير بالذكر ، فـــإن هذه الوحدة لم تكد تبدأ عامها الأول ، إلا وحيكت ضدها المؤامرات ، وخاصة مـــن بعـــض القـــوى الـــتى كان يزعجها التوسع فى النفوذ المصرى ، وحينما ظهرت التجاوزات فى دولة الوحدة ، وجدت تلك القوى من يعمل فى الداخل على إجهاضها وتقويضـــها ، حتى جاءت اللحظة التى أُعلن فيها الانفصال المصرى / السورى ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م .

وقـــد تكونـــت عدة تنظيمات سرية فى الجيش السورى ، كانت تعمل على إنهاء الوحدة ، عدَّدها البعض بأربعة تنظيمات ، هى : تنظيم حيدر الكزبرى ، وتنظيم أكرم ديرى ، وتنظيم عبد الله الشيخ عطية ، وأُخيرا تنظيم عبد الكريم النحلاوى(١) .

---

(١) للتفاصـــيل عن هذه التنظيمات ، يُنظر : صلاح نصر ، مذكرات صلاح نصر ، جـ٢ «الانطلاق» ، (دار الخيال ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٩٩م) ، ص ص ١٩١ – ١٩٣ ، ٢٤٥ – ٢٤٦ .

وقد استطاعت جماعة من الضباط القيام بحركة انقلابية ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م على رأسهم عبد الكريم النحلاوى ، وحيدر الكزبرى ، وعدد من الضباط السوريين[*] ، وقد دارت بينهم وبين المشير عبد الحكيم عامر عدة اتصالات ومفاوضات للوقوف على مطالب من قاموا بهذه الحركة[١] ، كما صدر عن الانفصاليين عدة بيانات أو بلاغات وصل عددها إلى خمسة عشر بيانا ، كان أهمها البيان التاسع والذى بدا منه وكأن الأمر قد انتهى ، وأن الأمور قد عادت إلى طبيعتها، بعد أن اتفق قادة الانقلاب مع عبد الحكيم عامر على إزالة أسباب الانفصال ، ولكن ما لبث أن نُقض هذا البيان بعد أقل من أربع ساعات ، وذلك بعد إذاعة البيان العاشر الذى اعتبر البيان التاسع لاغيا ، وأن القيادة الثورية تعلن للشعب العربى « أنها وضعت يدها على كافة الأمور ، وتعاهد الله على صيانة الأمة والمحافظة على كرامتها »[٢] .

وقبل أن يحل مساء يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م أُعلن رسميا عن خروج سوريا من الجمهورية العربية المتحدة ، وغادر المشير عبد الحكيم عامر دمشق ، وتم اعتقال عبد الحميد السرَّاج نائب الرئيس ، وتشكيل قيادة من الانقلابيين أطلقوا عليها

(*) للتفاصيل عن أسماء الضباط الذين اشتركوا فى الحركة الانفصالية ، وكذلك القيادة العليا التى صدرت عنها بيانات الانفصال ، يُنظر : اللواء أحمد غميِّض ، سوريا من الوحدة إلى التصحيح «شهادات ونظرات ١٩٥٨ – ١٩٧٠» ، (منشورات دار التوحيدى ، حمص ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٩م) ، ص ص ٦٢ – ٦٦ ، أسعد الكورانى ، ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت ، (رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط١ ، فبراير ٢٠٠٠م) ، ص ٣٤٠ ، راشد كيلانى ، مذكرات راشد كيلانى عسكريا ودبلوماسيا ، (منشورات دار مجلة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م) ، ص ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(١) للتفاصيل عن أحداث هذه الحركة ، يُنظر : أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، جـ٣ ، «عبد الناصر والعرب» ، (مكتبة مدبولى ، ط٢ ، د.ت.) ، ص ص ٨٦ – ٩١ ، صلاح نصر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

(٢) يُنظر تفاصيل هذه البيانات ، وبيان اللواء عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السورى ، فى : تبرير الانفصال ، فى : د. يوسف خورى (إعداد) ، مشاريع الوحدة العربية ١٩١٣ – ١٩٨٧م «وثائق» ، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص١ ، يوليو ١٩٨٨م) ، ص ص ٣٧١ – ٣٧٧ .

اسم « القيادة العربية الثورية العليا للقوات المسلحة »[١] ، وفور نجاح الحركة الانفصالية أيدها عدد كبير من كبار ساسة سوريا ، وعلى رأسهم الرئيس شكرى القوتلى ، وصبرى العسلى ، وأكرم الحورانى ، وخالد العظم وغيرهم[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الانفصال كانت له أسبابه التى يتحمل جزءًا منها الجانب المصرى ، كما يتحمل الجانب السورى جزءا آخر ، وإن كان للإجراءات الاقتصادية التى اتخذتها حكومة ج. ع. م. ، فضلا عن شعور الضباط السوريين بأنهم يعامَلون بصورة أدنى من زملائهم المصريين ، وقد أدت إلى حدوث شعور عام وتذمر داخل الجيش والطبقة البرجوازية السورية بضرورة إنهاء هذا الوضع الذى انتقص من نفوذهم ومصالحهم[٣] .

وفيما يخص موقف الرئيس جمال عبد الناصر من هذه الحركة ، فقد اتجهت النية فى البداية إلى ضرورة التصدى لهذه الحركة ، التى تمس الهدف الوحدوى القومى فى سياساته ، وبالفعل أمر بتحريك بعض القوات لوأد هذه الحركة ، وحينما تأكد أن الأمر سوف يصل إلى حد سفك الدماء أمر بإلغاء العملية ، وقد وصلت الأوامر إلى الفرقة التى نزلت مطار اللاذقية بالفعل بعدم الاشتباك مع القوات السورية ، وتسليم نفسها لقائد البحرية فى ميناء اللاذقية[٤] ، وما لبث أن اعترف عبد الناصر بالجمهورية السورية فى ٥ أكتوبر (تشرين أول) ، حيث أوضح أنه ليس مهما أن تبقى سوريا

---

(١) بيير بوداغوفا ، الصراع فى سوريا لتدعيم الاستقلال الوطنى ١٩٤٥ – ١٩٦٦م ، ترجمة د. ماجد علاء الدين ، د. أنيس المتنى ، (دار المعرفة ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ، ص١٦٦ .

(٢) راشد كيلانى ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٣) يُنظر أسباب الانفصال ، فى : عبد الحميد محمد الموافى ، مصر فى جامعة الدول العربية « دراسة فى دور الدولة الأكبر فى التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥ – ١٩٧٠م » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م) ، ص ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، محمد حسنين هيكل ، سنوات الغليان «حرب الثلاثين سنة»، جـ١ ، (مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٨) ، ص ص ٥٥٥ – ٥٥٧ .

(٤) أحمد حمروش ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

جزءا من ج. ع. م. ، بقدر ما هو مهم أن تبقى سوريا عربية ، وأن يبقى الشعب العربى هو الحاكم فى سوريا[١] .

وعقب نجاح الانفصال تألفت حكومة انفصالية مؤقتة برئاسة مأمون الكزبرى ، وقد أعلنت هذه الحكومة برنامجها السياسى على الصعيدين : الداخلى والخارجى[٢] ، كما أصدر رئيس الحكومة أربعة مراسيم ، منها النص على تسمية سوريا بـ «الجمهورية العربية السورية» ، ورفع العلم السورى على جميع الدوائر والمؤسسات الرسمية[٣] ، و لم تدم هذه الحكومة طويلا ، حيث تألفت وزارة جديدة برئاسة عزت النص ، وقد أجرت هذه الحكومة انتخابات تم بمقتضاها انتخاب ناظم القدسى رئيسا للجمهورية السورية ، وأُسندت رئاسة الحكومة إلى معروف الدواليبى[٤] .

هذا عرض موجز للغاية عن الانفصال وأسبابه ، أما عن الموقف الأردنى منه ، فجدير بالذكر أن العلاقات المصرية / الأردنية هى التى وجهت الموقف الأردنى ، وقبيل التطرق إلى الموقف الأردنى من الانفصال ، يجب الإشارة إلى العلاقات المصرية / الأردنية قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية .

العلاقات المصرية / الأردنية قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية

لم تكن العلاقات المصرية / الأردنية جيدة فى تلك الفترة ؛ حيث شهدت الفترة التى سبقت الوحدة تدهورا فى العلاقات ، وقد أوضح ذلك سمير الرفاعى وزير خارجية الأردن فى لقاء جمعه والسفير البريطانى فى عمّان ، حيث سأله الأخير عن كيفية تحسين

---

(١) د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى ، العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ – ١٩٦٣م ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد رقم ١٩٠ ، ٢٠٠٠م) ، ص ٣٨٧ .

(٢) يُنظر تشكيل الحكومية وبرنامجها السياسى ، فى : أحد غمِّيض ، مرجع سابق ، ص ص ٦٨ – ٦٩ ، أكرم حورانى ، مذكرات أكرم حورانى ، (مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠م) ، ص ص ٢٩٢٢ – ٢٩٢٣ ، بيير بوداغوفا ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٧ – ١٦٨ .

(٣) أكرم حورانى ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢١ .

(٤) هيكل ، مرجع سابق ، ص ٥٧٣ .

العلاقات بين مصر والأردن ، فأجابه الرفاعى أن على مصر أن تجيب على هذا السؤال وليست الأردن ، لأن مصر هى المسئولة عن فساد العلاقة بينهما(١) .

وعقب قيام الوحدة ازداد التوتر والشك بين الطرفين ، حتى إن السلطات الأردنية وضعت القنصل المصرى فى عمّان تحت المراقبة ، وقد ذكر سمير الرفاعى للسفير البريطانى ، أن السلطات الأردنية قد تأكد لها بالدليل أن هناك اتصالات بين القنصل المصرى وعناصر تخريبية داخل الأردن ، وأن الحكومة قررت طرد القنصل فى غضون ثمانية وأربعين ساعة ، وأن الأردن لا تخشى من المعاملة بالمثل لقنصلها فى مصر ، لأن القنصلية الأردنية فى القاهرة كانت مُعرَّضة لكتابة « تقارير بوليسية » من قِبل السلطات هناك(٢) .

وحينما أُعلنت الوحدة المصرية / السورية كان موقف المملكة الأردنية مترددا منها، حيث فضَّل الملك حسين الانتظار ليرى ماذا ستسفر عنه الأحداث فى هذه الوحدة ، على الرغم من أن البعض قد اعتبرها تهديدا مباشرا للمملكة الأردنية التى كانت تشطر دولة الوحدة من الناحية الجغرافية(٣) ، ولكن سرعان ما انتهى هذا الانتظار ، فبعد أسبوعين من قيام الوحدة رد الأردن بخطوة مضادة بإعلان الاتحاد الهاشمى (العربى) ، الذى جمع بين الأردن والعراق ، والذى اعتبره البعض تحركا هاشميا بالتعاون مع القوى الغربية ضد نفوذ عبد الناصر فى دمشق(٤) .

---

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Priestland, Jane (ed): Records of Jordan 1919- 1965, Vol. II, «1958- 1960», (Archive ed. 1996), from Amman to Foreign Office, Confidential, No. 4, Jan 21, 1958, p. 67.

(2) Ibid., British Embassy, Amman to F.O., Secret No. 10322/6/58, Arp 8, 1958, p. 70.

(٣) د. سامى عصاصة ، أسرار الانفصال مصر وسوريا، (مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، ط١ ، يناير ١٩٨٩م) ، ص ١٠٣ .

(4) Nevo, Joseph & Ilan, Pappe: Jordan in M.E., «The Making of a Pivotal State 1948- 1988», (Frank Cass, England, 1st ed, 1994), p. 173.

ومما لا شك فيه ، أن قيام ذلك الاتحاد كان موعزا به من قِبل الغرب ، وذلك لمواجهة الوحدة المصرية / السورية ، وقد أرجع البعض اندفاع الملك حسين إلى القوى الغربية بعيدا عن النفوذ المصرى إلى السياسة المصرية نفسها ، التى اعتبرها الملك حسين تدخلا فى السياسة العربية[١] ، وقد عمَّقت الدعاية المصرية ضد الأسرة الهاشمية فى الأردن الخلاف بين الدولتين ، ومنها ما جاء فى مجلة " آخر ساعة " من أن الأسرة الهاشمية لا تنتمى إلى النبى محمد ﷺ ، مما حدا بالعلماء الأردنيين بقيادة قاضى القضاة إلى عقد مؤتمر صحفى للتنديد بمثل هذه الحملات العدائية ، وطالبوا الشعوب الإسلامية بتجاهلها ، كما طالبوا الملوك والأمراء ورؤساء الدول الإسلامية بالتدخل من أجل إنهاء هذه الحملة[٢] .

وقد وصل التوتر بين الدولتين إلى ذروته عقب قيام الثورة العراقية فى ١٤ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨م ، حيث قُطعت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين فى ٢٠ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨م ، وقد جرت بعدها محاولات فى ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٥٨م من أجل إعادة العلاقات بينهما ، على أساس أن تضمن ج. ع. م . عدم تدخل سفارتها فى عمَّان فى الشئون الداخلية الأردنية[٣] .

وقد واجهت الدولتان صعوبات من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما ، فعلى الرغم من فتح المجال الجوى والبرى بين سوريا والأردن عام ١٩٥٩م ، فقد بقيت بعض العقبات من وجهة نظر الجانب الأردنى من أجل إعادة العلاقات الطبيعية بين الدولتين ، أهمها أن تقوم ج. ع. م. بإبعاد المعارضين الأردنيين ، أو أن تجعلهم يشعرون أنهم تحت السيطرة ، وتؤكد لهم ضرورة أن يكون سلوكهم متوافقا مع مبادئ اللجوء السياسى[٤] .

---

(1) Ibid., p. 173.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 11, from Amman to F.O., May 1, 1958, pp. 71-72.

(3) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Dec 1, 1958, p. 77.

(4) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Jan 24, 1959, p. 387.

وقـد جاء التحسن فى العلاقات – فيما بعد – نتيجة أو كرد فعل لتوتر العلاقات المصـرية / العراقية عام ١٩٥٩م ، وإن كان هذا التحسن جزءا من سياسة عبد الناصر تجـاه الأردن والمملكـة السـعودية ، ليستعين بهما ضد سياسة عبد الكريم قاسم فى العـراق[١] ، ومـن أجل استعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، قام الأمين العام لجامعـة الـدول العربية (عبد الخالق حسونة) بزيارة إلى المملكة الأردنية ، لتقريب وجهـات النظر بين الطرفين ، وإيجاد حل للمشاكل القائمة بينهما ، وخاصة مشكلة إغـلاق الحدود السورية / الأردنية ، وقد أعد حسونة خمسة اقتراحات من أجل إعادة العلاقات بين الطرفين ، منها :

١ – أن أمين عام الجامعة سوف يضمن احترام الجانبين لميثاق الجامعة .

٢ – يجب أن يتقابل المسئولون الأردنيون للتباحث معا، ويجب إعادة فتح الحدود.

٣ – يضـمن الأمـين العام وقف الحملات الهجومية والإذاعية والصحفية من كلا الطرفين .

٤ – يجـب إعـادة العلاقات الدبلوماسية فى غضون شهر ، موضحا أن الخطوات الضرورية يجب أن تؤخذ بهذا الشأن ، مع تهيئة المناخ المناسب لذلك .

٥ – يضمن الأمين العام عدم السماح للاجئين السياسيين الأردنيين فى مصر بالقيام بأى نشاط من شأنه أن يؤدى إلى تخريب العلاقة بين الدولتين[٢] .

وقد عادت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى٢١ أغسطس (آب) عام ١٩٥٩م، حيـث أبلغت الحكومة الأردنية نظيرتها فى ج. ع. م. بموافقتها على تعيين السيد فتحى رضوان كسفير لـ ج. ع. م. فى الأردن ، ومن جانبها كانت حكومة ح. ع. م. قد أبلغـت وكيل وزارة الخارجية الأردنية فى ١٦ أغسطس (آب) عام ١٩٥٩م بموافقتها

---

(١) مـالكولم كير ، عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ – ١٩٧٠ ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمـرو ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٩٦ ، ١٩٧٧) ، ص ص ٤٩ – ٥٠ .

(٢) للتفاصيل عن مساعى الأمين العام للتقريب بين الدولتين ، يُنظر :
- Ibid., pp. 391-401, 407-408.

على تعيين السيد محمد شريقى كسفير للأردن فى ج. ع. م.[1] ، وبذلك تكون العلاقات الدبلوماسية قد عادت بين الدولتين ، بعد قطعها فى ٢٠ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨م ، عقب اعتراف ج. ع. م. بالثورة العراقية ، مما اعتبره الملك حسين موقفا عدائيا ، لأنه اعتبر نفسه هو الحاكم الشرعى للعراق ، بعد مقتل فيصل الثانى الذى كان رئيسا للاتحاد الهاشمى .

وعلى الرغم من عودة العلاقات بين الدولتين ، إلا أن الريبة والشك استمرت قائمة بين الحكومتين ، وخاصة عندما ألقى عبد الناصر خطابه فى بورسعيد فى يناير (كانون ثان) عام ١٩٦٠م ، الذى هاجم فيه الاتحاد العربى ، حيث صرح بأن ج.ع.م. هى الدولة الديمقراطية العربية الوحيدة ، كما أفسح المصريون المجال للمعارض الأردنى (أبو نوار)[*] الذى تحدث إلى إذاعة صوت العرب منتقدًا السياسة الأردنية ، وعلى وجه الإجمال ، فإن إعادة العلاقات بين الدولتين لم تكن سهلة ، مما جعل السفير البريطانى فى عُمان يذكر : « إننا فى انتظار إلغاء هذه العلاقات مرة أخرى »[2] .

وقد ازداد التوتر بين البلدين باطراد ، إلى أن بلغ ذروته بعد اغتيال رئيس وزراء الأردن (هزَّاع المجالى) فى إبريل (نيسان) عام ١٩٦٠م ، حيث اتهمت المملكة الأردنية ج.م.ع. بتدبير الحادث ، وقد أدى ذلك إلى إغلاق جميع الطرق التى تصل إلى

---

(1) Ibid., Confidential, British Embassy, Amman to F.O.., Aug 28, 1959, Despatch No. 39, p. 427.

(*) هو على أبو نوَّار أحد الضباط الأردنيين ، عُيِّن كبيرا للياوران فى خريف عام١٩٥٥م، وكانت له ميول قومية ، بعد إقالة حكومة النابلسى فى ١٠ إبريل (نيسان) عام ١٩٥٧م أمر الملك حسين بفصل أبى نوار وإلقاء القبض عليه ، ولكنه فر إلى سوريا والتجأ إلى ج.ع.م. .

جورج أكيرك ، السياسة العربية المعاصرة « ترجمة عبد الواحد الإمبابى ، محمد الخولى » ، (سلسلة كتب سياسية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د. ت.) ، ص ص ١١١ ، ١١٤ .

(2) Ibid., Vol. 12, 1960- 1962, Confidential, from Amman to F. O., No. 2, Jan 5, 1960, pp. 69- 71.

سوريا بالأردن ، ووصل الأمر إلى حد وقوع اشتباكات على الحدود الأردنية / السورية(١) .

وقد ازدادت حدة الهجمات الإعلامية المتبادلة بين الطرفين ، فكان الملك حسين يهاجم عبد الناصر ويتهمه مباشرة بأنه قاتل هزّاع المجالى ، كما وصفه بعدة صفات منها: « أنه عميل شيوعى ، ورجل مجنون ، وديكتاتور » ... إلخ(٢) ، ومن جانبه ألقى عبد الناصر خطابا فى دمشق فى أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦٠م هاجم فيه المملكة الأردنية ، واصفا إياها بأنها السبب فى قيام دولة إسرائيل ، وأنها دولة تابعة للاستعمار(٣) ، وفى ٢٣ ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٦٠م ألقى خطابا آخر فى بورسعيد ، تهكم فيه على الملك حسين والاتحاد العربى ، بحجة أن هناك من كان يوعز إلى حسين بالذهاب إلى سوريا لتخليصها من الحكم المصرى(٤) ، كما قامت الصحف والإذاعة المصرية بحملات إعلامية هاجمت فيها الملك حسين والمملكة الأردنية ، ودعت فى بعضها الشعب الأردنى إلى الإطاحة بالملك حسين ونظامه ، وقد آتت هذه السياسة المصرية ثمارها ، حيث نجحت فى إحداث بعض الاضطرابات فى الأردن(٥).

ومع تصاعد حدة التوتر بين الدولتين حدثت انفراجة فى العلاقات بينهما مع بداية عام ١٩٦١م ، وخاصة بعد اجتماع وزراء خارجية دول الجامعة العربية فى الفترة من ٣٠ يناير (كانون ثان) إلى ٤ فبراير (شباط) عام ١٩٦١م فى بغداد ، حيث أدرك

(١) أكرم حورانى ، مذكرات أكرم حورانى ، جـ ٤ ، ص ٢٨٧٥ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ .

(3) Ibid., From Cairo to F.O., No. 209, Mar 8, 1960, pp. 80- 81.

(٤) وزارة الإرشاد القومى ، مصلحة الاستعلامات ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، (القسم الثالث ، فبراير ١٩٦٠م – يناير ١٩٦٢م) ، ص ٣٣٤ .

(٥) للتفاصيل عن الدعاية بين الدولتين ، يُنظر :

- Adhid, Islam Dawisha: The U.A.R. and the Arab East 1958- 1963, A Foreign Policy Analysis, «ph.D. Un. Of London, Dept of International Relations, London, School of Economic, Jul 1974», pp. 198-214; Ibid., Vol. 12, pp. 80-135.

المجـتمعون ضـعف المعسكر العربى دبلوماسيا وسياسـيا منذ عام ١٩٥٥م ، وزادته الخلافـات العربية / العربية ضعفا ، فاستغل الملك حسين هذه المناسبة لتحسين علاقاته بعـبد الناصـر ، وكمـا يذكر البعض فإن ثورة وغضب حسين على مقتل المجالى قد تلاشت ، وبدأ الملك حسين يعتقد اعتقادا جازما بأن عبد الناصر لم يكن شخصيا طرفا فى تلك القضية(١) .

وبـناء عـلى ذلك ، أرسل الملك حسين برسالة إلى عبد الناصر بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط) عام ١٩٦١م ، ركز فيها على تصفية الخلافات العربية ، والتفرغ لحل القضايا العربـية ، ومـا يحـيق بالأمة من أخطار ، مؤكدا على أن عبد الناصر وحسينا وكل مسـئول عـربى هـم خُدَّام هذه الأمة العظيمة ، وأن ما يربط الأمة من مصلحة عليا وأهداف مشتركة ، يجب أن يبقى ويكون أقوى من أسباب الخلاف والقطيعة(٢) .

وقـد رد عليه عبد الناصر برسالة بتاريخ ١٣ مارس (آذار) عام ١٩٦١م ، معتبرا رسالة الحسين مفاجأة سـعيدة ، ثم أوضح له أسـباب الخلافات العربية، وأنها لم تكن خلافـات لأمور سطحية ، وإنما كانت بسبب تناقضات موجودة فى الوطن العربى ، ثم أوضـح ضرورة الوقوف فى وجه إسرائيل ، وهذا يتطلب أمة عربية متحدة ، تستطيع مواجهة خلافاتها بروح التسامح الأخوى(٣) .

وكانـت هاتـان الرسالتان خطوة على طريق التقدم فى العلاقات بين الدولتين ، تبعـتهما رسـالتان أُخريان ، الأولى من الملك حسين إلى عبد الناصر بتاريخ ٢ إبريل (نيسـان) عام ١٩٦١م ، والثانية ردا من عبد الناصر على رسالة حسين بتاريخ ٧ مايو (آيار) عام ١٩٦١م ، ولم يختلف مضمون الرسالتين عن الرسالتين السابقتين(٤) .

---

(1) Dan, Uriel: King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism, Jordan 1955- 1967, «Oxford Un. Press, 1989», p. 115.

(٢) يُنظر فى الرسالة فى ملحق الأهرام ، الجمعة ٣١ مارس ١٩٦١م ، « بصراحة لمحمد حسنين هيكل » .

(٣) نفس المرجع .

(٤) يُنظر نص الرسالتين ، فى : وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 21, pp. 517- 524.

ومهما يكن من أمر فإن تناقضات فى سياسة الدولتين كانت قد ظهرت قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية ، مما يعنى أن ظروفا غير طبيعية كانت تتحكم فى العلاقة بين الدولتين ، وأن هذا التوتر كان يصب فى مصلحة إسرائيل ، التى كانت تدرك أن التقارب المصرى / الأردنى فى ظل الوحدة يعنى خطرا على إسرائيل وتهديدا لأمنها ، وقد اختلفت وجهة نظر السفير البريطانى فى تل أبيب مع وجهة نظر ساسة إسرائيل فى هذا الشأن ، فبينما رأى السفير أن تقارب الأردن مع ج.ع.م. ميزة لإسرائيل P لأن ذلك لن يغيّر شيئا من السياسة الأردنية تجاه إسرائيل ، رأى بعض ساسة إسرائيل – وعلى رأسهم جولدا مائير G. Meir – أن هناك شكا وتخوفًا بشأن « إذا ما كان الملك حسين سوف يذهب فى أى اتجاه مع الرئيس عبد الناصر »[1] ، وهذا يعنى تخوفها من تقارب الأردن مع ج.ع.م. ، لأنها تدرك موقف عبد الناصر من إسرائيل ، وتخشى من أن يسلك الملك حسين نفس المسلك .

موقف الأردن من الانفصال

لقد سبقت الإشارة إلى وجود اتهامات متبادلة بين الدولتين ، بشأن تدخل كل منهما فى شئون الأخرى ، ومحاولة إحداث انقلاب داخلى ، وقد تأثر الموقف الأردنى من الانفصال بالأحداث السابقة ، ومن أهمها تلك الأحداث التى حدثت فى الأردن فى إبريل (نيسان) عام ١٩٥٧م ، حيث وقع تمرد داخل الأردن اتهم فيه سليمان النابلسى وأبو نوَّار كزعماء للمؤامرة ، وقد اتهم الملك حسين مصر وسوريا بالضلوع فيها ، كما ادعى جلوب Glubb فى مذكراته أن الضباط الذين تورطوا فى الانقلاب كانوا يحصلون على رواتب شهرية من المصريين[2] .

وبناءً على ما سبق ، فإن الأردن قد تحركت ضد دولة الوحدة ، من منطلق تدخل مصر فى السياسة الأردنية ، ومحاولة رد الضربة إلى عبد الناصر ، وقد ألمح رئيس وزراء الأردن هزَّاع المجالى إلى أن الأردن سوف تستمر فى مهاجمة ج.ع.م. حتى تتوقف

---

(1) Ibid., Confidential, from Tel Aviv to F.O., Mar 15, 1961, No. 1073/61, p. 501.

(2) Nevo: Op. Cit., pp. 172- 173.

الأخيرة عن الهجوم عليها ، وأن الحكومة الأردنية ليست لديها النية للتدخل فى سوريا، وإنما فى مجال الدفاع عن نفسها « سوف تضرب عبد الناصر فى أكثر المواضع ألما بالنسبه له » ، وأن الحكومة الأردنية سوف تستمر فى دعايتها فى سوريا[١] ، وبذلك يتضح أن فكرة ضرب عبد الناصر فى سوريا لم تكن وليدة عام ١٩٦١م ، وإنما تعود إلى وقت قيام الوحدة .

وقد نشطت الدعاية الأردنية فى سوريا ضد حكم عبد الناصر ، مرتكزة على محاور ثلاثة ، أولها الدعاية ضد الحكم العسكرى المصرى « الظالم الذى يقبض على سوريا بيد من حديد ، مستخدما رجالا مستهترين كأداة لتحقيق ذلك » ، وثانيها الدعاية بأن عبد الناصر أصبح – دون أن يدرى – أداة للشيوعية . أما المحور الأخير فهو التأكيد على أن خط القومية العربية الحقيقى بدأ منذ قيام الثورة العربية ، وليس «بادعاءات عبد الناصر الكاذبة» ، منذ ثورة عام ١٩٥٢م المصرية ، وقد وجهت الأردن دعايتها للشعب السورى ، مؤكدة على أن سوريا دولة عربية مستقلة ، وأن هناك ظلما يقع على السوريين ، وركزت الدعاية على فكرة سوريا للسوريين ، وكانت الدعاية تردد عبارة مأثورة موجهة إلى الشعب السورى تقول : « تذكروا أنكم عرب ، تذكروا أنكم أحرار »[٢] .

ونتيجة لبعض الأعمال التخريبية التى وقعت فى سوريا ، اتهم المصريون الملحق العسكرى الأردنى فى دمشق بتدبير تلك الأعمال[٣] ، كما نشرت بعض الصحف المصرية أنباء عن وجود مؤامرة أردنية ضد ج.ع.م. ، وأن السلطات السورية قبضت على اثنين من المتسللين إلى الحدود السورية فى ١١ مارس (آذار) عام ١٩٦١م وهما يحملان متفجرات ، ومعهما مبلغ من الدنانير الأردنية ، وقررا أنهما تلقيا تعليمات من

---

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., No. 576, Jul 13, 1960, p. 104.

(2) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Nov 14, 1960, p. 133.

(3) Ibid., Top Secret, from Cairo to F.O., No. 927, Dec 1, 1960, p. 134.

ضابط أردنى واثنين من السوريين يعيشان فى الأردن لإلقاء القنابل فى منطقة السويداء أثناء زيارة الرئيس عبد الناصر لها، وكمكافأة لهما وعُدا بآلاف من الدنانير لكل منهما، وأن يتم تعيينهما فى رتبة شاويش فى الجيش الأردنى[1] .

وفى المقابل ، تم القبض على أحد المصريين العاملين فى السفارة المصرية بعمّان ، ومحاولة إرغامه على الاعتراف بتورط السفارة المصرية فى الانفجارات التى أدت إلى مقتل رئيس الوزراء هزّاع المجالى[2] .

ومما سبق يتضح أن الطرفين قد أُتهما بالاشتراك فى أعمال تخريبية داخل حدود كل منهما ، كما كانت سفارتا البلدين موضع الشبهات عند وقوع أى حادث من الحوادث .

وتأسيسا على ما سبق ، يمكن القول أن المملكة الأردنية لم تكن بمنأى عن التدخل فى شئون ج.ع.م. ، وبمعنى آخر لم تكن بمنأى عن إفساد الوحدة والقضاء عليها ، وقد ذكر البعض أن اتصالات فعلية قد جرت بين الأردن وبعض السوريين للتخلص من الوحدة ، بدأت باتصال بين وزير الدفاع والداخلية الأردنى وصفى ميرزا ورقيب سورى يُدعى : شريف سلاّم ، الذى قام بالاتصال ببعض السوريين عقب اتصاله بالوزير الأردنى ، وقد حصل وصفى ميرزا على تفويض من الملك حسين بشأن إجراء اتصالات مع زعماء الانقلاب، وتقديم العون المادى لهم ، ولكن لم يُقدَّر لهذه الحركة أن تقوم[*] .

الموقف الأردنى من الانفصال منفردا

فى البداية ، يجب أن نطرح سؤالا ، وهو : هل كانت هناك اتصالات بين الأردن وبين الانفصاليين قبيل وقوع الانفصال ؟ ، أو هل قدمت الحكومة الأردنية أى دعم مادى للانفصاليين قبيل القيام بحركتهم ؟

(1) Ibid., Cofidential, British Diplomatic Mission, Cairo to F.O., Mar 14, 1961, No. 1036/61, p. 499.
(2) Ibid., p. 499.

(*) للتفاصيل عن هذه الحركة ، يُنظر : صلاح نصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٥ – ١٩١ .

وللإجابة عن ذلك نذكر أن الروايات قد تضاربت فى هذا الشأن ، بين مؤكد لوجود اتصالات بين الطرفين ، وبين منكر لها ، فيذكر البعض أن حيدر الكزبرى تقابل مع الملك حسين وأطلعه على حقيقة الحركة ، وأن هذه الاتصالات تمت بتكليف من عبد الكريم النحلاوى ، وأن الكزبرى أبلغ المسئولين الأردنيين بساعة الصفر ، كما أبدى المسئولون فى الأردن استعدادهم لوضع أى عدد من القوات تحت تصرف قادة الانقلاب[١] ، وحينما نجح الانقلاب ، وبعد القبض على حيدر الكزبرى ، قام أحد الضباط (العقيد شرف زعبلاوى) بتقديم تقرير يتهم فيه حيدر الكزبرى بأنه قبض أموالا من ملك الأردن من أجل تحقيق الانفصال[٢] .

ويشير هيكل إلى أن عبد الناصر قد التقى فى يناير (كانون ثان) عام ١٩٦٣م بثلاثة من الضباط الذين اشتركوا فى الانفصال ، ومنهم (زهير عقل) الذى أوضح لعبد الناصر أن حيدر الكزبرى وفيصل سرى الحسينى قد تلقيا أموالا من الملك حسين، وقد قاموا بالتحقيق معهما[٣] .

أما من ينكر عدم وجود اتصالات بين قيادة الحركة الانفصالية ، وبين أى قوى خارجية عربية أو أجنبية ، فيوضح أن هذه الفكرة هى سورية بحتة ، وأنها قامت بسواعد نظيفة ، لم تفكر فى التآمر على قضية الوطن ، معللا ذلك بأن الحركة لو كانت استعانت بدولة أخرى لانكشف أمرها ، وتم القضاء عليها فى مهدها[٤] .

ويمكن التوفيق بين الرأيين بأن هناك فعلاً أموالاً دفعت من قِبل الحكومة الأردنية لبعض الأشخاص ، ولكن دون علم القيادة العليا لحركة الانفصال ، التى حينما علمت بأمر هذه الأموال لم تتوان فى القبض على الكزبرى والتحقيق معه .

---

(١) محمد حسنين هيكل ، ما الذى جرى فى سوريا، (سلسلة كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت.) ، ص ص ١٢٧ – ١٢٨ ، ممدوح رضا ، سوريا قبل حكم الأسد « مذكرات فى السياسة العربية » ، (دار العروبة للطباعة والنشر ، لبنان ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ١٥٢ .

(٢) أحمد غميِّض ، مرجع سابق ، ص ٨٠ ، أحمد حمروش ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٣) هيكل ، سنوات الغليان ، ص ص ٥٧٧ – ٥٨٢ .

(٤) د. سامى عصاصة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٨ – ٣٠٠ .

أما عن مدى اتصال الملك حسين بالانفصاليين ، فيذكر السفير البريطانى فى عمّان أن السفير الأمريكى التقى بالملك حسين مساء يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م ، وأن السفير الأمريكى ذكر أن الملك حسين لم يكن لديه أية معلومات عن طبيعة الحركة ، ولا الأشخاص المتورطين فيها[١] ، كما يذكر البعض أن الملك حسين بدا – حينما حدث الانفصال ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) – وكأنه غير عابئ ، مثله مثل أى شخص خارج دائرة المؤامرة وغير متورط فيها بصورة مباشرة[٢] ، وهذا يدل على عدم حدوث اتصال مسبق بين الملك حسين وبين قادة الحركة ، وأنه لم يكن على علم بموعد هذا الانقلاب ، ولم يكن متورطا فيه بصورة مباشرة ، وذلك – أيضا – لأن الملك حسين لم تكن لديه الإمكانات والوسائل التى يستطيع أن يدير بها مثل هذا الأمر الخطير .

ولكن الثابت أن الملك حسين قد اتصل بقادة الانفصال عقب وقوعه ، فيذكر السفير البريطانى فى عمّان أنه أرسل سكرتير أول السفارة لمقابلة السكرتير الخاص للملك حسين ، للتباحث بشأن الانفصال ، وقد حضر اللقاء الملك حسين ، وقد ذكر السكرتير الأول للسفير أن الملك قد انسحب من الاجتماع ، ثم عاد بعد بضع دقائق ليخبره أنه تحدث الآن مع قادة الثورة الذين أكدوا له رغبتهم فى إقامة علاقات طيبة مع جميع الدول العربية ، وقال : إنهم كانوا ممتنين له لأنه كان أول من اتصل بهم[٣] .

وقد أرسل الملك حسين وسيطا إلى حيدر الكزبرى ، يعلمه أن الملك حسين وضع جميع إمكاناته الإذاعية وتأييده المطلق لخدمة الثورة[٤] ، كما أرسل رسولا إلى سوريا للتأكد من أن الوضع فى سوريا أصبح تحت سيطرتهم التامة ، وذكر الملك أنه « أُبلغ أن

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 784, p. 459.

(2) Dan: Op. Cit., p. 118.

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 789, p. 663.

(٤) صلاح نصر ، مذكرات ، جـ٢ ، ص ص ٢١٨ – ٢١٩ .

حظـر التجوال curfew قد توقف تماما »[١] ، وهذا دلالة على سيطرة الانقلابيين على الأوضاع فى سوريا .

ومن المعلوم أن الملك حسين قد أبدى اهتماما بالغا بالحركة فور وقوعها ، حتى أنه عقـد اجـتماعا فى ٢٩ سـبتمبر (أيلول) ضم العديد من الشخصيات ، منهم بهجت التـلهونى رئيس الوزراء ، بالإضافة إلى رئيس الديوان وأعضاء البرلمان ، وقائد القوات المسـلحة ، وبعـد الاجـتماع أعلن رئيس الوزراء : « أن جلالة الملك أبدى عنايته واهتمامه التام للتقارير التى وصلت ، والخاصة بالثورة السعيدة فى سوريا » ، وأضاف : « إن الملـك والحكومـة والشعب الأردنى سعداء لرؤية الشقيقة سوريا وهى تستعيد وضـعها الحقيقى كقلب للعروبة ، ورائدة للقومية العربية الحقيقية » ، كما ذكر : أنه بناءً على تعليمات الملك فإن مجلس الوزراء قرر الاعتراف بالثورة الوطنية فى سـوريا ، وأنه سوف يرسل برقية تهنئة وتأييد إلى قيادة الثورة ورئيس الوزراء الجديد[٢] ، وبالفعل أرسل التلهونى برقيتين ، الأولى إلى مجلس قيادة الثورة السورية فى ٢٩ سبتمبر (أيلول)، والثانية إلى د. مأمون الكزبرى رئيس وزراء سوريا ، اعترفت فيها الأردن بحكومته[٣] .

وفـيما يخص قضية اعتراف المملكة الأردنية بالحكومة الانفصالية فى سوريا ، فإن السفير البريطانى فى عمّان كان قد توقع اعترافا سريعا من قِبل الأردن بالوضع الجيد فى سـوريا ، معللا ذلك بأن الطائرات الأردنية تمر بالأجواء السورية ، وأن هناك مصلحة أردنـية فى هذا الاعتراف[٤] . وكما توقع السفير البريطانى ، فإن الأردن كانت الدولة الأولى الـتى اعترفت بالنظام الجديد فى سوريا بعد دقائق معدودة من تشكيل الحكومة

---

(1) Foreign Relation of the U.S.: Vol. XVII, 1961- 1963, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Telegram from Amman to F.O., Sep 29, 1961, p. 423.

(3) Ibid., pp. 423- 424.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 786, p. 461.

السورية[١] ، وحينما تحدث السفير البريطانى مع رئيس وزراء الأردن بشأن هذا الاعتراف السريع ، أخبره التلهونى أنه كان على اتصال بالحكومة السورية الجديدة ، وأنه مقتنع بأنهم مسيطرون تماما على الأوضاع[٢] .

كما التقى السفير البريطانى بالملك حسين ، وتبادل معه الحديث بشأن قضية اعتراف الأردن السريع بالحكومة السورية ، وأنه أمر خطير وسابق لأوانه ، ولكن الملك – كما يذكر السفير – كان قد أخبر المستشار الجوى بالسفارة البريطانية أنه ليس لدى عبد الناصر أى سند قانونى أو شرعى للشكوى ، لأن الملك حسين لم يتصرف بأسرع مما فعل عبد الناصر نفسه فى انفصال الاتحاد الهاشمى (العربى)[٣] ، حينما اعترف بالثورة العراقية عام ١٩٥٨م .

وعن رد فعل مصر تجاه اعتراف الأردن بالحكومة الانفصالية فى سوريا ، فإن رئيس وزراء الأردن نفسه كان يتوقع أن تقدم مصر على قطع علاقاتها مع الأردن ، ولما لم تفعل – حتى ٣٠ سبتمبر (أيلول) – عبَّر عن سعادته لذلك[٤] ، وحدث ما توقعه رئيس وزراء الأردن ، إذ أصدر عبد الناصر قرارا فى أول أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م ، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع كل من حكومتى الأردن وتركيا ، وبررت مصر هذا القرار بسبب الموقف العدائى الذى اتخذته كل منهما تجاه ج.ع.م. والقومية العربية[٥] .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، وهو : لماذا قطعت مصر علاقاتها بالأردن وتركيا؟، ألم تعترف مصر نفسها بالحكومة الانفصالية ؟

وللإجابة على ذلك نقول ، أن مصر قد اعترفت فعلا بالحكومة الانفصالية فى ٥ أكتوبر (تشرين أول)، ولكن هناك فارق بين اعتراف عبد الناصر واعتراف الأردن ،

---

(1) Dan: Op. Cit., p. 119; Nevo: Op. Cit., p. 174.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 806, p. 469.

(3) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 806, p. 469.

(٥) الأهرام ، الاثنين ٢ أكتوبر ١٩٦١ ، ص١ ، الكتاب السنوى لعام ١٩٦٢ ، ص ٣٨٦.

فاعتراف الأردن بالانفصال كان هدفه طعن عبد الناصر ، والقضاء على الوحدة ، وإضعاف مركز مصر (ج.ع.م.) ، أما اعتراف عبد الناصر فكان هدفه لم الشمل العربى ، فحينما اعترف عبد الناصر بانفصال سوريا قال « إننى أرى بأنه ليس من المهم فى الوقت الحاضر أن تبقى سوريا جزءا من ج.ع.م. ، بقدر ما هو مهم الآن أن تبقى سوريا عربية ، وأن يبقى الشعب العربى هو الحاكم فى سوريا »[١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الموقف الأردنى لم يتوقف عند حد الاعتراف ، بل تعداه إلى إصدار البيانات من قِبل المسئولين الأردنيين ، وعلى رأسهم الملك حسين ، الذى ألقى خطابا فى أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م ، كرَّس معظمه للثناء على الانقلاب وتأييده ، ومما قاله فى هذا الشأن « إن هذه الخطوة التى حدثت من جانب سوريا تعبير حقيقى للحرية ، للشهداء الذين أراقوا دماءهم ، هؤلاء الشهداء لم يقدموا أرواحهم وحياتهم من أجل بعض الأشخاص الذين يؤلهون أنفسهم ، رأينا فى سوريا معنى حقيقيًّا تجاه الوحدة العربية ، التى لم تقم على الخوف والإرهاب »[٢] ، وهو يعنى بذلك أن الهاشميين الذين قدموا أرواحهم من أجل سوريا منذ الثورة الكبرى ، لم يقدموها لكى يأتى عبد الناصر وأمثاله ليتصرفوا فيها كآلهة .

وقد استمرت هذه النبرة هى المسيطرة على تصريحات الملك حسين لفترة طويلة ، فحينما خطب فى أعضاء مجلس الأردنيين الذين اجتمع بهم فى الديوان الملكى ، حذر من محاولات التخريب فى الأردن، وقال إنه يهتم بسوريا واستقرارها ، وليس له أطماع فيها ، « ولكن يهمنى أن تكون سوريا قوية ، لأن آبائى وأجدادى خدموا حتى تكون سوريا عربية ، وحتى تكون سوريا حرة بكل معانى الكلمة »[٣] .

---

(١) بوداغوفا ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Oct 2, 1961, No. 813, p. 476.

(٣) مجلة الوقائع العربية ، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة ، الجامعة الأمريكية فى بيروت (كانون الثانى / يناير) – (آذار/ مارس) ١٩٦٣م ، كلمة الملك حسين فى مجلس الأردنيين بشأن سوريا فى ١٩٦٣/١/١٢م ، ص ص ١ – ٢ .

ومما لا شك فيه ، أن ابتهاج الأردن بالانفصال كان لــه ما يبرره، حيث كان لهذا الحدث نتائجه الطيبة بالنسبة للسياسة الأردنية ، ومن بين هذه النتائج :

١ – أن الانقلاب أنهى الشعور بالعزلة والتطويق الذى فُرض على الأردن ، وخاصة من جانب حدودها مع سوريا منذ عام ١٩٥٨م .

٢ – أن الانقلاب قلل من آثار أنصار عبد الناصر فى الأردن .

٣ – قضى الانقلاب على أسطورة قيادة عبد الناصر للوطنية الراديكالية (المتطرفة).

٤ – قضـــى الانقـــلاب على قاعدة ج.ع.م. ونشاطاتها التخريبية والدعائية ضد الأردن .

٥ – فــتح الانقـــلاب الباب أمام التعاون السورى / الأردنى ، وربما العراقى ، فى المجالات الاقتصادية ، لتكون حلا لإنعاش الاقتصاد الأردنى المتهرئ .

٦ – أن الانقـــلاب قضـــى أيضا على المركزية والدولة الموحدة كنموذج للوحدة العربـــية ، وفتح الطريق لترتيبات فيدرالية أو كونفيدرالية ، من الممكن أن تشارك فيها الأردن بدون أى تغييرات ثورية .

٧ – وأخـــيرا ، فإن الانفصال من الممكن أن يُحيى فكرة سوريا الكبرى ، أو فكرة الهلال الخصيب ، كحل لمستقبل الأردن السياسى[١] .

و لم يقتصـــر تأيـــيد الانفصـــال على بيانات وتصريحات المسئولين فى الأردن ، بل ســـخرت الحكومـــة الأردنية أيضا راديو عمّان من أجل تدعيم الانفصال ، ومساندة القائمين عليه ، فمنذ الساعات الأولى من يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) أعاد راديو عمّان – كـــنوع مـــن الدعايـــة – البيانات التى أذاعها الانقلابيون فى دمشق ، باستثناء البيان التاسع[٢] ، كما أشار الراديو إلى أن الملك حسين قد زار الإذاعة ، للوقوف بنفسه على تطـــورات الحـــركة الانفصـــالية ، وأنه أصدر تعليماته بأن تضع الإذاعة برامجها تحت

(1) Ibid., Apindex, Secret, from British Embassy in Amman to F.O., Oct 14, 1961, p. 427.
(2) Dan: Op. Cit., pp. 118 – 119.

تصرف إذاعة الحركة الانفصالية فى دمشق[١] ، وكتأييد على ضرورة مساندة الانقلاب عن طريق الإذاعة ، أذاع الملك حسين بنفسه بيانا أعلن فيه تأييده المطلق للحركة الانفصالية[٢] ، وقد أعلن راديو عمّان فرحته الكبرى بهذه الحركة ، وقال الراديو: « إن حلقات عُقدت لرقصة الدبكة فى الأردن ، ابتهاجا بنجاح هذه الحركة التى أيدها الملك حسين »[٣] .

ويأتى الدور الأخطر فى هذه القضية ، وهو التحرك العسكرى الأردنى على طول الحدود مع سوريا ، حيث تسلمت وزارة الخارجية البريطانية معلومات موثقة بأن وحدات من الجيش الأردنى قد تحركت جهة الشمال تجاه الحدود السورية ، وأن السفير البريطانى تلقى معلومات من الجيش الأردنى مفادها أن قوات قد تحركت صوب الحدود مع سوريا ،وأن مهمتها دفاعية بحتة ، وأن هذا التحرك هو إجراء وقائى ، كما ذُكر أن مقاتلتين أردنيتين تقومان بدورية كل ساعتين بطول الحدود الأردنية ، وأن القوات الجوية أعلنت درجة الاستعداد الدائم من الفجر حتى المساء[٤] ، وقد اعترف بذلك الملك حسين للسفير الأمريكى فى عمّان ماكومبر Macomber ، الذى أكد أنه أمر بتحريك قواته كإجراء وقائى ، وأنها إذا تحركت فسوف تكون مهمتها دفاعية بحتة، ومن أجل أغراض الأمن فقط ، وطلب من السفير إمداده بأية معلومات قد تصل إليه بشأن تطورات الوضع فى سوريا[٥] .

وكانت وجهة نظر الملك حسين فى هذه التحركات ، إنها تخدم الثورة السورية ، وأن هذه التحركات تعتبر رادعا مهما للقوات المصرية ، إذا حاول عبد الناصر استخدام

(١) الأهرام ، السبت ٣٠ سبتمبر ١٩٦١م ، ص ١ .

(٢) محمد فرج ، النضال الشعبى فى سوريا وقصة الانقلابات ، (كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د. ت.) ، ص ٩٩ .

(٣) الأهرام ، السبت ١ أكتوبر ١٩٦١م ، ص ٣ .

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, p. 457.

(5) Ibid., from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 784, p. 459.

القــوة لإعــادة الوحدة مرة أخرى ، وأنه كان يعتقد أن هذا العمل يحظى بتقدير من الحكومــة الســورية ، كما كان على استعداد لتقديم المساعدة للسوريين إذا استدعت الضــرورة ذلــك[١] ، ولكن تقديرات الملك حسين لم تكن صحيحة ، إذ سرعان ما طالبــت الحكومة السورية نظيرتها الأردنية بسحب القوات الأردنية بعيدا عن الحدود ، وأن هذا المطلب أسعد بعض أعضاء الحكومة الأردنية ، الذين رأوا أن تحركات القوات الأردنية كان أمرا غير ضرورى[٢] .

وهنا يفرض سؤال نفسه، هل كان سيتدخل الملك حسين فعلا عسكريا ضد مصر، إذا ما حاول عبد الناصر استعادة الوحدة بالقوة ؟

وللإجابة على ذلك ، نوضح أولا أن عبد الناصر لم تكن لديه النية لاستخدام القوة من أجل استعادة الوحدة ، والدليل على ذلك تعليماته للقوات التى هبطت فى اللاذقية، وأمــرها بعدم الاشتباك مع القوات السورية ، وكذلك البيان الذى ألقاه عقب اعترافه بالحكومة الانفصالية فى سوريا ، فهذه دلائل تشير إلى أنه لم تكن لديه النية فى التدخل عســكريا ، ولكــن مع افتراض حدوث ذلك الأمر ، فإن الملك حسين أوضح للسفير الأمــريكى فى عمَّان ماكومبر أن هدفه الرئيسى هو الحفاظ على الاستقرار ، « ولكن لــيكن معلومــا أنه إذا هوجمت الحكومة السورية الآن من عبد الناصر ، فإن الأردن ســتكون معهــم »[٣] ، وفى لقــاء آخر بينهما ، ذكر الملك حسين أنه خلال اتصاله بالحكومــة السورية أخبروه بأنهم على اقتناع بقدراتهم للتعامل مع أى جهود عسكرية مضادة من قِبل عبد الناصر ، دون مساعدة أردنية أو خارجية أخرى ، وقد أكد الملك للسفير على أنه إذا لم تكن هذه الحالة كافية ، فإن الأردن والعراق – وربما تركيا أيضا – سوف تقوم بإرسال قوات لمساعدة النظام السورى[٤] .

---

(1) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 833, p. 484.
(2) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 802, p. 467; from Amman to F.O., Oct 14, 1961, p. 425.
(3) Ibid., from Amman to F.O. Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.
(4) FRUS, Vol. XVII. 1961- 1963, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Oct 4, 1961, p. 282.

ومع كل ما حدث من تأييد واستعداد أردنى لمساعدة النظام السورى الجديد ، هل عـــادت الأمور إلى طبيعتها بين الدولتين (سوريا والأردن) ؟ ، وهل نجح الأردن فى الحصول على ثقة الانقلابيين ؟

لقـــد ذكرت آنفا أن الأردن اعترفت بالحكومة السورية الجديدة ، وبديهى أن هذا الاعتراف لابد أن يتبعه خطوات عملية ، من أجل إعادة العلاقات الطبيعية بين البلدين، مـــن فتح للحدود ،وتبادل للسفراء ، وقد أقدمت الأردن على هذه الخطوات بالفعل ، حيـــث صـــرح مصـــدر رسمـــى أردنى لإحدى وكالات الإعلام ، أن الأردن سيلغى إجـــراءات تأشيرات الدخول بالنسبة للسوريين ، بحيث يستطيعون دخول الأردن دون تأشـــيرة دخول ، كما صرح بأن الحكومة الأردنية ستتبادل قريبا السفراء مع الحكومة السورية الجديدة[١]، كما أذاع راديو عمَّان يوم ١١ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م نبأ استئناف سير القطارات بين عمَّان ودمشق[٢] .

وإمعانا فى التقارب مع سوريا ، نقل مبعوث الملك حسين إلى قادة الانفصال رغبة الملـــك فى قيام اتحاد بين سوريا والأردن ، ينضم إليه مستقبلا العراق[٣] ، فى إشارة إلى إحياء ما يُسمى بالهلال الخصيب ، وقد أكد الملك حسين على ذلك أثناء لقائه بالسفير الـــبريطانى حيث أوضح لـــه أن السياسيين السوريين شغوفون لعقد علاقات وثيقة مع الأردن، وأن هناك مباحثات جادة من أجل عقد وحدة فيدرالية بين الأردن وسوريا[٤]، ولكن كانت هذه المحاولات مجرد اجتهادات من الملك حسين الذى لم يستطع الحصول عـــلى ثقة الانفصاليين ، الذين ارتابوا فى الموقف الأردنى ، فحينما أُعلن فى سوريا عن بـــدء الانـــتخابات الرئاســـية ، وعلى الرغم من إعلان الأردن عدم تدخلها فى تلك الانـــتخابات ، إلا أن السلطات السورية قامت بإغلاق الحدود مع الأردن ، وكذلك

---

(١) الأهرام ، السبت ١ أكتوبر ١٩٦١ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام ، الخميس ١٢ أكتوبر ١٩٦١م ، ص ١ .

(٣) ممدوح رضا ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 833, p. 484.

أغلقت حدودها مع لبنان ، وهذا يبدو كدليل على شك الجانب السورى ، بأن تدخلات الأردن فى الانتخابات كانت متوقعة ، كما أدركت الحكومة السورية أن المساعدات والتأييد الأردنى سوف يُشعرها بالحرج فى قضية العداء للناصرية ، ولذلك بدأت تتعامل مع الأردن بشىء من الفتور ، وذلك لإثبات استقلاليتها - الحكومة السورية - بعيدا عن النظام الأردنى(١) .

ويشير البعض إلى أن العلاقات الأردنية / السورية عقب الانفصال قد شابها الفتور، فيذكر السفير البريطانى فى عمَّان ، والذى كان على اتصال شبه دائم بالملك حسين إبان الأزمة «أنه من الصعب أن نصف العلاقات السورية / الأردنية بأنها ودية»(٢) .

هذا عن التأييد الأردنى اللامحدود للانقلابيين ، والذى وصل إلى حد استعداده للتشابك مع القوات المصرية عسكريا ، إذا حاول عبد الناصر التدخل بالقوة لاستعادة الوحدة ، فماذا عن رد الفعل المصرى تجاه الموقف الأردنى ؟ ، وبمعنى آخر ، ما أثر الموقف على العلاقات المصرية / الأردنية ؟

ذكرت فيما سبق أن العلاقات الأردنية / المصرية قبيل الانفصال كانت قد تحسنت نوعا ، وخاصة فى الفترة ما بين فبراير (شباط) حتى يونيه (حزيران) عام ١٩٦١م ، وأن الذى بدأ بهذا التقارب هو الملك حسين ، ولكن لا أدرى هل جاءت تلك الخطوة من الملك حسين كنوع من التمويه على ما كان يضمره للوحدة المصرية / السورية ؟، أم أن الأحداث هى التى فرضت نفسها بعد ذلك على الموقف الأردنى ؟ ، وإن كنت أرى أن العلاقة بين البلدين - وإن كان ظاهرها التقارب - إلا أن كلا الطرفين لم يكن مخلصا تمام الإخلاص فى ذلك ، حيث كان كل طرف يضمر للآخر العداء ، منتهزا أقرب فرصة للانقضاض عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة لموقف الأردن من الانفصال ، ذلك الموقف الذى أعاد العلاقات بين الطرفين إلى ما كانت عليه قبل فبراير (شباط

(1) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Des 2, 1961, p. 436.

(2) Ibid., Vol. 13, 1962- 1963, Confidential, from Amman to F.O., Jan 20, 1962, No. 1037/62, p. 133.

عــام ١٩٦١م ، حيــث عادت الهجمات الصحفية والإعلامية المتبادلة بين الدولتين ، وكان ذلك يتم بإيعاز من عبد الناصر والملك حسين .

فحينما ألقى عبد الناصر خطابه الأول عقب الانفصال فى ٢٩ سبتمبر (أيلول) شن هجومــه عــلى الملك حسين ورئيس وزرائه بهجت التلهونى ، حيث ذكر أن الحركة الانفصــالية هــى حركة استعمارية ، قام بها عملاء الاستعمار ، كما أيدها الاستعمار وأعوانــه ، وقــال : «إن أول تهنــئة وتهليل كان من الملك حسين ومن التلهونى وده بيكشف الحركة»[١] ، أى أن مجرد اعتراف حسين – وهو من أعوان الغرب – بالحركة يعنى أنها تابعة للاستعمار ، كما ألقى عبد الناصر خطابا آخر فى ديسمبر (كانون أول) عــام ١٩٦١م ، أوضـــح فيه أن الملك حسين كان قد هاجم عبد الناصــر وفراعنة المصــريين ، وأن عــبد الناصــر لم يرد ، ولكن الملك حسين تلقى فيضا من الرسائل الساخطة من الدول العربية[٢] .

وعــلى جانب آخر ، شنت الصحف المصرية هجوما مباشرا على الملك حسين ، مــتهمة إيــاه بالذهاب إلى لندن لمطالبة الحكومة البريطانية بدعم الحكومات الأردنية والســعودية والســورية فى موقفها ضد ج.ع.م.[٣] ، ويبدو أن الموقف المصرى عقب الانفصال لم يكن مهيئا لاتخاذ تدابير عدائية قوية ضد المملكة الأردنية ، بسبب الصدمة الــتى تعرضت لها الوحدة ، وبسبب المشاكل التى تعرض لها عبد الناصر آنذاك ، على الــرغم من ادعاء الملك حسين للسفير الأمريكى فى عمّان بأنه تلقى تقارير من القاهرة تفــيد بأن فرقا تخريبية سوف تصل إلى الأراضى السورية والأردنية ، وأنه لذلك اتخذ الاحتياطات الأمنية الداخلية الضرورية لهذا الشأن[٤] .

---

(١) وزارة الإرشاد القومى ، مصدر سابق ، ص ٥٣٧ .

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Cairo to F.O., Des 24, 1961, No. 1236, pp. 487- 488.

(3) Ibid., from Cairo to FO., Des 9, 1961, No. 1194, p. 488.

(4) FRUS, Vol. XVII, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

ويذكر تقرير بريطاني أن الحكومة الأردنية قد تلقت تحذيرات بشأن ترتيبات مصرية كانت تُعد لتسريب بعض المجموعات عبر العقبة ، وأن عبد الناصر عزم على الإطاحة بالحكومة الأردنية ، وربما تصل مخططاته إلى محاولة اغتيال الملك حسين نفسه، وأن وزير خارجية السودان قد أبلغ أحد الوزراء الأردنيين بأن هناك معلومات تفيد بأن عبد الناصر يفكر فى عمل انقلاب فى الأردن[1] ، وهذا - فى رأيي - ادعاء غير مقبول، لأن الظروف لم تكن مواتية أو مهيأة لعبد الناصر للقيام بأى أعمال داخل الأردن أو غيرها فى ذلك الظرف الحرج .

هذا عن الهجوم المصرى الدعائى ضد الأردن والملك حسين ، أما الهجوم الأردنى على مصر ، فقد تمركز حول شخصية عبد الناصر ، فبعد أن أعلن الملك حسين عن وقف الدعاية الهجومية على عبد الناصر ، عاد وأمر باستمرارها لأنه - حسين - لم يجد سببا مقنعا لوقف هذه الدعاية ، وأن الهجوم على عبد الناصر - فى رأيه - شيء عادل وأمر طيب بالنسبة للملك ، وللهجوم على عبد الناصر استعان بفنيين أمريكيين للعمل فى الإذاعة الهاشمية، ولكن هؤلاء الفنيين نصحوه بوقف الحملة على عبد الناصر، لأنهم يواجهون مشكلة مع المعلنين عبر الإذاعة الأردنية ، لأنهم توقفوا عن الإعلان عن منتجاتهم بين المواد السياسية بسبب الهجوم على عبد الناصر[2] .

ولم تكن هذه آراء الفنيين فقط ، بل إن السفير البريطانى فى عمّان قد طلب من رئيس الوزراء الأردنى عدم إعادة الحرب الدعائية مع القاهرة ، وأفهمه أن الأردن تستطيع أن تقدم موقفا معتدلا ومتسامحا فى هذه الظروف[3] ، وعلى الرغم من موافقة رئيس الوزراء الأردنى على رأى السفير البريطانى .

---

(1) وثائق الخارجية البريطانية :

- Confidential, from British Embassy, Khartoum, to F.O., Jan 13, 1962, No. 10061, p. 120.

(2) Ibid., Confidential, from British Embassy, Amman, to F.O., Dec 29, 1962, No. 1031/2, p. 119.

(3) Ibid., Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1960, No. 806, pp. 470- 471.

إلا أن الملك حسين كان له رأى آخر ، فقد اعتقد أنه قد حقق انتصارا على عبد الناصر فى هذه القضية ، ولذلك استمر فى الهجوم عليه ، ففى خطاب ألقاه فى بداية عام ١٩٦٢م ، قال الملك حسين : « إن عبد الناصر هو الذى فرّق العرب ، عن طريق تحريض بعض الأطراف ضد بعضها الآخر » ، وقال الحسين : « إنه فخور بمقاومته للطغيان ، ومحاربته للفساد والظلم اللذين أوقعهما عبد الناصر على سوريا ، وأنه قد حان اليوم الذى سيهب فيه الشعب المصرى لمعاقبة الطغاة الذين يغامرون بأمواله وثرواته وتطلعات بلادهم »(١) .

تعاون الأردن مع الغرب فى الموقف من الانفصال

كان ولابد أن يتحرك الملك حسين على كافة المستويات العربية والأجنبية والقوى المحلية ، للمساندة فى إنجاح الانفصال ، حتى لا تقوم للوحدة قائمة مرة أخرى ، وذلك بحث تلك الأطراف على الاعتراف الفورى والسريع بالحكومة الانفصالية ، وكان الملك حسين قد تحدث مع جميع السفراء الموجودين فى بلاده ، ليحثهم على ضرورة اعتراف حكوماتهم بالوضع الجديد فى سوريا ، وأنه قد أظهر ابتهاجه باعتراف تركيا بالحكومة السورية الجديدة(٢) ، ولكن لم تكتمل فرحة الملك حسين بالانفصال ، إلا بعد أن تعترف القوى الكبرى - وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا - بالحكومة الانفصالية ، لذلك كان تركيز الملك حسين على هاتين الدولتين ، حيث كان على اتصال دائم بسفيريهما .

ففى أول اتصال بين السفارة البريطانية والملك حسين ، استدعى الملك السفير البريطانى ونظيره الأمريكى ، ليخبرهما بأمر الانقلاب، وأن الثوار قد سيطروا على

---

(1) Snow, Peter: Hussein «A Biography», (Barrie & Jenkins, London, 1st ed, 1972), p. 152,

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 743.

حلب ، وأنه يتوقع إعلان الحكومة الجديدة فى تلك الليلة - ٢٨ سبتمبر (أيلول) - وحثهما على ضرورة إعطاء الثوار التأييد والمساندة(١) ، ولكن الملك حسين أُفهم من خلال لقاء جمعه وسكرتير أول السفارة البريطانية وسكرتير الملك الخاص ، أن الحكومة البريطانية ترى أن أى عمل متسرع بخصوص الاعتراف بالحكومة الجديدة من قِبل بريطانيا ، سوف يكون صعبا بالنسبة لها(٢) .

وعلى الرغم من هذه الإشارة المبدئية من قِبل السفارة البريطانية ، إلا أن الملك حسين التقى بالسفير البريطانى فى عمّان وأخبره أنه يأمل أن تعترف حكومة جلالة الملكة بالحكومة السورية الجديدة فى أسرع وقت ممكن(٣) ، كما استدعى الملك السفير الأمريكى ماكومبر ، وتحدث معه عن أهمية اعتراف الحكومة الأمريكية بالحكومة السورية الجديدة(٤) ، وقد كانت حجة الملك حسين فى ذلك هى أن الاعتراف بالحكومة الانفصالية هو أفضل السبل للحفاظ على الاستقرار ، وأن الاعتراف بها من جانب الدولتين الكبيرتين سيجعل عبد الناصر يفكر كثيرا قبل أن يتخذ أية خطوة من أجل استعادة الأوضاع بالقوة .

ولكن السفير البريطانى أفهم الملك أنه لا يتوقع اعترافا سريعا من حكومته بالحكومة السورية ، وطلب السفير من حكومته إعطاءه الصلاحية بإخبار الملك بأية خطوة تتخذها بشأن الاعتراف(٥) .

---

(1) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 786, p. 640.
(2) Ibid., from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 789, pp. 463- 464.
(3) Ibid., Confidential, from Amman, to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 473.
(4) FRUS, Vol. XVII, Memorandum, from Rebert W. Komer the National Secutity Council Staff to the President's Special Assistant and Deputy Special Assistant for National Security Affairs, (Bundy and Rostow), Washington, Sep 30, 1961, p. 274.

(٥) وثائق الخارجية البريطانية :
- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 473.

أمـــا الإدارة الأمريكـــية ، فقـــد رأت أنه يجب عدم الإقدام على عمل شىء على المستوى الرسمى ، لأن عبد الناصر ربما يلجأ للوم كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، «وإنـــنا يجب أن نتجنب إتاحة هذه الفرصـــة له ، ويجب أن نتجنب أى اعتراف مبكر بالـــنظام الجديـــد »[١] ، ولكن حتى لا تفقد الولايات المتحدة ميزة أولوية التعامل مع النظام الجديد فى سوريا ، اقترحت إدارة شئون الأمن القومى الأمريكى إبلاغ الحكومة الانفصـــالية - عـــن طـــريق دولة ثالثة ، ربما تكون الأردن أو تركيا - بأن الحكومة الأمريكية ليست فى عداء مع تلك الحكومة[٢] .

وقد استمر الملك حسين فى اتصالاته بسفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا ، وحثهما عـــلى ضرورة اعتراف بلديهما بالنظام السورى الجديد ، حيث التقى وماكومبر وحثه مـــرة أخـــرى من أجل اعتراف حكومته بحكومة الانفصال ، وقال للسفير : إنه يفهم دائمـــا أن حكومـــة الولايات المتحدة تؤيد مبادئ حق تقرير المصير ، وأن هذا النظام السورى المستقل قد أيده الشعب السورى[٣] .

وفى لقاء جمع بين سفيرى البلدين وبين الملك حسين ، كرر الملك محاوراته السابقة معهمـــا ، مؤكـــدا لهمـــا أن لديه دلائل بأن السوريين غاضبون الآن ، لعدم اعتراف حكومتـــيهما بالوضـــع الجديد فى سوريا[٤] ، ويبدو أن السوريين لم يكونوا وحدهم الغاضـــبين من هذا الموقف ، حيث أظهر الملك حسين نفسه استياءه وانتقاده للموقفين الـــبريطانى والأمريكى ، فحينما التقى الملك حسين وسكرتير أول السفارة البريطانية فى ٤ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م أظهر لـــه سخطه ، وانتقد بحدة موقف الحكومة

---

(1) FRUS, Op. Cit., p. 273.

(2) Ibid., p. 273.

(3) Ibid., Telegram from Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Amman to F.O., Oct 4, 1961, p. 483.

البريطانية[١] ، كما التقى الملك حسين والسفير الأمريكى فى عمَّان ، وتحدث معه عن عدم رضائه بالموقف الأمريكى ، وعدم تحمسه تجاه الأحداث فى سوريا[٢] .

ونتيجة لاستياء الملك حسين من الموقفين الأمريكى والبريطانى ، نجد أن السفير البريطانى أرسل إلى حكومته ينصحها بضرورة الاعتراف بالحكومة السورية الجديدة ، بعد أن أفهمته حكومته بأنه من غير المحتمل أن يكون هناك قرار مبكر بالاعتراف بالحكومة السورية ، لأن الاعتراف فى الظروف الحالية لن يكون له تأثير رادع على عبد الناصر[٣] ، ولكن السفير عدَّد بعض الأسباب من أجل حث حكومته على الاعتراف ، من بينها أن الاعتراف سيؤدى إلى تقليل الصراع فى المنطقة ، كما سيؤدى إلى الاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط ، وأن هذه هى فرصتهم للتدخل من أجل إقرار الأمن والاستقرار فى المنطقة ، وأن تدخلهم سيكون له فوائده بشأن تقليل نفوذ عبد الناصر وقوته فى المنطقة ، وأن الاعتراف سيقوى مركز الملك حسين لأن وضعه صعب للغاية فى بلاده ، وأنه يشعر أنه منعزلٌ فى بلده ، لأن هناك بعض الأردنيين الموالين لعبد الناصر ، ويعتبرونه بطل العروبة[٤] .

وجدير بالذكر ، أن الملك حسين كان دائم الإلحاح على الدولتين للاعتراف بالنظام الجديد فى سوريا ، وذلك لأهداف بعضها معلن وبعضها غير معلن . أما الأهداف المعلنة فإنه كان يرى أن الاعتراف سيؤدى إلى بناء الثقة داخل سوريا نفسها، وأن ذلك سوف يساعد الحكومة السرية الجديدة[٥] ، وأن اعتراف الدولتين أيضا سيكون له تأثيره على الدول الأخرى ، لأنه حينما التقى حسين وسفراء الدول الأخرى

---

(1) Ibid., from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 831, p. 481.

(2) Ibid., from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.

(3) Ibid., from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 1104, p. 480; from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 831, p. 482.

(4) Ibid., pp. 481- 482.

(5) Ibid., p. 481.

أوضحوا له أن حكوماتهم سوف تتبع الموقف الأمريكي والبريطاني[١]، أي أن الاعتراف سوف يشجع الدول الأخرى على الاعتراف ، لأن تلك الدول علقت اعترافاتها على الاعتراف الأمريكي والبريطاني .

أما الهدف غير المعلن ، فهو كما ذكرت سابقا أن هذا الاعتراف سيكون مانعا أو رادعا أمام أية محاولة من قِبل مصر لاستعادة الوضع في سوريا بالقوة .

هذا عن محاولة الأردن الحصول للانفصاليين على اعتراف حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الحكومات الأخرى ، وقد جرى تنسيق من نوع آخر بين الملك حسين وبين سفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولكن عن طريق بعض النصائح التي قدمها سفيرا البلدين للملك حسين ، حتى لا يتورط في أمور قد تزيد الوضع سوءا في المنطقة ، ففي أول لقاء لهما بالملك ، أشارا عليه بأن يفكر جيدا قبل اتخاذ أية خطوات بشأن التدخل في سوريا ، وأن يدع السوريين يرتبون شئونهم الداخلية[٢] ، كما طلب السفير البريطاني من حكومته أن تتعاون مع نظيرتها الأمريكية في إقناع الملك حسين بعدم التدخل في الشئون السورية ، فذكر أنه يجب أن يكون هناك تدخل على مستوى أعلى عن طريق إرسال رسائل شخصية إلى الملك من قِبل رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الأمريكي[٣] .

وحينما بدأ الملك حسين في تحريك قواته تجاه الحدود السورية ، التقى به السفير الأمريكي - بناءً على تعليمات حكومته - وحذره بلهجة حازمة من التدخل في سوريا ، موضحا له أن هذه التدخلات من شأنها أن تجعل الحكومة الأمريكية تعيد النظر في سياستها تجاه الأردن ، إذا تصرف الملك بخلاف هذه النصيحة ، وأشار السفير في ذلك إلى المعونة التي تتسلمها الأردن من الولايات المتحدة ، كما أفهمه أنه يجب أن يستشير أصدقاءه قبل اتخاذ أية إجراءات[٤] .

---

(1) Ibid., Confidential, from Amman, to F.O., Oct 4, 1961, No. 833. p. 483.
(2) Snow: Op. Cit., p. 151.

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :
- Records of Jordan, Vol. 12, from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 801, p. 466.

(4) Ibid., p. 465.

وفى لقاء آخر ، جدد السفير تحذيره للملك بشأن التدخل فى سوريا ، موضحا له أن أية صدامات عسكرية ستترتب عليها عواقب وخيمة ، وإزاء هذه التحذيرات الأمريكية تعهد الملك بأن يكون على اتصال دائم بالسفير الأمريكى[١] ، ونتيجة لهذا التعهد ، ولشعور الملك بالخطر من جانب عبد الناصر ، طلب حسين التأييد والعون من بريطانيا ، حيث طلب منها التحرك لمساعدة أصدقائها فى الشرق الأوسط[٢] .

ومما سبق يتضح أن الحكومة الأردنية قد وضعت نصب عينيها ضرورة الحصول على اعتراف بريطانيا والولايات المتحدة بالنظام الجديد فى سوريا ، حتى تنحو الدول الأخرى نفس المنحى ، ومع تزايد الإلحاح الأردنى ، وأيضا نتيجة لوجود مصالح للدولتين فى المنطقة ، وحتى لا يكون الاتحاد السوفييتى هو الأسبق فى الاعتراف ، كانت الدولتان قد أعلنت اعترافهما بالنظام الجديد فى غضون شهر أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م ، وقد تبعتهما العديد من الدول ، فوصل عدد الدول التى اعترفت بالانفصال حتى ٢٦ أكتوبر (تشرين أول) حوالى ٥٩ دولة[٣] .

التقارب الأردنى / السعودى ضد ج. ع. م.

لم تكتف المملكة الأردنية بما قامت به من محاولات مع القوى الغربية من أجل مساندة الانفصال ، بل اتجهت للتعاون مع دولة عربية كبرى لها ثقلها فى الوطن العربى، لما تمثله من مركز دينى ومالى ، وهى المملكة العربية السعودية ، وعلى الرغم من وجود عداء تقليدى آنذاك بين الأسرتين الهاشمية والسعودية ، إلا أن تلاقى المصالح وكراهية النفوذ المصرى قد جمع بين الأسرتين ، لدرء المخاطر عن مملكتيهما ، وقد أخذ التقارب السعودى / الأردنى - على حساب الجانب المصرى - فى التصاعد بدءا من عام ١٩٥٨م ، وتحديدا عقب الثورة العراقية ، وفى عام ١٩٦٠م شهدت تلك العلاقات تقاربا واضحا ، حيث قام الملك حسين بزيارة إلى المملكة السعودية ، صحبه فيها

(1) Ibid., from Amman, to F.O., Sep 30, 1961, No. 808. p. 473.
(2) Ibid., from Cairo, to F.O., Des 9, 1961, No. 1194. p. 486.
(٣) بوداغوفا ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

رئيس الوزراء الأردنى ، ورئيس الديوان الملكى وعمه الشريف ناصر ، ودارت مباحثات بين الملكين فيما بين ٨ - ١٠ فبراير (شباط) ، وكان محور المباحثات حول حق الشعب الفلسطينى فى أرضه ، ومساندة كفاح شعب الجزائر ، وكذلك التأكيد على تعاون البلدين فى كافة المجالات(١) .

وفيما يخص علاقة البلدين بمصر وعبد الناصر ، فقد أوضح رئيس وزراء الأردن (هزَّاع المجالى) للسفير البريطانى فى عمَّان أن الملكين أكدا على معارضتهما للشيوعية ، وتباحثا فيما يمكن عمله من أجل أخذ الحيطة من عبد الناصر ، وجعله يقف فى المعسكر المعادى للشيوعية(٢) .

وفيما يخص موقف الدولتين من الوحدة ، فقد ثارت حولهما الشبهات فى الاشتراك سويا فى مساندة الانقلابيين ، خاصة وأن قضية الشيك الذى قيل إن الملك سعود قد أعطاه لعبد الحميد السرَّاج للقضاء على عبد الناصر كانت ماثلة فى الأذهان، حيث تردد أن الملك سعود قد دفع مبالغ هائلة من المال لبعض السياسيين السوريين وبعض القوات الصحراوية لتقويض الوحدة فى سوريا(٣) ، وأنه فى هذه المرة لم يتصل مباشرة بالانقلابيين ، وإنما دفع المال الملك حسين ليقوم هو بدوره بتسليمه للانقلابيين، لكى يخلى الملك سعود نفسه من أية مسئولية(٤) ، ويذكر البعض أن تلك المبالغ وصلت إلى سبعة ملايين ، وقيل اثنتا عشر مليونا من الجنيهات الإسترلينية(٥) .

ومهما يكن من أمر فى صحة هذه المعلومات من عدمها ، فالثابت أن هناك اتفاقا غير معلن بين سعود وحسين ، من أجل تقليص النفوذ المصرى ، والقضاء على الظاهرة الناصرية ، والتى كانت تمثل القومية العربية ، والتى انتشرت بين الشعوب العربية ،

---

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Amman to F.O., Feb 11, 1960, p. 151.

(2) Ibid., p. 152.

(٣) محمد حسنين هيكل ، عبد الناصر والعالم ، (دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢م) ، ص ٢٨١ .

(٤) محمد حسنين هيكل ، ما الذى جرى فى سوريا ، ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٥) هيكل ، عبد الناصر والعالم ، ص ٢٨١ .

والثابت أيضا أن الدولتين سارعتا بالاعتراف بالحكومة الانفصالية عقب إعلانها ، مما جعل البعض يذكر أن ذلك الاعتراف خلق وضعا معقدا لعبد الناصر بالنسبة لمعالجة الموقف فى سوريا[١] ، مما جعله يشن حملة شعواء على الملكين مع نهاية عام ١٩٦١م ، واصفا إياهما بأنهما « عميلا الإمبريالية الرجعية »[٢] ، مما زاد من تماسك الملكين حتى بعد أن خفت حدة الأزمة الانفصالية ، ففى أغسطس (آب) عام ١٩٦٢م اجتمع الملكان - سعود وحسين - فى الطائف فيما بين ٢٧ - ٢٩ أغسطس (آب) ، وبعد انتهاء المباحثات أصدرا بيانا مشتركا ، ومما جاء فيه التأكيد على الحقوق المقدسة للعرب فى فلسطين ، والعمل المشترك من أجل استعادة هذه الحقوق مهما تكلف ذلك من أموال ومخاطر ، وكذلك إعلان الوحدة العسكرية التامة بين جيشى البلدين وإنشاء قيادة عسكرية مشتركة فورا فى المملكتين ، بالإضافة إلى التعاون فى كافة المجالات ، والتعاون فى السياسة الخارجية ، مع ضرورة تسوية مشاكل الحدود بينهما ، كما عقدت الدولتان اتفاقا اقتصاديا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦٢م[٣] .

ولم تكتف الدولتان بذلك ، بل سعيا لضم عدد من الدول العربية لهذا الاتفاق ، حيث دعا البيان المشترك الدول العربية الأخرى للدخول فى هذا الاتفاق ، وقد صدرت بعض البيانات التى تعلن أن سوريا فى طريقها للانضمام لهذا الاتفاق ، بحجة أنه سيكون بديلا لجامعة الدول العربية ، التى فشلت - فى رأيهم - فى تحقيق آمال العرب ، وقد علل البعض هذا التقارب بأن له عوامله ، ومنها التقارب الجغرافى ، بالإضافة إلى العداء للناصرية[٤] .

وقد استمر التعاون الأردنى / السعودى ضد ج.ع.م. حتى شهدت الأمة العربية حدثا جديدا ، وهو الثورة اليمنية التى نشبت عام ١٩٦٢م ، والتى قسمت العرب

---

(١) صلاح نصر ، عبد الناصر وتجربة الوحدة ، (د.ت.) ، ص ٢٦١ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، جـ٢ ، ص ٣٠٧ .

(3) Recoeds of Jordan, Vol. 13, Joint Saudi- Jornanian Statement, Amman, Aug 29, 1962, pp. 177- 178; 185- 188.

(٤) الأهرام ، الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٦٢م ، ص ١ .

معســـكرين ، أحدهما مؤيد للثورة بزعامة مصر ، والآخر مؤيد للإمامة بزعامة المملكة العربية السعودية ومعها المملكة الأردنية .

كما شهدت العلاقة بين البلدين تقاربا أشد داخل أروقة الجامعة العربية ، فى العديد من القضايا التى طُرحت للمناقشة داخلها ، وقد ذُكر أن هناك مساعيًا أردنية / سعودية لــتعديل ميــثاق جامعــة الدول العــربية ، ونقل مقرها من القاهرة إلى أى بلد عربى آخر(١) .

وبخصــوص الشــكوى التى قدمتها سوريا ضد ج.ع.م. متهمة إياها بالتدخل فى شــئونها الداخلــية ، وإثــارة القلق والتوتر عن طريق التفجيرات التى يقوم بها بعض الناصــريين ، يذكــر البعض أن تعاونا أردنيا / سعوديا قد تم فى مؤتمر (شتورا) ضد مصــر ، لتدمير هيبة عبد الناصر ، وإضعــاف زعامته فى العالم العربى ، ولذلك رأى عــبد الناصــر أن الفرصة غير مواتية لدخول المعركة ، فأمر بعودة الوفد المصرى إلى القاهرة(٢) .

ولم تكــن هــذه القضــية هى الوحيدة فى هذه الفترة التى اجتمع عليها الملكان – بالإضــافة إلى سوريا – ضد عبد الناصر ، بل كانت هناك قضية أخرى أقل سخونة ، وهى قضية تجديد رئاسة عبد الخالق حسونة كأمين عام للجامعة العربية ، حيث اعترض مــندوبو الأردن وســوريا والسعودية على التجديد له ، واقترح البعض أن يكون مدة الــتجديد كــل سنتين بدلا من خمس سنوات ، ولكن حسونة رفض ذلك(٣) ، ومن الــبديهى أن يكــون السبب الرئيسى فى هذه المعارضة هو أن عبد الخالق حسونة هو

---

(١) الأهرام ، الجمعة ٩ فبراير ١٩٦٢م ، ص ١ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، جـ٢ ، ص ٢٦٠ ، وللتفاصيل عن مؤتمر شتورا ، يُنظر : أحمد حمروش ، قصة ثورة يوليو ، جـ٣ ، ص ص ١٠٨ – ١١٧ .

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 13, Confidential, British Embassy, Cairo, to F.O., Sep 18, 1962, No. 1071/62, pp. 208- 209.

مرشح ج.ع.م. ، وأن الإطاحة به - فى رأيهم - إضعاف لمركز مصر ، وضربة قوية لعبد الناصر ، ولكن سرعان ما تدخلت بعض الأطراف العربية التى رأت أن فى ذلك تشتيتا للجامعة ، خاصة وأن مصر كانت منذ مؤتمر شتورا تهدد بالانسحاب من الجامعة ، فقرر الأعضاء فى ١٥ سبتمبر (أيلول) تجديد مدة حسونة خمس سنوات أخرى[١].

هكذا تحرك الملك حسين فى قضية الانفصال بالتعاون مع المملكة العربية السعودية، ذلك التحرك الذى كان مهما للمملكتين لحماية الانفصاليين من جهة ، وللحفاظ على مملكتيهما من النفوذ المصرى - الناصرى - من جهة ثانية ، وقد تحقق لهما ما أرادا لفترة من الزمن .

استمرار التدخل الأردنى فى سوريا حتى بعد تثبيت الانفصال

هل توقف الملك حسين عن التدخل فى الشئون السورية عقب الانفصال ؟ ، أم أنه استمر فى أعماله فى سوريا ، بدعوى أن لعبد الناصر طموحاته التى يريد تحقيقها فى سوريا ، عن طريق عودتها إلى طريق الوحدة مرة أخرى ؟

من الواضح أن الملك حسين كانت له أطماعه التى لا تقل عن أهداف عبد الناصر فى سوريا ، بل تزيد عنها ، فكانت أهداف عبد الناصر وحدوية من أجل تحقيق الوحدة العربية المنشودة ، أما الملك حسين فكانت له أهداف (هاشمية) ، وهى محاولة إحياء مشروع أجداده بشأن (سوريا الكبرى) ، ولذلك فإن حسينا ظل على سياسته بشأن سوريا ، وهى التدخل فى الشئون السورية ، ومنها ما حدث إبان أزمة مارس (آذار) عام ١٩٦٢م فى سوريا ، حيث قام النحلاوى وبعض أعوانه بحركة انقلابية ، سجنوا خلالها عددا من الوزراء وعددا كبيرا من النواب ، كما احتجزوا رئيس الجمهورية ناظم القدسى، وأجبروه على تقديم استقالته ، حيث استلم اللواء عبد الكريم زهر الدين مقاليد الأمور فى البلاد ، ثم قام انقلاب مضاد لهذا الانقلاب فى ٣١ مارس (آذار) عام ١٩٦٢م ، بدا من خلاله : أن مصر كانت تسانده ، وقد تم تسوية الأمور

---

(١) الأهرام ، الأحد ١٦ سبتمبر ١٩٦٢ ، ص ١ .

فى أبـــريل (نيســـان) عام ١٩٦٢م حيث اجتمع أربعون سياسيًّا سوريًّا للاتفاق على تشـــكيل حكومة وطنية ، تقرر بعدها عودة ناظم القدسى إلى رئاسة الجمهورية ، وقد عاد بالفعل فى١٢ أبريل (نيسان) عام١٩٦٢م، ثم تولى بشير العظمة رئاسة الوزراء(١) .

أما عن موقف الملك حسين من هذه الأزمة ، فيذكر البعض أن الملك حسين كانت له تدخـــلاته فى سوريا حتى قبل وقوع هذه الأزمة ، وأن الحكومة السورية كانت قد ألقـــت القبض فى فبراير (شباط) عام ١٩٦٢م على بعض العملاء الأردنيين ، وبحوزتهم بعـــض المـــبالغ الـــتى كانت ستستخدم فى الرشوة لإحداث بعض التغييرات فى تركيبة الحكومة السورية ، لتكون أكثر ميلا وموالاة للأردن(٢) .

أى أن الأردن كانت تعمل على زعزعة الاستقرار فى سوريا ، حتى تستطيع التدخل فى شئونها كما يروق لها ، وحينما وقعت أحداث ٢٨ مارس (آذار) أخبر الملك حسين الســـفير البريطانى بأن لديه دلائل على أن هذه الأحداث استغلت لاسترجاع الموالين لعـــبد الناصـــر ، وأن سياسة الحكومة الأردنية الثابتة هى أن للشعب السورى وحده اختـــيار حكومته بحرية ، واختيار السياسة التى يريدها ، بما فى ذلك الوحدة مع مصـــر إذا كـــانوا هم يريدون ذلك ، وأفهمه – الملك – أنه لن يسمح لعبد الناصر بالتمكين لنفســـه مـــرة أخرى فى سوريا بالمكائد ، وأنه من الضرورى أن تتحرك الأردن بسرعة شـــديدة لمنع مثل هذه المؤامرات ، كما ذكر رئيس وزراء الأردن للسفير البريطانى فى عمَّـــان أنه يأمل فى تحذير عبد الناصر ، من أن الأردن لن تسمح له بفرض حكمه على سوريا(٣) ، وفى لقاء آخر بين السفير ورئيس وزراء الأردن ، أخبره الأخير أنه فى حالة نجـــاح المجموعـــة الموالية لعبد الناصر فى الجيش السورى فى السيطرة على سوريا ، فإن الأردن ســـوف تـــتدخل لإزاحتهم ، وأنه فى حالة تدخل الجيش الأردنى ، فإنه سوف يعيد البرلمان الشرعى المنتخب والحكومة الشرعية ثم يعود إلى الأردن مرة أخرى(٤) .

---

(١) يُنظر ، راشد كيلانى ، مرجع سابق ، ص ص ١٨١ – ١٨٣ .

(2) Records of Jordan, Vol. 13, Secret, British Embassy, Washington, to F.O., Feb 7, 1962, No. 10650/2/62, p. 9.

(3) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 1, 1962, No. 341, pp. 137-138.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 1, 1962, No. 341, pp. 137-138.

وقد أوضح الملك حسين للسفارة السورية فى عمَّان أن الأردن سوف تساعد على حفظ الأمن واستقلال سوريا ، وأن أى هجوم على سوريا سوف يُعتبر هجوما على الأردن ، وهذا هو واجب الأردن[١] ، وقد وصل الأمر بالحكومة الأردنية أن حذرت السوريين - بطريق غير مباشر - عن طريق السفير السورى بعمَّان زهير الدالاتى من عودة الوحدة المصرية / السورية ، وطالبتهم بمعارضة عودة عبد الناصر إلى سوريا مرة أخرى ، وأنهم - أى السوريين - إن سمحوا بعودة الوحدة ، فسيكون هذا نوعا من الغباء[٢] .

وإزاء هذه التدخلات الأردنية فى سوريا ، عاود سفيرا الولايات المتحدة وبريطانيا مرة أخرى تحذيراتهما للحكومة الأردنية ، بعدم التدخل بشكل أو بآخر فى الشأن السورى ، ففى لقاء بين السفير الأمريكى بعمَّان ورئيس وزراء الأردن (وصفى التل) فى ٩ إبريل (نيسان) عام ١٩٦٢م ، حذره من عاقبة تدخل الأردن فى سوريا ، وأنه لن يكون له عذر فى المستقبل إذا تم التعامل معه بشيء من التجاهل من قِبل حكومة الولايات المتحدة فى حالة تدخله فى سوريا[٣] .

كما التقى السفير البريطانى برئيس الوزراء وحذره من أن التدخل الأردنى فى سوريا سوف يجبر حكومة جلالة الملكة على إعادة النظر فى علاقتها الحالية بالحكومة الأردنية[٤] .

ويبدو أن تحذيرات سفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا للحكومة الأردنية يعود فى المقام الأول إلى خشيتهما من تردى وتدهور الأوضاع فى المنطقة ، وأن الأمر قد يصل إلى حد الصدام بين الأردن وبين ج.ع.م. (مصر) ، بل قد يتسع الأمر

---

(1) Ibid., from Amman to F.O., Apr 15, 1962, No. 373, p. 149.

(2) Ibid., Conidential, from Amman to F.O., Apr 3, 1962, No. 365, p. 144.

(3) Ibid., Conidential, from Amman to F.O., Apr 13, 1962, No. 1037/62, p. 154.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 2, 1962, No. 352, pp. 142-143.

وتــتدخل إســرائيل، وهنا ستجد الدول الكبرى نفسها قد تورطت فى حرب كبرى ستشمل معظم المنطقة، ولذلك جاء التدخل من جانب السفيرين مبكرا حتى يتم تسوية الأمور سلميا .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذرائع والحجج التى كانت تتعلل بها الأردن للتدخل فى الشأن السورى ، وهى المحاولات المصرية لاستعادة الوحدة بالقوة ، قد تلاشت مع قيام ثــورة البعث فى سوريا فى مارس (آذار) عام ١٩٦٣م ، تلك الثورة التى أحدثت تقاربا فى العلاقـــات المصرية / السورية ، مما أدى فى المقابل إلى تدهور مركز الملك حسين فى ســوريا مرة أخرى ، حتى أن البعض وصف حالة الأردن بعد هذه الثورة «بأن الدائرة قـــد أُغلقـــت حول الأردن مرة أخرى »[1] ، أى أن الأردن قد أصبحت فى عزلة مرة أخرى ، خاصة بعد أن دارت المفاوضات الثلاثية (المصرية/ السورية/ العراقية) من أجل قيام الوحدة الثلاثية[*] .

وعــلى أيــة حال ، فإن العلاقات المصرية/ الأردنية نفسها قد بدأت فى التحسن الــتدريجى مرة أخرى ، عقب لقاء هيكل بالملك حسين فى باريس فى سبتمبر (أيلول) عــام ١٩٦٣م ، حيـــث كانـــت هناك مشكلة كبرى قد جمعت بين الدولتين ، وهى مشـــكلة محاولة إسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن ، تلك المشكلة التى وحدت الأهداف العربــية مــرة أخرى ، وأعادت تحسن العلاقات المصرية / الأردنية ، حتى إن السفير

---

(3) Dan: Op. Cit., p. 128.

(*) كانـــت هـــناك محاولة لإقامة اتحاد فيدرالى يضم مصر وسوريا والعراق ، جرت مباحثاته فى الفترة من مـــارس (آذار) إلى أبـــريل (نيسان) عام ١٩٦٣م ، وقد عُقدت ثلاث جولات من المحادثات وانتهت بالفشـــل بعد أن اتضح للقيادة المصرية أن سوريا والعراق ليستا جادتين فى مسألة الاتحاد الفيدرالى ، وأن القصد منه كان التخلص من الخصوم السياسيين .

يُنظر : د. جاد محمد طه ، الوحدة العربية « المحاولات والإنجازات » ، (مركز زايد للتنسيق والمتابعة، دولـــة الإمـــارات العربية ، أغسطس ٢٠٠٢م) ، ص ٨٨ ، وللتفاصيل عن هذه المباحثات ، يُنظر : د.عبد الحميد عبد الجليل شلبى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٣٤ — ٥٥٢ .

البريطانى فى القاهرة ذكر أنه بسبب هذه المشكلة « فإن الدعاية المصرية سوف ترسم – بلا شك – صورة طيبة للملك حسين فى مقابل الموقف الإسرائيلى »[(١)] .

تقـويم

من خلال دراستنا لموضوع :

« موقف المملكة الأردنية من انفصال الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١م »

يتضح أن الموقف الأردنى من هذه القضية قد تأثر بعوامل مختلفة ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ، ومن بين هذه العوامل الأطماع الأردنية نفسها فى سوريا ، ومحاولة إزاحة النفوذ المصرى (الناصرى) من سوريا ، حتى تستطيع الأردن أن تحل محل مصر هناك، ولا يستطيع أحد إنكار ما كان للأردن من أطماع فى سوريا من خلال مشروع سوريا الكبرى .

أمـا العـامل الثانى الذى تأثر به الموقف الأردنى فهو التوتر فى العلاقات المصرية/ الأردنية ، وخاصة بعد قيام الثورة العراقية فى يوليو (تموز) عام ١٩٥٨م ، حيث سيطر عـلى فكـر الملك حسين أن مصر كانت ضالعة فى تلك الثورة ، بهدف القضاء على الاتحـاد الهاشمى (العربى) ، الذى جمع الأسرتين الهاشميتين فى الأردن والعراق ، ولم يفتأ الملك حسين يذكر أن عبد الناصر كان يغار من التحالف الأردنى/ العراقى ، معتبرا أن هـذا الـتحالف كان يهدد أطماع عبد الناصر فى المنطقة[(٢)] ، أى أن تدخل مصر فى الثورة العراقية كان دافعا لحسين على تقويض الوحدة المصرية / السورية ، لأن تقويض الوحـدة – كما ذكرت – كان أشد المناطق ألما بالنسبة لعبد الناصر ، ولذا فإن الملك حسين أخذ يتحيَّن الفرص حتى قام الانفصال ، فسعى إلى تثبيته وتقويته بشتى الوسائل، حتى لا تضيع الفرصة ، ويستعيد عبد الناصر مركزه مرة أخرى فى سوريا .

وثمة ملاحظة ، وهى أن الملك حسين لم يتحرك فى هذا الاتجاه فقط ، بل إنه سعى لضـرب مصـر (عبد الناصر) فى مواقع أخرى كانت تهم السياسة المصرية ، فالجدير

(1) Records of Jordan, Vol. 13, Confidential, from British Embassy, Cairo, to F.O., Des 19, 1963, No. 1074, p. 747.

(2) Ibid., p. 125.

بالذكر أن الثورة المصرية حينما قامت – وكما ذكر عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة – كانت تعمل على توطيد علاقاتها بدوائر ثلاث هى الدائرة الإسلامية ، والدائرة العربية ، والدائرة الإفريقية ، وربما أن الأردن قد تعاونت على ضرب مصر – أو قل استطاعت أن تسبب لها ألما – فى الدائرة العربية ، بمساندتها للانفصال ، فلا بأس من أن تسعى لإزعاجها فى موضع آخر وهو الدائرة الإفريقية ، حيث قام الملك حسين بإرسال بعثة أردنية إلى بعض الدول الإفريقية برئاسة (أحمد الطراونة) رئيس الديوان الملكى ، وكان هدف الرحلة – كما ذُكر آنذاك – هو مد هذه الدول بنسخ من القرآن الكريم، وبرامج إذاعية وتعليمية مترجمة ، وكتب مدرسية ومدرسين ، وفتح المؤسسات التعليمية الأردنية للأفارقة(١) .

وجدير بالذكر أن الأردن ذات الإمكانات الاقتصادية الفقيرة لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه المساعدة إلا بمساندة الدول الغربية ، التى كانت تشجعه على هذه الخطوة ، وذلك لأن الغرب كان يدرك أن مصر تسعى سعيا حثيثا لمساعدة الدول الإفريقية بكل ما أوتيت من إمكانات ، وأن الأردن بما له من عقلية غربية يستطيع – فى رأيهم – إحداث تغيير طيب فى تلك البلدان(٢) ، وهذا التغيير المنشود سيكون بالطبع الموالاة لتلك الدول .

فتلك الأحداث – فى رأيى – تدلل على أن الهدف الأكبر من وراء مساندة الأردن للحركة الانفصالية ، هو إزعاج مصر ، ومطاردة النفوذ المصرى فى مختلف الميادين ، سواء كانت عربية أم إفريقية .

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهى أن مساندة الأردن للانفصال قد تلاقت مع المصالح الغربية التى أسعدها ذلك ، لأن الوحدة العربية بأى شكل من أشكالها تُعتبر خطرا وتحديا لدولة إسرائيل ، ربيبة الدول الغربية ، ففى مذكرة من السكرتير التنفيذى لوزارة الخارجية الأمريكية باتل Battle إلى مساعد الرئيس الخاص لشئون الأمن القومى، فيما يخص سياسة الولايات المتحدة والغرب تجاه سوريا وكذلك ج.ع.م.

---

(1) Ibid., Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Feb 24, 1961, p. 417.
(2) Ibid., pr 14, 1961, p. 418.

(مصر) ، لخّص تلك السياسة بأنه يجب أن تُعامل الحكومة السورية الجديدة بشيء من الكياســة ، وأن على الغرب إظهار تعاطفه لاحتياجات سوريا السياسية والاقتصادية ، ويجــب تجنب الضغوط الغربية على سوريا ، والتدخل فى شئونها الداخلية ، وذهب إلى حــد القول بضرورة حث الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل بأن تعامل سوريا برفق ولين kid gloves[1] ، وبالطبع فإن إسرائيل كانت أشد خوفا من وجود ج.ع.م. حيث اعتبرت الوجود المصرى فى سوريا بمثابة تطويق لإسرائيل ، وخطوة تمهيدية للانقضاض عليها[*] .

ومجمــل القــول : أن الوحدة العربية بأى شكل من أشكالها كانت - ولازالت - هدفــا للشعوب العربية ، ولكن للأسف وُجد من يعمل ضد هذه الوحدة ، إما لمصالح وأهــواء شخصــية ، وإما لمصالح أعداء الأمة ، وعلى وجه الإجمال : فإن فى وحدتنا عزتنا، وفى تفرقنا انكسارنا .

---

(1) FRUS, Vol. XVII, Memorandum, from the Dept of State, Executive Secretary, Battle, to the President's Special Assistant for National Secretary Affairs, Bundy, Washington, Nov 16, 1961, pp. 331- 338.

(*) للتفاصــيل عــن موقف إسرائيل من قيام ج.ع.م. ، يُنظر : د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى ، موقف إســرائيل من قيام ج.ع.م. ، (مجلة كلية الآداب ، جامعــة القاهرة ، مجلد ٥٧ ، العدد ٤ ، أكتوبر ١٩٩٧م) ، ص ص ٢٣٣ - ٢٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع

١ - وزارة الإرشاد القومي « مصلحة الاستعلامات » ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، (القسم الثالث ، فبراير ١٩٦٠م - ١٩٦٢م) .

٢ - د. يوسف خوري (إعداد) ، مشاريع الوحدة العربية ١٩١٣م - ١٩٨٧م «وثائق» ، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، يوليو ١٩٨٨م) .

ثانيا : وثائق أجنبية

1- Foreign Relations of the U.S., Vol. XVII, 1961- 1963.

2- Priestland, Jane (ed): Records of Jordan 1919- 1965, Vol. 11, 12, 13, (Archive ed, 1996).

ثالثا : مذكرات

١ - اللواء/ أحمد غميّض : سوريا من الوحدة إلى التصحيح « شهادات ونظرات » ١٩٥٨م - ١٩٧٠م ، (دار التوحيدي ، حمص ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٩م) .

٢ - أسعد الكوراني : ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت ، (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ، ط١ ، يناير ، ٢٠٠٠م) .

٣ - أكرم الحوراني: مذكرات أكرم الحوراني ، جـ٤ ، (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٠م).

٤ - راشد كيلاني : مذكرات راشد كيلاني عسكريا ودبلوماسيا ، (منشورات دار مجلة الثقافة ، دمشق، ١٩٩٠م) .

٥ - صلاح نصر : مذكرات نصر ، جـ٢ «الانطلاق» ، (دار الخيَّال، القاهرة، سبتمبر ١٩٩٩م) .

رابعا : مراجع وبحوث عربية

١ - أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، جـ٣ « عبد الناصر والعرب »، (مكتبة مدبولي ، ط٢ ، د.ت.) .

٢ - د. جاد طه : الوحدة العربية « المحاولات والإنجازات » ، (مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، دولة الإمارات العربية ، أغسطس ٢٠٠٢م) .

٣ - د. ســامى عصاصة : أسرار الانفصال « مصر وسوريا » ، (مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، ط١ ، يناير ١٩٨٩م) .

٤ - صلاح نصر : عبد الناصر وتجربة الوحدة ، (د.ت) .

٥ - د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى : العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١م - ١٩٦٣م ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٩٠ ، ٢٠٠٠م) .

٦ - د. عــبد الحميد عبد الجليل شلبى : موقف إسرائيل من قيام الجمهورية العربية المتحدة ، (مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ٥٧ ، عدد ٤ ، أكتوبر ١٩٩٧م) .

٧ - د. عــبد الحمــيد محمــد الموافى : مصر فى جامعة الدول العربية « دراسة فى دور الدولة الأكبر فى التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥م - ١٩٧٠م » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م) .

٨ - محمــد حســنين هــيكل : ما الذى جرى فى سوريا ، (سلسلة كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت.) .

٩ - محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، (دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢م) .

١٠ - محمــد حسنين هيكل : سنوات الغليان « حرب الثلاثين سنة » ، جــ١ ، (مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٨م) .

١١ - محمــد فــرج : النضال الشعبى فى سوريا وقصة الانقلابات ، (كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت.) .

١٢ - ممــدوح رضا : سوريا قبل حكم الأسد « مذكرات فى السياسة العربية » ، (دار العروبة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هــ / ١٩٩٤م) .

خامسا : مراجع مترجمة

١ - بيير بوداغوفا : الصراع فى ســوريا « لتدعيم الاستقلال الوطنى » ١٩٤٥م - ١٩٦٦م ، ترجمــة د. ماجد علاء الدين، د. أنيس المتنى ، (دار المعــرفة ، دمشق ، سوريا، ط١ ، ١٤٠٨هــ/ ١٩٨٧م) .

٢ - جــورج أكيرك : السياسة العربية المعاصرة « ترجمة عبد الواحد الإمبابى ، محمد الخولى » ، (سلسلة كتب سياسية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت.) .

٣ - مالكولم كير : عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨م - ١٩٧٠م ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٩٦ ، ١٩٩٧م) .

سادسا : مراجع أجنبية

1- Adhid, Isam Dawisha: The U.A.R. and the Arab East 1958- 1963 «A Foreign Policy Analysis», Ph.D. Un of London, Dept of International Relations, London School of Economic, July 1974.

2- Dan, Uriel: King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism «Jordan 1955- 1957», (Oxford Un Press, 1989).

3- Vevo, Joseph & Ilan Pappe: Jordan in the M.E. «The Making of Pivotal State 1948- 1988», (Frank Cass, England, 1st ed, 1994).

4- Snow, Peter: Hussein «A Biography», (Barrie & Jenkins, London, 1st ed, 1972).

سابعا : دوريـات

الأهرام : سبتمبر ، أكتوبر ١٩٦١م .
فبراير ، سبتمبر ١٩٦٢م .

* * *

أزمة الحدود العراقية ـ الكويتية
من استقلال الكويت حتى انضمامها للأمم المتحدة
١٩ يونيه ١٩٦١ ـ ١٤ مايو ١٩٦٣

دكتور/ فطين أحمد فريد على

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

كلية التربية – جامعة قناة السويس

أزمة الحدود العراقية ـ الكويتية
من استقلال الكويت حتى انضمامها للأمم المتحدة
١٩ يونيه ١٩٦١ ـ ١٤ مايو ١٩٦٣

الحقيقة أن أزمة الحدود العراقية - الكويتية لم تبدأ من فراغ ، فقد أصدر الملك غازى ملك العراق فى أوائل شهر فبراير عام ١٩٣٩ أمرا ملكيا لرئيس أركان الجيش العراقى : الفريق حسين فوزى باحتلال الكويت فى غسق الليل ، كما اتصل الملك غازى بمتصرف لواء البصرة - على محمود الشيخ على - وأمره أن يضع كافة الإمكانات الإدارية تحت تصرف الجيش لاحتلال الكويت حالا[١] .

وتمكن ناجى شوكت - نائب رئيس الوزراء ورئيس الوزراء بالوكالة لغياب نورى السعيد إضافة لمنصبه كوزير للداخلية - أن يصرف الملك غازى عن تفكيره العاجل باحتلال الكويت[٢] .

وعلى الرغم من عمق روابط العلاقات الكويتية / العراقية - بحكم صلات الجوار والاختلاط بينهما ؛ فأهالى العراق يرحلون إلى الكويت ويقيمون بها كما أن للكثير من الكويتيين أملاكا ومصالح حيوية فى العراق - إلا أن العلاقات كثيرا ما شهدت

---

(١) السيد عبد الرازق الحسنى ، تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس ، ص ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

فـترات توتـر وقلـق لاسيما منذ إعلان الاستقلال العراقى فى الثلاثينيات من القرن العشـرين ، وكثيرا ما أثارت الحكومات العراقية المتاعب لحكام الكويت لاسيما بعد تدفـق النفط بها ، ولقد عجز الحكام العراقيون عن ضم الكويت إلى بلدهم بالأساليب الدبلوماسـية وبالتودد إلى الحـكومة البريطانية إبان فترة تولى نورى السـعيد للوزارة العراقـية . ففى الخمسينيات فشلت فى ضمها إلى حلف بغداد كما فشـلت فى ضمها إلى الاتحاد العربى الهاشمى والذى ضم فى عضويته كلا من العراق والأردن عام ١٩٥٨ ، ولقد أرجع السـبب فى رفض شيوخ الكويت الانضـمام إلى هذا الاتحاد إلى تخوفهم مـن أن تكـون هذه خطة لدمج العراق فى الكويت على اعتبار أن الأخيرة جزء من الأولى[١] .

لكـن فكرة هذا الاتحاد قضى عليها وهى فى المهد بقيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العـراق بقـيادة اللواء عبد الكريم قاسم والتى تمكنت من القضاء على الملكية وإعلان النظام الجمهورى ، ومنذ بداية الثورة عمل الشيخ عبد الله السالم – حاكم الكويت – عـلى تأكيد تأييده لها وسعى لتوثيـق صلته بالنظام الجديد[٢] ، وفى الوقت نفسه فإن عـبد الكريم قاسم فى بداية حكمه حرص بدوره على توثيق الروابط بين البلدين[٣] ، فلقد ساندت الحكومة العراقية مطالب الكويت حتى قبل استقلالها بالانضمام إلى العديد من المنظمات والمؤسسات العربية والدولية استكمالا لشخصيتها الدولية[٤] .

وظلت قضية الحدود العراقية / الكويتية ، كما ظلت قضية الكويت ، وضمها إلى العـراق ، تـراود الملك غازى حتى يوم وفاته فى حادث سيارة مساء الثلاثاء ٤ إبريل ١٩٣٩ . كما ظلت هذه القضية تراود كل حكام العراق الذين تولوا حكم العراق بعد ذلك وحتى مجىء عبد الكريم قاسم .

---

(١) فكـرت نـامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية فى المنظمة العربية ١٩٥٣ – ١٩٥٨ ، ص ص ٤٨٠ – ٤٨٣ .

(٢) ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، ص ص ٤٥٤ – ٤٥٥ .

(٣) جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ – ١٩٧١ ، ص ص ٨٨ – ٨٩ .

(٤) حكومة الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، حقيقة الأزمة بين الكويت والعراق ، ص ٢٣ .

بريطانيا واستقلال الكويت

مما لا شك فيه أن الحركات التحررية ، التى ظهرت فى بعض دول الخليج العربى ، فى الخمسينيات والستينيات ، ولّدَت قناعة لدى بريطانيا ، مفادها أن المعاهدات التى عقدتها مع إمارات الخليج ، منذ القرن التاسع عشر ، أصبحت عاجزة عن المحافظة على الأمن فى الخليج، أو استمرار سيطرة لندن عليه . وأدركت أن علاقاتها أمست لا تنشأ، كما كان عليه الحال من قبل ، بينها وبين الحكام فقط ، بل مع أطراف أخرى ظهرت فى الخليج ، تتمثل فى أبنائه ، وفى تيار القومية العربية ، الزاحف إلى هذه المنطقة[١] .

وهكذا ، تزعزعت مقولة اللورد جورج ناثانيل كيرزون ، حاكم الهند ونائب الملكة فيها ، عام ١٩٠٣ ، عن منطقة الخليج ، « إن سلطانة الحكومة البريطانية ، ينبغى أن يكون هو الأقوى » كما أصبح هارولد ديكسون ، الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت ، يعترف علنا بتأثير التيارات القومية فى الكويت ، ومنطقة الخليج العربى بأسرها ، فى النفوذ البريطانى ، حتى أصبح الشعار السائد فى الكويت ، أن «الجزيرة للعرب» ، و « الكويت للكويتيين » . وفى ذلك إشارة واضحة إلى ضرورة التخلص من النفوذ البريطانى . ولقد أرجع ديكسون قوة المدّ القومى العربى فى دول الخليج ، والكويت على وجه الخصوص ، إلى محاولات شعب مصر للتحرر ، وإلى قضية فلسطين ، والثورة فى الجزائر ، والعدوان الثلاثى على مصر ، عام ١٩٥٦ ، والوحدة بين مصر وسورية ، التى أيدتها شعوب الخليج ، وطالبت بعض الدول العربية بالانضمام إليها[٢] .

وإزاء هذه التطورات الداخلية ، والمتغيرات الإقليمية ، بدأت المطالبة الكويتية بالاستقلال ، منذ أواخر الخمسينيات ، وفى مطلع عام ١٩٦١ ، كثف الشيخ عبد الله

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة »، مركز البحوث والدراسات، القاهرة : نوفمبر ١٩٩٣ ، ص ٤٥٦ .

(٢) ميمونة خليفة الصباح ، « علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر » ، المؤرخ العربى ، عدد ٣٤ سنة ١٩٨٨ ، ص ص ٤٣٨ — ٤٤٣ .

السالم الصباح ، أمير الكويت ، ضغوطه لتأمين الاستقلال الدائم . مما يوضح تأثير المد القومى فى الضمير الشعبـــى العام فى الكويت ، بما هيأها ، مجتمعا ونظام حكم لإعلان استقلالها[١] .

ولقـــد أخـــذت بريطانـــيا المطالبة الكويتية بشكل جدى ، إذ أعدَّ إدوارد هيث Edward Richard George Heath ، المسئول عن مكتب الشئون الخارجية فى الحكومة البريطانية ، آنذاك مذكرة سرية ، تدارستها الحكومة البريطانية ، فى ٦ أبريل ١٩٦١ ، فى شـــأن ما يجب عمله تجاه مطالب أمير الكويت . وجاء فى المذكرة : « إن العلاقات بين الكويت والمملكة المتحدة تستند إلى الاتفاقية الخاصة ، لعام ١٨٩٩ . وإن الاتفاقية فى حـــدّ ذاتها ، لا تعنى أن الكويت تحت الحماية البريطانية » ، لكن موضوع الحماية ، أشير إليه فى ٣ نوفمبر ١٩١٤ ، ضمن رسالة من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، لـــدى انـــدلاع الحرب العالمية الأولى ، حملت اعتراف الحكومة البريطانية بأن مشيخة الكويـــت ، هى حكومة مستقلة ، تحت الحماية البريطانية . وقد جرى تأكيد ذاك ، فى رســـالة غـــير منشـــورة ، فى ٢١ أكتوبر ١٩٥٨ ، من الوكيل السياسى البريطانى فى الكويـــت إلى أميرهـــا ، تقول : « إننا سوف نظل مستعدين ، كما كنا فى الماضى ، لـــتوفير أى دعـــم ، قد يكون ضروريا فيما يتعلق بعلاقات الكويت بالدول الأخرى ، وجرت الإشارة فى البرلمان البريطانى فى ٤ فبراير ١٩٥٩ ، إلى أن مشيخة الكويت هى دولة مستقلة ، تلتزم حكومة صاحبة الجلالة بحمايتها »[٢] .

وينـــتقل إدوارد هيث ، فى الجزء الثانى من مذكرته ، إلى مناقشات جرت فى مجلس الـــوزراء ، فى نوفمـــبر ١٩٥٨ ، وصـــدر بعدها بيان فى مارس ١٩٦٠ يشير إلى أن الكويـــت أصـــبحت مسئولة تماما عن إدارة علاقاتها الدولية . وقد أنهى ذلك الإعلان مفعول اتفاقية عام ١٨٩٩ ، ويشير هيث إلى أن وزير خارجية بريطانيا ، اقترح فى مايو

---

(١) صـــلاح العقاد ، « التيارات السياسية فى الخليج العربى » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة : ١٩٧٤، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(2) Heath, Eldward. Kuwait: Future Relation with the united kingdom, BD,C (16) Copy. No. 32, 6th, April 1961, pp. 28 – 31.

١٩٦٠ نتيجة هذا الإعلان ، أنه « إذا أثار أمير الكويت موضوع إعادة النظر فى الاتفاقية الخاصة ١٨٩٩ ، فإننى أرى منح المقيم السياسى فى الخليج ، أو الوكيل السياسى فى الكويت ، صلاحية الإجابة بنفسه وتأكيد أن حكومة صاحبة الجلالة ستكون مستعدة لدراسة هذا الأمر »[١] .

ويشير هيث ، فى الجزء الثالث من مذكراته إلى أن أمير الكويت ، أثار هذا الموضوع بالفعل ، وهو يرغب فى الحصول على الاستقلال التام . وأبلغ ذلك إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى ٤ يناير ١٩٦١ . وذكر الشيخ عبد الله السالم ، أمير الكويت « أن الظروف شهدت تغيرات أساسية عما كانت عليه عندما وضعت اتفاقية عام ١٨٩٩ ، وأنه لم يبق من تلك الاتفاقية إلا علاقات الصداقة القوية ، التى تربط بين البلدين « ولذا ، فإنه يرغب فى عقد اتفاقية مع حكومة صاحبة الجلالة الآن تستبدل اتفاقية عام ١٨٩٩ ، وتؤكد هذه الصداقة ، استعداد بريطانيا لمساعدة الكويت . وذكر هيث أن أمير الكويت تواق إلى إتمام هذا المطلب قبل أن يغادر المقيم السياسى البريطانى منطقة الخليج فى مايو ١٩٦١ »[٢] .

وحدد هيث ، فى مذكرته مجموعة من النقاط التى يجب على الحكومة البريطانية أن تأخذها فى الحسبان وهى[٣] :

(أ) إن اتفاقية ١٨٩٩ ، لا تتفق مع مسئولية الكويت عن شئون علاقاتها الدولية.

(ب) إن استمرار الوصول لى موارد النفط الكويتية وبالأسعار الأفضل هو أمر حيوى، بالنسبة إلى المصالح البريطانية . وأن هذه المصالح سوف تتعرض للخطر إذا خسرت الكويت استقلالها ، فمن الواضح أنه بينما تنمو الشخصية الدولية للكويت ، فإنها سوف ترغب بوسائل شتى ، فى إظهار أنها باتت لا تعتمد علينا .

---

(1) Ibid, pp. 34- 35.

(2) Ibid, pp. 37- 38.

(3) Ibid, pp. 39- 44.

لكن يجب أن نستغل الفرص التى يوفرها لنا دورنا فى الحماية ، وذلك حتى نضمن قدر الإمكان ألا ترفض الكويت وتفشل ترتيباتنا المالية ، وتظل حاملة بشكل جيّد للجنيه الاسترليني .

(جـ) إن الاتفاقية الجديدة بين المملكة المتحدة والكويت التى ذكرت أن حكومة بريطانيا ملتزمة بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، سوف تُعرض طرف الاتفاقية لهجوم، على أساس أنها تمثّل « علاقة إمبريالية » ، ولا تتفق مع التطورات الجارية فى أماكن أخرى ، لإدانة الحماية البريطانية ، أو على الأقل جعل الكويت أقل اعتمادا على بريطانيا فى سياستها النفطية والمالية .

(د) من الأفضل للجانبين عقد اتفاقية جديدة ، بدل اتفاقية ١٨٩٩ ، تتجنب إثارة الاعتراضات الواردة فى الفقرة السابقة .

(هـ) فى حال قبول الحكومة البريطانية إنهاء اتفاقية ١٨٩٩ ، وقبولها إصرار الأمير على للحصول على بعض التأكيدات ، أن الإنهاء لا يقلل من التزام بريطانيا بحماية الكويتيين ، فهناك ثلاث صيغ يمكن مناقشتها مع أمير الكويت ، لتوقيع اتفاقية دولية ملزمة يتعين تسجيلها لدى هيئة الأمم المتحدة ، وهذه الصيغ هى :

١ – تبادل مذكرات بين المقيم السياسى البريطانى وأمير الكويت ، تُبطل ببساطة مفعول اتفاقية ١٨٩٩ مرفقة بتأكيد شفهى حول اعتراف حكومة صاحبة الجلالة ، باستمرار التزامها بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، وأن تُنشر وتسجل المذكرات المتبادلة ، لدى الأمم المتحدة . أما التأكيد الشفهى، الذى يمكن تسجيله فى المذكرة ، فلا ينشر ولا يسجل فى الأمم المتحدة . واقترح هيث أن الحكومة إذا سُئلت فى البرلمان عما إذا كانت المذكرات تؤثر فى التزاماتنا القائمة ، أن تجيب بالنفى .

٢ – تبادل مذكرات تشير إلى إبطال مفعول اتفاقية ١٨٩٩ ، مع تأكيد أن هذا الإبطال لا يؤثر فى الالتزام البريطانى المستمر بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، الهدف من ذلك إيضاح أن الالتزام البريطانى قائم ومستمر ، دون أن يحدد زمن معين لصلاحية هذا الالتزام .

٣ – تعقد معاهدة ، بعيدا عن الصيغ الرسمية تضمن الالتزامات البريطانية نفسها، ويكـــون لهـــا الأثر القانونى عينه ، كما فى البند (٢) لكنها تكون خاضعة للتصـــديق فى الـــبرلمان . واقترح هيث ، فى مذكرته كذلك ضرورة عرض بريطانـــيا لاتفاقـــات بديلـــة مع الكويت فى مجالى الصداقة والتجارة ، بعد الاتفـــاق عـــلى إنهـــاء مفعول اتفاقية ١٨٩٩ بأية صيغة من الصيغ الثلاث المقترحة[١] .

ولقد تضافرت مجموعة من العوامل والمعايير الوطنية والإقليمية والدولية أدت جميعها إلى جعل استقلال الكويت ضرورة لا غنى عنها ، وهو أمر سلمت به بريطانيا بهدوء ؛ لأنهـــا أمست غير قادرة على الحفاظ على وضعها الخاص فى الكويت ، خاصة بعد أن دخلـــت دول أخـــرى حلبة الصراع حول الخليج ، والمنطقة وثرواتها ، وفى مقدمتها الولايـــات المـــتحدة الأمريكـــية ، والاتحاد السوفييتى ، ومن ثم جاءت الحصيلة النهائية لـــتفاعل جمـــيع العوامل سالفة الذكر فى صرورة اســـتقلال الكويت ، وإنهاء الحماية البريطانية عليهـــا ، إذ أُعلن صـــباح ١٩ يونية ١٩٦١ فى كل من لنـــدن والكويت ، تـــبادل رســـــائل بين أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح والسير وليم هنرى توكير لويس (١٩٦١–١٩٦٦) Sir William Henry Tucker Luce ، المقيم السياسى الـــبريطانى فى الخليج ، انطوت على إعلان استقلال الكويت ، وإنهاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ ، على أساس أنها تتعارض وسيادة الكويت[٢] ، واستبدال معاهدة جديدة بها ، تُبنى على الصـــداقة والتعاون بينهما[٣] . وأذاعت الحكـــومة الكويتية فى اليوم عينـــه

---

(1) Ibid, p. 46.

(٢) وثـــائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، مذكرة السير ويليام لوسى المقيم السياسى البريطانى فى الخلـــيج فى ١٩ يونيه ١٩٦١ إلى الشيخ عبد الله السالم الصباح ، انظر كذلك مذكرة الشيخ عبد الله السالم الصباحى فى ١٩ يونيه ١٩٦١ ردا على مذكرة المقيم البريطانى فى الخليج .

(٣) المركـــز الوطـــنى الكويتى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية — الحق التاريخى والإدارة الدولية » ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، الكويت ، ص ٤٠ .

(١٩ يونيه) ، البيان الكويتى حول إلغاء معاهدة ٢٣ يناير ١٨٩٩[1] . وتُعرف المعاهدة الجديدة بين الكويت وبريطانيا باتفاقية «التشاور» ، بينما وصفها العراق باتفاقية «المساعدة»[2] .

وهكذا ، وبتبادل الرسائل فى ١٩ يونيه ١٩٦١ ، بين حاكم الكويت والمقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، نيابة عن حكومة صاحبة الجلالة ، الملكة إليزابيث الثانية Elizabeth II ملكة بريطانيا ، حصلت الكويت على استقلالها التام . وفى اليوم التالى، ٢٠ يونيه ١٩٦٠ ، ألقى أمير الكويت خطابا ، عبر الإذاعة ، هنأ فيه الشعب الكويتى بالاستقلال ، ثم قال : « ولا يفوتنى ، هنا أن أنوّه بالروح الطيبة التى سادت المباحثات وأن أسجل للجانب البريطانى الصديق ما تحلى به من رحابة الصدر وحُسن التفهم للأمور، والرغبة الصادقة فى التفاهم ، مما جعل الوصول إلى الغاية المنشودة فى سهولة ويسر مؤكدا ومضمونا منذ البداية[3] .

وفى ٢١ يونيه ١٩٦١ ، أُرسلت اتفاقية التشاور إلى نيويورك لتسجيلها فى الأمم المتحدة ، كاتفاقية ومعاهدة بين الكويت وبريطانيا ، وبدأت الكويت من الفور تمارس سيادتها فطلبت فى ٢٣ يونيه ١٩٦١ الانضمام إلى كل من جامعة الدول العربية ، والأمم المتحدة[4] .

الدوافع والعوامل البريطانية لإنهاء الحماية على الكويت :

حمل بريطانيا على إنهاء حمايتها للكويت بعد ٦٢ عاما ، بمجموعة من المتغيرات الاقتصادية والاستراتيجية والنفسية ، التى من أجلها عُقدت معاهدة الحماية فى ٢٣ يناير ١٨٩٩[5] .

---

(١) وزارة الثقافة الكويتية ، وثائق مركز البحوث ، البيان الكويتى يوم ١٩ يونيه ١٩٦١ ، انظر كذلك ، أيمن نور ، « اغتيال الكويت » ، شركة الإنسان ، القاهرة : ١٩٩٠ ، ص ص ١٥ — ١٦ .

(٢) جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الخامس ، ص ٣٤٩ .

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ١٢٨ .

(٤) جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربى : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ — ١٩٧١» ، القاهرة : ١٩٧٤، معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ٨٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ص ٢٣ — ٢٦ .

تتـــلخص أهم العوامل الاقتصادية التى دفعت بريطانيا إلى قبول استقلال الكويت ، فيما يلى(١) :

١ – انعـــدام الأهمية الاقتصادية لاحتكار صيد اللؤلؤ من الخليج ، نتيجة لازدياد قيمة اللؤلؤ الصناعى .

٢ – تـــراجع أهمية احتكار بريطانيا لتصدير السلاح ، بدخول أطراف أكثر منها قوة وقدرة إلى السوق .

٣ – الـــنفط من أهم العوامل ، التى أدت إلى سرعة إعلان بريطانيا استقلال الكويت ، وعـــدم تمســـكها بها ، فلقد أدركت لندن أهمية التغيرات ، التى طرأت على دول الخلـــيج ، ومنها الكويت ، وأصبح لزاما عليها أن تغير أسلوب تعاملها مع حكام تلك الدول . فعملت على أن تكون الشركات البريطانية حائزة عقودا احتكارية، وامتيازات فى هذا المجال ، لفترات مستقبلية طويلة . مما يحقق أهدافها تحقيقا أفضل ممـــا لـــو كانت موجودة وجودا مباشرا يؤمن سيطرتها على المنطقة ، خاصة أن حركات التحرر الوطنى رافضة لهذا الوجود ، أى أن بريطانيا ، فضلت أن تمارس أسلوب الاستعمار غير المباشر ، أو الاستعمار الاقتصادى .

العوامل الاستراتيجية وقد تمثلت فيما يلى(٢) :

١ – فقَـــد الخلـــيج إثـــر استقلال باكستان فى ١٤ أغسطس ١٩٤٧ ، والهند فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ ، أهميته التقليدية، المنبثقة من كونه خط الدفاع الأمامى، بالنسبة إلى إمبراطورية بريطانيا السابقة فى الهند .

٢ – قـــرار الجمعـــية العامة للأمم المتحدة ، الرقم ١٥١٤ ، فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ ، بـــإعلان مـــنح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة ، وذلك نتيجة للعدوان الثلاثى على مصر ، عام ١٩٥٦ .

---

(١) ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ، ص ٤٥٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم، «الخليج العربى: دراسة لتاريخه المعاصر» ١٩٤٥– ١٩٧١» ، ص ص ٢٧– ٢٨ .

٣ – ازديـــاد النفوذ الدولى المنافس لبريطانيا ، فى الخليج العربى ، من قِبَل ألمانيا والاتحاد السوفيتى وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، نظرا إلى تدهور مركز بريطانيا ، وعدم قدرتها على تحمل مسئوليتها فى المنطقة أو حمايتها .

٤ – ازدياد حركات التحرر الوطنى المناهضة للوجود البريطانى فى المنطقة .

الدوافع النفسية وأهمها[١] :

١ – الاقتناع بأن اتفاقية عام ١٨٩٩ تتعارض مع مسئولية الكويت عن شئون علاقاتها الدولية .

٢ – رغـــبة بريطانيا فى الحفاظ على علاقات الود والصداقة ضمانا لمصالحها مع الأسرة الحاكمة فى الكويت .

٣ – رغبة بريطانيا فى عدم إثارة المشاعر العدائية العربية تجاهها فى المنطقة .

وهكذا، حاولت بريطانيا قدر جهدها أن تجد طريقة تموّه بها وجودها الاستعمارى. فمنذ عام ١٩٦١ أخذت تمنح بعض إمارات الخليج مظهر الدول المستقلة للحفاظ على مصالحها فى المنطقة تحت هذا الستار ، وقد كانت البداية فى ١٩ يونيه ١٩٦١ بإعلان استقلال الكويت[٢] .

موقف العراق من استقلال الكويت :

عقب إعلان ما توصلت إليه الحكومتان الكويتية والبريطانية ، بادر كثير من الدول العربية إلى تأييد تلك الخطوة . إلا أن العراق اتخذ موقفا ، فقد أرسل عبد الكريم قاسم، رئـــيس الحكومة العراقية[٣] برقية تهنئة فى ٢٠ يونيه ١٩٦١ إلى شيخ الكويت ، صيغت

---

(١) المصدر السابق ظن ص ص ٢٩ – ٣١ .

(٢) يعقوب عبد العزيز الرشيد ، « الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ » ، ص ص ٧٥ – ٧٨ .

(٣) اللـــواء عـــبد الكريم قاسم ولد فى بغداد ٢١ نوفمبر عام ١٩١٤ ، كان مساعد أركان حرب الشئون الإدارية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، قاد ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ ضد الملك فيصل وشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة وتولى رئاسة الوزارة من ١٤ يوليو ١٩٥٨ إلى ٨ فبراير ١٩٦٣ . ثم قتل فى انقـــلاب بعثى قاده عبد السلام عارف فى ٨ فبراير ١٩٦٣ حيث أعدم يوم ٩ فبراير ١٩٦٣ رميا بالرصاص .

بطريقة لم يتم فيها الإشارة إلى استقلال الكويت ، وإنما عمد إلى إثارة «المطالب التاريخية» للعراق فى الكويت . إذ تضمنت البرقية ترحيب العراق بإلغاء اتفاقية ١٨٩٩، على أساس أنها اتفاقية غير شرعية عُقدت دون علم الدولة العثمانية التى كانت الكويت تابعة لها ، وأن الذى عقد هذه الاتفاقية هو الشيخ مبارك بن صباح ، قائمقام الكويت التابع لولاية البصرة ، وفى نهاية البرقية حذر عبد الكريم قاسم شيخ الكويت ، من تقبّل استعمار جديد[١] .

ولم يلبث أن اتضح الموقف العراقى حيث عقد عبد الكريم قاسم مؤتمرا صحفيا فى مقره الدائم فى وزارة الدفاع يوم الأحد ٢٥ يونيه ١٩٦١ ، طالب فيه بضم الكويت إلى العراق ، على أساس أنها مقاطعة تابعة للبصرة ، بل إنها تشكل جزءا متكاملا من العراق ، وبعدم وجود حدود بين البلدين وطلب من شيخ الكويت أن يعاون على إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعى . وأعلن أن الجمهورية العراقية قررت « حماية الشعب العراقى فى الكويت » ، وأنه فى صدد إصدار مرسوم جمهورى بتعيين شيخ الكويت قائمقام لقضاء الكويت ، الذى يتبع لواء البصرة ، وأكد أن لدى الحكومة العراقية من الوثائق التاريخية ، ما يثبت تبعية الكويت للبصرة ، وأن العراق سيطالب بحقوقه فى كل شبر من الأراضى التى انتزعها المستعمر ، وكان هذا تلميحا إلى المطالبة بمناطق أخرى ، جنوب الكويت ، كالإحساء وقطر[٢] . كما صرح بأن الجمهورية العراقية لن تتنازل قيد أنملة عن أية قطعة من أرض الكويت ، مؤكدا أنه عندما يصرح بذلك فإن له القدرة التامة على تنفيذ ما يقوله[٣] .

---

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، برقية تهنئة من عبد الكريم قاسم يوم ٢٠ يونيه ١٩٦١ إلى الشيخ عبد الله السالم ، انظر كذلك مصطفى عبد القادر النجار ، « التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربى » ، ص ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٢) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ص ٩٦– ٩٧.

(3) Stocking, G. Middle East Oil A study in Political and Economic Controversy, Vanderbit University Press 1972, pp. 232- 235, See also.
جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ٧١ .

وقبل هذا المؤتمر الصحفى كان مجلس الوزراء العراقى قد عقد جلسات بحث خلالها مسـألة الكويت ، والطريقة التى يجب اتباعها لإعادتها إلى الوطن الأم . وظهر فى مجلس الوزراء رأيان[١] :

الأول : ويمـثله العسكريون ، وعلى رأسهم عبد الكريم قاسم . وكانوا يرون أن الكويت لن تعود ، إلا من طريق الحل العسكرى ، باحتلال الكويت ، وإعلان ضمها إلى العراق .

الثانى : ويمثله المدنيون، ويؤكدون ضرورة اتّباع السُبل الدبلوماسية لضم الكويت. وكـان من أشد أنصار هذا الرأى وزير الخارجية العراقى ، هاشم جواد إذ أوضح أن السُبل الدبلوماسية هى أسهل الوسائل وأضمنها لعودة الكويت ، ولا حاجة إلى التدخل العسـكرى . كمـا أنـه يستطيع أن يحصل على تأييد ٧٠٪ من دول العالم . وبعد مناقشـات طويلة ، اقتنع الوزراء العسكريون بوجهة نظر الخارجيـة . وكذلك اقتنع عبد الكريم قاسم . ولهذا، عُقد المؤتمر الصحفى من دون أى تحرك عسكرى[٢].

وفى ٢٦ يونـيه ، اسـتدعت وزارة الخارجية العراقية الممثلين الدبلوماسيين لدى بغـداد، وسـلمت إلـيهم مذكرة رسمية ، تؤكد فيها أن الكويت جزء لا يتجزأ من العـراق[٣] . كما وزّعت مذكرات رسمية من طريق سفارتها فى القاهرة ، وعلى الدول الأعضاء فى الجامعة العربية ، تؤكد فيها أن المعاهدة التى أبرمتها بريطانيا مع الكويت فى ١٩ يونـيه ١٩٦١ ، لا تستند إلى أُسس سليمة ، وأن بريطانيا تعمل على المحافظة على نفوذها ، تحت غطاء منح الاستقلال الشكلى للكويت ، الذى تعمد فيه فصل الكويت عن العراق[٤] .

---

(١) ليـث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، منشورات مكتبة اليقظة العربية بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٨١ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، ص ٣٠٢ .

(٣) نازلى معوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٠ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، نص مذكرة العراق إلى ممثلى الدول العربية والأجنبية .

(٤) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، «ترسيم الحدود الكويتية العراقية» ، طبعة ١٩٩٣ ، ص ٥٠ ، انظر كذلك مذكرة الحكومة العراقية التى وزعت على سفراء الدول العربية والأجنبية فى بغداد يوم ٢٦ يونيه ١٩٦١ .

وبعد أن طالب العراق بضم الكويت ، هدّد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأية دولة ، تعترف باستقلال الكويت ، أو تتبادل معها التمثيل الدبلوماسى[١] .

وعلى الرغم من ردود الفعل الرافضة للدعاوى العراقية من قِبَل الدول العربية ، ومن قِبَل دول أخرى ، كبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، فإن العراق استمر فى دعواه مطالبا بضم الكويت إلى العراق ، ومعلنا قرب القضاء على الاستعمار وأعوانه فى الكويت، وقرب استرداد « القضاء العربى السليب » . بل إنه أخذ يهدد بأنه سوف يشعل « حربا ضروسا فى الشرق الأوسط ، إذا لم تضم الكويت إلى العراق ». وتحولت أقوال عبد الكريم قاسم إلى أفعال وسلوك عدائى ، حينما استولت القوات العراقية على ١٠ سفن كويتية أثناء رسوها فى ميناء البصرة العراقى . كما أصدرت الحكومة العراقية قرارا لتجميد أموال الكويتيين فى المصارف العراقية . بل نفّذ العراق تهديده بإعادة النظر فى علاقاته الدبلوماسية بالدول التى تعترف بالكويت وتنشئ علاقات دبلوماسية بها ، فقطع علاقته بلبنان والولايات المتحدة الأمريكية ، وإيران والأردن واليابان وتونس . كما رفض مبدأ الاستفتاء فى الكويت مدعيا أن أغلبية سكانها من الباكستانيين والإيرانيين والأجانب مؤيدين للشيخ عبد الله السالم[٢] .

الادعاءات العراقية بأحقية العراق فى تبعية الكويت له :

فشل العراق خلال الفترة من ١٩ يونيه ١٩٦١ إلى ٨ فبراير ١٩٦٣ ، فى أن يقنع المجتمع الدولى بادعاءاته فى شأن الكويت . ومن دراسة التصريحات والبيانات والخطب العراقية العديدة التى نشرت خلال هذه الأزمة ، يتضح أن المطالب العراقية استندت إلى جانب الادعاءات التاريخية إلى بعض المبررات ، ومن بينها[٣] :

---

(١) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، « العدوان العراقى على الكويت » ، ص ٤٩ .

(٢) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ١٠٠ .

(٣) وثائق السفارة العراقية بالقاهرة ، جريدة الجمهورية العراقية ، مؤتمر عبد الكريم قاسم الصحفى يوم ١٩٦١/٦/٢٥ ، انظر كذلك ميمونة الخليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٦٦ – ٤٦٧ ، أحمد أبو حاكمة ، « تاريخ الكويت » ، الجزء الأول ، الكويت ١٩٦٧ ، ص ص ١١٨ – ١٢٤ ، جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربى » (١٩٤٥ – ١٩٧٦) ، ص ٨١ .

(أ) رغبة العراق فى توصيل المياه العذبة إلى الكويت ، ومن ثَم ، شدّد هجومه على حكام الكويت ، لاستخدامهم محطات تحلية مياه الخليج للحصول على مياه الشرب ، مما حقّق للشركات الأجنبية مكاسب طائلة نتيجة بيع آلات التقطير ، بينما نقل المياه من شط العرب إلى الكويت ، هو أقل نفقة وأكثر نفعا من وجهة نظر العراق .

(ب) حاول العراق أن يقنع العالم العربى بأنه يحمل اتجاهات تقدمية من بينها أن من واجبه إنقاذ الشعوب العربية، وفى مقدمتها شعب الكويت من مستغلّى مواردها.

(جـ) ترديد العراق أن كلمة «الكويت» ، كلمة لا تستخدم إلا فى العراق ، ولاتزال تطلق على الكثير من المواقع فيه ، مثل « كوت العمارة » ، و « كوت الزين » ، وغيرهما .

(د) برر العراق دعوته إلى ضم الكويت ، بأنه لا يمكن التفريق بين أهالى الكويت ، والبصرة والزبير بحكم الصلات اليومية ، والمصاهرات القائمة بينهم ، وأنه إذا ما اجتمع أهالى البصرة والكويت ، فلا يستطيع أحد أن يفرق بينهما . وعلى الرغم من تركيز عبد الكريم قاسم فى تلك الروابط ، إلا أنه أعلن رفضه لمبدأ الاستفتاء الشعبى فى الكويت ، متعللا أن أغلبية سكان الكويت من العناصر الوافدة .

(هـ) ركز العراق فى تبرير الدعوة إلى ضم الكويت فى أن أهالى الكويت يرغبون بل يطالبون بالعودة إلى وطنهم الأصلى العراق .

وعلى الرغم من أن الأزمة التى أثارها عبد الكريم قاسم، لم تتجاوز البُعد الإعلامى، فإن هناك من يرى أنه كان يفكر فعلا فى غزو الكويت ، و لم يحل دون ذلك سوى المشكلات الداخلية العديدة ، التى أخذ يواجهها . إذ اندلعت الثورة الكردية فى الشمال واتخذت شكلا أقرب ما يكون إلى الحرب الأهلية، مما يترك له فرصة للاعتداء على الكويت(١) .

---

(١) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، «العدوان العراقى على الكويت– الحقيقة والمأساة» ، ص ص ٥١– ٥٢ ، انظر كذلك مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، «الكويت وجودا وحدودا»، ص ص ٩٦– ٩٨ ، جمال زكريا قاسم ، «تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٣– ٧٤ .

دوافع عبد الكريم قاسم :

على الرغم من مضىّ عدة عقود على وقوع تلك الأزمة ، إلا أنه لم تتكشف حتى وقتنا الحاضر الدوافع الرئيسية المحركة لعبد الكريم قاسم ، للمطالبة بضم الكويت على الرغم من إدراكه استحالة تنفيذ أطماعه بحكم المعارضة العربية والدولية فضلا عن معارضة الشعب الكويتى الذى حصل على استقلاله ، وهو يتشبث به ، ومع ذلك فقد ركز كثير من الباحثين فى الدافع الاقتصادى ، وأن الثروة النفطية الضخمة التى تفجرت فى الكويت أغرت العراق بمحاولة ضمها إليه ، أو على الأقل الاستفادة من القروض والمنح ، التى يمكن أن تقدمها الكويت له . لذا ، فالدافع الاقتصادى قد يكون سببا رئيسيا فى نشوب العديد من الأزمات(١) .

كما ترتبط الأزمة التى افتعلها عبد الكريم قاسم بحالته النفسية ، وهى ظاهرة وضحت فى العديد من تصرفاته السياسية ، حتى أصبح يُعَدّ من أكثر الشخصيات غموضا فى السياسة العربية المعاصرة(٢) .

واللافت للنظر أن سياسة العراق خلال تلك الأزمة قد تناقضت مع سياسته إزاء الكويت قبل الأزمة ، إذ كان يعامل الكويت كدولة مستقلة حتى قبل أن تلغى اتفاقية ١٨٩٩ مع بريطانيا ، وظهر ذلك واضحا فى جوازات السفر ، وإجراءات الجمارك بين البلدين ، وفى كتب التاريخ والجغرافيا ، فى معاهد التعليم العراقية ، وهى تشير إلى تاريخ الدول المجاورة للعراق ، ومنها الكويت ، وإلى الخرائط الجغرافية التى تضمنت خط الحدود الفاصل بين البلدين(٣) .

---

(١) المركز الوطنى الكويتى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية – الحق التاريخى والإدارة الدولية » ، إعداد لجنة من المختصين ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، ص ص ٤٥– ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ٩٨ .

وقد اختلفت الآراء فى أسباب مسلك رئيس الوزراء العراقى عبد الكريم قاسم وحكومته تجاه الكويت ، والتى تمثلت فى الآتى :

هناك فريق يرجع السبب إلى الظروف والعوامل الداخلية التى كان يمر بها العراق وحكومته ، فى تلك الفترة[1] . ومن هذه العوامل تزايد الصراع العلنى بين بغداد والأكراد الذى أدى إلى قيام عبد الكريم قاسم باستقدام الملاّ مصطفى البرازانى ، من الاتحاد السوفيتى ، فى ٥ أكتوبر ١٩٥٨ ، إلى العراق بعد أن ظل لاجئًا سياسيًا لمدة ١١ سنة ، لتهدئة الأوضاع ، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لإنهاء هذا الصراع ، فقد كان الأكراد يحاولون الحصول على ما أسموه بمعاملة أعدل ، وكان استياؤهم راجعًا إلى مماطلة الحكومة المركزية ، وعدم استعدادها لمنحهم الاستقلال الذاتى الذى وعدهم به، والمذكور فى مواد الدستور العراقى المؤقت ، الصادر فى خريف ١٩٥٨ . كما إن إخفاق مشروع الإصلاح الزراعى ، وحظر زراعة الطِّبَّاق فى المنطقة الكردية ، وقوانين الضرائب الجديدة ، ونقْل الموظفين الأكراد إلى مناطق أخرى فى العراق ، كانت من العوامل التى ساعدت على إثارة الأكراد ، ودفعتهم إلى ثورة فى الشمال ، أُبيد فيها فصائل عراقية عن آخرها ، بين الجبال والتلال ، واستولى الثوار على مناطق كاملة ، بمدنها وقراها ، وفصلوها عن بقية مناطق العراق . وقد تزامنت هذه الأحداث مع التحرك العراقى نحو المطالبة بضم الكويت . فأراد عبد الكريم قاسم إيجاد حل سريع لتغطية الموقف المتدهور فى الشمال ، والذى أصبح حديث الشعب العراقى كله . وكان الحل فى رأيه هو فتح «جبهة التغطية» تحويل أنظار الشعب العراقى إلى الخارج ، بما يؤدى إلى تماسك الجبهة الداخلية ، فأصدر الأوامر إلى بعض اللواءات الموالية لها بالتحرك صوب حدود الكويت والاحتشاد بقربها ، ورافق هذا الأمر تهديدات

---

(١) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ص ص ٣٠٢ – ٣٠٣ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٥ – ٧٦ ، أحمد فوزى ، « عبد الكريم قاسم » ، القصة الكاملة ، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٥ ، ميمونة خليفة الصباح « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٥ .

وإنـــذارات من عبد الكريم قاسم ، ووزير خارجيته ، هاشم جواد ، شغل الرأى العام العراقى ، بإثارة المشاعر القومية وتوجيهها نحو النزعة التوسعية الإقليمية[١] .

ثمة فريق ثانٍ ، يرى أن عبد الكريم قاسم ، كان مدفوعًا إلى التهديد بغزو الكويت مـــن جانـــب بريطانيا حتى تقضى على المعارضة التى أثيرت فى شأن اتفاقية المساعدة (التشاور) التى وقعتها مع الكويت فى ١٩ يونية ١٩٦١ ، ويدللون على ذلك بسرعة الإنـــزال البريطانى للقوات فى الكويت إذ إن الأمر كان مدبرًا وأن السلطات العسكرية الـــبريطانية كانت على علم مسبق بهذه الأزمة ، وأرادت بريطانيا أن تتخذ منها مثالاً لـــردع أى حاكم من حكام الخليج ، إذا ما فكر فى المطالبة بالاستقلال ، تحت تهديد العراق أو إيران ، أو المملكة العربية السعودية كما تضمن بذلك سكوت الكويت عن المطالبة بسحب أرصدتها المجمدة بعد استقلالها عن بريطانيا[٢] .

فضـــلاً عن فريق ثالث يرجع السبب إلى طموحات عبد الكريم قاسم وأطماعه فى ثروة الكويت ونفطها ، وإذا لم يستطع تنفيذ مشروعه فى الحصول على ثروة الكويت، فعـــلى الأقـــل يمكنه الاستفادة من القروض الكويتية ، التى يمكن أن تقدمها الكويت ، نتيجة ضغطه عليها ، وعلى كل فقد كان قاسم يأمل أنه لدى دعوته إلى ضم الكويت ستقوم ثورة شعبية فيها ، تتولى عملية الاندماج بين الدولتين[٣] .

إضافة إلى فريق رابع ، يرى أن الهدف الحقيقى للعراق لم يكن ضم الكويت ولكن منعها من الارتباط بالمملكة العربية السعودية ، أو الوصول إلى عقد أى اتحاد معها[٤] .

---

(١) نـــازلى معـــوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٧٥ – ٤٧٦ ، انظر كذلك الســـيد الســـيد حجاج ، مشروع أيزنهاور للشرق الأوسط فى العلاقات الدولية ١٩٥٦ – ١٩٦٠، رسالة ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٦٧ ، ص ص ٢٢٠ – ٢٢٤ .

(٢) جمـــال زكـــريا قاســـم «الخليج العربى : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ – ١٩٧١» ، معهد البحوث والدراســـات العربية ، القـــاهرة ١٩٧٤ ، ص ص ٩٤ – ٩٦ ، وكذلك طبعة دار الفكر ١٩٩٦ ، ص ص ٧٤ – ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٤) بطرس بطرس غالى « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ، جامعة الدول العربية ، معهد الـــبحوث والدراســـات العربـــية، القاهرة ١٩٧٧، ص ص ٨٤ – ٨٥ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٦ .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن دعوة عبد الكريم قاسم ، إلى ضم الكويت إلى العراق لم يكتب لها النجاح ، لأنها قامت على دعاوى تاريخية تخفى وراءها دوافع مصلحية تُحِل مبدأ الضم محل منطق الوحدة ، فعدّها كثير من المؤرخين دعوة توسعية على أساس إقليمى مجرد من المفهوم الوحدى بوجهته القومية الصحيحة(١) .

وننوه هنا إلى أن فريقًا من القوميين العراقيين قام بتأييد المطالب العراقية فى الكويت، وإن اعترضوا على الأسلوب القسرى الذى اتبعه قاسم وذكروا ذلك فى مذكرة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية(٢) .

الموقف العراقى من الدول المؤيدة للكويت :

بعد أن هدّد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأية دولة ، تعترف باستقلال الكويت ، أو تتبادل معها التمثيل الدبلوماسى ، ونفّذ تهديده بالفعل ، حيال بعض الدول العربية والأجنبية ، إذا به ينسحب من جامعة الدول العربية على أثر قبولها عضوية الكويت فى ٢٠ يولية ١٩٦١ ، وانضمامها إلى معاهدة الدفاع المشترك ، وقد عمدت السلطات العراقية إلى عدة إجراءات ، منها تعديل الخريطة السياسية للعراق ، لتضم الكويت ، ومنع قبول تأشيرات السفر إلى العراق ، الصادرة عن حكومة الكويت، وتبع ذلك استمرار سحبها لجميع البعثات الدبلوماسية من العواصم العربية والأجنبية ، التى استقبلت بعثات دبلوماسية كويتية ، وأخذت القائمة تتسع يومًا بعد يوم ، مما وضع العراق فى عزلة عربية ودولية شديدة(٣) .

وفى الحقيقة أن كل ما نجح فيه العراق خلال تلك الفترة هو تأجيل قبول الكويت فى الأمم المتحدة ، من خلال مساعدة سوفيتية ، وكانت وجهة نظر حكومة موسكو فى طلب هذا التأجيل أن ذلك من شأنه مساعدة الدول العربية على السعى إلى إيجاد

---

(١) نازلى معوض وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة »، ص ٤٧٧ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٨٦ – ٤٨٧ .

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٣ يوليو ١٩٦١ .

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، ص ١٠٠ .

تســوية لخلافاتها . وقد استند العراق فى طلبه من الأمم المتحدة رفض انتساب الكويت إلى المنظمة الدولية ، إلى حجج ثلاث[1] .

– إن الكويت ليست دولة ، ولم تكن كذلك فى يوم من الأيام .
– إنها ظلت دائمًا من الناحية القانونية والتاريخية جزءًا لا يتجزأ من العراق .
– إن الكويت لا تعدو أن تكون مستعمرة بريطانية مما لا يؤهلها للانضمام إلى المنظمة الدولية .

موقف الأحزاب العراقية من المطالبة بضم الكويت :

كان موقف الأحزاب العراقية متباينًا إزاء قضية ضم الكويت إلى العراق . فقد أيد الحـــزب الوطنى الديموقراطى مطالبة عبد الكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق ، على أســاس أنها جزء من العراق ، فصلها الاستعمار البريطانى عنه ، وأقام فيها كيانًا شكليًا لخدمة مصالحه ، وعليه فإن الكويت لا تستوفى مقومات الدولة ، وإنها مرتبطة اجتماعيًا واقتصاديًا بالعراق ، من طريق البصرة ، غير أن الحزب لم يؤيد ضمها من دون موافقة الـــدول العربية الأخرى ، ورأى فى تهديد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأيــة دولة تعترف بالكويت سياسة غير مجدية بل متهورة لأنها تؤدى إلى عزل العراق عربيًا ودوليًا[2] .

أمّـــا الحزب الشيوعى ، فكان يعارض الطريق التى حاول عبد الكريم قاسم اتّباعها لضـــم الكويـــت ويؤكـــد أن المســألة الأساسية آنذاك هى مسألة تحرير الكويت من الاستعمار وهى جزء من قضية العرب الكبرى ، قضية التحرر العربى ، وإن كانت أكثر مساسًـــا بالعراق ، نظرًا إلى العلاقات الخاصة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، ولهذا رأى أنـــه لا ينبغى التركيز فى هذا الهدف الرئيسى والمباشر ، الذى من شأنه أن يجمع تحـــت لوائه كل القوى العربية المعادية للاستعمار ، ولا يدع مجالاً لدسائس الاستعمار ضد هذه القضية العادلة ، وضد التضامن العربى[3] .

---

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، ص ١٠١ .
(٢) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، ص ٣٠٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

ولم يصدر حزب البعث العربى الاشتراكى فى العراق بيانًا حول الموضوع . وقد فسّر موقفه على صالح السعدى نائب أمين سر الحزب بقوله : « إن أسلوب عبد الكريم قاسم الدعائى فى المطالبة بالكويت ، جعل القوى والأحزاب القومية ترى فى دعوته هذه أنها مجرد ضم إقليمى لأن الوحدة لا تتحقق إلا بالأسلوب الشعبى وبالاستناد إلى الجماهير »[(١)] .

كما استنكرت الأحزاب والقوى القومية الأخرى مطالبة عبد الكريم قاسم بالكويت باعتبار أن دوافعها إقليمية وشخصية يراد بها بعث الروح فى حكمه الموشك على الانهيار، وأصدرت حركة القوميين العرب بيانًا فى ١٠ يوليو ١٩٦١ بهذا الشأن جاء فيه « إن الدعوة فى جوهرها دوافع إقليمية وشخصية ، كان النضال العربى قد لفظها ، منذ زمن طويل، وأن هذا الادعاء لا يمت إلى دعوة الوحدة العربية بصلة»[(٢)] .

أمّا الرابطة القومية فى العراق فإنها أصدرت بيانًا أكدت فيه أن عبد الكريم قاسم ، فى دعوته هذه قد نفّذ رغبة الاستعمار الإنجليزى وعبّر عن أمانيه وأطماعه أصدق تعبير، عند مناداته بضم الكويت جبرًا ، وبالقوة إلى العراق، حتى يمكننا أن نقول إن السفير البريطانى فى بغداد قد لقنه حتى الكلمات التى قالها فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى وزارة الدفاع[(٣)] .

وأضاف بيان الرابطة القومية أن الآثار المترتبة على ذلك هى[(٤)] :

- عودة القوات البريطانية إلى الخليج العربى ووقوفها فى وجه تيار التحرر العربى فى المنطقة .
- تخوف جميع أمراء الخليج ومشايخه من المطالبة بالاستقلال والسيادة ، ذلك لأن تخليهم عن الاستعمار سيؤدى فى النهاية إلى ابتلاعهم بالقوة، من قبل أية دولة عربية مجاورة .

---

(١) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ، نقلاً عن بيان حركة القوميين العرب « حول أزمة الكويت » بتاريخ ١٠ يوليو ١٩٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ص ٣٠٥ – ٣٠٦ نقلاً عن بيان الرابطة القومية فى العراق « حول أزمة الكويت المفتعلة » بتاريخ ٩ يوليو ١٩٦١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

- تجديد الخلافات وتوسيع شُقة الخلاف بين الدول العربية نتيجة لهذه المشكلة .
- محاولة عبد الكريم قاسم ، أن يشغل بدعوته شعب العراق عن جرائمه فى الداخل .

رد فعل الكويت على الادعاءات العراقية :

كان لقرار عبد الكريم قاسم وحكومته ضم الكويت إلى العراق ، رد فعل سريع فى الكويت تجلّت مظاهره فى الآتى :

فى ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، أصدرت حكومة الكويت بيانًا ردت فيه على ما ورد فى المؤتمر ، وأعلنت فيه استنكارها قرار عبد الكريم قاسم وتصميمها على الدفاع عن أراضيها وكيانها كدولة عربية مستقلة ، وجاء فى البيان : أوردت بعض وكالات الأنباء كما أذاعت محطة الإذاعة من بغداد تقارير عن المؤتمر الصحفى الذى عقده اللواء عبد الكريم قاسم فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ والذى طالب فيه بدولة الكويت ، فإذا صحت هذه التقارير فإن حكومة الكويت تعلن أن الكويت دولة عربية مستقلة ذات سيادة كاملة معترف بها دوليًا ، وأن حكومة الكويت ومن ورائها شعب الكويت بأسْره مصممة على الدفاع عن استقلال الكويت وحمايته ، وأن حكومة الكويت إذ تعلن ذلك واثقة تمامًا أن جميع الدول الصديقة المحبة للسلام، ولا سيما الدول العربية الشقيقة، ستساندها فى المحافظة على استقلالها ، وقد شفعت حكومة الكويت بيانها بإعلان حالة الطوارئ ووضعت قواتها على الحدود المتاخمة للعراق على أثر تحرك القوات العراقية قرب حدود الكويت وحشدها هناك مع اتخاذها استعدادات واسعة[1].

وفى الوقت نفسه دخلت حكومة الكويت فى مشاورات سرية عاجلة مع بريطانيا لبحث الموقف الناشئ عن قرار عبد الكريم قاسم وقد جرت هذه المشاورات بين الشيخ عبد الله السالم الصباح ، والسير جون رتشموند ممثل بريطانيا فى الكويت[2] . وأكدت الحكومة الكويتية ، فى بيان آخر أصدرته فى ٢٩ يونية ١٩٦١ : أن الادعاءات

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٢ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٤ .

(٢) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

العراقية لا ترتكز على أى أساس من الصحة التاريخية ، وإن دلت على شيء فقد دلت على مغالطات فى التاريخ والواقع ، كما أسفرت عن مطامع إقليمية غير مشروعة[1] .

وفى يوم ٣٠ يونية ١٩٦١ ، صدر بيان عن مجلس الكويت الأعلى ، يشرح فيه للشعب الكويتى أسباب طلب الكويت المعونة العسكرية من المملكة العربية السعودية ، وبريطانيا ، جاء فيه : « إن أمير الكويت أبرق إلى الملك سعود ، ملك المملكة العربية السعودية يخبره بالتهديد العراقى بضم الكويت ، وعن الغزو المتوقع من العراق ، وأن الملك سعود استجاب من الفور وأمر بإرسال قوات عسكرية لمساعدة الكويت استنادًا على اتفاقية الدفاع المشترك التى سبق عقدها بين البلدين فى يوليو ١٩٤٧ » ، ومضى البيان يقول : « إنه بالنظر إلى الموقف الذى وضعنا قاسم فيه – مجبرين ، لا مختارين فإن أمير الكويت طلب المساعدة العسكرية من حكومة المملكة المتحدة التى لبت الطلب على الفور ، وأرسلت قواتها لمساعدة جيش الكويت فى دفاعه عن الوطن ، وأن هذه القوات ستنسحب حالما تنتهى الأزمة[2] .

رجع سبب وصول القوات البريطانية إلى الكويت ، بهذه السرعة إلى الخطاب الذى أرسله الشيخ عبد الله السالم الصباح إلى السير جون ريتشموند ممثل بريطانيا فى الكويت طالبًا فيه معاونة الحكومة البريطانية ، وإلى المشاورات العاجلة بينهما لبحث الإجراءات التى يجب اتخاذها لمواجهة قرار حكومة العراق خاصةً بعد إغلاق الكويت حدودها معه ، والتى ترتب عليها وصول قوات المظلات البريطانية الموجودة فى قاعدة البحرين إلى الكويت ، كما أرجأت القوات البريطانية ووحدات الأسطول البريطانى رحيلها عن الكويت بعض الوقت ، إذ أن قرار عبد الكريم قاسم جاء فى اللحظة عينها، التى كان فيها الأسطول البريطانى يتأهب للجلاء عن الكويت على أثر إعلان استقلالها[3] .

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٢ .

(٢) مركز البحوث والدراسات الكويتية « العدوان العراقى على الكويت – الحقيقة والمأساة » ، الطبعة الثانية ١٩٩٤، ص ٥٤ ، انظر كذلك عبد الله الحاتم ، « من هنا بدأت الكويت » ، دمشق طبعة ١٩٦٢ ، ص ٣٦٧ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٨٦ – ٤٨٧ .

(٣) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

وأصدرت الحكومة الكويتية كتابًا بعنوان : «حقيقة الأزمة بين الكويت والعراق»، وأوردت بـه مجموعـة من الوثائق الرسمية ، الصادرة عن حكومة العراق نفسها ، فى أوقـات مختـلفة ، وبعضها يحمل توقيع عبد الكريم قاسم ، وأخرى تحمل توقيع وزير خارجيته ، هاشم جواد ، ومثال ذلك رسالته إلى شيخ الكويت فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٨ يطلـب فـيها فتح قنصلية عراقية فى الكويت ، وكلها مراسلات تنطوى على اعتراف ضـمنى باسـتقلال الكويت ، إلى جانب مراسلات أخرى ، تضمنت رغبة العراق فى توسيع مجالات التعاون الاقتصادى والثقافى بين البلدين وبيانات مشتركة بينهما ، كما أن العـراق أيّد طلب الكويت الانضمام إلى عدة منظمات ، دولية وعربية ، استكمالاً لشخصـيتها الدولية[١] . وأحاط الشيخ عبد الله السالم الصباح ، كذلك الدول العربية عـلمًا بموقف عبد الكريم قاسم من استقلال الكويت وكذلك ، أُعلمت جامعة الدول العربية والأمم المتحدة بالتهديد العراقى[٢] .

وقـد لجأت الكويت إلى ذلك ، لأن المسئولين الكويتيين وجموع الشعب ، أُخذوا عـلى حين غرة من أمرهم ، عندما أعلن العراق أن استقلال الكويت مزيف ووجدوا أنفسـهم غـير قادرين وغير مستعدين على الإطلاق لمواجهة القوة العسكرية العراقية المـتحفزة ، والتهديدات العلنية الواضحة ، وفى حقيقة الأمر أن الكويت كانت تملك جيشًا صغيرًا يراوح قوامه بين ألفين وثلاثة آلاف جندى فقط ، إضافة إلى ١٢ طائرة ، أربعـة منها عمودية فى حين كان لدى العراق جيش قوامه أكثر من ٦٠ ألف جندى ومعـدات وأسـلحة وطائرات مقاتلة سوفيتية حديثة ، وفى ظل هذه الأوضاع أصبح هدف الكويت الرئيسى والأساسى هو الدفاع عن النفس أمام التهديدات العراقية[٣] .

---

(١) جمـال زكريا قاسم « الخليج العربى : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ » ، ص ص ١٠٨ - ١١٢ .

(٢) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

(٣) عبد الرضا على أسيرى « الكويت فى السياسة الدولية المعاصرة » ، جامعة الكويت ، الطبعة الأولى ، مارس ١٩٩٣ ، ص ٧٣ .

التزام بريطانيا تجاه الكويت :

بعد أن أعلن عبد الكريم قاسم ، فى مؤتمره الصحفى فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ ، نيته فى ضم الكويت كجزء من العراق ، سارعت الحكومة البريطانية بعد أن تلقت تقريرًا عاجلاً عن المشاورات بين حاكم الكويت وممثل بريطانيا إلى إعلان « أن الكويت فى نظر البريطانيين دولة مستقلة ذات سيادة وأنها اشتركت فى عدة منظمات دولية ، كدولة مستقلة ، ولهذا اعتُرف بها دوليًا ، دولة مستقلة بل إن العراق نفسه قد صوت فى مصلحة عضوية الكويت فى الاتحاد الدولى للاتصالات السلكية واللاسلكية » . كما أكدت وزارة الخارجية البريطانية رسميًا ، « أن الحكومة البريطانية لديها التزام بمساعدة حكومة الكويت متى طلبت الأخيرة ذلك ، تنفيذًا لمعاهدة ١٩ يونية ١٩٦١» (معاهدة التشاور أو المساعدة)[١] .

وعلى الفور بادر السير هيمفرى تريفليان (١٩٥٨ – ١٩٦١) Humphrey Trevelyan ، السفير البريطانى لدى بغداد إلى مقابلة هاشم جواد وزير الخارجية العراقى فى ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، وأخبره بوجهة النظر البريطانية ؛ « أن الكويت دولة مستقلة وأن أى تهديد لسيادتها سوف يكون موضوعًا عميق الأثر »[٢] .

ومنذ ذلك الوقت عقدت الحكومة البريطانية العديد من الاجتماعات ، وكذلك الحال بالنسبة إلى البرلمان البريطانى ، وأصدرت الحكومة البريطانية العديد من البيانات الرسمية التى تؤكد موقف الحكومة المؤيد لاستقلال الكويت ، كما أخذت على عاتقها عبء الدفاع عن قضية الكويت فى الأمم المتحدة[٣] .

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٨٣ – ٤٨٤ نقلاً عن The times June 27, 1961 .

(٢) نازلى معوض ، المصدر السابق ، ص ٤٨٤ نقلاً عن . N.Y Times , June 27, 1961

(٣) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، سبتمبر ١٩٧٨ ، ص ص ٢٦ – ٢٧ ، انظر كذلك ، ناتنج ، انتونى ، « ناصر » ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ ، ص ٣٢٩ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٤ .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأعلنت حالة الطوارئ بين قواها داخل إنجلترا وفى قواعدها فى الشرق الأوسط ، وقطع وزير الدفاع البريطانى إجازته واستدعى قادة الأسلحة البريطانية من عطلتهم واتُّفق فى اجتماع عقده معهم على جعل التدابير العسكرية البريطانية فى الشرق الأوسط فى المستوى الذى يسمح للقوات البريطانية بمواجهة أية حالة من حالات الطوارئ فى المنطقة(١) .

وفى الكويت أجرى الشيخ عبد الله السالم الصباح مباحثات سرية مع السير ريتشموند حول ما يمكن عمله تجاه التهديدات العراقية . ولذلك أعلنت قيادة القوات البريطانية المنسحبة من الكويت تأجيل انسحابها إلى حين اتضاح الرؤية أكثر(٢) .

ففى ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، تلقت القوات البريطانية ووحدات الأسطول التى كانت تتأهب للرحيل عن الكويت عقب إلغاء اتفاقية الحماية أوامر عاجلة من لندن بتأجيل رحيلها والبقاء فى الكويت إلى حين صدور تعليمات أخرى(٣) .

وفى ٢٩ يونيه ١٩٦١ ، أصدرت وزارة البحرية البريطانية تعليماتها إلى وحدات الأسطول البريطانى بتغيير اتجاهها والتوجه من الفور إلى مياه الخليج . تحركت بالفعل ، الطائرات «فيكتورياس» من سنغافورا ، والمدمرة «لدخ روثفين»، والطرادان «يارموث» و «لانداف» من هونج كونج وقد بلغ عدد هذه القطع البحرية ثمانى قطع ذهبت إلى البحرين(٤) .

وفى يونيه ١٩٦١ ، أعلن رئيس الوزراء البريطانى هارولد ماكميلان - (Maurice Harold Macmillan) أن الحكومة البريطانية ، وبناء على طلب حكومة الكويت ، مضطرة إلى اتخاذ بعض التدابير الوقائية الضرورية بعد أن هدّد العراق بضم الكويت(٥) .

---

(١) جمال زكريا قاسم ، «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٦ - ٧٧، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٨ ديسمبر ١٩٦١ ، نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٨٤ ، The Times, 4/1/1961 .

(2) Foreign Office Records, F.O. 391, 28099, 1961

(3) Ibid

(4) Foreign Office Records, F.O. 391, 28199, 1961

(5) F.O. 391, 28200

وفى اليوم نفسه نزل ٧٥٠ جنديًا بريطانيًا فى الكويت إضافة إلى قوات المظلات التى سبقتهم قادمين من القاعدة البريطانية فى البحرين إضافة إلى تلك التى كانت موجودة فيها من قبْل ، وانتشروا على طول الحدود مع العراق ، وقد قدر عدد القوات البريطانية المرابطة فى الكويت ، حتى ذلك الوقت بنحو ٥ آلاف جندى بقيادة البريجادير : هورسفورد « فى عملية فانتاج (Vantage) وتوغلوا إلى مسافة خمسة أميال من الحدود العراقية على طول الحدود بين البلدين[(١)] .

وفى ٣٠ يونيه ١٩٦١، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية بيانًا حول نزول القوات التى بدأت تتدفق إلى الكويت واستمرت حتى يوم ٦ يولي، ، قالت فيه : « إن العملية جرت بناءً على طلب رسمى عاجل من حاكم الكويت » . وأنها أبلغتها « إلى الأمين العام للأمم المتحدة » . وقال البيان ، كذلك : « إن القوات نزلت ، وستوضع تحت تصرف حاكم الكويت » . وقرأ المتحدث الرسمى فى وزارة الخارجية البريطانية ، نص الخطاب ، الذى تلقاه ممثل بريطانيا فى الكويت من حاكمها ، والذى يقول فيه : « نظرًا إلى التحركات العسكرية ، التى قام بها الجيش العراقى ، على حدود الكويت ، مما يهدد أمن البلاد ، قررت أن أُقدم طلبًا إلى حكومة جلالة الملكة لإرسال معونة عسكرية وفقًا للمذكرات التى تبادلناها مع السير وليم لوس يوم ١٩ يونيه ١٩٦١ . وإنى أود أن تبلغوا حكومتكم بهذا فورًا . وإنى على ثقة تامة بأن حكومة جلالتها ستتخذ كل التدابير اللازمة لردع المعتدين[(٢)] .

وفى الوقت الذى كانت فيه القوات البريطانية تتدفق إلى الكويت ، وفى ٢ يوليه ١٩٦١، أعلن السير باتريك دين Patrick Dean مندوب بريطانيا فى مجلس الأمن ، « أن الحكومة البريطانية ستسحب قواتها من الكويت بمجرد أن يرى حاكم الكويت أن حالة التهديد التى تتعرض لها بلاده قد انتهت » . وقال : « إن قوات بلاده ، التى أُرسلت إلى الكويت ستستخدم فقط ، إذا ما وقع هجوم على الكويت . وإن الحكومة البريطانية تود أن تبقى بكل إخلاص على علاقاتها الودية مع حكومة العراق وشعب العراق[(٣)] .

---

(1) F.O. 391, 28201.

(2) F.O. 391, 28202, See also.

عبد الرضا على أسير ، «الكويت فى السياسة الدولية المعاصرة»، جامعة الكويت، طبعة ١٩٩٣، ص ٧٤.

(2) F.O. 391, 28203, See also.

ناتنج ، أنتونى ، «ناصر»، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ص ٣٢٩ ، ميمونة خليفة الصباح ، «الكويت فى ظل الحماية البريطانية» ، ص ٤٨٤ .

وفى الأول من يناير ١٩٩١، كشفت وثائق وزارة الدفاع البريطانية – على أثر رفع القيود السرية عنها بعد مرور ٣٠ عامًا عليها – النقاب عن تفاصيل الخطط ، التى وضعتها هيئة الأركان العامة البريطانية عام ١٩٦٠ بناء على طلب الحكومة البريطانية آنذاك ، للتدخل فى أغسطس ١٩٦٠ ، أن خطط التدخل البريطانى تهدف إلى تغطية الاحتمالات التالية[١] :

١ – تهديد الكويت من الخارج .

٢ – (أ) انتفاضة داخلية بحت .

(ب) انتفاضة داخلية ، بتأييد تخريبى من الخارج ، واحتمال التهديد .

وبينما قصرت الوثيقة إمكانية حدوث الاحتمال رقم (١) ، أى تهديد عسكرى علنى على العراق فقط ، واستبعدت حدوث الاحتمال رقم (٢– أ) نظرًا إلى مكانة الأسرة الحاكمة فى الكويت . ذكرت أن الاحتمال رقم (٢ – ب) قد يحدث من قبل العراق ، أو الجمهورية العربية المتحدة[٢] .

كما كشفت الوثائق البريطانية النقاب عن موقف الأردن ، فعلى الرغم من سوء العلاقات الأردنية العراقية ، بسبب مقتل الملك فيصل الثانى ، ملك العراق – ابن عم الملك حسين – فى ثورة ١٤ يولية ١٩٥٨ ، إلا أن الملك حسينًا كان يحرض عبد الكريم قاسم سرًا ، بل إنه كان يكن تعاطفًا شديدًا مع المطالبة العراقية بضم الكويت فضلاً عن أنه كان هو نفسه يطمع فى ضم الكويت ، قبل ذلك ، منذ فبراير ١٩٥٨ أيام نورى السعيد ، تحت لواء الاتحاد العربى الهاشمى[٣] .

الأسباب التى دفعت بريطانيا للاستجابة لطلب الحكومة الكويتية بحماية أراضيها:

لقد كثرت التفسيرات التى حاولت توضيح المسلك البريطانى تجاه الأزمة والعمل على احتوائها[٤] :

---

(١) نازلى معوض وآخر ، المرجع السابق ، ص ٤٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٤٨٣ – ٤٨٤ .

(3) F. O. 391, 282005.

(٤) جمال زكريا قاسم « الخليج العربى ١٩٤٥ – ١٩٧١» ، ص ص ٩٦ – ٩٩ ، انظر كذلك نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٨٥ – ٤٨٦ .

التفسير الأول : إذا ما قبلنا التفسير القائل أن الذهب الأسود (النفط) كان يقف خلف الأطماع العراقية فى الكويت ، فإننا نقبل كذلك التفسير القائل إن النفط هو العامل المهم فى تفسير رد الفعل البريطانى السريع ، تجاه التهديدات العراقية فقد قُدِرَتْ احتياطيات الكويت من النقط ، فى تلك الفترة بحوالى ٢٦ ألف مليون برميل . وهى أكبر كمية فى الشرق الأوسط ؛ إذ تمثل حوالى ثلث إجمالى الاحتياطيات النفطية فى المنطقة ، ورابع أكبر منتج للنفط فى العالم ، إذ قدر إنتاج الكويت عام ١٩٦١ بحوالى مليون و ٧٠٠ ألف برميل ، فى اليوم تبلغ قيمتها ٤٥٠ مليون دولار فى السنة . هذه الثروة الطائلة تقبع فى دولة مساحتها ١٧ ألف كم٢ ، وتعداد سكانها نحو ٢٥٠ ألف نسمة ، وكانت بريطانيا تدرك جيدًا آنذاك أن فقدانها ثروة الكويت النفطية سوف يؤثر تأثيرًا كبيرًا فى اقتصادها .

التفسير الثانى : كانت بريطانيا تسعى إلى إبعاد التهديد العراقى للكويت ، خوفًا من أن يؤثر ذلك فى مركز النقد الكويتى ، الذى يُستثمر فى كثير من المصارف البريطانية ، بالإضافة إلى أن الكويت كانت تُعد منطقة رئيسية للجنيه الاسترلينى فى الشرق الأوسط .

التفسير الثالث : يرى بعض المحللين ، أن التحركات البريطانية كانت نتيجة لنظام جديد لإعلان حالة الطوارئ فى القوات المسلحة ، وأن ما حدث ليس إلا اختبارًا لصلاحية هذا النظام عمليًا .

التفسير الرابع : ويرى آخرون أن وزارة الدفاع البريطانية أرسلت قواتها إلى الشرق الأوسط ، كإجراء دفاعى حملها عليه شكّها فى أن عبد الكريم قاسم ، يعتزم مهاجمة الكويت مهاجمة خاطفة .

التفسير الخامس : ويرى فريق ثالث أن التحركات البريطانية ربما كانت تخفى مؤامرة واسعة ، للقضاء على حركات التحرر الوطنى فى الشرق الأوسط ، وذلك بضرب العراق ، ثم التفرغ لضرب الجمهورية العربية المتحدة .

التفسير السادس : يعتقد أصحابه أن التحركات البريطانية العسكرية كانت تمهيدًا لإحداث انقلاب فى العراق بالاتفاق مع الفريق محمد نجيب الربيعى ، رئيس مجلس السيادة العراقى للتخلص من عبد الكريم قاسم ، اتقاءً لخطر مبادرته إلى تأميم نفط

العراق فجأة ، أسوة بعبد الناصر مؤمم قناة السويس فى مصر فضلاً عن تهديد عبد الكريم قاسم بضم الكويت[١] .

التفسير السابع : وهو التفسير الشائع على الرغم من كثرة معارضيه يرى أنصاره أن بريطانيا قد اختلقت أزمة عام ١٩٦١ بالاتفاق مع عبد الكريم قاسم الذى لم يكن لديه أى نية لغزو الكويت ، بل لم يكن ينوى تنفيذ تهديده فهم يرون أن بريطانيا اتّبعت سياسة مزدوجة إزاء هذه الأزمة . فبينما هى توقع إلغاء معاهدة الحماية ، وتعترف باستقلال الكويت إذا بها تحث عبد الكريم قاسم ، فى الوقت عينه على افتعال هذه الأزمة . ويستدل هؤلاء فى تفسيرهم بأن مسارعة بريطانيا إلى إنزال قواتها فى الكويت أثناء الأزمة تشير إلى أن الأمر كان مدبرًا ، وأن السلطات العسكرية البريطانية كانت على علم مسبق بوقت إثارة الأزمة[٢] .

هكذا ، تعددت تعليلات السلوك البريطانى تجاه أزمة ١٩٦١ ، ولكن أكثرها دقة وتأكيدًا هو أن النفط الكويتى والنقد الكويتى وقفا بقوة وراء التحرك العسكرى البريطانى، كما أن رغبة بريطانيا فى إثبات أنها لا تزال صاحبة الذراع القوية فى المنطقة واختبار مدى قدرتها على ذلك ، تأتى فى مرتبة تالية ، جنبًا إلى جنب مع رغبتها فى تقليص مركز قوى التحرر الوطنى وزعزعتها فى المنطقة .

الموقف العربى من الأزمة العراقية / الكويتية :

ظهرت ردود الفعل العربية التى كانت لها الدور الأساسى فى مواجهة تداعيات الأزمة ، من خلال مواقف ثلاث قوى عربية فاعلة ، هى : الجمهورية العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية ، وجامعة الدول العربية ، بالإضافة إلى موقف المملكة الأردنية الهاشمية وسوريا .

---

(١) جريدة الأهرام ، العدد الصادر يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ .

(٢) ميمونة خليفة الصباح، «علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر» ص ص ٤٨٣-٤٨٧ .

موقف الجمهورية العربية المتحدة :

كان موقف القاهرة من حصول الكويت على استقلالها واضحًا منذ اليوم الأول ، ففى ٢٠ يونيه ١٩٦١ وعلى المستوى الإعلامى أعربت جريدة « الجمهورية » ، عن ترحيبها بالكويت المستقلة الحرة جزءًا من الوطن العربى الكبير . وذكرت أن الكويت كانت دائمًا مستقلة فى حقيقة أمرها ترفض السيطرة وتتنكر للمستعمرين[١] .

وفى ٢٣ يونيه بعث الرئيس جمال عبد الناصر ببرقية تهنئة إلى أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح ، قال فيها : « فى هذا اليوم الأغر ، الذى انبثق فيه فجر جديد فى تاريخ الوطن العربى باستقلال الكويت وسيادته ، لا يسعنى إلا أن أبادر بالإعراب عن ابتهاج شعب الجمهورية العربية المتحدة ، وعظيم اغتباطنا بهذا الحدث التاريخى المجيد ، الذى اهتزت له مشاعرنا فرحًا ، وسعدت به نفوس العرب جميعًا ، وليس أحب إلى قلوبنا إلا أن ننتهز هذه المناسبة السعيدة لأبعث إلى سموّكم وإلى شعب الكويت الشقيق بأجمل تمانينا القلبية ، وأمانينا الصادقة ، داعين الله – تعالت قدرته – أن يكتب لكم التوفيق والسداد ، وأن يمدكم بعون حتى يصل الكويت فى عهده الجديد ، بفضل قيادتكم إلى تحقيق ما يصبو إليه من عزة ومجد ورفاهية ، وأن تعمل جنبًا إلى جنب مع شقيقاتها الدول العربية فى سبيل تدعيم القومية العربية وإعزازها وإننا لنتطلع ويتطلع معنا العرب فى كل مكان إلى اليوم الذى تنال فيه بقية شعوب الأمة العربية المكافحة حريتها وسيادتها »[٢] .

فعلى الرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تتزعم التيار العربى الوحدوى وتنادى بالوحدة العربية ، إلا أنها وجدت فى مطالبة عبد الكريم قاسم بضم الكويت ما يتعارض تمامًا مع ذلك التيار فعارضته . وقد أوضحت موقفها الرسمى من مشكلة

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩١ نقلاً عن صوت الكويت الدولى ، ١٥ يناير ١٩٩٢ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، برقية تهنئة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح يوم ٢٣ يونيه ١٩٦١ .

الحدود بين الكويت والعراق فى ثلاثة بيانات رسمية صدرت فى ٢٧ و ٣٠ يونيه ١٩٦١ و ٥ يوليو ١٩٦١ على التوالى[١] .

فمع اندلاع الأزمة أوضحت الجمهورية العربية المتحدة موقفها الرسمى فى بيانها الأول الصادر فى ٢٧ يونيه ١٩٦١ والذى أذاعه وزير الدولة ، آنذاك محمد عبد القادر حاتم واعترضت فيه على ادعاءات عبد الكريم قاسم ، وقد تضمن البيان ست نقاط تتلخص فى[٢] :

- إن الجمهورية العربية المتحدة تؤمن بأن العلاقات بين الشعوب العربية لا تحكمها معاهدات أو اتفاقيات قديمة أو حديثة ، وإنما العلاقات بين الشعوب أعمق من ذلك بكثير .
- وإنها لا تقبل منطق « الضم » وإن كانت على استعداد لبذل كل جهدها لتأييد منطق الوحدة الشاملة .
- إن الوحدة الشاملة بين مصر وسورية لا يمكن بطبيعتها إلا أن تكون سندًا لكل اتجاه إلى الوحدة ، ولكن الوحدة لا يجب إلا أن تكون تعبيرًا اجتماعيًا عن إرادة شعبية عربية متبادلة قائمة على الاختيار الحر .
- إنها ترى أنه من واجب الشعوب العربية الكبيرة أن تكون سندًا يعزز قدرة الشعوب العربية الصغيرة .
- إن الشعب العراقى يملك أسباب الدعوة إلى الوحدة بينه وبين شعب الكويت ، ما هو أعمق وأبقى من وثائق الإمبراطورية العثمانية وإن هذا الشعب يملك قوميته العربية ، بقدر ما يملك شعب الكويت من هذه القومية ، وتلك فى حد ذاتها كفيلة بصنع الوحدة السياسية .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، البيانات الرسمية التى أصدرتها الجمهورية العربية المتحدة أيام ٢٧، ٣٠ يونيه ، ٥ يوليو ١٩٦١ تحدد فيها موقفها الرسمى من مشكلة الحدود .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

– دعـــت الجمهورية العربية المتحدة ، فى نهاية البيان إلى ضرورة إنهاء هذا الموقف الطـــارئ ، وأكدت على أنها لا تتصور يومًا يقف فيه جندى عربى فى مواجهة جندى عربى آخر .

وفى ٢٩ يونـــيه ١٩٦١ كلف الرئيس جمال عبد الناصر وزير العدل المركزى فاخر كـــيالى – ســـورى – بـــأن يسافر إلى الكويت على رأس وفد يمثل الجمهورية العربية المتحدة لتهنئتها بالاستقلال[١] .

ومع تواتر المعلومات حول صدور الأوامر إلى بعض قوات الجيش العراقى بالتحرك صـــوب الحدود الكويتية ، ومع تدفق المعلومات حول التحرك العسكرى البريطانى نحو الكويـــت أصدرت الجمهورية العربية المتحدة بيانها الثانى فى ٣٠ يونيه ١٩٦١ رفضت فيه أنباء التحركات العسكرية العراقية والبريطانية معًا ، وتضمن البيان : « أن حكومة الجمهوريـــة العربـــية المتحدة ، تتابع بقلق تطورات الساعات الأخيرة فى الأزمة ما بين حكومة الكويت وحكومة الجمهورية العراقية ، ولقد تلقت الجمهورية العربية المتحدة ، من طريق مصادرها المختلفة ما يشير إلى أن قوات من الجيش العراقى قد صدرت إليها الأوامر بالتحرك صوب حدود الكويت . كما تلقت أن بعض الدوائر فى بغداد تبحث جديًـــا احتمالات التدخل العسكرى ، وفى هذا الجو المشحون ، فإن الجمهورية العربية المـــتحدة تتوجّه برجائها وأملها إلى الشعب العراقى العظيم ، واثقة أنه لن يرضى بغير مبادئ النضال العربى بديلاً يلهمه ويرشده إلى طريق الواجب العربى » .

وأضـــاف البيان : « أن الجمهورية العربية المتحدة تتابع بأسف وبشعور عميق من عدم الرضا عن هذه التحركات العسكرية للأسطول البريطانى وأنها لتؤمن أنه ليس من حق عربى – على غير أساس من مطلب شرعى من المطالب العادلة للنضال العربى – أن يعرض سلامة الأمة العربية للمناورات الدولة ولاحتمالات التدخل الاستعمارى ...» ، وكـــررت الجمهوريـــة العربـــية المتحدة فى نهاية بيانها ثقتها بأن الشعب العراقى الذى استطاع بثورته أن يعلى منطق الإرادة الشعبية ، لا يمكن أن يقبل شيئًا لا ينبثق من إرادة شعبية[٢] .

---

(١) جريدة الأهرام ، عدد يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١ إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

ومع انعقاد مجلس الأمن لمناقشة الأزمة العراقية – الكويتية ، فى الفترة من ٢ إلى ٧ يوليو ١٩٦١ أعلن وزير الدولة ، محمد عبد القادر حاتم ، أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة أمرت وفدها الدائم فى الأمم المتحدة برئاسة السفير عمر لطفى بتبنى اقتراح «طلب الكويت الانضمام إلى الأمم المتحدة» مع المطالبة « بجلاء القوات البريطانية فورًا، عن الكويت جلاء تامًا وناجزًا »[١] .

وفى ٥ يوليو ١٩٦١، صدر بيان ثالث عن الجمهورية العربية المتحدة ، دعت فيه إلى جلاء القوات البريطانية عن الكويت ، بعد أن أكدت الحكومة العراقية عدم اللجوء إلى الحلول العسكرية، وأنها ستتبع الأسلوب السلمى ، وتعهدها بذلك فى مجلس الأمن[٢]، ولكن الحكومة الكويتية ردت على دعوة الجمهورية العربية المتحدة فى بيان لها صدر فى اليوم التالى ، أكدت فيه : « إن مجرد إعلان العراق أنه لن يلجأ إلى القوة لتحقيق أهدافه لا يكفى وأن حل المشكلة يجب أن يتضمن ضمانات دولية كافية لحماية أمن الكويت »[٣] .

وفى ١٢ يوليو ١٩٦١ ، تسلم الرئيس جمال عبد الناصر رسالة من الشيخ عبد الله السالم الصباح، سلمها له ولىّ العهد الكويتى الشيخ جابر الأحمد الصباح (أمير الكويت الحالى) ، تضمنت طلبًا من الجمهورية العربية المتحدة لإرسال قوات منها إلى الكويت لتوطيد استقلال الكويت الذى هدده عبد الكريم قاسم[٤] .

---

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، برقية من الدكتور محمود فوزى – وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة إلى السفير – عمر لطفى – رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة الدائم فى الأمم المتحدة – يوم ٢٩ يونيو ١٩٦١ ، انظر كذلك بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراق عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٥ يوليه ، ١٩٦١ . إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

(٣) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراق عام ١٩٦١ ، رد الحكومة الكويتية يوم ٦ يوليه ١٩٦١ ، على بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٥ يوليو ، ١٩٦١ .

(٤) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراق عام ١٩٦١ ، رسالة من الشيخ عبد الله السالم الصباح إلى الرئيس جمال عبد الناصر يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ .

ورد الرئيس جمال عبد الناصر على رسالة أمير الكويت ، موضحًا الآتى[1] :

– تعـرف الجمهورية العربية المتحدة أن الإنجليز حاولوا مرارًا إنزال قواتهم فى الكويت ولكـنها كانـت دائمًا تعترض على ذلك . وحاول الإنجليز ذلك عام ١٩٥٦ أثناء معـركة السـويس ، وحاولوا وقت ثورة العراق عام ١٩٥٨ بعد إنزال قواتهم فى الأردن وإنزال القوات الأمريكية فى لبنان ولكن الكويت صممت على الرفض .

– أكـدت الجمهورية العربية المتحدة أن الخطر الذى واجهته الكويت بعد تصريحات عبد الكريم قاسم وتهديداته السافرة كان خطرًا مباشرًا إلى درجة أن الناس على حد مـا وصف المندوب الكويتى إلى الجامعة العربية ، أحرقوا ما فى البلد من حبال خوفًا من السحل .

– رغبت الجمهورية العربية المتحدة ، فى إرسال قوات إلى الكويت إذ إن المسألة ليست الكويـت وحـدها وإنما هى كانت متصـلة بالموقف العربى كله والموقف الدولى، ولا يمكـن لأحد أن يعمل فى عزلة عن هذه العوامل ، ولو بادرت الجمهورية العربية المتحدة إلى إرسال قوات إلى الكويت لركزت القوى الاستعمارية جهدها فى تشويه موقعهـا وتصويره على أنها – الجمهورية العربية المتحدة – تحاول أن تسبق حكومة العـراق إلى السـيطرة على الكويت وهو ما يصعب على الجمهورية العربية المتحدة تصـوُّره ، وإذا كانت الدعاية الاستعمارية تحاول تصوير دعوة القومية العربية على أنها قناع للمطامع ، فإن الجمهورية العربية المتحدة يهمها أن تعرف حكومة الكويت ما يلى :

١– يسـعد الجمهورية العربية المتحدة ، كل خير للكويت ، وتريد لخيرها أن يبقى لشعبها .

٢– طالبـت أصـوات فى العـالم العربى وفى خارجه ، الكويت ، بأن تعطى بعض عائداتهـا للدول العـربية ، والجمهورية العربية المتحدة ترفض ذلك أسـاسًا ،

---

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ ، رسالة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى أمير الكويت يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ . ردًا على رسالة الأمير .

ولو عرض عليها قرش واحد من الكويت ، لاعتذرت عن عدم قبوله وصممت علـى الاعتذار إيمانًا منها بأن المستقبل العربى يجب أن يقوم على المبادئ لا على المطامع .

٣- قـد يقـال إن هناك تبذيرًا فى صرف عائدات النفط العربى والجمهورية العربية المتحدة ، تشـعر أن تلك ليست مشكلتها وإنما هى مشكلة متروكة للتصور العربى العام .

- لا تستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تقبل نزول قوات استعمارية فى أية بقعة من الوطن العربى ، وهى تَعُدّ « الوجود البريطانى » فى الكويت، خطرًا داهمًا يجب إبعاده فورًا ، ومن جهـة أخرى فهى تدرك أن شـعب الكويت يريد « الطمأنينة » بعد ما وجِّه إليه من تهديدات . ولهذا فهى ترى أنه لا بدّ من توفير طمأنينة عربية لشعب الكويـت ، وتـرى أن الاقـتراح الكويتى لإرسال قوات عربية لتحل محل القوات البريطانية قادر على توفير هذه الطمأنينة ، كذلك تسهم عضوية الكويت فى الجامعة العربية ، وفى الأمم المتحدة بعد ذلك فى تدعيم هذه الطمأنينة ، وذلك ريثما يستطيع الضمير العربى أن يسوى الأزمة العربية فى نطاق عربى .

- تفضـل الجمهوريـة العربية المتحدة ألا تبعث بقوات من جيوشها إلى الكويت لعدة أسباب ، بينها ألا تتيح سببًا لإثارة التأويلات مهما يسهل الرد عليها لصدورها عن أصحاب الهوى والغرض .

- يخلق ذهاب قوات من الجمهورية العربية المتحدة ، عنادًا استعماريًا ، يُعقّد الأمور ، وقـد يخلق كذلك عنادًا عراقيًا ، وهى تريد ألا تترك للاستعمار حجة ، ولا ذريعة فـإن هدفهـا لـيس أن تبعـث قواتها إلى الكويت ، وإنما هدفها أن تخرج القوات البريطانية منها ، وأن يبقى الاستقلال الكويتى ممثلاً لإرادة شعب الكويت .

- إن الجمهوريـة العربـية تـريد أن تبقى كل جندى من جنودها على الخطوط مع إسـرائيل، ولهذا فإنها حرصت على أن تستثنى من إرسال القوات إلى الكويت ، أى دولة عربية لديها خطوط مع إسرائيل ، بل إن المملكة العربية السعودية نفسها، ناشد مليكها سعود ، اللواء عبد الكريم قاسم ألا توجَّه القوات العربية بعضها ضد بعض ، بل نحو العدو الإسرائيلى الرابض على حدود الإقليم الشمالى (سورية) .

وفى ١٢ يوليو ١٩٦١ ، تقدمت الكويت بمذكرة طلبت فيها الانضمام إلى الجامعة العربية ومساندة الدول العربية لها ضد التهديد العراقى ، وتعهدت فى مذكرتها بسحب القوات البريطانية من الكويت ، حينما تشكل الجامعة العربية قوات عربية لتحل محلها ، وقد عقدت جلسة لمجلس الجامعة فى اليوم عينه لمناقشة طلب الكويت ، ومناقشة التهديد العراقى لها ، ولكن لم يسفر الاجتماع عن شىء ، نظرًا إلى تهديد العراق بالانسحاب ، إذا ما قُبلت الكويت عضوًا فى الجامعة . وردًا على طلب العراق تأجيل بت انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، أعلنت الجمهورية العربية المتحدة فى الجلسة الثانية للجامعة العربية ، التى عُقدت فى ١٣ يوليو أن « التأجيل لا يحل المشكلة »[١] .

وفى اجتماع الجامعة العربية فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، شدّد مندوب الجمهورية العربية المتحدة فى الجامعة العربية على أمرين: « الأول : انضمام الكويت إلى الجامعة ، والثانى: إحلال قوات عربية مكان القوات الأجنبية الموجودة فى الكويت . وهو ما تحقق ، فقد وافقت الجامعة العربية فى هذه الجلسة على انضمام الكويت إليها ، بعد أن تعهد أميرها بأن يطلب من الحكومة البريطانية سحب قواتها من أراضى بلاده ، حينما تصل إليها قوات أمن الجامعة العربية[٢] .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، وقع الانفصال بين سورية ومصر ، وألغيت الوحدة ، من جانب سورية إثر انقلاب عسكرى ، قادته مجموعة من الانفصاليين السوريين ، فى الإقليم الشمالى . وفى ١٢ أكتوبر ١٩٦١ ، قامت مصر بسحب قواتها من الكويت ، على أثر انفصال سورية، وتوترت العلاقات بين مصر وكل من الأردن والمملكة العربية السعودية ، بعد اتهام الحكومة المصرية لهما بالمشاركة فى مساندة الحركة الانفصالية[٣] .

وفى حين استمر الدعم المصرى للحكومة الكويتية فى مواجهة الادعاءات العراقية فإن الحكم السورى الجديد اتخذ منحى مختلفًا بعض الشىء إذ سارت العلاقات

---

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، ص ١٠٠ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، جلسة مجلس الجامعة يوم ٢٠ يولية ١٩٦١ ، كلمة مندوب الجمهورية العربية المتحدة .

(٣) خالد السرجانى « جذور الأزمة بين العراق والكويت » بمجلة السياسة الدولية ، عدد ١٠٢ ، أكتوبر ١٩٩٠، ص ١٥ .

السورية/ العراقية فى تقدم مستمر، أثمر تبادلاً ملحوظًا فى الزيارات الرسمية بين مسئولى البلدين. وفى نهاية شهر يناير ١٩٦٢ ، أعلن معروف الدواليبى رئيس الوزراء السورى عن توسط سورية لحل النزاع الكويتى / العراقى ، وأعلن فى بيان صدر عن الجمهورية العربية السورية أن الوفد العراقى الذى زار سورية برئاسة الدكتور هاشم جواد وزير خارجية العراق ، مؤخرًا قد وافق على « ألا يقوم العراق بأى إجراء عسكرى ضد الكويت ، وأن العراق فى الوقت الراهن على الأقل ، لا يعترض على قيام الدول الأخرى بإرسال قائمين بالأعمال إلى الكويت[١] .

وردت الحكومة الكويتية حول أنباء الوساطة السورية بأن نفت علمها بذلك ، بل نفت ما نشرته بعض الصحف السورية عن بدء المفاوضات السرية بين العراق والكويت ، فى شأن إقامة اتحاد كونفيدرالى بينهما ، يشمل أمور الدفاع والشئون الخارجية ، والمسائل الاقتصادية والثقافية ، على أن تبقى الدولتان مستقلتين تمامًا داخليًا[٢] .

وعلى أثر قمة سورية – عراقية ، عقدت فى بغداد ، فى ٢٦، ٢٧ مارس ١٩٦٢ بين اللواء عبد الكريم قاسم والدكتور ناظم القدسى ، رئيس الجمهورية العربية السورية ، صدر بيان مشترك ، احتجت عليه الحكومة الكويتية ببيان أصدرته فى ٢٨ مارس ١٩٦٢ رفضت فيه ما جاء فى البيان المشترك من دعوة إلى العمل العربى ، خارج إطار الجامعة العربية ، مؤكدة أن مثل هذه الدعوات لا يمكن أن يؤدى إلا إلى بعثرة الجهود العربية ، وإثارة البلبلة والفُرقة فى الصف العربى ، وإعاقة الأمة عن بلوغ غايتها وأهدافها . وأضاف البيان : « أمّا القول بأن هناك شيئًا اسمه حق للعراق فى

---

(١) ناتنج ، أنتونى ، « ناصر » ، ص ص ٣٢٩ – ٣٣١ .

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٨ فبراير ١٩٦٢ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٧ فبراير ١٩٦٢ ، حيث نفت حكومة العراق أيضًا بل وأنكرت هذه الأنباء وذكرت أنها لا أساس لها .

الكويت ، فليس له سند من واقع أو حق أو منطق أو تاريخ وقد أيدت جميع الدول ومجلس الأمن دولة الكويت ، فى قضيتها الحقة »[١] .

تلك هى أبرز سمات موقف الجمهورية العربية المتحدة ، إزاء أزمة الحدود العراقية – الكويتية عام ١٩٦١ .

موقف المملكة العربية السعودية :

كانت المملكة العربية السعودية طرفًا معنيًا بأزمة الحدود العراقية – الكويتية ، التى أثارها عبد الكريم قاسم ، فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ . وكان موقفها حاسمًا ومؤازرًا ، بقوة لموقف الحكومة الكويتية ، وينبع ذلك من عدة عوامل منها موقعها الزعامى وسط المجتمع الخليجى ، إضافة إلى مساس الأزمة بمصالحها الإقليمية والاقتصادية والنفطية[٢] .

وفى ٢٦ يونيه ، اليوم التالى من انطلاق شرارة الأزمة ، طلب أمير الكويت تدخّل المملكة العربية السعودية لحمايتها بكافة السبُل[٣] ، فأبرق الملك سعود بن عبد العزيز ، ملك المملكة العربية السعودية ، إلى أمير الكويت ، فى اليوم عينه ، قائلاً : « تناولت برقية سموكم ... التى أشرتم فيها إلى ما أدلى به الزعيم الركن عبد الكريم قاسم ، والحقيقة أن هذا الموقف عجيب مؤسف . أمّا نحن فمعكم ، فى السراء وفى الضراء ، وسنكون أوفياء فيما تعاهدنا عليه . ونحن على أتم الاستعداد لمواجهة أى خطر يتعرض له الكويت الشقيق »[٤] .

---

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، البيان الصادر من وزارة الخارجية الكويتية فى ٢٨ مارس ١٩٦٢ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، ص ٢٧ .

(٣) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة من أمير الكويت إلى الملك سعود يوم ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، انظر كذلك عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، ص ٢٧ .

(٤) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة من الملك سعود إلى أمير الكويت يوم ٢٦ يونيه ١٩٦١ .

وفى اليوم عينه وجه الملك سعود الرسالة التالية إلى ملوك ورؤساء الدول العربية : «أعتقد أنكم تشاركوننى الأسف فى البيان الذى نُشر من اللواء عبد الكريم قاسم ، بشأن الشقيقة دولة الكويت المستقلة وبالنظر لما يربطنا بالكويت ، بصورة خاصة ، فقد أعلنت البيان التالى : يجب أن يكون معلومًا لدى الجميع أن الكويت والمملكة العربية السعودية بلد واحد ، وما يمس الكويت يمس المملكة العربية السعودية ، وما يمس المملكة العربية السعودية يمس الكويت . وقد أحببت إحاطتكم علمًا بهذا ، ولى أمل كبير فى أن نتعاون جميعًا فى رتق هذا الفتق ، الذى لا يستفيد منه إلا أعداء العرب ، ولا يتضرر منه إلا العرب أنفسهم ، راجيًا أن تروا رأيكم السديد الذى يحول دون هذا الأذى الذى يصيب هذا البلد الشقيق »[(١)] .

ثم انتقل الملك سعود من التصريحات إلى نطاق العمل الفعلى ، فبعث رئيس الأركان السعودى إلى الكويت لدراسة الوضع الأمنى والعسكرى فيها[(٢)] .

وفى ٢٧ يونيه ١٩٦١، وفى الساعة الرابعة صباحًا ، عقد مجلس الوزراء السعودى جلسة استثنائية برئاسة الملك سعود لبحث التهديد العراقى ضد الكويت ، وفى نهاية الجلسة ، أصدر مجلس الوزراء البيان التالى : « إن حكومة حضرة صاحب الجلالة ، الملك المعظم فى الوقت الذى تستنكر فيه التصريحات الماسة باستقلال الكويت تأييدًا تامًا ، ونقرر اتخاذ الخطوات الإيجابية اللازمة للحفاظ على استقلاله وسيادته وهى لا تزال تأمل فى أن تتغلب الحكمة والمصلحة العربية على كل اعتبار للحفاظ على السلم وجمع الصف العربى . كما يقرر اعتبار جلسته الاستثنائية مستمرة لمواجهة ما يستجد فى الأمر »[(٣)] .

---

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة الملك سعود إلى الملوك والرؤساء العرب يوم ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح « علاقات الكويت الخارجية » ، ص ٤٩ .

(٢) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩٨ .

(٣) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، بيان مجلس الوزراء السعودى يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ .

واستأنف مجلس الوزراء جلسته بعد عصر اليوم نفسه ، ودعى إلى هذا الاجتماع ، رئيس أركان الجيش السعودى ، وقدم تقريرا مفصلا إثر عودته من الكويت . وذكر أن الحكومة السعودية قررت إثر اطّلاعها على تقرير رئيس الأركان ، إرسال عدة كتائب فى اتجاه الحدود الكويتية[١] .

وفى اليوم نفسه ، وبعد جلسة مجلس الوزراء السعودى وجه الملك سعود طلبا إلى عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية ، مؤكدا ضرورة دعوة مجلس الجامعة لبحث الأزمة ، ولبحث طلب انضمام الكويت إلى الجامعة العربية فى أقرب فرصة[٢] .

وفى ٢٧ يونيه ، كذلك استدعى الملك سعود السفير العراقى لدى الرياض وأبلغه رسالة شفهية لتبليغها إلى عبد الكريم قاسم ، معبرا فيها عن إحساسه العميق بالحزن والأسف ، لما صدر عنه تجاه الكويت وأن ما حدث هو محاولة لشق الصف العربى واعتداء على دولة عربية تحررت من الحكم الأجنبى . وناشد عبد الكريم قاسم ، أن تسود الحكمة والتعقل والحرص على المصالح العربية[٣] .

وفى ٣٠ يونيه ١٩٦١ بثت إذاعة الكويت ، أن القوات السعودية وصلت بالفعل إلى الأراضى الكويتية بناء على طلب أمير الكويت[٤] ، وذلك بعد ساعات قليلة من إنزال القوات البريطانية ، كما بعث الملك سعود برسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر ،

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩٨ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، طلب الملك سعود إلى عبد الخالق حسونة ، يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، لدعوة مجلس جامعة الدول العربية لبحث الأزمة .

(٣) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، رسالة من السفير المصرى بالرياض يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ إلى الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرى يوضح فيها أن الملك سعود استدعى السفير العراقى لدى المملكة وأبلغه رسالة شديدة اللهجة بخصوص الأزمة العراقية الكويتية .

(٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، إدارة الصحافة والإعلام ، موجز تقارير الإذاعات والصحافة خلال الأزمة العراقية – الكويتية ٢٥ يونيه – ٣١ يوليو ١٩٦١ ، الإذاعة الكويتية تعلن وصول القوات السعودية إلى الأراضى الكويتية يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١ .

حملها وزير الخارجية السعودى تمحورت حول الأزمة وتناولت المساندة العسكرية السعودية للكويت[١] .

وفى ظهر اليوم نفسه ، وصل إلى علم الملك سعود نبأ حشود عسكرية عراقية فى طريقها من البصرة إلى الحدود الكويتية فأرسل من الفور برقية إلى رئيس الوزراء العراقى عبد الكريم قاسم ، يناشده فيها : « باسم الله والعروبة والوطنية ، تجنب كل سبب يؤدى إلى اضطراب العلاقات بين العرب أنفسهم ، بل إلى تصادمهم فى وقت هم أشد ما يكونون حاجة فيه إلى جمع كلمتهم ودعم قوتهم للوقوف فى وجه أعدائهم »[٢] .

وفى ٤ يوليو ١٩٦١ انعقد مجلس جامعة الدول العربية بناء على طلب المملكة العربية السعودية لبحث انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، وأصرّ المندوب السعودى على سرعة بت الطلب الكويتى ، خصوصا أنه صادر عن بلد نال استقلاله واعترفت بهذا الاستقلال جميع الدول العربية ، فى برقيات بعثت بها إلى حاكم الكويت . وحيث طالب أغلب الأعضاء بتأجيل بت الطلب الكويتى ، رفض مندوب المملكة العربية السعودية ، حتى لا يساء معنى التأجيل ، ويُعد تسويفا . وإزاء تهديد العراق بالانسحاب من الجامعة ، إذا قُبِلَتْ الكويت عضوا فيها ، هدد المندوب السعودى هو الآخر بانسحاب بلاده من الجامعة إذا لم تُقبل الكويت عضوا فيها[٣] .

وفى ٥ يوليو ١٩٦١ انتشرت الأنباء حول اقتراح للملك سعود بن عبد العزيز بمعالجة الأزمة فى اجتماع شخصى يعقده مع اللواء عبد الكريم قاسم على الحدود العراقية ، وهذا الاقتراح ورد فى رسالة حملها الحاج أمين الحسينى ، رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين ، إلى عبد الكريم قاسم[٤] .

---

(١) وثائق وزارة الخارجية المصرية، رسالة الملك سعود إلى الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١.

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢ يوليو ١٩٦١ ، برقية من الملك سعود إلى رئيس وزراء العراق عبد الكريم قاسم يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، محضر انعقاد مجلس جامعة الدول العربية ، يوم ٤ يولية ١٩٦١ بناء على طلب المملكة العربية السعودية .

(٤) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٠ ، نقلا عن جريدة «صوت الكويت الدولى» ، العدد الصادر فى ٢٢ يناير ١٩٩٢ .

وفى ٥ يوليو ١٩٦١ ، وصل إلى الطائف الشيخ جابر الأحمد الصباح ، ولى عهد الكويت ، يرافقه عبد الخالق حسونة ، أمين عام جامعة الدول العربية . وقد اجتمع الملك سعود فى مكتبه بالطائف مع أمين عام الجامعة الذى عرض ما بذله من جهود فى بغداد والكويت حول الأزمة العراقية – الكويتية ، وقد أكد الملك سعود لأمين عام الجامعة ، رغبته المستعجلة فى تلبية طلب حكومة الكويت الانضمام إلى الجامعة ، ورحب الأمين العام بهذا الطلب ووعد بالعمل من أجل سرعة تلبيته فى أقرب وقت ممكن(١) .

وبعد ظهر اليوم نفسه ، تسلم الملك سعود رسالة بعث بها إليه الشيخ عبد الله السالم الصباح ، حملها ولى العهد الكويتى الشيخ جابر الأحمد الصباح حيث ألقى ولى العهد كلمة أعرب فيها عن شكر أمير الكويت وشعبها وحكومتها للملك سعود والشعب السعودى ، إذ قال : « إننى مكلف يا صاحب الجلالة ، من سمو أخيكم الشيخ عبد الله السالم وحكومته ، ومن جماهير الشعب الكويتى بأسره ، بأن أعرب لكم عن عجزنا عن أداء الشكر لجلالتكم ولحكومتكم ولشعبكم بأسره ، على هذا الموقف المشرّف من بلادكم الكويت . إننا لم نستغرب منكم ، ولا من حكومتكم ولا من شعبكم هذا ، فنحن نعرف ما بيننا وبينكم ولكننا نجىء إليكم شاكرين مقدرين معترفين لكم بهذه اليد الكريمة ، التى أنتم أهل لها والكويت محل لها(٢) .

ورد الملك سعود على كلمة ولى العهد الكويتى ، بكلمة ، قال فيها : « إن هذه النازلة التى حلت بالأمة العربية ، فى صميم عزمها وقوميتها يشترك فى آلامها كل عربى ، وذلك أن الفرحة التى تباشرنا بها ، وتبادلنا التهانى القلبية بحلولها ، بعد الصبر والانتظار، وهى استقلال الكويت ، الجار الشقيق ، الجديرة بالحرية والاستقلال والازدهار ، تلك الفرحة الغالية على الأمة العربية التى كدرها الحوادث الأخيرة التى نعتبرها نكسة مخيفة ، لا يعلم مدى مصيبتها للعرب إلا الله وحده » . وأضاف قائلا : « إننى شخصيا وجميع

---

(١) الأوراق الخاصة لأمين عام جامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة – غير منشورة – اطلع عليها الباحث بمنزله بمنشية البكرى بواسطة ابنته .

(٢) جريدة « صوت الكويت الدولى » ، العدد الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٩٢ .

أفــراد أســرتى وحكومتى والشعب السعودى ، نقف اليوم معكم وقفة رجل واحد ، ندافــع عن ذلك الجزء العربى الغالى من وطن الأمة العربية ، ونذود عنه ذودتنا عن أى شبر آخر من بلادنا العربية كلها » . واستطرد الملك سعود يقول : « نهب اليوم جميعا، أنــا وشــعبى والأمة العربية بأسرها ، فى كل مكان ، للدفاع عن ذلك الجزء العربى ، والمستقل ، من بلادنا وهو الكويت، نريد له ما يريد له حكامه وشعبه ، بعد كفاحهما الطويــل المشرف للاستقلال الذى نالوه واستحقوه ، وأن يكون الكويت عضوا كريما عاملا مع جيرانه فى الجامعة العربية ، وفى هيئة الأمم المتحدة ، وفى المجالات الدولية التى تــتعاون عــلى السلام ورفاهية البشر والإنسانية » . وختم الملك سعود قائلا : « إن بعض الإذاعات تتعرض الآن لما تسميه الوساطة فى هذه المشكلة ، والموضوع موضوع اســـتقلال أو اغتصـــاب ولا شىء بينهما ، فلا مساومة ولا وساطة فى اســـتقلال الكويت »[١] .

وأسفر موقف الملك سعود وحكومته ، من الأزمة ، عن تصعيد الحملة ضد المملكة العربية السعودية وعاهلها . ولكن المملكة لم تنثن عن موقفها المؤيد للكويت ، والذى اتضح بقوة ، فى اجتماع مجلس الجامعة العربية يوم ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، من إصرار على ضـــرورة حصول الكويت على كامل حقوقها فى ترابها الوطنى ، وكامل عضويتها فى الجامعـــة العربية . وبناء على ذلك ، انعقد لواء قيادة القوات العربية المشتركة للملكة العربـــية السعودية للدفاع عن الكويت . واستمر الموقف السعودى ثابتا يشد من أزر الكويـــت ، حتى وضعت الأزمة أوزارها ، بمقتل عبد الكريم قاسم ، وقيام انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ ضد نظامه[٢] .

وخلاصـــة القـــول فى موقفى كل من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية الســـعودية مـــن أزمة الحدود الكويتية – العراقية ، هو رفض المطلب العراقى فى ضم الكويت ، لأنه أمر مرفوض فى العلاقات العربية – العربية .

---

(١) جريدة « صوت الكويت الدولى » ، العدد الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٩٢ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، ص ٢٨ .

كـــان من الواضح منذ بداية الأزمة أن السعودية كانت طرفا أصيلا فى الأزمة وفى تطوراتهـــا ، أما الجمهورية العربية المتحدة فقد كانت فى فترة الأزمة هى الدولة القومية الثورية النموذج على الساحة العربية(١) .

ومـــن المؤكد أن الرئيس العراقى عبد الكريم قاسم لم يأخذ فى حسبانه ردود الفعل العربـــية خاصة رد الفعل المصرى على تهديداته للكويت(٢) ، والواقع أن علاقات بغداد مـــع القاهـــرة والرياض كانت فى ذلك الحين متدنية المستوى نظرا للإحساس بالمكانة الخاصـــة لكلتا العاصمتين وشعورها بأنها المؤهلة للدور القيادى فى العالم العربى ، وكان ســـوء العلاقـــات ذاك منذ عام ١٩٥٩ عندما حدث التمرد فى الموصل فى السابع من مـــارس وكان وراءه عبد الحميد السراج – رجل عبد الناصر الأول فى سورية – فقد جعـــل الـــتمرد الحكومة العراقية وصحافتها وإعلامها يصبون غضبهم ضد الجمهورية العربية المتحدة(٣) .

موقف المملكة الأردنية الهاشمية وسـوريا

أما عن الموقف الأردنى من الأزمة الكويتية العراقية ، فمن الأهمية بمكان ذكر ما دار حول ذلك الموقف . فعلى الرغم من سوء العلاقات الأردنية – العراقية فلم يكن الملك حسين عاهل الأردن لينسى أو ليتسامح بشأن مقتل ابن عمه الملك فيصل فى ثورة ١٤ يولـــيو ١٩٥٨ ، وعلى الرغم من الموقف الأردنى العلنى المؤيد لرفض الدعاوى العراقية والـــذى لا تشوبه شائبة إلا أن الوثائق البريطانية التى أفرج عنها أخيرا كشفت النقاب عـــن أن الملـــك حسين كان يحرض الرئيس العراقى عبد الكريم قاسم سرا بل إنه كان يحمل تعاطفا شديدا مع المطالبة بالكويت وأن الملك حسين كان يطمع فى ضم الكويت قبل ذلك ومنذ عام ١٩٥٨ تحت لواء الاتحاد الهاشمى(٤) .

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٥٠١ – ٥٠٢ .

(٢) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، ص ص ٣٦٩ – ٣٧٠ .

(٣) ناتنج ، أنتونى « ناصر » ، ص ص ٣٢٧ – ٣٢٨ ، انظر كذلك ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، ص ٣٧٠ ، نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٢ .

(٤) جـــريدة « صوت الكويت الدولى » ، العدد الصادر فى ٤ يناير ١٩٩٢ ، نقلا عن الوثائق البريطانية التى أفرج عنها .

وســلكت سورية بعد الانفصال مسلكا مختلفا تجاه الأزمة وتطورات أحداثها فلقد خطت نحو دعم العلاقات مع العراق على حساب علاقاتها مع مصر والكويت(١) .

موقف جامعة الدول العـربية

بعــد نشوب الأزمة ، تقدم كل من العراق والكويت بشكاوى متبادلة ، إلى مجلس الأمن ، وجامعة الدول العربية . وبناء على ذلك ، عقد مجلس الأمن ، جلسة عاجلة ، فى ٢ يولــيو ١٩٦١ ، وبعــد مناقشات ، تأجلت هذه الجلسة إلى ٥ يوليو ، ثم إلى ٧ يولــيو ، وانتهــت الجلسة ، دون إصدار قرار ، مما دفع مجلس الأمن إلى أن يترك هذه المهمة لجامعة الدول العربية(٢) .

وكــان الشيخ عبد الله السالم الصباح ، قد بحث مع الأمين العام للجامعة العربية ، أثــناء زيارتــه الكويت ، فى أبريل ١٩٦١ ، ضمن مهمة رسمية له فى منطقة الخليج ، مســألة انضمام بلاده إلى الجامعة العربية . وفى ٢٠ يونيه من العام نفسه ، وبعد إعلان الاســتقلال الكويتى ، فى ١٩ يونية ١٩٦١ ، أعلن عبد الخالق حسونة ترحيب الجامعة بأى طلب ، تتقدم به الكويت للانضمام إليها . وفى ٢٣ يونيه ، قدم عبد العزيز حسين طلــب حكومة الكويت ، من أجل انضمامها إلى الجامعة العربية . وقرر مجلس الجامعة عقد جلسة فى ٤ يوليو ، للموافقة على قبول الكويت عضوا فى الجامعة العربية(٣) .

وبعــد انفجــار الأزمة العراقية – الكويتية فى ٢٥ يونيه ، ورفض المملكة العربية الســعودية مطالــب العراق ، طلبت المملكة فى ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، عقد جلسة طارئة لجامعــة الدول العربية لبحث الأزمة ، وانضمام الكويت إلى عضوية الجامعة العربية ،

---

(١) نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٥ .

(٢) وثــائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، شكوى الكويت ضد العراق يوم ٢٦ يونيه ١٩٦١ وشــكوى العــراق ضد الكويت يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، انظر كذلك جامعة الدول العربية ، جامعة الدول العربية – ميثاقها وإنجازاتها » ، ص ١٤٤ .

(٣) وثــائق جامعــة الدول العربية ، تقرير الأمين العام ، سبتمبر ١٩٦١ ، انظر كذلك أوراق عبد الخالق حسونة الشخصية .

ولم يتخذ قرار فى شأن هذا الطلب . وفى الأول من يوليو ، تقدمت المملكة ، للمرة الثانية ، بمذكرة إلى أمانة الجامعة العربية ، تطلب فيها عقد اجتماع غير عادى لمجلس الجامعة ، لبحث موضوع انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، ومناقشة التهديد العراقى لاستقلال الكويت[١] .

وبالفعل ، اجتمع مجلس الجامعة العربية ، فى جلسة طارئة فى ٤ يوليو ١٩٦١[٢] . لكنه أخفق فى اتخاذ قرار فى الموضوع ، وقرر تأجيل الجلسة إلى يوم الأربعاء ، ١٢ يولية ، ريثما ينتهى أمين عام الجامعة العربية من الاتصال مع الحكومات المعنية بالأزمة، والعمل على تسوية النزاع ، من أجل تهدئة الموقف ، من خلال تشكيل « وفد على مستوى رفيع من الجامعة العربية » ، برئاسته ، للسفر إلى الكويت والعراق والمملكة العربية السعودية . وقد شمل الوفد ، إضافة إلى عبد الخالق حسونة ، الدكتور سيد نوفل، الأمين العام المساعد . وسافر الوفد ، فى اليوم نفسه ، إلى بغداد ، حيث التقى أمين الجامعة العربية ، مرتين ، برئيس الوزراء العراقى ، عبد الكريم قاسم ، ووزير خارجيته ، هاشم جواد . ثم انتقل إلى الكويت ، واجتمع بحاكمها . وانتقل ، بعد ذلك ، إلى المملكة العربية السعودية . وأعرب عن تفاؤله ، وعبّر عن اعتقاده أن حلا قريبا هو ممكن بين الجانبين . وأضاف عبد الخالق حسونة : « لا أستطيع أن أتصور نشوب قتال بين العرب ، فى حين تحشد إسرائيل قواتها على حدود الإقليم الشمالى .. ولدى اعتبارات كثيرة تدعونى لتوقع انقشاع الغمة وعودة العلاقات إلى ما كانت عليه قبلا »[٣] .

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، طلب المملكة العربية عقد جلسة طارئة للجامعة لبحث الأزمة ، انظر كذلك بطرس بطرس غالى ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ، ص ٨٥ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، اجتماع مجلس الجامعة فى جلسة طارئة يوم ٤ يوليو ١٩٦١ .

(٣) أوراق عبد الخالق حسونة ، غير منشورة ، تقرير عن جولة الأمين العام لجامعة الدول العربية للكويت والعراق والسعودية ، انظر كذلك نازلى معوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٦ .

وبقـــدر مـــا أيدت ودعمت المملكة العربية السعودية طلب الكويت الانضمام إلى الجامعة ، فى هذه الجلسة ، كذلك اعترض العراق ، وبالقدر عينه ، على هذا الطلب . مما أسفر عن انقسام مجلس الجامعة العربية على نفسه ، إلى أربعة فرقاء[١] :

* المملكـــة العربية السعودية : أسرت على سرعة البت فى الطلب الكويتى ، أى : الانضمام إلى الجامعة ، خصوصًا أن جميع الدول العربية ، قد اعترفت باستقلالها .

* لبنان والمغرب : أيدتا موقف أمين عام الجامعة ، القائل بالتريث والمرونة .

* العـــراق : تغيبـــت عن الاجتماع ، مهددة بالانسحاب من الجامعة العربية ، فى حالـــة قبول طلب انضمام الكويت . وردًا على التهديد العراقى ، هدد مندوب المملكة العربـــية الســـعودية كذلك ، بانسحاب بلاده من الجامعة العربية ، إذا لم توافق على الطلب الكويتى .

* الجمهورية العربية المتحدة : اتخذت موقفًا معتدلاً ، حيال طلب الكويت ، مفاده أنـــه لا يمكـــن أن تُعَـــدّ الكويت بلدًا مستقلاً ، ما دامت قوات أجنبية ، مثل القوات الـــبريطانية ، متمركزة فى أراضيها . واستطرادًا ، فهى غير مستوفية شروط العضوية فى جامعة الدول العربية .

إزاء ذلـــك ، تأجلـــت المناقشات « البت فى الطلب » ، إلى ١٢ يوليو ، لإتاحة الفرصـــة لـــلجولة الـــتى يضـــطلع القيام بها أمين الجامعة العربية ، فى كل من العراق والكويـــت، للوســـاطة بينهما ، وخوفًا من أن يؤدى انسحاب العراق إلى زيادة هيمنة الجمهورية العربية المتحدة ، على الجامعة العربية[٢] .

وخـــلال الفترة من ٥ إلى ١٢ يوليو ١٩٦١ ، زارت لجنة من الحكومة الكويتية ، برئاســـة وزير المالية وشئون النفط ، كلاً من مصر والسودان ولبنان ، لتوضيح الموقف

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية غير منشورة ، جلسة مجلس جامعة الدول العربية يوم ٤ يوليو ١٩٦١ .

(٢) المصدر السابق .

الكويـــتى . كما أن الجهود ، التى بذلها كلٌّ من العراق والمملكة الأردنية الهاشمية ، من أجْـــل تأجيل آخر لاجتماع مجلس الجامعة ، لم تُوفَّق . واجتمع مجلس الجامعة العربية ، فى ١٢ ، ١٣ يوليو برئاسة المغرب[١] .

وفى اجـــتماع الجامعـــة العربية ، فى ١٢ يوليو ١٩٦١ ، قدمت حكومة الكويت مذكرة إلى لجنة الشئون السياسية ، التابعة للجامعة ، تضمنت طلبين : طلب الانضمام إلى الجامعـــة العربـــية ، وطلب مساندة الدول العربية ضد التهديد العراقى . كما تعهد أمـــير الكـــويت فى المذكرة ، بسحب القوات البريطانية من الكويت ، على أن تحـــل محلها قوات عربية . وقد نص التعهد على الآتى : « إن سمو أمير الكويت ، يتعهد بأن يأمـــر ، حالاً ، بسحب جميع القـــوات البريطانية من الكويت ، حينما تشكل جامعة الـــدول العربية قوات عربية ، تقوم ، فعلاً ، بإرسالها إلى الكويت ، لتحل محل القوات الأجنبـــية، الموجـــودة بها حاليًا ، وذلك لصيانة استقلال الكويت ، وصد أى هجوم عليها[٢] .

وفى اجتماع الجامعة العربية ، فى ١٣ يوليو ، قررت لجنة الشئون السياسية ما يلى :

نظـــرت لجـــنة الشئون السياسية موضوع طلب الكويت الانضمام لجامعة الدول العربـــية ومـــا أحاط به ملابسات . وبعد استعراض اللجنة لكافة وجهات النظر ، التى أبدتها الوفود الأعضاء ، والمبادئ التى تقدم بها وفد المملكة المغربية ، وهى[٣] :

أولاً : تلتزم الكويت بطلب سحب القوات البريطانية .

ثانيًا : يلتزم العراق بعدم استخدام القوة ، لضم الكويت .

---

(١) جـــريدة الأهـــرام ، العـــدد الصادر فى ١٣ يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٦ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية . محضر اجتماع مجلس الجامعة العربية يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك جامعة الدول العربية ، « جامعة الدول العربية – ميثاقها وإنجازاتها ، ص ١٤٤ » .

(٣) وثـــائق جامعة الدول العربية الإدارة السياسية ، محضر اجتماع لجنة الشئون السياسية بالجامعة يوم ١٣ يوليو ١٩٦١ .

ثالثًا : تلتزم الدول العربية ، من جهتها ، بما يلى :

١ - الترحيب بالكويت عضوًا فى جامعة الدول العربية .

٢ - مساعدة الكويت على الانضمام إلى الأمم المتحدة .

٣ - تقديم المساعدة الفاعلة لحماية استقلال الكويت ، بناء على المذكرة الكويتية ، المقدمة إلى لجنة الشئون السياسية ، فى جلستها المعقودة فى ١٢ يوليو ١٩٦١ .

٤ - تأييد كل رغبة يبديها شعب الكويت فى الوحدة ، أو الاتحاد مع غيره من الدول العربية ، طبقًا لميثاق الجامعة العربية.

وقررت اللجنة ، تأجيل اجتماعها إلى الساعة السادسة مساء ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، وذلك ليتسنى لمندوبى الدول الأعضاء ، الرجوع إلى حكوماتهم ، لأخذ رأيها فى هذه المبادئ ، وفى الخطة اللازمة ، لوضعها موضع التنفيذ .

وفى الحقيقة ، كان أمام مجلس الجامعة مشروع قرار ، يُحدِّد ، فى إطاره ، بديلان للعمل . أبدى الوفد الكويتى ، برئاسة جابر الأحمد الصباح ، استعداد بلاده لقبول أى منهما وهما[1] :

١ - أن يتخلى عبد الكريم قاسم عن مطالبه وادعاءاته ، وأن يقدم اعترافه باستقلال الكويت الكامل . كما يعلن هذا الاعتراف أمام مجلس جامعة الدول العربية ، ومجلس الأمن ، التابع لمنظمة الأمم المتحدة .

٢ - أن ترسل الجامعة العربية قوة عسكرية ، تابعة لها ، إلى دولة الكويت ، لتحل محل القوات البريطانية .

وقد توجت مسوّدة الحل الكويتى بمقدمة ، جاء فيها : « إن الكويت جزء من الأمة العربية ورغبة منها أن تحل الأزمة الطارئة ، بينها وبين الحكومة العراقية على صعيد

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية الإدارة السياسية ، مشروع قرار مقدم لمجلس الجامعة .

عربى ، فى نطاق الجامعة التى تعدها الدعامة الأساسية لحفظ مصالح العرب ، وتوحيد كلمتهم ، تبدى استعدادها لقبول أى من الحلّين » . ورحبت القاهرة بالموقف الكويتى، ورأت أن الحل الأول ، التى تفترضه الكويت ، يتعلق بإرادة الحكومة العراقية . أمّا الحل الثانى ، فإن الجمهورية العربية المتحدة ، تعلن استعداها التام ، وموافقتها على إرسال قوات عربية إلى الكويت بناء على الطلب الكويتى لما يترتب على ذلك من إخراج القوات البريطانية[١] .

وحتى ١٥ يوليو ١٩٦١، لم تكن الجامعة العربية قد وصلت إلى حل ، يتعلق بالأزمتين المترابطتين : الأزمة بين العراق والكويت ، وانضمام الكويت إلى الجامعة العربية . وهكذا ، كانت الجامعة تعانى مأزقًا خطيرًا ، يتمثل فى[٢] :

١ - إصرار المملكة العربية السعودية على إدخال الكويت إلى الجامعة العربية ، بأى ثمن كان ، وتريد أن تتخذ الجامعة قرارًا بالموافقة ، ولو غضب العراق ، وانسحب من الجامعة .

٢ - رغبة الأمم المتحدة فى انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، ولكنها لا تريد أن تتحمل مسئولية ذلك . كما أنها توافق على إرسال القوات العربية إلى الكويت ، شريطة ألا تشترك هى فيها .

وأخيرًا أوصت لجنة الشئون السياسية فى الجامعة العربية ، بالموافقة على قبول الكويت ، باستثناء وفد العراق ، الذى عمد إلى الانسحاب ، احتاجًا على هذا القرار . وهكذا ، أصدرت الجامعة العربية ، فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، القرار رقم ١٧٧٧/٣٥ ، الذى نص فى فقرته الثانية على انضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية ، وفى فقرته الثالثة ، على أن تلتزم الدول العربية بتقديم المساعدة الفاعلة ، لصيانة واستقلال الكويت، بناءً على طلبها . وقد تحفظ من الفقرة الثالثة من القرار ، كلٌّ من مندوبى

---

(١) أوراق عبد الخالق حسونة - غير منشورة - مشروع قرار مقدم لمجلس جامعة الدول العربية .

(٢) أوراق عبد الخالق حسونة - غير منشورة - تقرير عبد الخالق حسونة عن الأزمة العراقية - الكويتية بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٦١ .

جمهورية السودان ، والجمهورية اللبنانية ، والمملكة الليبية المتحدة لرغبتها فى المشاركة فى قوات الجامعة ، المرسلة إلى الكويت ، بينما أبدى سائر مندوبى الدول الأعضاء الحاضرين ، الاستعداد للمشاركة فيها[١] .

وإعمالاً للفقرة الثالثة من قرار مجلس الجامعة العربية ، وبعد انضمام الكويت إلى معاهدة الدفاع العربى المشترك ، تابع عبد الخالق حسونة ، الأمين العام لجامعة الدول العربية ، تنفيذ القرار . وتوصل بعد حوالى ثلاثة أسابيع ، إلى اتفاق مع حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية، وإحلال قوات تابعة للجامعة العربية مكانها . وتحقق ذلك ، عبرْ رسالتين متبادلتين ، بينه وبين أمير الكويت . ففى ١٢ أغسطس ١٩٦١ ، بعث برسالة رسمية إلى أمير الكويت ، فى شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية فى الكويت ، والترتيبات المتعلقة بها ، وأكد فيها : « أن هذه القوات وقتية ، توجد بأراضى الكويت ، استجابة لطلب سموّكم . كما أنها تنسحب منها ، فى أى وقت تطلبون انسحابها ، وبالطريقة التى يتم الاتفاق عليها بيننا ... » . واختتم بالقول: « ... فإذا وافقتم سموّكم ، على ما تضمنته هذه الرسالة ، فإنها ، وردكم عليها بالموافقة ، يكونان بمثابة اتفاق مبرم فى هذا الشأن ، بين جامعة الدول العربية وحكومتكم الموقرة »[٢] .

وتلقى عبد الخالق حسونة ، فى اليوم نفسه ، جواب أمير الكويت ، الذى أبدى موافقته على إحلال القوات العربية فى الكويت ، محل القوات البريطانية . وأكد فى رسالته « أن حكومة الكويت ، انطلاقًا من ممارسة سلطات سيادتها ، فى أى من الأمور المتصلة بوجود قوات أمن الجامعة فى أراضيها سوف تحرص كل الحرص على أن

---

(١) وثـــائق جامعـــة الدول العربية ، الأمانة العامة ، قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، المجلد الثالث - الـــدورة ٣٥ بتاريخ ٢١ مارس ١٩٦١ وحتى الدورة ٤٣ بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٦٥ - إعداد مكتب الأمين العام ، مركز التوثيق والمعلومات طبعة ١٩٨٨ ، القرار رقم ١٧٧٦ ، الدورة العادية رقم ٣٥ ، الجلسة رقم ٨ بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، ص ٤٥ .

(٢) وثـــائق جامعة الدول العربية ، رسالة من الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة إلى أمير الكويت يوم ١٢ أغسطس ١٩٦١ .

تستهدى روح التقاليد العربية والثقة التى تنير تاريخنا العربى المجيد ، وأن تلتزم بنص وروح ميثاق الجامعة ، وقرار مجلس الجامعة فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، المشار إليه فى رسالتكم » ، واستطرد قائلاً : « وإنا ، بموجب رسالتنا هذه ، نوافق موافقة تامة على جميع البنود الواردة فى رسالتكم . وتلزم كذلك حكومة الكويت بتنفيذها . كما نوافق على ما أشرتم إليه ، سيادتكم ، من أن رسالتكم وهذا الرد من جانبنا ، يشكلان اتفاقية بين جامعة الدول العربية وحكومة الكويت . وفى هذه المناسبة ، يسعدنى إبلاغ سيادتكم ، أنه تنفيذًا لما ألقى على عاتقنا فى قرار مجلس الجامعة سالف الذكر قد طلبنا، اليوم ، إلى الحكومة البريطانية سحب قواتها من أراضى الكويت »(١) .

وفى اليوم عينه ، وعلى أثر اتخاذ تلك الترتيبات ، أرسل أمير الكويت كتابًا إلى الحكومة البريطانية ، يطلب منها انسحاب القوات البريطانية من أراضيه . وتلقى ردًا من الحكومة البريطانية بالموافقة ، حالما تصل القوات العربية إلى مواقعها(٢) .

وعند تأمل ومراجعة الأحداث الماضية ، يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر استغل هيبته وتأثيره على الدول العربية الأخرى ، لكى يحصل على اعتراف وقبول الكويت فى الجامعة العربية . وسعيًا لاستبدال أعدائه البريطانيين فى الكويت ، كان عبد الناصر قادرًا على انتزاع تنازلين رئيسيين من الكويت : إنسحاب القوات البريطانية ومقاسمة ثروة الكويت مع الدول العربية الأخرى(٣) .

ومنذ ذلك الحين أصبحت سياسة ومدخولات النفط متداخلة مع العلاقات العربية المشتركة ، وأصبحت الاستثمارات والمساعدات الكويتية أداة رئيسية فى سياسة الكويت الخارجية .

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، رسالة أمير الكويت إلى أمين عام الجامعة العربية يوم ١٢ أغسطس ١٩٦١ بالموافقة على تواجد قوات الأمن على الأراضى الكويتية .

(٢) المركز الوطنى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية - الحق التاريخى والإرادة الدولية » ، إعداد لجنة من المختصين ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، ص ٤٩ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٩١ .

(٣) عبد الرضا على أسيرى « الكويت فى السياسة الدولية المعاصرة » ، ص ٧٩ .

ومنذ تلك العقبة برزت « دبلوماسية الدينار » وأخذت شكلاً حقيقيًا ومؤثرًا . وكانت الفرصة السائدة أن سعى الكويت لاستثمار مدخولات النفط فى مشروعات التنمية فى العالم العربى هو ثمن مساعدة العرب لها ضد التهديدات العراقية[١] .

وفى ١٥ أغسطس ١٩٦١ ، انعقد مجلس الجامعة العربية ، وأصدر قرارًا هذا نصه : « أحيط مجلس الجامعة علمًا ، فى جلسته المعقودة فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ فى شأن تقديم المساعدة الفعلية إلى الكويت ، بناءً على طلبها . كما أحيط بالرسالتين المتبادلتين ، بين سمو أمير دولة الكويت ، والأمين العام ، فى شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية فى الكويت . والمجلس ، إذ يرحب بطلب سمو أمير دولة الكويت انسحاب القوات البريطانية من الأراضى الكويتية ، يعرب لسيادة الأمين العام ، وبعثة الجامعة إلى الكويت ، عن أجزل الشكر ، وعظيم التقدير ، وينتظر أن يتم قريبًا إحلال الجنود العرب محل الجنود البريطانيين ، فى الكويت[٢] .

ولتطبيق هذا القرار ، وقعت الجامعة العربية ، اتفاقات مع كل من السودان والمملكة العربية السعودية والأردن وتونس ، فى شأن اشتراكها فى قوات الأمن العربية . وفى ١٠ سبتمبر ١٩٦١ ، بدأ وصول هذه القوات إلى الكويت[٣] . وما أن حل يوم ٣ أكتوبر ١٩٦١ ، حتى اكتمل وصول هذه القوات ، التى تألفت من ٢٣٣٧ جنديًا ، وبيانها كالتالى[٤] .

---

(١) عبد الرضا على أسيرى « الكويت فى السياسة الدولية المعاصرة » ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، قرار مجلس جامعة الدول العربية يوم ١٥ أغسطس ١٩٦١ ، انظر كذلك وثائق الجامعة ، اللواء الركن عبد الرازق الدرديرى - رئيس الإدارة العامة للشئون العسكرية بأمانة الجامعة ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، تونس ، ٥ جانفى ١٩٨٥ ، ص ٣٤ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية « جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها » ، ص ١٤٥ .

(٤) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرازق الدرديرى ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٣٧ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية »، ص ٤٩١ ، حيث أوردت أن حجم القوات ٢٣٠٠م جندى .

* القوة السعودية : تتكون من ١٢٨١ جنديًا (كتيبة مشاة ٧٨٥ جنديًا + كتيبة مدرعة ٤٩٦ جنديًا + سرية مدفعية ميدان ٦ مدافع ١٠٥ مم + وحدات خدمات فنية) .

* القوة الأردنية : تتكون من ٧٨٥ جنديًا (كتيبة مشاة + فصيلة مدفعية مضادّة للطائرات ٦ مدافع ٤٠مم + وحدة خدمات طبية) .

* القوة السودانية : تتكون من ١١٢ جنديًا (سرية مشاة) .

* قوة الجمهورية العربية المتحدة : تتكون من ١٥٩ جنديًا ، (سرية مهندسين عسكريين + سرية إشارة + وحدة سكرتارية عسكرية) .

وفى ١٢ أكتوبر ١٩٦١ سحبت مصر قواهّا من الكويت ، على أثر انفصال سورية، وتوتر العلاقات بين مصر وكلٍ من الأردن والمملكة العربية السعودية[١] .

وذكر أنتونى ناتنج فى هذا الخصوص قائلاً : « وفى النهاية نجح جمال عبد الناصر فى تحقيق انضمام الكويت إلى الجامعة العربية وإحلال قوات عربية محل القوات البريطانية فى الكويت . لقد حقق جمال عبد الناصر هدفه المباشر ، وعندما تأكد من أن الكويت ليست فى خطر التعرض لهجوم عراقى وأن البريطانيين قد انسحبوا تمامًا ، سارع بسحب جنوده من القوة العربية ، وذلك لأن احتكاكًا كان قد بدأ بين القوات المصرية وقوات المملكة العربية السعودية والأردن ، أضف إلى هذا أن رجال المخابرات المصريين فى العراق كانوا يبعثون بتقارير مفادها أن وجود قوات الجمهورية العربية المتحدة فى الكويت بعد رفض القاهرة التام لطلب العراق ضم الكويت بدأ يضايق عددًا كبيرًا من القوميين العراقيين الذين يعارضون عبد الكريم قاسم ويؤيدون بشدة عبد الناصر ، ومن ثم لم تمض أسابيع قليلة على وصول القوات المصرية إلى الكويت حتى بعث عبد الناصر

(١) وثـائق وزارة الخارجية المصرية ، ملف الأزمة العراقية - الكويتية ، طلب حكومة الجمهورية العربية المتحدة بسحب قواهّا من الكويت موجه إلى الأمين العام للجامعة العربية فى ١٩٦١/١٠/١ على أن يتم سحب القوات يوم ١٩٦١/١٠/١٢ .

إلى حاكم الكويت ببرقية مفادها أنه سيسحب قواته لأن عناصر تخريبية تحاول إثارة أزمة بين قوات الجمهورية العربية المتحدة وحكومة وشعب الكويت[١] .

وبسحب مصر لقواتها ، تغير تشكيل قوات الأمن العربية وعددها ، ليصبح مجموع القوة العربية ٢٢٢٥ جنديًا . ويلاحظ أن مجموع هذه الوقات ، يقلّ عن المجموع الذى قدرته بعثة عسكرية ، تابعة للجامعة العربية ، وهو ٣ آلاف - ٣٥٠٠ جندى[٢] . وقد أشارت وثائق الجامعة العربية ، إلى أن حجم القوات العربية ، الذى بلغ ٢٢٢٥ ضابطًا وجنديًا ، كان توزيعهم كالآتى[٣] .

* القوة السعودية : تتكون من ١٢٦١ رجلاً (٧٥ ضابطًا ، ١١٨٦ صف ضابط وجنديًا) .

* القوة الأردنية : تتكون من ٨٥٢ رجلاً (٤٣ ضابطًا ، ٨٠٩ صفوف ضباط وجنود) .

* القوة السودانية : تتكون من ١١٢ رجلاً (٧ ضباط ، ١٠٥ صفوف ضباط وجنود) .

وفى ١٤ أكتوبر زار الأمين العام لجامعة الدول العربية ، عبد الخالق حسونة ، الكويت . وأصدر أمرًا إلى قوة الأمن العربية ، نصه كما يلى : « إنكم تأتون إلى الكويت أخوة عربًا ، فى قسم من وطننا العربى الكبير ، وتقفون على الحدود الكويتية - العراقية ، ضيوفًا على البلدين ، فمهمتكم عربية قومية . ولهذا فإنى أعهد إليكم بمهمة المراقبة اليقظة والشعب العراقى فى مقدمتها ، لا يمكن أن يتصور أحد من بيننا أن يشهر

---

(١) ناتنج ، أنتونى « ناصر » ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديرى « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس المكان .

عربى سلاحه على أخيه العربى .. فلتكن رسالتكم رسالة الأخوة العربية والمحبة والوئام[١] .

وفى خلال الفترة من ١٨ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٦٢ زارت الهيئة التنفيذية لقوات أمن الجامعة الكويت زيارة استطلاعية ، حيث أبلغ كبار المسئولين فى دولة الكويت السيد الأمين العام المساعد ، رئيس الهيئة التنفيذية ، طلب الحكومة الكويتية تخفيض حجم القوتين : الأردنية ، والسعودية ، ليصبح كلٌ منهما فى حجم القوة السـودانية الحالية (وعددها ١١٢ جنديًا) . وعلى هذا ، طلبت الجامعة العربية ، بعد موافقة الأمانة العسكرية ، من جميع دولها الأعضاء ، أن تسـهم بعدد رمزى من قواتها ، يراوح ١٥ و ٢٠ جنديًا فى قوات أمن الجامعة العربية ، على أن تقتصر مهمة هذه القوات على مراقبة الحدود بين العراق والكويت[٢] . وبالفعل ، سحب كلٌ من المملكة العربية السعودية والأردن قواتها ، العاملة ضمن قوات أمن الجامعة العربية ، فى يناير ١٩٦٣ بعدما وصلت قوات الأمن الرمزية من الدول العربية الأخرى . ولقد ظلت هذه القوات ، تؤدى دورها ومهامها حتى قيام انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ ، وتولّى عبد السلام عارف رئاسة الجمهورية العراقية التى بدأت بإصدار تصريحات ودية تجاه الكويت[٣] .

وفى ١٢ فبراير ١٩٦٣ تلقى الأمين العام للجامعة العربية برقية من وزير خارجية الكويت جاء فيها : « إن السلطات المسئولة فى الكويت ، تقديرًا منها للموقف الجديد فى العراق الشقيق وإعرابًا عن الأمل فى إمكان عودة العلاقات الطبيعية بين القطرين الشقيقين ، ترى صرف النظر ، حاليًا ، عن تشكيل القوات العربية الرمزية ، وتأمل أن تواصل الجامعة العربية جهودها الطيبة لتصفية الجو بين الدول العربية لتهيئ لها أسباب

---

(١) وثـائق جامعة الدول العربية ، مكتب الأمين العام ، الأمر الصادر من الأمين العام للجامعة عبد الخالق حسونة إلى قوة الأمن العربية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٦١ باعتباره القائد الأعلى لقوات الأمن العربية .

(٢) وثـائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرازق الدرديرى « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

التعاون ، لما فيه خير وتقدم الأمة العربية » . وفى ٢٠ فبراير ، اكتمل انسحاب قوات الأمن العربية من الكويت[١] .

وتمثلت الأسس القانونية ، لإنشاء قوات الأمن ، التى أرسلت إلى الكويت فى الآتى[٢] :

(أ) قرار مجلس جامعة الدول العربية فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ .

(ب) طلب حكومة الكويت إرسال قوات عربية ، لتحل محل القوات البريطانية .

(جـ) التقاء الجامعة بوصفها منظمة دولية ممثلة فى الأمين العام ، بموجب سلطاته ، التى خوله إياها المجلس فى هذا الشأن ، وإرادة حكومة الكويت ، ممثلة فى حاكمها فى صورة رسائل متبادلة تكون اتفاقية بين الكويت والجامعة .

واستندت قواعد تشكيل القوات ، وما تتمتع به من مميزات وحصانات ، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات إلى[٣] :

(أ) الحصانات العامة ، الواردة فى المادة ١٤ من ميثاق الجامعة العربية .

(ب) المواد ٢، ٤ ، ٥، ٦ من الميثاق نفسه .

وقد تشكلت قيادة قوة الأمن العربية من[٤] :

* اللواء عبد الله عبد العزيز العيسى ، (ضابط سعودى) ، قائدًا لقوة الأمن .

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الأمانة العامة ، «جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها» ، ص ١٤٥، انظـر كذلـك دكتور سيد نوفل « الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى » ، الكتاب الأول - مدخل عام ودراسة للكويت ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

(٢) فكـرى سامى أمين سامى ، « دور المنظمات الإقليمية فى حفظ السلام الدولى » ، رسالة دكتوراه ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٨٠ ، ص ٧١ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، ميثاق الجامعة ، انظر كذلك المصدر السابق ، ص ص ٧١ - ٧٢ .

(٤) وثائق جامعة الدول العربية ، ملف رقم ٥٧٥ خاص بقيادة قوة الأمن العربية .

* العميد خالد الصحن ، نائب قائد قوة الأمن .

* العقيد الركن كامل الدباغ ، رئيسًا لهيئة الأركان .

* المقدم الركن عبد الستار أمين ، مساعدًا لرئيس الأركان .

* العقيد أحمد شريف ، مديرًا للعمليات .

* المقدم بشير حسن مشير ، مديرًا للمشروعات الفنية .

* الرائد سليمان الماضى ، مديرًا للإدارة والتموين .

وحُددت واجبات القوات العربية بالعمل كقوات أمن ، داخل أراضى الكويت ، فى منطقة الحدود المشتركة بين الكويت والعراق ، للمحافظة على استقلال الكويت وسلامة أراضيها ومهمتها الدفاع ، دون الهجوم ، مع تجنب التحرش بالقوات العراقية على الحدود ، أو إثارتها ، أو استفزازها ، بأى شكل من الأشكال(١) .

وأصدر الأمين العام للجامعة عدة قرارات تنظيمية فى شأن هذه القوات منها ، إنشاء الهيئة التنفيذية لقوات أمن الجامعة العربية برئاسة الأمين العام المساعد ، وكذا إنشاء اللجنة الاستشارية وتضم ممثلين عن الدول المشتركة فى القوات ، وإنشاء صندوق لتمويل هذه القوات . كما عُين قائد ورئيس أركان القوات من ضباط المملكة العربية السعودية ، تطبيقًا لأحكام معاهدة الدفاع المشترك ، التى تنص على أن تكون القيادة للدولة ، التى تكون قواتها المشاركة هى الأكثر عددًا(٢) .

هكذا استطاعت جامعة الدول العربية أن تقوم بدور فى حل النزاع نظرًا لعدم تورط الدول العربية الكبرى ، فالدول العربية الثورية فى ذلك الوقت وهى مصر الناصرية لم تكن طرفًا فى النزاع وبذلك استطاعت الجامعة العربية أن تقوم بدور فعال شدّ من أزره رغبة الدول الأعضاء فى تحقيق التسوية السلمية لهذا الخلاف بحيث

---

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديرى ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٦٧ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديرى ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٦٩ .

لا تكون تلك التسوية على حساب الكويت ولا على حساب خروج العراق من الجامعة العربية والذى يهدد التوازن الحادث فى الجامعة[١] .

وتعد هذه التجربة هى الأولى للجامعة العربية فى حفظ السلام الإقليمى وبعد إرسالها لقوات عربية إلى الكويت إجراءً جديدًا من الإجراءات المساعدة على تسوية المنازعات لم ينص عليه ميثاق الجامعة ، كما أن الجامعة بذلك تعد أسبق المنظمات الإقليمية فى اتخاذ هذه الخطوة إذ اتخذت منظمة الدول الأمريكية إجراء مماثلاً – لكنه اختلف فى نواح كثيرة – بمناسبة أزمة الدومنيكان عام ١٩٦٥[٢] .

كما أسبغ التدخل العسكرى البريطانى على النزاع طابعًا وصفة دولية واضحة وأخرجته من كونه نزاعًا محليًا إلى مرتبة العالمية وتأكد ذلك مع عرضه على مجلس الأمن الذى لم يستطع أن يتخذ فيه أى قرار ، ولقد حول التدخل البريطانى انتباه الدول العربية فاجتمعوا على رأى واحد بصدد النقطة الفرعية (الوجود البريطانى فى الكويت) من أجل وحدة الصف العربى على حين لم يجتمعوا على القضية الأصلية . وإذا كانت بريطانيا وقواتها فى الكويت كانت هى الدافع الأعظم لتشكيل القوات العربية المشتركة لتحل محل القوات البريطانية ، فإن بريطانيا فى الحقيقة شجعت تشكيل هذه القوة نظرًا لظروف الموقف السياسى العالمى . ففى منتصف أغسطس ١٩٦٢ كانت هناك أزمة قاتلة فى برلين بين المعسكرين الشرقى والغربى مما يستدعى من بريطانيا إخراج قواتها من الكويت لدعم الجيش البريطانى فى منطقة الراين[٣] .

الموقف الدولى من الأزمة العراقية ـ الكويتية ١٩٦١

لعل ما يسترعى الانتباه أن الأزمة العراقية – الكويتية ، استطاعت أن تجد حلاً لها فى إطار الأسرة العربية ، بينما فشل مجلس الأمن ، والأمم المتحدة ، فى معالجتها ،

(١) بطرس بطرس غالى ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ص ٩٠ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، ص ٣١ .

(٣) بطرس بطرس غالى ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ص ٩١ .

بسبب الحرب الباردة بين المعسكرين : الغربى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، والشرقى بزعامة الاتحاد السوفيتى ، ونجاح العراق فى اجتذاب موسكو إليه ، وقد أدى توازن القوى داخل المجلس وقتذاك ، إلى عجزه عن اتخاذ قرار ، مما دفعه إلى ترك هذه المهمة لجامعة الدول العربية[١] .

وعلى الرغم من موقف مجلس الأمن ، وفشله فى اتخاذ قرار بانضمام الكويت إلى عضوية الأمم المتحدة ، إلا أن كثيرًا من الدول العربية والأجنبية ، وقفت ، وقتذاك إلى جانب الكويت ، وأيّدت انضمامها ، مؤكدة أن جميع المقومات المطلوبة للدولة متوافرة فيها ، فضلاً عن أنها تأتى فى المرتبة الثانية ، بين الأقطار المصدرة للنفط ، وأنها استطاعت استغلال ثروتها فى تحسين مستوى معيشة سكانها ، وتقديم كافة الخدمات الصحية والتعليمية والعمرانية . كما أنها أنهت علاقاتها التعاهدية ببريطانيا ، واعترفت الحكومة البريطانية ، من جانبها ، بمسئولية الكويت عن إدارة شئونها الخارجية . وعلى الرغم من كل تلك المبررات ، لم يلبث أن تأجل النظر فى قبول الكويت عضوًا فى الأمم المتحدة ، ريثما تجد الأزمة حلاً لها ، فى الإطار العربى[٢] .

لقد كانت الأزمة التى فجّرها العراق ، سببًا فى تدويل القضية ، منذ بدايتها ، من جانب طرفيها المباشرين ، وذلك من خلال تسليم العراق وممثلى وسفراء الدول العربية والأجنبية ، مذكرة فى ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، تضمنت مطالبته بضم الكويت ، وما تلا ذلك ، من مسارعة الكويت إلى إرسال رسائل إلى رؤساء الدول العربية وملوكها ، وجامعة الدول العربية ، تطلب فيها المساندة والتأييد ، وطلبها من بريطانيا التدخل العسكرى المباشر ، من أجل ردع التهديدات العراقية لسلامتها الإقليمية[٣] .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ تصعيد الأزمة واتسامها بالصفة الدولية . فحين بدأت الحكومة البريطانية (بالنيابة عن الكويت) بتقديم شكوى ضد العراق ، فى مجلس الأمن ،

---

(١) المركـــز الوطنى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية » إعداد لجنة من المتخصصين ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣) المركز الوطنى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية » ، ص ٥١.

بادرت الحكومة العراقية إلى تقديم شكوى ، هى الأخرى ، ضد الحكومة البريطانية ، على أساس أن نزول قوات عسكرية بريطانية ، فى أراضى الكويت ، يعرض أمن العراق وسلامته للخطر ، وأن بريطانيا تدبر عدوانًا عليه . وأكد العراق فى شكواه ، أنه لم يلجأ إلى العنف ، وأن قواته كانت فى حالة تأهب فقط على الحدود الكويتية[1] .

موقف الولايات المتحدة الأمريكية

كشفت أزمة السويس عام ١٩٥٦، عن المأزق الاستراتيجى الأمريكى فى الشرق الأوسط ، فلو أيدت الولايات المتحدة الأمريكية بريطانيا فى عدوانها على مصر ، لألهبت المشاعر العدوانية المناهضة للغرب . وإن أيدت الحركات القومية فسيتقوض مركز بريطانيا فى المنطقة ، وهى القوة المسئولة عن الدفاع عنها . ولذلك كان البديل الواضح للولايات المتحدة الأمريكية ، أن تؤدى هى نفسها ، دورًا أكبر فى الشرق الأوسط ، وليس مجرد دور سياسى ، وإنما دور عسكرى ، كذلك . وفى ضوء هذا الفهم ، وجد أيزنهاور نفسه ، بعد أزمة السويس ، وبعد أن استشعر حقيقة الوضع المتدهور فى المنطقة ، أن التدخل ، السياسى أو العسكرى الأمريكى ، هو أفضل الوسائل لحماية المصالح الغربية ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأت واشنطن تعيد تقييم سياستها ، مما أدى إلى تطوير فى قواتها المسلحة بإنشاء وحدات ذات طبيعة خاصة قادرة على الاضطلاع بعمليات عسكرية واسعة النطاق فى الشرق الأوسط[2] .

وكان المؤشر الأول ، إلى هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الأمريكية ، هو مبدأ أيزنهاور ، Eisenhower Doctrine ، الذى أعلن فى ٥ يناير ١٩٥٧ ، وأقر فى ٥ مارس ١٩٥٧ ، فى قرار مشترك ، صدر عن مجلسى النواب والشيوخ ، ويقر هذا المبدأ ضرورة تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، إلى دول الشرق الأوسط ووحدة أراضيها ، أمرًا حيويًا ، بالنسبة إلى المصالح القومية والسلام العالمى . ولتحقيق ذلك ، وعندما يرى الرئيس ضرورة ما ، فإن واشنطن تكون مستعدة لاستخدام القوات

---

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، ص ٩٩ .

(2) Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf, pp 85-87.

المسلحة لمساعدة أية دولة ، أو مجموعة من الدول ، تطلب المعاونة ضد عدوان مسلح ، من أى دول خاضعة لسيطرة الشيوعية الدولية ، شريطة أن يكون نشر القوات الأمريكية متوافقًا مع التزامات المعاهدات ، التى تكون الولايات المتحدة الأمريكية طرفًا فيها ، ومع الدستور الأمريكى(١) .

ومع اندلاع الأزمة العراقية - الكويتية ، فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ ، أُتيحت الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية أن تحل محل بريطانيا ، وأن تبدأ فى تنفيذ مبدأ أيزنهاور فأعلنت ، فى ٢٧ يونيه ، أنها مع الكويت ، كدولة مستقلة ذات سيادة ، وأكد المتحدث الرسمى فى وزارة الخارجية الأمريكية : « أن الكويت إذا ما طلبت إقامة علاقات دبلوماسية رسمية بالولايات المتحدة الأمريكية ، فإنها سوف تجد تجاوبًا من واشنطن » . وقال ، كذلك : إن تصريحات عبد الكريم قاسم ، الجديدة ، ما هى إلا ترديد لادعاءاته السابقة ، وهى ادعاءات سبقه إليها نورى السعيد(٢) . ومن جهة أخرى أعربت جريدة « النيويورك تايمز » الوثيقة الصلة بوزارة الخارجية الأمريكية ، عن رأيها فى عبد الكريم قاسم ومطالبه ، فقالت : « إنه يريد أن يقتدى بالهند ، التى استردت جاوه Goa »(٣) .

وقد أيدت الولايات المتحدة الأمريكية الخطوة البريطانية ، بإرسال قواتها إلى الكويت ، لمقاومة أى إجراء ، من شأنه أن يورط الشرق الأوسط برمته ، ولمراقبة أى طوارئ تحدث فى هذه المنطقة ، بل إن واشنطن وافقت على أن تقدم إلى بريطانيا ما هو مطلوب من مساندة ، فى حالة حدوث أى هجوم عراقى(٤) .

ولقد ترتب على موقف الولايات المتحدة الأمريكية ، المؤيد للكويت ، والداعم للتدخل البريطانى، أن شنّ العراق على واشنطن حملة إعلامية شعواء ، استمرت طويلاً، حتى بعد انسحاب القوات البريطانية من الكويت ، مما أدى إلى سوء العلاقات بينهما .

---

(1) Fisher and Krinsky. Middle East in Crisis, pp. 175-176.

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٨ يونيه ١٩٦١ .

(٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ .

(٤) المصدر السابق .

ففى ٢ يونيه ١٩٦٢ طلبت حكومة العراق من السفير الأمريكى فى بغداد أن يغادر الأراضى العراقية ، وفى الوقت نفسه طلبت من السفير العراقى فى واشنطن مغادرة الأراضى الأمريكية . وفى ٢ يونيه ١٩٦٢ ، غادر بغداد « جون جيرنجان » ، السفير الأمريكى فى العراق ، بناء على طلب بغداد . وجاء ذلك تنفيذًا بتهديد العراق بإعادة النظر فى علاقاتها مع كل دولة تعترف بالكويت(١) .

موقف الاتحاد السوفيتى

تجلّت للاتحاد السوفيتى الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية ، إذ إنها تحقق له الحماية من جهة الجنوب . وتُعَدّ ، كذلك ، طريقًا طبيعيًا للوصول إلى المياه الدافئة ، فى الخليج العربى ، والمحيط الهندى ، إضافة إلى كونها موقعًا استراتيجيًا ، ذا ثقل دولى ، تجارى واقتصادى ، يحقق له وضعًا أفضل ، كقوة عظمى ، يمكنها من مساندة الحركات التحررية فى المنطقة وتقليص الوجود الغربى فيها(٢) .

ومن المؤكد أن الأزمة العراقية - الكويتية عام ١٩٦١، قد وضعت الاتحاد السوفيتى فى موقف المواجهة والاختيار بين بغداد والدول العربية الأخرى ، مثل الجمهورية العربية المتحدة ، والمملكة العربية السعودية والأردن . وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتى قد أيّد انضمام الكويت للأمم المتحدة وقبول عضويتها فى بعض المنظمات الدولية المتخصصة مثل اليونسكو ومنظمة الطيران المدنى ، إلاّ أن هذا الموقف الإيجابى تحول إلى موقف سلبى ، مع نشوب الأزمة ، إذ ساند الاتحاد السوفيتى عبد الكريم قاسم . وقد استغلت الصحف السوفيتية الأزمة ، فشنت حملة عنيفة على بريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ووصفتهما بأنهما يستغلان الأزمة ، لتحقيق مصالحهما فى المنطقة ، وقالت : إن العملية العسكرية البريطانية ، فى الكويت ، ليست إلاّ استفزازًا للشعوب العربية ، وتهديدًا للسلام فى الشرق الأوسط » (٣) .

---

(1) Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf, P92 .

(٢) يحيى حلمى رجب ، الخلية العربية والصراع الدولى المعاصر ، مكتبة دار العروبة ، الكويت طبعة ١٩٩٨ ، الجزء الأول ، ص ص ٦٠ — ٦٤ .

(١) عبد الرضا على أسيرى، الكويت فى السياسة الدولية المعاصر، جامعة الكويت طبعة ١٩٩٣، ص٧٨.

ولم تشذ بعثة الاتحاد السوفيتي الدبلوماسية إلى الأمم المتحدة ، عن النهج الذى وضعته لإسقاط المشروع ، الذى تقدمت به بريطانيا . ولكنها فى الوقت عينه ، وافقت على المشروع المقدم من الجمهورية العربية المتحدة[١] .

ويُذكر أن الاتحاد السوفيتي ، تمكن من عرقلة انضمام الكويت إلى منظمة الأمم المتحدة ، لفترة ، ولكن عندما انتهت الأزمة ، وسقط حكم عبد الكريم قاسم ، واستبدل به نظام آخر ، سارع الاتحاد السوفيتي إلى الموافقة على عضوية الكويت فى الأمم المتحدة ، خلال الدورة ، التى عقدت فى ١٤ مايو ١٩٦٣[٢] .

موقف مجلس الأمن

استطاعت الكويت ، بفضل مساندة بعض الدول ، وخاصة الاتحاد السوفيتي ، قبل أزمة ١٩٦١ ، أن تنضم ، قبل إعلان استقلالها ، إلى كثير من المنظمات الدولية المتخصصة ، التابعة للأمم المتحدة ، مثل منظمات : اليونسكو (UNESCO) ، الإمكو (IMCO) ، الإيكاو (ICAO) ، وغيرها[٣] .

وإثر حصول الكويت على استقلالها ، فى ١٩ يونيه ١٩٦١ ، تقدمت حكومتها ، رسميًا بطلب للانضمام إلى كلٍّ من الأمم المتحدة والجامعة العربية . ومن نشوب الأزمة بين العراق والكويت فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ ، أخذ طلب عضويتها مسارًا صعبًا ، فى كلتا المنظمتين[٤] .

ففى الأول من يوليو ١٩٦١ ، تقدمت الحكومة البريطانية نيابة عن الكويت ، بشكوى ضد العراق ، إلى مجلس الأمن ، من أجل عقد جلسة طارئة ، لبحث التهديدات العراقية لاستقلال الكويت ، بمحاولة ضمها ، قسرًا ، إلى دولة أخرى ، مما

---

(١) عبد الرضا على أيرى ، المصدر السابق ، نفس المكان .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٧٨ – ٧٩ .

(٣) ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٧٧ – ٤٧٨ .

(4) United Nations , Security Council Official Records – New York : 1957, meeting, July 2. 1961, P. 13.

يهدد الأمن والسلم العالميين . وبناءً على ذلك ، قرر مجلس الأمن عقد اجتماع طارئ فى اليوم التالى الأحد ٢ يوليو ١٩٦١[١] .

وفى ٢ يوليو ١٩٦١ وقبيل اجتماع مجلس الأمن ، تقدم العراق بشكوى ضد بريطانيا مشيرًا إلى أنها أنزلت قواتها فى الكويت ، وأن هذه القوات تهدد استقلال العراق وأمنه ، إضافة إلى تهديدها السلم والأمن الدوليَّين . ونتيجة لذلك ، أُدرجت شكوى العراق ، هى الأخرى ، فى جدول أعمال المجلس . وبذلك واجه المجلس شكوتين متضادتين وكلتاهما تعبر عن أن الوضع ، يعرض السلام والأمن الدوليَّين للخطر[٢] .

وفى بداية الجلسة ، وبعد كلمة رئيس المجلس ، التى اعتذر فيها عن اضطراره إلى عقدها فى يوم عطلة رسمية (الأحد) ، تحدث فالريان زورين (Zorin) ، نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ، ورئيس وفده إلى الأمم المتحدة ، فقال : « إن مبادرة بريطانيا إلى طلب عقد اجتماع عاجل للمجلس ، بناءً على طلب حاكم الكويت ، تثير الشك حول حقيقة الوضع ، خاصة أن هذا يختلف مع المعلومات والحقائق ، التى تلقيناها من منطقة الكويت » ، ثم أعلن ، بعد انتهاء كلمته ، عدم معارضته لمسألة بحث الأزمة برمتها . وفى الجلسة ، أشار رئيس المجلس إلى رغبة العراق فى حضور الاجتماع وعندما لم يبد أى من الأعضاء معارضته دعى عدنان محمد باجهجى مندوب العراق الدائم فى الأمم المتحدة ، ليأخذ مقعده إلى مائدة الاجتماع[٣] .

ثم تكلم السير باتريك دين ، مندوب بريطانيا ، وردَّ على المندوب السوفيتى قائلاً : « إن الحكومة البريطانية ، ستسحب قواتها من الكويت ، بمجرد أن يرى حاكم الكويت ، فى حالة التهديد ، التى تتعرض لها بلاده ، قد انتهت ، وإن إرسال القوات

---

(1) Ibid, pp. 13 – 14, see also.

جمال زكريا قاسم « تاريخ الخليج العربى الحديث » ، المجلد الرابع ، ص ٨١ .

(2) United Nations Ibid p. 15.

(3) United Nations, Security Council Official Records - s/pv 957, PP. 1-14.

البريطانية ، إلى الكويت كان بناءً على طلب من حاكمها ، وإنما لا تضمر أى نيات عدوانية كما أنها لا تشكل أى تهديد للعراق » .

وأضاف : « إنه فى الفترة الماضية ، اضطلعت دولة الكويت المسئولية التامة عن إقامة وإدارة علاقاتها الدولية الخاصة ، مع دعم كامل من حكومة جلالة الملكة . واشتركت، فى الماضى ، فى العديد من المنظمات الدولية ، كدولة مستقلة ذات سيادة . وعلى هذا ، أُعلن الاستقلال الكويتى ، فى ١٩ يونيه ١٩٦١ واعتقدت بريطانيا ، أن هذه الخطوة ، سوف تقبلها جميع الدول ، خاصة الدول العربية . ولذلك استقبلنا أخبار عدم قبول العراق لاستقلال الكويت ، بل ردّها بالتهديد ، بالدهشة والصدمة . ثم أخذ المندوب البريطانى يستعرض المسلك العدائى ، من قبل حكومة العراق تجاه الكويت ، منذ إعلان استقلالها ، والأحداث التى أدت إلى الموقف المتردِّى فى المنطقة[1] .

وتحدث السفير عمر لطفى مندوب الجمهورية العربية المتحدة ، فقال : « نحن نأسف لهذا الخلاف بين دولتين عربيتين . إن الجمهورية العربية المتحدة ، تود أن تُحل هذه المشكلة ، وفقًا للتقاليد والمبادئ العربية . لذلك ، لا يمكن أن نتصور أن الجنود العرب ، يقاتلون بعضهم بعضًا ، فى حين أن الأمة العربية فى خضم صراع ضد القوات الإمبريالية » . وأضاف : « نحن متأكدون أن الشعب العراقى ، سيقبل فقط مبادئ كفاح الشعب العربى كله . لكننا سمعنا للأسف ، أنباء عن إرسال وحدات من الأسطول البريطانى إلى الكويت . ونحن نعتقد ، أنه ما من دولة عربية ، يحق لها اتخاذ خطوة تبرر أى تدخل استعمارى » . وأكد عمر لطفى : « أن نزول القوات البريطانية فى الكويت ، مسألة مؤسفة ، وتثير قلق الجمهورية العربية المتحدة ، إذ إن مثل هذا العمل ترك دولة عربية مفتوحة أمام الاستعمار . وهذه الأحداث الحالية ، يمكن أن يكون لها رد فعل خطير ، ومؤسف ، بالنسبة للدول العربية » . وفى ختام كلمته ، أعرب عن أمله « ألاّ يتخذ العراق أية خطوة ، من شأنها تعكير صفو الأمن والسلام فى المنطقة، وأنه واثق من أن مبادئ الوحدة العربية، ستحل محل المنازعات الشخصية»[2] .

---

(1) Ibid, P. 14.

(2) Ibid, PP. 15 - 16.

وتحدث المندوب العراقى فى الأمم المتحدة، عدنان محمد باجهجى ، نافيًا الشائعات، التى أثيرت عن حشد القوات العراقية بالقرب من الحدود ، وأعلن أن العراق لم يحرك جنديًا واحدًا وقال : « إن الغرض من شكوى بريطانيا ، هو تدبير الأعمال العدوانية السافرة » . وأضاف : « إن حكومة العراق ، أعلنت مرارًا ، أنها ستلجأ إلى الوسائل السلمية ، لتسوية النزاع . وأن بريطانيا أخطأت بقيامها بمحاولة خرقاء ، فريدة فى نوعها ، وغير مقنعة ، وهى تختفى وراء عباءة حاكم الكويت . وأن مغامرتها فى الكويت ، تشبه مغامرتها فى السويس[(١)] .

انقضى اجتماع مجلس الأمن وتقرر تأجيل الاجتماع إلى يوم الأربعاء الخامس من يوليو ١٩٦١ ، حتى يتمكن كل وفد من الرجوع إلى حكومته ، ويعرف رأيها فى الشكوتين المعروضتين للمناقشة[(٢)] .

واستأنف المجلس مناقشاته فى ٥ يوليو . وطُرح ، فى بداية الجلسة ، مشروعان لحل الأزمة . تقدم بهما كلٌ من بريطانيا والجمهورية العربية المتحدة . ويدعو المشروع البريطانى جميع الدول ، إلى احترام استقلال الكويت ووحدة أراضيها . كما يدعو الأطراف المعنية ، إلى العمل على حفظ السلام والهدوء فى المنطقة ، وبقاء الوضع فى الكويت تحت نظر مجلس الأمن . ويطالب الجامعة العربية بالتدخل ، لتسوية النزاع ، سلميًا ، فى أقرب وقت . أمّا المشروع ، الذى تقدمت به الجمهورية العربية المتحدة ، فقد كان يقضى بأن يكون حل أزمة الكويت بالوسائل السلمية ، وأن تسحب بريطانيا قواتها ، « فورًا » من الكويت . وتأجلت الجلسة إلى يوم الجمعة ، ٧ يوليو ١٩٦١ ، لبحث المشروعين والاقتراع عليهما[(٣)] .

وفى ٧ يوليو ١٩٦١ ، عقد مجلس الأمن ، جلسة للاقتراع على المشروعين المقدمين إليه . وقبل الاقتراع ، تحدث السفير عمر لطفى ، مندوب الجمهورية العربية المتحدة ،

---

(1) Ibid, PP. 16 - 17.

(٢) عبد الرضا على أسيرى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٨٠- ٨٣ ، جريدة الأهرام ، العدد فى ٣ يوليو ١٩٦١ .

(٣) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٦ يوليو ١٩٦١ .

معترضًا على المشروع البريطانى ، وقال : « إنه مشروع ، غير كامل ، لأنه لم يتناول مسألة انسحاب القوات البريطانية من الكويت ، وهى المسألة ، التى تعلّق عليها الجمهورية العربية المتحدة أهمية كبيرة » ، ثم تحدث مندوب الاتحاد السوفيتى ، فأعلن « أن بلاده ستؤيد مشروع القرار ، الذى قدمته الجمهورية العربية المتحدة ، لأنه يتماشى مع وجهة نظرنا ، والموافقة عليه تهيئ حلاً صحيحًا لهذه المشكلة ، واعترض مندوب المملكة العربية السعودية على كلمة « فورًا » فى مشروع الجمهورية العربية المتحدة »[1] .

واقترع المجلس بعد ذلك ، على المشروعين ، فأخفق المشروع العربى فى الحصول على الأغلبية المطلوبة ، إذ حصل على ثلاثة أصوات فقط هى : سيلان والاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة وامتنع سائر الأعضاء عن التصويت . أمّا المشروع البريطانى ، فقد حظى بتأييد سبع دول ، من إحدى عشرة دولة ، هى : الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وليبيرا وتركيا والصين الوطنية وشيلى والمملكة المتحدة ، بينما امتنعت الجمهورية العربية والإكوادور وسيلان عن التصويت . ولكن الاتحاد السوفيتى ، استخدم حق النقض ، فأبطل المشروع . وبذلك وقف مجلس الأمن عاجزًا عن الفصل فى النزاع ودعا رئيس المجلس كلَّ المهتمين بالوضع فى الكويت إلى الامتناع عن اتخاذ أى خطوات من شأنها زيادة الموقف خطرًا[2] .

ومع فشل المجتمع الدولى فى صدّ التهديدات العراقية ، اندفعت الكويت إلى عرض القضية على جامعة الدول العربية ، بعد أن قُبلت عضويتها فيها ، فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ ونص قرار الجامعة العربية على ما يلى[3] :

١ – تلتزم حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية من أراضى الكويت ، فى أقرب وقت ممكن .

٢ – تلتزم حكومة الجمهورية العراقية بعدم استخدام القوة فى ضم الكويت إلى العراق .

---

(١) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ص ٨٥ – ٨٦ .

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، قرار مجلس جامعة الدول العربية يوم ٢٠ يوليو ١٩٦١ .

٣ - تأييد كلٍ رغبة تبديها الكويت فى الوحدة أو الاتحاد مع غيرها من دول الجامعة العربية ، طبقًا لميثاق الجامعة .

وبعد انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ فى العراق ، الذى أطاح بحكم عبد الكريم قاسم ، بدأ قادة النظام الجديد يصدرون بيانات مطمئنة بالنسبة إلى مستقبل العلاقات الكويتية العراقية . وبناء على ذلك ، طلبت الكويت انسحاب قوات أمن جامعة الدول العربية ، وشرعت هذه القوات فى الانسحاب، الذى اكتمل من ٢٠ فبراير ١٩٦٣[١] .

وعلى أثر هذه المتغيرات ، بادرت الكويت إلى تجديد طلبها الانضمام إلى الأمم المتحدة . وفى الجلسة الطارئة لمجلس الأمن ، فى ٧ مايو ١٩٦٣، أوصى ، بالإجماع ، الاعتراف بالكويت ، عضوًا فى المنظمة الدولية . وفى جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، المنعقدة فى ١٤ مايو ١٩٦٣ ، وبناءً على توصية مجلس الأمن ، صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨٧٢ والمؤرخ فى ١٤ مايو ١٩٦٣ ، بقبول الكويت عضوًا فى الأمم المتحدة . ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت الكويت الدولة الحادية عشرة بعد المائة ، فى المنظمة الدولية[٢] .

فى ضوء كل ما سبق ، يمكن أن نؤكد أن هناك ثمة جدلاً كبيرًا دار حول طبيعة أزمة ١٩٦١ ، وهل كانت أزمة صراع فكرى ما بين نظامين للحكم متعارض النزعات والتوجهات ؟ أم كانت أزمة إعلامية دعائية تستهدف جوهريًا إشعال حرب نفسية فى المنطقة الخليجية العربية ؟

من الواضح أن النزاع العراقى - الكويتى سنة ١٩٦١ لم يكن نزاع حدود بل هو نزاع وجود ، فلقد طالبت العراق بالكويت و لم يكن خلافها معها يدور حول الحدود، وأعلنت أن الكويت كانت جزءًا لا يتجزأ منها ولابد وأن يعود الجزء إلى الكل والفرع إلى الأصل ، إن النظام العراقى قد اعترف عام ١٩٦٣ باستقلال الكويت ولكن بخطوات مرحلية لأمر واقع خليجى ينبغى التعايش معه مؤقتًا .

---

(١) المركز الوطنى لوثائق العدوان العراقى على الكويت، «ترسيم الحدود الكويتية» ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق، ص٥١ ، انظر كذلك : جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ص ٨٦ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٩٣ .

المصـــادر

أولاً : الوثـــائق

(أ) الوثائق غير المنشورة

١ – العربية

*** وثائق الخارجية الكويتية ، وثائق المركز الوطنى الكويتى :**

ذكرت هذه الوثائق فى هوامش الدراسات وضمن هذه الوثائق ما يلى :

– مذكـــرة الســـير « ولـــيم هنرى لوس » المقيم السياسى البريطانى فى الخيج ، فى ١٩ يونيه ١٩٦١ إلى الشـــيخ عبد الله السالم الصباح حاكم الكويت التى تنص على إلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

– مذكـــرة الشـــيخ عـــبد الله السالم الصباح حاكم الكويت ، فى ١٩ يناير ١٩٦١ ردًا على مذكـــرة الســـير « وليم هنرى لوس » المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، التى تنص على إلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

– البيان الكويتى المعلن فى ١٩ يونيه ١٩٦١ ، بإلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

– مذكرة الحكومة العراقية التى وزعت على سفراء الدول العربية والأجنبية فى بغداد ، فى ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، التى طالب فيها عبد الكريم قاسم بضم الكويت .

– مذكرة الحكومة البريطانية ، إلى أمير الكويت ، فى شأن سحب قواتها من الكويت .

*** وثائق وزارة الخارجية المصرية :**

ذكرت هذه الوثائق فى هوامش الدراسة وضمن هذه الوثائق ما يلى :

– ملف الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ .

– رسائل الرئيس جمال عبد الناصر للزعماء الكويتيين والعراقيين .

– وثـــائق القوة العسكرية المصرية المرسلة إلى الحدود الكويتية العراقية عن طريق جامعة الدول العربية .

– البيانات الرسمية المصرية بخصوص الأزمة .

* **وثائق جامعة الدول العربية :**

ذكرت هذه الوثائق فى هوامش الدراسات ، وضمن هذه الوثائق ما يلى :

- وثائق الإدارة السياسية : ذكرت هذه الوثائق فى هوامش الدراسة .
- قرارات مجلس الجامعة العربية ، وضمن هذه القرارات : القرار رقم ١٧٧٧ ، فى دورته العادية رقم ٣٥ فى جلسته رقم ٨ ، المنعقدة فى ٣٠ يوليو ١٩٦١ فى شأن انضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية .
- رسائل الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى الزعماء العرب بخصوص الأزمة والرد عليها وضمن هذه الرسائل الآتى :
  - رسائل الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى أمير دولة الكويت ، فى ١٢ أغسطس ١٩٦١ فى شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية فى الكويت ، والترتيبات المتعلقة بها .
  - رسالة أمير الكويت ، إلى أمين عام جامعة الدول العربية ، فى ١٢ أغسطس ١٩٦١ ، بموافقته على إحلال قوات أمن من جامعة الدول العربية فى الكويت بدلاً من القوات البريطانية .
  - موجز المبادئ والأسس التى وضعها الأمين العام لجامعة الدول العربية ، لتشكيل قوات أمن الجامعة ، طبقًا للقرار رقم ٣٥/١٧٧٧ فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ .
- تقرير الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى اللجنة السياسية فى ١٢ يوليو ١٩٦١ .
- تقرير الأمين العام إلى مجلس الجامعة ، دور الانعقاد العادى رقم ٣٦ ، ١٢ سبتمبر ١٩٦١ .

* **وثائق السفارة العراقية بالقاهرة :**

- الكتاب الأبيض الذى أصدرته الخارجية العراقية .
- بعض برقيات ورسائل الرئيس العراقى عبد الكريم قاسم إلى الرئيس جمال عبد الناصر وبعض الزعماء العرب وردود الزعماء عليها . وضمن هذه الرسائل والبرقيات الآتى :
- برقية عبد الكريم قاسم إلى الشيخ عبد الله السالم الصباح ، فى ٢٠ يونيه ١٩٦١ .
- برقية الملك سعود بن عبد العزيز ، إلى رئيس الوزراء العراقى عبد الكريم قاسم فى الأول من يوليو ١٩٦١ ، يطالبه بعدم استخدام القوة ضد الكويت .

٢ – الأجنبية

Foreign Office records
- F.O.391, 28099, 1961.
- F.O.391, 28199, 1961.
- F.O.391, 28200,
- F.O.391, 28201,
- F.O.391, 282005,

(ب) الوثائق المنشورة

١ – العربية

* **وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية التابع لوزارة الثقافة الكويتية :**

ذكرت هذه الوثائق فى هوامش الدراسات ، وضمن هذه الوثائق ما يلى :

- بيان الحكومة الكويتية فى ٢٦ يونيه ١٩٦١ ، ردًا على ما ورد فى المؤتمر الصحفى الذى عقده رئيس الوزراء العراقى عبد الكريم قاسم ، فى ٢٥ يونيه .
- البيان الرسمى الكويتى فى ٦ يوليو ١٩٦١ ردًا على البيان الثالث للجمهورية العربية المتحدة فى ٥ يوليو ١٩٦١ .
- الكلمة التى ألقاها الملك سعود بن عبد العزيز فى ٥ يوليو ١٩٦١ ، عند استقباله ولى عهد الكويت ، الشيخ جابر الأحمد الصباح ، ردًا على كلمته .
- برقية عبد الكريم قاسم ، رئيس وزراء العراق ، إلى الشيخ عبد الله السالم الصباح ، حاكم الكويت فى ٢٠ يونيه ١٩٦١ يهنئه فيها باستقلال الكويت .

* **وثائق مركز الدراسات بالخليج : ذكرت فى هوامش الدراسة .**
* **وثائق الخارجية المصرية : ذكرت فى هوامش الدراسة ومنها :**

- البيان الرسمى الأول ، للجمهورية العربية المتحدة ، فى يوم ٢٧ يونيه ١٩٦١ فى شأن الأزمة التى فجرها عبد الكريم قاسم ، لضم الكويت للعراق .
- البيان الرسمى الثانى ، للجمهورية العربية المتحدة ، فى يوم ٣٠ يونيه ١٩٦١ فى شأن تطورات أزمة ١٩٦١ واحتمال التدخل العسكرى العراقى ، لضم الكويت للعراق .
- البيان الرسمى الثالث ، للجمهورية العربية المتحدة ، فى يوم ٥ يوليو ١٩٦١ فى شأن أزمة ١٩٦١ والتدخل العسكرى البريطانى فى الكويت .
- الكتاب الأبيض الكويتى عن الأزمة الكويتية – العراقية عام ١٩٦١ .

* **وثائق مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس .**
* **وثائق جامعة الدول العربية : ذكرت فى هوامش الدراسة ، ومنها قرارات مجلس الجامعة المنشورة فى ٨ مجلدات .**

٢ – الأجنبية

- United Nations, security Council Official Records - New York: 1957, meeting, July 2, 1961 .
- U. N. S. C. F. R, S/PV 957
- U. N. S. C. F. R, S/PV 958

- U. N. S. C. F. R, S/PV 959
- U. N. S. C. F. R, S/PV 960

– قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة :

ذكرت فى هوامش الدراسة ومنها :

• قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، رقم ١٨٧٢ ، فى ١٤ مايو ١٩٦٣ ، بقبول الكويت فى عضوية الأمم المتحدة .

• قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، رقم ١٥١٤ ، فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ بإعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة .

– الأمم المتحدة ، سلسلة الكتب الزرقاء ، المجلد رقم ٩ ، طبعة ١٩٩٨ .

– الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وثائق الدورة رقم ١٥ ، الجلسة رقم ٩٤٠ ، فى ١٤ ديسمبر ١٩٦١ .

أولاً: المذكرات الشخصية والأوراق

١ – العربية (غير منشورة)

– أوراق عبد الخالق حسونة ومذكراته .

– أوراق محمود رياض ومذكراته .

– أوراق ميمونة خليفة الصباح .

– أوراق سعاد الصباح .

ثانيًا : الوثائق

٢ – الأجنبية (منشورة)

– أوراق أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى السابق المنشورة فى جريدة صوت الكويت خلال يناير ١٩٩٢ .

ثالثًا : الدوريات المعاصرة

– جريدة « الأهرام » ، القاهرة ، الأعداد الصادرة فى :

– ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، ٢٨ يونيه ١٩٦١ ، ٣٠ يونيه ١٩٦١ ، أول يوليو ١٩٦١ ، ٢ يوليو ١٩٦١ ، ٢ يوليو ١٩٦١ ، ٣ يوليو ١٩٦١ ، ٤ يوليو ١٩٦١ ، ٥ يوليو ١٩٦١، ٦ يوليو ١٩٦١،٧ يوليو ١٩٦١،٨ يوليو ١٩٦١، ٢٨ ديسمبر ١٩٦١،٣٠ ديسمبر ١٩٦١، ٣٠ يناير ١٩٦٢ ، ٨ فبراير ١٩٦٢ ، ٢٧ فبراير ١٩٦٢ .

– جريدة « الجمهورية » ، القاهرة ، العدد الصادر فى ٦ يوليو ١٩٦١ .
– جريدة « أم القرى » ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الأعداد الصادرة فى : ٣٠ يونيه ١٩٦١ ، ٧ يوليو ١٩٦١ ، ١٤ يوليو ١٩٦١.
– جريدة « صوت الكويت الدولى » ، الكويت الأعداد الصادرة فى : ٤ يناير ١٩٩٢ ، ١٥ يناير ١٩٩٢ ، ٢٢ يناير ١٩٩٢ .
– مجلة « حماة الوطن » ، الكويت ، العدد ١٣ ، السنة الثانية ، الصادرة فى ١٥ أكتوبر ١٩٦١.
– مجلة السياسية الدولية الأعداد ١٠١، ١٠٢ ، عام ١٩٩٠ ، الأعداد ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، عام ١٩٩١ ، الأعداد ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠ .

رابعًا : المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية

١ – العربية

– أحمد فوزى ، « عبد الكريم قاسم – القصة الكاملة » ، بيروت ، ١٩٦١ .
– السيد السيد حجاج ، « مشروع أيزنهاور للشرق الأوسط فى العلاقات الدولية ١٩٥٦ – ١٩٦٠ » ، رسالة ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٧ .
– الكتاب الأسود – وثائق ومشاهدات الغزو العراقى للكويت ، الشركة السعودية ، « اغتيال الكويت » ، شركة الإنسان للخدمات الصحفية والمعلومات ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
– السيد عبد الرزاق الحسنى : تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس مطبعة العرفان ، صيدا ، لبنان ١٩٦٦ .
– بطرس بطرس غالى ، «جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية» ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
– جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر » ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٦ .
– جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربى – دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ – ١٩٧١ » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٤ .
– جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربى – دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ – ١٩٧١ » ، طبعة دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٦ .

- خالد بن سلطان ، « مقاتل من الصحراء » ، دار الساقى ، بيروت ١٩٩٥ .

- خالد السرجانى ، « جذور الأزمة بين العراق والكويت » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٢ أكتوبر ١٩٩٠ .

- سيد نوفل ، « الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى » ، الكتاب الأول ، مدخل عام ودراسة للكويت ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

- صلاح العقاد ، « التيارات السياسية فى الخليج العربى » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .

- عبد الرضا على أسيرى ، « الكويت فى السياسة الدولية ، المعاصرة - إنجازات ، إخفاقات ، وتحديات » ، جامعة الكويت ١٩٩٣ .

- عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٨ .

- فكرت نامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية فى المنطقة العربية ١٩٥٣- ١٩٥٨ ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ١٩٨١ .

- ليث عبد الحسن جواد الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فى العراق » ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ، بغداد ١٩٨١ .

- ميمونة خليفة الصباح ، « علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر » ، المؤرخ العربى ، العدد ٣٤ ، ١٩٨٨ .

- ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ١٩٨٨ .

- بالمر ، مايكل ، « حراس الخليج - تاريخ توسع الدور الأمريكى فى الخليج العربى ١٨٣٣ - ١٩٩٢ » ، ترجمة نبيل زكى ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٩٥ .

- نازلى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة - أزمة الحدود العراقية - الكويتية الأولى (١٩٦١ - ١٩٦٣) » ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٣ .

- نخبة من خبراء وأساتذة الجامعات ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٩١ .

- نخـــبة من الأساتذة ، « العدوان العراقى على الكويت - الحقيقة والمأساة » ، مركز البحوث والدراسات الكويتية ١٩٩٤ .

- نجم محمود ، « المقايضة - برلين بغداد » منشورات الغد ، لندن ١٩٩١ .

- يحــيى حــلمى رجــب ، « الخليج العربي والصراع الدولى المعاصر » ، مكتبة دار العروبة ، الكويت ١٩٨٩ .

٢ - الأجنبية

- Dunn,. Uriel Iraq Under Qassem, A political History 1958-1963. N.y, 1969.
- Heath Edward. Kuwait: Futre Relation with the united Kingdom, BD, C(16) copy No. 32. 6th . April, 1961.
- Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian Gulf, 1833-1992. Gopyright 1992 by Michael A. Palmer .
- Stocking, G. Middle East Oil, A study in Political and Economic Controversy, Vanderbit University. Press, 1972.

مَخطُوطُ ابن حَيَّان .. هل من جديد ؟

د. محمد عبد الحميد عيسى
أستاذ التاريخ الأندلسى والحضارة
ورئيس قسم التاريخ بتربية عين شمس

مخطوطُ ابن حيّان .. هل من جديد ؟

يجمـــع المؤرخون ، عربا وغير عرب ، على مكانة ابن حيان فى صناعة علم التاريخ حـــتى لقـــد اعتبروه عمدة المؤرخين المسلمين بلا منازع ، وقد وصفه المؤرخ الأسبانى إنخـــيل جونثاليـــث بالنثيا بأنه أعظم مؤرخى هذا العصر[١] . ويؤكد دوزى أن عنده صـــدق الـــرواية وجمال الأسلوب ، وجزالة اللغة ، ورنين العبارة ، ويبدى أسفا على ضياع مؤلفات ابن حيان ويرى أنها لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس - الغامض - ضـــياء باهرا ، وصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التى تتناول تاريخ هذه العصور[٢] .

أما عند المؤرخين العرب ، القدامى منهم والمحدثين ، فإن ابن حيان هو شيخ الأدب ومـــؤرخ الأندلس ، كان لا يتعمد كذبا فيما يكتبه فى تاريخه من القصص والأخبار . وتكفـــى عـــبارات د. محمـــود على مكى فى تمهيده لما قام به من تحقيق لأحد أسفار المقتـــبس، أنه : يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان يعد من أعظم مؤرخى الإسلام ، وأنه بلا شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب

---

(١) بالنثـــيا : تاريخ الفكر الأندلسى - ترجـــمة د. حسين مؤنس ، القاهرة . طبعة مكتبة الثقافة الدينية . ص٢٠٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١١ .

كلـه : الإسلامى والمسيحى على السواء طوال العصور الوسطى ، ولا نستثنى من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ : عبد الرحمن بن خلدون[١] .

ولـد أبو مروان حيان بن خلف بن حيان عام سبعة وسبعين وثلاثمائة الموافق للعام السـابع والـثمانين بعد التسعمائة من ميلاد المسيح ، فى مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الإسـلامية فى الأندلس ، وكانت قرطبة فى ذلك القرن هى عروس الغرب وواحدة من أعظـم مـدن العالم حضارة وتقدما ، وساعد ذلك على نشأة ابن حيان نشأة علمية متمـيزة فـدرس عـلى أبيه وعلى أحمد بن عبد العزيز بن الحباب النحوى ، وصاعد البغدادى الأديب ، وعمر بن نبيل المحدث .

كـان والده خلف بن حسين بن حيان أحد رجال قرطبة المعروفين فى مجالى العلم والسياسـة وقـد أورث ابن حيان حبا للعلم ، وكان له أستاذا حقيقيا - بل كان له أفضـل وأعمق الأثر فى تكوينه الشخصى والعلمى ، ولقد أفرغ كل اهتمامه من أجل تعليمه وتربيته ، ووفر له منذ الصبا أفضل المؤدبين والمعلمين ، والذين وجدت جهودهم عـند الصـبى حيان تربة صالحة للغرس ، قابلة للتشكيل والتعليم ، ومساعدة على نمو المواهب ، وتقبل العلوم .

ولم يكـن والده يبخل عليه فى شبابه بأفضل المعلمين ، وساعدته على ذلك مكانته فى بـلاط الحاجب محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور ، ومن الأمثلة على ذلك أنه سمع كتاب الفصوص لأشهر علماء الأندلس على أيام المنصور أبى العلاء صاعد البغدادى ، فى منـزل منفردًا . يقول ابن حيان : جمع أبو العلاء للمنصور بن أبى عامر كتابا سماه "الفصـوص فى الآداب والأشعار والأخبار" ، وأمره - المنصور - بأن يسمعه الناس فى المسجد الجامع بالزاهرة فى عقب سنة خمس وثمانية وثلاثمائة (أوائل ٩٩٦م) ، واحتشد لـه من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة . قال ابن حيان : وقرأته عليه منفردا فى داره سـنة ثلاثمائـة وتسع وتسعين من الهجرة التى تقابل العام التاسع من بداية الألفية الثانية من التاريخ الميلادى .

---

(١) محمود على مكى : المقتبس ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٣ . ص ٧ .

ويعلق الأستاذ الدكتور محمود على مكى على ذلك بقوله : وفى اعتقادنا أن صاعدا وهو ما هو من علو المكانة والحظوة من المنصور بن أبى عامر ، ما كان ليستقبل فى داره تلميذا من تلاميذه لكى يقرأ عليه كتابا لا يتوسع فى إنفاقه إلا المقتدرون .

ويلاحظ د. مكى أيضا أن مُعَلِّمًا آخر لابن حيان هو اللغوى النحوى أحمد ابن عبد العزيز بن الفرج المعروف بابن أبى الحباب القرطبى هو نفس الرجل الذى اختاره المنصور بن أبى عامر لتعليم ابنه وولى عهده عبد الملك المظفر بن أبى عامر ، مما يدل دلالة واضحة على أن خلف بن حسين بن حيان كان يختار لولده حيان أعظم المعلمين .

ومن دراسة تخصصات الأساتذة الذين دَرَّسُوا لابن حيان فإننا نجد أن الطابع الغالب عليها هو الثقافة الإنسانية مع الاتجاه القوى نحو العلوم الدينية والعلوم اللغوية والتى أفاد ابن حيان منها إفادة كبيرة على نحو جعلت من ابن حيان مالكا لزمام اللغة العربية بصورة أفضل مما أتيح لأى مؤرخ عربى آخر ، ونستطيع أن نتبين فى كتابات ابن حيان أنها كانت إلى جانب قيمتها التاريخية من أرقى نماذج النثر الفنى[١] .

ولقد استمعت شخصيا إلى الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل وهو يؤكد أنه يقرأ ابن حيان مرتين ، مرة لكى يستوعبه ، ومرة لكى يستمتع بجمال أسلوبه وعظمة عبارته .

تؤكد غالبية المؤرخين عدم مغادرة ابن حيان لبلدة قرطبة سواء للتعلم أم هربا من صروف الدهر وتقلبات السياسة وخاصة فى عصر الفتنة والأحداث الجلل مع مطلع القرن الخامس الهجرى وتولى بعض الوظائف كصاحب الشرطة ، أو صاحب المدينة زمنا ولكنه أيام الفتنة من المحتمل أن يكون قد لجأ هو ووالده خلف بن حسين إلى الابتعاد عن شغل المناصب العامة ، وأنهما اعتزلا الفتنة ، بينما استغل ابن حيان ذلك فى كتابته للتاريخ حيث تظهر هذه الكتابات علاقة ابن حيان بعدد كبير من رجال العصر وهم بالنسبة له المصدر الأساسى للأخبار .

---

(١) محمود على مكى – المقتبس ، التمهيد ، ص ٢٤ .

من الأمور التى توصل إليها الباحثون فى تاريخ ابن حيان ، أن العوامل الوراثية التى انتقلت إليه من والده حسين بن خلف ، والبيئة الاجتماعية والثقافية التى أحاطت به جعلت من ابن حيان مؤرخا بالسليقة أو إن شئت الدقة مؤرخا طبيعيا تنبض كل خلجات نفسه بحب مهنة التاريخ والكتابة التاريخية ، وكان لابد وأن يدرك ابن حيان تلك الميول الجارفة التى تجذبه إلى مهنة المتاعب وأحيانا – جالبة المصائب – إلى المشتغلين بها وهى مهنة الكتابة فى التاريخ ، حيث يقول عن نفسه : وبعد ، فإنى امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر ، أدرس شاردة وأقيد نافرة ، وأبيتُ بأبوابه، وأنصُب لطلابه ، فشغلت به دهرا ، وفجرت منه نهرا ، صيرنى تربا لعدنان ، وزماما على الحدثان ، أقصى أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ، وأحترز مواعظه[1] .

مؤلفات ابن حيان :

ينسب لابن حيان مؤلفات كثيرة فى مجالات الأدب والشعر والحديث، ولكن يجمع الكافة ممن أرخوا لابن حيان على أن صنعته التاريخ، وأنه كان متخصصا فى هذا المجال.

وأشهر كتابين لابن حيان: هما «المقتبس» و «المتين» ، وفى أولهما يتناول ابن حيان تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م ، ويستمر فيه حتى قرب وفاته تقريبا ، ولقد أشار ابن حزم إلى هذا الكتاب فى رسالته عن فضل الأندلس قائلا : ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس، تأليف أبى مروان بن حيان، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف فى هذا المعنى .

وثانيهما كتاب « المتين » والذى لم يصلنا منه أية أجزاء متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى ، قد احتفظ لنا بنصوص كثيرة قيمة ، أضحت موضوعا لرسالة دكتوراه قام بها الأستاذ الدكتور عبد الله جمال الدين وقدمها إلى جامعة مدريد عام ١٩٨٧م . ويتناول هذا الكتاب «كتاب المتين» عصر

(١) ابن بسام ، الذخيرة القسم الأول ، ج٢ ، ص ٨٦ . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٧٥م . وكذلك دراسة د. مكى للمقتبس ، ص ٢٨ .

الدولة العامرية ، وجزءا من تاريخ ملوك الطوائف ، أو بصورة أدق تسجيلات المؤلف لأحداث عصره وشواهده .

قطع المقتبس التى وصلت إلينا حسب ترتيب تناولها للسنوات :

يتألف كتاب المقتبس من عشرة أسفار كبيرة ، فقدت معظمها و لم تصل إلينا من هذا الكتاب الضخم إلا بعض القطع بالإضافة إلى نصوص كثيرة وردت ضمن كتابات المؤرخين اللاحقين والذين اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا ، والقطع التى وصلت إلينا من المقتبس هى على النحو التالى مرتبة حسب السنين التى تناولتها :

أولا : قطعة كبيرة فى حدود مائة وثمان وثمانين ورقة تتناول التأريخ لعصر الأمير الحكم الربطى الذى حكم الأندلس خلال المدة من ١٨٠هـ إلى ٢٠٦هـ ، ٧٩٧/ ٨٢١م وشطرا كبيرا من إمارة عبد الرحمن الأوسط وبها الوقائع والأحداث التى وقعت اعتبارا من بدايات عام مائة وثمانين من الهجرة إلى عام مائتين واثنتان وثلاثين أى قبل نهاية عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط بست سنوات ، وهذه القطعة هى محور حديثنا الأساسى فى هذه السطور .

ثانيا : قطعة ثانية تستكمل القطعة السابقة حيث تبدأ باستكمال سنوات الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم تواصل الحديث عن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها الأستاذ الدكتور محمود على مكى ، وقامت دار الكتاب العربى، ببيروت بطباعتها عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

ثالثا : قطعة ثالثة تتناول عصر الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥- ٣٠٠هـ/ ٨٨٨- ٩١٢م وتبلغ حوالى مائة وسبع ورقات ، وكانت موضعًا لأكثر من دراسة كان أولها وأهمها التى نشرها الراهب الأسبانى ميلتشور أنطونيا ، وطبعت بباريس ١٩٣٧م .

رابعا : أما أكبر القطع التى وصلتنا من مقتبس ابن حيان فهى التى تشكل السفر الخامس من هذا الكتاب ، وكانت محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط وهى تتحدث عن السنوات الثلاثين الأولى من حكم الأمير عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر ، وهو أول من تسمى بالخلافة فى الأندلس ، ويتناول هذا المخطوط الأعوام من سنة ٩١٢م

إلى ٩٤٢م ، وقد قام المعهد الأسبانى العربى للثقافة ، والقائم فى مدريد فى تلك الأعوام بنشر هذا السفر الكبير بتحقيق الأساتذة بدور شالميتا ، وفيدريكو كورنيطى ، ومحمود صبح ، ثم قام نفس المعهد بنشر الترجمة الأسبانية لهذا السفر فى عام ١٩٨١م حيث تولاها كل من الدكتور فيدريكو كورينيتى والدكتورة ماريا خيوسى فيغيرا بمدريد .

خامسا : وجد جزء من السفر السادس يتناول سنوات خمس فقط من عصر الحكم المستنصر بالله ، والذى خلف والده الناصر على حكم الأندلس خلال المدة من ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١- ٩٧٧م . والقطعة تتناول الأعوام من ٣٦٠ إلى ٣٦٤هـ قام الأستاذ الدكتور عبد الرحمن على الحجى بتحقيقها ونشرها ببيروت سنة ١٩٦٥م ، كما نشرها بالإسبانية عميد المستشرقين الأسبان إميليو جارسيا جوميت فى مدريد عام ١٩٦٧م .

نركز الحديث الآن عن القطعة الأولى من المقتبس والتى تعرضت لكثير من الألغاز، وأثارت الكثير من الجدل فى أوساط الدارسين للتاريخ والحضارة فى الأندلس . ولنترك أ. د. محمود على مكى عميد الدارسين فى هذا المجال يحدثنا عنها عند طباعته للجزء التالى لها فى بيروت عام ١٩٧٣م ويتحدث عنها بقوله : هى قطعة مخطوطة كبيرة حصل عليها المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال من الخزانة العامة لجامع القرويين فى فاس بالمغرب الأقصى . وهى تضم كل إمارة الحكم من هشام الربضى (١٨٠- ٢٠٦هـ) والشطر الأعظم من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٢هـ) وكانت تقع فى مائة وثمان وثمانين ورقة . وقد انتفع ليفى بروفتسال كثيرا من هذه القطعة فى عديد من أبحاثه ولا سيما كتابه الجامع عن «تاريخ إسبانيا الإسلامية» ، الذى نشره فى باريس بين سنتى ١٩٥٠ و١٩٥٥ فى ثلاثة أجزاء .

ولم يترك لنا المستشرق الفرنسى وصفا مفصلا لهذه القطعة ، ولكننا نأخذ من بعض إشاراته إليها فى تاريخه أنه كان قد حققها تحقيقا كاملا ، وأعدها للنشر منذ سنة ١٩٣٨ ، وأنه أرسلها إلى إحدى الجامعات المصرية لكى تنشر هناك ولكن الجامعة المذكورة لم تعتن بإخراجها على الرغم من مضى اثنى عشر عاما على الفراغ منها وإرسالها . ويعنى ليفى بروفنسال بذلك جامعة الإسكندرية . فالمعروف أنه كان قد

فاوض الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادى – رحمة الله عليه – فى أن تقوم الجامعة بنشر المقتبس ، وأنه بعث إليه بمصورة للمخطوط ، ولكن الذى نعرفه هو أن ليفى بروفنسال لم يكن قد أتم تحقيق المخطوط ، وإلا فإنه لم يكن يعدم الوسائل لنشر مثل هذا الكتاب الجليل فى أى مكان آخر بدلا من هذا الانتظار الطويل . ويبدو أن ليفى كان يريد أن يشرك معه الأستاذ العبادى أو غيره من المشتغلين بالأندلسيات فى تحقيق الكتاب ، ولكن ذلك لم يتيسر ، واسترد المستشرق الفرنسى مصورة المخطوطة ، وظلت فى حوزته حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

ومنذ هذا الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقرا ، وقد اجتهدنا فى البحث عنها لدى من يمكن أن تكون لديه ، فسألنا عنها أرملة ليفى بروفنسال وأصدقاءه من المستشرقين فلم يهتد أحد إلى مآلها . ولو انتهى أمرها إلى الضياع لكان ذلك خسارة كبيرة لتراث الأندلس وتاريخها . على أننا لم نفقد الأمل بعد فى إمكان العثور على هذه القطعة الجليلة ، أو الاطمئنان إلى أنها ستقع فى أيد أمينة تحرص على أن تنشر بما هى جديرة به من عناية أو تعرف على الأقل مدى قيمتها ونفاستها[١] .

كتب الدكتور مكى ذلك الكلام قبل عام ١٩٧٣م :

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان – رحمة الله عليه – أنه انتفع بوجه خاص بثلاث قطع مخطوطة نادرة من مؤلف ابن حيان القيم فى تاريخ الأندلس وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى وتشمل حوادث سنى ١٨٠- ٢٣٢هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة من ٨٨ – ١٨٩ من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب المقتبس « ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكان قد

(١) ملكى : المصدر السابق ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

عـثر علـيه فى مكتبة جامع القرويين بفاس . وقد اختفى هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده »[١] .

كتـب الأسـتاذ عنان هذا الكلام مع مطلع عام ١٩٦٩م عند إصداره للكتاب : « دولة الإسلام فى الأندلس » .

وفى شـهر مارس من عام ١٩٧٩ نشر الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الجزء الثانى من كتابه « تاريخ المغرب العربى » ، والذى حمل مفاجأة سارة إلى الجميع عبر عنها بالكلمات التالية :

وهـنا أود أن أضيف هامشا إلى موضوع المصادر . ففى الفترة التى كنا نقدم فيها الكـتاب إلى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن – مدرسة التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية – إلى كشف هام فى مصادر تاريخ الأندلس ، فلقد تعرفت على الجزء من كتاب المقتبس لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠هـ إلى سـنة ٢٣٢هـ ، وذلـك مـن المخطوطات المصورة بمكتبة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية .

ولقـد أطلعتنا على المخطوط الثمين ، وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بـين دول المغرب « العدوة » فى تلك الفترة وبين الأندلس ، وكنا قد اكتفينا بالإشارة إلى بعضـها ممـا يوجد بالفرنسية فى كتاب الأستاذ ليفى بروفنسال فى تاريخ إسبانيا الإسلامية .

ومع تمنئتى للدكتورة نبيلة حسن بكشفها الهام أرجو أن تتم منه الفائدة ، فيتيسر لها إخراج المخطوطة الثمينة محققة ومدروسة فى وقت قريب[٢] .

وكانـت المفاجأة السارة والكبيرة والمحيرة فى ذات الوقت ، وكان التساؤل الكبير مـن أيـن حصلت د. نبيلة حسن على هذا المخطوط الثمين ؟ وهل فعلا استرد ليفى

---

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس – مكتبة الخانجى – الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ ، ص ٦-٧ ، من المقدمة .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد – تاريخ المغرب العربى ، جـ٢ ، المقدمة ، معارف الإسكندرية ، ١٩٧٨ .

بروفنسال مصورة المخطوطة كما قال د. محمود على مكى أم أن الدكتور عبد الحميد العبادى قد احتفظ بصورة منها قبل أن يعيدها إلى فرنسا ؟ أسئلة لم يعرف أحد الإجابة عـــنها حتى الآن ، ولا أعتقد أنها ستنجلى لأن الأبطال الذين يعرفون الإجابة قد انتقلوا إلى رحمة الله منذ عشرات السنين .

واتجهــت الأنظــار جميعها . الدارسون المحدثون والقدامى إلى الإسكندرية أملا فى رؤيــة ذلك المصدر النفيس والاستفادة منه ، وطمع الكثيرون فى القيام بتحقيقه أو على الأقل المشاركة فى هذا التحقيق ، وانهالت العروض على الدكتورة نبيلة حسن ، ولكن لم يســتطع أحد أن يزعم - سوى د. ســعد زغلول - أنه قد رأى المخطوط بعينيــه أو اطلع على محتوياته .

ظل الحال على هذا الوضع سنوات طوالاً ، لم تقم الدكتورة نبيلة بتحقيق المخطوط ولا أنهــا سمحــت لأى من المتخصصين بالعمل فيه ، كما كثرت الشائعات والأقاويل حتى قيل بأنه قد وضع فى خزانة بأحد البنوك خوفا عليه .

وإن كانــت قــد قامت فى عام ١٩٩٤م بكتابة دراسة مستفيضة عن المخطوط فى حوالى ست وسبعين صفحة بينت فيها أهم ما جاء به من معلومات[١] .

يقــول أ.د. حواكين فالفى برميجو Joaquin Vallve Bermejo إنه فى عام ١٩٩٥ قــد كتــب فى حولــية الأكاديمــية الملكية للتاريخ[٢] مشيرا إلى وجود أعمال هامة للمستشرق الكبير أميلوجارثيا جوميث Emilio Garice Gomes لم تزل مطبوعة وأنها لم تنشــر ، وأنــه قد وجه نداء إلى الأكاديمية الملكية للتاريخ فى مدريد لكى تصل إلى اتفــاق مع السيدة زوجة الدكتور إميليو جارثيا جومث . واسمها الكونيسية ماريا لويزا فوريرتــث Condosa: Maria Luisa Fuertes . عــلى نشر هذه الأعمال التى تركها زوجها الراحل ويواصل الدكتور فالفى حديثه فى المقدمة التى كتبها لما أطلق عليه اسم المقتــبس الثانى - ويقصد بذلك القطعة التى نتحدث عنها قائلا : كم كانت الشكوك

---

(١) حواكين فالفى : المقدمة الإسبانية للمقتبس الثانى ، ص ١١ .

(٢) العدد ٩٢ لسنة ١٩٩٥ - الصفحات من ١٨٥ - ٢٠٢ .

تراودنى حول امتلاك أميليو جارثيا جوميث لمخطوطة المقتبس الثانى لابن حيان أو على الأقل فإن لديه صورة منها – ولم يكن ما يدور بخلدى ظنونا فحسب لأن كثيرا مما كنت أسأل عنه الفقيد الراحل من أحداث تاريخية محدودة أو مواقع جغرافية معينة ، قد وجدت بعد ذلك بخط إميليو حارثيا جوميث مما يعنى أن الرجل كان يعمل جديا وفى صمت على نشر هذا المخطوط وترجمته إلى الإسبانية ، وأن الموت كان هو الحائل الوحيد الذى منعه من استكمال هذا المخطوط ذى الأهمية الفائقة .

فى السابع من أكتوبر عام ١٩٩٨ ، أودعت مكتبة المجمع الملكى للتاريخ القسم الأول من الوصية الكريمة بإهداء هذه المكتبة كل ما كان فى بيت الراحل جارثيا جوميث – وفى هذه الدفعة الأولى وجدت عددا من الصفحات نسخ عليها أجزاء من المقتبس كما وجدت صفحات أخرى بها نقول وترجمة إلى الإسبانية من ذات المخطوط .

ويواصل الدكتور فالفى حديثه عن زيارة قام بها إلى منزل جارثيا جوميث وموافقة الزوجة على إهداء مكتبة زوجها كاملة إلى المجمع الملكى للتاريخ ، وأنه قد تولى الإشراف على ذلك إلى أن يصل إلى القول :

منذ اللحظات الأولى ، وعند إلقائى نظرة سريعة على محتويات المكتبة لفت نظرى وجود رزمة ضخمة مربوطة كتب عليها مخطوط المقتبس وكانت هذه الرزمة متضمنة المخطوط الأصلى العربى ، ومحاولات إعادة كتابتها بالخط العربى فى معظمها بخط إميليو جارثيا جوميث وبعضها بخط ليفى بروفنسال ، علاوة على عدد من التعليقات(١) .

ويتحدث بعد ذلك عن قصة عثور العالم الفرنسى على المخطوط والاعتماد عليه فى كتابه عن تاريخ إسبانيا . والقصة الطويلة التى انتهت بضياع المخطوط ، ثم ظهوره فى الإسكندرية وعدم تحقيقه حتى عام ١٩٩٩م ثم يقول :

لهذه الأسباب جميعها وفى الثانى عشر من شهر مارس ١٩٩٩م قدمت تقريرا إلى المجمع الملكى للتاريخ فى إسبانيا أزف إليه بشرى هذا الاكتشاف العظيم بين أوراق إميليو جارثيا جوميث ، وأقترح على المجمع انطلاقا من الأهمية العظمى وغير العادية

---

(١) العدد ٩٢ لسنة ١٩٩٥ – ص ١٠ .

لهذا المخطوط أن تقوم بطبعه طباعة فاكسيملى ، أى أن يتم تصويره ونشره على ما هو عليه . ولقد وافق أعضاء المجلس بالإجماع على ذلك ، ويتم تكليف المسئولين بالمجمع بالنهوض بهذه المهمة ، وقد تم المخطوط على هذا النحو فى مدريد عام ١٩٩٩ وبدأت نسخة تتسرب إلى القاهرة ويتم تصويرها ، وهى الآن بين أيدى الجميع من الباحثين والدارسين ، ويعكف البعض على تحقيقها تحقيقا علميا ونشرها مطبوعة أسوة بالأجزاء الأخرى من مقتبس ابن حيان .

يتضح لنا من ذلك العرض السريع لقصة هذا الجزء من مقتبس ابن حيان الإجماع على أهميته الكبيرة والتى عبر عنها كل المؤرخين العرب والأسبان والتى وصفت عند بعضهم بأن لها أهمية فائقة وفوق العادة ، وهى بالفعل كذلك فيما جاء بها من تفصيلات دقيقة لم تغب عن فطنة ذلك المؤرخ المتميز ابن حيان ومن ذلك مثلا : ما جاء فى ص ١٧٧ من حديث عن محنة هارون بن حبيب وهو أخ عالم الأندلس فى عصره عبد الملك بن حبيب ، وكيف شفع له هذا عند الأمير عبد الرحمن الأوسط .

وقصة خبر صلب ابن أخت بحيب فى ص ١٧٥ .

وقصة المنجم عبد الواحد بن إسحاق وإقصائه ، ص ١٧٠ .

وتحديد أرزاق معلمى الولاد الأمير عبد الرحمن .

وغير ذلك مما لا يحصيه عدد من الموضوعات ذات الأهمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

لكن ليس معنى ذلك أن ظهور هذا الجزء من المقتبس يمكن أن يغير من الصورة العامة التى كتب بها التاريخ الأندلسى فى عصرى الأميرين: الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط .

لقد راجعت عصر هذين الأميرين فى كتابات الأستاذ محمد عبد الله عنان والأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم وغيرهما من المؤرخين الأندلسيين ، وقارنتهما بما جاء فى المخطوط فلم أجد فرقًا كبيرًا اللهم إلا فى التفاصيل بالزيادة أو النقص ، مما يدل على وجود هذه المعلومات فى عدد من المصادر التاريخية الأخرى ، أو مما تم الاستفادة منه فى نفس المخطوط .

ولعل الأسباب التى جعلت الكثيرين لا ينبهرون بنتيجة ظهور الجزء من المخطوط يمكن إجمالها فيما يلى :

أولا : أن المخطوط كان فى حوزة المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال وأنه اعتمد عليه كثيرا فى تأليف كتابه فى تاريخ إسبانيا باللغة الفرنسية ، وقد قام إميليو جارثيا جوميث بترجمة الكتاب إلى الإسبانية ، ومن هاتين اللغتين انتقلت جميع هذه المعلومات إلى اللغة العربية ، هذا وقد قام المجلس الأعلى للثقافة فى مصر بترجمة هذا الكتاب من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية ونشره فى عام ٢٠٠٠م .

ومن الواضح أن ليفى بروفنسال كان عالما لم يحبس علمه على نفسه كما فعل البعض من الناس ، وإنما أتاح لأصدقائه وللعلماء فرصة الاطلاع على المخطوط ، وأرسل نسخة منه إلى الدكتور عبد الحميد العبادى بالإسكندرية ، كما أطلع عليه الأستاذ محمد عبد الله عنان والذى استفاد كثيرا جدا من هذا المخطوط ونقل منه نصوصا وأبياتا شعرية ضمنها الجزء الأول من كتابه « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وذلك منذ طبعته الرابعة فى عام ١٩٦٩م .

وطبيعى أن ليفى بروفنسال قد اطلع عليه بعرض الدارسين من أبناء المغرب بحكم صلته المباشرة بهذه البلاد خلال الاحتلال الفرنسى هناك ، فإذا أضفنا إلى ذلك قيام الدكتورة نبيلة حسن بتقديم دراسة مستفيضة عن أهمية المخطوط ومحتواه أمكننا أن نفهم أسباب عدم غربة النص أو حداثته بالنسبة للباحثين .

ومع ذلك ، تبقى لهذا المخطوط أهمية فائقة باعتباره جزءًا أساسيًّا فى سلسلة أهم موسوعة ألفت فى تاريخ الأندلس ، وهى موسوعة : المقتبس لابن حيان والتى لو استكملت حلقاتها لكانت من أعظم المصادر فى التاريخ الأندلسى خاصة والإسلامى عامة .

* * *

ميـــناء آيـاس
فى السياسة المماليكية

أ.د. عادل عبد الحافظ حمزة
أسـتاذ تاريخ العصـــور الوسـطى
رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعـــة المنيـــا

ميناء آياس
فى السياسة المماليكي

ورد ذكر هذا الميناء فى كتب الجغرافيين باسم " آياس " بفتح الهمزة الممدوة والياء المثناة من تحت[١]، وكذلك باسم " آياذ "[٢] ، وهناك إشارات فى بعض الدراسات تشير إلى أن هذه المنطقة كانت تسمى قديما " أيجاى Aigai " ثم حُوِّل الاسم إلى " آياش " Ayash[٣] ، كما أطلق عليها باللغة الإيطالية " لا جازوا " Lajazzo[٤] ، وباللغة التركية يمورتاليك Yumurtalik[٥] ، وعرفت أيضا باسم الجوزات[٦] .

---

(١) أبو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق رينو والبارون ماك كوكين ديسلان، بيروت، ١٨٤٠م، ص٢٤٨.
وانظر القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٤، ص ١٣٣.

(٢) شيخ الربوة : تحفة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى،بغداد (د.ت) ، ص ٢١٤.

(3) Ramsay(W-M):The Historical Geography of Asia Minor, Amsterdam, 1962, p. 385.

د: هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد محمد رضا، مراجعة: عز الدين فوده، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص ٣٠٩.

(4) Setton(K-M): A history of the Crusades,V.2,Philadelphia,1962,p. 762.

وستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ترجمة السيد الباز العرينى، بيروت، ١٩٦٨، ص٦١٤.

CF:The Encyclopaedia of Islam , V.I, Leyden, 1913, pp528-529.

وانظر : هايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، ص١٤، هامش ص ٣٠٩، وعفاف صبرة : العلاقات بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٨٣، هامش ص ١٠٨.

(5)Setton (K-M): Op.Cit., V.2,p. 762.

(٦) فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج٣، القاهرة ، ١٩٦٦، ص٢٢٦.

ويقـع هـــذا الميـناء بمنطقة سبخm منخفضة تكونت من غرين نهرى سيحان وجـيحان على شاطئ قليقية(١) فى الجانب الغربى لخليج الإسكندرونة(٢). بينها وبين بغـراس مسـافة تقـدر بمرحلـتين(٣) ، ويحدها من الشمال كارامارنيا التى يسكنها التركمان(٤) .

---

(١) تقع قليقية بالإقليم الواقع فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وقد أطلق العرب على هذا الإقليم اسم الدروب؛ أى الطريق الذى يسلك ما بين طرسوس وبلاد الروم . انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، مقال بالموسم الثقافى للجمعية التاريخية ١٩٦٨/٦٧م، ص ١٣٣ وما بعدها . ويضيف البعض أن قليقية كانت ولاية من ولايات الإمبراطورية البيزنطية طيلة عهـد الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م) . انظر: عبد الحفيظ محمد على: المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط (٣-٦هـ/٩-١٢م) ، ج٢، الطبعة الأولى، القاهرة ، ١٩٨٢م، ص ١٩١-١٩٢. وعلى أية حال فقد خضعت قليقية بعد ذلك للأرمن .

CF: Sauvaget (J) : Alep, Paris, 1941. p. 164.

وعن مملكة أرمينية انظر: أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك فى مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو ، ج١، ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن ، ونقلها إلى العربية: عبد العزيز جاويد ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٩٩٥، ص١٨٥. والقلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٨٣.

CF: The Encyclopadeia of Islam , V.I, p. 528.

وهايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، هامش ص ١٧.

وكى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٦٤.

(٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج٤، ص١٣٣.

CF: Demonbynes (G) : La Syrie Al' Epoque Des Mamelouks, Tome III , Paris , 1923, pp . 98, 248.

(٤) ماركو بولو: المصدر السابق، ج١، ص٤٩.

وتعـــد آياس ميناء الأرمن وداخلة فى نطاق دولتهم[١] . وعـــدها البعض عاصمة بلاد ما وراء نهر جيحان[٢] . واستمر الحال على هذا المنوال حتى ظهرت دولة سلاطين المماليك على الساحة السياسية فى الشرق الأوسط سنة ٦٥٨هـــ/١٢٦٠م.

وعـــلى أيـــه حـــال ، فإن المنطقة البحـــرية الواقع عليها هـــذا الميناء حملت اسمه وغدت تعرف بخليج آياس الذى تمتع برحابة المكان، والحصنين اللذين يذودان عنها، أحدهما على جزيرة قبالة الميناء فى البحر [٣] يسمى أطلس وهو مبنى من الحجر الأصم الأطلـــس، وتقـــدر مســـاحته بحوالى ثمانية وثلاثين قيراطا، وارتفاعه يصل قرابة اثنتين وأربعـــين ذراعًا بـــ (ذراع العمل) [٤] ، ويقدر طول السور الذى يحيط بالميناء بحوالى خمســـة آلاف ومائتين وستون ذراعا - بذراع العمل أيضا [٥] ، ويقدر عرضه بثلاث عشرة ذراعا [٦].

والـــذى لا شك فيه أن هذا الميناء يعد مرفأ حيويا مهما لكثيرمن القوى المعاصرة آنـــذاك ســـواء الإسلامية أم الصليبية ؛ حيث توجد فيه عيون جارية ، وأنهار عذبة ،

---

(١) أبو الفدا: المصدر السابق ، ص ٢٩، ص٢٤٨.

CF: Ciggaar (K), Davids (A) and Teule (Herman): East and West in the Crusader States , Leuven, 1996,p.65.

وانظر: شيخ الربوة: المصدر السابق، ص٢١٤. والقلقشندى: المصدر السابق، ج٤، ص١٣٣. وهايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، هامش ص ٣٠٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة ، (د.ت) ، هامش ص ٢٢٤.

(٣) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، ص٣٠٩.

وانظر : فتحى عثمان : المرجع السابق، ج٣، ص ٢٢٦.

CF: The Encyclopadia of Islam , V.I, pp.528-829.

(٤) ذراع العمل : وضع فى العراق زمن ولاية زياد بن أبى سفيان أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان . انظر: إبراهيم على طرخان: النظم الإقطاعية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٥١٣-٥١٤.

(٥) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، تحقيق: بربارة شيفر، ج٢، ق١، فسبادن،١٩٧٨، ص١١-١٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، بيروت ، ١٩٨٣، ص١٠٣.

وبســاتين عامــرة بأنواع مختلفة من الفواكه (١) ، ويتردد عليه تجار بنادقه وجنويون ليتــبادلوا المتاجر من التوابل والعقاقير والمنسوجات الحريرية والصوف وغير ذلك من الســلع الثمينة (٢) . وبالإضافة إلى تجار هذه الجنسيات ، كان هناك تجار من جنسيات أخرى يتوجهون إليها مثلما كانوا يتوجهون إلى عكا أثناء السيطرة الصليبية عليها (٣) .

واعتــبارا من النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) بدأ المغــول الإيلخانــيون يسلكون طرقا تجارية عبر آسيا، الأمر الذى أدى إلى علو مكانة "آياس"، بسبب اتخاذها نقطة انطلاق للرحالة والقوافل التجارية إلى تبريز وبغداد بصفة خاصة ثم إلى الشرق بصفة عامة (٤)، فضلا عن كونها ممرا لكثير من البعثات البابوية إلى خاقانات المغول فى الشرق (٥) .

وبطبيعة الحال ، بعد أن أخذت القلاع والحصون الصليبية الساحلية وغير الساحلية بالشــام تتهاوى وتتساقط فى أيدى سلاطين المماليك ، بدأت بالتالى التجارة الساحلية الشــمالية تسلك طرقا بعيدة عن السيطرة المماليكية، وتتخذ نقاطا جديدة للانطلاق

---

(١) الشحاعى: المصدر السابق، ج٢، ق١، ص١١.

(2) Toumanoff (C): Armenia and Georgia, Chapter , N.24 in Camb - Med-Hist,V.4, part .1, Camb, 1964, p. 633.

وانظر:ماركو بولو:المصدر السابق،ج١، ص ٤٨، ج٢، ص٣١٢، ص٣١٤-٣١٥.

(3) Leoplod(Antony):How to Recover the holy land, Ashqate,2000,p. 96.

(4) Toumenoff (C) : Op.Cit,p. 633.

وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص١٥٤-١٥٥، وستيفن رنسيمان: المرجع السابق ، ج٣، ص ٥٥٩. وصبحى لبيب : سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان ٢٨، ٢٩ لسنة ٨١ -١٩٨٢م، ص١٣٠. ويوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٩م، ص ١٧٥-١٧٧.

(٥) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، ص٣١٠، وعادل هلال : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى ، الطبعةالأولى، دار عين، القاهرة ، ١٩٩٧، ص ٦٨-٦٩. وانظر: السيد الباز العريني: المغول ، بيروت، ١٩٨١، ص٣٠١.

CF: Setton (K.M): Op.Cit .V.5, 1985, p. 438.

منها، مثل ميناء آياس الأرمنى[١]، على الرغم من أن طريق آياس تبريز لم يكن مألوفا تماما[٢] .

وهنا يضيف بعض المؤرخين أنه مما زاد من أهمية ونشاط ميناء آياس ما لجأت إليه البابوية بعد سقوط عكا عام ١٢٩١م من إصدار مراسيم تحرم التجارة مع المماليك . وفرض حصار اقتصادى عليهم فى مصر والشام ، الأمر الذى أثر بالفعل على النشاط الاقتصادى لدولة المماليك[٣] . وأصبحت آياس نقطة ارتكاز تجارية مهمة لكافة القوى المسيحية بالمنطقة ، وكذلك محطا للتجار الأوروبيين؛ إذ حصل الجنويون على امتيازات لبعض السلع فيه مثل : الفلفل ، والجنزبيل ، والنيلة ، وغيرها .. وبدأ يتواجد بها البنادقة [٤] ، وغدت لهم أسواق فيها [٥] .

والذى لا شك فيه ، أن تغير مسار التجار الغربيين بمتاجرهم إلى آياس قد أدى إلى رقى مكانتها التجارية ، وارتفاع دخلها حيث قدره بعض المؤرخين " كل شهر ثلاثين ألف دينار خارجا عن ملاحة بها " و " فى كل سنة سبعمائة ألف درهم "[٦]، فى الوقت الذى خفض فيه الأرمن الضرائب على التجارة المارة بأراضيهم، بما فيها طبعا ميناء آياس، من ٤٪ إلى ٢٪ ، وذلك ليجذبوا التجار إليهم[٧]. بالإضافة إلى كل هذا

---

(١) السيد الباز العرينى: المغول،ص ٢٩٤،وهامش ص ٣٠١.

(٢) هايد (ف) : المرجع السابق، ج٢، ص٣١١. وانظر : عادل هلال : المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ١٥٥.

CF: Riley - Smith (J): The Oxford illustrated History of the crusades , Oxford , New York , 1995 , p. 128.

(٤) هايد (ف) : المرجع السابق، ج٢، ص٣١٠-٣١١. وانظر : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق ، ج٣، ص٦٨٢-٦٨٣. وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص ١٦٢.

CF: The Encyclopaedia of Islam ,V.I, p. 528.

(5)Setton (K.M) : Op.Cit, V.5. p. 445.

(٦) الشجاعى : المصدر السابق ، ج٢، ق ١، ص١١. وانظر : السيد الباز العرينى : المغول، هامش ص ٣٠١، وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص١٥٥. وعادل هلال : المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦، ص١١٥٧-١١٥٨.

فإن هذا الوضع الجديد أعطى فرصة لتجمعات صليبية فى آياس، الأمر الذى دفعهم إلى التفكير فى إنزال قوات عسكرية بحرية صليبية لاستخدامها ضد المسلمين[١] .

ولعـــل هذا مما أدى إلى تدهور داخل الموانئ الساحلية المماليكية فى مصر والشام، وبخاصة الواقعة جنوبى ميناء آياس ، الأمر الذى أثار حفيظة سلاطين المماليك ، وبدأت المحـــاولات من جانبهم فى وقت مبكر من تاريخ دولتهم ، منـــذ عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـــ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) للســـيطرة على آياس ، فقد أخذ على عاتقه عـــدة مهام تتصل بتأمين حدود الدولة المماليكية الناشئة ، منها : مهاجمة الأرمن بوجه عام وآياس بصفة خاصة . وتعود أولى هجمات السلطان بيبرس عليهم إلى سنة ٦٦٤ هــــ/ ١٢٦٦م، إذ دخـــل المماليـــك فى هذه المرة عددا من المدن الأرمينية من بينها آيـــاس[٢] ، حيث تولى قيادتها العسكرية الأمير قلاوون[٣] ، وكرر المماليك هجماتهم على سيس عاصمة مملكة الأرمن ، وعلى آياس فى يوم الاثنين ٢١ رمضان ٦٧٣هـــ / ١٢٧٥م ، بقيادة الأمير بدر الدين بيسرى والأمير سيف الدين أيتمش السعدى، وأقام الجـــيش المملوكـــى هناك قرابة شهر، وكان الأرمن قد علموا بقدوم هذه الحملة عن

---

(١) ستيفن رنسيمان : المرجع السابق، ج٣، ص٦٧٨.

(٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ترجمة إسحق أرملة ، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٢٦.وابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، تحقيق : محمد كمال الدين عز الدين ، ج١، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٥، ص٧٤. وانظر : عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٥٨. وللمزيد عن موقف السلطان الظاهر بيبرس من مملكة أرمينية . انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية ، ص ١٥٧. وسعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ٢١٢. وأحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، الإسكندرية ، ١٩٨٢م، ص٢٣٠-٢٣١. وستيفن رنسيمان : المرجع السابق ، ج٣، ص ٥٥٣. وعلى إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، الطبعة الثالثة، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص ١٦٩.

CF: Vryonis (Spero) : The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth century , London , 1971, p. 256.

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق ٢، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٥٥٢.

طـريق الصـليبيين، الأمـر الذى ترتب عليه هروب ما لا يقل عن ألفين من الأرمن بـأموالهم إلى مراكـبهم، فلقى عدد كبير منهم حتفهم فى البحر غرقا، وأسر المماليك بعضـهم وحصلوا على غنائم منهم(١)، كما أن الصليبيين أنفسهم انتهزوا هذا الوضع ونهبوا ما استطاعوا من الأرمن " كل مالهم وانتزعوا ثيابهم كذلك "(٢) .

وعلى أية حال ، فقـد شارك الأرمن المغول فى المعركة التى نشـبت بينهم وبين المماليـك فى حمـص سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨١م والتى هزم فيها المغول؛ وعندئذ حدد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩- ١٢٩٠م) سياسته تجاه الأرمن فى اتجـاهين : الاتجاه الأول عسكرى ؛ إذ أصدر أوامره فى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣-١٢٨٤م إلى نائـب حلب بتوجيه حملة ضد الأرمن فى عقر دارهم " سيس "، وبالفعل هجمـوا عليها وقتلوا منهم جماعة وغنموا ثم عادوا إلى حلب(٣) . والاتجاه الثانى ؛ فقد لجـأ السـلطان قلاوون إلى مواجهة المنافسة الخطيرة التى يشكلها ميناء آياس للموانئ المماليكية ، إذ أمر السلطان نوابه فى الثغور بحسن معاملة التجار الأجانب وترغيبهم فى الوفود إلى مصر، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية، كما أصدر السلطان منشورا للتجار الذين يفدون على مصر

---

(١) ابـن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع (٦٧٢-٦٨٢هـ) تحقيق : قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م، ص ٣١، وابن شـداد : تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق : أحمد حطيط، بيروت ، ١٩٨٣م، ص ١٠٦، وأيضا : ابن شداد : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج١، ق٢، تحقيق : يحيى زكـريا عبارة، دمشق ، ١٩٩١، ص٣٤٦ . وانظر: بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧، ص ٨٠-٨١، ومفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فى تاريخ ما بعد ابن العميد ، فى :
CF: Blochet in Patrologia Orientalis, T. 14, Paris , 1920, pp. 389-390.

(٢) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣٣١.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق ، المجلد السابع ، ص٢٧٦-٢٧٧. وانظر : بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق : زبيدة عطا ، جدة (د.ت) ، ص ٢١٥. وانظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية ، ص١٦٤- ١٦٥.

مـــن الصين والهند والسند والعراق وبلاد الروم يرحب بهم ويشرح ويصف لهم محاسن مصر[(١)] .

و لم يقـــف الأمر عند هذا الحد بل إن القوات المماليكية توجهت إلى بلاد الأرمن، فى عهـــد الســـلطان المنصـــور لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـــ/ ١٢٩٦-١٢٩٨م)، يقودها الأميران كجكن وقرا أرسلان إلى آياس ، غير أنهما لم يحققا نجاحا يذكر بل لقيا الهزيمة أمام قوات الأرمن حيث أكمن لهما فى الطريق، وعندما وجه الأمير بكتاش اللوم إليهما (اعتذرا بضيق المسلك والتفاف الأشجار وعدم التمكن من العدو)[(٢)] .

وعـــلى الـــرغم من هذه الهجمات المماليكية على آياس فإن لسان حالها يقول إن أهميتها أخذت فى الزيادة عاما بعد آخر، وبالتالى زادت خطورتها على سلطنة المماليك، ومـــن ثم سعت الأخيرة للسيطرة عليها حتى فى الأوقات التى كانت تعانى السلطنة من عـــدم الاســـتقرار السياسى ، ففى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى أرســـل الأمـــير قرة سنقر نائب حلب قوات بقيادة الأمير قشتمر للسيطرة على ميناء آيـــاس، ومهاجمـــة الأرمن سنة ٧٠٥هـــ/ ١٣٠٥م ، غير أن هذا الأمير لم يكن قوى الشخصـــية و لم يتصف بالاتزان النفسى والعقلى كما وصفه ابن الوردى ، الأمر الذى أدى إلى هزيمـــته أمـــام الأرمن الذين استعانوا بالصليبيين والمغول لصد المماليك عن آياس، وأسفر عن قتل وأسر عدد كبير من الجيش الحلبى ، ومن نجا منه تاه فى الجبال، و لم يرجع منه إلى حلب غير عدد قليل بدون أسلحة وأقنعة[(٣)] .

وإبـــان فـــترة حكم الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧١٠-٧٤١هـــ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) عملت القوات المماليكية على تكرار هجماتها على الأرمن بصفة عامة وعلى

---

(١) انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية ، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) المقريـــزى : المصدر السابق ، ج١، ق٣، ص٨٣٨-٨٣٩. وانظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك، ص ١٦٩.

وعن دور الإمبراطور البيزنطى فى مساعى الصلح بين الأرمن والمماليك . انظر ليلى عبد الجواد: علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (٦٥٩-٧٨٤هـــ / ١٢٦١- ١٣٨٢م) مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، العدد ٤٦، ٤٧ لسنة ١٩٨٦، القاهرة، ١٩٨٨م ،ص ٩٧-٩٨.

(٣) تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج٢، مصر ، ١٨٦٩م، ص٢٥٣.

ميناء آياس بصفة خاصة ، إذ لم ينس المماليك ما حدث لهم سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م عند آياس ، ومن ثم قام الأمير تمرتاش بالإغارة على سيس عاصمة الأرمن سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩- ١٣٢٠م، وعندئذ فر ملك الأرمن إلى قلعة آياس ، وظل الأمير المذكور يعبث بتلك البلاد فسادًا سلبًا ونهبًا قرابة شهر ثم سحب قواته منها(١) ، وتكررت هذه المحاولات ثلاث مرات فى ثلاث سنوات متتاليات غير أنها لم تكن حاسمة(٢) . لذلك أرسل السلطان جيشا شاميا بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاى الناصرى نائب طرابلس ، فأغار على آياس، وطلب السلطان من صاحب بلاد الأرمن رد القلاع التى أخذت من قبل من نهر جاهان إلى قلاع آياس وكورة وبعلبك وسرفندكار وغيرها، فأجابه إلى طلبه، لكن عاد وعدل عن رأيه(٣) .

ويمكن القول أن كل المحاولات المماليكية السابقة لم تأت بنتائج حاسمة، وظلت آياس شجة فى حلق السلطنة المماليكية إلى أن أصدر السلطان الناصر محمد أوامره سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م بتجهيز جيش ضخم من البلاد المصرية والشامية بقيادة الأمراء : جمال الدين أقوش الناصرى نائب الكرك ، والسيفى طرشى وسيف الدين بهادر آص والسيفى كجكل وعلاء الدين الطنبغا الناصرى نائب حلب بجيشه، وجيش طرابلس وحماه، وغيرهم من القوات والأمراء . وتوجهوا إلى آياس بأبراجها الثلاثة : الأطلس، ذى الأبواب الحديدية المطلية بالرصاص، والشمعة والآياس؛ واستمر حصارهم لها أكثر من أربعين يوما، تمكنوا خلالها من هدم أسوارها وأسر كثير من رجالها وسبى حريمها(٤) ، غير أن قلعة آياس الموجودة فى البحر استعصت على القوات المماليكية ، فاضطرت القوات إلى عمل طريقين فى البحر، طول الواحد منهما ثلاثمائة ذراع

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبر البشر ، ج٤، الطبعة الأولى، القاهرة، (د.ت) ، ص ٩٠٥.

(٢) ابن الوردى: تتمة المختصر ، ج٢، ص ٢٦٩.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج٢ ، تحقيق: محمد محمد أمين ومراجعة : سعيد عاشور ، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٠٦-١٠٧.

(٤) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص٢٤٠-٢٤١ . وانظر : ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، ج٢، مخطوط بجامعة القاهرة ، ورقة رقم ٢٢٨. وأيضا : ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص ١٢٤. والنويرى : الإلمام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية ، مخطوط ورقة ٢٧١أ . وانظر : محمد جمال الدين سرور: دولة ابن قلاوون فى مصر، القاهرة (د.ت) ، ص ٢٣٠.

(العمـــل) وأقاموا عليها مجانيق، فهرب الأرمن منها وأحرقها المسلمون فى يوم الأحد ٢١ ربـيع الآخــر ٧٢٢هـــ/ ١٣٢٢م، وهدموا بعض جوانبها ، وعادت القوات فى جمادى الآخرة من نفس العام بقيادة أقوش نائب الكرك[١] وهنا أنشد الشاعر يقول :

قـــــد ألف الناس أخبارا فدارهم ... فـــيها على ما حكاه السمع والبصر
وأنـــت ألفـــت تاريخـــا وقائعـــه ... فـــيها لك الورد يوم الروع والصدر
فكم وصـــفت حروبا لم تفتـــك وقد ... بذلـــت نفسك فيها الأجر والظفر[٢]

وكذلك قال بعض أهل الأدب :

نحـــو آيـــاس فـــرقة مـــن جيشنا ... توجهـــوا كـــى يملكـــوا بعضـــها
فاقـــتلعوا قلعـــتها وفصـــلوا ... أطلـــسها وأطـــفأوا شـــمعها[٣]

والســـؤال الـــذى يفرض نفسه الآن هو : هل خضعت آياس للسلطنة المماليكية خضوعا كاملا بعد هذه الضربات ؟ أم أن السلطان المملوكى اكتفى بما حدث لآياس مـــن تدمـــير وتخريب ؟ ! فى الواقع ليس هنا فى المصادر ما يشير صراحة إلى خضوع آيـــاس خضـــوعا كاملا للسلطنة المملوكية حتى هذه اللحظة - أعنى سنة ٧٢٢هـــ / ١٣٢٢م- وعلى الرغم من ذلك نجد بعض المصادر تشير إلى أن السلطان الناصر محمد قـــد سمح لملك الأرمن ليو الخامس (١٣٢٠-١٣٤١م) بإعادة إعمار آياس سنة ٧٢٣ هـــ / ١٣٢٣م على أن " يزيد ملك الأرمن - القطيعة مائة ألف درهم "[٤] فهل شدة

---

(١) أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص٩١. وابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، الطبعة الخامسة ، بيروت ، ١٩٨٣، ص ١٠٣. وابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص١٢٤. وانظر : أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ج٣، تحقيق: نبيل عبد العزيز ، القاهرة ، ١٩٨٥، ص٥٤-٥٥.

(٢) بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية فى الدولة التركية ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص١٢٥.

(٤) الشجاعى : المصدر السابق ، ج٢، ق١، ص١١. وهنا يختلف القلقشندى فى تقدير هذه القطيعة التى يرسلها الأرمن للمماليك بالقول " أنه قرر على الأرمن لملوك الديار المصرية قطيعة مقررة وبلغت ألف ألف ومائتى ألف درهم مع أصناف" . انظر : صبح الأعشى ، ج٨، ص٣٠. وانظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص ١٧٧. ومحمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢٣٠.

هجمات المماليك على بلاد الأرمن ، ومن بينها آياس ، دفعت الأخير إلى طلب الإذن من السلطان المملوكى لإعمار آياس ؛ ذلك الميناء الأرمنى ؟ أم أن ثمة اتفاقا تم التوصل إليه بين الجانبين بموجبه تظل آياس على حالها دون إعمار بعد هجمات المماليك عليها سنة ٧٢٢هـ /١٣٢٢م . هنا يشير بعض المؤرخين إلى وجود اتفاقية بين ملك الأرمن ليو الخامس والسلطان المملوكى الناصر محمد - يغلب على الظن أنها عقدت بعد الهجمات الأخيرة - تشير إلى أن ملك الأرمن تعهد بدفع مبالغ مالية للسلطنة المماليكية قدرت بحوالى ٥٠,٠٠٠ خمسين ألف فلورنس Florins ذهب ، فضلا عن نصف دخل جمرك آياس، وأن هذه الاتفاقية مدتها خمس عشرة سنة(١) . ليس هذا فحسب، بل تشير بعض المصادر إلى اعتذار ملك الأرمن عما حدث فى آياس للمسلمين للسلطان الناصر محمد، ويعلل أن ما حدث لم يكن بأمره أو باختياره ، كما ترك نصف آياس للمسلمين، وكان بهذا الجزء كنيسة فبنى المسلمون عليها مئذنة وصاروا يؤذنون عليها للصلاة فيها، ويرفعون أصواتهم فى آياس(٢) . ولعل هذا الوضع صور لبعض المصادر أن ما حدث من المسلمين فى آياس عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م هو فتح لها(٣) .

لكن يمكن القول أن تعهد ملك الأرمن بإرسال نصف متحصل جمارك آياس إلى السلطنة المماليكية يعنى أن هذا الميناء ظل خاضعا للأرمن حتى هذا التاريخ ، وأن التواجد المماليكى بها كان محدودا ، ويساعدنا فى تأكيد هذا الرأى ما حدث بعد هذا

---

(1) Toumanoff (C): Op.Cit , p. 636.

(٢) النويرى : المصدر السابق ، ورقة ٢٧١أ. انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص١٧٧.

(٣) انظر: الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، تحقيق : هانس روبرت رويمر ، القاهرة،١٩٦٠م، ص٣٠٩. وزترستين : تاريخ المماليك ، ليدن ١٩١٩، ص١٥٠، ص١٧٢. وابن إياس : المصدر السابق ، ج١، ق ١، ص ٤٧١.

وذهب ابن دقماق إلى أن آياس تعد من فتوحات الظاهر بيبرس . انظر: المصدر السابق ، ج١، ص٨٠، ص١٦٠.

مـــن تطـــاول الأرمـــن على أفراد من حلب[١] ، وغير هذا من الأحداث التى أصابت القوات المماليكية فيما بعد بآياس[٢] .

على أى حال فقد استمرت فترة هدوء مشوب بالحذر بين المماليك والأرمن لمدة لم تتجاوز سنوات المعاهدة - الآنفة الذكر - المبرمة بين الجانبين، حتى اعتدى حجاج أرمـــن عـــلى اثنين من رجال نيابة حلب ، وقتل أحدهما، فأبلغ نائب حلب السلطان الناصـــر محمد بما حدث، واعتبر أنه بذلك العمل قد نقض الأرمن العهد والميثاق المبرم معهم[٣] .

وعلى الرغم من أن ما حدث يعتبر تصرفا لا يسأل عنه ملك الأرمن، إلا أن هناك ظـــروفا اقتصادية تعانى منها مملكة الأرمن[٤] كانت من الدوافع التى دفعته لكى يعتذر للســـلطان المملوكى عما حدث من الأرمن للمماليك، لكن السلطان المملوكى الناصر محمد رفض قبول أى أعذار[٥] ، وأصدر أوامره إلى الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحى العلائى، نائب حلب والى التركمان لإرسال قوات تهاجم بلاد الأرمن بما فيها آياس[٦] وقـــد نفذت هذه الأوامر بالفعل فى شهر رمضان سنة ٧٣٥هـــ / ١٣٣٥م، فهاجمت القـــوات هـــذه البلاد وأسرت قرابة ثلاثمائة من الأرمن، وغنمت واستاقت عدة من الـــدواب . ولا شـــك أنه كان لهذا الهجوم صدى على الأرمن فى آياس فقبضوا على الـــتجار المسلمين سواء كانوا شواما أو بغاددة ، وكان عددهم يدنو من ألفين فى عيد الفطر لهـــذا العام (٧٣٥هـــ) فجمعوهم فى خان كبير ثم أشعلوا فيهم النيران و لم ينج

---

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج٢ ، ق١ ، ص ٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق١، ص ٤٧١.

(٣) الشجاعى: المصدر السابق ، ج٢، ق١، ص ٨.

(٤) عن أحوال الأرمن الاقتصادية . انظر: سعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص١٨١. وستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية ، ج٣، ص ٧٥٢. وعادل هلال : المرجع السابق ، ص٢٢٢.

(٥) ابن أيبك الدوادارى : الدر الفاخر ، ج٩، ص ٣٩٩.

(٦) الشجاعى: المصدر السابق ، ج٢، ق١، ص٩. وابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٤، ص١٧٠.

منهم إلا القليل[١]، وعلم السلطان الناصر محمد بذلك فى ليلة عيد الأضحى لنفس العام " فتشوش لذلك ، واضطرب من هذا الخبر" ، وعندئذٍ دخل عليه ابن الشهاب محمود الثناء وأنشده يقول :

أيا ملك الإسلام وابن مليكهم ... ومــن أيد الرحمن بالنصر جنده
ومــن جيشه ملأ الفضاء وأنه ... لـــيهزم جيش الكفر بالله وحده
أتـــاك بعيد النحر سعدك مخبرا ... لـــنا أن عيد النصر يأتيك بعده
فصل لرب الناس وانحر فبعدها ... ستنحر من يدعو مع الله نده[٢]

ويبدو أن هذه الحادثة قد شجعت السلطان المملوكي الناصر محمد على الانتقام من الأرمـــن عـــلى ما فعلوه بالمسلمين من ناحية ، وعلى إخضاع ذلك الميناء الحيوى من ناحـــية أخرى، ومن ثم أصدر أوامره بضرورة توجيه الجيش المملوكى إلى تلك المنطقة يقـــوده عدد من الأمراء على رأسهم الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحى العلائى نائب حلـــب، والأمـــير سيف الدين أرقطاى الناصرى مقدم الجيش المصرى، والأمير سيف الديـــن قطلوبغا الفخرى مقدم جيش دمشق، والأمير سيف الدين بهادر الناصرى مقدم جـــيش طرابلس، والأمير صارم الدين أزبك الحموى مقدم جيش حماه[٣] ، وفى شهر رجـــب مـــن عـــام ٧٣٧ هـــ/ ١٣٣٧م شقت هذه القوات المماليكية طريقها شطر الحـــدود الأرمينية، ثم أرسل نائب حلب آلات الحصار إلى باب إسكندرونة ، وهناك وصـــلت رســـل ملك الأرمن إلى نائب دمشق تطلب منه سحب القوات الحلبية من إســـكندرونة، وعندئذٍ طلب نائب دمشق من نائب حلب الكف عن القتال وتحريك آلات الحصـــار إلى قلعـــة بغراس ، على أن يتحرك هو وجيشه إلى آياس لحين وصول تعليمات أخرى من السلطان الناصر محمد، ولما كان نائب حلب هوالمقدم على الجيش

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص٢٥٩- ٢٦٠. وأبو الفدا : المصدر السابق ، ج٤ ، ص١١٥.
وابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢، ص٣١٠ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق١، ص٤٧١ .
(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص٢٧٨-٢٧٩ .

وصاحب الحل والعقد فى تحركاته ، فإنه كان أدرى بأحواله عن نائب دمشق، لأنه هو الذى جهز الجيش بالعدد والعتاد، ووضع خطة محكمة الجوانب لتنفيذ مهامه ، كذلك عز عليه التراجع عن خطته، وقرر العبور بالجيش إلى آياس فوصلها فى ١٢ شوال ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ، ثم قام بعمل زحافات وستائر، فى حين وقف بعض عساكر الأرمن على أسوار آياس ، ونزل بعضهم إلى البحر يطلقون سهامهم من المراكب على الجيش الحلبى ، فاشتد القتال بين الطرفين وقتل عدد كبير من الجيش الحلبى ، فى حين تقدم المشاة بالزحافات إلى سور آياس .. وبينما هم على هذا الحال وصل مهمندار نائب دمشق وبصحبته رسل ملك الأرمن ، حيث قال لنائب حلب : "ملك الأمراء - تنكز - يسلم عليك يقول لك لا تدخل غارة ولا توقع قتالا إلا أن يحضر الجواب من السلطان " . وهنا قال رسل ملك الأرمن لنائب حلب : " نحن رسم لنا ملك الأمراء - تنكز - ألا يعارضنا أحد " ، ومن ثم زاد الموقف حرجا لنائب حلب، إذ ظهر أمام رسل ملك الأرمن أن الحل والعقد ليس بيده - أعنى نائب حلب - ولكن بيد نائب دمشق، وحتى يثبت عكس ذلك ، أمر بأن يؤخذ رسل ملك الأرمن بعيدا ويقتلوا، كما وجه لوما شديدا لرسول نائب دمشق . وعندما وجد رسل ملك الأرمن هذا الموقف المتشدد من نائب حلب طلبوا الأمان والصلح معه على أن يمهلهم مدة أسبوع لإحضار المفاتيح المتفق عليها ، وتعهدوا على أنفسهم إن لم يحضروها خلال هذه المدة يكون نائب حلب فى حل من عمل أى شىء ضد بلاد الأرمن ، ومن ثم اتفق الجميع على وقف القتال ورفع الحصار، ولكى يثق نائب حلب بتعهد رسل ملك الأرمن أرسل إليه ملك الأرمن مؤكدا له ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أولئك الرسل، ثم أرسل له مفاتيح القلاع فى الموعد المحدد آنفا، وطلب ملك الأرمن من نائب حلب رد ما نهبه جيش حلب من بلاد الأرمن، وعندئذ أمر نائب حلب بالمناداة فى الجيش على رد ما سلبوه ، ثم توجه الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب لتسلم قلعة آياس وبرجها أطلس ، وبالفعل تسلموا القلعة المذكورة غير أنهم تأخروا بعض الوقت فى تسلم برج أطلس؛ لأن فيه بضائع للتجار استغرق نقلها وقتا طويلا، وظلت القوات الحلبية ثمانية أيام لم تتمكن من هدم هذا البرج حتى جاء أربعون

حجـــارا من القلاع المجاورة وعلقوه على أخشاب وأشعلوا فيه النيران حتى هوى فيها يستعر[١] .

وهكـــذا كانـــت المعارك ضارية بين القوات المماليكية والأرمينية حتى إنه قتل من المماليـــك الأمير صارم الدين أزبك الحموى مقدم جيش حماه بالقرب من آياس فى يوم الأربعـــاء ٢٥ من ذى القعدة ٧٣٧هـــ / ١٣٣٧م[٢] . ولعل أهم ما أسفرت عنه هذه المعـــارك هو السيطرة المماليكية على ميناء آياس الأرمنى الذى سلم إليهم علاوة على عدة قلاع أخرى مثل كاورا وسوندكار والهارونية ونجيمة وغيرها[٣]، إلا أن أهم هذه القـــلاع جميعا هو ميناء آياس التى يعدها القلقشنـــدى فى عصره أنها " أم بلاد ما وراء نهـــر جاهان " [٤]، ومن ثم حظيت الســـيطرة المماليكية على هـــذا الميناء بفرح غامر فى الأوســـاط المماليكـــية بمصـــر والشام وكذلك من المسلمين فى الشرق والغرب ، وزف السلطان الناصر محمد هـــذه البشرى إلى أبى الحسن على المرينى صـــاحب فاس والمغرب[٥] .

وبطبـــيعة الحـــال فقد كان لهذا صـــداه عند الأرمن إذ إنه لطمة وضـــربة قوية لاقتصادهم، وبالتالى بدأوا يفكرون فى استرداد آياس من المماليك ، ولم يكن قد مضى

---

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ص ٨-١١. وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص١٧٨-١٧٩. ومحمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون،ص٢٣١.

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٢، ص٢٨٤. وأبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى،ج٢، تحقيق : محمد محمد أمين ومراجعة : سعيد عاشور : القاهرة،١٩٨٤،ص٣٤١.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص٢٧٨-٢٧٩. وأبو الفدا: المصدر السابق ، ج٤، ص١١٩. وانظر: القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤، ص١٣٣، ١٧٩. وزترستين : المصدر السابق، ص١٥٠، ص١٩٣-١٩٤. والعينى: السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق : فهيم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص ٢١٢. وابن كثير : المصدر السابق ، ج١٤، ص١٧٨.

(٤) صبح الأعشى ، ج٨، ص٣٠.

(٥) القلقشندى: المصدر السابق، ج٧، ص٣٩٥، ص٤٠٤-٤٠٦، وعن نص الرسالة التى أرسلت من القوات المماليكية إلى السلطان الناصر محمد عند فتح آياس انظر : القلقشندى : المصدر السابق، ج٨، ص ٤٠٠-٤٠٣.

على سيطرتهم عليها عشرة أعوام حيث أرسل ملك الأرمن قسطنطين الثانى (١٣٤٤-١٣٦٣م) فى المحــرم من سنة ٧٤٨هــ/ ١٣٤٧م قوة من حوالى مائتى أرمينى للسيطرة علــيها، لكن الأمير المملوكى حسام الدين محمود بن داود الشيبانى نائب آياس تصدى لهــم بكل قوة،وقتل حوالى خمسين وأسر ما لايقل عن ثلاثين منهم عند " كوار " وفر الباقون، وحمل الأسرى إلى حلب، ويبدو أن أهالى " كوار " هذه قد تعاونوا مع قوات نائب آياس المملوكى، وإلا فبماذا نفسر إغداق المماليك الأموال عليهم؟(١).

وإذا كانــت قــوات ملك الأرمن قد فشلت فى استرداد آياس من المماليك، فإن الصــليبيين قد شعروا بما حاق بهم من جراء فقدهم هذا الميناء وغيره من المدن والموانى الشامية، مما دفعهم إلى التفكير فى غزو آياس .ولكن كيف ومتى حدث هذا؟ هنا يشير بعــض المؤرخــين إلى محاولــة جاءت فى سنة ٧٦٩هــ / ١٣٦٧م من صليبى قبرس واسبتارية رودس للاستيلاء على الإسكندرية(٢). ومن الثابت تاريخيا أن هــذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، فما كان من هؤلاء إلا أنهم وجهوا أنظارهم إلى المدن والموانئ الساحلية الشامية، ما بين شهرى يونيه وسبتمبر من نفس العام بقيادة بطرس لوزجنان، فهــاجموا طــرابلس، وهناك تكرر فشلهم أيضا كما فشلوا فى الإسكندرية من قبل ، فاعــتقدوا أنه من الأجدى لهم السيطرة على ميناء آياس ، فأبحروا من طرابلس ومعهم ما يزيد عن مائة قطعة بحرية حربية مجهزة قتاليا وعليها الخيول وبصحبتهم ملكا قبرس ورودس ومقدم الاسبتارية(٣) . ووصلت هذه القوات إلى ميناء آياس . والسؤال الذى يفــرض نفســه الآن هــل كانت هناك ثمة نداءات أرمينية ضد التواجد المماليكى فى آيــاس(٤)، أم أن هذه القوات وصلت إلى آياس كامتداد طبيعى لنشاطهما العسكرى على ساحلى مصر والشام ؟

---

(١) أبــو الفــدا: المصــدر السابق ، ج٤، ص١٤٧. وابن الوردى : المصدر السابق ، ج٢، ص٣٤٥. والمقريزى : السلوك ،ج٢، ق٣، ص ٧٢٦.

(٢) انظــر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية، الإسكندرية ، ١٩٦٩، ص٣١٠-٣٤٤.

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك ، جــ٣ ، مخطوط ورقة ٤٤٣ . وانظر : المقريزى : السلوك، جــ٣ ،ق، ص ١٤٩-١٥٠ . وابن إياس : المصدر السابق ، ج١، ق ، ص٦٥ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص١٤١.

لعل استعراض ما ورد فى بعض المصادر المعاصرة يجلى لنا حقيقة هذه الحملة ، حيث يشير النويرى إلى أنه عندما علم الأرمن بوصول الحملة إلى آياس طلبوا المساعدة من المماليك ضد الصليبيين ، وتم الاتفاق بين الأرمن والمماليك بآياس على أن يخرج الأرمن لمقابلة القبارسة لأنهم نصارى مثلهم ، وعندئذٍ يصنعون الحيل والمكائد ضدهم لحين وصول الإمدادات إلى المماليك . وتنفيذا لهذه الاتفاقية خرج نائب الأرمن فى آياس وطلب من القبارسة حقن الدماء " لنستريح من غضب السيد المسيح "، وعندئذٍ نزل ملك قبرس إلى آياس واتخذ من الأرمن أدلاء له . ويبدو أن ملك قبرس خشى أنْ تكون ثمة مؤامرة مدبرة ضده للنيل منه ومن جيشه ، فطلب حضور قائد المماليك إليه، وحتى لا يخامر ملك قبرس الشك حضر إليه قائد المماليك فى ثياب رثة ، ولم يفت الأخير تذكرة ملك قبرس بالعلاقات السابقة بين سلطنة المماليك وقبرس والهدايا المتبادلة بينهما ، وذكر له أنه أولى وأحق بآياس من الأرمن والمماليك . وأردف قائلا : " وإذا طلبت البلد لا نمنعك عنها "، وعندئذٍ سعد ملك قبرس بكلام قائد المماليك وتطلع للسيطرة على آياس وحتى يطمعوه أكثر فيها وتنجح خطتهم ، قدم الأرمن والمماليك الأبقار هدية له ، وتركوا خيوله ترعى فى الحشائش الخضراء ، وتلقى وعودا منهم بتسليم آياس إليه ، وقد ترتب على هذا اطمئنان ملك قبرس. وما إن جن الليل حتى هجم المماليك ومن معهم من العربان والتركمان عليه، ولم يكن آنذاك أمام الجيش القبرسى بما فيه الملك إلا الفرار إلى مراكبهم الرابضة على ميناء آياس(١).

هذه رواية من روايات النويرى ، وهناك رواية ثانية ذكرها هو أيضا ، مفادها أنه عند وصول الجيش القبرسى إلى آياس قام قائد الجيش المملوكى بتحصين قلعة آياس ، وطلب من جنوده إخلاء الشاطئ ، على أن يسمح للمراكب القبرسية بالرسو والنزول ، وبعد ذلك قام المماليك بحرقها . ويستطرد النويرى بالقول أن هذه الخطة نفذت بالكامل ، حيث تم حرق نحو خمسين مركبا ، وقتل من الصليبيين ما يقرب من خمسة آلاف قبرسى ، وغرق منهم فى البحر عدد كبير ، كما جرح مثلهم ، ومنهم

---

(١) النويرى : المصدر السابق ، ورقة ٢٧١أ ، ٢٧١ب . وانظر : محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢٥٥-٢٥٧ .

من سلم نفسه ، ويقال إن ملك قبرس لجأ إلى سرداب فى أحد الأديرة بآياس ، وعندئذ أبلغ مقدم الدير القائد المملوكى بذلك وطلب منه الحضور بقواته لمساعدته فى القبض علـى ملـك قبرس ؛ لأن الأرض المقام عليها الدير كانت منحة من المماليك . وهنا يضيف النويرى أن الأقوال ترددت فى وضـع الملك القبرسى : هل قتل ؟ أم أسـر ؟ أم هرب ؟ أم جرح ؟ وقيل قد قص لحيته حتى لا يتعرف عليه أحد[1] .

هذه هى الرواية الثانية التى أوردها النويرى ، وهناك رواية ثالثة يذكرها لنا أيضا، تـردد فـيها أن المسلمين عندما رأوا الجيش القبرسى أشعلوا النيران على قمم الجبال فاجـتمع المماليك وقاتلوا القبارسة على الساحل ؛ حيث قتلوا منهم نحو خمسمائة وفر الباقون إلى مراكبهم فى البحر ، وأشعل المماليك النار فى قتلى الصليبيين أمام رفاقهم ؛ فى الوقـت الذى قتل فيه من المماليك قرابة ثلاثة وسبعين وجرح نحو مائة ، ثم هرب ملك قبرس فى البحر[2] .

ويضـيف ابـن حبيب أن القبارسة دخلوا آياس فلم يجدوا فيها إلا الأرمن بها لأن المماليك تركوها ، فاستولى القبارسة على الأموال والأمتعة[3] ، وتذكر بعض المصادر أنهم ملكوا قلعة آياس[4] .

وباسـتعراض الروايات الآنفة الذكر يمكن القول أن القوة القبرسية التى نزلت على آيـاس كانت أكثر وأقوى عددا وعدة من القوات المماليكية المرابضة بها ، ومن ثم فإن اجتـياحها أصبح سهل المنال وليس غريبا ؛ نظرا لأنها الميناء الحدودى الشمالى الذى يـبعد عن قلب عاصمة السلطنة المماليكية آلاف الأميال ، فى الوقت التى لم تستعص عليهم الإسكندرية التى لا تبعد عن قلب السلطنة (القاهرة) ثمانين ميلا ؛ بالإضافة إلى هـذا ، إذا عقدنا مقارنة عندئذٍ بين القوتين المماليكيتين فى كل من الإسكندرية وآياس لأمكن إدراك الأسباب التى ساعدت القوات القبرسية على اجتياح آياس .

---

(١) النويرى : المصدر السابق ، ورقة ٢٧٢ أ .

(٢) نفسه ورقة ٢٧٢ ب .

(٣) ابـن حبيب : درة الأسـلاك ، ج ٣ ، ورقة ٤٤٣ والمقـريزى : المصدر السـابق ، ج ٣، ق ١، ص ١٥٠ .

(٤) ابن آياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥ .

على أية حال ، أصبحت المهمة الملقاة على عاتق المماليك هى طرد القبارسة ومن معهم من آياس ، وهى المهمة التى تولى تنفيذها نائب أقرب نيابة إلى آياس ألا وهو نائب حلب الأمير منكلى بغا الشمسى الذى تحرك بجيشه مع جيش القلاع المجاورة لآياس لمقاتلة القبارسة الذين سرعان ما أخلوا قلعة آياس وفروا إلى البحر ، وتعقبهم المماليك بعدما استولوا على خيولهم ، وأسروا بعض جنودهم ، ثم تمركز الجيش فى آياس خشية عودة الجيش القبرسى مرة أخرى[1] .

على أية حال فإن لسان حال الأحداث السابقة الذكر يقول لنا : إنه على ما يبدو كان يوجد بآياس آنذاك أرمن ومماليك، مما يجعلنا نقرر أنها غدت مناصفة بين الجانبين، وأن الجزء الذى يخضع للسيطرة المماليكية يمثل نقمة عليهم أكثر مما هو نعمة لهم ؛ وذلك لأن الأطماع الصليبية القبرسية فى آياس ، والاستغاثة الأرمينية بهم ، ساعدت على زيادة القلاقل فى هذه المنطقة ، الأمر الذى ترتب عليه أن قرر المماليك السيطرة الكاملة ليس على آياس فحسب بل على بلاد الأرمن جميعها ؛ وهو ما حدث فى شهر شعبان ٧٧٦هـ/ يناير ١٣٧٥م ، وخضعت تماما للسلطنة المماليكية ، وعينت الأخيرة نائبا على أرمينية الصغرى يحمل لقب نائب سيس[2] .

غير أنه إذا كانت السلطنة المماليكية قد ارتاحت من الأطماع القبرسية الصليبية فى آياس، فإنه سرعان ما ظهرت أطماع ليست خارجية ، ولكن من داخل المناطق المتاخمة

---

(١) ابن حبيب : درة الأسلاك ، جـ ٣ ، ورقة ٤٤٣ . وانظر : المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٥٠ . وابن إياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق٢ ص ٦٥ . وسعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٨ ، ١٥٧ . هايد (ف): المرجع السابق ، ج٢،ص ٣٢٨ .

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك ، جـ٣ ، ورقة ٤٧٥ . وانظر : شمس الدين الحلبى : تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ، تحقيق : عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٣٢. وابن إياس : المصدر السابق، جـ١ ، ق٢ ، ص ١٣٩-١٤٠ ؛ على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٧١-١٧٢ وهايد : (ف) : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ وإيرامارفين لابيدوس : مدن الشام فى العصر المملوكى، ترجمة : سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ، ١٩٨٥م ، ص ٥٥. وسعيد عاشور: الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ١١٦٠ - ١١٦١ .

لأرمينــية الصــغرى، ومــن هذه القوى التركمان . ففى ذى الحجة سنة ٧٨٠هـــ/ ١٣٧٩م طغـــى التركمان الأجقية والأغاجرية فى مدينة سيس ، الأمر الذى دفع الأمير تمرباش الدمرادشى نائب حلب إلى التحرك بقواته ومعه بعض قوات من دمشق وحماه لمواجهـــة هذه الجماعات التركمانية ، وعندما كان قاب قوسين أو أدنى من آياس جاء إلـــيه بعض أمراء التركمان وأهدوه هدية قيمة ، وطلبوا منه الأمان للتركمان على أن يدفعوا له ما هو مقرر عليهم كالعادة، غير أن نائب حلب سرعان ما قبض على هؤلاء الأمراء التركمان الذين قدموا لـــه الهدية، وبذلك يكون قد أخلف وأخل بالعهد معهم ممـــا أثار حفيظة بقية التركمان ضده . وانتهزوا فرصة دخوله بمن معه إلى آياس ليعيث فـــيها فسادا وهجموا عليه وعلى جيشه عند خروجه منها فى مكان ضيق يقال إن اسمه " باب الملك " وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستولوا على كثير من أمتعة وخيول وجمال وأسلحة وخيام وقماش الجيش المملوكى[١] .

ولعل الإشارة السابقة إلى دخول نائب حلب بقواته إلى آياس ، هو خير دليل على أنه حتى هذه اللحظة كانت هناك قوات صليبية فضلا عن التواجد الأرمينى بها . وهنا يمكننا التأكيد على ما سبق طرحه من أنه بالرغم من السيطرة المماليكية على سيس فإن تلـــك السيطرة على آياس كانت حتى ذلك الوقت سيطرة جزئية ، وإلا فما الذى دفع نائب حلب إلى دخولها بقواته ؟[٢] .

لقد سبق القول أن آخر الهجمات الصليبية على آياس كانت حملة بطرس لوزجنان القبرســـى، وعلى الرغم من عدم تمكنه منها إلا أن فكرة السيطرة على آياس راودت الصـــليبيين مرة ثانية ، كما راودت التركمان وغيرهم، وقد ظهرت السفن الصليبية فى عـــرض البحر المتوسط خلال شهر شعبان ٧٨٥هـــ / ١٣٨٣م فى طريقها إلى آياس ، وعندئذ تحرك يلبغا الناصرى نائب حلب بقواته لمواجهتها ، ونزل فى منطقة " العمق " قرب البحر لكن السفن الصليبية رست ونزلت فى بيروت ، فصدتها القوات الشامية ،

---

(١) المقريزى : المصدر الســـابق ، جـــ٣ ، ق٢ ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ . وانظر ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٢) حول هذا الرأى انظر محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٥٧.

وقتلت من الصليبيين ما لا يقل عن خمسمائة وفر الباقون إلى السفن فى البحر[١] مما أجهض تلك المحاولة الصليبية التى كانت تستهدف آياس .

وما إن تخلصت القوات المماليكية من الهجوم الصليبى على آياس حتى جدد التركمان هجماتهم عليها مرة ثانية فى أواخر عام ٧٨٥هـ/١٣٨٤م ، ودخل يلبغا الناصرى نائب حلب فى حرب معهم عند "باب الملك" أيضا ، واضطر الأخير إلى دخول آياس ، الأمر الذى ساعد التركمان على الإحاطة به إحاطة السوار بالمعصم ، وسدوا عليه منافذ المئونة بتحكمهم فى "باب الملك" ، ووقعت القوات المماليكية فى ضائقة اقتصادية شديدة[٢] أنقذهم منها الأمير سودون المظفرى حاجب حجاب حلب فضلا عن أمراء وشباب من حلب ، إذ تمكنوا من كسر الحصار التركمانى على الجيش المماليكى عند " باب الملك " فخرج من آياس وعاد إلى حلب بعد إلحاق عدة إصابات به[٣] .

ومن الواضح إذن من خلال العرض السابق أن آياس كانت دائما وأبدا مطمعا للقوى المعاصرة ، الأمر الذى أدى إلى صراع شبه دولى حولها ، من الأرمن والصليبيين والمماليك والتركمان ، ولعل هذا الصراع هو الذى كثف الهجمات المماليكية عليها ، رغبة فى السيطرة عليها سيطرة كاملة ، وصمدت القوات المماليكية أمام كل القوى الآنفة الذكر إلى أن انتهى المطاف باستقرار الأوضاع بآياس فى النهاية لصالح المماليك.

وقد أخذت آياس تلعب دورا مهما فيما يحدث على الحدود الشمالية لسلطنة المماليك من مؤامرات وثورات كان من شأنها أن تقلق عاصمة السلطنة بالقاهرة ، ونذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر ، حتى تتأكد صحة هذه الفكرة من

---

(١) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق : حسن حبشى،ج١، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٧٦ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣، ق٢، ص ٤٩٩.

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق ٢، ص ٥٠٥-٥٠٨ . وابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢، ص٣٣٩-٣٤٠.

عدمهـــا، فعـــندما حدثـــت ثورة الشام ضد السلطنة المماليكية فى أوائل القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى ، تزعمها الأمير جكم أمير طرابلس والأمير علان نائب حمـــاه ، حـــاول نائب حلب الصمود فى وجه الثائرين دون جدوى ، فاجتاح الثائران حلب ، ولم يكن أمام نائب حلب غير الفرار هو ومن معه من الأمراء إلى آياس فى ١٣ شـــعبان ٨٠٧هـــــ/١٤٠٥م، واستقبله نائبهما استقبالا حافلا ، وأمده بالمراكب التى أقلته إلى سواحل مصر خوفا من وقوعه فى يد الثائرين(١) .

كمـــا أن هـــناك إشارات فى بعض المصادر تشير إلى أن الذى أوعز إلى السلطان برســـباى المملوكى (٨٢٥-٨٤١هـــ/١٤٢٢-١٤٣٨م) بغزو قبرس رجل من رجال البحر يسمى الريس فاضل : " من أهل مدينة آياس قدم إلى السلطان فى الســـنة الخالية (٨٢٧هـــ/١٤٢٤م) وحسن له غزو الفرنج ، ووعده بغنيمة أموال عظيمة، حتى كان من غزوة اللمسون [ميناء ليماسول فى قبرس] فأخذ فى التعبئة لغزوهم "(٢) .

لكـــن الوضـــع لم يستمر على هذا الحال ، إذ مع أواخر القرن التاسع الهجرى / الخـــامس عشـــر الميلادى ، بدأت تضعف دولة المماليك ، وتظهر قوى جديدة على الساحة السياسية ، وبدأت هذه القوى تتطلع إلى آياس ، حتى استولى عليها شاه سوار فى المحرم سنة ٨٧٥هـــ/يوليو١٤٧٠م(٣) . ويبدو أنه لم يمكث فيها طويلا ، وليس أدل عـــلى ذلك من أنه أثناء عودة الأمير خليل من رحلته من تبريز إلى الشام ومصر عرج على آياس فى ٢٢ربيع الآخر سنة ٨٧٦هـــ/أكتوبر ١٤٧١م ، ووزع فيها على الجند عليق شهر جمادى الأولى لنفس العام(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـــ٣، ق٣ ، تحقيق: سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧١، ص١١٤٦ . وانظر: ابن إياس : بدائع الزهور ، جـــ١، ق ٢، ص ٧٠٦.

(٢) المقريـــزى : السلوك ، جـــ٤، ق ٢ ، تحقيق : سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ٦٨٩ . وعن حمـــلات الســـلطان برسباى على قبرس : انظر : سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية. وسعيد عاشور: العصر المملوكى ، ص١٦٩ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، جـــ٣، ص ٥١.

(٤) شمس الدين الحلبى : المصدر السابق ، ص ١٢٤.

لكن الذى لا شك فيه أن القوات المماليكية فى تلك الآونة لم تعد قادرة على السيطرة تماما على هذا المرفأ الحيوى المهم ، الأمر الذى يفسر لنا السيطرة العثمانية عليها فى جمادى الآخرة لسنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م دون قتال ولا ممانعة من المماليك ، وكل الذى حدث فى السلطنة المماليكية أن السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) قد " انزعج "[١] لهذا الأمر، كما شوهدت فى جمادى الآخرة سنة ٩١٦هـ/ أكتوبر ١٥١٠م سفن بها طوائف صليبية بالقرب من آياس تقطع الطريق فى البحر على السفن المماليكية المشحونة بالسلاح وآلات الحرب وتستولى عليها[٢] ، وعندئذٍ أمر السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) بالقبض على رهبان كنيسة القيامة بالقدس ، وطلب منهم مكاتبة ملوكهم لرد الغنائم، وهدد بهدم الكنيسة وشنق رهبانها ، وأصدر أوامره بإغلاقها ومنع زيارتها، وعلاوة على هذا فقد أمر بالقبض على التجار الأوروبيين بالإسكندرية ودمياط وغيرها من مدن الساحل وسجنهم ومصادرة أموالهم المودعة بكنيسة القيامة[٣] .

وبعد هذا العرض التاريخى عن ميناء آياس والصراع الدولى حوله ، نجد أمامنا عدة تساؤلات تطرح نفسها على بساط البحث ، منها : هل خضع ميناء آياس - بعد السيطرة المماليكية عليه للنظام الإدارى الذى وضعه سلاطين المماليك للسلطنة؟ لعل تتبع الإشارات التى وردت فى المصادر المعاصرة وتحليلها ، يساعدنا على إيجاد إجابة عن هذا الاستفسار .

تذكر بعض المصادر أنه إبان سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، جردت حملة عسكرية ضد آياس للسيطرة عليها فى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م ، وهدمت برجها البحرى ، ويذكر ابن حبيب : " وأقاموا بها نوابا للسلطان "[٤] ، وكان على ما يبدو أول أمير لها هو مغلطاى الذى كان من مقدمى الألوف بحلب وشارك فى فتوحات

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥١.

(٢) نفسه ، جـ٤ ، ص ١٩١-١٩٢.

(٣) محمود رزق سليم : قانصوه الغورى ، ص ١٢٠-١٢١.

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢، ص ٢٧٩.

آيــاس[١] ، وتــوفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠-١٣٤١م[٢] ، وعين مكانه الأمير بيبرس السـلحدار الناصرى الذى توفى بها سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م[٣] ، كما وليها أيضـا الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير علاء الدين مغلطاى الشمسى الذى توفى فى ربيع الآخر سنة ٧٦٤هـ-١٣٦٣م[٤] ، كذلك ورد اسم الأمير خليل بن بلال الذى وليها فى العاشر من محرم ٨١٦هـ /أبريل ١٤١٣ ، ثم عين مكانه فى الاثنين ٢٣ربيع أول ٨٢٠هـ /١٤١٧م الأمير سيف الدين صاروجا مهمندار حلب، ثم فى سنة ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م ونقرأ عن وجود الأمير درمش نائبا لها[٥]، وفى ٢٨محرم ٨٧٧هـ/يوليو ١٤٧٢م الأمير يلبغا[٦] .

وباستعراض هؤلاء النواب الذين تناوبوا على نيابة آياس يمكن القول أنه على الرغم مـن أن سلاطين المماليك كانوا يعينون بأنفسهم نائب آياس ، إلا أن الأخير كان يتبع نائـب حلـب، ويشير إلى هذا ابن شاهين الظاهرى فى أواخر القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى إذ يقول: " وهى من معاملة حلب "[٧] ، ويضيف القلقشندى أنـه يكتب لنائب آياس عن النائب الكافل والأتابك[٨] ، ويكتب له فى قطع النصف بقلم خفيف الثلث وبصيغة " المجلس العالى السامى بالياء أو بغير الياء "[٩] .

هـذا فيما يتصل ببعض النواب الذين عينوا فى نيابة آياس . أما عن الأجناس التى كانـت تعيش فيها ، فهناك أقوال لبعض المعاصـرين مفادها أنها مدينة لسائر التجار

---

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج٢، ق١، ص ١٢٣.

(٢) أبو الفدا:المصدر السابق، ج ٤، ص١٣٥ . والمقريزى : السلوك ، ج٢،ق٣،ص ٥٥٣.

(٣) الشجاعى : المصدر السابق ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٢١ . والمقريزى : السلوك ، ج٢،ق٣، ص ٦١٦.

(٤) وابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٣، ص ٢٦٠.

(٥) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤، ق١، ص ٤٠١ ،٤٠٢، ٤٠٨، ٥١٧.

(٦) شمس الدين الحلبى : المصدر السابق ، ص ١٥١.

(٧) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق: خليل المنصور، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٧م، ص ٤٥.

(٨) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ، ص ٢٢١.

(٩) نفسه ، ج ١١، ص ١٠٨.

المســـلمين والصليبيين ، وهى " بلد فسق ظاهر ، تمتك فيها الأعراض ، وتشرب فيها الخمـــور ، وبها أربعمائة بيت خمارة ، وستمائة خاطية من سائر الجنوس ، وما دخلها أحد إلا خرج منها مسلوب المال والدين "[١] .

ومـــن ثم كـــان الأرمـــن من بين الأجناس التى فرضتها طبيعة المكان على آياس ، وتوافـــد علـــيها شوام من عكا وصور و إنطاكية ، حيث حملوا معهم القطن إليها ، وكذلـــك وجد المغول ، وتجار من بغداد ، وكان أحدهم يدعى يوسف ، وقد امتلك بهـــا متجرا مستديما[٢] ، علاوة على هذا فإنه وجد فيها كثيرًا من البنادقة ، وخصصت لهـــم فـــيها كنيسة بها قسيس ، وملحق به مقبرة . ويبدو أن عددهم كان يفوق عدد غيرهـــم مـــن الأجناس ، ربما لأن سفنهم كانت تأتى بصفة دورية سنوية إلى آياس ، الأمـــر الذى أدى إلى ارتباط عقد الصفقات التجارية بوصول البنادقة . ونظرا لكثرة عددهم فقد حدثت منهم اعتداءات وسلب ونهب على التجار فى آياس ، وعلاوة على الـــتواجد البندقى ، وجد الجنويون الذين كان لهم قنصل دائم فى آياس يساعده مجلس من أهل الخبرة ، ومعه موظف ينفذ الأحكام، ويقوم بشئون البيع والشراء ، خصوصا فـــيما كان يتصل بالنزاع الذى ينشب بين الجنوبيين والبنادقة ، ويضاف إلى الجنوبيين والبنادقة البيزيين ، الذين كان لهم قنصلية بها . زد على كل هذه الأجناس ، الفرنسيين والقطلان الذين كان لهم حى وسوق خاص بهم[٣] ، كما وجدت أيضا بآياس مخيمات للتركمان [٤] .

---

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢، ق ١، ص ١١.

(٢) هايد (ف) : المرجع السابق ،جـــ٢، ص ٣١٦.

(٣) هايد (ف) : المرجع السابق ، جـــ٢، ص ٣١٦- ٣٢٤.

(4) Vryonis (Spero) : The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization from the eleventh through the fifteenth century , Landon , 1971 , p. 275.

أمـــا عن ديانة هذه الجنسيات التى تعيش فى آياس ، فكانت بطبيعة الحال المسيحية والإسلامية ، وإن قل عدد المسيحيين بها منذ بداية التطلعات المملوكية إليها إلى أن تمت السيطرة عليها تماما[١] .

وخلاصة القول : أن ميناء آياس كان يشكل خطورة على دولة سلاطين المماليك مـــنذ نشـــأتها فى منتصف القرن السابع الهجرى /الثالث عشر الميلادى ، الأمر الذى دفعهـــم إلى السيطرة عليها فى محاولة منهم لقطع الطريق على أية تطلعات عسكرية من المغول أو الصليبيين ، سواء من غرب أوربا ومن جزر البحر المتوسط أو من الأرمن ؛ وهـــذه القضية شغلت بال المماليك أكثر من قرن من الزمان . ويمكن القول أنه رغم الـــتطلعات والهجمات من القوى الدولية المعاصرة آنذاك على آياس فإن الدور القيادى فى هـــذا المضـــمار كان للمماليك ، ليس بهجماتهم المتوالية فحسب بل بتمكنهم من فرض نائب مملوكى عليها .

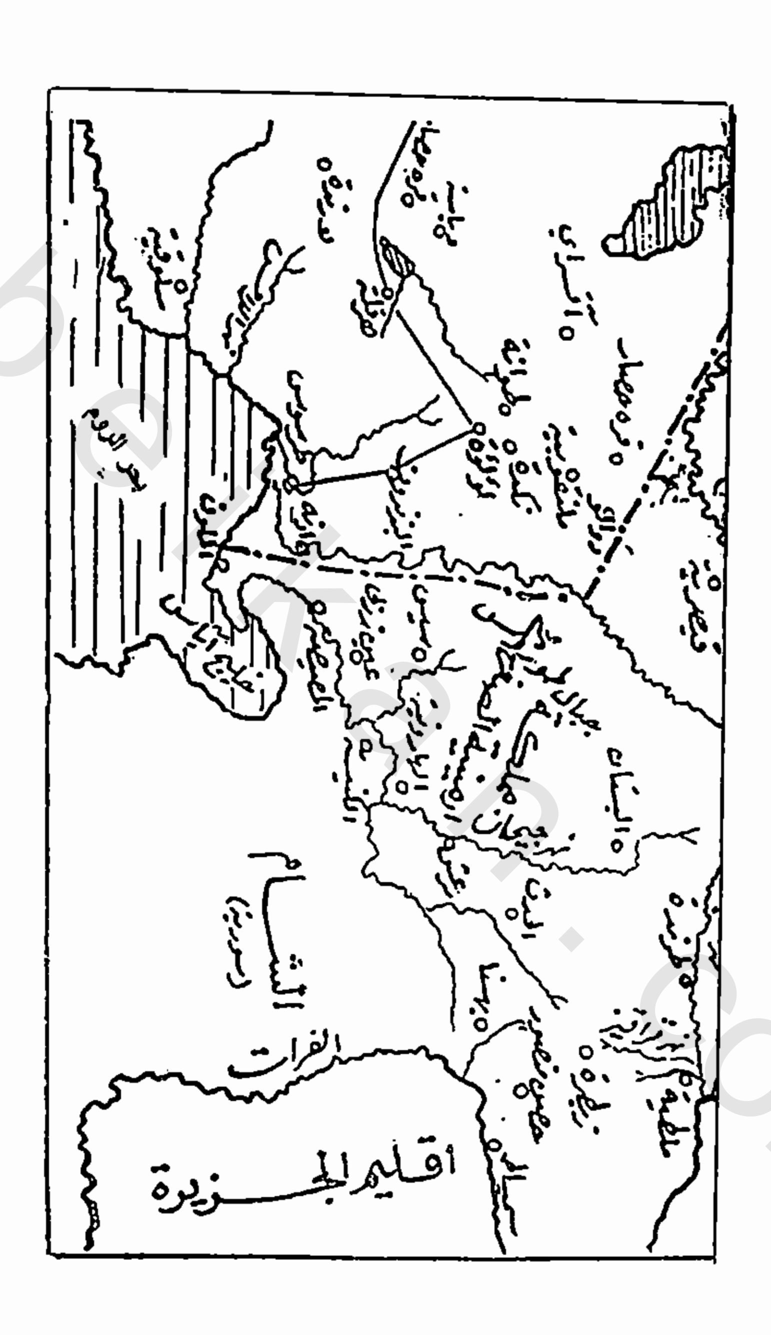
وممـــا يجب التركيز عليه هنا أيضا أنه رغم هذا الصراع على آياس فإن التجارة بين الصـــليبيين والأرمن كانت قائمة على قدم وساق وبخاصة بين قبرس وآياس[٢] . ولعل لهذا دلالة يعضدها ما سبق ذكره من أن هذا الميناء كان بمثابة الشريان التجارى لكثير من شعوب المنطقة وغيرها من مناطق الشرق والغرب على حد سواء .

وجملـــة القول : أن آياس هذا الميناء الذى كان يحمل اسم خليج يقع أقصى شمال الحدود المماليكية الساحلية الشامية، هو الآن قرية زراعية تبعد عن أنقرة حوالى ثلاثين مـــيلا إلى الغـــرب[٣] ، يخيم عليها البؤس وتملأها الأطلال الكثيرة[٤] ، وهناك كثير من القصص والروايات التى تحكى أن أشجار الزيتون التى مازالت موجودة إلى الآن ، كان قد زرعها الجنويون ، وغير ذلك من القصص التى لاتتصل كثيرا بالواقع فى شىء لا من قريب أو من بعيد[٥] .

* * *

---

(1) Setton (K. M) . Op. Cit., V.4, p.179 .
(2) Riley- Smith (J) : Op. Cit. , p. 316.
(3) The New Encyclopaedia Britannica , V. 1 , Chicago , 1973- 1974, p.691.
(4) The Encylopaedia of Islam , V. 1 , Leyden , 1913, p. 529.
(٥) هايد (ف) : المرجع السابق ، جـــ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩.



انظر : كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٠ ، خارطة ٤

المصـــادر والمراجـــع

أولا: المصادر العربية :

١- **أحمد بن على الحريرى** : (عاش فى القرن ١٠هـــ / ١٦م)
- الإعـــلام والتبـــيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، تحقيق : سهيل زكار، دمشق، ١٩٨١م.

٢- **الإدريسى** : (أبو عبد الله محمد، ت ٥٦٠هـــ / ١١٦٤م)
- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن ، ١٨٦٦م .

٣- **الاصطخرى**: (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفاسى المعروف بالكرخى، ت ٣٠٩هـــ/ ٩٥١م)
- المســالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحينى ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة، ١٩٦١م.

٤- **ابن إياس** : (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى، ت ٩٣٠هـــ / ١٥٢٤م)
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، القاهرة،٨٢-١٩٨٤م.

٥- **ابن أيبك الدواداري** : (أبو بكر عبد الله، ت ٧٣٣هـــ / ١٣٢١م)
-الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ج٩، تحقيق : هانس روبرت رويمر، المعهد الفرنسى ، القاهرة ، ١٩٦٠.

٦- **بيبرس المنصورى** : (ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الدواداري، ت ٧٢٥هـــ/ ١٣٢٥م)
- الــتحفة الملوكية فى الدولة التركية (٦٤٨-٧١١هـــ) ، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة، ١٩٨٧م.
- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، ج٩، تحقيق : زبيدة عطا ، جدة (د.ت).

٧- **ابن حبيب** : (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب ، ت ٧٧٩هـــ/ ١٣٧٧م)
- تذكـــرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج٢، ج٣، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عاشور، القاهرة ، ٨٢-١٩٨٦م.

٨- **ابن حوقل** : (أبو القاسم بن حوقل النصيبى، ق ٤ هـــ/١٠م) .
- كتاب صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٦٧م .

٩- **ابن خرداذبة** : (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) .
- المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩م .
١٠- **ابن دقماق** : (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
- الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، جـ١، تحقيق : محمد كمال عزالدين، القاهرة ١٩٨٥م.
١١- **زترستين** : **Zetersteen**
- تاريخ المماليك مخطوط مجهول المؤلف تحقيق : زترستين ، ليدن ١٩١٩م.
١٢- **شافع بن على**: (ناصر الدين شافع بن على عباس بن عساكر الكتانى المصرى، ت ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م) .
- حسن المناقب السرية ، المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٨٩م .
١٣- **ابن شاكر الكتبى** : (محمد بن شاكر، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .
- عيون التواريخ ، جـ٢١، تحقيق : فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، بغداد ، ١٩٨٤م .
١٤- **ابن شاهين الظاهرى** : (غرس الدين خليل، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) .
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق : خليل المنصور ، بيروت، ١٩٩٧م .
١٥- **الشجاعى**: (شمس الدين، منتصف القرن ٨هـ / الرابع عشر الميلادى) .
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، جـ ٢، ق ١، تحقيق : بربارة شيفر ، فسبادن ، ١٩٧٨م .
١٦- **ابن شداد** : (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م).
- الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ ١، ق ٢ ، تحقيق : يحيى زكريا عبارة ، دمشق ، ١٩٩١م .
- تاريخ الملك الظاهر ، بيروت ، ١٩٨٣م .
١٧- **شمس الدين الحلبى** : (محمد بن محمود بن خليل الحلبى المعروف بابن أجا، ت ٨٨١هـ/١٤٧٧م).
- تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ، تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
١٨- **شيخ الربوة** : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى، ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) .
- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر .
١٩- **الصيرفى** : (الخطيب على بن داود، ت ٨٧٩هـ/١٤٧٥م) .
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق : حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
٢٠- **ابن عبد الحق** : (صفى الدين بن عبد المؤمن، ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) .
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ليدن ، ١٨٥٢.

٢١- **ابن العبرى** : (أبو الفرج جمال الدين) ت ١٢٨٦م /٦٨٥هـ.
- تاريخ الزمان ، ترجمة : إسحق أرملة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
٢٢- **العينى** : (**بدر الدين، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م**) .
- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق : فهيم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
٢٣- **أبو الفدا** : (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).
- تقويم البلدان ، حققه : رينو والبارون ماكل كوكين ديسلان .
- المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ، الطبعة الأولى ، القاهرة،(د .ت) .
٢٤- **ابن الفرات** : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) .
- تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع (٦٧٢-٦٨٢هـ) ، تحقيق : قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م.
٢٥- **القلقشندى** : (الشيخ أبو العباس أحمد، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا .
٢٦- **ابن كثير** : (أبو الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقى، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) .
- البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٨٣م .
٢٧- **ماركو بولو** : (ابن نيقو بولو، ت ١٣٢٤م /٧٢٤هـ).
- رحلات ماركو بولو، ترجمه إلى الإنجليزية : وليم مارسدن، ونقله إلى العربية : عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
٢٨- **أبو المحاسن** : (يوسف بن تغرى بردى الأتابكى جمال الدين، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، جـ١ ، جـ٢، تحقيق محمد أمين، ومراجعة سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، جـ٣ ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٥م .
٢٩- **مفضل بن أبى الفضائل** : (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
- النهج السديد والدر الفريد فى تاريخ ما بعد ابن العميد ، نشره بلوشيةBlochet فى :
Patrologia Orientalis . V. 14 , Paris , 1920 .
٣٠- **المقريزى** : (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ /١٤٤٣م).
- السلوك لمعرة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، ١٩٥٧-١٩٧٢م .
٣١- **النويرى** : (محمد بن قاسم بن محمد بن السكندرى ، ت٧٧٥ هـ/١٣٧٣م) .
- الإلمام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية، مخطوط فى معهد المخطوطات العربية .
٣٢- **ابن الوردى** : (زيد الدين عمر، ت ٧٥٠هـ /١٣٥٠م) .
- تتمة المختصر فى أخبار البشر ، مصر ، ١٨٦٩م .
٣٣- **ياقوت الحموى** : (شهاب الدين أبو عبد الله، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .
- معجم البلدان ، مصر ، ١٩٠٦م .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1- Ciggaar (Krijnie), Davids (Adelbert) and Teule (Herman):
East and West in the crusader states . Context - Contacts-Confromtations , Uilgeveru peeters leuven 1996 .

2- Demombynes (Gaudefroy):
La Syrie , AL'Epoque Des Mamelouks tome . III , Paris , 1923.

3- Leopold (Antony) :
The Crusade proposals of the late thirteenth and early fourteenth centuries, Ashgate 2000.

4- Ramsay (William –Michell):
The Historical Geography of Asia Minor, Amsterdam , 1962.

5- Riley - Smith (Janathan):
The Oxford illustrated History of the crusades , New York , Oxford , 1995 .

6- Sauvaget (J) :
Alep, Paris , 1941.

7-Setton (Kenneth .M) :
A History of the crusades , V. 2 , Philadelphia , 1966, V. 3-5 , University of Wiscansin press , (1975-1985) .

8- The Encyclopaedia of Islam , V.I, leden , 1913.

9-The Encyclopaedia of Britannia , V. I Chicago , 1973- 1974.

10-Toumenoff (C) :
Armenia and Geargia , Chapter, 24, in camb- med . Hist, V. 4, Camb, 1964 .

11-Vryonis (Spero) :
The Decline of Mechieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth century , Landon , 1971.

ثالثا : المراجع العربية والمصرية :

١- أحمد مختار العبادى :

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، الإسكندرية ، ١٩٨٢م .

٢- ايرامارفين لابيدوس :

- مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة : سهيل زكار ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٨٥م .

٣- دائرة المعارف الإسلامية :

- جـ٣، ترجمة : عباس محمود وعبد الحميد يونس وأحمد الشنتناوى وإبراهيم خورشيد ، القاهرة ، ١٩٣٣م .

٤- ستيفن رنسيمان :

-تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣، ترجمة:السيد الباز العربى، بيروت ، ١٩٦٨م .

٥- سعيد عاشور :

- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- الحركة الصليبية ، جزءان ،الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- العصر المماليكى فى مصر والشام،الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧م .
- المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، مقال بالجمعية التاريخية الموسم الثقافى ، ٦٧-١٩٦٨.

٦- السيد الباز العرينى :

- المغول ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧- السيد عبد العزيز سالم :

- تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٦٩م .

٨- صبحى لبيب :

- سياسة مصر التجارية فى عصر سلاطين المماليك ، مقال فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان ٢٨، ٢٩ لسنة ٨١-١٩٨٢م .

٩- عادل إسماعيل هلال :

- العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي ، القاهرة ١٩٩٧م .

١٠- عبد الحفيظ محمد على :

- المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦ هـ /٩-١٢م ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

١١- عبد السلام عبد العزيز فهمى :

- تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، القاهرة ، ١٩٨١م .

١٢- عفاف سيد صبرة :

- العلاقات بين الشـرق والغرب (علاقة البندقية بمصـر والشام) ، (١١٠٠-١٤٠٠م) ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

١٣- علي إبراهيم حسن :

- تاريخ المماليك البحرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

١٤- فتحي عثمان :

- الحدود الإسلامية البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

١٥- كي لستريج :

- بلـدان الخلافة الشـرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بيروت ، الطبعـة الثانية ، ١٩٨٥م .

١٦- ليلى عبد الجواد إسماعيل :

- علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (٦٥٩-٧٨٤هـ/١٢٦١-١٣٨٢م) ، مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، العدد٤٦-٤٧، لسنة ١٩٨٦م ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

١٧- محمد جمال الدين سرور :

- دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة (د.ت).

١٨- محمود رزق سليم :

- قانصوه الغورى (د.ت).

١٩- منى إبراهيم عبد الرحمن :

- السفارات الأجنبية فى مصر على عصـر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، آداب القـاهرة ، ١٩٧٥م .

٢٠- هايد (ف) :

- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد محمد رضا ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٩١م .

٢١- يوشع براور :

- عـالم الصليبيين ، ترجمـة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حيسن ، الطبعة الأولى، القـاهرة ، ١٩٩٩م .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

الأربعاء الأول من كل شهر
من الخامسة مساء
بمقر الجمعية بمدينة نصر.

* * * * * * * *

أولا : شهر ديسمبر ٢٠٠٣ الأربعاء ٢٠٠٣/١٢/٣ يدير الجلسة : أ. د. نجوى كيرة

١ – أ.د. منى بدر : العقوبات من خلال صور المخطوطات الإسلامية .

٢ – أ.د. علـى السـيد عـلى : أهمية وثائق الحرم القدسى فى دراسة التاريخ الاقتصادى للقدس عصر سلاطين المماليك .

٣ – أ.د. حسـن خضير : المراكز التجارية فى الصحراء المغربية وأثرها فى قيام الكيانات السياسية فى القرنين ٤، ٥ الهجريين .

ثانيا : شهر يناير ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/١/٧ يدير الجلسة : أ.د. أيمن فؤاد سيد

١ – أ.د. عفـاف صبرة : الجزيرة الفراتية والقوى المجاورة قبل الإسلام وحتى نهاية العصر الأموى .

٢ – أزد. سعيد مغاورى/المرأة فى العصر الإسلامى فى ضوء البرديات العربية .

ثالثا : شهر فبراير ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٢/٤ يدير الجلسة : أ.د. عبادة كحيلة

١ – أ.د. أيمن فؤاد سيد : موضوع سيعلن عنه فى حينه .

٢ – أ.د. صبرى سليم : حضارة مدينة سمرقند عاصمة السامانيين الأولى ٢٠٤ – ٢٧٩هـ .

رابعا : شهر مارس ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٣/٣ يدير الجلسة : أ.د. محمد النشار

١ – أ.د. محمد مؤنس عوض : نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية .

٢ – د. أحمـد عبد اللطيف : الوليد بن عقبة بن أبى معيط والى الكوفة المفترى عليه .

خامسا : شهر إبريل ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٤/٧ يدير الجلسة : أ.د. عفاف صبرة

١ - أ.د. محمد النشار : قضية الحروب الصليبية فى الأندلس .

٢ - د. يمنى رضوان : البحرية الإسلامية فى الأندلس فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

٣ - د. عبد العزيز رمضان : البيزنطيون بين اليونانية والرومانية .

سادسا : شهر مايو ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٥/٥ يدير الجلسة : أ.د. على السيد على

١ - أ.د. نجوى كيرة : موقف الإسلام من الرق .

٢ - أ.د. عبد الحميد حمودة : موضوع سيعلن عنه فى حينه .

* * *

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلوك ٧ المنطقة التاسعة مدينة نصر – خلف مدارس المنهل

سمنار تاريخ مصر المعاصر

برنامج الموسم الثقافى لعام ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤

تعقد الجلسات فى مقر الجمعية فى تمام الساعة السادسة

اليـــــوم	المتحـــدثون	الموضـــــــــوع	يدير الجلسة
الأربعاء ٢٠٠٣/١٢/١٧	المستشار طارق البشرى د. أحمد زكريا الشلق	البنـــية التحتية للديمقراطية فى التاريخ المصرى الدستوريون والانقلاب على الدستور	د. رءوف عباس
الأربعاء ٢٠٠٤/١/٢١	د. رءوف عباس د. إيمان يحيى	دستور ١٩٢٣ ، نظرة نقدية ثمانون عاما من الحياة الدستورية والنيابية (ملاحظات عامة وأولية)	د. عاصم الدسوقى
الأربعاء ٢٠٠٤/٢/١٨	د. أحمد الشربينى د. إسماعيل زين الدين	المعـارك الانتخابية فى مصـر ١٩٢٤–١٩٥٢ نماذج للمعارضة النيابية فى مصر ١٩٣٦–١٩٥٢	د. على بركات
الأربعاء ٢٠٠٤/٣/١٧	أ. صلاح عيسى د. سعيدة حسنى	دســتور ١٩٥٤ الاختيار الليبرالى الذى رفضته ثورة يوليو عبد العزيز فهمى ودستور ١٩٢٣	د. عادل غنيم
الأربعاء ٢٠٠٤/٤/٢١	د. على شلبى د. عبد الواحد النبوى	ثورة ١٩٣٥ ودستور ١٩٢٣ فلسطين فى البرلمان المصرى	د. عبد المنعم الجمعى
الأربعاء ٢٠٠٤/٥/٢٠	د. سيد دياب أ. نبيل عبد المولى	نواب الغربية فى برلمان الخديو إسماعيل مديرية الفيوم ودورها فى الحياة النيابية	د. أحمد الشربينى

- المشرف على السمنار : د. أحمد زكريا الشلق
- مقـــرر السمـــنار : د. أحمـــد الشـــربينى

رئيس الجمعية

د. رءوف عباس

جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

- دراسة تاريخية تحليلية -

إعداد الدكتور

عايض بن خزّام الروقي

أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى
من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
ـ دراسة تاريخية تحليلية ـ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد كان تاريخ الدولة العثمانية فى مراحله الأولى يمثل ملحمة جهادية صادقة ، خاض فيها سلاطين آل عثمان الجهاد الإسلامى فى أبهى صوره ، حيث خاض سلاطين الدولة العثمانية معارك حاسمة لنصرة دين الله والحفاظ على مقدسات الإسلام و مقدرات المسلمين ، وحافظوا على الثغور الإسلامية التى كانت عرضة للهجمات الأوروبية المستمرة ، وما لبث العثمانيون أن اجتازوا البحر ودخلوا غاليبولى [1] متخذين منها نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية وفتوحاتهم المتتابعة داخل أوروبا ، وبسطوا

---

(١) غاليبولى – كليبولى : مدينة ذات موقع استراتيجى ، لها أهمية كبيرة فى المعارك الحربية ، إذ إنها تقع على ضفة مضيق الدردنيل – فى الجانب الأوروبى – وتبعد عن مدينة أدرنة حوالى مائة وأربعين كيلومتراً ، ولأن مضيق الدردنيل هو الممر الوحيد بين بحر مرمرة وبحار أوروبا فقد اكتسبت مدينة غاليبولى هذه الأهمية الاستراتيجية ، انظر : محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقى ، هامش ١ ، ص ١٢٦- ١٢٧ ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس – بيروت .

ســـلطاهم على البلقان ، ونقلوا عاصمة دولتهم إلى أدرنة[١] ، فعظمت قوتهم وزادت انتصاراتهم وعلت مكانتهم .

وقــد حقــق بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٣م) انتصــاره على الحملة الصليبية التى قادتها فرنسا والمجر فى أواخر القرن الثامن الهجرى أواخــر القرن الرابع عشــر الميلادى ، والتى كانت ســبباً لا يُنسى فى إطفاء حماس الفرنســيين لشــن أيــة حملة صليبية قادمة للشرق الإسلامى ، وفرصة لقيام علاقات ديبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية[٢] ، اتخذت لها مساراً خاصاً فى مجال العلاقات السياسية بين الدولتين .

إن الدولة العثمانية فى مراحلها التاريخية الأولى قد شكلت أنموذجاً إسلامياً فريداً ، حيــث كـــان الجيش العثمانى لا يقاتل إلا وفى مقدمته السلطان ومعه شيخ الإسلام ، وكـــان هـــذا الجيش لا يقاتـــل إلا الكفار، أى أنه اتجه غرباً ، مُهدّداً أوروبا فى عقر دارها ، وفاتحاً للبلدان والأقاليم ، وناشراً للدين الإسلامى فى ربوع أوروبا النصرانية . من هنا برزت شخصية الدولة العثمانية ، وجيشها الإسلامى ومنهجها الجهادى ، حتى إنـــه بات معروفاً لدى دارسى التاريخ فى تلك المرحـــلة أن العثمانيين لا يحاربون إلا لهـــدف ديـــنى صرف ، وهم يسعون لنشر راية الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، وقد وصفهم أحد المؤرخين العرب حينذاك بقوله : " ... وكانوا فى صدر دولتهم من خير مـــن تقلـــد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديـــين ، وأشدّ من ذب عن الدين وأعظم من جاهد فى المشركين ، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم ، وملكـــوا أحسن المعمور من الأرض ودانت لهم الممالك فى الطول والعرض ، هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحى والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك فى الأحكام والوقائع

---

(١) محمد فـــؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د.أحمد عزت عبد الكريم ، ص١٨٠-١٨٢ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

(٢) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، ج١ ، ص٦٠-٦٩، ط١، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانقاد لهم المالك والمملوك "(١).

مـــن هـــنا كان استيلاء العثمانيين على جزء كبير من شرق أوروبا ، واجتيازهم البحر وإقامتهم فى غاليبولى عاملاً على تقوية بنيان الدولة ، وتأكد ذلك باعتناق كثير مـــن الطـــبقة الأرستقراطية فى أوروبا للدين الإسلامى فى مراحل الفتوحات العثمانية الأولى لـــتلك الجهـــات(٢) ، وتحققـــت لهم الريادة حين فتحوا القسطنطينية – معقل الكنيسة الشرقية ومركز الدولة البيزنطية العتيد ، حيث تمكن سابع السلاطين العثمانيين السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى (٨٥٥-٨٨٦هـــ/١٤٥١-١٤٨١م) والمعروف فى الـــتاريخ بالســـلطان محمد الفاتح ، فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـــ / الموافـــق ٢٩ مايو ١٤٥٣م من دخول المدينة بعد حصار طويل وملحمة تاريخية نادرة، وفتح المدينة للمسلمين وسماها إسلام بول – أى أرض الإسلام(٣) ، لتتحقق له المعجزة النـــبوية الـــتى جاءت على لسان المصطفى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" لَـــتُـــفْـــتَحنَّ القسطنطينيةُ ولنعم الأميرُ أميرها ولنعم الجيشُ ذلك الجيش"(٤) .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : تاريـــخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج١ ، ص٣٧-٣٨ ، دار الجيل بيروت ، د.ت.ن.

(٢) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ص١٨٧-١٨٩ .

(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائـــع الزهور فى وقائع الدهـــور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج٢ ، ص٣١٦ الهـــيئـــة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـــ / ١٩٨٤م .

جمال الدين أبو المحاسن يوســـف بن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشـــهور ، ج٢ ، ص٤٥٣ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .

(٤) مسند الإمام أحـــمد بن حنبل ، ج٤ ، ص٢٣٥ .

السيد أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإســـلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ج٢ ، ص ١٢٨ ط ١٣٨٧هـــ/١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبى وشركاه – القاهرة .

يقول السلطان محمد الفاتح : " إننا لا نلقى بأنفسنا إلى المخاطر من أجل مدينة ، وإنمـــا فى سبيل الله عز وجل حتى إذا لقيناه يوم الحساب قدمنا إليه فخورين لا خجلين وبأيديـــنا سيوفنا التى حاربنا بها فى سبيله ، إن هذه السيوف التى نحملها ليست للزينة والتـــباهى وإنمـــا هى لنقاتل بها فى سبيل الله ، إن هذا العناء الذى نلاقيه كله فى سبيل الله"(١) ، لقد حقق السلطان العثمانى محمد الفاتح بفتح إسطنبول أملاً كبيراً طالما راود خـــيال المسلمين منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، فى الوقت الذى أدى هذا الفتح إلى ارتفاع مكانة الدولة العثمانية فى العالم الإسلامى ، وجعل منها القوة الإسلامية الواعدة التى يتطلع إليها المسلمون لرفع راية الجهاد وتحقيق الانتصارات وحماية البلاد الإسلامية ومقدراتـــهـــا .

بهذا الفتح المبين لمدينة القسطنطينية وضع العثمانيون أقدامهم فى مركز استراتيجى مهـــم فى مضيقى البوسفور والدردنيل وفى بحر مرمرة وبحر إيجة وهو ما سيجعل تقدم روســـيا أو إمـــبراطورية النمسا إلى الشرق الإسلامى أمراً مستحيلاً ومن دونه خَرْط القَـــتاد، وهـــو ما تحقق طوال تاريخ الدولة العثمانية فى عصر قوتها ، حيث أصبح لها النفوذ الكامل والسيطرة المطلقة على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب.

ونظـــر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية فى أوروبا بدءاً من فتح إسطنبول وما أعقـــبه مـــن فتوحات عسكرية حاسمة على أنها فتوحات إسلامية وكارثة كبرى على أوروبـــا لا يماثـــلها أية كارثة ، ووقر فى أذهانهم أن أى نصر عسكرى تحققه الدولة العثمانـــية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للنصرانية(٢) ، ليصل الأمر بهؤلاء القوم فى نهاية المطـــاف إلى اعتبار أن جذور المسألة الشرقية هى وجود الأتراك العثمانيين فى أوروبا

---

(١) زيـــاد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص٣٨-٣٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـــ/١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٢) د.عبد العزيز محمد الناوى: الدولة العثمانية ،دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ١٤ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م

واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية ، وسيطرتهم كمسلمين أسياد على شعوب مسيحية ، يقول إدوارد دريو Driault : " إن المسألة الشرقية هى مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية "(١) ، وهذا يعنى أن العامل الدينى كان من أهم عوامل المسألة الشرقية ، وبالتالى أصبحت كراهية العثمانيين وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً من أهم دوافع المسألة الشرقية .

ولقد كان فتح القسطنطينية بداية مباركة وفألَ خيرٍ على المسلمين ، لتقوم الدولة العثمانية المسلمة منذ ذلك التاريخ بجهود جهادية لتأمين طريق الحجاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما فى مياه البحر المتوسط الذى تنتشر على سواحله وفى مياهه القوة النصرانية فى داخل الجزر وعلى السواحل .

من هنا ، كانت علاقات العثمانيين مع القوتين البحريتين : إمارتى جنوة والبندقية ساخنة بصفة تكاد تكون مستمرة ، لكن أمام بروز القوة العثمانية عقدت البندقية صلحاً مع السلطان محمد الفاتح تعهدت فيه بمساعدته بأسطول بحرى مكوّن من مائة سفينة إذا هوجمت دولته من أية دولة أخرى(٢) .

وكان للحرمين الشريفين وأهلهما مكانة خاصة عند سلاطين الدولة العثمانية قبل هذا الفتح المبين، حيث أرسل السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٣م) إلى الحرمين الشريفين ولأول مرة مساعدات مالية من عاصمة الدولة أدرنة مقدارها ثمانون ألف ٨٠٠٠٠ ذهب(٣) ، وقد عُرفت هذه المساعدات

---

(١) زين نور الدين زين: الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، ص٢٢- ٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٤-١٦٩ ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن .

(٣) محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، ص١٩ ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

المالـــية فيما بعد باسم "الصـــرة"[١] ، وفى عهد السلطان محمد جـــلبى (٨١٦-٨٢٤ هـــ/١٤٠٣-١٤٢١م) استمرت هـــذه المساعدات الماليـــة وأوقفت الأوقاف الكثيرة عـــلى الحـــرمين الشـــريفين ، واستمر ســـلاطين الدولة العثمانية منذ ذلك الوقت فى إرســـال الصـــرة الهمايونية سنوياً ، والحفاظ على المساعدات المالية المستمرة ، لأهل الحرمين الشريفين والمقيمين فـــيها[٢] .

وقـــد اســـتمر حرص السلاطين العثمانيين على أداء هذه المهمة وإنجازها على أكمـــل وجه ، بل والحفاظ على سلامة الحج والحجاج فى سفرهم وإقامتهم ، حيث أكـــدت الوثـــائق العثمانية هذا المنهج الثابت فى سياسة الدولة العثمانية ، فقد ورد فى الحكم السلطانى المرسل إلى والى مصر وقاضيها والولاة والأمناء فى الولايات والسناجق العثمانية برقم ٣٤٨ وتاريخ ذى الحجة سنة ١١٠٣هـــ ما نصه :

" إن مـــن لوازم ذمة وهمة سلطان الزمان الحفاظ على ذهاب وعودة من شد العزم ورغب فى زيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج والطواف ببيت الله الحرام وزيارة مســـجد المصـــطفى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وحفظهم بكمال الأمن والســـلامة ومزيد الاطمئنان والرفاهية ، وأن فى وضع المغارم على رؤوسهم وضرب المكـــوس على أموالـــهم صَدًّا والعياذ بالله عن سبيل الله وأمرًا مخالفًا لرضاء الله ومنافيًا لســـيرة أهل الإسلام ، بل وارتكاب أمر شنيع واختيار وزر فظيع ، وعليه فقد أرسلناً أوامـــر بمـــنع الـــتعرض والاعتداء عليهم بما يخالف الشرع مرارا ... لذا صدر الأمر الشريف هذا بالعمل به وبمقتضى الأوامر السابقة فى هذا الشأن "[٣] .

---

(1) Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Bāşkanligi Yayinlari, S.10.

(٢) أحمد بن محمد الحموى : فضائل سلاطين بنى عثمـــان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، ص٢٧ ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـــ/١٩٨٣م – دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

محمد نشرى : كتاب جهان نما " تاريخ نشرى " الناشـــر F.R.UNAT-M.A.
; Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II. , S. 678

عاشـــق باشـــا زادة : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـــ ، مطبعة عامرة ، ص١٩٦ .

عـــبد القـــادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، ص٤١ ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .

(٣) وثـــيقة عثمانيـــة – الأرشـــيف العثماني – إسطنبول – دفتر المهمة رقم ١٠٤ – الحكم الســـلطانى رقـــم ٣٤٨ فى أواخر ذى الحجة سنة ١١٠٣هـــ.

وكـــان السلطان سليم الأول قد رَتّبَ صدقة سنوية من الحب توزع على سكان الحـــرمين الشريفين ، وهو أول من قام بكسوة الكعبة المشرفة من آل عثمان من ماله الخـــاص ، لذلك تمتع العثمانيون فى نفوس المسلمين عامة بمركز دينى متميز ، وخاضوا حروبهم باسم الإسلام ومن أجله ، يقول السلطان محمد الفاتح : " إن بلادنا هى بيت الإســـلام وســـيظل مصباحها مضيئاً بزيتٍ نستخرجه ويستخرجه خلفاؤنا من قلوب الكافرين "(١) .

مـــن هنا كان تصميم السلطان محـــمد الثانـــى - الفـــاتح - على فتح جزيرة رودس(٢) ، ولا ســـيما أنه أخضع آخر الإمارات اليونانية المستبدة فى المورة ، وجعل صـــربيا والبوسنة مقاطعتين عثمانيتين وفتح عدداً من جزر اليونان(٣) ، وكانت رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا(٤) ، والتى كانت الحرب بينها وبين مصر سجالاً ، حيث

---

(١) د. محمد بن عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر ص٨٥-٨٧ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

(٢) جزيرة صغيرة تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى فى جنوب شرق بحر إيجه ، وهى من أشهر الجزر فى بحـــر إيجـــه - وهو الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، واسمها مشتق من لفظة " رودون " اليونانية ، ومعناها الورد ، وهى جزيرة طيبة الهواء ، حسنة التربة ، كثيرة الفواكه والأزهار ؛ انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، ص١٧٦-١٨٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس - بيروت .

(٣) بـــرنارد لويـــس : إستانبول وحضـــارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د.سيد رضوان على ، ص٤٩ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة .

(٤) يعـــرف فرســـان القـــديس يوحنا باســـم Hospitalers Of Saint John أو فرســـان رودس Kinights Of Rhodes ويعـــرفون عند العرب باسم الاسبارتية ، وهم طائفة دينية عسكرية من بقايـــا طوائف الحروب الصليبية ، وقد جمعت هذه الطائفة بين العبادة والفروسية والشدة والصلابة ، وكانت نشأتهم فى بيت المقدس فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ولما استولى المسلمون على عكا سنة ٦٩٠هـــ/١٢٩١م انتقل الاسبارتية إلى جزيرة قـــبرص ومنها إلى جزيرة رودس التى كانت بالنسبة لهـــم مكانـــاً جـــيداً لمواصلة الحروب الصليبية لقربها من البلاد الإســـلامية ، انظر : عبد الرحيم بن عـــبد الرحمن العباسى : منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ، ص ١٧-١٩ حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

كانت تقوم بتهديد مباشر للبحار الإسلامية وطرق التجارة ، كما تقوم بتهديد الطريق البحرى للحجاج المسلمين ، فأرسل لها السلطان العثمانى عمارة بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل تحت قيادة القائد العثمانى ميشطس باشا ، وضرب الحصار عليها من ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ/٢٣مايوسنة١٤٨٠م ولمدة ثلاثة أشهر ، حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على الجزيرة وتدمير قلاعها لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فرفعوا الحصار عنها وعادت قواهم دون تحقيق أية نتيجة تذكر(١) .

وكان القائد العثمانى طره خان أوغلو عمر بك قد شتت الجيش الذى حاول الدفاع عن البندقية فى منتصف سنة ٨٨٢ هـ / أوائل نوفمبر سنة ١٤٧٧م ، وأسَر قائده ، وعندئذ أجبر السلطان محمد الفاتح البندقية على دفع غرامات الحرب وتسليم خراج سنوى للدولة(٢) ، ويعود سبب تلك التحركات فى المقام الأول إلى أهمية مدينة البندقية التى تقع على البحر الأدرياتيكى والتى تعتبر من أهم الثغور التجارية التى تتحكم فى تلك البحار ، إضافة إلى أن جزيرتى قبرص وكريت الاستراتيجيتين كانتا تابعتين للبنادقة حينذاك وتهددان طريق الحجاج فى البحر الأبيض المتوسط دون شك .

ثم أخذ السلطان العثمانى محمد الثانى فى تجهيز قواته الحربية لفتح جزيرة قبرص ، حيث أمر بتجهيز تجريدة بحرية قوية لمهاجمة الجزيرة وفتحها ، لكن الأجل عاجله قبل أن يحقق هدفه الجهادى العظيم(٣) ، ومات - يرحمه الله - فى اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ / ٣ مايو سنة ١٤٨١م(٤) .

---

(١) رزق الله منقريوس الصدفى: تاريخ دول الإسلام ، ج٣ ، ص١٠٨-١٠٩ ، مطبعة الهلال ، القاهرة، ١٣٣٦هـ/١٩٠٨م ،

أ رغون : المصابيح المنيرة فى تواريخ القرون الأخيرة ، ترجمة حنفى هند بن إسماعيل ، ج١ ، ص٤١ ب.ت.ن.، ب.م.ن.

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ١٦٧-١٦٨ ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٤٤ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى ، ج٢ ، ص ٦١ ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(٤) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، المرجع السابق ، ص ١٧٦

أصبحت جزيرة رودس مصدر خطر على الدولة العثمانية ، فقد استقبلت الأمير جم الذى انشق على أخيه السلطان بايزيد الثانى ، ووصل الجزيرة فى منتصف سنة ٨٨٧ هـ / منتصف ١٤٨٢م وقد هدد السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، ثم أرسل لهم وفوداً كي يسلموا له أخاه أو يضعوه تحت المراقبة على أن تدفع لهم الدولة العثمانية مبلغاً سنوياً لقاء ذلك ، أما السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) الملقب بـ - ياووز - أى القاطع ، فقد كان حريصاً على فتح جزيرة رودس، لأنه يدرك أنها تشكل عقبة كؤودًا فى طريق الحاج البحرى العثمانى ، وطريق التجارة البحرية العثمانية ، بيد أن الأجل عاجله قبل أن يحقق أهدافه[1] ، لقد كانت جزيرة رودس مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهى بالتالى خطر على الحجاج والمسافرين من رعايا الدولة العثمانية ، فقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : " ... جزيرة رودس التى أذهلت بِشَرّهِا العقول وحيّرت الألباب ، ... كانت شَرَكَ الشّرْك ، وحبالة الإفك ، ومقر الظلم والعدوان ومستودع الخزى والبهتان ، طالما سيقت إليها الزمر من المسلمين أسارى ، مكبلين فى الحديد فتراهم من الكرب سكارى ، وما هم بسكارى ، ويستعملون فى الأعمال الشاقة ، ويكلفون فوق الجهد والطاقة ، ويقتسمون أموالهم كالأنفال ، وهم ينظرون ولا يُغنون بحال ..."[2] .

من هنا طلب السلطان العثمانى سليمان الأول بن سليم الأول - القانونى - "٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م" من قادته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات

---

(١) إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص٨٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

(٢) عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ص٩٣-٩٤ ، الحولية الثامنة عشر من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

وافــية عنها ، وحجم الأسطــول فيها وأنواع السفن التى يملكها أهل هذه الجزيرة ، فجـــاءه الرد سريعاً ، والشرح وافياً عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر التابعة لحكومة البندقــية ، فهناك خمس عشرة سفينة تابعة لجزيرة رودس ، وجزيرتان تابعتان للبندقية همـــا اســـكاثوس واســـكيروس ، والأولى منهما عبارة عن قلعة حصينة ملاذاً لسفن اللصـــوص وقطاع الطرق من هؤلاء القوم ، وفى الجزيرتين أعداد كبيرة من اللصوص النصـــارى ، الذيـــن يهاجـــمون قرى المسلمين ويقطعون الطريق عليهم ، فيأخذون النســاء والأطفال أسارى ويقتلون الرجال وينهبون الأموال ، والتعاون قائم ومعروف بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بـــهم فى كل وقت وحين ، وأن أعمال القرصنة والسلب والنهب تنطلق فى معظمها من جزيرة رودس ، وما يتبعها مـــن جـــزر ، وقـــد سبق لأهل هذه الجزيرة أن قبضوا على زوجة وأبناء أحد طائفة الســـباهية العثمانيين ، وحبسوهم لمدة عامين ، وأنه فى عام ٩٢٧هـــ خرجت ثلاث ســـفن مـــن قلعة رودس واستولت على سفينتين عثمانيتين كانتا تحت قيادة كل من عيسى ريس ، واسكندر ريس(١) .

ويؤكـــد أحد المؤرخين العثمانيين هذه الحقائق العلمية بقوله : " إن جزيرة رودس وقلاعهـــا العســـكرية كانـــت مأوًى ومقراً لطائفة الإفرنج ، وقراصنة البحر منهم ، وكانـــت قريبة من الممالك العثمانية ، وكان أهلها لا يتخلون عن إيصال الضرر لأهل الإســـلام ؛ خصوصاً التجار والحجاج والمسافرين الذين يذهبون إلى مصر بالسفن عن طـــريق البحر ، والحجاج الذين يذهبون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج عـــن طـــريق البحر كذلك ، عندئذ يتعرض هؤلاء القوم من أهل رودس للمسافرين والحجاج من المسلمين ويترصدون لهم الطرق ، ويضربونهم بالمدافع ، وينهبون أموالهم ويـــأخذونهم أسارى ويضربون عليهم السلاسل والأغلال ، ويدخلونهم فى السجون ،

---

(١) د.فـــيل بن عبدالله الكندرى: تحقيق مخطوط " منح البرية فى فتح رودس الأبية " ، ص١٤٣-١٤٤ ، تـــرجمة للرســـالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلبى : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابى سراى اسطنبول .

- Topkapi Sarayi Muzesi Kutuphanesi .

ويُعَرّضونهم لأصناف الإهانة والأذى ، فيقتلون الرجـــال ويستعبدون النساء والأطفال حتى يردوهم عن دينهم إن اســتطاعوا فلما عُرِض الأمر على العتبة الســلطانية بكل تفاصــيله ودقائق أخباره ، أخذته الحمية الدينية وأعلن الحرب عليهم وتسخيرهم ورد شرورهم ، لأن ذلك من مهمات الدين والدولة ، فجهز لهم أسطولاً همايونياً فى فصل الشتاء طاعة لله ورسوله ... "(١) .

مـــن هـــنا يتـبين لنا أن جزيرة رودس كانت مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إســطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصــدر تهديد للطــريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ومصدر خطر عظيم للحجاج العثمانيين الذين يخرجون من عاصــمة الدولة العثمانية – إسطنبول – إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر المتوسط وموانئه ومن ثم عــن طريق البحر الأحــمر وموانئه . هنا كان قرار السلطان سليمان الأول بن سليم الأول بتجهــيز قوة بحرية قوامها ثلاثمائة مركب تحمل عشرة آلاف بحرى بقيادة القائد العــثمانى بيــرى باشا إضافة إلى مائتى ألف جندى عثمانى تحت قيادة مصطفى باشا صهر السلطان العثمانى ، وفُتِحَت الجزيرة بعد حرب ضروس وقتال عنيف ، شاركت فــيه قــوات من ولاية مصر العثمانية ، ورُفِعَ علم الدولة العثمانية فى وسط الجزيرة ، واستسلمت المدينة للسلطان العثمانى سليمان القانونى فى السابع من شــهر صفر سنة ٩٢٩هــــ/أواخــــر ديسمبر ١٥٢٢م ، ومنح السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ، ومنح الأمان والحماية لأهل الجزيرة(٢) .

---

(١) صولاق زادو : تاريخ صولاق زادة ، ص ٤٣٩ ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـــ ، مكتبة أوقاف الديانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٢) د. محمــد كمال الدسوقــى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص٥٦-٥٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م

د.خلــف بن دبلان الوذينانى: الفتح العثمانى لجــزيرة رودس ، ص ٦٢- ١٠٥ ، معهد البحــوث وإحياء التراث الإسلامى – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

وسارع السلطان العثمانى سليمان القانونى من مركز قيادته فى قلعة رودس بنقل أخبار هذا الفتح المبين إلى قاضى بورصة مؤكداً له حرصه الشديد والمستمر على نصرة الدين الإسلامى ، ورفع راية الدين وقمع وقلع آثار الكفرة والظالمين ، وفى مقدمتهم أهالى رودس الذين يقطعون طريق المسافرين بالبحر، ويسفكون دماء التجار، وشرح السلطان فى رسالته تلك مراحل الاستعداد للمعركة وبدايتها وأسماء القادة الذين شاركوا ومهماتهم ، وما قام به السلطان نفسه فى هذه المعركة الحاسمة التى نصر الله فيها جند الإسلام ، وأن جزيرة رودس قد طُهرت من دنس أهل الكفر والضلال ، وتحولت معابد الأصنام والأوثان إلى مساجد لأهل الإيمان ، وأكد السلطان العثمانى سليمان القانونى فى رسالته هذه نجاح الدولة العثمانية وجيشها المظفر فى تأمين الطريق البحرى للحجاج القادمين من عاصمة الدولة العثمانية وأطرافها إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث قال : " ... وأضحت معابر بيت الله الحرام آمنة من عبث الكفرة الفجرة " ، وهو بذلك يقصد أهالى رودس والجزر المماثلة لها فى البحر المتوسط التى ينطلق منها اللصوص وقطاع الطرق لمهاجمة قوافل الحجيج البحرية التى تجوب مياه البحر المتوسط فى طريقها إلى موانئ الدولة الإسلامية فى مصر والشام وعلى سواحل البحر الأحمر ، وفى ختام هذه الرسالة السلطانية التى تعطى الدليل الواضح على مهمة هذه الحملة البحرية وأهداف هذا الفتح الإسلامى الكبير ، أشار السلطان سليمان القانونى إلى أن كافة الجزر وقلاعها قد أضيفت إلى أملاك الدولة ، وأن العفو والأمان قد مُنح لأهل هذه الجزر وتلك القلاع ، على أرواحهم وأموالهم وأولادهم وعيالهم ، وأن كافة أسرى المسلمين فى هذه الجزر قد أُطلق سراحهم وصاروا أحراراً بعد أن فك الله قيدهم وتحقق النصر لدولتهم الإسلامية، والمرجو إظهار الفرح والمسرات والدعاء لدوام الدولة والسلطنة(١) .

---

(1) Osmanli Devletinin - Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.S.401-404 Ankara - 1988 .

أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، ج١ ، ص٤٦٩-٤٧٤ ، نشر فى إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م .

وهكــذا بدأ العثمانيون فى حــماية طريق الحج البحرى ، وبدأت قوافل التجارة العثمانــية البحرية تشعر بشيء من الأمن والاطمئنان ، ولا سيما أن القرصنة فى البحر المتوســط لم تعــد تجد من يساندها بعد فتح جزيرة رودس التى كانت تشكل خطراً حقيقــياً فى الــبحر ، وقــد خضــعت الجزر البحرية القريبة من رودس لنفوذ الدولة العثمانــيــة ، عــندما علمت بفتح الجزيرة وضمها للدولة العثمانية ، وأصبحت تلك الجزر جــميعها جزرًا عثمانية ، تقدم الولاء والطاعة للدولة[1] ، لكن فرسان القديس يوحــنا غــادروا جزيرة رودس بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين ، واتخذوا من جزيرة مالطــة[2] قــاعدة لهم ، حيث تنازل لهم ملك أسبانيا وألمانيا شارل الخامس – الشهير بشــارلكان – عن هذه الجــزيرة المهمة كى يشنوا منها هجماتهم البحرية وقرصنتهم القتالية ضد السفن التجارية العثمانية ، وضد سفن الحجاج المسلمين بين سواحل آسيا الصــغرى وبــلاد الشام ومصــر[3] ، وبالتالى صار موقف الدولة العثمانية فى تأمين طــريق الحجــاج البحرى من عاصمــة الدولة العثمانية وأقاليمها عبر البحر المتوسط حَرِجٌ جداً، وبات التهديد واضحاً للسفن التجارية ولقوافل الحجاج البحرية ، وهو ما زاد من مهمات الدولة العثمانية فى هذا المجال .

لقد أصبح انضمام المشرق العربى إلى الدولة العثمانية يشكل عبئاً على قوتها البحرية كى تضمن سلامة المواصلات عبر البحر المتوسط من عاصمة الدولة – إسطنبول – إلى الموانــئ المصــرية وموانئ الشام ، وبالتالى الوصول إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة

---

(١) يوصف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) جزيــرة مالطة : جزيرة صغيرة فى البحر المتوسط بالقرب من سواحل إيطاليا ، وهى ذات أهمية بحرية كــبيرة لموقعهــا الاستراتيجى ، وقد تنازعتها الملوك والأمم على مر التاريخ ، وقد استقر بها فرسان القديس يوحنا إلى سنة ١٧٩٨م ، ثم احتلها نابليون بونابرت عند مجيئه إلى مصر ، وفى سنة ١٨٠٠م احتــلها الإنجلــيز ليسودوا بها ومن خلالها على البحر المتوسط ، وقد أيد مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥م احتلالهم لها .

انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، هامش ٢ ، ص٢٠٦ .

(3) Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971 , PP.161-163

الحـــج ، وهــــذا ما أدركه السلاطين العثمانيون حينذاك ، وبالتالى كان تأمين الطريق الـــبحرى مـــن أولويـــاتهم ، وهو ما انعكس إيجابياً على تطـــور الأسطول البحرى العثمانى[١] .

لقـــد باتـــت موانـــئ الشام فى طرابلس وبيروت واللاذقية تمثل مركزاً استراتيجياً لاستقبال قوافل الحجاج وتأمين ســـلامتهم ، وبالتالى انتعاش التجارة وتطورها ، وهو ما ظهر واضحاً على مواردها الجمركية فى أواخر القرن العاشر الهجرى / أواخر القرن الســـادس عشـــر الميلادى[٢] ، حيث أقامت الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى قلعة بقراص فى المضائق بين ميناء خليج الإسكندرونة والبحر لحماية المسافرين وقوافـــل الحجـــاج مـــن غارات القراصنة البحرية ، وقلعة أخرى على ساحل الخليج الشـــرقى فى باياس ، وكلفت الحامية فيها بعدم مغادرتها إلا لأمر خطير ، لأهمية هذه القلعة وأهمية موقعها[٣] ، وزيادة فى سلامة الحجاج والمسافرين عبر البحر أمر السلطان العـــثمانى ســـليمان القانونى ببناء برج مراقبة فى داخل البحـــر مقابلاً للقلعة ، شبيهًا بالبرج المقام فى البحر عند مدخل البوسفور فى عاصمة الدولة إسطنبول[٤] .

وأمام هذه المتغيرات المتلاحقة فقد جمع السلطان سليمان القانونى مجلس الشورى فى إســـطنبول لأخذ رأيهم فى التهديدات التى تتعرض لها الدولة ، فأشـــار المجلس على السلطان بفتح جزيرة مالطة أولاً وقبل كل شيء ، لأن فرسان القديس يوحنا فيها هم أســـاس كـــل هذه الاضطرابات ، فهم يقومون بكل أنواع القرصنة فى حوض البحر الأبـــيض المتوســـط كمـــا كانوا يقومون بها فى جزيرة رودس ، عندئذ أمر السلطان العثمانى بتجهيز قوة بحرية أوصلها البعض إلى ٣٠٠ سفينة فيها من المعدات والأسلحة عشـــرون مدفعاً كبيراً ، و ١٢٠ مدفعاً صغيراً ، و ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود ويقود

---

(١) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) الأرشـــيف العثمانى – إسطنبول – دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ – دفتر الأحكام المالية – صحيفة ٢٥٢ الفرمان الموجه فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٩٨١هـــ إلى أمير أمراء الشام .

(٣) وثيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – إسطنبول – دفتر المهمة رقم ٧ – الفرمان رقم ٣٧٣ .

(٤) وثـــيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – إسطنبول – كبه جى – رقم ٢٣٠ – دفتر الرؤوس– صحيفة رقم ١٨٧– بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٨٣هـــ .

هذه القوة بياله باشا للأسطول البحرى ، والوزير مصطفى باشا لقيادة الجند ، بيد أن هذا الأسطول لم يحقق أية انتصارات رغم وصوله إلى الجزيرة ، لكنه فك الحصار عنها وعاد دون أن يفتحها[١] .

ولم يغفل العثمانيون عن سلامة البحر والمسافرين عليه فى أية اتفاقية أبرموها أو معاهدة وقعوها ، وهذا ما ظهر واضحاً فى معاهدة الامتيازات القنصلية التى وقعها السلطان العثمانى سليمان القانونى مع فرنسا فى منتصف سنة ٩٤٢هـ / أوائل سنة ١٥٣٦م ، حيث أكد البند الأول من بنود تلك المعاهدة على الالتزام بسلامة المسافرين على البحر وسلامة أموالهم فى أى مكان سواء داخل البحر أم على الثغور ، وأن تلتزم الأساطيل البحرية للدولتين بسلامة رعايا الدولة الأُخرى على البحر وعدم إخضاعها للتفتيش أو التوقف ، وهو ما أشار إليه البند الحادى عشر من تلك المعاهدة [٢] ، وهذا ما يؤكد أهمية تأمين الطريق البحرى ، لا سيما وأنه أصبح شرياناً رئيسياً يربط عاصمة الدولة بأطرافها البعيدة فى الشام ومصر ، وبالتالى لابد أن يكون معبراً آمناً للحجاج والمسافرين والتجار ، وسلامته سلامة للدولة وهيبتها .

وقد برزت قوة العثمانيين البحرية فى البحر المتوسط بشكل واضح بعد انتصار أمير البحر " الأميرال " خير الدين برباروس[٣] وأسطوله البحرى المكون من ١٢٠

---

(١) خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، ص٣٤١-٣٤٢ ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص٢٢٣-٢٣٠ .

(٣) خير الدين باشا بربروسا – أو " بارب روس " أى ذى اللحية الصهباء ، من أسرة تركية مسلمة ، وهو من أصل يونانى – انتقل هو وأسرته من جزيرة مدللى – إحدى جزر اليونان التى فتحها محمد الثانى ، التحق بخدمة السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر برتبة بكلربك – بيلربي– أى أمير ، حيث أمده بألفى جندى عثمانى مع مدفعيتهم وسمح لهم بزيادة عدد جنده فى البحر ومنحهم حقوق الإنكشارية وامتيازاتهم وقد عُيّن أميراً للبحر سنة ١٥٣٣م ، وتوفى فى إسطنبول سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م حيث دفن فى حى بشكطاش على شاطئ البوسفور فى المحل المعد لمرسى الدونانمات العثمانية، وقد ترك للدولة العثمانية أسطولاً بحرياً مجهزاً بأفضل أنواع الأسلحة والتجهيزات ، ورجال أكفاء من البحارة المهرة الذين تمرسوا على خوض المعارك البحرية ؛ انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

قطعة بحرية فى المعركة البحرية التى خاضها أمام بَـرُوزَة[١] فى أوائل سنة ٩٤٦ هـ / ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٣٨م مع التحالف البحرى الأوروبى المؤلف من مائة وسبعين سفينة بحرية[٢] ، وكان اهتمام العثمانيين بالبحر قد ازداد منذ عهد السلطان محمد الفاتح حيث تقدمت البحرية العثمانية خطوات سريعة ، لأن الجهاد فى البحر كان يتساوى مع الجهاد فى البر إن لم يكن يَتفوَّق عليه وفق مقتضيات العصر التاريخية وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر .

ولقد كان أسطول البندقية البحرى مصدر قلق للدولة العثمانية ، حيث عاث فى الشواطئ الجنوبية من آسيا الصغرى ، واحتل عدداً من المناطق الساحلية ، بيد أن انتصار البنادقة على العثمانيين فى معركة غاليبولى البحرية فى سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م ، جعل السلطان محمد الثانى فيما بعد يحفظ للعثمانيين مكانتهم البحرية ويحفظ لهم سمعتهم الدولية التى يستحقونها ، حين جهز حملة بحرية قوامها مائة وثمانون سفينة شراعية فى أواخر سنة ٨٦٠هـ/ربيع سنة ١٤٥٦م من غاليبولى إلى سواحل بحر إيجة ، للسيطرة عليها وبسط نفوذ الدولة العثمانية هناك وهو ما تحقق فعلاً[٣] ، ويشير أحد المؤرخين إلى هذا التفوق البحرى للعثمانيين فى تلك الفترة فى مقارنة رقمية يبين فيها أن الأسطول العثمانى كان يحتوى على ثلاثين سفينة حربية وقطع صغيرة بينما كان الأسطول البندقى متفوقاً على الأسطول العثمانى بمراحل ، بيد أن السلطان محمد الفاتح جعل الأسطول العثمانى يفوق الأسطول البندقى باثنين وتسعين قادرغاً[٤] ، وأكبر

---

(١) بروزة : مدينة تقع على رأس الخليج فى ألبانيا .

(٢) د . محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة : ص ٩٨-٩٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٦٨-٤٦٩ - نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكى ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) قادرغا Kadirga - نوع من السفن فى الأسطول العثمانى ، وكان أكبرها - ولكل واحدة منها خمسة وعشرون متعداً ، وتسعة وأربعون مجدافاً ، ويحرك المجداف الواحد أربعة أو خمسة أشخاص ، وكان طول الواحدة منها ١٦٥-١٦٨ قدماً وعرضها ٢١-٢٢ قدماً ، وهى تعمل بالمجداف والشراع ، وتحمل الواحدة منها مدفعية كبيرة وأربع وسطى وثمان صغيرة ، ويعمل فيها ١٩٦ مجدِّفاً و١٠٠ محارب و٣٥ بحاراً، بالإضافة إلى أصحاب المهن الأخرى ؛ انظر: تاريخ جودت: تحقيق د.عبد اللطيف الحميد ، ص٢٢٢-٢٢٣ ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

منها ١٦ طراداً ، ونحواً من ٤٠٠ سفينة نقل وإنزال ، ووضع المدافع على السفن ، ولم تبق أية سفينة حربية بلا مدفع ، وقبيل وفاة السلطان محمد الفاتح كوَّن أسطولاً بحرياً يعادل ضعفى الأسطول البندقى - ٢٥٠ سفينة حرب و ٥٠٠ سفينة نقل ، وبالتالى تحققت لأول مرة فى التاريخ العثمانى قوة بحرية عثمانية ، تستحق الدهشة وتتفوق على الأساطيل الأوروبية باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم[(١)] .

ومع تفوق العثمانيين فى المواد الخام لبناء أسطولهم البحرى ، حيث كانت الغابات الكثيفة على شواطئ البحر الأسود ، وكذلك وفرة المعادن اللازمة لبناء السفن ، إلا أن ازدياد الملاحين من النصارى الطليان أو اليونان أو البنادقة ، قلل من نسبة الولاء ، وزاد من ظاهرة الخيانة وعدم الولاء للدولة العثمانية[(٢)] ، وهذا بطبيعة الحال يقلل من الجانب الجهادى فى البحر على المدى البعيد ، وقد أُسندت إلى والى سنجق غاليبولى قيادة القوات البحرية فى بداية الأمر ، وعند تعيين خير الدين بربروسا أميراً للبحر كلف بالولاية على جزر بحر إيجة أيضاً[(٣)] ، لأن الدولة العثمانية أصبحت تدرك أهمية الولاء الدينى ، والإخلاص القيادى عند رجال الدولة فى المجال البحرى وحماية الثغور البحرية العثمانية من القراصنة وقطاع الطرق .

وقد أدرك السلطان علاء الدين ، سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثمانى فى مواجهة الأساطيل الأوروبية ، وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل فى البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل إلى السلطان العثمانى سليمان القانونى فى سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م ، يستنجد به ضد البرتغاليين الذين ظهروا فى مياه المحيط الهندى ، وبدأوا يهددون سواحل دولته ، ولا غرابة فى ذلك حيث إن الملك فرنسيس الأول ملك فرنسا قد استنجد هو الآخر بالسلطان سليمان القانونى ضد أعدائه الذين تغلبوا عليه فى مملكته ، وكان رده حاسماً وسريعاً ، وأشار فى رسالته إلى ملك فرنسا بأنه سلطان البحر الأبيض المتوسط والأسود وبلاد الروم إيلى والأناضول ... إلخ ، وهذا يؤكد

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ١٨٠ ، المرجع السابق .

(٢) د . محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٤٧١ .

شعور السلطان العثمانى بقوته العسكرية فى البر والبحر ، والتى برزت بصورة واضحة فى فتح الجزر الاستراتيجية فى البحر المتوسط ، حيث فُتحَت جزيرة جربة على الساحل التونسى ، وعندما تنمّرَ ملك أسبانيا وبدأ فى مضايَقة المراكب العثمانية فى البحر المتوسط ، ودعم قراصنة جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا الأورشليمى ، والذين باتوا يهددون الطريق البحرى للدولة العثمانية ، أعد السلطان العثمانى قوة بحرية هائلة قوامها مائة وواحد وثمانون مركباً تحت قيادة القبطان شابيلى وهاجمت جزيرة مالطة Malta فى البحر الأبيض المتوسط ، وضربت عليها الحصار فى أواخر سنة ٩٧٢هـ/ أواخر شهر مايو سنة ١٥٦٥م ، ودمرت حصونها وقلاعها واستمر الحصار ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رفع عنها الحصار لرداءة الجو وقرب فصل الشتاء وخوفاً على الجند العثمانى وقوته البحرية[١] ، بينما يذهب أحد المؤرخين فى معالجة تلك الحادثة إلى أن السبب فى فك الحصار عن جزيرة مالطة حينذاك هو استبسال فرسان القديس يوحنا فى الدفاع عن الجزيرة مما كلف العثمانيين خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد وهو ما أرغمهم على فك الحصار ، وعلل تلك المتغيرات باتساع رقعة الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على مجاراة الأوروبيين فى التطور التِّقنى ولا سيما فى المجال البحرى والسفن البحرية الحديثة التى تحمل المدافع والأسلحة المتقدمة[٢] .

لقد كان حرص السلاطين العثمانيين على البحر شديداً ، مما يعنى أن الجزر والثغور والسواحل البحرية لابد وأن تكون تحت السيادة العثمانية لتكون الطرق البحرية والساحلية آمنة ، وبالتالى يكون طريق الحاج وطرق التجارة فى مأمن عن القراصنة وقطاع الطرق .

من هذا المفهوم جهزت الدولة العثمانية حملة بحرية بقيادة والى مصر سليمان باشا ، وخرجت هذه الحملة من ميناء السويس لمواجهة البرتغاليين ، ومنعهم من التغلغل فى البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلى المحيط الهندى لإغاثة سلطان الهند ضد هؤلاء الغزاة ، وقد مكنت تلك الحملة البحرية وما تبعها من حملات الدولة

---

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٥-٧٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، ص١٠٢-١٠٣ ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، القاهرة .

العثمانيـــة من السيطرة على ميناء عدن ومدخل البحر الأحمر فى أوائل سنة ٩٤٥هـــ/ منتصف ســـنة ١٥٣٨م[١] .

إن الدولـــة العثمانية فى عهد السلاطين الأوائل ، كانت تمثل القوة الحقيقية للدولة الفاعلـــة فى مسار الأحداث ، فهى فى مرحلة بناء وصراع عسكرى وتوسع فى أملاك الدولة ، وتأكيد لمكتسباها وحدودها وأمنها ، من هنا كان الحرص مستمراً على فتح الجـــزر التـــى تشكل تهديداً لأمن الدولة ورعاياها ، وهذا ما رأيناه فى حـــملة جزيرة قـــبرص[٢] ، تلـــك الجزيـــرة التى كانت تمثل مرتكزاً خطيراً فى خاصرة شرق البحر المتوسط، إذ هى تشكل وكراً للقرصنة ، وبلاءً مستمراً لطريق الحاج العثمانى وللتجارة العثمانـــية ولا ســـيما إذا كـــان الجو مكفهراً بين الآستانة والبندقية ، من هنا حرص السلطان العثمانى سليم الثانى بن سليمان الأول (٩٧٤-٩٨٢هـــ/١٥٦٦-١٥٧٤م) عـــلى إكمال مجد القوة العثمانية ، فساق عمارة بحرية مؤلفة من ثلاثمائة وستين مركباً تحمل مائة ألف جندى عثمانى ، حيث هاجمت الجزيرة وخاضت معها حرباً ضروساً ، انتهت باستسلام عاصمة الجزيرة نيقوسيا فى اوائل سنة ٩٧٨هـــ/أواخر سنة ١٥٧٠م، رغـــم مشـــاركة كـــثير من رجال البحرية البنادقة فى الدفاع عن الجزيرة لكن دون جـــدوى، وبعد فرض سيطرتهم الكاملة على الجزيرة ، سمح العثمانيون لمن يرغب من أهل الجزيرة بمغادرتها والانتقال إلى جزيرة كريت على السفن العثمانية، وتكفلوا بحماية أرواح وممتلكات سكان قبرص الذين لا يرغبون فى مغادرتها، ثم منح العثمانيون رئيس الأساقفة الأرثوذكس فى الجزيرة كافة الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعات الرومية ، وهـــو ما كان يفتقده فى عهد البنادقة[٣] ، ورغم أن بعض المؤرخين تطرفوا فى تعليل الأســـباب التى حملت السلطان سليم الثانى على فتح جزيرة قبرص ، وأنه فتحها نزولاً

---

(١) د. محمد البحراوى : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) قـــبرص جزيـــرة صغيرة ذات موقع جغرافى استراتيجى فى شرق البخر الأبيض المتوسط بالقرب من سواحل الشام ومصر والأناضول حيث تبعد عن ساحل الأناضول ٧٠ كم وعن ساحل سوريا ١٠٠ كم وعن مصر ٣٨٠ كم ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق هامش١ ، ص ٢٥٥

(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٦٨-٣٧١ ، المرجع السابق .

د . محمد كمال الدسوقى: المرجع السابق ، ص ٧٩-٨٠ .

عــلى رغبة أحد ندمائه اليهود[١] ، إلا أن الحقائق التاريخية والمعطيات العلمية فى تلك المــرحلة ، ومنهجــية مســار الــتاريخ ، ونامــوس قيام الدول ، ترفض مثل تلك التحلــيلات والتعليلات ، لأن العثمانيين كانوا حينذاك فى مرحلة جهادٍ دينيّ صرف ، ولهــم أهــداف سياسية ودينية تكاد تكون معروفة للمؤرخ المتخصص والمنصف ، أياً كــان توجهــه وموقعه من أهــمية الحدث ، بينما تؤكد المصادر العثمانية القريبة من الحــدث أن جزيــرة قــبرص حينذاك كانت تمثل خطراً محدقاً بمصالح الدولة العثمانية ومكتســباتها وطرقها البحرية وثغورها المهمة ، وأن أهل قبرص قد اعترضوا الحجاج الذيــن يذهــبون إلى الحج عن طريق البحر ، وأنهم قد نهبوا أموالهم وقتلوهم وأسروا نســاءهم وأطفالهم ، وتأميناً لحياة العباد وصيانةً للبلاد فقد قرر السلطان العثمانى بنية خالصــة أن تُــملأ الجزيرة بأهل الإسلام كما كان ، فأرسل لفتحها قائده المظفر لالا مصطفى باشا ومعه الأسطول العثمانى الذى حقق النصر وبلغ الغاية المنشودة[٢] .

ويؤكــد بعــض المؤرخــين المعاصرين استناداً إلى الوثائق العثمانية أن القراصنة المســيحيين المتمركزين فى جزيرة قبرص فى تلك الفترة وتحت حماية وسيطرة البنادقة ، كانوا كثيراً ما يقومون بالاعتداء على السفن التجارية العثمانية ، وعلى سفن ومراكب الحجاج العثمانيين المتجهين إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر ، وأن علاقة البندقية حينذاك مع الدولة العثمانية كانت تسير إلى الأسوأ ، من هنا صدرت فتوى شرعية من شــيخ الإسلام فى الدولة العثمانية ، بأن جزيرة قبرص كانت فيما مضى بلداً مسلماً ، وهــى الآن تهدد المسلمين وبلادهم ، فيجب غزوها وإعلان الحرب عليها ، وقد تحقق ذلك وفتحت الجزيرة وباتت بكلربكية عثمانية[٣] .

---

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) كلشنى : كلشن معارف ، ص٥٦١ ، ط ١٢٠٢هـــ ، إسطنبول – مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلى وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوى، ج١ ص٤٤، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية – إستانبول .
؛ محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمــان ؛ دراســة وتحقيق د. يوســف بن على بن رابــع الثقفى ، ص١٦٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـــ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

لكـــن جزيرة مالطة أصبحت مصدر خطر حقيقى فى البحر المتوسط على التجارة العثمانـــية وعـــلى طريق الحاج البحرى القادم من عاصمة الدولة العثمانية إلى الحرمين الشـــريفين ، وهـــو مـــا ظهر فى تلك الحادثة التى ذكرها المؤرخون فى عهد السلطان العـــثمانى إبراهـــيم بن أحمد الأول (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/١٦٤٠-١٦٤٨م) حيث هاجم قراصنة مالطة قافلة الحاج العثمانى وفيها قزلر آغاسى[١] ، الذى كان فى طريقه إلى الحج ومعه جارية حسناء من جوارى القصر ومعها طفلها الرضيع ، وبينما هو فى الطـــريق هاجـــمـــه قراصنة مالطة فقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ، وأخـــذوه معهم ونَصَّروه واشتهر عند الإفرنج بعد ذلك باسم " بدر أوتو ماتو – أى الأب العـــثمانى " ، وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى مهاجمة جزيرة كريت من قبل الأسطول العثمانى فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ١٠٥٥هـ الموافق أواخر يونيو سنة ١٦٤٥م ، لأن هـــؤلاء القراصنة قد نزلوا جزيرة كريت بعد تلك الحادثة واستضافهـم أهل الجزيرة وأحسنوا وفادتهم ، مما جعل السلطان العثمانى يزداد غيظاً ويأمر بغزو هذه الجـــزيرة وتأديب أهلها[٢] .

ولم يـــتوقف هـــؤلاء القراصنة فى جزيرة مالطة عن مهاجمة الطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بولاياتها وأقاليمها فى المشرق العربى ، حيث هاجم هؤلاء القراصـــنة ســـفينة عثمانية أثناء عودتها من ميناء الإسكندرية فى الأراضى المصرية إلى عاصـــمة الدولـــة إسطنبول ، هنا أعلن السلطان العثمانى الحرب على جزيرة مالطة ،

---

(١) قزلر آغاسى Kizlaragasi ، تعنى المشرف على دائرة الحريم فى القصر السلطانى ويطلق عليه أيضاً " آغا دار السعادة " وكان على رأس خدم القصر ، ولأهمية منصبه كان يأتى بعد شيخ الإسلام مباشرة فى الترتيـــب الرسمى ، وكان يأتمر بأمره كل الأغاوات القائمين بالخدمة فى القصر السلطانى ، وكان الأغاوات القائمون على خدمة الحرمين الشريفين يأتمرون بأمره أيضاً فهو الرئيس المباشر لهم ، وكان يصـــحب الصـــرة إلى الحجاز سنوياً ، وهو مـــن مراكز القوى فى القصر السلطانى . انظر : المعجم الموســـوعى للمصـــطلحات العثمانية التاريخية ، للدكتور سهيل صابان ، ص١٨٠ ، ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية – بالرياض .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص٢٨٦ .

والجـــزر المناصرة لها والمتعاطفة معها ، واستمرت الحرب سجالاً حتى تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم والسيطرة الكاملة على جزيرتـــى كريت ومالطة وعلى أهم القلاع والثغور فيها(١) .

فى تلـــك المـــرحلة الحاســـــمة ، وفى ضوء الانتصارات البحرية المتتابعة بدأت الأساطيل العثمانية فى مهاجـــمة بعض الجزر المهمة فى البحر المتوســـط مثل جزيرتى كريـــت وزانطـــة(٢) ، ذات الموقع الاستراتيجى ، هنا بدأ تجمع القوى النصرانية ضد الدولة العثمانية ، والتقى الجانبان فى معركة بحرية حاسمة فى خليج ليبانتو Lepanto فى ١٧ جمـــادى الأولى سنة ٩٧٩هـــ/ ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م وتفوق التحالف المسيحى على القوات العثمانية ، التى فقدت سفنها وسلاحها وأُسِرَ عدد من رجالـــها ، وتعتبر هذه المعركة من أولى المعارك البحرية التى خسرتـــها الدولـــة العثمانيـــة ، حيث غنم النصـــارى ١٣٠ سفينة عثمانية ، وأحرقوا وأغرقوا ٩٤ سفينة ، وغنموا ٣٠٠ مدفع ، وأســـروا ثلاثـــين ألفًـــا من الجند العثمانى ، لكن الدولة العثمانية سارعت فى تضميد جراحها واستعادت مجدها وبدأت فى بناء أسطولها البحرى(٣) .

إن جهـــود الدولة العثمانية لفتح الجزر الاستراتيجية فى البحر المتوسط لم تتوقف لأنـــهـــا تـــنطلق من منطلق قيام الدولة العثمانية ذاتها ، فهى تهدف لحماية الأماكن المقدسة وتأمين الطرق المؤدية إليها ، وقد استمرت الحملات البحرية لفتح الجزر المهمة

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلى وآخرون : الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٦-٥٧ .
خليل ســـاحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، ص٣٣٣ ، المرجع السابق .

(٢) - جزيـــرة كـــريت تقع فى الشمال الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، فهى ذات موقع بحرى مهم ، حيـــث تـــتحكـــم فى مضيق الدردنيل ، فتحها العرب ، ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١م ، وفى سنة ١٢٠٤م أخذها البنادقة ، ثم فتحهـــا العثمانيون بعد ذلك .
- أما جزيرة زانطة ، فهى جزيرة تقع بالقرب من مدخل خليج كورنتـــوس إلى الغرب من الجـــزء الســـفلى مـــن الـــيونـــان ، انظـــر : محمد فريد : المرجع السابق ، هامش ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ، وهامش ٣ ، ص ٢٠٢-٢٠٣

(٣) د . محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق ، ص٨١-٨٢ ، وليبانتو : ميناء يقع فى غربى اليونان عند مضيق يعرف بمضيق ليبانتو فى بداية خليج كورنتوس شمال مورة .

فى البحر الأبيض المتوسط والتى تشكل لسبب أو لآخر خطراً على طريق الحاج العثمانى من عاصمة الدولة إسطنبول إلى الأماكن المقدسة ، حيث رأينا البحرية العثمانية تضرب الحصار على جزيرة مالطة وتؤدب قراصنتها ، ثم ترفع الحصار الذى استمر أربعة أشهر ، بعد أن تحققت الغاية منه ، ولكى لا يتأثر رجال البحرية العثمانية من تقلبات فصل الشتاء القارس ، ولاسيما أن المهمة قد نجحت كما خُطِّط لها ، وحين اعترضت مراكب رهبان مالطة قافلة بحرية عثمانية فى طريقها إلى الحج ، وقتلوا الرجال وسبوا الغلمان والنساء ، وقاموا بتنصير الغلمان ، كان غضب السلطان العثمانى قوياً ومؤثراً ، فأمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريت ذات الموقع الجغرافى والحربى الفريد فى البحر المتوسط ، ولتوسطها فى الطريق بين الآستانة والأماكن المقدسة ، وضُرِب الحصار على أهم ثغور الجزيرة وتم فتح أهم مدنها ، ثم ضُرِب الحصار على عاصمة الجزيرة ، وبعد صراع طويل دام نحو خمسة وعشرين عاماً حول هذه الجزيرة ومدنها وقلاعها الحصينة أعلنت فيها العصيان ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى إغلاق مضيق الدردنيل فى وجه البواخر العثمانية كى لا تتجه إلى عاصمة الدولة ولا تخرج منها ، مما يعنى أن طريق الحاج البحرى وطرق التجارة البحرية أصبحت معرضة للأخطار ، إن لم تتمكن الدولة العثمانية من ضم هذه الجزيرة ومدنها ، وبالفعل رجحت الكفة لصالح البحرية العثمانية فتنازلت جمهورية البندقية عن جزيرة كريت للدولة العثمانية عدا ثلاث قرى فى شمال الجزيرة هى - قره بوزا وسودا وسبينالونجا(١) ، إن هذا الفتح العثمانى الكبير لجزيرة كريت وقلاعها الشهيرة، بعد تلك الحادثة الغريبة التى قام بها قراصنة ورهبان مالطة ضد قافلة الحجاج العثمانيين ، يُعطى الدليل الواضح والصريح على سلامة المنهج الذى تسير عليه الدولة العثمانية فى فتوحاتها لتلك الجزر التى تحتل موقعاً إستراتيجياً على طريق الحاج العثمانى ، وطريق التجارة العثمانية فى البحر المتوسط وإلى عاصمة الدولة إسطنبول .

---

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق، الصفحات ٢٤٩ ،٢٨٦- ٢٨٨ ، ٢٩٨ .
يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ١١١ - ١١٤ .
أحمد بن محمد الحموى : فضائل سلاطين بنى عثمان ، ص٤٩-٥٠ ، المصدر السابق .

لقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى ماهية هذه الفتوحات ، بيد أن الرأى الأرجح والمنطلق من القراءة التاريخية المتزنة والمتوازنة ، يرى أن تلك الفتوحات كان مرتكزها الأساسى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة – إسطنبول – إلى الأماكن المقدسة فى مكــة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيمــا أن موانئ البحر الأحمر والموانئ الشرقية من البحر المتوسط – أى سواحل الشام والأناضول– وكذلك الموانئ المصرية ، وكل هــذه المراكــز الــبحرية أصبحت تحت سيطرة ونفوذ الدولة العثمانيــة ، فهذا هو الســلطان مراد الثالث بن سليم الثانى (٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) يبعث بأوامــره القوية إلى قائد الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط : " ... وإننى آمركم بأن تراقــبوا طريق الســفن بين قبرص والإسكندرية والطريق إلى الجزائر ، وألا تسمحوا للكفــار أن يعتدوا على السفن المصريــة أو أيــة سفن أو أراضٍ فى ممالكى ، وعليك أن تبذل مساعيك بحيث تعود أية سفينة تخرج إلى البحر سالمة آمنة "[(١)] ، ولعل تفاعل الدولة العثمانية مع هجمات البرتغاليين البحرية على مداخل البحر الأحــمر الجنوبية ، وانتقال القوة البحرية العثمانية إلى هناك لمــجابــهة هذا الخطر البحرى الجديد ، هو تأكــيد لمــا ذهب إليه البحث من أن الدولة العثمانية كانت حريصة دائماً على تأمين الطــرق البحرية التى يسلكها الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وإذا كان المؤرخــون قد ذهــبوا إلى أن الــتوازن الدولى قد انتقل من البر إلى البحر فى القرن الســادس عشر الميلادى ، فإن حماية الثغور الإسلامية ، وطريق الحاج البحرى من قِبَل الدولة العثمانية فى تلــك المرحلة التاريخية الحاسمة ، هى بلا شك حقائق لا تقبل الجدل ، لأن التوازن الدولى يعكس صورة التحولات التاريخية ويعطى الدليل عليها .

إن أواخر القرن السابع عشر الميلادى كان يمثل نقطة حاسمة فى قوة الدولة العثمانية البحرية ، رغم أن الدولة فى تلك المرحلة كانت فى حروب مع النمسا والبندقية وبعض القــوى الأوروبية البارزة والمستعدة لمواجهتها ، بيد أن مشاكل الدولة العثمانية بدأت فى الازديــاد مــع روســيا مــع مطلع القرن الثامن عشر الميلادى ، وهو ما حدَّ من

---

(١) وثيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – اسطنبول – دفتر المهمة رقم ٣١ – حكم سلطانى برقم ١٩٧ فى شهر رجب سنة ٩٨٥هـ/ أكتوبر ١٥٧٧م .

الفتوحات البحرية فى البحر المتوسط، وقلّل من أهميتها خاصة فى شرق البحر المتوسط، ومـــع هذا كله ومع الضعف الذى بدأ يظهر على الدولة بشكلها العام إلا أن منهجية الحفـــاظ عـــلى طـــريق الحاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة لم تتغير ، والوثائق العثمانية المحفوظة فى أرشيف رئاســـة مجلس الوزراء العثمانى فى إسطنبول تؤكد هذه الحقيقة العلمية التى ذهب إليها البحث ، فهذا هو الحكم رقم ٧٩١ فى أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـــ والموجه إلى أمـــير الحـــاج المصرى إبراهيم بك من السلطان العثمانى ، يقول : " اعلم أيها الأمير الموصـــى إلـــيه بأن ذهاب وإياب من شد عزيمته لأداء فريضة الحج من الحجاج ذوى الابتهاج بالأمن والسلامة وحفظهم وحراستهم وحـــمايتهم وصيانتهم على ما ينبغى أمـــر معظم من أمور مصالح المُـــلْك والملة ومن مهام اشتغال الدولة والسلطنة ، وقد أحـــيل على عاتقك وفوض إليك حماية وصيانة الحجاج ذوى الابتهاج الناهضين من مصر القاهرة ، فكن على بصيرة وعلى يقظة وأمّن مسالك الحج بعون الله واسهر على حفـــظ الحجـــاج وصيانتهـــم فلا يلحق بفرد منهم أذى وابذل قصارى جهدك على ذهابهم وقفولهم برفاهية حال وفراغ بال "[١].

وفى حكم آخر إلى والى مصر من السلطان العثمانى تأكيد واضح على أهمية تأمين الأسلحة والمعدات والذخيرة العسكرية اللازمة لتأمين السفن القادمة والمغادرة من وإلى مينائى ينبع وجدة ، لا سيما أن هـــذه السفن تنقل الحجـــاج القادمين لأداء فريضـــة الحـــج[٢] ، ليس هذا فحسب وإنما كان هناك اهتمام من الدولة العثمانية بتأمين أفضل المراكـــب للحجاج القادمين من عاصمة الدولة ، ففى الأمر السلطانى الصادر إلى قائم مقـــام الآســـتانة وإلى القـــبودان باشا توجيه صريح بتجهيز السفن الكبيرة والجديدة الموجودة فى موانئ العاصمة إسطنبول وحتى لو لم تكن سفنا عثمانية خاصة أو أميرية ،

---

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - حكم سلطانى برقم ٧٩١ أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـــ / أوائل سنة ١٦٩٣م .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٨٠- حكم سلطانى برقم ٦٨٢ فى أواخر ربيع الثانى سنة ١١٠٩هـــ .

واستئجارها للحجاج وإرسال قوة عسكرية لحمايتها حتى تصل إلى الموانئ المصرية فى أمن وأمان لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد المصطفى ﷺ[١] .

مـــن هـــنا يتأكد لنا أن الدولة العثمانية لم تَـــغفُلَ فى أى يوم من الأيام عن تأمين طريق الحاج البحرى من عاصمة الدولة – إسطنبول – أو أى ميناء من موانئها الكثيرة إلى الحـــرمين الشـــريفين ، وكـــان ذلك هو ديدنها وتعتبره فخراً لها حتى فى مراحلها التاريخية المتأخرة لم تَغْفل عنه ، فهى تطلب من قائم مقام ينبع البحر على شاطئ البحر الأحمـــر أن يبذل قصارى جهده وكل طاقته لحماية الحجاج القادمين إلى الميناء ، فهذا العمـــل من واجبات الدولة المقدسة[٢] ، وفى نفس الوقت تؤكد على والى الحجاز أن يُكَلّـــف قادة السفن العثمانية فى البحر الأحمر بتعليق العلم العثمانى ذى الهلال والنجم عند سفرها وقدومها لأهمية أمنها وأمن القادمين عليها من الحجاج المسلمين[٣] .

* * *

---

(١) وثيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – إسطنبول – دفتر المهمة رقم ١١٠ – حكم سلطانى برقم ٢٥٤ فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١١١٠هـــ .

(٢) وثيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – إسطنبول – دفتر العينيات رقم ٨٧٣ صفحة ١٤٤ فى ٤ صفر سنة ١٢٩٠هـــ

(٢) وثيقة عثمانية – الأرشيف العثمانى – إسطنبول – دفتر العينيات رقم ٨٧٦ صفحة ١٢ فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٩٢هـــ .

الوثائق والمصادر والمراجع

(أ) ـ الوثائـق :

١- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية .
٢- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٧ - الفرمان رقم ٣٧٣ .
٣- الأرشيف العثماني - اسطنبول - كبه جى - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس- صحيفة رقم ١٨٧ .
٤- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٣١ - الحكم السلطاني رقم ١٩٧ .
٥- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٣٤٨ .
٦- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٧٩١ .
٧- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١١٠ - الحكم السلطاني رقم ٢٥٤ .
٨- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٨٠- الحكم السلطاني رقم ٦٨٢ .
٩- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٣ .
١٠ـ الأرشيف العثماني ـ اسطنبول ـ دفاتر العينيات ـ رقم ٨٧٦

(ب) ـ المصادر والمراجع العربية والمعربة :

١- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .
٢- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل .
٣- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ؛ تحقيق د.عبداللطيف الحميد ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
٤- السيد أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ط ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة .
٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م دار الشروق ، القاهرة .
٦- أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، نُشر في إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م .
٧- أحمد بن محمد الحموي :فضائل سلاطين بني عثمان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م - دار الكتاب الجامعي ، القاهرة .

٨- أرغون : المصابيح المنيرة فى تواريخ القرون الأخيرة، ترجمة حنفى هند بن إسماعيل ب.ت.ن.

٩- أكمل الدين إحسان أوغلى وآخـرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضـارة ، ترجمة صالح سعداوى ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إستانبول .

١٠- بـرنـارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجـمة د.سيد رضوان على ، الطـبعة الثانـية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

١١- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .

١٢- خلف بن دبلان الوذينانى : الفتح العثمانى لجزيرة رودس ، معـهد البحوث وإحياء التراث الإسلامى جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

١٣- خلـيل سـاحلى أوغلـى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

١٤- رزق الله منقريوش الصدفـى : تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ/١٩٠٨م .

١٥- روبـير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجـمة بشير السباعى ، ط١، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

١٦- زيـاد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

١٧- زيـن نـور الدين زين : الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، الطبـعة الثانـية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

١٨- سـهيـل صابـان : المعجم الموسوعى للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ط ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

١٩- صـولاق زادة : تاريخ صولاق زادة ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، إسكودار ، إسطنبول .

٢٠- عاشق باشـا زاده : تـواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـ ، مطبعة عامرة .

٢١- عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت.ن.

٢٢- عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي : منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ، الحولية الثامنة عشرة من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٢٣- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .

٢٤- عبدالقادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .

٢٥- فيصل بن عبدالله الكندرى : تحقيق مخطوط " منح البرية فى فتح رودس الأبية " ، ترجمة للرسالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلبى : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابى سراى إسطنبول .

٢٦- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكى ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

٢٧- كلشنى : كلشن معارف ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

٢٨- محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٢٩- محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

٣٠- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ، دراسة وتحقيق د. يوسف بن على بن رابع الثقفى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

٣١- محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

٣٢- محمد بن عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

٣٣- محمـــد فريـــد : تاريـــخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .

٣٤- محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، وقــدم لــه د. أحــمد عزت عبد الكريم ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

٣٥- محمـــد كمـــال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م.

٣٦- محمـــد مصـــطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، منشـــورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن.

٣٧- يــلمـــاز أوزتـــونـــا : تـــاريخ الدولة العثمانيـــة ، منشـــورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣٨- يوسف آصـــاف : تاريخ سلاطـــين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(ج) - المراجع الغير عربية :

1- محمد نشرى : جهان نما " تاريخ نشـــرى " F.R.UNAT-M.A. " Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II.
2- Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Bäşkanligi Yayinlari
3- Osmanli Devletinin-Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.Ankara - 1988
4- Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , **Second Edition , 1971**

عرض الكتب



Mine Ener : Managing Egypt's Poor and the Politics of Benevolence 1800 - 1952, Priceton University Press 2003 (pages 195)

هذا كتاب فريد لمؤلفته "مينا إنر" (١٩٦٥ - ٢٠٠٣) التركية الأصل، الأمريكية الجنسية التى رحلت عن عالمنا فى ظروف مأساوية ، قبل أن يصدر الكتاب بشهور قليلة، وهو - فى الأصل - رسالة دكتوراه فى التاريخ الاجتماعى .

ويقع الكتاب فى خمسة فصول وخاتمة ضمنتها الباحثة ما توصلت إليه من نتائج . فخصصت **الفصل الأول** : للمفاهيم المتصلة بمواجهة مشكلة الفقراء فى مصر ، فحاولت أن تميز بين مفاهيم « الإحسان » ، و « العمل الخيرى » ، و « البر » ، واتخذت من الثقافة الإسلامية عامة والتراث الثقافى المصرى خاصة إطارًا لشرح هذه المفاهيم . وقدمت فى **الفصل الثانى** : أسس التمييز بين الفقير الذى يستحق المساعدة ، والفقير الذى لا يستحق ذلك ، فتناولت فى الفريق الأول الشحاذين وأصحاب العاهات والعاجزين عن العمل والأرامل واليتامى ، وعرضت لأوضاع الفريق الثانى من فقراء أهل الحرف . وفى **الفصل الثالث** : قدمت دراسة لنزلاء تكية ابن طالون وأوضاعهم كما استخلصتها من الوثائق المصرية . وفى **الفصل الرابع** : تناولت مشكلة الفقر فى مصر أسبابها والشرائح الاجتماعية المندرجة فيها ، وجعلت من **الفصل الأخير**: دراسة لما طرح على الساحة المصرية من مقترحات وسياسات لمواجهة مشكلة الفقر سعيًا وراء التخفيف من آثارها السلبية على مستقبل البلاد .

وفى **خاتمة الكتاب** : ربطت الباحثة بين أسلوب معالجة مشكلة الفقر فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وأسلوب معالجتها فى القرن العشرين ، فعلى حين كان هم الحكومة إيجاد مأوى للشحاذين والمتسولين يقيهم شر الوقوع فى شباك الإرساليات التبشيرية التى استهدفت العمل بين الفقراء ، والحرص على عدم اندفاعهم لارتكاب

الجرائم عن طريق جمعهم فى التكايا التى أقامها الحكام وأهل الخير من الأثرياء ، وأوقفوا علـيها الأوقاف ، هذا فضلاً عن آليات الإحسان المختلفة التى حددها الدين ودورها فى مسـاندة الفقـراء ؛ فسياسات مواجهة الفقر فى القرن التاسع عشر كانت غائبة ، وكانـت مواجهـة الفقر متروكة للمجتمع ، تعتمد على مبادرة القادرين فيه على البر والإحسان والخيرات .

وفى القـرن العشرين بدأت الأحزاب السياسية تهتم بمشكلة الفقر ، لا سيما لإيجاد حـل لها ، ولكن لكسب أصوات الفقراء فى الانتخابات عن طريق مساهمة رجالات الأحزاب فى أعمال البر ، وسجلت الباحثة ما توصلت إليه من أن معالجة مشكلة الفقر باعتبارها حجر الزاوية فى التنمية لم تعرفها مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ .

والكـتاب يعـتمد على الوثائق المصرية والدوريات والعديد من الدراسات التى تناولت تطور مصر الاجتماعى .



« برنارد لويس » : أين الخطأ ؟ التأثير الغربى واستجابة المسلمين

ترجمة محمد عنانى ، الناشر سطور ، القاهرة ٢٠٠٣ (٢٦٩ صفحة)

صـــدرت الطبعة الإنجليزية من هذا الكتاب فى خريف ٢٠٠١ ، عشية حادث ١١ سـبتمبر الـــذى مـــثل ساعة الصفر لانطلاق « المحافظون الجدد » لتنفيذ مشروعهم الإمـــبراطورى التوسعى تحت مسمى « الحرب على الإرهاب » . لذلك تلقفت أيدى القـــراء فى الغرب الكتاب عند صدوره ، فى ظروف كان الجميع فيها يسعون إلى فهم موقف الإسلام والمسلمين من الغرب .

وصـــاحب الكـــتاب هو المستشرق البريطانى الأشهر "برنارد لويس" الذى أوقف حياته منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على تقديم صورة سلبية للإسلام، هدفها : استثارة القارئ الغربى ضد الإسلام وأهله . والكتاب الجديد يردد مقولات المؤلف السابقة التى نشرها فى كتب عديدة منها : « الإســـلام والغرب » و « الإســـلام فى التاريخ » ، و «اكتشاف المسلمين لأوروبا» و «اللغة السياسية للإسلام» ، و «ثقافات متصادمة» وكلها ظاهرها علمى وباطنها سياسى ، كتبت لخدمة الصهيونية ، وحشد تأييد الرأى العام الغربى لها .

والكتاب يقع فى سبعة فصول ، عالج أولها ما أسماه المؤلف: «دروس ساحة القتال» وفـــيه يركز على العداء القديم بين العثمانيين وأوروبا الذى بلغ ذروته بهزيمة العثمانيين أمـــام أســـوار فينا عام ١٦٨٣ ، وكيف ولدت هذه الهزيمة روح الثأر عند المسلمين، وجعلـــتهم يكـــنون الكراهية للغرب ويتحينون الفرص للانقضاض عليه . وفى الفصل الثانى يتحدث عن مرحلة الاستعمار الغربى الذى كان يستهدف جنى الثروات والتزود بأســـباب القوة ، وكانت بلاد المسلمين مسرحًا لـــه ، مما زاد من إحساس المسلمين بالكراهية نحو الغرب ، وتحميله مسئولية ما أصابهم من تخلف وضعف ، وفى الفصلين : الرابع والخامس تناول محاولات التحديث ، وبناء الدولة الحديثة فى بلاد الإسلام ، وإن

انصـــرف اهتمامه على العالم العربى ، وفى الفصل الأخير : تناول مظاهر التغير الثقافى من وجهة نظره .

وفى خاتمـــة الكـــتاب : يلقى "برنارد لويس" بكل ما فى سلته من مقولات تقود القـــارئ الغربى إلى نتيجة واحدة : فالمسلمون قوم أوغاد بطبعهم يكرهون الآخر الذى يخـــتلف معهـــم فى الديـــن ، ويريدون تدمير الغرب ، وذبح اليهود انتقامًا لعجزهم وتخلفهم . ويتجلى عداؤهم للسامية فى رفضهم القبول بالكيان الصهيونى ، ومشكلتهم الأساســـية هى ثقافتهم التى تجعلهم لا يندمجون مع الآخر . فإذا أراد المسلمون صلاحًا لأمرهم فعليهم تبنى الثقافة العصرية (الغربية) ، وإلا أصبحوا عرضة للسيطرة الأجنبية ، علـــيهم أن يكفـــوا عن الشكوى ، وإلا سيكون مصيرهم مصير « من يفجر نفسه والآخرين بقنبلة » !

وترجمة الكتاب إلى العربية تساهم – دون شك – فى توعية القارئ العربى بأصول أيديولوجـــية الهيمنة الغربية الحديثة ، ويستحث الهمم على مواجهتها بتصحيح صورة المسلمين عند الرأى العام الغربى .

ر . ع

«إيريك هوبسباوم» و«تيرنس رينجر» (محرران) : اختراع التراث دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع

ترجمة "شيرين أبو النجا وآخرين" ، مراجعة وتقديم : "عاصم الدسوقى"
نشر مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، جامعة القاهرة ،
القاهرة ٢٠٠٤ (٤١٦ صفحة)

هذا كتاب تولى الإشراف على تحريره مؤرخ بارز ، ومتخصص فى التراث ، نشر بالإنجليزية عام ١٩٩٣ ، وترجم إلى العربية ونشر عام ٢٠٠٤ .

والكتاب يعرض فى فصوله السبعة لإشكالية أبعاد التراث الثلاثة : الموروث ، والمنقول ، والمخترع ، ومدى إمكانية اعتبار التراث من المقدسات ، وأى تلك الأبعاد تضفى عليه هذه الصفة . وتتناول دراسات الكتاب : أوروبا وأفريقيا والهند ، ليقول لنا : إن ما نظنه موروثًا ثقافيًا وتقاليد واجبة الاحترام ما هى إلا اختراع من صنع القوة المسيطرة التى تفرض نموذجها فى الحياة على الآخرين ليكونوا نسخة مشابهة ، ولكن تحت هيمنة القوة المسيطرة .

وكشفت لنا تلك الدراسات كيف أن القوة المسيطرة فى أى بلد أوروبى صنعت تراثًا من عندها ، وهيأت لـه أسباب السيادة ، وكيف قامت تلك البلاد بنقل تراثها المصطنع معها إلى مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا والأمريكتين ، وأوجدت هناك عناصر أو نخب تثاقفت معها ، وجدت تلك العناصر - فى محاكاة القيم الوافدة - مصلحة لها على حساب تراثها الوطنى ربما بدافع الإحساس بالنقص أمام قوة القهر الاستعمارى ، مما يترتب عليه صراع فى تلك البلاد بين الثقافة الوطنية وثقافة المستعمر الوافدة .

وينتهى الكتاب بالدعوة إلى إعادة النظر فى كل مقولات الثقافة والتقاليد فى بلاد أخرى ، غير البلاد التى وردت فيها فى الدراسات التى شملها الكتاب ، وخاصة أن الكتابات فى هذا المجال نادرة فى الأدبيات السوسيولوجية والإنثروبولوجية ، مع غياب هذا الجانب فى الموسوعات .

وعلى الرغم ما قد يبدو من « تأصيل » لفكرة « اختراع » التراث فى هذا الكتاب ، وعدم تناوله لبلاد عربية أو إسلامية ، إلا أنه يوجه رسالة - على درجة كبيرة من الخطورة - تتوافق مع « عصر العولمة » الذى يدعو إلى تغليب الثقافة التى ثبتت قوتها وتفوقها فى عصر الحضارة الرقمية ، ويقصد بها الحضارة الغربية ، ويقدم أطروحة (علمية) لمواجهة الدعوات إلى مقاومة العدوان على الثقافات الوطنية ، ومحاولة مسخها وإهدار هوية الشعوب . فإذا كان التراث مبتدعًا مصطنعًا ، تكون من خلال عملية تاريخية معقدة ، فما جدوى الحرص على بقائه والتمسك به ؟

ومن هنا ، تأتى أهمية ترجمة هذا الكتاب ، وإتاحته فى المكتبة العربية ، حتى نقف على الأطروحات الفكرية التى تخدم التوسع الغربى الجديد فى عصر العولمة .

ر . ع

« مجدى حماد » : جامعة الدول العربية ، مدخل إلى المستقبل

عالم المعرفة ٢٩٩ ، الكويت ، يناير ٢٠٠٤ (٥٢٠ صفحة)

هذا كتاب جاء ليلبى حاجة ماسة فى واقعنا العربى المعاصر ، صاحبه باحث متميز فى العلوم السياسية ، وممن توفرت لهم خبرة واسعة بشئون جامعة الدول العربية طوال عمله فيها ، فهو يجمع هنا بين الدراسة والتجربة معًا ، مما يعطى الكتاب أهمية خاصة .

ويركز البحث على «مؤسسات» النظام العربى من زاوية ارتباطها بمسألة ؛ ولذلك يتخذ من إنشاء الجامعة نقطة انطلاق ، كما يركز عليها باعتبارها أولى وكبرى « مؤسسات » النظام العربى من ناحية ، وباعتبارها تعكس ظروف مؤسسات النظام العربى الأخرى وأحوالها ، من ناحية أخرى . فلا شك أن مرور ستة عقود على إنشاء الجامعة ، وما تفرع عنها ، أو نشأ بجانبها من مؤسسات ، أعطى المؤلف فرصة كافية لتقييم دور الجامعة فى الوطن العربى ، وتحليل أسباب الانتقادات التى توجه إليها ، ورده إلى أصوله ودوافعه ومراميه .

وينقسم الكتاب إلى ستة فصول ، خصص الفصل الأول منها : لدراسة أصول أزمة الجامعة ؛ وتناول فى الفصل الثانى : الجامعة فى علاقة جدلية مع النظام العربى ، محللاً واقع هذا النظام وتأثيره على الجامعة من شتى النواحى . وعرض فى الفصل الثالث: لمحاولات تطوير الجامعة . وقدم فى الفصل الرابع : استشرافًا لمستقبل الجامعة ، وخص عهد عمرو موسى كأمين عام جديد فى ظل نظام قديم ، خصه بالفصل الخامس ، وأخيرًا : جعل من الفصل الأخير إطارًا لما طرح من مبادرات ومقترحات جديدة .

وفى خاتمة الكتاب : دعا المؤلف إلى ضرورة الحفاظ على الجامعة باعتبارها الهيكل التنظيمى الوحيد للنظام العربى ، وباعتبارها الحصن الأخير له، وخاصة أنه خرج من تقييمه للجوانب الإيجابية والجوانب السلبية بترجيح كفة الأولى على الأخيرة ، وخاصة أن من يطرحون الحلول القطرية أو الإقليمية على حساب الحل القومى سوف ينتهى

بهـــم الأمـــر إلى التأكد من أن تحقيق التنمية ، وحماية الاستقلال والسيادة ، فضلاً عن صـــيانة الأمـــن القومى على المستوى العربى - لن يتأتى عن غير طريق العمل العربى المشترك .

ولكـــن ذلك يقتضى : تطوير الجامعة من حيث الآليات والأدوات والأداء ، أى : مـــن حيث بناء منظومة حقيقية وشاملة لمؤسسات العمل العربى المشترك كافة . ولابد أن يتحول دور الجامعة من تنسيق العلاقات العربية إلى دفعها على طريق العمل العربى المشترك .

ر . ع

« عبد الله على إبراهيم » : الشريعة والحداثة
مبحث فى جدل الأصل والعصر

دار الأمين ، القاهرة ٢٠٠٤ (١٧٤ صفحة)

هـــذا كـــتاب لباحث سودانى ، يعالج موضوعًا ندرت الكتابة فيه ، وهو حركة التشـــريع والقـــانون والقضـــاء على مدى القرنين الماضيين . ومجال الكتاب يعد مجالاً مهملاً نحن فى أشد الحاجة إلى أن تتجه جهود الباحثين إليه ، ممن تتوافر لديهم دقة نظر المتخصـــص ، وشمـــول الـــنظرة الثقافـــية العامـــة ، مع التحلى بأكبر قدر ممكن من الموضوعية .

والكـــتاب يتـــناول : منشـــأ التجديد الإسلامى فى السودان الذى يوصف عادة « بالأصـــولية » الإســـلامية . ويعارض الكتاب منهج « التحديث » الذى يرى فى التمســـك بالتراث التقليدى ردة عن طريق التحديد ، ويتناولها تناولاً نقديًا من زاوية ارتـــباط ما سمى بالتحديث بالزحف الغربى على بلاد الإسلام ، الذى استهدف مسخ هويتها ، وبإطار منهجى عالج الدين فى سياقه السياسى والاجتماعى والتاريخى ، ومن ثم أبـــرز فهمـــه للأصـــولية باعتبارها مشروعًا « تحرريًا » على ضوء دراسته للنظام القضائى فى السودان .

ويقـــع الكـــتاب فى سبعة فصول ، عالج الفصل الأول : الأسلوب الذى أدار به القـــانون الوضـــعى خلال الفترة الاستعمارية – ظهره للشريعة الإسلامية ، فيما عده « استشـــراقًا داخليًا » . وتناول فى الفصل الثانى : صراع القضاة الشرعيين والمدنيين والـــتجديد الإســـلامى فى السودان . وفى الفصل الثالث : قدم دراسة تحليلية للتجديد القانونى المستمد من الشريعة ، الذى عده « متقدمًا » مقارنة بما اتسمت به الحداثة من « الرجعية ». وخصص الفصل الرابع : لفكر "حسن الترابى" الذى يقدم رؤية للتجديد

الإسلامى ، على حين قدم فى الفصل الخامس : فكر القانونيين الجامعيين وتأثيره السلبى علـــى قـــوام الجامعة الإسلامية ، وقدم فى الفصلين الأخيرين من الكتاب : نماذج من أفكار "عبد الله الشيخ البشير" ، و"الشيخ مدثر البوشى" .

ومـــن الغريـــب ، أن الكتاب لا ينتهى بخاتمة يقدم فيها المؤلف ما توصل إليه من نتائج، ربما لأن طريقته فى المعالجة كانت انعكاسًا لنتائج توصل إليها من خلال الدراسة والعمـــل السياسى ، ثم راح يعالجها فى الجزئيات التى كونت الفصول السبعة ، ولكن القـــارئ يحتاج إلى استخلاص الرؤية التى تمثل محور الدراسة . كذلك قدم فى موضوع قائمـــة المـــراجع : كـــلمة عامة أشار فيها إلى بعض ما أفاد به من الكتب وبعض من شـــاركهم قضايا الكتاب من الأصدقاء والمتخصصين ، ولكن ما يعطى الدراسة مذاقًا خاصًا إبرازها للخصوصيات الوطنية السودانية ، يضعها فى مكانها الصحيح عن دراسة مصـــر أو غيرهـــا مـــن الأقطـــار العربية الأخرى . وخاصة نظرته إلى تقنين الشريعة الإسلامية باعتبارها : « حركة تحررية » من ثقافة الاستعمار .

ر . ع

الفروسية : الجزء الأول ـ فنون الفروسية فى تاريخ المشرق والمغرب
عَرَّبه وحَرَّره وعَلَّق عليه "شهاب الصرَّاف" ، الرياض

مكتبة الملك عبد العزيز العامة ٢٠٠٢م ، ٢٧٤ صفحة ، ٣٧ × ٢٧سم

يتــناوَلَ هذا الكتابُ مَوْضُوعًا مُهِمًّا هو « الفروسية » بكُلِّ جوانبها المتمثّلَة فى : رُكــوب الخَــيْل وسياستها ، وتَدريب الفارس على استخدام الأسلحة ، وفَنّ الرَّمى بـــالقوس ، والصـــيد بمختلف أنواعه ، واللعب بالكرة والصولجان ، والتى تُعَدّ حَصيلة تــزاوجِ ثقافات شُعُوب المنطقة التى ازْدَهَر فيها الإسلام ، بحيث أضحت نتاجًا فريدًا وأصيلاً للحضارة العربية الإسلامية وتجلياتها فى السِّلْم والحَرْب .

وبذلـــك ، أصبح كُلُّ فَرْعٍ من فروع الفروسية علمًا قائمًا بنفسه ، أشبعه السَّلَفُ بحثًا وتنقيبًا ، ووَضَعوا فيه تصانيف عديدة نَتَج عنها أَدَبٌ مستقل أطلق عليه : « أَدَب الفُرُوسية » .

ويضمّ هذا المجلد : ثلاثين دراسة تتوزَّع على فترة زمنية تمتدُّ من الألف الرابع قبل المـيلاد ، وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، والتاسع عشر للميلاد ، ويتقاسم نطاقها الجغــرافى مناطق الشرق العربى والشرق الإسلامى وامْتداداتها الأسيوية ، وبلاد المغرب العــربى وامــتداداتها الأفريقـــية والأوروبية (أسبانيا) وجاءت مقالاتُه لتُغَطىّ مختلف التَّخَصصـــات كالتاريخ والآثار والفنون الإسلامية مع بعض الإسهامات المتخصصة فى الفن الحربى والسلاح وعلوم الفروسية .

ومـــن بـــين مقالات هذا المجلد أشير إلى مقالة "ديفيد نيكول" المهمَّة عن « حرب الخَـــيَّالة وتطورهـــا فى العصور الإسلامية الأولى » والتى استعرض فيها كاتبها بمنهجية مركـــبة مـــراحل تطوُّر الخيالة والفن الحربى منذ الجيوش الإسلامية الأولى وحتى القرن الســـادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى . ومقال "شهاب الصَّرَّاف" - محرِّر الترجمة العربـــية - عـــن « أدب الفروســـية فى العصرين : العبَّاسى والمملوكى » التى ضَمَّنها خلاصـــة مكـــثّفة لأبحاثه فى الموضوع ، وأثْبَت فيها : أنَّ أدَبَ الفُرُوسيَّة كُتِبَ متنه فى

العصر العباسى ، الذى يعدَ أهم وأزهى عُصُور الفروسية فى تجلياتها ومعانيها المختلفة ، وأنَّ العَصْــر المملوكى أعادَ نَسْخَه وتدويره والإضافة إليه . ويمثل هذا المقال : مقدِّمةً منهجية أولية تعين الباحثين على تلمُّس طريقهم فى هذا المبحث الوَعِر .

وتــناوَل "ألستر نورثيدج" فى مقاله عن « سِباق الخيل وميادينه فى سامَرَّاء » هذا الموضـــوع من زاوية آثارية مع نبذة تاريخية مختصرة ، أمَّا مقالة بياته ســيورت - ماير « ركــوب الخَــيْل فى بداية العَصْر العبَّاسى » فهى نَصٌّ عن ركوب الخَيْل ورياضتها اجــتزئ من مُصنَّف « الفروسية والبيطرة » "لابن أخى حِزام الخُتَّلى" الذى يُعدُّ أقدم نَصٍّ عن فن الركوب وَصَلَ إلينا من العَصْر العباسى الأوَّل .

ويضم هذا المجلّد كذلك مقالاً "لما يكل ما ينكه" عن الرُّنُوك والفروسية فى العصر المملوكــى . حــاول أن يربط فيها بين الرُّنُوك والفروسية ، ومقالاً طريفًا "لروبرت إيروين" عن « أَكْل لَحْم الخَيْل وشُرب لَبَن الأفْراس فى العصر المملوكى » تناول فيها جانــبًا مــن تقالــيد المماليــك الأتراك والمغول وعاداتهم ذات الصِّلَةَ بالخَيْل ، والتى استوطنت معهم فى مصر والشام .

وجــاءت الفروسية العثمانية امتدادًا للفروسية العربية الإسلامية ، ولكن مع شيءٍ من الحَذْف والإضافة ، ويشتمل الكتاب على مقالة واحدة عن « الفُرُوسية العثمانية » "لمايكل روجرز" تناول فيها فِرَق الخيَّالة والخَيْل عند العثمانيين .

وفى المجلــد ، أيضًا عَدَدٌ من المقالات التى تناولت الخَيْل والفروسية من الناحيتين : الفنية والجمالية ، فتناولت "أنّا كونتاديني" فى مقالتها « الخَيْل فى مخطوطتين من كتاب مــنافع الحَــيَوان "لابن بَخْتَيشوع" ، المنمنمات التى تزين هاتين المخطوطتين وقارنت بينهما وبين فَنّ التصوير الإسلامى ، وتُحَدّثنا "تيريز بيطار: عن « مخطوط مُصَوَّر عن عــلم الخَــيْل فى المكتبة الوطنية بباريس مع نَشْر قطعة منه . ويستعرض "محمد عيسى ولى" فى مقالــه « مخطوط فَرَس - ناتة المحفوظ فى المكتبة الملكية بقلعة وندسور » مادَّة هــذا الكتاب المترجم إلى الفارسية من المصنف المملوكى المعروف « كامِل الصناعتين فى البَيْطَرَة والزَّرْدَقَة » لأبى بكر بن البيطار .

ويشتمل المجلد كذلك على عدة مقالات عن تصوير الخُيُول فى إيران والهند فى القرن العاشر الهجرى "لشيلا كانبى" وعن « ظهور مواضيع الصَّيْد فى زخارف السجاجيد والأقمشة الصَّفوية » "لدانييل ووكر" ، وعن « تصوير الخيول على المسكوكات الإسلامية » "لسعود ذياب" .

وخُصِّصَت للحصان العربى مقالتان هما : مقالة "سايمون دغنى" عن « تجارة الخيول العربية فى الهند فى العصر الوسيط » ، ومقالة عَلاَّمَة الجزيرة الراحل الشيخ "حَمَد الجاسر" المعنونة « مخطوطة عباس باشا وأنساب الخَيْل العربية الحديثة » .

أمَّا مُعَرِّب هذا المجلَّد ومُحَرِّره والمُعَلِّق عليه ، فهو الباحث العراقى المعروف فى مجال علوم الفروسية الدكتور "شهاب الصَّرَّاف" مدير المركز الدولى لدراسات الفروسية فى باريس ، الذى أسهم فى الكتاب بمقالة مرجعية أساسية عن « أدب الفروسية فى العصرين العباسى والمملوكى » ، كما جاءَت تعليقاته واسْتدراكاته على ما جاء فى الطبعة الإنجليزية وشروحه المتخصِّصة ، إضافةً إلى الكشافات الفنية التفصيلية التى صَنَعَها للطبعة العربية والتى تخلو منها الطبعة الإنجليزية ؛ لتجعل من الطبعة العربية مرجعًا فريدًا متميزًا لا غنى عنه للباحثين فى علوم الفروسية والفروسية ، العربية الإسلامية بوجه خاصّ .

إنَّ ظهور هذا المجلَّد فى طبعته العربية التى تولّت إخراجه مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، يعدّ بكل المقاييس إضافةً مُهمّةً فى حقل دراسة الفروسية ، هذا العلم الذى مازال فى بداياته ، والذى يحتاج إلى تضافُر جهود المتخصِّصين لرسم حدوده وتثبيت ضوابطه وترسيخ تقاليد بحثه .

أ . ف . س .

العلاقات المصرية الأمريكية

الجزء الأول : الفترة من ٢٣ يوليو١٩٥٢ إلى ٢٢ نوفمبر١٩٦٣ ط ٢٠٠١، ٣٢٠ص

الجزء الثانى : من ٢٣ نوفمبر ١٩٦٣ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ط ٢٠٠١ ، ٣٢٠ص

فطين أحمد فريد على

تدور المحاور الرئيسية لهذه الدراسة حول ثلاثة ثوابت ، لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه مصر وهى :

١ – أن تتخذ الولايات المتحدة من مصر حليفًا طبيعيًا للغرب بهدف إيقاف أية محاولة للزحف الشيوعى تجاه منطقة الشرق الأوسط .

٢ – محاولات التقريب بين مصر وإسرائيل ، والسعى إلى حل منفرد بينهما ، والوقوف ضد فكرة القومية العربية .

٣ – رفض الرئيس عبد الناصر لسياسة التبعية والأحلاف ، ودعوته للقومية العربية واصطدامه بالسياسة الأمريكية تجاه المنطقة ، ومعارضته لوضع ترتيباتها للدفاع عن الشرق الأوسط لإدراكه أنه ليس هناك خطر شيوعي يتهدد مصر .

وتكمن أهمية هذه الدراسة فى مصادرها ، وطريقة كاتبها فى التعامل مع هذه المصادر ، وتوظيفها فى كتابة دراسته . فقد اعتمد كتاب "العلاقات المصرية الأمريكية" على وثائق أصلية لم يتح لأحد الاطلاع عليها من قبل ، منها : وثائق القصر الجمهورى ، ومجلس الوزراء ، ووزارة الخارجية . وقد حاول المؤلف بحكم ما توافر له من خبرة ودراية ورؤية ، وتحليل دراسة ذلك الكم الضخم من هذه الوثائق والخروج بهذه الدراسة التى كشفت لنا النقاب عن العديد من خفايا العلاقات المصرية الأمريكية فى الفترة من ٢٣ يوليو إلى وفاة الرئيس "جمال عبد الناصر" فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بما فيها من علاقات ثنائية تخللها صدام إدارات ومصالح ومواجهات أدارها "جمال

عـــبد الناصر" طوال ثمانية عشر عامًا وهو مرفوع الرأس ، متحملاً مسئوليات وتبعات صدامه مع السياسة الأمريكية التى كانت قد بنت سياستها تجاه مصر منذ أن تصدرت زعامـــة العـــالم الغربى الرأسمالى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية على ثوابت لم تحاول تبديـــلها وهـــى : أنـــه يجب على مصر أن تكون حليفًا طبيعيًا للغرب ، وأن تساير سياســـاته، وأنـــه يجب عليها أن تبنى أيديولوجيتها على ذلك ، غير أن هذا المخطط بســـياسة "عبد الناصر" ودعوته لمواجهة الأحلاف ورفضه التبعية للغرب ، وتشجيعه لحركة القومية العربية ؛ ولذلك برزت حتمية الصدام وتضارب المصالح بين الدولتين .

وتنقســـم هـــذه الدراسة إلى فصل تمهيدى ، وتسعة فصول ، خمسة منها فى الجزء الأول الذى يشمل الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى اغتيال الرئيس الأمريكى "جون كنـــيدى" فى ٢٢ نوفمـــبر ١٩٦٣ وأربعة فى الجزء الثانى الذى يشمل الفترة من ٢٣ نوفمبر ١٩٦٣ وحتى وفاة الرئيس "عبد الناصر" فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ هذا بالإضافة إلى : مقدمة وخاتمة .

وقـــد تعرض الفصل التمهيدى فى هذه الدراسة لجذور العلاقات المصرية الأمريكية مـــنذ بدايـــات القرن التاسع عشر وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، موضحًا أن اهتمام الولايـــات المـــتحدة بمصر كان مقتصرًا – حتى الحرب العالمية الأولى – على الروابط الثقافـــية والتبشـــيرية والـــتجارية والخيرية ومركزًا على تغير هذه العلاقات فى أعقاب الحـــرب الثانـــية ، بعد أن ازداد اهتمام الولايات المتحدة بمستقبل المنطقة السياسى ، فاســـتغلت ظـــروف هذه الحرب ، وقامت بترسيخ أقدامها فى المنطقة ، وخاصة مصر بهـــدف تنمـــية مصالحها ، وإبعاد النفوذ البريطانى عنها واستبداله بالنفوذ الأمريكى ، وذلك عن طريق سياسة الخطوة خطوة ؛ مما أحدث رد فعل لدى بريطانيا التى حاولت وقـــف مـــد هـــذا النفوذ الوافد على المنطقة ولكن دون جدوى ، خاصة وأن القوى الوطنـــية المصرية كانت تميل فى بداية الأمر إلى جانب الولايات المتحدة لاعتقادها أنها تدافع عن حق تقرير المصير ، وتقف بجوار الدول المقهورة وأن فى إمكانها الضغط على الحكومة البريطانية لتسوية المسألة المصرية .

ومن أجل ذلك ، حرص الرئيس الأمريكى "روزفلت" على لقاء "الملك فاروق" فى طريق عودته من «مؤتمر بالتا» فى ١٣ فبراير ١٩٤٥ فى عرض البحيرات المرة بقناة السويس، كما ازدادت روابط هذه العلاقات برفع درجة التمثيل الدبلوماسى بين مصر والولايات المتحدة فى يونيو ١٩٤٦ من مستوى المفوضية إلى مستوى السفارة . ومع أن الولايات المتحدة مارست ضغوصًا على بريطانيا لوضع حل للمسألة المصرية ، فقد ساور الرأى العام المصرى الشكوك من المواقف الأمريكية ، خاصة بعد أن ماطلت الولايات المتحدة فى إمداد مصر بالسلاح ، وبعد أن اتضحت نواياها تجاه مساندة إسرائيل . ونتيجة لذلك ، وقعت مصر معاهدة الضمان الجماعى العربى فى ١٣ إبريل ١٩٥٠ وردت الولايات المتحدة على ذلك بإصدار بيانها المعروف بالبيان الثلاثى ، والذى تضمن حماية وجود إسرائيل فى المنطقة . وفى هذا الجو غير الودى كان من الصعب تطوير علاقات مصر بالولايات المتحدة إلى الأفضل مما دفع الإدارة الأمريكية إلى البحث عن طريق لتنظيم الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط بإنشاء قيادة متحالفة للشرق الأوسط ، تشترك فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا على أن تكون مصر مقرًا للقيادة المتحالفة ، وأن يتم إقناع مصر بضرورة الانضمام إلى هذا الحلف ، ولكن إنشاء الغرب لإسرائيل ودعمه لها ، بذر بذور الشقاق بين الطرفين ، ووقف حائلاً دون تحقيق ذلك .

ورسم الفصل الأول المعنون : « الولايات المتحدة ومرحلة التقارب » عدم استقرار الأحوال فى مصر قبيل قيام الثورة ، ونجاح الولايات المتحدة فى تقويض التأثير الإنجليزى على "الملك فاروق" ، وقناعتها بأن ما حدث فى ٢٣ يوليو ضد الملك أمر داخلى ، ورفضها تأييد أى تدخل بريطانى لإنقاذ عرش الملك ، واستمرار دورها النشط فى تحريك عملية التفاوض مع الإنجليز ودفعها إلى الأمام ، وإعلان تأييدها للنظام الجديد فى مصر وزيادة المعونات الاقتصادية والعسكرية له بشرط اشتراك مصر فى التخطيط للدفاع المشترك عن الشرق الأوسط للحيلولة دون وقوع المنطقة فى أيدى الشيوعيين ، وتشجيع مصر لعقد اتفاق سلام مع إسرائيل .

وتعـــرض هذا الفصل لإدارة الرئيس "أيزنهاور" ، ورغبتها فى تحقيق الاستقرار فى الشـــرق الأوســـط ، مـــع الاحتفاظ بوضع منابع البترول فى يد الولايات المتحدة ، ومعارضـــة مصـــر لوضـــع ترتيبات للدفاع عن الشرق الأوسط ، وتصميم الولايات المتحدة على الاضطلاع بدور قيادى فى المنطقة ، ووصول "دالاس" إلى القاهرة حاملاً معه المشروع الخاص بالدفاع عن الشرق الأوسط، واستقبال مصر لهذا المشروع بفتور، ورؤيـــتها بأن الدفاع عن المنطقة لابد وأن يستند أساسًا إلى دول المنطقة ، واقتراحها بأن اتفاقية الدفاع المشترك القائمة بين الدول العربية هى البديل عن أى تحالف آخر .

وبالـــرغم من استمرار الحكومة المصرية فى طلب السلاح من الولايات المتحدة ، فقد أدت مماطلة الولايات المتحدة فى الاستجابة لهذا الطلب إلى تحذير "عبد الناصر" من أن مصـــر قد تلجأ إلى الكتلة السوفيتية للحصول على السلاح ، وخلال ذلك أمكن الاتفـــاق بـــين مصر وبريطانيا على انسحاب القوات البريطانية من منطقة القناة على مراحل خلال عشرين شهرًا من توقيع الاتفاقية ، فى نظير التزام مصر بالدخول شريكًا فى الدفاع المعادى ضد السوفييت ، وسعادة الولايات المتحدة بهذا الاتفاق وإعلانها عن فـــتح باب المعونة الأمريكية لمصر ؛ نظرًا للدور المهم الذى يمكن أن تلعبه فى ترتيبات الدفاع عن المنطقة ، وعلى أمل احتواء الثورة المصرية .

وتعرض الفصل الثانى المعنون : « الولايات المتحدة ومحاولات الاحتواء » إلى فشل المفاوضـــات حول المعونة العسكرية الأمريكية لمصر ، وتناقض المقترحات التى قامت علـــيها السياســـة الأمريكية والمصرية بالنسبة لهذه المعونة ، وتشدد مواقف الولايات المـــتحدة تجاه مصر ، وإعراب الاتحاد السوفيتى عن استعداده لإمداد مصر بالسلاح ، والعدوان الإسرائيلى على غزة ورغبة الدول الغربية فى فرض إجراء تسوية نهائية للقضية الفلسطينية ، والتزام مصر بسياسة الحياد الإيجابى ، وسفر "عبد الناصر" إلى باندونج ، وتوسط رئيس وزراء الصين لإمكانية حصول مصر على سلاح من الاتحاد السوفيتى ، وإرســـال بعـــثة عسكرية مصرية إلى موسكو بعد رفض الولايات المتحدة إمداد مصر بالسلاح ، والاتفاق سرًا على أن تكون تشيكوسلوفاكيا هى المورد للأسلحة السوفيتية

لمصـــر ممـــا زاد من حرج موقف الغرب ، خاصة وأن هذه الصفقة قد أدت إلى انهيار السياســـة الأمريكية البريطانية فى المنطقة ، وإدخال الاتحاد السوفيتى لأول مرة فى محور السياســـة العربية . وأنه نتيجة لتردد الغرب فى مساعدة مصر لبناء السد العالى اتفقت مصر مع الاتحاد السوفيتى على تمويل هذا المشروع ، كما اتخذت خطوة كبرى أخرى بالاعـــتراف بالصـــين الشعبية ؛ مما أثار حالة من الغليان لدى الخارجية الأمريكية التى كانت تعد العدة لسحب قرار تمويل السد العالى .

وتـــناول الفصـــل الثالث المعنون : « سياسة التهدئة وفشل محاولات الاحتواء » موضـــوع سحب الولايات المتحدة عرضها لتمويل السد بهدف معاقبة "عبد الناصر" بعـــد اعترافه بالصين الشيوعية ، وعقده صفقة الأسلحة مع السوفييت ، ولإجبار مصر عـــلى الســـير فى ركاب الغرب ، مما أدى إلى استفزاز "عبد الناصر" ، ورده السريع والمباشـــر عـــلى القرار الأمريكى بتأميم شركة قناة السويس . كما تناول هذا الفصل مؤتمـــر لـــندن الأول ، وطـــرح وزير الخارجية الأمريكى «دالاس» حلاً لأزمة قناة السويس، يتضمن : وضع القناة تحت إدارة دولية تشمل مصر ، وأن تكون لهذه الهيئة صـــلة بالأمم المتحدة على أن تتشكل بموجب معاهدة ينص فيها على أن تكون إدارة القناة طبقًا لاتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨ ، وعدم سيطرة أية دولة منفردة أو مجموعة من الـــدول عـــلى الهيئة، وأن تفتح القناة لجميع الدول وحذر « دالاس » من أن عملية التأمـــيم يمكن أن تقطع الموارد الاقتصادية الحيوية عن دول كثيرة فى الغرب ، وانتهاء هـــذا المؤتمـــر بتشـــكيل لجـــنة لتحرى موقف مصر من الاقتراح الأمريكى ، ومدى استعدادها للموافقة على الدخول فى مفاوضات على أساسه ، وإدلاء الرئيس الأمريكى « أيزنهاور » بتصريح تحدث فيه عن تدويل قناة السويس ، واحتجاج الحكومة المصرية على هذا التصريح ، وتراجع الولايات المتحدة عن موقفها .

وَتَطَـــرَّقَ هـــذا الفصل إلى بعثة رئيس الوزراء الاسترالى « روبرت متزيس » إلى مصـــر، وفشـــل هـــذه البعثة فى مهمتها ، ثم اعتراضات مصر على مشروع "جمعية المنـــتفعين" الذى اعتبرته اعتداء على سيادتها وحقوقها ، وإعلان الاتحاد السوفيتى عن

رغبته فى المساهمة فى الوصول إلى تسوية سلمية وبروز الخلافات بين الولايات المتحدة وبريطانيا بشأن الحل الأمثل لهذه المشكلة ، وإلى عقد مؤتمر لندن الثانى فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٦م وفشله ، وانتقال الأزمة إلى الأمم المتحدة ، ومحولات مصر الدبلوماسية لإقناع الولايات المتحدة باستعمال نفوذها للضغط على بريطانيا وفرنسا لمنع حدوث حرب ، وبذل جهودها لمساندة المساعى السلمية ، بما يصون حقوق مصر وسيادتها مع ضمان الملاحة فى القناة، ورغبة الجانب السوفيتى فى ضرورة الوصول إلى حل سلمى تقبله جميع الأطراف المعنية ويحفظ سيادة مصر ومصالح مستخدمى القناة ، وبروز علامات الخلاف بين موقف الولايات المتحدة وكل من بريطانيا وفرنسا بشأن تسوية المسألة ، فبينما كانت الولايات المتحدة تسعى إلى تسوية المشكلة بالطرق السلمية كان الجانب البريطانى والفرنسى يسعى إلى الحرب واستخدام القوة ضد مصر ، بالتعاون مع إسرائيل تم اتضاح سيناريو العدوان فى فجر يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حيث بدأ الهجوم الإسرائيلى على مصر ، وما أعقبه من إنذار بريطانى فرنسى إلى مصر وإسرائيل بالابتعاد بقواتهما عشرة أميال إلى شرق قناة السويس ، ورفض مصر للإنذار وتحول الأمور إلى منزلق خطير .

وشمل الفصل الرابع المعنون «العدوان الثلاثى وتأجيل المواجهة الأمريكية المصرية» موقف الولايات المتحدة من العدوان ، ودعوتها لعقد جلسة لمجلس الأمن بصفة عاجلة، وتقدمها بمشروع يطالب إسرائيل بالانسحاب فورًا إلى ما وراء خطوط الهدنة، والامتناع عن استخدام القوة ، واجتماع مجلس الأمن وفشل المشروع الأمريكى بسبب الفيتو البريطانى الفرنسى ، وتبنى مجلس الأمن لمشروع القرار اليوغوسلافى ، واجتماع الجمعية العام للأمم المتحدة وصدور قرارها بانسحاب القوات المعتدية وتطهير القناة ، وتلكؤ المعتدين فى تنفيذ القرار ، والإنذار السوفيتى إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بضرورة الامتثال لقرار الأمم المتحدة . كما تعرض هذا الفصل للسياسة الجديدة التى رسمتها الولايات المتحدة لمنطقة الشرق الأوسط ، ورغبتها فى إقامة نظام جديد فى المنطقة تتحمل فيه المسئولية وحدها ، واستمرارها فى الضغط على بريطانيا لتعلن موعد انسحابها ، وانتهاء المداولات البريطانية الفرنسية بإصدار بيان فى

٣ ديسمبر ١٩٥٦ أعلنا فيه إمكانية الجلاء عن مصر ، وتفكير الولايات المتحدة فى العمل على معاونة بلاد منطقة الشرق الأوسط لرفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى لشعوبها وكسب صداقتها وثقتها ، مما يساعد على تدعيم الأمن والاستقرار ويحول دون الخطر الشيوعى ، وانسحاب إسرائيل من سيناء بعد أن أكدت لها الولايات المتحدة حق المرور فى مضايق العقبة ، ومحاولات "أيزنهاور" تغيير مسار سفينة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، ورغبة عبد الناصر فى تقوية علاقاته مع الولايات المتحدة وفتح صفحة جديدة معها بشرط عدم ارتباط مصر بالأحلاف ، واصطدامه مع مشروع "أيزنهاور" لملء الفراغ الناتج عن انحسار النفوذ البريطانى فى منطقة الشرق الأوسط ، ومع رغبة الولايات المتحدة فى أن تكون صاحبة الكلمة الأولى فى المنطقة وتلويحها باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد مصر إذا رفضت مصر المشروع ورفض مصر للمشروع وإعلان عبد الناصر أن أى دفاع عن المنطقة ينبعث من صميم المنطقة دون تدخل خارجى ، وانعدام الثقة بين البلدين والشعور الأمريكى بالنفور من أسلوب الحكم بمصر ، والدعاية المصرية المعادية للولايات المتحدة.

وتناول هذا الفصل أيضًا : اشتراط إسرائيل الانسحاب من شرم الشيخ وخليج العقبة بحقها فى الملاحة فى هذا الخليج ، وضغوط الولايات المتحدة بشأن وضع قوات طوارئ دولية فى غزة وشرم الشيخ ، وضمان حق إسرائيل فيما أسمته حق المرور البرىء الحر فى مضيق تيران وخليج العقبة . وفى أن مياه خليج العقبة دولية ، وأنه ليس من حق أية دولة أن تمنع المرور فيه ، كما تناول انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة ، ودخول القوات الدولية منطقة شرم الشيخ ، ومحاولات الولايات المتحدة السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى قناة السويس ، ورفض مصر لذلك وبروز الاتفاق بين الأهداف الأمريكية المباشرة والإسرائيلية ، ولجوء الولايات المتحدة إلى أساليب الضغط والتهديد ومحاولات فرض الهيمنة ، والإجراءات التى اتخذتها ضد مصر بإعلانها تجميد الأموال المصرية الموجودة لديها ، ورفضها طلب مصر تزويدها بالغذاء والأدوية لمواجهة الأوضاع السيئة التى كانت تعانى منها بسبب العدوان الثلاثى ؛ مما اضطر "عبد الناصر" إلى طلب المعونة من الاتحاد السوفيتى مع ميله إلى التهدئة تجاه الولايات المتحدة .

وركز الفصل الخامس المعنون : « مرحلة المواجهة (مصر ناصر ومواجهة سياسات الولايات المتحدة) » على تتابع الأحداث فى الشرق الأوسط وخشية الولايات المتحدة من سيطرة الشيوعيين على أنظمة الحكم به بعد محاولات قلب نظام الحكم فى سورية ، والهجمات الدعائية عليها ، وقيام الوحدة بين مصر وسورية فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وانتخاب « جمال عبد الناصر » رئيسًا لدولة الوحدة وانطلاق صيحات القومية العربية المنادية بالحرية والاشتراكية والوحدة ، ثم قيام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى بيروت بالعمل ضد نظام الحكم فى مصر مستغلة فى ذلك نظام « كميل شمعون » فى لبنان الذى طلب رسميًا من الرئيس الأمريكى إنزال قوات أمريكية فى بيروت لحفظ الأمن فيها .

وتعرض هذا الفصل لأنباء الانقلاب الذى أطاح بالأسرة المالكة فى العراق وما أعقبه من نزول القوات البحرية الأمريكية إلى الشواطئ اللبنانية قرب بيروت ، ونزول القوات البريطانية إلى الأردن ومحاولات الولايات المتحدة التخلص من زعامة "عبد الناصر"، وتولى اللواء «فؤاد شهاب» رئاسة الحكومة اللبنانية بدلاً من «شمعون»، وحدوث توتر فى العلاقات المصرية السوفيتية بسبب الوحدة المصرية السورية ، وتعلق الحركات التحررية فى أفريقيا بمصر وبشخصية « جمال عبد الناصر » ومناهضة الولايات المتحدة لذلك ومحاولاتها تقويض النظام المصرى ، وإلى جانب ذلك فقد تعرض هذا الفصل إلى أزمة الباخرة المصرية « كليوباترة » التى رأى اتحاد البحارة الأمريكيين مقاطعتها وعدم تفريغ حمولتها، ورد اتحاد العمال العرب على ذلك بمقاطعة البواخر الأمريكية ، وإلى الصدام فى الكونغو ١٩٦٠ وتدخل الأمم المتحدة ، وإلى محاولات تحسين العلاقات بين مصر والولايات المتحدة ، وإلى مساندة مصر لحركات التحرر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وإلى مؤتمر الدار البيضاء ١٩٦١ والذى كانت اجتماعاته بمثابة ثورة على السياسة الاستعمارية ودعوة لتحرير كافة الأراضى الأفريقية التى مازالت تحت السيطرة الأجنبية ، والالتزام بسياسة عدم الانحياز .

وبعد أن تولى « جون كنيدى » رئاسة الولايات المتحدة ارتكزت سياسته تجاه مصر على خطين متوازيين هما : مساعدة "عبد الناصر" فى المواجهة الدائرة بينه وبين

الاتحـــاد الســـوفيتى ، والثانى هو منع تحويل مصر إلى قوة استراتيجية فى المنطقة تضر بمصـــالح الغـــرب، كما أشار هذا الفصل إلى مراسلات الرئيس « عبد الناصر » مع الرئـــيس « كنيدى » خاصة خطاب الرئيس « كنيدى » إلى « عبد الناصر » حول رأيه فى الحل المناسب للصراع العربى الإسرائيلى وتسوية مشكلة اللاجئين، وإلى انتهاج « عـــبد الناصر » لسياسة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز ، وإلى صدمة الانفصال ، وإلى وقوع الانقلاب فى اليمن الذى أطاح بأسرة « حميد الدين » وأعلن النظام الجمهورى ، ومســـاندة مصر لقادة الانقلاب وقيام السعودية بإيواء « الإمام البدر » وإلى مشكلة تواجـــد العلماء الألمان فى مصر ونجاح إسرائيل فى إبعادهم عنها ، وإلى اتجاه السياسة الأمريكـــية فى الشـــرق الأوسط خلال إدارة « كنيدى » إلى منع حدوث أزمات مع مصر كما حدث فى عهد الإدارات السابقة ، وإلى محاولة إعادة اكتساب بعض النفوذ الـــذى فقدته لمصلحة السوفيت ، عن طريق التقارب مع النظام المصرى ، غير أن هذه المحاولة قد صحبها العمل على تقوية العلاقات والروابط مع إسرائيل .

هـــذا عـــن فصـــول الجزء الأول الخمسة ، أما عن الجزء الثانى والمكون من أربعة فصـــول فقد تضمن الفصل الأول منه والمعنون : «مرحلة تصادم المصالح والسياسات بـــين البلدين» انزلاق العلاقات المصرية الأمريكية بعد اغتيال « كنيدى » من مرحلة الاحـــتواء والمواجهـــات البسيطة إلى مرحلة المواجهة والصدام العلنى والمباشر فى عهد الرئـــيس « جونســـون » . فقد قامت الحكومة الأمريكية خلال هذه الفترة بضغوط شـــديدة عـــلى القاهـــرة فى محاولة منها لترويض القيادة السياسية المصرية وإخضاعها لمصـــالحها باللين أولاً ثم بالقـــوة ثانيًا ، وفشلت فى المحاولتين ؛ فقد هاجـــم الرئيس «عـــبد الناصر» الولايات المتحدة وندد بمساعدتها لإسرائيل ، وطالب بتصفية القواعد الأمريكـــية فى ليبيا وشمال أفريقية ، كما طالب بدعم السلام القائم على العدل وليس بسلام الأمر الواقع ، ثم ازدادت الأزمة فى العلاقات بين مصر والولايات المتحدة توترًا بعـــد زيارة « نيكيتا خروتشوف » للقاهرة فى مايو ١٩٦٤ وإعلان الاتحاد السوفيتى مـــنح مصـــر قروضًا ومساعدة عسكرية بالإضافة إلى مساندة سياسية لا حدود لها فى كفاحهـــا ضـــد إســـرائيل والغرب ، واستغلال ظروف كانت معبأة بأسباب الشك

والتوتر بعد انعقاد مؤتمرات القمة التى دعا إليها "عبد الناصر" واعتبرتما خسارة للجانب الغربى ، ومكسبًا للسياسة السوفيتية ، وبعد موقف مصر من قضية الكونغو ومساندة «عبد الناصر» للقوى الثورية هناك ووقوفه بوضوح تام ضد الاستعمار بكافة أشكاله . وتطرق هذا الفصل إلى حريق المكتبة الأمريكية بالقاهرة ، وإسقاط المقاتلات المصرية لطائرة أمريكية ، ومحاولات أمريكا التأثير على سياسة مصر الخارجية عن طريق وقف معوناتها من القمح لمصر ، وإمداد إسرائيل بالسلاح ورد « عبد الناصر » على ذلك بأن مصر تستطيع الاستغناء عن القمح الأمريكى طالما أن ثمنه هو إرادة الشعب المصرى وكرامته ، وطلبه شراء قمح من الاتحاد السوفيتى ، وإعلانه بأن مصر غير مستعدة لأن تبيع استقلالها مقابل شحنات القمح . كما تعرض هذا الفصل لاتفاقية « جدة » بشأن اليمن وإلى زيارة « أنور السادات » رئيس مجلس الأمة المصرى وقتذاك للولايات المتحدة وفشلها فى تحقيق التفاهم بين البلدين .

ونتيجة المعارضة للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط واقتناع الولايات المتحدة بأن التعايش السلمى مع نظام «عبد الناصر» لم يعد ممكنًا ، فاستقر القرار الأمريكى على التخلص منه عن طريق إطلاق حرية العمل لإسرائيل للقضاء عليه وعلى نظامه الثورى فى المنطقة .

وتناول الفصل الثانى المعنون : « قمة الصدام – الولايات المتحدة وحرب يونيه ١٩٦٧ إطلاق العنان لإسرائيل فى الشرق الأوسط ووضع كل معلومات المخابرات الأمريكية تحت تصرفها ، وتوفير كل إمكانات الحرب الإلكترونية من التشويش إلى الإعاقة وإلى ما هو أكثر من ذلك ، واستدراج « عبد الناصر » لتحطيم صورته كزعيم للعرب . بجره إلى المعركة والتنسيق بين الإسرائيليين وأجهزة المخابرات الأمريكية فى إقناع الروس ، ومن ثم المصريين بأن هجومًا ضخمًا يوشك أن يقع على سوريا بهدف توريط "عبد الناصر" ، ونقل سوريا لنوايا إسرائيل العدوانية إلى مصر مما دفعها إلى رفع حالة الاستعداد فى القوات المسلحة ، وإعلان التعبئة العامة وحشد قواتها فى جبهة سيناء، وسحب قوات الطوارئ الدولية من خطوط الهدنة ، وإغلاق خليج

العقبة أمام السفن الإسرائيلية ، وما أعقب ذلك من قيام الرئيس الأمريكى «جونسون» بمعاونة إسرائيل على كسب الحرب عن طريق توفير عنصر المبادأة لها ، ومنع مصر من القيام بضربة وقائية وذلك عن طريق تأكيده للرئيس « عبد الناصر » أن الولايات المتحدة تقف ضد أى عدوان . هذا بالإضافة إلى استغلاله لأطراف أخرى فى عملية الخداع مثل «يوثانت» السكرتير العام للأمم المتحدة ، الذى وصل إلى مصر للتشاور فى الأمر بالإضافة إلى إشراك الاتحاد السوفيتى فى سيناريو الخداع عن طريق المقابلة العاجلة التى قام بها السفير السوفيتى فى القاهرة للرئيس « عبد الناصر » فجر يوم ٢٧ مايو والتى طلب فيها من الرئيس "ناصر" عدم البدء بالهجوم ، وكان « عبد الناصر » قد تلقى قبل ذلك بساعات رسالة من « جونسون » تحمل طابع التهديد المباشر لمصر ، مما جعل «عبد الناصر» يعلن أن مصر لن تكون هى البادئة بالعدوان ، كما أبدى استعداده لإرسال « زكريا محيى الدين » إلى واشنطن موضحًا أن مصر سوف تدافع عن حريتها ضد أى عدوان يقع عليها ، وبالرغم من ذلك فقد كانت الولايات المتحدة تعلم جيدًا بموعد الضربة الإسرائيلية الجوية التى بدأت ما بين الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ والتى انتهت بهزيمة مؤلمة لمصر والأمة العربية كلها .

وتَعَرَّضَ الفصل الثالث والمعنون : «الولايات المتحدة وضغوط من أجل حل منفرد» لاقتراح الرئيس « جونسون » لمخطط عام للتسوية فى بيانه يوم ١٩ يونيو ١٩٦٧ والذى حدد فيه مبادئه الخمسة ، واتباع الإدارة الأمريكية آنئذ منهج ترك المبادرات الأساسية تتم فى الأمم المتحدة وتركيز جهودها الدبلوماسية على محاولة الوصول إلى قرار فى مجلس الأمن يتضمن مبادئ « جونسون » ويتفق مع الموقف الأمريكى بخصوص التسوية وقضايا الصراع الأخرى . والذى ينحصر فى عدم إدانة إسرائيل ، وعدم إجبارها على الانسحاب دون شروط . وهكذا تميزت الفترة التى أعقبت حرب يونيو ١٩٦٩ بممارسة أقصى الضغوط السياسية والعسكرية والاقتصادية على مصر من أجل الدخول فى حل منفرد مع إسرائيل . وكان مشروع « سيسكو »

تتويجًا لسلسلة من الإشارات والإيماءات والتلويحات سبقته ومهدت له الطريق ، والتى كانت عبارة عن عدد من الغارات الجوية التى استهدفت هيبة النظام وإصابته فى الصميم ، ومع كل ذلك فقد استمرت مصر فى إعادة بناء قواتها المسلحة ، وبدأت تنتقل إلى مرحلة الردع ضد الاحتلال العسكرى الإسرائيلى ، وفى تصعيد حرب الاستنزاف . وعندما تبين للولايات المتحدة وإسرائيل فشلهما فى فرض الأمر الواقع ، وأن مصر بدأت فى القيام بعمليات عسكرية فى الجبهة ، ولمست الولايات المتحدة تزايد الوجود السوفيتى فى المنطقة بدأت فى مراجعة سياستها ، والتخفيف من انحيازها السافر لإسرائيل .

وتناول الفصل الرابع والأخير والمعنون : « الصراع من أجل تسوية شاملة وحرب الاستنزاف» ضغط الولايات المتحدة على مصر والعرب من أجل الرضوخ للحل المنفرد مع إسرائيل ، ولما كان رفض مصر للحل المنفرد يحتاج إلى القدرة على الصمود لمواصلة هذا الرفض ، فقد وقفت الدول العربية جميعًا تدعم رفض مصر للحل المنفرد . وقد شهدت الفترة من يوليو ١٩٦٩ وحتى سبتمبر ١٩٧٠ أكبر قدر من الصراع بين مصر وإسرائيل المدعمة بالمساندة الأمريكية ، واتسمت هذه المرحلة بتحدى مصر للعدو الإسرائيلى والقيام بعمليات حربية ضده داخل سيناء ، كما أصبح الوجود السوفيتى بالطيارين والصواريخ بمثابة عملية ردع سياسى وعسكرى لإسرائيل . وانتهت هذه المرحلة بخوض قوات الدفاع الجوى معارك تساقطت فيها الطائرات الإسرائيلية بأعداد كبيرة مما جعل الولايات المتحدة تشعر بأن الحلول السلمية للتسوية الشاملة أجدى من استمرار القتال فى المنطقة ، وهكذا كانت حرب الاستنزاف التى قرر «عبد الناصر» تصعيدها ضد إسرائيل بمثابة العامل القوى لإفساد خطط إسرائيل والولايات المتحدة بفرض الأمر الواقع ؛ ومن أجل ذلك سعت إدارة الرئيس « نيكسون » إلى البحث عن صيغة لحل شامل لتسوية الصراع حسب القرار ٢٤٢ وكان التصور الأمريكى لتسوية الصراع هو تعهد العرب بقبول التزامات محددة فى اتفاقية سلام مع إسرائيل ، وتعهد إسرائيل بالانسحاب من أراضى محتلة كجزء من اتفاق سلام ملزم يقيم حدودًا آمنة ومعترفًا بها ، ثم دخول الطرفين فى عملية مفاوضات

للاتفـــاق على الشروط والبنود التفصيلية للتسوية . وعلى الرغم من اللحظات القاسية التى واجهتها مصر أثناء حرب الاستنزاف نتيجة للغارات الإسرائيلية فى العمق لم يخرج صـــوت واحد من أفراد الشعب المصرى يشكك فى جدوى تضحيات مصر . وهكذا ارتبطـــت حـــرب الاستنزاف تمامًا بالصراع الذى خاضته مصر من أجل التسوية منذ حرب ١٩٦٧ .

وظَـــلَّ « عبد الناصر » رافعًا رأسه ، رافضًا الخضوع للولايات المتحدة وهو واثق أن الشـــعب المصرى وقواته المسلحة قادرة على تحرير الأرض وطرد العدو الإسرائيلى حتى وافته المنية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فتراجعت مشكلة الشرق الأوسط بعد وفاته إلى الـــوراء لفترة . وهكذا أوضحت لنا هذه الدراسة المهمة تلك السنوات الحاسمة فى صياغة السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، والتى لم يجانبها التوفيق معظم الوقت ، خاصـــة وأنها لم تستوعب تمامًا دروس تجاربها مع الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، فانحـــازت إلى إســـرائيل بشكل سافر . وكانت هزيمة مصر والعرب فى عام ١٩٦٧ مناســـبة لإظهـــار الطريقة التى تتصرف بها سياسة الولايات المتحدة ورغبتها فى فرض الأمر الواقع والرضوخ إلى الحل المنفرد مع الكيان الإسرائيلى .

ع . م . ج .

المحتويات

تقـــــديم ٧
وفاء ورثاء ٩
⊛ حركة المختار الثقافى وملامح الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعة والموالى
- د. صلاح العاوور ١١
⊛ طرز تخطيط مساجد دهلى قبل عصر المغول
- د. أحمد رجب محمد على ٣٩
⊛ بنو زهـــر ودورهم فى ازدهـــار الطب فى الأندلس فى القـــرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلادى
- د. حسن خضيرى أحمد ٧٣
⊛ روسيا الكييفية
- د. وفاء بنت عبد الله المزروع ١١٣
⊛ نظرة الرحالة العرب إلى الغرب فى القرن التاسع عشر
- د. عامر جاد الله أبو جبلة ١٤٣
⊛ نشأة قطر وتطورها حتى عام ١٨٦٨
- د. يوسف إبراهيم العبد الله ١٨٩

⊛ أم الرشـــرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية فبراير ١٨٤١ – مارس ١٩٤٩

– د. فطين أحمد فريد على ٢١٧

⊛ التهويد الثقافى والإقلمى لمدينة القدس وتراثها

– د. خالد عزب ٢٨٩

⊛ موقف الجمهورية العربية المتحدة من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

– د. زكريا أحمد محمد سعد ٣١٧

⊛ موقف المملكة الأردنية من انفصال الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١

– د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى ٣٦٥

⊛ أزمـــة الحـــدود العراقية – الكويتية من استقلال الكويت حتى انضمامها للأمم المتحدة ١٩ يونية ١٩٦١ – ١٤ مايو ١٩٦٣

– فطين أحمد فريد على ٤١١

⊛ مخطوط ابن حيان .. هل من جديد

– د. محمد عبد الحميد عيسى ٤٨٩

⊛ ميناء آياس فى السياسة المماليكية

– أ.د. عادل عبد الحافظ حمزة ٥٠٣

⊛ جهـــود الدولـــة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

– د. عايض بن خزام الروقى ٥٤١

⊛ عرض الكتب ٥٧٣

Mine Ener : Managing Egypt's Poor and the Politics of Benevolence 1800 - 1952, Priceton University Press 2003 (pages 195) ٥٧٥

« برنارد لويس » : أين الخطأ ؟ التأثير الغربى واستجابة المسلمين

ترجمة محمد عنانى ٥٧٧

«إيريك هوبسباوم» و«تيرنس رينجر» (محرران) : اختراع التراث
دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع
ترجمة "شيرين أبو النجا وآخرين" ، مراجعة وتقديم : "عاصم الدسوقى" ٥٧٩
جامعة الدول العربية ، مدخل إلى المستقبل
مجدى حماد ٥٨١
الشريعة والحداثة (مبحث فى جدل الأصل والعصر)
عبد الله على إبراهيم ٥٨٣
الفروسية : الجزء الأول – فنون الفروسية فى تاريخ المشرق والمغرب
عَرَّبه وحَرَّرَه وعَلَّق عليه "شهاب الصرَّاف" ، الرياض ٥٨٥
العلاقات المصرية الأمريكية
فطين أحمد فريد على ٥٨٨